

التفسير والبيان

لأحكام القرآن

تأليف

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

المجلد الرابع

من أخرج جزأ إلى الناس

مكتبة ابن كثير للإسلام والبيان

للإيمان والتزويج بالزنا

تخفيض السعر

التفسير والبيان
لأحكام القرآن

④

جميع حقوق الطبع محفوظة لدار المنهاج بالرياض
الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
المركز الرئيسي - الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - جنوب أسواق المجد
ت : ٤٤٥٦٢٢٩ - فاكس : ٤٦٦٢٠١٤ - فاكس : ٥١٢٢٢ - الرياض ١١٥٥٢
الفروع - طريق خالد بن الوليد (الكناس سابقاً) ت : ٢٢٢٢٠٩٥
مكة المكرمة - الجميزة - الطويق الثاني للحرم - ت : ٩٥٧٦١٣٧٧
الدمية النبوية - أمام الجامعة الإسلامية من جهة الجنوب - ت : ٤١٤٦٧٩٩٩١ -
حساب الكار في موقع تويتر : @Alminhaj

التفسير والبيان لأحكام القرآن

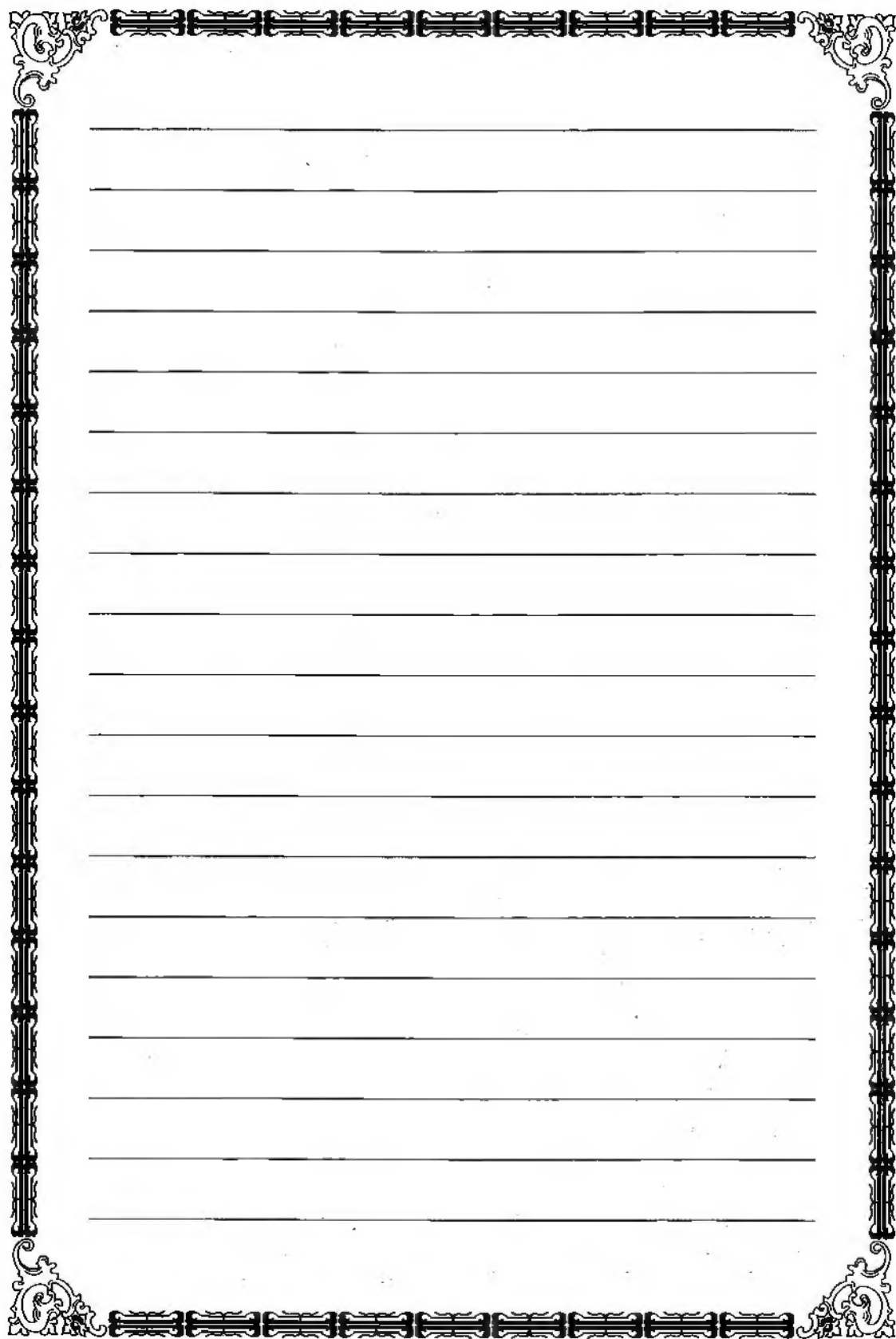
تأليف
عبد العزيز بن مرزوق القطري
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

اعتق به
عبد المجيد بن خالد المبارك

المجلد الرابع
من الخ ج ١ إلى الناس

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض





سُورَةُ الْحَجَرِ

سورة الحجر مكيّة، وقد حُكي الإجماع على ذلك^(١)؛ ولهذا كانت الأحكام فيها قليلة؛ فهي للتذكير والاعتبار للمشرّكين بمن سبقهم، وبيان مُشابهة حجج المعاندين المتأخّرين لأمثالهم من السابقين، وفيها بيان لما في القرآن من الحجج والبراهين الدالة على حق الله على خلقه.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ٩٧ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨].

أخبر الله نبيه بعلمه بما يجده النبي ﷺ في صدره من ضيق وخرج من قول كفار قريش، ثم أمره بالصلاة والذكر عند وجود شيء من الضيق والحزن واشتداد الأمور وصعوبتها.

صلاة الكرب، وإذا خرب الأمر:

وفي هذه الآية: دليل على مشروعية الصلاة عند الشدة وخرب الأمر والهم، وأن من وجد شيئاً من ذلك، شرعت له الصلاة كما تُشرع عند قيام أسبابها؛ كصلاة الضحّا والاستخارة، وهي من ذوات الأسباب وتأخذ حكمها، إلا أن هذه الصلاة غير مقدّرة الركعات؛ فجاء الحث

(١) «زاد المسير» (٥٢٢/٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢٧٢/١).

عليها بلا عَدَدٍ، فَتُصَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَمُضَاعَفَاتِهَا، بِخِلَافِ صَلَاةِ الاسْتِخَارَةِ وَصَلَاةِ الضُّحَا، وَتَحِيَّةِ الْمَسْجِدِ، وَرَكَعَتَيِ الطَّوَافِ، فَالْأَصْلُ فِيهَا أَنَّهَا مَعْدُودَةٌ، وَإِنَّمَا لَمْ يُجْعَلْ عَدَدٌ لِهَذِهِ الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهَا تَعَلَّقَتْ بِأَمْرٍ، وَهُوَ شِدَّةُ الْأَمْرِ وَالْهَمُّ مِنْهُ، فَتُشْرَعُ الصَّلَاةُ حَتَّى يَزُولَ ذَلِكَ السَّبَبُ، كَمَا تُشْرَعُ صَلَاةُ الْكُسُوفِ وَالْخُسُوفِ حَتَّى يَزُولَ السَّبَبُ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْرَعُ إِلَى الصَّلَاةِ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، فَكَانَ يُصَلِّي قُبَيْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَعِنْدَ اجْتِمَاعِ الْأَحْزَابِ، قَالَ حُذَيْفَةُ: «رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ فِي شِمْلَةٍ يُصَلِّي، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»^(١).

وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ بَدْرٍ وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَيَدْعُو حَتَّى أَصْبَحَ»^(٢).

وَالصَّلَاةُ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ الْعَبْدَ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْأُمُورِ، وَإِغْلَاقِ الْأَبْوَابِ، وَانْقِطَاعِ الْأَسْبَابِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وَلَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ بِمُوسَى وَقَوْمِهِ، أَمَرُوا بِالصَّلَاةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَجْعَلُوا يُورَثُكُمْ قِتْلَةَ﴾ [يونس: ٨٧].

وَهِيَ كِفَايَةٌ لِلْعَبْدِ وَعَوْنٌ لَهُ وَلَوْ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ أَمْرٌ، فَكَيْفَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ، وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ الْهَمُومُ؟ وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: قَالَ اللَّهُ: (يَا بَنِي آدَمَ، لَا تَعْجِزُ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، أَكْفِكَ آخِرَهُ)^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْمَرْوُزِيُّ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ» (٢١٢).

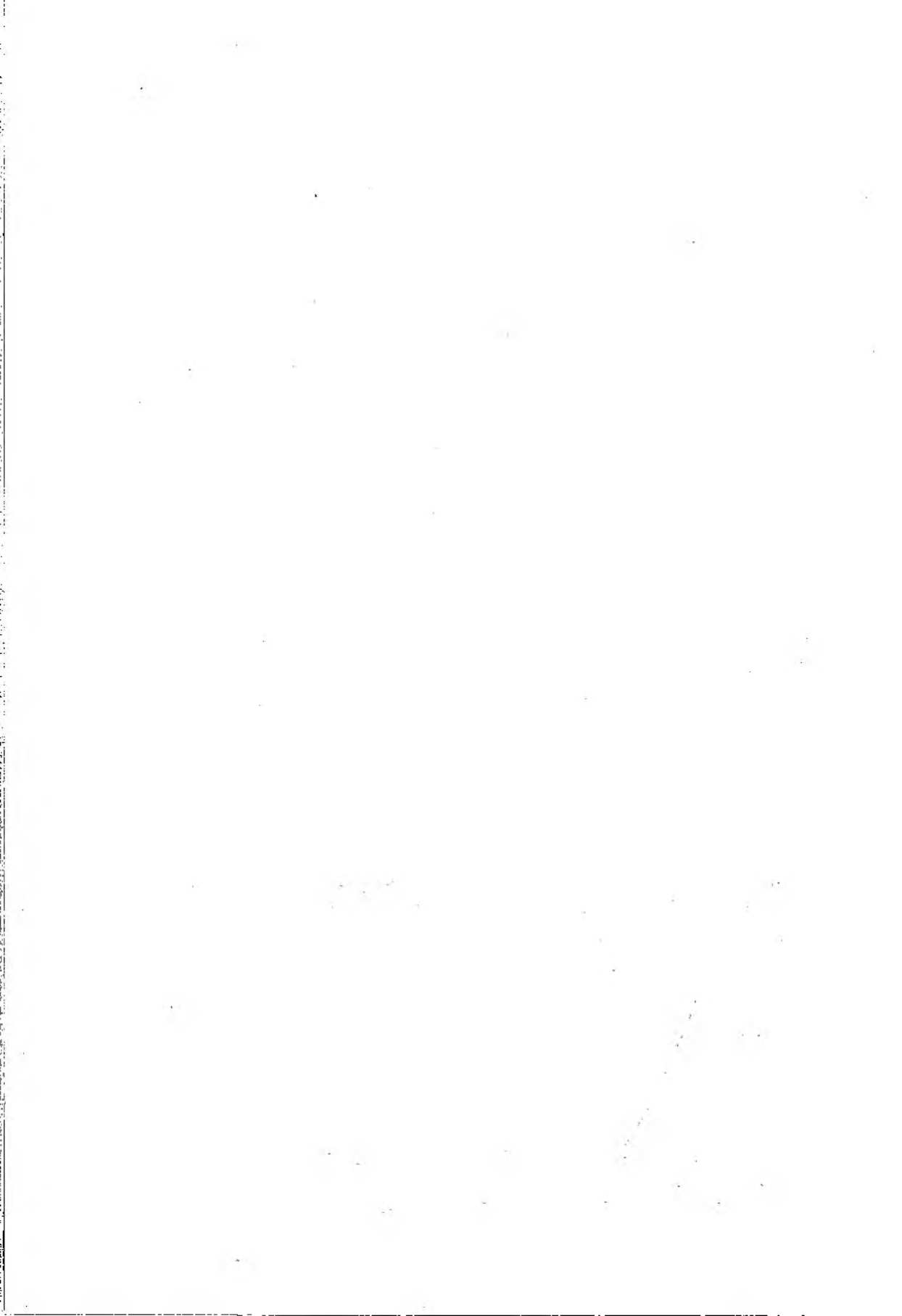
(٢) أَخْرَجَهُ الْمَرْوُزِيُّ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ» (٢١٣)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٨٢٥).

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٨٦/٥)، وَأَبُو دَاوُدَ (١٢٨٩)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٤٦٨).

وكما تُشْرَعُ الصَّلَاةُ عِنْدَ الْكَرْبِ وَإِذَا حَزَبَ الْأَمْرُ، فَيُشْرَعُ الذُّكْرُ،
 وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْضُرُ بَعْضَ الذُّكْرِ دُونَ بَعْضٍ عِنْدَ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَى
 الشَّيْخَانُ؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ:
 (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ
 إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)^(١).



(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).





سُورَةُ النَّحْلِ

وهي مكِّيَّة؛ والأحكام فيها قليلة، فهي تذكر آيات الله ومخلوقاته وتسخير إياها للإنسان، وتذكر نعمة ورزقه له، وما في ذلك من الدلالات على ألوهيته وحقه في العباد، ومنها بضع آيات نزلت بين مكة والمدينة.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءًا وَمَنْفَعًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

إظهار النعمة في هذه الآية بالانتفاع من صوف الأنعام ووبرها وجلودها: دليل على طهارة جلودها.

والآية ذكرت الانتفاع بالجلود والشعر والصوف بقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾، ولم يذكر الذبْح، وذلك لا دلالة فيه صريحة على مسألة جلد الميتة؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر الأكل بعد ذلك فقال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ولا يعني ذلك جواز أكل الميتة، ثم إن الآية جرت على الأصل؛ أن الناس تدبِح بهائم الأنعام ولا تبيتها بخنق وغير ذلك.

وفي الآية قدّم الدفء على الأكل؛ لأنه أظهر في النفع وأكثر؛ فإن الناس تلبس وتستدفئ من الشُّعُورِ والصُّوفِ والجلد أكثر من أكلها للحم، فالاستدفاء والتلبس دائم، والأكل عارض، ثم إن التلبس أدوم وأبقى

فَيَلْبَسُ الْإِنْسَانُ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ وَشَعْرِهَا مَا يَبْقَىٰ مَعَهُ أَعْوَامًا، وَالْأَكْلُ مِنْهَا يَسْتَهْلِكُهُ فِي يَوْمِهِ.

وظاهر القرآن والسنة دالٌّ على أنَّ جلودَ بهائمِ الأنعامِ المذكَاة طاهرةٌ جائزةُ الاستعمال، وهذا لا خلاف فيه.

الانتفاعُ من جلودِ الميتة:

وقد اختلف العلماء في جلودِ الميتة: هل يجوزُ الانتفاعُ بها بعد ذبحها أم تأخذُ عمومَ تحريمِ الميتة؟ على أقوال:

ذهب أكثرُ الفقهاء إلى أنَّ الدِّبَاغَ يُطَهَّرُهَا، والسُّنَّةُ دالَّةٌ على أنَّ جلدَ الميتة إذا ذُبِحَ فهو طاهرٌ؛ وذلك لقوله ﷺ في حديثِ ميمونةَ لما مرَّ بميتة: (هَلَّا أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا فِدْبَغْتُمُوهُ فَاَنْتَفَعْتُمْ بِهِ)^(١)، وقوله ﷺ: (أَيُّمَا إِهَابٍ ذُبِحَ فَقَدْ طَهِّرَ)^(٢).

ولمالك قولٌ أنَّ جلودَ الميتة لا تَطْهَرُ بالدِّبَاغِ، ولكنه يُنْتَفَعُ مِنَ الْجِلْدِ بِالشَّيْءِ الْيَابِسِ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَا يُؤْكَلُ فِيهِ، كما رواه عنه ابنُ عبدِ الحَكَمِ^(٣).

وذهب أحمدُ إلى أنَّ الميتة لا يُنْتَفَعُ منها بشيءٍ؛ لحديثِ عبدِ الله بنِ عُكَيْمٍ^(٤)، وقد ضَعَّفَ الحديثَ ابنُ مَعِينٍ^(٥) وغيره.

(١) أخرجه مسلم (٣٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٩/١)، والترمذي (١٧٢٨)، والنسائي (٤٢٤١)، وابن ماجه (٣٦٠٩).

(٣) «التمهيد» (١٥٦/٤ - ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٣٩٨/١٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣١٠/٤)، وأبو داود (٤١٢٨)، والترمذي (١٧٢٩)، والنسائي (٤٢٤٩)، وابن ماجه (٣٦١٣).

(٥) «تاريخ ابن معين» - رواية ابن معمر (١٢٣/١).

وَأَمَّا جُلُودُ مَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى نَجَاسَتِهِ كَالْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ، فَمَجْمُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى تَحْرِيمِ الْإِنْتِفَاعِ بِجُلْدِهِ، وَلَا يَطْهَرُ بِالدُّبَاغِ، خِلَافًا لِدَاوُدَ وَسُحُنُونَ.

وقد خصَّ مالكُ المنعَ مِنَ الْخِنْزِيرِ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَرِ تَحْرِيمُ الْإِنْتِفَاعِ بِجُلْدِ الْكَلْبِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَى نَجَاسَةً بَدَنِهِ، وَيُخْصَّهَا بِلُعَابِهِ. وَأَمَّا صَوْفُ الْمَيْتَةِ وَشَعْرُهَا، فَهُوَ حَلَالٌ، وَبِهَذَا قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ أَقْوَالِهِ.

وَاسْتَحَبَّ الْمَالِكِيُّ غَسْلَهَا؛ لِمَا رَوَى عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا بَأْسَ بِمَسِّكَ الْمَيْتَةِ إِذَا دُبِغَ، وَلَا بَأْسَ بِصُوفِهَا وَشَعْرِهَا وَقُرُونِهَا إِذَا غُسِلَ بِالْمَاءِ).

وقد رواه الطبراني والدارقطني^(١)، وَلَا يَصَحُّ؛ فَفِيهِ يَوْسُفُ بْنُ السَّفَرِ، وَهُوَ مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ.

وقال الشافعي في أحدِ قوليه بنجاسةَ شَعْرِ الْمَيْتَةِ وَصُوفِهَا، وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.

* * *

❏ قَالَ نَمَالِي: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَیُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾

[النحل: ٦].

فِيهِ: أَنَّ التَّجَمُّلَ بِبَهَائِمِ الْأَنْعَامِ، وَإِظْهَارَ النُّعْمَةِ بِذَلِكَ، وَالْاِكْتِفَاءَ عَنِ الْخَلْقِ: مِنَ الْأُمُورِ الْجَائِزَةِ، وَفِيهِ أَنَّ مِنْ مَقَاصِدِ اتِّخَاذِ بَهَائِمِ الْأَنْعَامِ جَمَالَهَا فِي غُدُوِّهَا وَرَوَاجِهَا، وَفِيهِ جَوَازُ شِرَائِهَا وَبَيْعِهَا لِأَجْلِ جَمَالَهَا؛ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ يُغَالِي بِشَمَنِ شَاةٍ أَوْ جَمَلٍ أَوْ بَقَرَةٍ لِّلْوَنِهَا

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/٢٥٨)، والدارقطني في «سننه» (١/٤٧).

وطولها، ولو لم يكن ذلك لأجل لحمها وصوفها ولبنها، فقد ذكر المنافع وعدها، وهي: (الأكل)، و(الدَّفء)؛ يعني: من جلودها وشعرها وصوفها ووبرها، و(جَمَالُها)، ثم ذكر بعد ذلك حَمْلُ الأثقالِ وشَرْبُ الألبانِ في قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧]، وقوله: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وما ذكره الله من النعم، فيجوز جعل قيمة له، ولكن الله قد جعل الجمال بعد منفعة الأكل والدَّفء؛ لأنَّ تقديمه عليها يكون من باب الفضول والسرف، ويفعله غالباً أهلُ الغنى والبطر، ومع جواز شراء الأنعام وبيعها لجمالها، إلا أنه يحرم المغالاة في ذلك، كما يفعله أهلُ المِباهاة اليوم ببيع الإبل والغنم بألوف مؤلفة وملايين كثيرة مما يغني قبائل بأسرها، ويُطعم فقراء بلد كامل من أطايب اللحم، ويكسوهم من أجود الجلود والشعر، فهو إن حُرِّم فيحرم لأجل السرف والمِباهاة، لا لأجل كون البيع يكون للجمال؛ فإن الله ذكره وعده نعمة.

ويجوز اتخاذ الأنعام والبهايم لإظهار العقبة والعناء عن الناس؛ لما ثبت في قول النبي ﷺ في الخيل في الصحيحين: (وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعَفُّقًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظَهْرِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ)^(١).

وقد ذكر النبي ﷺ أن بعض الأنعام تُتخذ لعز أهلها وكفايتهم وإظهار غناهم عن الناس، لا فخراً ولا بطراً، كما قال ﷺ: (الإبل عز لأهلها، والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة)؛ رواه ابن ماجه^(٢)، وأصله في «الصحيحين» بذكر الخيل فقط^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٦)، ومسلم (٩٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣).

وَأِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ الْعِزَّ فِي الْإِبِلِ؛ لَأَنَّهَا أَكْثَرُ الْأَنْعَامِ مَنَافِعَ، فَيُنْتَفَعُ مِنْهَا بِاللِّبَاسِ وَالْأَكْلِ وَاللِّبَنِ وَالْحَمَلِ وَالْغَزْوِ، وَلَكِنْ لَا يُكْرَهُ عَلَيْهَا وَلَا يُقْرُ.

والبركة في الغنم؛ لكثرة نمائها، وما فيها من السكينة في نفسها وعلى أهلها.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِنْ بَلَغْتَ ثَمَرَكُمْ تَكُونُوا فِيهِ إِلَّا يَشِقُ الْإِنْسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْغَالُ وَالْحَمِيرُ لِرَّكْبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧-٨].

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ، وَذَكَرَ مَنَافِعَهَا، وَعَدَّهَا بِأَنَّهَا الْإِنْتِفَاعُ بِجُلُودِهَا وَشَعْرِهَا وَصُوفِهَا وَأَكْلِهَا وَجَمَالِهَا -: ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَمْلَ الْأَثْقَالِ.

أنواع الانتفاع من الأنعام والدواب:

وَفَرَّقَ سَبْعَانَهُ بَيْنَ حَمْلِ الْأَثْقَالِ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، وَبَيْنَ الرِّكْوِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِرَّكْبُوهَا﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّ حَمْلَ الْأَثْقَالِ؛ يَعْنِي: الْمَتَاعَ وَالزَّادَ فِي الطَّرِيقِ، وَالرِّكْوُ رِكْوُ النَّاسِ عَلَيْهَا فِي الْأَسْفَارِ؛ وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ بَهَائِمِ الْأَنْعَامِ:

أَمَّا الْغَنَمُ: فَلَا تُرْكَبُ بِالْإِتِّفَاقِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ تَعْذِيبٌ لَهَا؛ فَهِيَ لَا تَحْتَمِلُ رَاكِبَهَا، فَإِذَا كَانَتِ الْبَقْرُ لَا تُرْكَبُ، فَالْغَنَمُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَلَكِنْ قَدْ يُوَضَّعُ عَلَى الْكَبِيرِ مِنْهَا خَفِيفُ الْمَاءِ وَنَحْوُهُ مِمَّا تَحْمِلُهُ عَادَةً.

وَأَمَّا الْبَقْرُ: فَتَحْمِلُ سِيرَ الْأَثْقَالِ، وَلَكِنَّهَا لَا تُرْكَبُ؛ لِأَنَّهَا لَا تَقْوَى عَلَى حَمْلِ صَاحِبِهَا، وَلَمْ تُخْلَقْ لَذَلِكَ، وَلَكِنْ يَجُوزُ حَمْلُ بَعْضِ الْأَثْقَالِ

عليها ممّا تَحْمِلُهُ عادة؛ كَالِهَةِ الْحَرْثِ الَّتِي تَجْرُهَا وَشِبْهِهَا، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ ﷺ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً لَهُ، قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، انْتَفَثَتْ إِلَيْهِ الْبَقْرَةُ، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أَخْلُقْ لِهَذَا، وَلَكِنِّي إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ)، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ - تَعَجُّبًا وَفَزَعًا - أَبَقْرَةً تَكَلِّمُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (فَإِنِّي أَوْمِنُ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ)^(١).

وَأَمَّا الْإِبِلُ: فَيَجُوزُ اتِّخَاذُهَا لِحَمْلِ الْأَنْقَالِ وَالرُّكُوبِ بِلَا خِلَافٍ.

وَيُكْرَهُ الْبَقَاءُ عَلَى ظَهْرِ الدَّوَابِّ بِلَا سَيْرٍ وَحَاجَةٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤْذِيهَا، وَالرُّكُوبُ مَعَ الْحَرَكَةِ يَسِيرُ عَلَيْهَا، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: (إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِلُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَبْلُغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْبَلَدِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ)^(٢).

وَيُرْوَى مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ الْجُهَنِيِّ: «لَا تَتَّخِذُوهَا كِرَاسِيًّا»؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ^(٣).

وَلَا بُشْكُلُ عَلَى ذَلِكَ وَقُوفُهُ عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ فِي عَرَفَةِ وَيَوْمِ النَّحْرِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَقَفَ مَوْقِفًا يُرِيدُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ فَيَقْنَدُوا بِهِ، لَا أَنْ يَسْتَتِرَ عَنْهُمْ؛ وَهَذَا مِنَ الْمَصَالِحِ الَّتِي تَفُوقُ رُكُوبَ الْإِبِلِ بِالسَّيْرِ بِهَا وَالْحَمْلَ عَلَيْهَا.

وَالْمَرَادُ: كِرَاهَةُ إِذْءَاءِ الْبَهَائِمِ وَتَكْلِيفِهَا مَا لَا تُطِيقُ، وَعَدَمُ اسْتِعْمَالِهَا بِغَيْرِ حَاجَةٍ وَضَرُورَةٍ، وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا: (لَوْ خَفِرَ لَكُمْ مَا تَأْتُونَ إِلَى الْبَهَائِمِ، لَغَفِرَ لَكُمْ كَثِيرًا)، وَرُويَ مَوْقُوفًا^(٤)؛ وَالْمَوْقُوفُ أَصَحُّ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٦٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨٨).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٥٦٧). (٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٣٩/٣).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٤١/٦).

وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى لِلْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ وَتَخَصُّبِهَا بِالرُّكُوبِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّابِقَ مِنَ الْأَنْعَامِ لَا يُرْكَبُ، وَهِيَ الْغَنَمُ وَالْبَقَرُ، وَأَمَّا الْإِبِلُ، فَتُرْكَبُ وَتَحْمِلُ الْأَثْقَالَ بِلَا خِلَافٍ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهَا اللهُ تَعَالَى فِيهَا يُرْكَبُ؛ لِأَنَّ النُّعْمَةَ فِيهَا بِمَا تَشْتَرِكُ فِيهِ مَعَ غَيْرِ الْمَرْكُوبِ أَظْهَرُ، وَهِيَ اسْتِعْمَالُ الْجُلُودِ وَالصُّوفِ وَحَمْلُ الْأَثْقَالِ؛ فَهُوَ أَكْثَرُ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ مِنْ رُكُوبِهَا، وَأَمَّا الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ، فَيُتَنَفَّعُ مِنْهَا بِالرُّكُوبِ أَكْثَرَ.

لُحُومُ الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْبِغَالِ:

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِزْقِكُمْ﴾ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ أَكْلِ لُحُومِ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَلَا الْإِنْتِفَاعِ بِجُلُودِهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ صَرِيحَةً فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذِكْرَهَا فِي سِيَاقِ الرُّكُوبِ هُوَ كَذِكْرِ الْجَمَالِ فِي سِيَاقِ حَمْلِ الْأَثْقَالِ: لَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ رُكُوبُهَا.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ عَلَى قَوْلَيْنِ:

وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ: عَلَى حِلِّ لُحُومِهَا.

خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ وَقَوْلِ لِمَالِكٍ؛ فَقَدْ كَرِهَهَا، وَالْمَعْتَمِدُ فِي مَذْهَبِهِ تَحْرِيمُهَا.

وَالصَّوَابُ: حِلُّهَا؛ فَقَدْ أَكَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قَالَتْ: «نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَرَسًا، فَأَكَلْنَاهُ»^(١).

وَقَدْ رَوَى الدَّارِقُطْنِيُّ؛ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكُنَّا نَأْكُلُ لُحُومَ الْخَيْلِ وَنَشْرَبُ أَلْبَانَهَا»^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٥١٠)، وَمُسْلِمٌ (١٩٤٢).

(٢) أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (٢٨٨/٤).

وقد استدَلَّ مَنْ قال بكراهة أكل لحومها بدليل الخطاب في الآية؛ حيث ذَكَرَهَا اللهُ للركوب ولم يَذْكُرْهَا للأكل، واللام في قوله: ﴿لَتَذْكُرَنَّهَا﴾ للتعليل، فذكر الله علة خلقها لها، والعلة المنصوصة تُفيد الحصر.

وهذا الإطلاق فيه نظر؛ وذلك لو صحَّ، لكان مانعاً من ركوب الإبل؛ فالله ذَكَرَهَا في الأكل والدَفْنِ وَحَمْلِ الأثقال، ولم يَذْكُرْهَا في الركوب، وإنما المراد: أَنَّ الله يَذْكُرُ أَظْهَرَ النِّعَمِ في البهائم، وليس في ذلك حصرها، ولو كانت الآية حاصرة، لامتنع لذلك جواز حرث الأرض بالبقر وغيره.

وأما الاستدلال بحديث خالد بن الوليد؛ أَنَّهُ قال: «نَهَى رسولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْلِ لَحُومِ الْخَيْلِ، وَالْبَعَالِ، وَالْحَمِيرِ، وَكُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ»، فقد رواه أبو داود^(١) وغيره، ولا يصح؛ أعْلَهُ البخاري وغيره^(٢).

ثم إنَّ سورة النحل مكيَّة بلا خلاف، وأحاديث إباحة لحوم الخيل مدنيَّة بلا خلاف، ثم إنَّ الآيات المكيَّة يُراد منها ذِكْرُ وجوه الاعتبار وحِجْمُ اللهِ في خلقه، وليس المراد بذلك تفاصيل التشريع وحدوده؛ فذلك إنما يكون في السور المدنيَّة، والمكيَّة يَغْلِبُ فيه الاعتبار لا التشريع.

وعامة السلف على حِلِّ لحوم الخيل، إلَّا ما رُوِيَ عن ابن عباس، وقد جاء حِلُّ أَكْلِهَا عن جماعة؛ كعبد الله بن الزبير، وفضالة بن عبيد، وأنس بن مالك، وأسماء بنت أبي بكر، وبه قال كبار التابعين: سُوَيْدُ بْنُ غَفْلَةَ، وَعَلْقَمَةُ، وَالْأَسْوَدُ، وَعَطَاءُ، وَشُرَيْحُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ.

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٩٠)، والنسائي (٤٣٣٢)، وابن ماجه (٣١٩٨).

(٢) فشرح النووي على مسلم (٩٦/١٣).

وَأَمَّا الْحَمِيرُ، فَالْحَمِيرُ عَلَى نَوْعَيْنِ: أَهْلِيَّةٌ وَوَحْشِيَّةٌ، وَالْمَقْصُودُ فِي
الآيَةِ الْحُمْرُ الْإِنْسِيَّةُ؛ لِأَنَّ الْوَحْشِيَّةَ لَا تُرْكَبُ؛ لِأَنَّهَا تُنْفِرُ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّهُ
ذَكَرَ فِي الْآيَةِ نِعْمَةَ الرُّكُوبِ، وَالْحُمْرُ الْأَهْلِيَّةُ يَحْرُمُ أَكْلُهَا، وَقَدْ حَكَّى
الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُهُمْ؛ كَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ^(١)، وَغَيْرِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي
«الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ
عَنْ لُحُومِ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ»^(٢).

وَمِثْلُهُ عِنْدَهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ^(٣).

وعلى ذلك عملُ الصحابةِ في تحريمِ أكلِ لحومِ الحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ؛
كما قال أحمدُ: «خَمْسَةُ عَشَرَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كَرِهُوا»^(٤).

وَأَمَّا حِمَارُ الْوَحْشِ، فَحَلَالٌ أَكْلُهُ، وَقَدْ أَكَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ،
كما في «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ صَادَ حِمَارًا وَحْشِيًّا
وَأَتَى بِقِطْعَةٍ مِنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَكَلَ مِنْهُ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ ﷺ: (هُوَ حَلَالٌ؛
فَكُلُوهُ)^(٥).

وَأَمَّا حِمَارُ الْوَحْشِ الَّذِي يَسْتَأْهِلُ، فَيَبْقَى عَلَى أَصْلِهِ فِي جِلِّهِ،
وَحِمَارُ الْأَهْلِ إِذَا تَوَحَّشَ يَبْقَى عَلَى أَصْلِهِ فِي تَحْرِيمِهِ؛ كما قال الشافعي؛
لِأَنَّ خُلُقَ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ يُبَايِنُ خُلُقَ الْحُمْرِ الْوَحْشِيَّةِ مُبَايَنَةً يَعْرِفُهَا أَهْلُ
الْخَبْرَةِ بِهَا.

وَأَمَّا الْبِغَالُ: فَهِيَ مَا تَوَلَّدَتْ مِنْ أَصْلَيْنِ مُحَرَّمٍ وَمُبَاحٍ، أَوْ مِنْ مَبَاحَيْنِ،
فَإِنْ تَوَلَّدَتْ مِنْ مَبَاحَيْنِ؛ كَأَنَّ تَكُونَ أُمُّهُ فَرَسًا وَأَبُوهُ حِمَارًا وَخَشٍ، فَهُوَ

(١) «التَّهْبِيدُ» (١٠/١٢٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢١٩)، وَمُسْلِمٌ (١٩٤١).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٥٢٧)، وَمُسْلِمٌ (١٩٣٦).

(٤) «الْمَغْنِي» (١٣/٣١٧).

(٥) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٨٢٣)، وَمُسْلِمٌ (١١٩٦).

مباح؛ لأن أصله مباح، وأما إن تولد من أصليْن أحدهما مباح والآخر محرّم؛ كالحمار الأهلي والفرس، فقد حكى الاتفاق غير واحد على تحريم أكله، وقد روى أبو داود؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: «ذُبَحْنَا يَوْمَ خَيْبَرَ الْخَيْلَ، وَالْبِغَالَ، وَالْحَمِيرَ، فَتَهَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَلَمْ يَتَهَنَّأْ عَنِ الْخَيْلِ»^(١).

وقد سئل قتادة عن البغال؟ فقال: وهل هي إلا حمار؟^(٢).

وعلى هذا عامة السلف، وعن مالك قولان: الكراهة المغلظة، والتحريم، ومحققو أصحابه يقولون بالتحريم.

وقد اختلف الفقهاء في الحيوان المتولد من أصليْن محرّم ومباح كالبلبل:

فمنهم: من يغلب التحريم مطلقاً؛ وهم الجمهور.

ومنهم: من يجعله يتبع أمه مطلقاً؛ وهو قول أهل الرأي من الحنفية، ويختلف قولهم بحسب خلافهم في الأم؛ فالبلبل الذي أمه أتان يحرم أكل لحيمه؛ لأنه تتبع للأمه، والذي أمه فرس فيختلفون فيه على خلافهم في أكل الخيل؛ فهو مكروه عند أبي حنيفة، ومباح عند صاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

والأظهر: أنه يغلب عليه التحريم؛ وهذا عام في كل من كان منه التولد من أصليْن مختلفيْن مثل السبع الذي يكون متولداً بين الذئب والضبع، والعسبار المتولد بين الضبعان والذئبة.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٥٦)، وأبو داود (٣٧٨٩).

(٢) «المغني» (١٣/٣١٩).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾﴾ [النحل: ١٤].

تقدّم الكلام على صيد البحر ومبتيه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ مِنْ لَحْمٍ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَى لَكُمْ وَلِلنَّسَاءِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُم صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

وفي الآية: دليل على حِلِّ حِلْيَةِ الْبَحْرِ وطهارة عَيْنِهَا، والإطلاق في قوله: ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على جواز حِلْيَةِ الْبَحْرِ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّحْلِي مِنْ عَادَةِ النِّسَاءِ، غَلَبَ عَلَيْهِنَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: ١٨]، والمراد المرأة، ولكن لو تحلّى الرجل بحلْيَةِ الْبَحْرِ بالتختم بخاتم اللؤلؤ وغيره من الجواهر، جاز ذلك بلا مُشَابَهَةٍ لِصِفَةِ لُبْسِ النِّسَاءِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ اللَّبْسَ وَلَمْ يَخْصُصْ رِجَالًا وَلَا نِسَاءً؛ لِأَنَّ حِلْيَةَ الْبَحْرِ لَيْسَتْ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً وَلَا حَرِيرًا؛ وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الرِّجَالِ بِلا خِلَافٍ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: (إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورٍ أُمَّتِي^(١)).

ويُستثنى من ذلك تحليّة السيف؛ باعتبار أنها ليست ملبوسة؛ بل مستعملة، وكل ما يستعمله الرجل من الذهب والفضة ولا يكون ملبوساً كالقلم والدواة والمفتاح، فالأصل فيه الحِلُّ، والأرجح حِلُّ استعمالِ الذهب والفضة من ذلك للرِّجَالِ.

(١) أخرجه أحمد (١/١١٥)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي (٥١٤٤)، وابن ماجه (٣٥٩٥).

ويحرمُ على الرجال والنساء الأكلُ في صحائف الذهب والفضة، والأكلُ في آتيتهما؛ سواء كانت الأواني والصحائف من ذهب خالص أو مطلية بالذهب؛ فالحكمُ لما ظهر منها.

وليس في الحلّي المستعمل والمُعَارِ زكاة؛ كما تقدّم بيانه عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُوَفُّوهُا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وتقدّم الكلامُ على ركوب البحر وأحواله، وحكم الغزو فيه وفضله، عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ لِيْلَةٌ يَبْجِ طَيْفَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَلَّتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطَوَائِفِهَا مِنْ بَيْنِ قُرْبَىٰ وَدِمْرٍ لِّبَنَىٰ خَالِصًا سَافِكًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

في هذه الآية: حلُّ الألبان من بهيمة الأنعام، وما أحلَّ الله لحمه فإن لبنه حلال؛ وذلك لأنَّ اللحم أصلُ اللبن فرغ، وضررُ اللحوم أشدُّ من ضررِ الألبان؛ وذلك لأنَّ اللبن يتحوّل من طعام تحوّلًا خفيفًا، بخلاف اللحم؛ فإنَّ طعام البهيمة يتحوّل إلى لحم في بدنها في وقت أطول من اللبن، فما حلَّ لحمها من البهائم، فإنَّ لبنها حلالٌ من باب أولى كالخيل، وما حرّم لحمها، فلبنها حرام؛ كلبن الحمار.

وأما الاستدلالُ بالقرينة على أن الله ذكّر الأنعام، وهي البهائم من الغنم والبقر والإبل، فذلك دليلٌ خطابٍ على تحريم لبن غيرها؛ ففي هذا نظر؛ لأنَّ الآية مكيّة، ولم تأت ليان محرمات الأطعمة؛

وَأِنَّمَا جَاءَتْ فِي سِيَاقِ الْإِعْتِبَارِ وَذِكْرِ مَنْزِلِ اللَّهِ وَنِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمَوْجِبَةِ لَشُكْرِهِ وَتَوْحِيدِهِ.

وكلامُ أئمةِ المذاهبِ الأربعةِ مُشْعِرٌ بتحريمِ لبنِ الحميرِ، وفي كلامِ الحنفيةِ والشافعيةِ وجهانٍ، والصحيحُ المنعُ، وهذا الذي صوّبه النووي وابنُ الهمام.

ورُويَ عن بعضِ السلفِ؛ كعطاءٍ والزُّهريِّ وطاوسٍ: جوازُ التداويِ بلبَنِ الْأَتَانِ، والأظهرُ منعهُ؛ فما حَرَّمَ أَكْلُهُ وَشَرْبُهُ لَا يَحِلُّ التداويُ بِهِ. وما يَحَرِّمُ أَكْلُ لَحْمِهِ يَحَرِّمُ أَكْلَ وَشَرْبَ شَيْءٍ مِنْهُ، وذلكَ كَبَيْضِ مَا حَرَّمَ مِنَ الطُّيُورِ، فهو حَرَامٌ كَذَلِكَ؛ لِحُرْمَةِ أَصْلِهِ.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾

[النحل: ٧٥].

في هذه الآية: سَلَبُ قُدْرَةِ الْمَمْلُوكِ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الْعُلَمَاءَ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَمْلِكُ بَضْعَ زَوْجَتِهِ، وَيَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ بِالْمِيرَاثِ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَكَهُ سَيِّدُهُ؛ كَمَا حَكَى الْإِتِّفَاقُ الْمَاورِدِيُّ^(١) مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِ.

وقد اختلفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْعَبْدِ فِيمَا إِذَا وَقَعَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ مَلَكَهُ لَهُ سَيِّدُهُ: هَلْ لَهُ تِمَامُ التَّصَرُّفِ فِيهِ بِبَيْعٍ وَشَرَاءٍ أَوْ لَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، هُنَا قَوْلَانِ عَنِ الشَّافِعِيِّ:

قَالَ مَالِكٌ: إِنَّ الْعَبْدَ يَمْلِكُ الْمَالَ بِتَمْلِيكِ سَيِّدِهِ؛ حَتَّى يَجُوزَ لَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ وَيَتَصَرَّفَ فِي الْمَالِ كَيْفَ يَشَاءُ؛ وَهَذَا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ الْقَدِيمِ.

وأما الجديد: فإنه يقول بأنه لا يملك التصرف فيما ملكه سيده؛ لا بيع ولا شراء، إلا بإذن سيده؛ وهذا قول أبي حنيفة.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَادِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا لِكُلِّ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

قدّم الله الانتفاع باللباس كما سبق على الانتفاع بصناعة البيوت من جلود الأنعام وشعرها؛ لأن ستر البدن أولى من الاستئصال بالبيوت، ولو خبر الإنسان بين لباس يستر بدنه بلا دار، أو دار تؤويه عارياً، لاختار ما يستر بدنه؛ لأنه لا يستطيع الانتفاع والضرب في الأرض مع التعري، وهذا يدل على عظمة ستر الأبدان ونعمة الله فيها، وكلا السّترين نعمة: ستر البدن باللباس، وستر الأشخاص بالبيوت والسكن فيها؛ ولكن النعم مراتب.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قرن الله العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى بالنهي عن الفاحشة والبغي؛ لأنه إذا حضر العدل، غاب البغي والفواحش، وهناك تلازم بين صلة الرحم والإفساد في الأرض؛ أن النفوس بينها صلة ومجبولة على الحياء بعضها من بعض، فيحتشمون ويتهيئون من قومهم، وإن أحب

السُّوءَ، نَزَكُهُ لِأَجْلِ أَهْلِهِ وَقَوْمِهِ، فَإِذَا تَقَطَّعَتِ الْأَرْحَامُ، ظَهَرَ الْفَسَادُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وقد تقدَّم الكلامُ على القَرَابَةِ وفضلِ صَلََةِ الرَّحِمِ وَمَرَاتِبِهِمْ فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّسَاءِ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَرَابَةِ الْعَمِّ وَالْخَالِ وَتَفَاضُلِهِمَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، وَتَقَدَّمَ كَلَامٌ عَلَى فَضْلِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ بِالصَّدَقَةِ وَالْهَدِيَّةِ وَقِضَاءِ الْحَاجَةِ فِي مَوَاضِعَ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

أَمَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَنَهَى عَنِ نَقْضِ الْأَيْمَانِ، وَأَوْجَبَ مِرَاقَبَةَ اللَّهِ وَاسْتِحْضَارَ عَظَمَتِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَظَّمَهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي صَدْرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ عَلَى الْعَهودِ وَالْمَوَاقِيقِ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَدِّ قُوَّةٍ أَنْكَلَتْ تَنْخَلُوتُ أَتْمَنَكُمْ نَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَكُمُ الْقِيَمَةُ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّقُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ مَفْصَلًا عَنْ كِفَارَةِ الْأَيْمَانِ، وَحُكْمِ الْيَمِينِ الْعَمُوسِ،

وكفّارتيها، عند قوله تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ﴾ [٧٧]، والمائدة: ﴿لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغُرُوبِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [٨٩].

❏ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

[النحل: ٩٨].

أمر الله بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن؛ لأن الشيطان مع كُرههِ للذكر ونفوره منه، إلا أنه يتسلط على العبد باستحضار معاني السوء ومُتشابهات القرآن ابتغاء للفتنة منه، فيصرفه عن التدبر والتفكير.

والاستعاذة ليست آية في أوائل السور، وليس كلام السلف فيها كالبسملة؛ وإنما الاستعاذة دعاء والتجاء من العبد لربه عند قراءته القرآن.

حُكْمُ الاستعاذة عند القراءة:

ويُشرع عند افتتاح الصلاة بالفاتحة أن يستعِذ القارئ من الشيطان الرجيم، ولا خلاف في ذلك؛ وإنما خلاف السلف في وجوب الاستعاذة عند ذلك على قولين؛ هما روايتان عن أحمد:

فذهبت طائفة: إلى الوجوب؛ وهو قول عطاء والثوري والأوزاعي وداود، وهو رواية عن أحمد اختارها ابن بطة من أصحابنا، وقد حملوا الأمر في الآية على الوجوب، ومن السلف: من يرى وجوب الاستعاذة ولو مرة في العمر؛ فيرون المرأة مُسقطاً للوجوب.

وذهبت طائفة: إلى استحباب التعوذ عند ذلك؛ وهو قول أكثر العلماء، وهو المذهب عند أحمد.

وَالْأَظْهَرُ: أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ لِلِاسْتِحْبَابِ لَا لِلِوَجُوبِ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ أَمْرًا حَمَلَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى الْوَجُوبِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ كَلَامَ السَّلَفِ، وَجَدَ أَنَّهُمْ لَا يُوجِبُونَ الْاسْتِعَاذَةَ، وَيَكَادُ يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِجْمَاعًا، وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ ابْنُ جَرِيرٍ^(١) وَغَيْرُهُ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ الصَّلَاةَ، وَلَمْ يَكُنْ بِأَمْرُهُمْ بِالِاسْتِعَاذَةِ، وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا، لَمَا تَرَكَ ذَلِكَ؛ وَمِنْ ذَلِكَ تَعْلِيمُهُ الْمُسَيِّءَ فِي صَلَاتِهِ، وَهُوَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، فَقَدْ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ، فَقَالَ لَهُ: (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ...) ^(٢)، فَعَلَّمَهُ الصَّلَاةَ، وَلَمْ يُعَلِّمَهُ الْاسْتِعَاذَةَ.

على خلافٍ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ فِي مُوجِبِ الْاسْتِعَاذَةِ فِي الصَّلَاةِ: هَلْ هُوَ لِلصَّلَاةِ أَوْ لِلْقِرَاءَةِ؟

وَمَنْ يَرَى أَنَّهَا لِلصَّلَاةِ، يَرَى الْاسْتِعَاذَةَ وَلَوْ لَمْ يَتِمَّكَ الْمَصْلِيُّ مِنَ الْقِرَاءَةِ؛ فَيَكُونُ حُكْمُهَا مُسْتَقِلًّا كَحُكْمِ الْاسْتِفْتَاكِ؛ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَبُو يُونُسَ.

وجمهورُ العلماء: على أَنَّ الْاسْتِعَاذَةَ لِلْقِرَاءَةِ، وَيَرَوْنَهَا فِي الْفَرَضِ وَالتَّنْفِلِ، وَكَانَ مَالِكٌ يُقَيِّدُهَا بِالنَّفْلِ وَيَكْرَهُهَا فِي الْفَرَضِ.

وَإِذَا لَمْ تَجِبِ الْاسْتِعَاذَةُ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، فَلِئَلَّا فِي خَارِجِهَا مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

(١) تفسير الطبري (١٤/٣٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧).

صَبَّحُ الاستعاذة:

وقد كان النبي ﷺ يستعيذُ بِالْفَاظِ وَصَبَّحُ متعَدِّدةً، وذلك بِحَسَبِ الْمُوجِبِ وَالْمُقْتَضِي مِنَ الْأَحْوَالِ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ) ^(١)، وَمِنْهَا: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ) ^(٢)، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: (أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ) ^(٣)، وَلَهُ اسْتِعَاذَةٌ عِنْدَ دُخُولِ الْخَلَاءِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ) ^(٤)، وَلَهُ اسْتِعَاذَةٌ عِنْدَ الْفَرَجِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: (بِاسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ) ^(٥)، وَلَهُ اسْتِعَاذَةٌ عِنْدَ تَعْوِيذِهِ بَيْنَهُ؛ كَمَا صَنَعَ مَعَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ)، وَذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ^(٦)، وَكَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اسْتِعَاذَةٌ عِنْدَ دُخُولِهِ الْمَسْجِدِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) ^(٧)، وَرُويَ لَهُ اسْتِعَاذَةٌ عِنْدَ نَزُولِ الْمَنْزِلِ ^(٨)، وَعِنْدَ دُخُولِ الْبَلَدِ ^(٩)، وَعِنْدَ خَطَرَاتِ النَّفْسِ وَلَمَّةِ الشَّيْطَانِ ^(١٠).

وَأَمَّا الاسْتِعَاذَةُ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ، فَأَصَحُّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ، وَقَوْلُهُ ﷺ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ

- (١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٢٨).
- (٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٤٨٦).
- (٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٢)، وَمُسْلِمٌ (٣٧٥).
- (٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٨١/٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (٣٨٩٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٥٢٨)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (١٠٥٣٣).
- (٥) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٧١).
- (٦) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٦).
- (٧) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٨).
- (٨) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٨٧٧٥).
- (٩) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٩٨٨)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (١٠٩٨٥).

أبي سعيد الخُدري^(١)، وابن عمر، ولم يَخْتَلِفِ العلماءُ على هذه الصيغة، وقد حكى الإجماعُ عليها غيرُ واحدٍ؛ كالشاطبي وغيره.

وجاء في «المسند» و«السُنن»: الاستعاذةُ عندَ القراءةِ بقوله: (أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمَزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ، ثُمَّ يَقْرَأُ)^(٢)، كما جاء في بعضِ ألفاظِ حديثِ أبي سعيدٍ ووردَ ذِكْرُهُ في قيامِ الليل؛ كما في «السُنن»، ومنهم مَنْ حكى الإجماعُ على ذِكْرِ «السميعِ العليمِ» فيه؛ كأبي عمرو الداني، وهذا في بعضِ ألفاظِ حديثِ أبي سعيدٍ، ومن حديثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ^(٣)، وابنِ مسعودٍ^(٤)، وأبي أمامة^(٥)، وقد تكلَّمنا على هذه الأحاديثِ في كتاب «العِللِ».

وأما الاستعاذةُ، فلا يُجْهَرُ بها، كما هو الأصحُّ في البسملةِ، وهي أوَّلَى بالإسرارِ مِنَ البسملةِ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»﴾ [النحل: ١٠٦].

نَزَلَتْ هذه الآيةُ في عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ لَمَّا عَذَّبَتْهُ قُرَيْشٌ، وأَكْرَهُوهُ على قولِ الكُفْرِ؛ كما رواه الحَاكِمُ والبيهقيُّ، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه؛ قال: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، فَلَمَّ

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠/٣)، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢).

(٣) أخرجه أحمد (٨٠/٤)، وأبو داود (٧٦٤)، وابن ماجه (٨٠٧).

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٣/١)، وابن ماجه (٨٠٨).

(٥) أخرجه أحمد (٢٥٣/٥).

يَتْرَكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: (مَا وَرَاءَكَ؟)، قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا تُرَكُّتُ حَتَّى يَلُتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: (كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟)، قَالَ: مُظْمِنًا بِالْإِيمَانِ، قَالَ: (إِنْ عَادُوا فَعُدْ) ^(١).

والإكراه المقصود: هو الذي لا اختيار ولا قُدرة للإنسان معه؛ كالتهديد بقتله، أو إتلاف عضو منه، أو تعذيبه بما لا يُطيقه، من قادر على ذلك، ويبقى عادةً لو توعَّد.

ولم يَخْتَلِفِ العلماء على أَنَّ الإسلام يصحُّ مع الإكراه على الكفر، وَمَنْ أَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ وَلَا حَيْدَةَ لَهُ عَنْهُ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مَا دَامَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ.

والتفاضلُ في بابِ الإكراه يَخْتَلِفُ؛ فبعضُ المَقَامَاتِ يَجِبُ فِيهَا الصَّبْرُ وَلَوْ قُتِلَ الْإِنْسَانُ؛ كَمَنْ يَتَبَدَّلُ الدِّينُ بِإِظْهَارِهِ الْكُفْرَ، وَهَذَا كَمَقَامِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَرْخِصِ اللَّهُ لِنَبِيِّ فِي التَّلَبُّسِ بِالْكَفْرِ وَلَوْ قُتِلَ عَلَى إِيْمَانِهِ، وَمِثْلُهُمْ أَعْيَانُ وَرَثَتِهِمْ الَّذِينَ تَعَيَّنَ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ الْوُقُوفُ بِالْحَقِّ وَالثَبَاتُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ مَقَامُهُ فِي قَوْمِهِ كَمَقَامِ النَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ؛ تَفَرُّدًا وَانْقِيَادًا لِلنَّاسِ مَعَهُ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا مَقَامَاتٍ؛ فَمَقَامُهُمْ فِي النَّاسِ كَمَقَامِهِمْ فِي الْعُذْرِ، وَكُلَّمَا ارْتَفَعَ مَقَامُهُمْ، نَقَصَ عَذْرُهُمْ.

ومع وجود الرخصة فقد حكى بعضُ العلماء الإجماعَ على أَنَّ مَنْ اخْتَارَ الْقَتْلَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ الشَّدَةِ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِمَّنْ اخْتَارَ الرِّخْصَةَ.

ولا فرق في الإكراه بين الأقوال والأفعال على الصحيح؛ وهو قول الجمهور، والأشهرُ عن أحمد، ويتعيَّنُ مع فعلٍ أو قولٍ الكفر والمعصية

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٥٧/٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٨/٨).

كراهيتها بالقلب؛ وإلا كان استحلالاً؛ وهو معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾.

وأما ما جاء من حديث عبادة^(١)، وأبي الدرداء^(٢): «لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِعْتُمْ، أَوْ حُرِّقْتُمْ، أَوْ صَلَبْتُمْ»، فهذا عامٌ مخصوصٌ بالقلب؛ وذلك لظاهر الآية: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ عَفْوٌ رَبِّهِ﴾ [النحل: ١١٥].

تقدّم الكلام على المحرمات من بهيمة الأنعام في مواضع، منها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمَ وَلَحْمُ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيلَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّادِقِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

في هذا: أمرٌ بالعدل حتى عند العقاب والانتصار للنفس، فيجب العدل مع الظالم كما يجب العدل للمظلوم، ولما كانت كثير من النفوس

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٩٢٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٤).

يَغِيبُ عَنْهَا الْعَدْلُ عِنْدَ انتصارِها لِنَفْسِها؛ لِمَا جُيِلَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَّشْفِي وَالْأَثَرِ، أَمَرَهَا اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَتَحَرُّي الْإِنْصَافِ عِنْدَ الْإِنْتِصَارِ وَعِقَابِ الظَّالِمِ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِالْمِثْلِ، وَقَدْ جَاءَ بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرِّزُوا سَيِّئَتَكُمْ مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْتَصِرَهُ اللَّهُ إِنْ كُنَّ اللَّهُ لَمَغْفُورٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْإِنْتِصَارِ لِلنَّفْسِ بِمِثْلِ مَا بُغِيَ عَلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وَسَيَأْتِي بَيَانُ أَحْوَالِ الْإِنْتِصَارِ لِلنَّفْسِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [٢٢٧].





سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

سورة الإسراء سورة مكِّيَّة؛ كما قاله ابن عباس وجمهور المفسرين، واختلف في بعض آياتها^(١)، وجاءت في بيان معجزات النبي ﷺ، والتذكير بأحوال السابقين من المعاندين لأنبيائهم، وأمر الله فيها بتوحيده وبيعض أصول الفطرة، وذكر بعض الشرائع العظام والنواهي المؤبقة تعظيماً لها؛ ليعلم الناس أن دين الإسلام دين فطرة؛ لا يخرج عن دعوة الأنبياء جميعاً، ولا عن دواعي الفطرة.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحَسَابِ﴾ [الإسراء: ١٧].

جعل الله دوران الأفلاك؛ لمعرفة الحساب وتحديد المواقيت نفعا للناس في دينهم ودنياهم؛ بها يعرفون أوقات العبادات ومواسمها، وبها يعرفون مصالحهم في دينهم ودنياهم، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٩٧] الكلام على الحكمة من الحساب بالأهلة، وتقدم الكلام على منافع الحساب وحدود الانتفاع منه عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

(١) «زاد المسير» (٧/٣)، و«الدر المتثور» (١٣٨/٩).

وتقدّم في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَمَنْ رَجَعَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٥]
الكلام على التوسعة في استقبال القبلة بدلالة الشمس لا بضبط النجوم.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ إِنَّمَا يَنْفَعُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أَوْىٰ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٣﴾ وَتُكْذِرُ أَكْثَرُ يَمَا فِي نَفْسِكَ ٢٤﴾ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ٢٥﴾ وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرُ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٦].

أمر الله ببرّ الوالدين والإحسان إليهما بمكّة، وقرن برّ الوالدين بتوحيده، وهذا في مواضع؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]. وبرّ الوالدين تدعو إليه الفطرة، وهو من أعظم شيم النفوس؛ فإنها مجبولة على ردّ المعروف إلى من أحسن إليها، وأعظم مُحْسِنٍ عليها من الخلق الوالدان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ استحباب الدعاء للوالدين المسلمين بعد موتهما، وهو من البرّ الذي لا ينقطع.

وقد تقدّم الكلام على برّ الوالدين، وصلّة الأرحام والأقارب، وحدودهم، ومن يجب وصلته منهم، في صدر سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرُ بَيِّنَاتٍ﴾،

فيه فضلُ الإحسانِ بِالمالِ والنفقةِ على المحتاجِ، وقَدَّمَ القَرَابَةَ على غيرِهم؛ لأنَّ النفقةَ عليهم صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ، والهديةُ للأقربينَ التي تُولَّفُ القلبَ ويُوَصَّلُ بها رحمٌ: أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ على بعيدٍ متوسِّطٍ الحاجةِ.

وقد نَهَى اللهُ عن التبذيرِ حتى في الصَّدَقَةِ، والمرادُ بذلك: الإنفاقُ بما يُضِرُّ بِمالِ الرَّجُلِ وأهله وولده وَمَنْ لَهُ حَقٌّ عليه؛ وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَرَاءَهُمْ حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَنِيُّ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وتقدَّم الكلامُ على السَّرَفِ والتبذيرِ وأنواعِهِ وحدودِهِ وكيفيةِ معرفتِهِ، عندَ آيةِ الأنعامِ السابقةِ، وعندَ قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقد أَمَرَ اللهُ بِالْإِنْفَاقِ على مَنْ لَا يُحْسِنُ تَدْبِيرَ المَالِ، ونَهَى عن إعطائِهِ إِيَّاهُ؛ حتى لَا يَضَعُهُ في غيرِ موضِعِهِ؛ إمَّا بِحرامٍ أو بِسَرَفٍ في حلالٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]؛ ولهذا جاء النهيُ عن الوصيةِ فوقَ الثُلُثِ؛ لأنَّ الوصيةَ فوقَ الثُلُثِ تُضِرُّ بالورثةِ، وقد بيَّنَ اللهُ فضلَ الإحسانِ إلى الورثةِ مِن بَعْدِ المَوْتِ بِتَرْكِ مالٍ لَهُمْ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، وعندَ هذه الآيةِ تكلَّمنا على الوصيةِ بالثُلُثِ، وحُكْمِ الوصيةِ بما زادَ عليها، ووصيةِ الرَّجُلِ بِمالِهِ كُلِّهِ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَرَثَةٌ.

❏ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

تقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ [١٥١] وأراد أن الذي رَزَقَ الآباءَ مِنْ قَبْلُ هو الذي يَنْكُلُ بِرِزْقِ الأبناءِ مِنْ بَعْدِ، فالرَّبُّ واحدٌ، فقد كان يَخْشَى الجَدُّ على ولده، فَرَزَقَ الجَدُّ وولده، ثُمَّ خاف الأبُّ على ولده، فَرَزَقَ الأبُّ وولده؛ وهكذا فَرَبُّ الأجيالِ واحدٌ.

وفي قوله تعالى في هذه السورة: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ مع قوله في سورة الأنعام: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ [١٥١]، إشارة إلى أن الله يرزق الوالد بالولد، ويرزق الولد بالوالد؛ بركة متبادلة، ومن ذلك ما في سورة الكهف في مال اليتيمين، قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [٨٢]، وقد يحفظ الله الولد بعمل والده، ولكن لا يُضَيِّعُهُ لضبايع والده؛ فلا تَرَزُّ وَارِزَّةٌ وَزَرٌ أُخْرَى؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَجِيئُهَا﴾ [٣٨] [المائدة: ٣٨] - [٣٩] وهذا في الدنيا والآخرة، فيلحق الولد والده في الخير في الآخرة إن كانا مؤمنين، ولا يلحقه في الشر، وجزاؤه بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَوْا دَرَجَتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ لِنَفْسِهِمْ أُولَئِكَ يَرْجُوهُمْ رَبُّهُمْ وَإِنَّا لَهُمْ قَوِيُونَ﴾ [الشورى: ٢١].

وقد تقدم الكلام على قتل الأولاد في الجاهلية وأسبابه، عند قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افِرًّا عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ٣٣ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ٣٤ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٣ - ٣٥].

في هذا حقُّ الأولياءِ بالقصاصِ والعفوِ في قتلِ العَمَدِ، ولهم العفوُ عن الدِّيَةِ في قتلِ الخطأ؛ فقد بيَّنَ اللهُ أنَّ للوليِّ السلطانَ في ذلك، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يتقدَّم على الوليِّ في ذلك مهما بلغ سلطانهُ وجاههُ وماله. وقد قال ابنُ عباسٍ: «بَيَّنَّ مِنَ اللَّهِ ﷻ أَنْزَلَهَا يَطْلُبُهَا وَلِيُّ الْمَقْتُولِ: الْعَقْلُ، أَوِ الْقَوْدُ؛ وَذَلِكَ السُّلْطَانُ»^(١).

ثمَّ حَذَّرَ اللهُ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ؛ وَذَلِكَ بِالْإِسْرَافِ فِي الْقَتْلِ، فَيُقْتَلُ غَيْرَ قَاتِلِهِ؛ كَمَنْ يَقْتُلُ سَيِّدًا مِنْ أَوْلِيَاءِ الْقَاتِلِ يُرِيدُ أَنْ يَتَشَفَّى مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ نَفُوسَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةً، فَلَوْ قَتَلَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ رَجُلًا قَوِيًّا غَنِيًّا سَيِّدًا، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الضَّعِيفُ الْقَوِيَّ، وَلَا يُقْتَلُ مِنْ قَوْمِ الضَّعِيفِ قَوِيٌّ مِثْلُ الْمَقْتُولِ؛ فَهَذَا سَرْفٌ وَمِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَمِنْ السَّرْفِ قَتْلُ اثْنَيْنِ بِوَاحِدٍ، أَوِ التَّمْثِيلُ وَإِفْسَادُ الْمَالِ مَعَ الْقَتْلِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللهُ نَصَرَ اللهِ لَهُ بِحُكْمِهِ وَفَضْلِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ مَجَاوَزُهُ حُكْمِ اللهِ وَشَرْعِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُعْتَدَى عَلَيْهِ مَنْصُورٌ فِي الْحَالَتَيْنِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْقِصَاصِ فِي مَوَاضِعَ؛ مِنْهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

(١) «تفسير الطبري» (١٤/٥٨٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/٢٣٢٩).

وتقدّم الكلام على مال اليتيم وحفظه والمتاجرة فيه وخلطته، ووقت بلوغه ودفع المال إليه، في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي كُنْتَ قُلٌ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [٢٢٠]، وفي أوائل سورة النساء.

وتقدّم الكلام على الوفاء بالعهد في صدر المائدة، وتقدّم الكلام على التطفيف بالمكئبال والميزان وأخذ العُشور والضرائب عند قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيِزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِمِيزَانِهِ فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ﴾ [الأنعام: ١٧١]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الأنعام: ١٧١].

في هذه الآية: فضل الأخذ باليمين، وأن استعمل اليمين: في الأمور الشريفة والكريمة؛ وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَتُومُونَ﴾ [طه: ١٧]، فقد كان يمسك عصا بيمينه، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَقُولُوا مِن قِبَلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٧٨]، فجعل الخط والكتابة باليمين؛ وهذا هو الأقرب إلى الفطرة، وهو السنة؛ لأن الكتابة شريفة.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّوْكَ إِذَا أَشْمَسَ إِلَىٰ عَسَاقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الأنعام: ١٧٨].

اللوّك: زوال الشمس؛ كما روي عن ابن عباس وابن عمر^(١)؛ يعني: دخول وقت الظهر، ثم في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ عَسَاقِ اللَّيْلِ﴾؛ يعني:

(١) «تفسير الطبري» (٢٥/١٥).

بَقِيَّةُ الصَّلَاةِ: الْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ، ثُمَّ خَصَّ الْفَجْرَ بِالذِّكْرِ؛ كَمَا خَصَّ الظُّهْرَ، فَقَالَ: ﴿وَقَرَأَ الْفَجْرَ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾؛ يَعْنِي: صَلَاةَ الْفَجْرِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: بَيَانٌ لِبَعْضِ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَزِيدُ تَفْصِيلٍ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَدُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَجُدْ لَهُ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

شَرَعَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ التَّهَجُّدَ بِمَكَّةَ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لَهُ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ وَأَعْظَمَهَا بِمَكَّةَ، وَتَقَدَّمَ التَّشْرِيعُ دَلِيلٌ عَلَى الْفَضْلِ؛ لِهَذَا تَقَدَّمَ بَيَانُ التَّوْحِيدِ وَتَشْرِيعُ بَعْضِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ - بِإِذْنِ اللَّهِ - فِي سُورَةِ الْمُزْمَلِ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْتَلْزِمَكَ عَنِ الرُّوحِ قَوْلَ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وَفِي هَذَا: بَيَانٌ لِحَقَائِ أَمْرِ الرُّوحِ، وَأَنَّهَا مِمَّا لَا يَتِمَكَّنُ أَحَدٌ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَضْلًا عَنِ التَّحَكُّمِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ، وَغَايَةُ مَا يَفْعَلُهُ الْعُلَمَاءُ: تَعْرِيفُ الرُّوحِ وَمَحَاوَلَةُ تَمْيِيزِهَا عَنِ النَّفْسِ، وَقَدْ كَتَبُوا فِي ذَلِكَ كَثِيرًا.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: دَلِيلٌ عَلَى بُظْلَانِ مَا يُسَمَّى بِطَبِّ الْأَرْوَاحِ

وعلاجها، فهم إن قصدوا طِبَّ النفوس، فهذا ممكن؛ لمعرفة كثير من أحوال النَّفْسِ مِمَّا ظَهَرَ مِنْهَا وَدَقَّ، وقد أَخْبَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي السُّنَّةِ، عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَمْرِهَا وَمَدَاخِلِهَا، وَتَصَرُّفِهَا فِي صَاحِبِهَا، وَسِيَاسَتِهَا، وَطِبِّهَا وَأَدَوَائِهَا.

وَأَمَّا يَبْطُلُ مَا يُسَمَّى بِطِبِّ الْأَرْوَاحِ؛ لَخَفَاءِ الرُّوحِ بِذَاتِهَا، فَضْلًا عَنْ الْعِلْمِ بِهَا، فَضْلًا عَنْ الْحَدِيثِ عَنْ عِلَاجِهَا؛ فَإِنَّ أَهْلَ الطَّبِّ يَعِجْزُونَ وَيَتَعَسَّرُ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةُ كَثِيرٍ مِنْ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ الْبَدَنِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ وَتَحْدِيدُ عِلَاجِهَا؛ فَكَيْفَ شَيْءٍ أَخْفَاهُ اللَّهُ عَنِ الْإِنْسَانِ؟! وَالْكَتُبُ الْمَصْنُوعَةُ فِي هَذَا الْبَابِ كَكِتَابِ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ هِيَ فِي بَيَانِ حَدِّ الرُّوحِ وَمَحَاوِلَةِ الْوُقُوفِ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَ عَنْهَا، وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ الْوَحْيِ نَكْهَاتٌ، لَا حُجَجٌ وَلَا بَيِّنَاتٌ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الاسراء: ١٠٧ - ١٠٨].

ذَكَرَ اللَّهُ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَذَكَرَ مِنْ أَعْمَالِهِمِ الْخُضُوعَ لِلَّهِ وَخَشْيَتَهُ، وَذَلِكَ بِالسُّجُودِ لِلَّهِ عِنْدَ قِيَامٍ مُوجِبٍ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى أَسْبَابِ السُّجُودِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، وَحُكْمِ السُّجُودِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا اتَّبِعُوا هَذِهِ آيَاتِي فَكُونُوا مِنْهَا حَيَّكُمْ شَعْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْفَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠].

وَحَمَلَ بَعْضُهُمُ السُّجُودَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى سَجُودِ التَّلَاوَةِ؛ لِاقْتِرَانِهِ

بقراءة القرآن، وسجود التلاوة سُنَّةٌ، وعلى هذا عملُ الخلفاء الراشدين والصحابة، وهو قولُ جمهور الفقهاء؛ لما في «الصحيحين»؛ من حديث زيد بن ثابت: «أنَّهُ قرأَ على النبي ﷺ سورة النّجم، فلم يسجد فيها»^(١). وفي البخاري، عن عمر؛ قال: «إِنَّا نُمِرُ بالسُّجُودِ، فَمَنْ سَجَدَ، فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»، وقال ابنُ عمر: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ السُّجُودَ إِلَّا أَنْ نَشَاءَ»^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ مشروعية التسبيح في السجود، ويأتي الكلام على التسبيح في السجود والركوع وحُكْمِهِ عِنْدَ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

* * *

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا وَامْتَخِ بِينَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

سَمَّى اللهُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ صَلَاةً فِي هَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا سَمَّى الصَّلَاةَ قِرَاءًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وهذه الآية نَزَلَتْ بِمَكَّةَ حِينَما كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْهَرُ بِالْقُرْآنِ فَيَنْفِرُ مِنْه كَفَارُ قَرِيشٍ وَيُؤْذُونَهُ، وَرَبَّما خَافَتْ حَتَّى لَا يَكَادُ يَسْمَعُهُ مَنْ يَسْتَخْفِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا فِي «الْمُسْنَدِ» وَ«الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا﴾؛ قَالَ: كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ، رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧٧).

المشركون، سَبُّوا القرآنَ وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآنَ، ﴿وَلَا تَخَافُ يَهَا﴾ عن أصحابك، فلا تُسمِعهم، ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(١).

وهذه الآية تتصل بالدعوة وتبليغ الناس والأخذ بالحكمة في ذلك، ومن العلماء: من حملها على مسألة الجهر بالقراءة في الصلاة وقراءة المأموم خلف الإمام، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].



(١) أخرجه أحمد (٢٣/١) والبخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦).



سُورَةُ الْكَهْفِ

هذه السورة مكية، وهي من العتاق الأول التي نزلت على النبي ﷺ؛ كما قال ابن مسعود في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إِنَّهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهَنْ مِنْ تِلَادِي^(١).

وهي من قصص القرآن للاعتبار والاتعاظ والإعجاز من ذكر خبر الماضين، وأحكامها مستنبطة لا منصوصة، وهي متعلقة بشرع من قبلنا، ومقدار ما ثوابه شريعتنا، وفي هذه المسألة كلام، تقدم شيء منه عند قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

* * *

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِسُوا أَمْدًا﴾

[الكهف: ١٧].

مَكَتْ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي كَهْفِهِمْ سِنِينَ لَا يَعْلَمُونَ هُمْ قَدَرُهَا وَلَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَيْهِمْ كَذَلِكَ، فَلَمْ يَعْلَمْ الْكُفَارُ وَلَا الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ الْقَدْرَ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي الْمَقْصُودِ بِالْحِزْبَيْنِ؛ فَقِيلَ: إِنَّهُمْ قَوْمُ الْفِتْنَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: قَوْمُهُمْ وَغَيْرُهُمْ.

وفي هذه الآية: دليل على أثر علم الحساب والتاريخ في الاعتبار

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٩).

والاعتاظ؛ فقد جعل الله إحصاء معرفة ذلك من آياته، وكلما كان الإنسان أكثر نظراً وسبراً للأحوال وأزمتها وما تغيرت خلالها، كان أكثر اعتباراً من غيره ممن لا يرى إلا المشاهدات ولا يصلها بما مضى من حالها.

وفي هذه الآية: فضل علم الحساب والتاريخ، وفضل تعلمه وتعليمه ونشره للناس، مع بيان أثره على الإيمان بالله، وما فيه من إظهار آياته وقدرته.

والله تعالى قدر على أهل الكهف ما نزل بهم، وقدر زمن بقائهم والناس من حولهم، ويعلم ذلك قبل كونه، بعلم سابق، وبعد بعلم لاحق، فقول: ﴿لِنَعْلَمَ أَى الْحَزِينِ﴾؛ يعني: لنعلم ذلك واقعاً، ويظهر أمرهم علانية، وعلم الله اللاحق موافق لعلمه السابق، لا مخالف له، وعلمه السابق علم بأن هذه الأحداث ستكون، وعلمه اللاحق علم بأنها كانت أو تكون بعد علمه بأنها ستكون، والله يجري الأحداث ليظهر منها أشياء للناس، ويبتليهم ويقيم عليهم الحجة بذلك؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيَبْتَلِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فلما ذكر أنه يبتليهم ليخرج ما في قلوبهم، قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ يعني: أنه يعلمه ولو لم يظهر؛ وإنما يظهره لكم ليعلمه واقعاً، فتروا وتسمعه.

* * *

قال تعالى: ﴿وَنَحْشِبُهُمْ أَيْكَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ [الكهف: ١٨].

ذكر الله مع أصحاب الكهف كلباً، وأضافه إليهم في قوله:

﴿وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾؛ أي: كَلْبُهُمُ الَّذِي كَانَ مَعَهُمْ مِنْ قَبْلُ، لَا كَلْبٌ غَيْرُهُمْ، وَقَدْ عَدَّهُ مَعَهُمْ لِكَوْنِهِ مِنْهُمْ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُصَاحِبًا لَهُمْ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الْكَهْفَ، لَمْ يَذْكُرْهُ فِي الْعَدِّ مَعَهُمْ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدُ: ﴿ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، وَقَالَ: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسْتُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، وَقَالَ: ﴿سَبْعَةٌ وَقَامْنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

وَمِنْ الْقُرَائِنِ كَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَسِيطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾؛ يَعْنِي: فِي فِتْنَاءِ الْكَهْفِ فِي صُورَةِ الْحَارِسِ لَهُمْ لِيُهَيِّبَهُمْ، وَفِي ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَطْلَقْتَ عَلَيْهِمْ لَوْلِيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾؛ يَعْنِي: مِنْهُمْ وَمِنْ كَلْبِهِمْ؛ لِأَنَّهُ مَعْدُودٌ فِيهِمْ.

حُكْمُ اقْتِنَاءِ الْكَلْبِ لِلْجِرَاسَةِ وَغَيْرِهَا:

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الشَّرِيعَةِ: أَنَّ الْأَصْلَ فِي اقْتِنَاءِ الْكَلْبِ الْمَنْعُ؛ وَذَلِكَ لِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ اتَّخَذَ كَلْبًا، إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَةٍ أَوْ صَبَدٍ أَوْ زَرْعٍ، انْتَقَصَ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ) ^(١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ) ^(٢).

وَامْتِنَاعُ الْمَلَائِكَةِ عَنِ الدُّخُولِ دَلِيلٌ عَلَى دُخُولِ الشَّيَاطِينِ وَحُضُورِهَا؛ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ دُخُولِهَا بِلَا حَاجَةٍ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى التَّحْرِيمِ.

وَمِنْ الْعُلَمَاءِ - كَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ ^(٣) - مَنْ حَمَلَ الْحَدِيثَ عَلَى الْكِرَاهَةِ؛

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٢٢)، وَمُسْلِمٌ (١٥٧٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٢٢٥)، وَمُسْلِمٌ (٢١٠٦).

(٣) «التَّمْهِيدُ» (٢٢١/١٤).

لأنَّ الحديثَ يُفِيدُ نُقْصَانَ الأَجْرِ، وَنُقْصَانَ الأَجْرِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ ارْتِكَابُ المَحْرَمِ، وَلَوْ كَانَ يَحْمِلُ الإِثْمَ، لَكَانَ ذِكْرُ الإِثْمِ أَوَّلَى مِنْ ذِكْرِ نُقْصَانِ الأَجْرِ.

وَالْأَظْهَرُ التَّحْرِيمُ؛ لِأَنَّهُ لَا تُحِطُ أَعْمَالٌ بِمِثْلِ هَذَا الْقَدْرِ الدَّائِمِ وَهُوَ قِيَاسٌ إِلَّا عَنْ إِثْمٍ، وَالْأَصْلُ أَنَّهُ لَا يُحِطُ الْحَسَنَاتِ إِلَّا السَّيِّئَاتِ، وَالْأَجُورُ تَنْقُصُ لِسَبَبَيْنِ:

الأولُ: تَنْقُصُ بِسَبَبٍ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَوْ لِأَزْمٍ لَهَا؛ كَعَدَمِ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ الأَجْرَ؛ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا إِلَّا رُبُعُهَا أَوْ ثُلُثُهَا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَمَّارٍ^(١)، وَكَذَلِكَ الْمَنُ الَّذِي يَتَّبِعُ الصَّدَقَةَ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فَهَذَا يُحِطُّ أَجْرَهَا، وَلَا يَلْزَمُ إلْحَاقُ وَزْرِ بَصَاحِبِهَا.

الثاني: تَنْقُصُ الأَجُورُ بِسَبَبٍ خَارِجٍ عَنِ الْعَمَلِ وَغَيْرِ لَازِمٍ لَهُ؛ كإِحْبَاطِ الْجِهَادِ بِالرُّبَا، وَإِحْبَاطِ أَجُورِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ بِاقْتِنَاءِ الْكَلْبِ كَمَا هُنَا، فَإِذَا انْفَلَكَ السَّبَبُ النَّاْقِصُ لِأَجْرِ الْعَمَلِ عَنِ الْعَمَلِ، وَلَمْ يَكُنْ لَازِمًا لَهُ، فَهِنَّ أَمَارَةٌ عَلَى كَوْنِهِ مَحْرَمًا.

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ ذِكْرَ الإِثْمِ أَوَّلَى مِنْ ذِكْرِ نُقْصَانِ الأَجْرِ، فَهَذَا لَيْسَ بِلَازِمٍ؛ فَلَا أَعْظَمَ مِنَ الشَّرْكِ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ إِحْبَاطَهُ لِلْعَمَلِ.

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ يُحِطُّ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ، فَرَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، فَلَا يُحِطُّ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ إِحْبَاطِ الْحَسَنَةِ لِلْسَّيِّئَةِ.

وَالْقِيَاسُ غَيْرُ مَحْدُودِ الْقَدْرِ، وَلَا يَنْبَغِي حَمْلُهُ عَلَى قِيَاسِ شَهَادَةِ الْجَنَازَةِ وَاتِّبَاعِهَا وَأَنَّهُ كَجَبَلٍ أُحْدٍ؛ فَرَحْمَةُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ قَدْرٌ مَقْدَرٌ وَنَصِيبٌ مَحْدَدٌ يُؤْخَذُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٢١/٤)، وَأَبُو دَاوُدَ (٧٩٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٦١٥).

وإنما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ إيجابَ الأجر؛ للترهيبِ منه وبيانِ خطورته،
وإذا افترَنَ بعدمِ دخولِ الملائكةِ ولزومِ ذلك لدخولِ الشياطينِ، كان القولُ
قويًا في التحريمِ.

وظاهرُ الآية: أَنَّ الكَلْبَ في هَوَلِهِ، ﴿وَكَلْبُهُمْ بَكِشٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَيْدِ﴾
كَلْبٌ حِرَاسَةٌ لَهُمْ، وقد اختلفَ العلماءُ في اقتناءِ كَلْبِ الحِرَاسَةِ الذي
يَحْمِي به الرَّجُلُ نَفْسَهُ مِنْ لُصٍّ أَوْ مُعْتَدٍ أَوْ مِنْ حَيَوَانٍ مُفْتَرِسٍ.
وَأَمَّا الْكَلَابُ الَّتِي تُقْتَنَى لِلْمِرَافَقَةِ وَالْمَصَاحَبَةِ وَالْأُنْسِ وَالْمَدَاعِبَةِ
وَيَحْمِيهَا صَاحِبُهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْمِيَهُ هِيَ، فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ
يَكُونَ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ؛ لظَاهِرِ الدَّلِيلِ.

وَأَمَّا كَلَابُ الْحِرَاسَةِ الَّتِي تَحْمِي هِيَ صَاحِبَهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَحْمِيهَا هُوَ،
فقد اختلفَ العلماءُ في ذلك عَلَى قَوْلَيْنِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بِتَحْرِيمِ اقْتِنَاءِ كُلِّ كَلْبٍ غَيْرِ مَا
اسْتِثْنَاهُ الدَّلِيلُ، عَلَى خِلَافٍ عِنْدَهُمْ فِي عَدَدِ مَا اسْتِثْنَاهُ، بِسَبَبِ اخْتِلَافِ
الرَّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ؛ فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ لَمْ يُرَخَّصْ إِلَّا بِكَلْبِ الصَّيْدِ
وَالْمَاشِيَةِ، وَلَمْ يُرَخَّصْ بِكَلْبِ الزَّرْعِ.

وَأَكْثَرُ مَا اسْتِثْنَاهُ الْفُقَهَاءُ مِنَ الْكَلَابِ الْمُحَرَّمَةِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ، وَهِيَ:
الصَّيْدُ وَالْمَاشِيَةُ وَالزَّرْعُ؛ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ^(١)، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقِلٍ^(٢)،
وَلِبَعْضِ الرَّوَايَاتِ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ^(٣).

الْقَوْلُ الثَّانِي: قَالُوا بِالْجَوَازِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا قَامَتْ فِيهِ حَاجَةٌ مُسَاوِيَةٌ
أَوْ أَشَدُّ مِنَ الْحَاجَةِ لِكَلْبِ الصَّيْدِ وَالزَّرْعِ وَالْمَاشِيَةِ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ حُكْمَهُ؛
وَذَلِكَ أَنَّ حَاجَةَ الْإِنْسَانِ فِي حِرَاسَةِ أَهْلِهِ وَنَفْسِهِ أَوْلَى مِنْ حِرَاسَةِ مَاشِيَتِهِ

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٥٧٣).

(١) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٥٧٤).

وَزَرْعِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَاشِيَةَ وَالزَّرْعَ وَالصَّيْدَ؛ لِأَنَّهَا الْغَالِبَةُ فِي الْأَسْتِعْمَالِ، وَقَدْ يُوجَدُ فِي النَّاسِ مِثْلُهَا بِحَسَبِ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَاخْتِلَافِ الْبُلْدَانِ.

وَمِنَ الْقَرَائِنِ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ الْأَحَادِيثِ تَذَكُّرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ الْمَأْذُونِ بِهَا، وَهِيَ الصَّيْدُ وَالزَّرْعُ وَالْمَاشِيَةُ؛ فَفِي بَعْضِهَا ذَكَرَ الثَّانِيَيْنِ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ افْتَنَى كَلْبًا، إِلَّا كَلَبَ مَاشِيَةً أَوْ ضَارِيًا، نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلِّ يَوْمٍ فِرَاطَانٍ)^(١)، فَذَكَرَ كَلَبَ الصَّيْدِ وَالْمَاشِيَةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الزَّرْعَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ السَّابِقِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ ذَكَرَ الثَّلَاثَةَ^(٢)، وَفِي رِوَايَةٍ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ قَالَ: (إِلَّا كَلَبَ حَرْثٍ، أَوْ مَاشِيَةٍ)^(٣)، وَلَمْ يَذْكُرْ كَلَبَ الصَّيْدِ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ التَّمثِيلُ بِالْحَاجَاتِ لَا الْحَصْرُ.

وَيَدْخُلُ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ اقْتِنَاءِ الْكَلْبِ: الْكَلَابُ الْمَدْرَبَةُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُسْكِرَاتِ وَالْمَخْذِرَاتِ وَاكتشافِ المتفجرات؛ فَإِنَّ نَوْعًا مِنَ الْكَلَابِ يُدْرَبُ عَلَى إِطْعَامِهِ أَوْ تَشْمِيمِهِ نَوْعًا مِنَ الْمَوَادِّ الْمُسْكِرَةِ وَالْمَخْذِرَةِ أَوْ فِيهَا مَتَفَجِّرَاتٌ؛ حَتَّى يَعْتَادَهُ، ثُمَّ يُدْمِنُ عَلَيْهِ، فَإِذَا وَجَدَ رَائِحَتَهُ، نَبَحَ وَاتَّجَهَ إِلَيْهِ، وَهَذَا أَعْظَمُ حَاجَةٍ مِنْ كَلَبِ الزَّرْعِ وَالْمَاشِيَةِ وَالصَّيْدِ، وَفِيهِ تَحْقِيقُ مَصَالِحَ عَامَّةٍ عَظِيمَةٍ، بِخِلَافِ الصَّيْدِ وَالزَّرْعِ وَالْمَاشِيَةِ، فَهِيَ مَصَالِحُ خَاصَّةٍ لَا عَامَّةٌ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْمَصَالِحَ الْعَامَّةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٤٨٢)، وَمُسْلِمٌ (١٥٧٤).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٥٧٤) (٥٦).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٢٤)، وَمُسْلِمٌ (١٥٧٥) (٥٩).

وكلُّ ما أُمِرَ بقتله في الشرع، فلا يجوز اقتناؤه ولا يدخل في الاستثناء؛ وذلك كالكلب الأسود البهيم؛ فقد جاء الأمر بقتله، وما أُمِرَ بقتله لا يدخل في الرخصة، قال أحمد بن حنبل: «ما أعلم أحداً يُرخص في أكل ما قتل الكلب الأسود من الصيد»^(١).

وبهذا قال غير واحد من السلف؛ كفتادة والحسن البصري وإبراهيم النخعي وإسحاق.

وقد أمر النبي ﷺ بقتل ثلاثة من الكلاب:

- الأسود البهيم؛ وذلك كما جاء في «المسنَد» و«السُّنن»؛ من حديث عبد الله بن مغفل، عن النبي ﷺ؛ قال: (لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا؛ فَاقْتُلُوا مِنْهَا الْأَسْوَدَ الْبَهِيمَ)^(٢).

- وأمر بقتل ذي النقطتين البيضاوين؛ كما في مسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، حَتَّى إِنَّ الْمَرْأَةَ تَقْدَمُ مِنَ الْبَادِيَةِ بِكَلْبِهَا فَتَقْتُلُهُ، ثُمَّ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِهَا، وَقَالَ: (عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ الْبَهِيمِ ذِي النُّقْطَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ)^(٣).

- وأمر بقتل الكلب العقور؛ وهو ما فيه سعار وعذوان على الناس بالهجوم عليهم وعضهم وتمزيق ثيابهم وقتل مواشيهم؛ وذلك لما ثبت في «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: (خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَبَّةُ، وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحَدْيَا)^(٤).

(١) «المغني» (٢٦٧/١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٥/٤)، وأبو داود (٢٨٤٥)، والترمذي (١٤٨٦)، والنسائي (٤٢٨٠)، وابن ماجه (٣٢٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٧٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

وَمَنْ جَازَ لَهُ اقْتِنَاءُ الْكَلْبِ لِحَاجَةٍ، فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَعَدَّى حَاجَتَهُ؛
فَمَنْ اتَّخَذَهُ لِلزَّرْعِ أَوْ الْمَاشِيَةِ أَوْ الصَّيْدِ، فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَهُ فِي غَيْرِ
مَوْضِعِهِ؛ كَمَنْ يَصْطَرِحُ كَلْبَ الْمَاشِيَةِ فِي سَفَرٍ لَا مَاشِيَةَ فِيهِ، أَوْ
يَصْطَرِحُ كَلْبَ صَيْدٍ فِي السُّوقِ وَالطَّرَافِ الْتِي لَا صَيْدَ فِيهَا؛ وَذَلِكَ لِمَا
رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تَصْحَبُ الْمَلَايِكَةُ رُفْقَةً
فِيهَا كَلْبٌ وَلَا جَرَسٌ) ^(١).

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ بِكُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ
بِرِيقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ
وَلْيَنْتَلِطِفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

قَامَ أَهْلُ الْكَهْفِ بِإِرْسَالِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا مَعَهُمْ مِنْ دِرَاهِمٍ لِيَشْتَرِيَ
مِنَ الْمَدِينَةِ زَادًا طَيِّبًا، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَعَ حِفْرِ وَتَلَطُّفٍ؛ لِأَنَّهُمْ
يَذْكُرُونَ قَوْمَهُمْ عَلَى كَفْرِ فَيَخْشَوْنَ مِنْهُمْ؛ وَلِذَا قَالُوا: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا﴾ ^(١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي
مِلَّتِهِمْ ﴿[الكهف: ١٩ - ٢٠].

وَقَدْ اسْتَجَابَ هَؤُلَاءِ الْغُتْبَةُ لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ كَانَ شَيْوخُ الْمَدِينَةِ وَكِبَارُهُمْ
لَمْ يُؤْمِنُوا، مَعَ أَنَّ الْكِبَارَ أَكْمَلُ عَقُولًا وَلَكِنَّهُمْ أَشَدُّ عِنَادًا وَأَنْفَةً؛ وَلِهَذَا
يُقْبَلُ الْفُتْيَانُ عَلَى الْحَقِّ أَسْرَعَ وَأَشَدُّ مِنَ الشُّيُوخِ، وَهَذَا مَعَ أَكْثَرِ الْأَنْبِيَاءِ،
وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَمَّنْ آمَنَ مَعَ مُوسَى: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾
[يونس: ٨٣]؛ يَعْنِي: فِتْيَانَهُمْ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢/١١٣).

مشروعية الوكالة والنيابة:

وفي هذه الآية: دليل على جواز الوكالة، وهو أن ينوب أحد عن أحد فيما يُريدُه منه، ومن معنى الوكالة: قوله تعالى: ﴿وَالْعَمِلَيْنَ عَلَيْهِمَا﴾ [التوبة: ٦٠]؛ فإنها تتضمن نيابة ووكالة، وقريب منها قوله: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، وقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِمِصْرٍ هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٣٥].

والأصل في الوكالة: الجواز بلا خلاف؛ كما حكاه ابن عبد البر^(١)، وابن قدامة^(٢)؛ وذلك لظاهر القرآن والسنة، وقد أناب النبي ﷺ عن نفسه ووكل غيره عنها، في بيع وشراء ونكاح وقضاء دين؛ ومن ذلك ما رواه الشيخان؛ من حديث أبي هريرة ؓ؛ قال: كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سِنَّ مِنَ الْإِبِلِ، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: (أَعْطُوهُ)، فَطَلَبُوا سِنَّهُ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ إِلَّا سِنًا فَوْقَهَا، فَقَالَ: (أَعْطُوهُ)، فَقَالَ: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَى اللَّهِ بِكَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً)^(٣).

وقد وُكِّلَ النبي ﷺ غُرُوزَ الْبَارِقِيِّ لِيَشْتَرِيَ شَاةً بِدِينَارٍ، فَاشْتَرَى شَاتَيْنِ بِدِينَارٍ، وَبَاعَ وَاحِدَةً بِدِينَارٍ، وَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ^(٤). وكان أبو رافع وكيلاً بين النبي ﷺ وميمونة حين تزوجها^(٥)، ووُكِّلَ عمرو بن أمية الضمري في نكاح أم حبيبة رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ^(٦). وقد وُكِّلَ النبي ﷺ في إثبات الحدود واستيفائها؛ كما أُرْسِلَ

(١) «التمهيد» (١٠٨/٢).

(٢) «المغني» (١٩٧/٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٠٥)، ومسلم (١٦٠١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٤٢).

(٥) أخرجه أحمد (٣٩٢/٦)، والترمذي (٨٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٣٨١).

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢٢/٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٩/٧).

أُنَيْسًا، فقال له: (وَاعْذُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةٍ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَأَرْجُمَهَا)^(١).

والجمهور: على جواز ذلك في الحدود إثباتًا واستيفاءً؛ خلافًا لأبي حنيفة؛ فقد فرّق بين الإثبات والاستيفاء، وقصّة أنيس فيهما جميعًا. وأرسل أقوامًا من أصحابه بكُتُبِهِ إلى الملوك والرؤساء، وجلب الزكاة، وإبلاغ القبائل أمره ونهيّه.

ولا تصح الوكالة إلا بصيغة صحيحة صريحة تتضمن الإيجاب والقبول بين الطرفين، وأن يكون الموكل فيه مملوكًا للموكل؛ فلا تُقبل الوكالة ممن لا يملك التصرف فيه؛ فإنه إن لم يصح منه، فلا يصح من غيره وكالة عنه.

وتصح الوكالة العامة من غير تعيين شيء معين ولا وصفه؛ كالوكالة في البيع والشراء كافة في قول الحنفية والمالكية؛ خلافًا للحنابلة والشافعية الذين منعوا من التوكيل العام؛ لأنه يتضمن جهالة فاحشة تُضر بالناس.

ويجوز توكيل جماعة على أمر واحد، ولا ينفرد الواحد منهم بالأمر عن غيره حتى يتفقا فيه؛ لعموم الأدلة؛ وهذا قول جمهور الفقهاء.

وقد ذهب الحنفية إلى أنه ينفرد كل واحد عن الباقي ولو كانت الوكالة للجميع.

ولا يملك الوكيل توكيل غيره إلا أن يشاء الموكل.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٣١٤)، ومسلم (١٦٩٧).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَنَّهُمْ أَظْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾﴾ [الكهف: ٢١].

كان في أهل الكهف عبرة وعظة للناس، فعظمواهم وأكبروا منزلتهم؛ حتى قال بعض كبارهم من الأمراء والسلاطين: لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا؛ التماساً لصلاحهم؛ لأن الله لا يجعل المعجزة والكرامة إلا لمن أحب؛ وهذا الأمر قاله كبارهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾؛ يعني: أهل الغلبة من ذوي الأمر والقهر.

وهذا الفعل استدلل به بعض الجهال على جواز اتخاذ القبور مساجد، وعلى جواز دفن الصالحين فيها؛ وهذا لا حجة فيه؛ فإن الذين طلبوا ذلك ليسوا المسلمين الصالحين؛ وإنما أهل القهر والتسلط والاستبداد، كما في ظاهر الآية: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾، وقد قال ابن عباس كما في رواية العوفي عنه: «إِنَّ قَاتِلَ ذَلِكَ عَدُوَّهُمْ»^(١).

وما يُذكر في القرآن من أحوال الأمم السابقة لا يجوز أخذه إن خالف ما جاء به شرعة محمد ﷺ، ولو جاز ذلك، لَجَازَ اتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْدُودٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ اصْلَوْا مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ حِدَايَ الشُّكْرِ﴾ [سبا: ١٣]، وقد كان النبي ﷺ ينهى عن التصاوير واتخاذ الأصنام؛ بل يأمر بكسرها وطمسها؛ كما ثبت في «الصحيح»، عن أبي الهيثج الأسدي؛ قال: «قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى

مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ! أَلَا تَدْعُ يَمْنَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِقًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ^(١).

ولا يختلف العلماء على النهي في اتخاذ القبور مساجد ولا وضعها فيها، وفي «الصحيحين»؛ من حديث عائشة مرفوعاً: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)، قالت عائشة: لَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزَ قَبْرُهُ؛ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا^(٢).

وكان النبي ﷺ يُسَمِّي مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ شِرَارَ الْخَلْقِ؛ كما في «الصحيحين»؛ من حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيْسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ يَقَالُ لَهَا: مَارِيَّةُ، فَذَكَرَتْ لَهُ مَا رَأَتْ فِيهَا مِنَ الصُّورِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ - أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ - بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوْرَ؛ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)^(٣).

وقد كان السلف من الصحابة يطبقون على منع بناء المساجد في المقابر، وعلى منع وضع القبور في المساجد، ومنع الصلاة إليها ولو كان خارج المسجد؛ لأنه إنما نُهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ لعلَّ العبادة فيها، ولو لم تكن محلَّ عبادة، لم يُنَه عن ذلك، ونُهي عن البناء على القبور؛ خشية التعظيم الذي يتبعه عبادة ولو بعد قرون، وقد كان الصحابة ينهون عن الصلاة إلى القبر ولو لم يكن الرجل قاصداً؛ لأنَّ في ذلك مشابهةً بالمشركين، وقد روى مسلم؛ من حديث أبي مرزئد؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا)^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤١)، ومسلم (٥٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٢).

وروى ابنُ ماجه وغيره، عن أبي سعيدٍ الخُدريّ رضي الله عنه : «أنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى أَنْ يُبْنَى عَلَى الْقُبُورِ، أَوْ يُقَعَّدَ عَلَيْهَا، أَوْ يُصَلَّى عَلَيْهَا»^(١).

وقد رَوَى ثَابِتُ البُنَانِي، عن أنسٍ رضي الله عنه؛ قال: «كُنْتُ أَصَلِّي قَرِيبًا مِنْ قَبْرِ، فَرَأَنِي عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: الْقَبْرُ الْقَبْرُ! فَرَفَعْتُ بَصَرِي إِلَى السَّمَاءِ وَأَنَا أَحْسَبُهُ يَقُولُ: الْقَمْرُ!»^(٢).

وقد رَوَى قَتَادَةُ، عن أنسٍ؛ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى مَقْبَرَةٍ وَهُمْ يَتَوَنَّوْنَ مَسْجِدًا، فَقَالَ أَنَسٌ: «كَانَ يُكْرَهُ أَنْ يُبْنَى مَسْجِدٌ فِي وَسْطِ الْقُبُورِ»^(٣).

وقال أشعثُ: عن ابنِ سيرينَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ الصَّلَاةَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْقُبُورِ»^(٤).

وعلى هذا يَنْصُرُ الْأَثَمَةُ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ، وَقَدْ نَقَلَ النُّوويُّ^(٥) وَغَيْرُهُ قُتَيْبًا الْعَلَمَاءِ عَلَى إِزَالَةِ مَا يُبْنَى عَلَى الْقُبُورِ مِنْ قِبَابٍ مِمَّا صَنَعَهُ جُهَالُ الْمُلُوكِ، وَالْمَلْبُسُونَ مِنَ الْعَلَمَاءِ، حَتَّى نَقَلَ الْهَيْتَمِيُّ قُتَيْبًا الْأَثَمَةَ بِإِزَالَةِ مَا يُبْنَى عَلَى قَبْرِ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ بِمِصْرَ^(٦).

وقد اخْتَلَفَ الْعَلَمَاءُ فِي الصَّلَاةِ الْمُؤَدَّاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ: هَلْ تَصَحُّ أَوْ تَجِبُ إِعَادَتُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ - هُمَا رَوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ -:

الْأَوَّلُ: أَنَّهَا لَا تُعَادُ؛ وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٠٢٠)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٨١)، وعلقه البخاري قبل حديث (٤٢٧).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٧٩).

(٤) «فتح الباري» لابن رجب (٣٩٨/٢).

(٥) «المجموع» (٢٩٨/٥).

(٦) «تحفة المحتاج» في شرح المنهاج (١٩٨/٣).

الثاني: أنها تُعاد؛ وهذا الأشهر عن أحمد، وعليه عامة أصحابه.
وروي عن أحمد: إعادة الصلاة على من صلى إلى القبور أو صلى
بينها.

الصلاة على الجنازة في المقبرة:

صلاة الجنازة أخف من غيرها؛ لأنه لا ركوع فيها ولا سجود،
وقد اختلف العلماء في حكمها على قولين، - وهما روايتان عن أحمد -:
الأول: الكراهة؛ وهذا قول الشافعي، وبه قال من السلف؛ علي،
وعبد الله بن عمرو، وعطاء؛ وذلك لأن صلاة الجنازة تسمى صلاة،
وفيها من جنس الصلاة المعتادة، وقد جاء النهي عاماً؛ كما رواه أحمد
وأهل «السنن»؛ من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ؛ قال:
(الأرض كلها مسجد، إلا المقبرة والحمام)^(١).

وقد روى الطبراني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ نهى
أن يُصلى على الجنائز بين القبور»^(٢).

الثاني: الجواز؛ وهو مذهب أهل الرأي؛ وذلك أن النبي ﷺ
كان يصلي الجنازة على القبور؛ كما صلى على المرأة التي كانت تقم
المسجد^(٣)، وكان أصحابه يصلون كذلك، وقد ذكر النبي ﷺ رجلاً
مات، فقال: (فدثوني على قبري)، فأتى قبره فصلى عليه؛ رواه
الشيخان^(٤).

وعن ابن عباس: «أنه مرَّ مع النبي ﷺ على قبر منبؤ، فأَمَّهُم،

(١) أخرجه أحمد (٨٣/٣)، وأبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٦٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٣٧)، ومسلم (٩٥٦).

وَصَلُّوا خَلْفَهُ^(١).

وقد صَلَّى على القبرِ جماعةٌ من السلفِ صحابةٌ وتابعين؛ كعليٍّ وأنسٍ وسلمانَ بنِ ربيعةٍ وأبي حمزةٍ ومَعْمَرٍ.

ولم تكن تلك الصلاةُ واجبةً على النبي ﷺ حتى يؤدِّيها، وهناك مَنْ يفرِّقُ بين الصلاةِ في المَقْبَرَةِ على المَيِّتِ المدفونِ فيُجِيزُونَهَا، وعلى المَيِّتِ البارِزِ قَبْلَ الدَّفْنِ، ولا شكَّ أَنَّ المدفونَ أَخَفُّ، والتفريقُ لا يُخْرِجُ الأخرى من الجواز؛ للاشتراكِ في الصورةِ الظاهرةِ التي نُهيَّ لأجلِها عن اتِّخَاذِ القبورِ مساجدَ.

وقد روى عبدُ الرزَّاقِ، عن ابنِ جُرَيْجٍ؛ قال: «قُلْتُ لِنَافِعٍ: أَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَكْرَهُ أَنْ يُصَلِّيَ وَسَطَ الْقُبُورِ؟ قَالَ: لَقَدْ صَلَّيْنَا عَلَى عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَسَطَ الْبَقِيعِ، قَالَ: وَالْإِمَامُ يَوْمَ صَلَّيْنَا عَلَى عَائِشَةَ ﷺ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَحَضَرَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ^(٢)».

ولا خلافٌ عندَ أحمدَ أَنَّ صلاةَ الجنازةِ أَخَفُّ، وأنها لو صَلَّيْتُ لا تَبْطُلُ؛ وإنَّما الخلافُ عندهُ في الكراهَةِ، ولو بَطَلَتْ، لَبَطَلَتْ صلاةُ النبي ﷺ على القبرِ.

وأما حديثُ أنسٍ عندَ الطبرانيِّ، ففي صحَّحِهِ نظرٌ، والصوابُ فيه: أَنَّهُ مِنْ مُرْسَلِ الْحَسَنِ؛ رَجَّحَهُ الدارقطنيُّ^(٣)، وهو محمولٌ إنَّ صحَّحَ على كراهَةِ اتِّخَاذِ مواضعٍ للصلاةِ على الجنازِ وَسَطَ القبورِ، وقد رَوَى ابنُ أبي شَيْبَةَ، عن أنسٍ: «أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُبْنَى مَسْجِدٌ بَيْنَ الْقُبُورِ^(٤)».

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٦)، ومسلم (٩٥٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٩٣).

(٣) «علل الدارقطني» (٧٢/١٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شَيْبَةَ في «المصنف» (٧٥٨٠).

وصلاة الجنائز تختلف عن غيرها؛ فقصد صلاة الجنائز نفع الحي للميت، وقصد الصلوات الأخرى عند القبور نفع الميت للحي، واختلاف العلّة يُغايّر الحكم، وكان السلف يُفرّقون بين صلاة الجنائز وغيرها، وقد روى منصور، عن إبراهيم؛ قال: «كانوا إذا خرجوا من الجنائز، لم يُصلُّوا بين المقابر تطوعاً، فإذا حضّرت صلاة مكتوبة، تنحّوا عن القبور فصّلوا»^(١).

وقد قال أحمد: «لا يُصلّى في مسجد بين المقابر إلّا الجنائز؛ لأنّ الجنائز هذه سُنّتها»^(٢).

ولا خلاف عند العلماء على أنّه لا يجوز دفن الميت قبل الصلاة عليه مع القدرة على ذلك، وأنّه لا يجوز لهم إرجاء الصلاة عليه بعد الدفن وهم مُختارون لها قبل ذلك.

* * *

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا قَسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

في هذه الآية: مشروعيّة الاستثناء عمّا يعزم الإنسان على فعله أو قوله في المستقبل؛ وهو أن يقول: «إن شاء الله»؛ فإنّها تُقال بركة وتوكلًا على الله واستعانة به، وتُقال رفعًا للخروج عند اليمين والوعد بشيء. والاستثناء ينفع صاحبه في إيمانه برّيه ويقينه به وتوكله عليه واستعانيه به ولو كان مُنفصلاً؛ فمن نسيه ينبغي له استدراكه؛ فإنّه يُعلّق القلب بالله، ويُعين على تحقيق الغايات المطلوبة، وفي «الصحيحين»؛

(٢) «فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٤٠٠).

(١) «نسخة أبي مسهر» (٥٥).

مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا طُوقَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَابْنُ الْيَدِيِّ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قُرْسَانًا أَجْمَعُونَ^(١)).

الاستثناء في اليمين:

وَذِكْرُ الاستثناءِ فِي اليمينِ يَحُلُّ عَقْدَهَا؛ فَإِنَّ لِليمينِ عَقْدًا لَا بَدَّ أَنْ يَبْقَى، وَيُحَلُّ بِالاستثناءِ أَوْ الْكِفَارَةِ، وَمَنْ اسْتَشَى عِنْدَ حَلْفِهِ، لَمْ يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ بِاليمينِ؛ لِأَنَّ الاستثناءَ يَحُلُّهَا وَيَجْعَلُ الْحَالِفَ كَأَنَّهُ لَمْ يَحْلِفْ، وَيُرْوَى فِي الْحَدِيثِ مَرْفُوعًا: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنَّ لَهُ ثَنِيَّةً)^(٢).

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو نَحْوُهُ مَرْفُوعًا^(٣) وَمَوْقُوفًا^(٤)؛ وَالْأَرْجَحُ وَفْقُهُ. وَبَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ يَرَى أَنَّ الاستثناءَ يَرْفَعُ الْكِفَارَةَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَحُلُّ اليمينَ.

وَالْأَشْهُرُ: أَنَّهُ حَلٌّ لِليمينِ، وَعَلَى هَذَا عَامَّةُ السَّلَفِ. وَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الاستثناءَ إِنْ كَانَ مُتَّصِلًا بِاليمينِ، فَإِنَّهُ يَرْفَعُ وَجُوبَ وَفَائِهِ بِهَا، وَلَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي حَدِّ الْإِتِّصَالِ الْمَعْتَبَرِ تَأْثِيرُهُ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ، وَفِي الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَنْفَصِلِ خِلَافٌ يَسِيرٌ.

أَمَّا الْإِسْتِثْنَاءُ الْمُتَّصِلُ: فَيَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَا كَانَ اتِّصَالَ الْإِسْتِثْنَاءِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٦٣٩)، وَمُسْلِمٌ (١٦٥٤).

(٢) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٣٠٣/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٠/٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (٣٢٦١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥٣١)، وَالنَّسَائِيُّ (٣٨٢٨).

(٤) «مُسْنَدُ التِّرْمِذِيِّ» (١٥٣١).

بالكلام مع كلمة الحلف والقسم: أنه معتبر التأثير في اليمين، وما لم يتصل بالكلام اختلف فيه:

فمنهم من قال: يُعتبر بالاستثناء ما دام في المجلس؛ وبهذا قال طاوس والحسن.

وقال عطاء والشَّعْبِيُّ والنَّخَعِيُّ: إنه لا يصح إلا موصولاً بالكلام، ولا يضر فصل النفس، وإذا انفصل الحديث في أمر آخر ولو اتَّحد المجلس، فلا اعتبار بالاستثناء؛ وهذا قول جمهور العلماء؛ كمالك والشافعي والأوزاعي.

وعن أحمد: أنه ما دام في ذلك الأمر، ولم يتحوّل إلى حديث غيره، فإن الاستثناء صحيح، وظاهره: أنه إن انتقل إلى حديث آخر ولو اتَّحد المجلس، فإن الاستثناء لا يصح.

وأما الاستثناء المنفصل: فعامتهم على عدم اعتباره.

وروى مجاهد، عن ابن عباس، في الرجل يحلف؛ قال: «له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾»^(١).

وبنحوه قال أبو العالية رُفَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ والحسن؛ فقد روى الربيع عن أبي العالية؛ في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾^(٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ الاستثناء، ثم ذكرت فاستثنى^(٣).

ونحوه عن الحسن؛ رواه الطبري^(٣).

حمل بعض الفقهاء ذلك: على أن الاستثناء المنفصل معتبر في إسقاط الكفارة ولو طال الزمن، ولعل ما روي في ذلك عن ابن عباس: أن الاستثناء - ولو انفصل - يصح إلحاقه بالكلام الأول ولو طال الفصل

(٢) «تفسير الطبري» (١٥/٢٢٥).

(١) «تفسير الطبري» (١٥/٢٢٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٥/٢٢٦).

تبرُّكًا، وليس هذا مَسَاقِ إِبْطَالِ الْإِيمَانِ وَإِسْقَاطِ الْكُفَّارَاتِ، وَالْآيَةُ أَمْرٌ
بِالِاسْتِثْنَاءِ عِنْدَ الْعَزْمِ عَلَى مُسْتَقْبَلٍ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا
﴿٢٢﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وَحَمَلَ قِلَّةَ الْأَمْرِ عَلَى الْوُجُوبِ، وَالْمَرَادُ: أَنَّ الْمُواخَلَةَ وَالْمُخَالَفَةَ
تُسْقُطُ بِاسْتِدْرَاكِ الْإِسْتِثْنَاءِ وَلَوْ بَعْدَ عَامٍ، لَا أَنَّهُ يُسْقُطُ الْكُفَّارَةُ؛ فَهَذَا لَا
يُنَاسِبُ فِقْهَ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمَنْ اسْتَوْعَبَ قَوْلُهُ فِي أَبْوَابِ كُفَّارَاتِ الْإِيمَانِ،
عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ مَعَهُ حَمْلُ تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِسْقَاطِ الْكُفَّارَةِ؛ فَإِنَّ
ابْنَ عَبَّاسٍ لَهُ أَقْوَالٌ فِي أَبْوَابِ الْكُفَّارَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ يُسْقِطُهَا بِالِاسْتِثْنَاءِ،
وَالْآيَةُ جَاءَتْ لِبَيَانِ ذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ النَّسْيَانِ، وَالْمَشِيشَةِ عِنْدَ الْعَزْمِ عَلَى مَا
يُسْتَقْبَلُ، وَلَيْسَتْ فِي مَسَاقِ الْإِيمَانِ وَالِاسْتِثْنَاءِ بَعْدَهَا مُنْفَصِلًا.

وَمَنْ نَظَرَ فِي فِقْهِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَدَ أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَذَا
الْقَوْلِ، وَلَوْ كَانَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ كَذَلِكَ، لَمَا تَرَكَوْهُ جَمِيعُهُمْ؛ لِجَلَالَةِ
قَدْرِهِ، وَالْمَرْوِيُّ عَنْهُمْ خِلَافُهُ؛ كَعَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَغَيْرِهِمَا.

وَالْقَوْلُ بِصَحَّةِ الْإِسْتِثْنَاءِ الْمُنْفَصِلِ كُلَّهُ ضَعِيفٌ يُبْطِلُ أَبْوَابَ الْإِيمَانِ
وَتَعْظِيمَهَا، وَكُفَّارَاتِهَا، وَمَنْ نَظَرَ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَجَدَ أَنَّهُمْ لَا
يَعْتَبِرُونَ الْإِسْتِثْنَاءَ الْمُنْفَصِلَ كَلَامًا صَحِيحَ الْأَنْسَاقِ، وَلَا مَعْدُودًا فِي كَلَامِ
الْعَرَبِ، وَلَوْ صَحَّ الْإِسْتِثْنَاءُ وَلَوْ بَعْدَ شَهْرٍ أَوْ عَامٍ، لَمْ يَكُنْ لِلْكَفَّارَاتِ
قِيَمَةٌ، وَلَا لَوْجُوبِ الْوَفَاءِ بِالْإِيمَانِ قَدْرٌ فِي الشَّرْعِ، وَيَكُونُ مَنْ حَلَفَ
بِاسْتِثْنَاءٍ وَلَوْ بَعْدَ عَامٍ وَلَا يُكْفَرُ وَلَا يَبْقَى، فَلَمْ يَكُنْ لِلْأَمْرِ بِالْكَفَّارَةِ مَعْنَى،
وَالنَّبِيُّ ﷺ يُرْشِدُ إِلَى الْوَفَاءِ وَالْكَفَّارَةِ بَعْدَ لَزُومِ الْيَمِينِ وَلَا يَأْمُرُ
بِالِاسْتِثْنَاءِ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحِ»؛ قَالَ ﷺ: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى
غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكْفَرْ عَنْ يَمِينِهِ) ^(١).

واختُلِفَ في الاستثناء في غير اليمين؛ كالطلاق والعَتَاقِ، وعن أحمد ثلاث روايات:

إحداها: أَنَّ الاستثناء يصح فيها كاليمين؛ وبهذا قال أبو حنيفة والشافعي.

وثانيتها: أَنَّ الاستثناء لا يصح إلا في اليمين؛ وبهذا قال مالك والأوزاعي.

وفي الثالثة: أَنَّهُ تَوَقَّفَ، وعلى هذا أكثر الروايات عنه. ولا يصح الاستثناء بالقلب، بل لا بدَّ من النطق به في قول العلماء كافةً، خلافاً لبعض الفقهاء من أصحاب مالك، حيث جعلوا قياس قول مالك صحة الاستثناء بالنية.

ومن عادته في يمينه أَنَّهُ يَسْتَتِيهِ، وحلَفَ ونَسِيَ ماذا قال، وشكَّ في استثنائه، فيُحْمَلُ على عادته ويُعْتَبَرُ مستثنياً، وعكسه بعكسه.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾
 إِن تَكْرِي أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿[الكهف: ٢٩].

في هذا: مشروعية قول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ عند رؤية ما يَسُرُّ الإنسان ويُعْجِبُهُ مِنَ النِّعَمِ والأشياءِ الحَسَنَةِ التي رَزَقَهَا العَبْدُ، ومِمَّا يُسْتَحَبُّ كذلك الدُّعَاءُ بِالْبَرَكَةِ مِمَّنْ يراها فيه مِنَ النَّاسِ.

الدُّعَاءُ وَالذِّكْرُ الْمُسْتَحَبُّ عِنْدَ رُؤْيَةِ النِّعَمِ وَالْفَضْلِ:
 والواردُ عِنْدَ رُؤْيَةِ النِّعَمِ وما يَسُرُّ مِنَ الْفَضْلِ قولان:
 الأولُ لصاحبِ النِّعَمِ ومالكِهِ أَنْ يَقُولَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ ففِي ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا

بِاللَّهِ، وفي ذلك نسبة الفضل إلى الله، والبراءة من الحَوْلِ والقوة إلا به،
ودفع لكِبْرِ النَّفْسِ وبَطَرِهَا واغترارِهَا؛ وذلك ظاهرٌ في هَوْلِ اللَّهِ بعدُ: ﴿إِنْ
تَرَوْا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ وفي هذا من كَسْرِ النَّفْسِ والكِبْرِ والعَيْنِ ما
فيه.

ويُروى عند البيهقي في «الأسماء والصفات»، عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ؛
أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى مِنْ مَالِهِ شَيْئًا يُعْجِبُهُ، أَوْ دَخَلَ حَائِطًا مِنْ حِيطَاتِهِ، قَالَ:
«مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١)؛ يَتَأَوَّلُ هَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

وكان يفعل ذلك جماعة من السلف؛ كما رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عن
زِيَادِ بْنِ سَعْدٍ؛ قَالَ: «كَانَ ابْنُ شَهَابٍ الزُّهْرِيُّ إِذَا دَخَلَ أَمْوَالَهُ، قَالَ: (ما
شاءَ اللَّهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)؛ يَتَأَوَّلُ هَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾»^(٢).

وَرَوَى عَنْ مُطَرِّفٍ؛ قَالَ: «كَانَ مَالِكٌ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، قَالَ: (ما
شاءَ اللَّهُ)، قُلْتُ لِمَالِكٍ: لِمَ تَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: أَلَا تَسْمَعُ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَوْلَا
إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ الْآيَةُ ١٢»^(٣).

وَرَوَى عَنْ حَفْصِ بْنِ مَيْسَرَةَ؛ قَالَ: «رَأَيْتُ عَلَى بَابِ وَهْبِ بْنِ مُنْبِهِ
مَكْتُوبًا: (ما شاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)، وَذَلِكَ هَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ﴾ الْآيَةُ»^(٤).

الثاني لِمَنْ رَأَى نَعِيمَ غَيْرِهِ: أَنْ يَدْعُو بِالْبَرَكَةِ؛ وَذَلِكَ لِمَا جَاءَ عَنْ
أَبِي أَمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ؛ قَالَ: «مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٧١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢٣٦٢/٧).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢٣٦٢/٧).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٢٣٦٢/٧).

وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُحَبَّأٍ! فَمَا لَيْتَ أَنْ لُيَظَ بِهِ، فَأَنبَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: أَذْرِكْ سَهْلًا صَرِيحًا، قَالَ: (مَنْ تَتَّهِمُونَ بِهِ؟)، قَالُوا: عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، قَالَ: (عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟) إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَذْغْ لَهُ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ، فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ، فَعَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَرُكْبَتَيْهِ وَذَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْهِ^(١).

والجمعُ بينهما لا بأس به للرأْي والمالك؛ لأنه مِنَ الْمَعَانِي الْحَسَنَةِ، وقد رَوَى البخاريُّ؛ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ؛ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً، أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟)، فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: (مَا شَاءَ اللَّهُ)^(٢)، وَلَكِنَّهُ فِي رَوَايَةٍ فِي الْبُخَارِيِّ؛ قَالَ: «فَيَقْصُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصَ»^(٣)، وَفِي رَوَايَةٍ لَهُ أُخْرَى؛ قَالَ: «فَيَقْصُ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصَ»^(٤).

وإنَّما شَرَعَ الدُّعَاءَ بِالْبَرَكَةِ عِنْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَجِدُ عِنْدَ اسْتِحْسَانِهَا لشيءٍ مِنْ نَعِيمٍ وَفَضْلٍ لغيرِها شَيْئَيْنِ:

الأولُ: أَنَّهَا تَفْقِدُهُ، وَلَيْسَ لَدَيْهَا مِثْلُهُ وَلَا أَحْسَنُ مِنْهُ.

الثاني: تَجِدُ أَنَّ غَيْرَهَا اخْتَصَّ بِذَلِكَ عَنْهَا.

وَالْحَسَدُ يَأْتِي مِنَ الثَّانِي أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ، وَمِنْ هَذَيْنِ يَتَوَلَّدُ الْحَسَدُ، وَتَقَعُ الْعَيْنُ، فَشَرَعَ الدُّعَاءَ بِالْبَرَكَةِ لِسَدِّ مَا تَجِدُهُ النَّفْسُ؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ بِالْبَرَكَةِ يَتَضَمَّنُ الزِّيَادَةَ فِي خَيْرٍ مَنْ أُعْطِيَ، وَفِي ذَلِكَ دَفْعٌ لِمَا تَجِدُهُ مِنَ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٨٦/٣)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٧٥٧١)، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٥٠٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٨٦).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠٤٧).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠٤٧).

اختصاصٍ غيرها به؛ ويتضمَّن أنَّ الله هو مَنْ وهَبَ وَرَزَقَ وليس مِنْ تدبيرِ الناسِ واختيارِهِمْ، وهذا يَكْسِرُ ما تجذُّهُ النفسُ مِنْ حَسَدِ الناسِ على حُسْنِ تدبيرِهِمْ؛ فَإِنَّ الله هو مَنْ وَهَبَهُمْ، وما تدبيرُهُمْ إِلَّا سَبَبٌ.

وأما ما يُذَكِّرُ عن النبي ﷺ: (مَنْ رَأَى شَيْئًا فَأَعْجَبَهُ، فَلْيَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)^(١)، وما جاء مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عامِرٍ: «مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ، فَأَرَادَ بَقَاءَهَا، فَلْيَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، ثُمَّ هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾^(٢)، فلا يَصِحَّحَانِ.

* * *

قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤].

في هذه الآية قام موسى وغلأمه بتتبع آثارهما، وَمَنْ يَعْرِفُ الْآثَارَ ومواطنَ الأقدام والأصابع وشَبَّهَ الرَّجُلِ بِأَخِيهِ - يُسَمَّى قَائِفًا، وَسُمِّيَتْ قِيَافَةً؛ لِأَنَّ قَافِيَةَ كُلِّ شَيْءٍ تَكُونُ آخِرَهُ، ومنه قَافِيَةُ الشَّعْرِ؛ لِأَنَّهَا تَقْفُو الْبَيْتَ.

وفي هذا: دليلٌ على اعتبارِ القَافَةِ قَرِينَةً تَوْصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ؛ لِاعْتِبَارِ نَبِيِّ اللهِ موسى لها، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اعْتَبَرَهَا وَاسْتَأْنَسَ بِهَا، وَقَدْ جَاءَ أَنَّهُ بَعَثَ فِي أَثَرِ الْعَرَبِيِّينَ الَّذِينَ سَرَقُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ مَنْ يَتَّبِعُ آثَارَهُمْ^(٣)، وكذلك حينَمَا اتَّهَمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فِي ابْنِهِ أَسَامَةَ؛ لِأَنَّ أَسَامَةَ أَسْوَدٌ، وَوَالِدُهُ زَيْدٌ أَبْيَضٌ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُمَا وَيُسُوؤُهُمَا بِسُوءِهِمَا،

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس بمانور الخطاب» (٥٦٩٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٩)، و«الأوسط» (١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٣)، ومسلم (١٦٧١).

كما في «الصحيحين»؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ ذَاتَ يَوْمٍ تَبَرَّقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ تَرَيْنِي أَنَّ مُجَرَّزًا الْمُدْلِجِي دَخَلَ عَلَيَّ فَرَأَى أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَزَيْنًا وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ، قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا، وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» (١).

وقد عَمِلَ بِالْقَافَةِ عَمْرٌ وَعِمَارٌ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ.

وإنَّما تُعْتَبَرُ الْقِيَافَةُ عِنْدَ غِيَابِ الْأَدَلَّةِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا تُعْتَبَرُ عِنْدَ وَجُودِ الْبَيِّنَاتِ وَلَا النُّقْلِ عَنِ الْأَصْلِ الثَّابِتِ؛ كَوَلَدِ الْفِرَاشِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

* * *

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْبِثَ وَأَنَّ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

في هذه الآية: أَنَّ الْخَضِرَ خَرَقَ السَّفِينَةَ؛ لِيَجْعَلَ فِيهَا عَيْنًا؛ لِأَنَّهَا تَمُرُّ عَلَى مَلِكٍ ظَالِمٍ يَأْخُذُ الصَّالِحَ مِنَ السُّقْنِ لَهُ، وَكَانَ فِي خَرَقِ الْخَضِرِ لَهَا دَفْعٌ لِمَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ، وَهِيَ سَلْبُ سَفِينَتِهِمْ كَامِلَةً، وَعِلْمُ الْخَضِرِ بِالْغَايَةِ - وَهِيَ الْمَفْسَدَةُ الْكُبْرَى - جَعَلَهُ يَرْتَكِبُ الْمَفْسَدَةَ الصُّغْرَى.

وفي هذه الآية: جَوَازُ ارْتِكَابِ أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ أَعْلَاهُمَا، وَكُلُّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ بِالْمَفَاسِدِ أَبْصَرَ، كَانَ فِي بَابِ السَّلَامَةِ أَدَقَّ نَظْرًا وَأكْثَرَ تَوْفِيقًا، وَمَنْ عَرَفَ مَفْسَدَةً وَاحِدَةً، فَإِنَّهُ يَعْمَلُ عَلَى مَا يَعْلَمُ، وَلَوْ كَانَ مَعْدُورًا عِنْدَ نَفْسِهِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يُفْسِدُهَا، وَإِنْ كَانَ حَاكِمًا، أَفْسَدَ النَّاسَ مَعَهُ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْمَفَاسِدِ الْمُجْتَمِعَةِ، وَأَحْكَمَهُمْ بِتَخْطِيِ أَعْلَاهَا بِأَدْنَاهَا، وَتَرْكُهَا لِهَدْمِ الْكُعْبَةِ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَتَرْكُهَا لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالُ فِي الْمَسْجِدِ مِنْهُ كَذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري (٦٧٧١)، ومسلم (١٤٥٩).

وَكَلَّمَا كَانَ الْعَالِمُ أَوْ الْحَاكِمُ بِالْمَفَاسِدِ أَعْلَمَ، وَبِتَعَدُّهَا أَبْصَرَ، كَانَ الْإِعْتِرَاضُ عَلَيْهِ مِمَّنْ دُونَهُ أَشَدَّ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا يَرَوْنَ، وَيَخْتَارُ مَا لَا يَخْتَارُونَ، وَيَنْقُدُونَ عَلَى مَا يَعْلَمُونَ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا يَعْلَمُ، مَعَ بَيَانِ حَقِيقَةِ مَا يَعْلَمُ إِنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الْبَيَانِ، وَإِنَّمَا تُؤْتَى الْأُمَمُ وَتَسْقُطُ الدُّوَلُ؛ لِأَنَّهَا عَرَفَتْ جِهَةً مِنَ الْمَفَاسِدِ وَلَمْ تَعْرِفْ جِهَاتٍ، وَضَرُرُهَا فِيهَا تَجْهَلُ أَشَدَّ مِمَّا تَعْلَمُ، فَتَتَجَنَّبُ مَا تَعْلَمُ، وَتَقَعُ فِيهَا تَجْهَلُ؛ نَظْنُهَا السَّلَامَةَ، وَهُوَ الْهَلَاكُ.

وَالْعِلْمُ بِالْمَفَاسِدِ عَظِيمٌ، وَهُوَ دَقِيقٌ لَا يُدْرِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَهُوَ خِلَافُ الْعِلْمِ بِالْمَصَالِحِ، فَالنَفُوسُ تَشْغُوفُ إِلَيْهِ وَتُقْبَلُ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ الْمَسَاكِينَ وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُمْ؛ لِأَنَّ الظَّالِمِينَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَيَتْرُكُونَ الْأَقْوِيَاءَ، وَلِأَنَّ الْأَقْوِيَاءَ يَنْصُرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا يَحْتَاجُونَ غَالِبًا إِلَى نَاصِرٍ، وَنُصْرَةُ الضَّعِيفِ أَعْظَمُ ثَوَابًا مِنْ نُصْرَةِ الْقَوِيِّ.

وَفِي هَذَا: أَنَّ الْمَسْكِينِ قَدْ يَمْلِكُ مَرْكَبًا وَسَفِينَةً؛ لَكِنَّهَا لَا تُسَدُّ حَاجَتَهُ وَلَا تَكْفِيهِ، وَالْفَقِيرُ أَشَدُّ مِنْهُ حَاجَةً وَأَضْعَفُ مِنْهُ قُدْرَةً وَبِدَا.

وَمَنْ فَعَلَ مَا فَعَلَ الْخَضِرُ فَهُوَ مُحْسِنٌ، وَلَيْسَ بِضَامِنٍ مَا أَفْسَدَ عَلَى الصَّحِيحِ؛ وَذَلِكَ لِمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ❸ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا خَيْرًا مِنَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. [الكهف: ٨٠-٨١].

ذَكَرَ اللَّهُ إِيْمَانَ الْوَالِدَيْنِ وَكُفْرَ الْوَلَدِ، وَذَكَرَ أَنَّ الْوَلَدَ لَمْ يَكُنْ كُفْرُهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ بَلْ يُرِيدُ إِرْهَاقَ وَالِدَيْهِ بِهِ وَتَبِعَاتِهِ، وَقَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَنِ

كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: (وَأَمَّا الْغُلَامُ، فَطُغْ يَوْمَ طُغِ كَافِرًا) ^(١).
وهو له تعالى: ﴿يُرْوَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ جاء في معناه ما في «المستدر»؛
من حديث أبي بن كعب: «فَيَحْمِلُهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يَتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ» ^(٢).
وقد جاء عن غير واحد من المفسرين من السلف: أن الله أبدلهما
به ولدًا مسلمًا، كان حنلًا في بطن أمه عند قتل أخيه.
وفي هذه الآية: أن الغلام لم يقتل إلا لجللة إرهابه والذية بطغيان
وكفر، ومفهوم الآية: أنه لو كان كفر الغلام على نفسه، وكان بارًا
بوالديه: أنه لم يقتله الحضر.

وحياة الوالدتين أولى من حياة ولدهما ولو كان مسلمًا، فضلًا عن
كونه كافرًا، ومن الحق بوالديه ضررًا وشرًا باختياره لعقوقه حتى خيف
على حياتهما، فإنه يجوز للحاكم قتله تعزيرًا.
وأما مجرّد العقوق، فلا يثبت ما ورد في قتل العاق لوالديه؛ فقد
رواه أبو حازم، عن أبي هريرة مرفوعًا: (مَنْ ضَرَبَ أَبَاهُ، فَاقْتُلُوهُ) ^(٣)، ولا
يصح، والصواب إرساله عن أبي حازم عن المسيب؛ هكذا رواه هشام بن
عروة، عن أبي حازم، به ^(٤).

ويقع العقوق الذي ليس فيه رهق بطغيان وكفر في القرون الأولى،
ولم يثبت عن أحد من الصحابة قتل مثل هذا العاق تعزيرًا.
وإذا تعارضت حياة الولد في بطن أمه وحياة أمه، فحياة أمه مقدّمة
عليه، كمن تحمّل ولدًا يتفق الأطباء على أنه إن ترك حتى تلده ماتت
بسببه، فيجوز إسقاطه لتبقى حيّة ولو مات جنيهاً.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٠). (٢) أخرجه أحمد (١٢٠/٥).

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣٨/٢).

(٤) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٤٨٥).

﴿قَالَ تَعَالَى: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ نُلَوِّلُ مَا لَرَفَعْتُمْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

كان للغلامين حائط، ونحتت كنز لهما، وقد اختلفت في الكنز: هل هو كنز علم وكتب، أو كنز مال؟ فقد جاء عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد: أنه كنز علم^(١)، وجاء عن الحسن أنه لوح من ذهب مكتوب فيه^(٢)، وجاء عن عكرمة وقتادة: أنه كنز مال^(٣).

وقد حفظ الله الغلامين بصلاح والدهما، وإنما ذكر صلاح الوالد؛ لأن الولدين على خلاف ذلك؛ فحفظ الولد بصلاح نفسه أولى من حفظه بصلاح غيره.

وفي هذه الآية: حفظ مال اليتيم وفضل رعايته، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْظُلْمِ﴾ [النساء: ٢] وما بعدها، وعند قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، وتقدم الكلام على الاتجار به واستصلاحه عند قوله: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وتقدم الكلام في حفظه حتى يبلغ ومقدار الأخذ منه بالمعروف في قوله تعالى: ﴿وَلْيَتْلُوا الزَّكَاةَ فَإِن رَّاسَهُمْ وَشُدُّوا لِنَجْمِ الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٦].

وتقدم الكلام في حفظ مال الصغير وعدم وضع المال في يده حتى

(١) «تفسير الطبري» (١٥/٣٦٢ - ٣٦٣). (٢) «تفسير الطبري» (١٥/٣٦٤).

(٣) «تفسير الطبري» (١٥/٣٦٥).

يَكْبَرُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّغَهَاءَ آمُولَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾
[النساء: ٥].

❏ قال تعالى: ﴿قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرِيمًا عَلَّ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

في هذه الآية: وجوب تحصين البلدان والمُدن والناسِ ممن يُفسدُ عليهم أمرهم، وفيها: وضع الحصونِ عند المخاطرِ.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرِيمًا عَلَّ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ سَدًّا﴾، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، قوله: ﴿خَرِيمًا﴾؛ يعني: أجزاً؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرِيمًا فَخَرَّجْ رَبُّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢].

عرَضُوا على ذي القرنين جمع المالِ لبناءِ السدِّ، فامتنعَ لكفائته، وفي هذا: جوازُ جمع الحاكم والسُّلطانِ المالَ من الناسِ عند الشدائدِ والحروبِ لدفعِ العدوِّ، وإن كان في بيتِ المالِ كفايةٌ، فالأولى أن يستغنيَ به عن مالِ الناسِ؛ كما استغنى ذو القرنين عن ذلك؛ فقال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾؛ أي: إنَّ الذي أعطاني الله من القُدرةِ والقُوَّةِ خيرٌ لي من الذي تجمَعُونَهُ، واستعانَ بما يَقْدِرُونَ عليه ولا يَقْدِرُ عليه، وهو عملُ أبدانِهِمْ؛ فقال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥ - ٩٦].



سُورَةُ مَرْيَمَ

وهي مكيّةٌ مِنَ الْعِثَاقِ، وهي ممّا نَزَلَ قَبْلَ هَجْرَةِ جَعْفَرٍ إِلَى الْحَبَشَةِ؛
فقد كانت معه فقرأها على النَّجَاشِيِّ، ففي «المسند»؛ مِنْ حَدِيثِ
أُمِّ سَلَمَةَ؛ قَالَتْ: قَالَ النَّجَاشِيُّ لَجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: هَلْ مَعَكَ ممّا جاء
به نبيُّكم شيءٌ؟ قال: نَعَمْ، فقال له النَّجَاشِيُّ: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه
صدراً مِنْ (كهيعص)، قالت: فبكى والله النَّجَاشِيُّ حتّى أَخْضَلَ لحيتهُ
وبَكَتْ أسافتهُ حتّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا ما تلا عليهم، ثمَّ
قال النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا - والله - والذي جاء به موسى: لَيُخْرِجُ مِنْ مِشْكَاةٍ
واحدةً انطلقاً؛ فوالله لا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمْ أبداً^(١).

وكانت هذه السورةُ لبيانِ حقيقةِ عيسى وأمه، وإبطالِ مزاعمِ اليهودِ
والتَّصَارِي حَوْلَهُما، مِنَ الْقَوْلِ الشَّنِيعِ فِي مَرْيَمَ وَالتَّأْلِيهِ لِعِيسَى، وَبَيَّنَّ اللَّهُ
أَصْلَهُما، وَقَصَّ نَسَبَهُما، وَفَضَلَ آلَ عِمْرَانَ وَنَزَاهَتَهُمْ وَشَرَفَ بَيْتَهُمْ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْزُقْنَا إِنَّا نَبْتَرُكَ يُطْلِمُ أَسْمُهُمْ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ﴾

مِنْ قَبْلِ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

في هذه الآية: تسميةُ المولودِ قَبْلَ ولادته؛ وهذا جائزٌ بلا
خلافٍ، وفيه: جوازُ التسميةِ باسمٍ لم يُسَبَقْ إليه ما كان المعنى حسناً،

وقد جعلَ الله مِنْ خصائصِ اسمِ يحيى أَنَّهُ لَمْ يُسَبِّقْ مِنْ قَبْلُ.

تسمية المولود وقتها:

وقد جاءتْ مشروعَةُ التسمية في اليوم السابع؛ كما جاء من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِتَسْمِيَةِ الْمَوْلُودِ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَوَضَعَ الْأَذَى عَنْهُ، وَالْعَقَّ؛ أَخْرَجَهُ الترمذي^(١)، وعند أحمد وأهل السنن نحوه من حديث سمرة^(٢)، وجاء من حديث ابن عباس^(٣) وغيره.

وقد سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ وَلَدَهُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ؛ كما جاء في مسلم؛ من حديث أنس مرفوعاً؛ قال: (وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ)^(٤)، وفي «الصحيحين»: «أَنَّهُ وُلِدَ لِأَبِي مُوسَى وَلَدٌ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَحَنَكُهُ وَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ»^(٥)، وفيهما من حديث سهل بن سعد: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمَّى الْمُنْذِرَ بْنَ أَبِي أُسَيْدٍ حِينَ وَلادَتْهُ»^(٦).

وفي الآية: التسمية قبل الولادة، وفي حديث أنس وأبي موسى وسهل بن سعد التسمية يوم الولادة، وفي حديث ابن العاص وسمرة التسمية يوم السابع؛ وكلُّ ذلك جائزٌ، ولكن اختلف العلماء في الأفضل على أقوال:

فمنهم مَنْ قال: إِنَّ التسمية في اليوم السابع أَفْضَلُ؛ وبهذا قال جمهور العلماء؛ كمالك والشافعي وأحمد.

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧/٥)، وأبو داود (٢٨٣٨)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائي (٤٢٢٠)، وابن ماجه (٣١٦٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٥٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٤٦٧)، ومسلم (٢١٤٥).

(٦) أخرجه البخاري (٦١٩١)، ومسلم (٢١٤٩).

ومنهم مَنْ قال: إِنَّ التَّسْمِيَةَ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ أَفْضَلُ؛ وَبِهَذَا قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ؛ وَهُوَ وَجْهٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي الْأَحَادِيثِ فِي التَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ، وَجَدَهَا أَصَحَّ مِنَ التَّسْمِيَةِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ؛ كَمَا قَالَ الْبَيْهَقِيُّ^(١).

ومنهم مَنْ قال: إِنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَعُقُّ عَنْهُ فَيُسَمِّيهِ مَعَ عَقِيقَتِهِ فِي السَّابِعِ، وَمَنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَعُقِّ فَيُسَمِّيهِ أَوَّلَ يَوْمٍ؛ وَإِلَى هَذَا مَالُ الْبَخَارِيِّ، حَيْثُ بَوَّبَ فِي كِتَابِهِ «الصَّحِيحُ»: (بَابُ تَسْمِيَةِ الْمَوْلُودِ غَدَاةً يُوَلَّدُ لِمَنْ لَمْ يَعُقِّ)^(٢)، وَقَدْ سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ وَلَدَهُ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ وُلِدَ، وَأُمَّا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، فَسَمَّاهُمَا يَوْمَ السَّابِعِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ؛ حَيْثُ قَالَتْ: «عَقَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَسَنِ وَحُسَيْنِ يَوْمَ السَّابِعِ وَسَمَّاهُمَا»؛ رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ^(٣).

وَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ قَبْلَ الْوِلَادَةِ؛ وَذَلِكَ مَتَوَقَّفٌ عَلَى مُعْجَزَةٍ؛ فَلَا يَعْلَمُ الْجَنِينُ وَنَوْعَهُ قَبْلَ تَكْوِينِهِ إِلَّا اللَّهُ: ﴿وَيَمْلَأُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وَهِيَ فِي سِيَاقِ الْبُشْرَى وَتَأْكِيدِهَا، وَمُقْتَضَى التَّأْكِيدِ وَتِمَامُ الْبُشْرَى وَالتَّعْجِيلُ بِالتَّسْمِيَةِ؛ لِضَمَانِ تَحْقِيقِ الْمَقْصُودِ وَتِمَامِهِ.

وَأَمَّا التَّكْنِي، فَبَابُهُ وَاسِعٌ؛ لِأَنَّ الْكُنْيَةَ لَا يُقْصَدُ بِهَا مَوْلُودٌ بَعِيْنُهُ؛ فَقَدْ يَتَكْنَى الرَّجُلُ وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَقَدْ يَتَكْنَى بَذَكَرٍ وَلَدُهُ أَنْثَى، وَقَدْ يَتَكْنَى بِأُنْثَى وَلَدُهُ ذَكَرٌ، بِخِلَافِ التَّسْمِيَةِ؛ فَهِيَ مُتَعَيِّنَةٌ لَوْلَدٍ بَعِيْنِهِ.

* * *

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٣٠٥/٩)، و«فتح الباري» لابن حجر (٥٨٩/٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٣/٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٣١١)، والحاكم في «المستدرک» (٢٣٧/٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٩٩/٩).

❏ قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾

[مريم: ٢٣].

في هذه الآية: أَنَّ مَرِيَمَ تَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ قَدْ مَاتَتْ قَبْلَ نَزُولِ مَا نَزَلَ بِهَا، وَلَمْ تَتَمَنَّ الْمَوْتَ بَعْدَ نَزُولِ مَا حَلَّ بِهَا، بَلْ سَلَّمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ وَخَضَعَتْ لَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَمَنِّي الْمَوْتَ وَأَحْوَالِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ

بِفَيْئًا﴾ [مريم: ٢٨].

ذَكَرَ قَوْمُ مَرِيَمَ مَرِيَمَ بِسِيرَةِ أَهْلِهَا وَفَضْلِهِمْ وَعَفَافِهِمْ وَظُهُرِهِمْ، وَأَنَّ سِيرَتَهَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تَخْرُجَ عَنْهَا، وَقَدْ اسْتَنَكَّرُوا أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْعَفَافِ يَخْرُجُ مِنْهُ أَمْرٌ اسْتَنَكَّرُوهُ؛ فَيِنَّ اللَّهَ لَهُم بِإِنطَاقِ عِيسَى مُعْجِزَةً لَهُ وَلِهَا.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: جَوَازُ اسْتِعْمَالِ وَازِعِ الطَّبَعِ لاسْتِنكَارِ الْمُنْكَرِ وَلَوْ كَانَ وَازِعُ الطَّبَعِ وَحْدَهُ، عِنْدَ رُؤْيَا مَنْ يَرَى عَلَيْهِ عَمَلٌ سَوِّءٌ أَوْ قَوْلٌ مُنْكَرٌ، فَيُنْكَرُ عَلَيْهِ ذَلِكَ تَذَكُّيرًا لَهُ بِأَهْلِهِ وَخُلُقِهِ وَقَوْمِهِ وَقَبِيلَتِهِ.

وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ يُخَفِّفُ فِيهِ، بِخِلَافِ الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ؛ فَلَا يَجُوزُ الْأَمْرُ بِالتَّعَبُّدِ لِلَّهِ بِوَازِعِ الطَّبَعِ مُجَرَّدًا، مَا لَمْ يَكُنْ تَابِعًا لَوَازِعِ الشَّرْعِ؛ حَتَّى لَا يُمَثِّلَ النَّاسُ الْعِبَادَاتِ تَقْلِيدًا وَرِيَاءً وَسُنْعَةً، فَيَقْعُوا فِي الشَّرْكِ؛ حَيْثُ لَمْ يُخْلِصُوا فِي عَمَلِهِمْ لِلَّهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى وَازِعِ الطَّبَعِ وَالشَّرْعِ وَالْفَرْقِ بَيْنَهُمَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَفِئَ أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يَقْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

في هذه الآية: أَنَّ الصَّلَاةَ وَاجِبَةً عَلَى الْعَاقِلِ مَا دَامَ حَيًّا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا بِيَدَيْهِ لِمَرْضٍ؛ ككَسْرِ أَوْ شَلَلٍ، أَوْ ضَعْفٍ؛ كَهَزَالٍ وَكِبَرٍ سِنٍ، أَوْ عَجْزٍ بِتَقْيِيدِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فَيَتَا وَفُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

السلامُ فِي الْآيَةِ مِنَ الْمُسَالَمَةِ وَالْأَمَانِ، وَتَتَضَمَّنُ الْإِعْتِزَالَ وَالْمُفَارَقَةَ، وَقَدْ فَهِمَ بَعْضُهُمْ مِنْهَا جَوَازَ بَذْلِ السَّلَامِ لِلْكَفَّارِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ الْأَمَانُ لِأَيِّهِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ^(١) وَغَيْرُهُ.

وَأَمَّا الْإِسْتِغْفَارُ، فَقَدْ بَدَأَهُ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ تَرَكَهُ، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إِصْرَارُهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُكْمِ نَحْيَةِ الْكَافِرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحْبِهِ فَحَبِوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

* * *

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ ﴾ [مريم: ٥٥].

في الآية ذَكَرَ اللهُ فَضْلَ إِسْمَاعِيلَ، وَأَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا لِذَلِكَ الْفِعْلِ مِنْهُ وَغَيْرِهِ، وَأَمْرُ الْأَهْلِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَهْمَةٌ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهٖ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢].

أَمْرُ الْأَهْلِ بِالصَّلَاةِ:

وهو تَكْلِيفُ لَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَعَاهدُوا أَهْلَهُمْ بِأَعْظَمِ الْأَرْكَانِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالنُّصْحِ الْأَقْرَبُونَ، وَأَوْلَى الْأَقْرَبِينَ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُرْأُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحریم: ٦]، فَأَوْلَى مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ خِلَاصُ نَفْسِهِ وَنَجَاتُهَا، ثُمَّ خِلَاصُ أَهْلِهِ وَنَجَاتِهِمْ، ثُمَّ نَجَاةُ الْأَقْرَبِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَأَمَرَهُ بِالْأَقْرَبِينَ قَبْلَ الْأَبْعَدِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾: أَهْلُ الرَّجُلِ: زَوْجَتُهُ وَأَوْلَادُهُ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿ فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ ﴾ [الذاريات: ٢٦]، وَقَالَ عَنْ مُوسَى: ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ [طه: ١٠]؛ يَعْنِي: زَوْجَتَهُ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ أَهْلَ لُوطٍ ثُمَّ اسْتَشْنَى زَوْجَتَهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿ فَانْفَجِنَا وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ ﴾ [الأعراف: ٨٣]؛ يَعْنِي: لَمَّا كَانَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ أَهْلِهِ، اسْتَشْنَاهَا لِكُفْرِهَا، وَمِثْلُهُ قَوْلُ نُوحٍ: ﴿ إِنَّ آتِيَ مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود: ٤٥]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، فَأَقْرَهُ عَلَى كُونِهِ مِنْ أَهْلِهِ نَسَبًا، وَأَخْرَجَهُ مِنْهُمْ لِكُفْرِهِ.

وَيُطْلَقُ الْأَهْلُ عَلَى مَنْ تَأَهَّلَ فِي الْبَيْتِ وَاشْتَرَكَ فِي سُكْنَاهُ، وَمِنْ

ذلك قوله تعالى عن رُكَّابِ السفينة: ﴿أَخْرَقْنَا لِنُقَرِّقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]،
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]؛ يعني:
من أهل بيتها، ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ هَمَمْتُ بِغَرَقِهَا إِذَا أَفْكَبُوا لَكَ أَهْلَهَا﴾
[يوسف: ٦٢].

وكان السلف يتعاهدون كل أهل بيوتهم بالصلاة والزكاة واستصلاح
أمرهم ولو كانوا خَدَمًا وَجَوَارِي وَعَبِيدًا، وقد روى البيهقي؛ من حديث
عاصم؛ قال: جاء رجل إلى الحسن، فقال له: يا أبا سعيد، إن لي
جاريةً حسنة الصوت، لو عَلَّمْتُهَا الغناء لعلِّي أَخْذُ بِهَا مِنْ مَالِ هَؤُلَاءِ،
قال الحسن: إن إسماعيل كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربّه
مَرْضِيًّا، فأعاد عليه الرجل القول ثلاث مرّات، كل ذلك يقول له
الحسن: إن إسماعيل كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة^(١).

وقد أمر الله بأمر الأولاد بالصلاة وتعاهدهم عليها، ويجب ذلك
على الولي عند تمييز الولد بالكلام أمرًا، وَضَرْبًا غَيْرَ مَبْرُحٍ عند العُضَيَانِ
عند العاشرة؛ كما في قوله ﷺ: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ
سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي
الْمَضَاجِعِ)^(٢).

وظاهر الحديث: أَنَّ الولد لا يُؤْمَرُ بِهَا قَبْلَ السَّابِعَةِ، وَلَا يُضْرَبُ
قَبْلَ الْعَاشِرَةِ، وَلَكِنْ قَبْلَ السَّابِعَةِ يُعْرَضُ لَهُ: (لَوْ صَلَّيْتَ مَعَنَا، وَمَاذَا تَرَى
بِالصَّلَاةِ مَعَ النَّاسِ؟)، وَهَذَا فِي حَالِ قُرْبِهِ مِنَ التَّمْيِيزِ، وَلَا يُؤْتَى بِهِ إِلَى
مَوَاضِعِ الصَّلَاةِ وَصُفُوفِ الْمُصَلِّينَ إِنْ كَانَ يَقْطَعُهَا وَيُدْهَبُ خَشَوْعُهُمْ بِكَائِهِ
وَلَعِبِهِ.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٢٦/١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٧/٢)، وأبو داود (٤٩٥).

وَيُسْتَحَبُّ تَعَاهُدُ الْأَهْلِ بِصَلَاةِ النَّافِلَةِ، وَخَاصَّةَ الزَّوْجَةِ؛ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَاهَدُ أَهْلَهُ وَيُوقِظُ أَهْلَهُ لَصَلَاةِ الْوُتْرِ، وَكَانَ يُحُثُّ النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَفِي «السُّنَنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ؛ قَالَ ﷺ: (إِذَا أَبْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا أَوْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا فِي الدَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ)^(١).

وَفِيهَا أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَبْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ، نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَبْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى، نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ)^(٢).

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ [مريم: ٥٩].

ذَكَرَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِمَّنْ افْتَقَى أَثَرَهُمْ، وَذَكَرَ مَنْ خَلَفَهُمْ مِمَّنْ مَالُوا وَحَادُّوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَوَّلُ وَصْفِ سُوءٍ لَهُمْ ذَكَرَهُمْ بِهِ: أَنَّهُمْ: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾، فَفَرَنَ اللَّهُ إِضَاعَةَ الصَّلَاةِ بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ لَا يُضَيِّعُهَا إِلَّا غَارِقٌ فِي الشَّهْوَةِ، يَسْتَمِيعُ بِالْعَاجِلِ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْآجِلِ.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَعُدُّونَ كُلَّ شَهْوَةٍ صَارِفَةٍ عَنِ الطَّاعَةِ هِيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ ثَمَّةَ تَلَازُمًا بَيْنَ الشَّهَوَاتِ وَتَرْكِ الصَّلَاةِ؛ فَكُلَّمَا زَادَتْ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٣٠٩)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى» (١٣١٢)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٣٥).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢/٢٥٠)، وَابْنُ دَاوُدَ (١٣٠٨)، وَالنَّسَائِيُّ (١٦١٠)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٣٦).

الشهوات، نَقَصَتِ الصَّلَاةَ، وقد رَوَى البيهقي في «الشَّعْبِ»؛ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ؛ قَالَ: «اُعْتَسَلْتُ أَنَا وَآخَرُ، فَرَأَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَحَدُنَا يَنْظُرُ إِلَى صَاحِبِهِ، قَالَ: إِنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَكُونَا مِنَ الْخَلْفِ الَّذِي هَالَهُ اللَّهُ ﷻ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾»^(١).

ولا يكون ترك الصلاة بالكلية والانغماس في الشهوات في الأمم إلا مع بُعد عهد بالنبوة، فتطمس معالمها، ويقبل المصلحون فيها، وقد صحَّ عن مجاهد أن ذلك يكون في آخر الزمان؛ كما رواه ابن أبي نجيح، عن مجاهد؛ قال في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾: «عند قيام الساعة وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ يتركون بعضهم على بعض في الأرزقة»^(٢).

وقد حمل بعض السلف الإضاعة في هذه الآية على كفر تارك الصلاة؛ حيث حمل الإضاعة على الترك؛ لقربة الغي الذي لا يكون مثله إلا لكافر؛ كما جاء عن ابن مسعود في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾؛ قال: «الغي نهر حميم في النار يُقَذَّفُ فيه الذين يتبعون الشهوات»^(٣).

وقد حمل بعض السلف الإضاعة في الآية على تأخيرها عن وقتها؛ كما قال بذلك القاسم بن مخيمرة؛ قال في قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾: «إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا، كان كفرًا»^(٤).

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٠١).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٧٠/١٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤١٣/٧)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٤٧١).

(٤) «تفسير الطبري» (٥٦٧/١٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٤١٢/٧).

وقد اتَّفَقَ السلفُ على كفرِ تاركِ الصلاة؛ وإنَّما خلافَهُمْ في كونهِ
كفراً مُخْرِجاً مِنَ المِلَّةِ، أو كفراً أصغرَ.

وقد ذَهَبَ أحمدُ في المشهورِ عنه - وهو قولٌ للشافعي - إلى كفرِ
تاركِها؛ لقولِ النبي ﷺ: (بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ
الصَّلَاةِ)^(١)، ويأتي تفصيلُ القولِ في تاركِ الصلاةِ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ
هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥].





سُورَةُ طه

وهي مِنَ السُّورِ المَكِّيَّةِ العِثاقِ الأوَّلِ؛ كما ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ ابنِ مسعودٍ فِي «الصَّحِيحِ»^(١)، وَهِيَ لِتَثْبِيتِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رِسالَتِهِ بَيانِ الغَايَةِ مِنْهَا، وَجاءَ فِيها ذِكرُ بَعْضِ الأنبياءِ وَثَباتِهِمْ وَصَبْرِهِمْ عَلَى أداءِ رِسالَةِ اللَّهِ، وَتَحْمِلِهِمْ وَأَدائِهِمْ لِلأمانَةِ؛ لِيَكُونَ فِي ذلكِ تَثْبِيتٌ وَتَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيمَا هُوَ فِيهِ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ رَمَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَلٍ عَلَى النَّارِ هُذًى﴾ [طه: ١٠].

رَأى موسى النَّارَ وَنَآى بِأَهْلِهِ عَنِ الحَضُورِ مَعَهُ؛ وَذلكَ لِأَنَّ الغالبَ فِي الأسفارِ الرُّجَالُ، وَلا يَصُحُّ مِنْه الإِتيانُ بِأَهْلِهِ بَيْنَهُمْ؛ وَذلكَ أَنَّهُ لو كانَ مَعَهُ صاحِبُ رَجُلٍ لَأَخَذَهُ مَعَهُ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ: (امْكُثْ)؛ يَتَقَوَّى وَيَأْنَسُ بِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلامُ عَلَى مَسْأَلَةِ اخْتِلاطِ الجَنسَيْنِ وَتَفْصِيلُهُ عِنْدَ قولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رِضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وَقولِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَ كُزٍّ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَ كُزٍّ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، وَقولِهِ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]، وَقولِهِ تَعَالَى فِي هُودٍ: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ﴾ [هود: ٧١]، وَتَأْتِي

(١) سبق تخريجه.

الإشارة إلى ذلك في قوله في القصص: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [٢٩]، وقوله في الحُجُرَات: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ فِئَةٍ﴾ [١١].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

أمر الله نبيه موسى بخلع نعليه حينما أنبأه بأنه بمكان مقدسٍ معظم، وفي هذا تشریف الأماكن المعظمة وتطهيرها، واستحباب الإتيان إليها بما حسن من اللباس وطاب من الرائحة، وقد تقدم الكلام على قصد المساجد بالرِّينَة عند قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ عَادَمٌ خُدُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

العلة من أمر موسى بخلع نعليه:

وقد اختلف في سبب أمر الله موسى بنزع نعليه خاصة، مع وضوح أن هذا الموضع مكان مقدس معظم:

ف قيل: إن النعال كانت من جلد ميتة، ولا يثبت ذلك؛ وذلك أنهم أخذوه مما روى الترمذي^(١)؛ من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «كَانَ عَلَىٰ مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ كِسَاءٌ صُوفٍ، وَجَبَّةٌ صُوفٍ، وَكُمَّةٌ صُوفٍ، وَسَرَاوِيلُ صُوفٍ، وَكَانَتْ نَعْلَاهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ»، وقد أعل الحديث غير واحد من العلماء؛ كالترمذي وغيره.

وبعضهم جعل ذلك للاستحباب؛ أي: عند حضور الأماكن

(١) أخرجه الترمذي (١٧٣٤).

المعظمة ولقاء العُظماء يُستحب. نَزَعَ النُّعَالِ، وإنَّ صَحَّ ذلك فيمكن تخصيصه بمن قبلنا؛ لأنَّ النبي ﷺ ثَبَتَ عنه الصلاة في النُّعَالِ، ودخول المسجد فيها، بل دَخَلَ النبي ﷺ البيت الحرام بغيره، وفعل مثله جماعة من أصحابه وأزواجه، وطافوا حول البيت عليه، وليست أقدام البهائم بأظهر من أقدام بني آدم، فضلاً عن الأنبياء.

وقد وَقَفَ النبي ﷺ عند المَقَامِ بنعليه؛ كما رواه أحمد؛ من حديث أبي هريرة^(١)، وطاف ابنُ الزُّبَيْرِ بنعليه؛ كما رواه الفاكهي^(٢).

وظاهرُ قوله تعالى بعد الأمرِ بِخَلْعِ النُّعَالِ: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾: أنَّ العلةَ من خَلْعِ النُّعَالِ هو قُدْسِيَّةُ المكانِ وَخُصُوصِيَّتُهُ، وَيَتَّفَقُ العلماءُ على أنَّ قُدْسِيَّةَ المسجدِ الحرامِ ومسجدِ النبي ﷺ أعظمُ من قُدْسِيَّةِ الوادي المقدَّسِ طوى.

ولكنَّ يَحْتَمِلُ أنَّ العلةَ في ذلك هي أنَّ لذلك المكانِ من القُدْسِيَّةِ التي جعلها الله فيه عندَ قدومِ موسى وسماعِ كلامِ الله بلا واسطةٍ في الأرض: ما ليس في غيره، ثمَّ رَفَعَ ذلك القَدْرَ من القُدْسِيَّةِ بانتهاء ذلك؛ وذلك أنَّ الله كَلَّمَ موسى في الأرض بلا واسطةٍ، ولم يُسَبِّقْ موسى بأحدٍ من الأنبياء أنْ كَلَّمَهُ الله كذلك، وأمَّا نبينا ﷺ فقد كَلَّمَهُ الله بلا واسطةٍ، ولكنَّ في السماء، لا في الأرض.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الأمرُ بذلك من جنسِ أمرِ جبريلَ النبي ﷺ بنزعِ نعليه؛ لأنَّه كان فيهما قَدْرٌ، وذلك كما جاء في حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ؛ قال: بينما النبي ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ، أَلْقَوْا نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) أخرجه أحمد (٤٢٢/٢).

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٥٨٠).

صَلَاتُهُ، قَالَ: (مَا حَمَلَكُم عَلَى إِلْقَاءِ نِعَالِكُمْ؟) (١)، قَالُوا: رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَيْكَ، فَأَلْقَيْنَا نِعَالَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ جِبْرِيلَ ﷺ أَنَانِي، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَلَرًا - أَوْ قَالَ: أَدَى -)، وَقَالَ: (إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَلَرًا أَوْ أَدَى، فَلْيَمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا)؛ رواه أحمد وأبو داود (٢).

الصلوة في النعال، ودخول المساجد بها:

ولا يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: عَدَمُ اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ بِالنُّعَالِ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ بِهَا مُحَلٌّ اتِّفَاقٍ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ عَلَى جَوَازِهَا، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ عِنْدَهُمْ فِي الْاسْتِحْبَابِ مِنْ عَدَمِهِ؛ وَذَلِكَ لِثُبُوتِ الصَّلَاةِ بِهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَدْ كَانَ يُصَلِّي فِي نَعْلَيْهِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ (٣)، بَلْ كَانَ يَأْمُرُ بِذَلِكَ؛ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ؛ مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (خَالِفُوا الْيَهُودَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي نِعَالِهِمْ وَلَا خِفَافِهِمْ) (٤)، وَقَدْ كَانَ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ تَارَةً وَيَنْزِعُهُمَا تَارَةً؛ كَمَا رَوَى عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ؛ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي خَافِيًا وَمُتَّعِلًا»؛ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ (٥).

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي النِّجَاسَةِ الَّتِي تُصِيبُ أَسْفَلَ النِّعْلِ: هَلْ تَطْهَرُ بِذَلِكَهَا بِالْأَرْضِ وَطَوِيلِ الْمَشْيِ عَلَيْهَا، أَوْ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا بِالغَسْلِ وَالتَّطْهِيرِ؟ عَلَى أَقْوَالٍ ثَلَاثَةٍ، وَهِيَ ثَلَاثُ رَوَايَاتٍ عَنْ أَحْمَدَ:

فَقِيلَ: إِنَّهَا تَطْهَرُ بِالدَّلَالِ وَطَوِيلِ الْمَشْيِ فِي الْأَرْضِ؛ وَهَذَا قَوْلُ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٩٢/٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٦٥٠).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٨٦)، وَمُسْلِمٌ (٥٥٥).

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٦٥٢).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧٤/٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (٦٥٣)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٠٣٨).

للسافعي قديم، وبه يقول بعض أهل الحديث؛ كابن أبي شينة، ويحيى بن يحيى النيسابوري.

وقيل: بعدم طهارتها.

وفرق قوم بين نجاسة البول ونجاسة العذرة بأن البول يطهر بالدلك بخلاف العذرة.

وظاهر الأحاديث: أن الدلك وطول المشي يكفيها في تطهيرها، ولم يثبت عن النبي ﷺ الأمر بغسل النعال.

والمساجد اليوم ليست كالمساجد بالأمس؛ ففيها الفرش الغالية التي يظهر فيها أدنى وظء للنعال، فضلاً عن النجاسات والقاذورات، فتلزق بها ويبقى أثر عيניה ورائحتها فيها، وينبغي صيانتها عن النعال طاهرة وغير طاهرة، ما لم تكن النعال تلبس للمسجد خاصة، وقد كان يفعل ذلك بعض السلف؛ يجعلون للمسجد نعالاً خاصة به؛ كما روى مروان بن الأصغر؛ قال: رأيت طاووساً يأتي المسجد، فإذا بلغ الباب، نزع نعليه، وأخرج نعلًا له أخرى، فلبسها ودخل^(١).

وإذا كان المصلي من أهل الحاجة والضرورة، فبتعاهد نعله، ويتحرى في موطنه، ويدخل ولا حرج عليه، ولا ينبغي المساواة بين هيئة المساجد التي كان السلف يصلون فيها بנعالهم وبين أكثر المساجد اليوم التي تفرش وتبلط بالرخام.

والبلاط أشد من التراب، فينبغي صيانة المساجد التي فيها بلاط أكثر من المساجد التي فيها تراب؛ وذلك لأن التراب يوطأ وينقلب ويكون أعلاه أسفلهُ وتُدقُّ فيه القذارات، بخلاف البلاط فتبقى على

(١) أخرجه الفاكي في «أخبار مكة» (١٤٩٥).

سطحه، وتلزق القذارات في البلاط أشد من التراب، وتظهر عليه أشد من ظهورها على التراب.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

في هذا: وجوب إقامة الصلاة المكتوبة وأدائها إذا نسيته بعد تذكرها، واللام في قوله تعالى، ﴿لِذِكْرِي﴾ حُمِلَتْ على معنيين: فقبل: لأنها لام سبب؛ يعني: أقم الصلاة لتذكرني بها. وقيل: هي بمعنى (عند)، والمراد: أقم الصلاة متى ذكرتها؛ وهذا الأشهر.

قضاء الفرائض الفائقة وترتيبها:

وتنقضى الفرائض في كل وقت متى ذكرها ناسيها؛ وذلك لظاهر الآية، سواء كان ذلك في وقت نهي أو غيره؛ لأن الفرائض المنسية أكد ذوات الأسباب.

وعلى هذا عامة السلف وأكثر الفقهاء.

خلافًا لأبي حنيفة، فقد جعل تقدم النبي ﷺ لما نام عن صلاة الفجر وقام عند طلوع الشمس: أن ذلك كان بسبب أنها كانت بين قرني شيطان، وهو وقت نهي، فتقدم حتى ترتفع.

وهذا غير ظاهر في الحديث، ولا فهمه كذلك أحد من الصحابة، وفي الحديث قال: (فَمَا أَبْقَطْنَا إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ)^(١)، وحر الشمس لا يكون إلا بعد ارتفاعها، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).

وقد أمر النبي ﷺ بذلك؛ كما في «الصحيحين»؛ من حديث أنس: (مَنْ نَسِيَ صَلَاةً، فَلْيَبْصُلْ إِذَا ذَكَرَهَا؛ لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾) (١).

وأما ما يقوله بعض الفقهاء: أَنَّ الصَّلَاةَ الْمُنْسِيَّةَ لَا تُقْضَى إِلَّا مَع مَثِيلَتِهَا مِنَ الْغَدِ، فهذا لا دليل عليه، ويُخَالِفُ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ، وَصَرِيحَ السُّنَّةِ، وَعَمَلَ الصَّاحِبَةِ ﷺ.

وإذا اجتمعت صلاتان: حاضرة ومنسية، والوقت متسع، فالواجب عند عامة الفقهاء من المذاهب الأربعة تقديم المنسية؛ لأنها أسبق، ولحق الترتيب بينهما؛ فهما في حكم الصلاتين الحاضرتين المجموعتين؛ كالظهر والعصر، والمغرب والعشاء، ولما فاتت صلاة العصر النبي ﷺ حتى غابت الشمس، صلاها ثم صلى المغرب؛ كما في «الصحيحين»؛ من حديث جابر بن عبد الله؛ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، بَعْدَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كِدْتُ أَصَلِّيَ الْعَصْرَ، حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا)، فَقُمْنَا إِلَى بُطْحَانَ، فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ (٢).

ولم يثبت أَنَّ النبي ﷺ صلى على غير ترتيب؛ لا صلوات فائتة، ولا صلوات حاضرة بمجموعة.

وإذا كان الوقت ضيقاً لا يتسع لتقديم الفائتة على الحاضرة، وإنما يكفي للحاضرة فقط، فيقدم الحاضرة على الفائتة، ويسقط عنه الترتيب؛ حتى لا يكون في حقه فائتان بدلاً من صلاة فائتة واحدة.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٦)، ومسلم (٦٣١).

وعلى هذا أكثرُ الفقهاءِ مِنَ المذاهبِ؛ وبهذا قال ابنُ المسيَّبِ
والحسنُ وربيعٌ.

وخالفَ في ذلك المالكيَّةُ، فقالوا بوجوبِ الترتيبِ ليسيرِ الفوائتِ
ولو فاتتِ الصلاةُ الحاضرةُ، وهو روايةٌ عن أحمدَ اختارَهَا بعضُ
أصحابِهِ؛ كالخلَّالِ وأبي بكرٍ.

والفقهاءُ يختلفونَ في وجوبِ الترتيبِ وإن قالوا بمشروعِيَّتِهِ جميعًا،
على أقوالٍ ثلاثةٍ:

قالت طائفةٌ: بوجوبِ الترتيبِ بينَ فوائتِ الصلواتِ كثيرِها
ويسيرِها؛ وهذا ظاهرُ مذهبِ أحمدَ؛ لأنَّ القضاءَ يَحْكِي الأداءَ.

وذهبت طائفةٌ: إلى وجوبِ الترتيبِ في يسيرِ الفوائتِ لا كثيرِها؛
وهذا ظاهرُ مذهبِ المالكيَّةِ والحنفيَّةِ، واختلفُوا في الفَرْقِ بينَ الكثيرِ
واليسيرِ، وعامَّتُهُم على أَنَّ اليومَ والليلةَ يسيرٌ يجبُ الترتيبُ فيه.

وذهبت طائفةٌ: إلى استحبابِ الترتيبِ عندَ قضاءِ الفوائتِ، وأَنَّهُ لا
يجبُ؛ وهذا مذهبُ الشافعيَّةِ؛ وذلك أَنَّ الفوائتِ كالدُّيُونِ لا يضرُّه بآيُها
بَدَأَ.

وظاهرُ الأقوالِ: أَنَّ الصلواتِ الكثيرةَ لا يجبُ فيها الترتيبُ، وهو
قولُ جمهورِ الفقهاءِ مِنَ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشافعيَّةِ، خلافاً لأحمدَ فلا
يُفَرِّقُ بينَ قليلٍ وكثيرٍ.

وَمَنْ نَسِيَ صلاةَ فاتئةٍ، ثُمَّ صَلَّى حاضرةً، فتذكَّرَ الفاتئةَ في الوقتِ،
فلا يجبُ عليه أنْ يُعِيدَ الحاضرةَ عندَ أحمدَ؛ فَإِنَّهُ يُسْقِطُ الترتيبَ
بِالنُّسْيَانِ، وَأَمَّا مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: (مَنْ
نَسِيَ صَلَاةً فَلَمْ يَذْكُرْهَا إِلَّا وَهُوَ مَعَ الْإِمَامِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، فَلْيُعِيدْ

الصَّلَاةَ الَّتِي نَسِيَ، ثُمَّ لُبِعِدَ الصَّلَاةَ الَّتِي صَلَّاهَا مَعَ الْإِمَامِ^(١)، فَلَا يَصِحُّ، بَلْ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: هُوَ خَطَأٌ. وَأَنْكَرَهُ ابْنُ مَعِينٍ^(٢) وَعَامَّةُ النَّقَّادِ.

وَالصَّوَابُ وَفْقُهُ؛ كَمَا رَجَّحَهُ أَبُو زُرْعَةَ^(٣)، وَالِدَارِقُطْنِيُّ^(٤)، وَابْنُ عَدِيٍّ^(٥)، وَالْبَيْهَقِيُّ^(٦)، وَغَيْرُهُمْ.

وَيَسْقُطُ التَّرْتِيبُ خَشْيَةً قَوْتِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ؛ لِلأَمْرِ الصَّرِيحِ بِهَا، وَلِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ انْفِرَادُ الرَّجُلِ بِصَلَاةٍ فَائِثَةٍ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ فِي الْمَسْجِدِ جَمَاعَةً؛ وَهَذَا قَوْلُ الْأَثَمَةِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِنَّمَا خَلَفَهُمْ فِي إِعَادَةِ مَا صَلَّاهُ مَعَ الْإِمَامِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَائِثَةِ لِيَتَحَقَّقَ لَهُ التَّرْتِيبُ؛ لِأَنَّهُ امْتَثَلَ الأَمْرَ فَصَلَّى جَمَاعَةً وَلَمْ يَنْفِرْ وَحْدَهُ، وَالْأَرْجَحُ: أَنَّهُ لَا يُعِيدُ؛ وَهَذَا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ، وَاخْتَارَهَا ابْنُ تَيْمِيَّةَ.

وَالْجَمْهُورُ: عَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الصَّلَاةَ؛ وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَدَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَمَرَ، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ فِي «الْمَوْطَأِ»، عَنْ نَافِعٍ؛ أَنَّ ابْنَ عَمَرَ قَالَ: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً، فَلَمْ يَذْكُرْهَا إِلَّا وَهُوَ مَعَ الْإِمَامِ، فَإِذَا سَلَّمَ الْإِمَامُ، فَلْيُصَلِّ الصَّلَاةَ الَّتِي نَسِيَ، ثُمَّ لْيُصَلِّ بَعْدَهَا الْآخَرَى»^(٧).

هل للصَّلَاةِ الْفَائِثَةِ أَذَانٌ وَإِقَامَةٌ؟

ظَاهِرُ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِأَدَاءِ الصَّلَاةِ الْمُنْسِيَةِ وَلَمْ يَأْمُرْ بِشَيْءٍ قَبْلَهَا،

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكَبِيرِ» (٢/٢٢١).

(٢) «عِلَلُ الْحَدِيثِ» لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٢/١٧٢ - ١٧٣).

(٣) «عِلَلُ الْحَدِيثِ» لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٢/١٧٢).

(٤) «عِلَلُ الدَّارِقُطْنِيِّ» (١٣/٢٤).

(٥) «الْكَامِلُ فِي ضَعْفِ الرِّجَالِ» (٣/٤٠٠).

(٦) «السَّنَنِ الْكَبِيرِ» لِلْبَيْهَقِيِّ (٢/٢٢١).

(٧) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (١/١٦٨).

وقد اتَّفَقَ الأئمةُ الأربعةُ على أنه يُقامُ للصلاةِ الفائتةِ، ولكنَّهم اختلفوا في الأذانِ لها على قولين:

ذهب مالكٌ والشافعي وغيرُهما: إلى أنه لا يُؤذَّنُ لها؛ لأنَّ الإقامةَ إشعارٌ لقُربِ الدخولِ في الصلاةِ، بخلافِ الأذانِ؛ لأنَّه إعلامٌ بدخولِ الوقتِ.

وذهب أحمدٌ وأبو حنيفة: إلى أنه يُؤذَّنُ لها كما يُقامُ.

وذهب سُفيانٌ: إلى أنه لا يُؤذَّنُ لها ولا يُقامُ.

وإنَّما اختلفَ الفقهاءُ في ذلك؛ لاختلافِ الرواياتِ في قضاءِ النبي ﷺ لِمَا فاتَ منه في الحَنَدَقِ وفي قصةِ التَّغْرِيسِ لصلاةِ الفجرِ؛ ففي بعضها يذكُرُ الأذانَ وفي بعضها لا يذكُرُه، والثابتُ في «الصحيح»: أنَّ النبي ﷺ أمرَ بلالاً أن يُؤذَّنَ في الناسِ، وذلك عندما نام النبي ﷺ والصحابةُ عن صلاةِ الفجرِ حتى طلعَ حاجِبُ الشمسِ، وفيه قال النبي ﷺ لبلالٍ: (يَا بِلَالُ، قُمْ فَأَذِّنْ بِالنَّاسِ بِالصَّلَاةِ)، فتَوَضَّأَ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ وَابْتِأَصَتْ، قَامَ فَصَلَّى^(١).

وحملَ بعضهم ذلك على دعوةِ الناسِ إلى الصلاةِ وجمْعهم لا النداءِ المعروفِ.

وهذا الحملُ فيه نظرٌ، وعدمُ ذكْرِهِ في بعضِ الرواياتِ لا يعني عدمَ فعلِهِ؛ فإنَّ عدمَ الذِّكْرِ لا يدلُّ على العدمِ، وقد جاء صريحاً في حديثِ أبي قتادة: قال: (إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ، يَا بِلَالُ، قُمْ فَأَذِّنْ بِالنَّاسِ بِالصَّلَاةِ)، فتَوَضَّأَ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ وَابْتِأَصَتْ، قَامَ فَصَلَّى^(٢).

وجاء ذلك صريحاً عند النسائي؛ من حديث بُرَيْدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ،
عن أبيه^(١).

وعند أحمد من حديث ابن مسعود^(٢).

والأظهر: أَنَّ الحالَ تَخْتَلِفُ؛ فَمَنْ كَانَ فِي حَضَرٍ وَنَامَ عَنِ الصَّلَاةِ،
فَإِنَّ أَذَانَهُ لِلصَّلَاةِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا، وَحَالُهُمْ لَيْسَتْ كَحَالِهِ، وَالْأَفْضَلُ فِي
حَقِّهِ: تَرْكُ الْأَذَانِ فِي الْحَضَرِ، وَإِنْ رَأَى أَنْ يُؤَذَّنَ فَلْيُؤَذِّنْ لِنَفْسِهِ؛ حَتَّى لَا
يَلْبَسَ عَلَى النَّاسِ؛ كَمَا صَرَّحَ بِهَذَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ؛
وإِنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَذَانِ وَهُوَ فِي سَفَرٍ.

حُكْمُ قِضَاءِ النَّوَافِلِ:

وَأَمَّا قِضَاءُ النَّوَافِلِ، فَفِيهِ خِلَافٌ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَقْوَالٍ، وَأَشْهَرُهَا
قَوْلَانِ، وَهُمَا رَوَاتَانِ عَنْ أَحْمَدَ:

الْأَوَّلُ: قَالُوا بِالْقِضَاءِ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ.

الثَّانِي: أَنَّهَا لَا تُقْضَى؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَجَمَاعَةٌ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ تَرْكِ النَّافِلَةِ نِسْيَانًا وَشُغْلًا وَبَيْنَ تَرْكِهَا عَمْدًا؛
فَعِنْدَ النَّسْيَانِ وَالشُّغْلِ: يَرَى قِضَاءَهَا، وَعِنْدَ الْعَمْدِ: لَا يَرَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ
تَرْكُهَا عَمْدًا وَأَدَاؤُهَا فِي وَقْتٍ غَيْرِ وَقْتِهَا يَقْتَضِي تَبْدِيلًا بِالْهَوَى لِمَوَاقِيتِ
النَّوَافِلِ، وَهِيَ تَوْقِيفِيَّةٌ، وَلَوْ أُطْلِقَ الْجَوَازُ وَلَمْ يُعَلَّقْ بِعُذْرٍ، كَانَ بَابًا
لِتَفْوِيتِ عِبَادَةٍ عَنْ وَقْتِهَا.

وَالْتَفْرِيقُ وَجِيهٌ؛ وَذَلِكَ لِمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ؛
أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَرَكَ الرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَصَلَّاهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّهُ
أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ بِالْإِسْلَامِ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَشَغَلُونِي عَنِ الرُّكْعَتَيْنِ

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٦٢١).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٥٠/١).

اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ، فَهُمَا هَاتَانِ^(١)، وهذا ترك من النبي ﷺ، وبين سببه، وهو الشُّغْلُ عنها.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُومَنَ﴾ ١٧ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبَ أُخْرَى﴾ [طه: ١٧ - ١٨].

في هذه الآية: استحباب استعمال اليد اليمنى في الحاجات، والأخذ والإعطاء، والضرب والهش، فضلاً عن الأكل والشرب، والسلام، والكتابة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤٨].

ومن هذا يؤتى المؤمنون كتبهم بأيمانهم، ويؤتى الكفار كتبهم بشمالهم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ يَمِينُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

وأما النجاسات والقذارة والأذى، فتستعمل فيها الشمال، ويكره استعمال اليمين؛ لقول عائشة عن النبي ﷺ: «وَكَاثِبِ الْيُسْرَى لِخَلَائِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ أَذَى»^(٢)، وعن حفصة؛ قالت: «وَكَانَ يَجْعَلُ يَمِينَهُ لِأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ، وَوُضُوئِهِ وَتِيَابِهِ، وَأَخْذِهِ وَعَطَائِهِ، وَكَانَ يَجْعَلُ شِمَالَهُ لِمَا سِوَى ذَلِكَ»^(٣).

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٥/٦)، وأبو داود (٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٧/٦)، وأبو داود (٣٢).

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِ ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ هَرُونَ أَخِي ﴾ ﴿ ٣٠ ﴾ أَشَدُّ دَرَجَةً أَزْرَى ﴾ ﴿ ٣١ ﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه : ٢٩ - ٣٢].

في هذا: استحبابُ اتِّخَاذِ الوُزَرَاءِ والمستشارين الثقاتِ يَعْضُدُونَ في الحقِّ وَيُعِينُونَ عليه، وكلُّما كانتِ الأمانةُ أعظمَ، كانتِ الحاجةُ إلى المُعِينِ عليها أظهرَ.

استحبابُ اتِّخَاذِ الْبِطَانَةِ الصَّالِحَةِ والوزيرِ الْمُعِينِ:

وإنَّ اللهَ جَعَلَ الْقُرْبَ مِنَ الْوَجْهِ بِعِلْمٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَمْرًا مَقْدُورًا عَلَيْهِ؛ فعليه أن يُقَرِّبَ إِلَيْهِ الصَّادِقِينَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ؛ وذلكَ لِأَنَّ النَّاسَ تَطَمَعُ فِي ذِي الْيَدِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ وَالْقُوَّةِ، وفي «الصحيح»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ؛ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَا اسْتَخْلَفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ؛ وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ) ^(١).

وهذا إن كان في الأنبياءِ والخُلَفَاءِ، فهو في غيرهم مِنَ السُّلَاطِينِ والعلماءِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ وذلكَ لِأَنَّ النَّاسَ يَقْرُبُونَ فَيَخْتَلِطُ أَمْرُهُمْ، وكلُّهم يُبْذِرُ مَصْلَحَةً مِّنْ قُرْبَا مِنْهُ، وَلَا يَعْلَمُ بِوَاطِنِهِمْ إِلَّا اللهُ، والواجِبُ عَلَى الْحَاكِمِ وَالْعَالِمِ: اتِّخَاذُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذُوهُ، وقد كان النَّبِيُّ ﷺ يَدْنُو مِنْهُ الْأَوْلِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَيَدْنُو مِنْهُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُرْتَضِقُونَ، وَكَانَ يَتَّخِذُ بِطَانَةً مِنْهُمْ وَلَا يَتَّخِذُ وَتَهُ؛ فَبِطَانَتُهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ، وَلَا يَمْنَعُ جَلِيسًا مُرِيدًا لِلْخَيْرِ؛ لَكِنَّهُ لَا يَتَّخِذُ كُلَّ أَحَدٍ أَمِينًا وَوَزِيرًا وَبِطَانَةً، وقد يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وفي «الصحيح»؛ قَالَ عُمَرُ

(١) أخرجه البخاري (٦٦١١).

له: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ»^(١).

وَمِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ: أَنْ يُقَدَّرَ لَهُ بَطَانَةٌ خَيْرٍ وَوُزَرَاءُ حَقٍّ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا: (مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلًا فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا؛ إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَهَانَهُ)؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ^(٢).

وَأَكْثَرُ مَا يُؤْنِي السُّلْطَانُ وَالْعَالِمُ مِنْ بَطَانَتِهِ، فَيَتَّخِذُونَهُ بَطَانَةً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُمْ، فَيُقَرَّبُ مَنْ يُصْلِحُ دُنْيَاهُ، وَلَا يَلْتَفِتُ لِمَا يُصْلِحُ دِينَهُ، وَبَيْنَهُمَا مَرَاتِبُ كَثِيرَةٌ، وَاسْتِخْبَارُ النَّاسِ وَتَجَرِبَتُهُمْ وَتَتَبُّعُهُمْ وَاصْطِفَاءُ الصَّادِقِينَ أَهْلِ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ: مَطْلَبٌ وَاجِبٌ كُلَّمَا عَلَا قَدْرُ الرَّجُلِ فِي النَّاسِ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَاتَّبَاعُ النَّاسِ لَهُ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْ نَسِيكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٣].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: فَضْلُ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ خَاصَّةً، وَالْاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ بِالتَّذْكِيرِ وَعِمَارَةِ الْمَجَالِسِ بِهِ، وَأَنَّ مِنْ مَقَاصِدِ صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ الْإِعَانَةُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا احْتِاجَ إِلَيْهِ مُوسَى وَهُوَ نَبِيٌّ، فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ.

وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]؛ فَإِنَّ صُحْبَةَ الصَّالِحِينَ تَحْتَاجُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤٨٣).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٧٠/٦)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢٩٣٢)، وَالنَّسَائِيُّ (٤٢٠٤).

إلى صبر، وهي من أعظم ما يُعين على طاعة الله بالصلاة والذكر والدعاء.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَنِي أَخُتَاكَ فَقَوْلُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْتَا إِلَيْكَ أُمُوكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

في هذه الآية: مشروعية كفالة الصغير، وخاصةً البتيم ومن فقدت أمه، وقد تقدّم الكلام على مسألة الرضاع عند قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وتقدّم الكلام على الحضانة للصغير عند قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

لما قام السامري بصناعة العجل من ذهب بني إسرائيل، وعبدّه هو ومن معه، غَضِبَ موسى على ما فعل، وقام بحرقه ونسفه في البحر. وفي هذا أن موسى قام بآتلاف المال، وهو الذهب، ولم يقم بحفظه ولا تغييره بصياغته؛ خشية تعلّق قلب بني إسرائيل به؛ فقد أشرّبت قلوبهم حُبّه وتعظيمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]؛ يعني: امتزج بقلوبهم كما لو شربوه فجرى في عروقهم.

وذلك الآية على أن حفظ ضرورة الدين مقدّمة على حفظ ضرورة المال، وأنّه لا حرمة للأموال إن كانت تُعارض إقامة توحيده، وأنّه يجب

إِتْلَافُهَا إِنْ كَانَتْ الْحَالَةُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ مُوسَى لَوْ غَيَّرَهَا بِصِبَاغَتِهَا، لَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ يَجْمَعُهَا، أَوْ يَعْبُدُ مَا صَاعَهُ مِنْهَا وَقِطْعَةً وَلَوْ فِي فَلَانٍ فِي أَعْنَاقِ النِّسَاءِ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا مَا فَعَلَهُ مُوسَى، وَهُوَ وَخِي، فَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَصْنَامِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ النَّاسُ بِهَا وَيَأْصُولُهَا وَلَوْ كَانَتْ ثَمِينَةً الْقِيَمَةِ لِتَارِيخِهَا وَنَفَاسَةً جَوْهَرِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا أَعْظَمَ وَلَا أَشَدَّ نَفَاسَةً مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ الَّذِي لِأَجْلِهِ وَجِدَ الْخَلْقَ وَأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتِ الْكُتُبُ.

وَإِنْ كَانَتْ الْأَصْنَامُ تُصْنَعُ مِنْ جَوْهَرٍ نَفِيسٍ وَلَمْ تَتَعَلَّقْ بِعَيْنِهَا النُّفُوسُ، وَيُمْكِنُ تَغْيِيرُهَا وَصَهْرُهَا وَانْتِفَاعُ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِ مَقْسُودٍ لَاحِقَةٍ، فَالْأَمْرُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَخْتَلِفُ؛ لِاخْتِلَافِ الْحَالِ وَالْعِلَّةِ؛ فَإِنَّ الْحُكْمَ يَخْتَلِفُ تَبَعًا؛ فَإِنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا وَعَدَمًا.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: بَيَانُ أَنَّ الْكَسْبَ وَالنَّفَقَةَ عَلَى الرَّجُلِ وَاجِبٌ، وَأَنَّهُ فَرَضٌ عَلَيْهِ فُطْرَةً جُبِلَ عَلَيْهَا آدَمُ وَحَوَّاءُ مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هَالِ لآدَمَ وَحَوَّاءَ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ قَبْلَ خُرُوجِهِمَا، مُحَلَّزًا مِنَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ اسْتِجَابَةً لِتَلْبِيسِ إِبْلِيسَ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾؛ أَي: تَخْرُجَانِ جَمِيعًا وَالشَّقَاءُ لآدَمَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَكْفِيًا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ وَالْعَمَلِ وَالتَّكْسِبِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا، فَسَيَشْقَى وَحْدَهُ، وَمَحَلُّ حَوَّاءَ فِي قَرَارِهَا، وَاللَّهُ أَمَرَ الرَّجَالَ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَنْهَ النِّسَاءَ عَنِ التَّكْسِبِ إِنْ احْتَجَّ إِلَى مِنْ غَيْرِ تَبَرُّجٍ وَلَا اخْتِلَاطٍ بِالرِّجَالِ الْأَجَانِبِ.

وقد بيّنا وجوب كسب الرجل وكفاية المرأة عند قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النُّسَاءِ﴾ بما فضّل الله بعضهم على بعض وبيّنا أنفقوا من أموالهم ﴿النساء: ٣٤﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْغُوبًا﴾ [النساء: ٥]، ويأتي شيء من ذلك عند قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النِّكَاكِ يَسْتَفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَعِيَ حَتَّىٰ بَصِيرَ الرِّجَاءِ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [٢٣].

* * *

قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فِدَتْ لَكُمَا سَوَاتُهُمَا وَطِفَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رِبَّهُ فَوُتِيَ﴾ [طه: ١٢١].

جازى الله آدم وحواء بظهور سوءتيهما في الجنة بعد عصيانها، وقاما بستر عورتيهما من الورق؛ لأن ستر العورات فطرة جبل عليها الإنسان، ولو لم يره أحد بلا حاجة، ولو كانت عنده زوجته ومن يحل له كآمته، وقد تقدّم الكلام في هذا، وبيان حكم العورات، وما جرى لآدم وحواء في الجنة، وحقيقة الستر في الصلوات وغيرها، وحدود ذلك، عند قوله تعالى: ﴿فَدَلَّلْنَاهَا بِمُرْسَرٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَكُمَا سَوَاتُهُمَا وَطِفَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

* * *

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

في هذه الآية: أمر بالصبر، وبيان بما يُعين عليه، وهو ذكر الله

وإقامة الصلاة له في مواقبتها؛ فإن ذلك من أعظم ما يُعين على الحق وقوله، وأكبر ما يُعين على الثبات على الطاعة واليقين بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَسْمِعُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقد تقدّم الكلام على مواقيت الصلاة في القرآن، ومعنى التسبيح عندها في سورة هود عند قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [١١٤].

* * *

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

أمر الله نبيه بأن يأمر أهله بالصلاة والصبر عليها أمراً وأداءً؛ لأن حفظ الأقربين أولى من غيرهم، واستصلاحهم أوجب؛ وبهذا أمر الله نبيه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقد تقدّم بيان حق الأهل والنزرة بالأمر بالصلاة عند ذكر الله لإسماعيل ومذحه على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

* * *



سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وهي سورة مكية من العتافي الأول السابقة التي نزلت على النبي ﷺ بمكة، وفيها من قصص الأنبياء وما أنزل عليهم من كتبٍ وعبرٍ وحجج، وذكر ثباتهم وحسن عاقبتهم، وسنة الله في الظالمين من أممهم، وذكر آيات الله ومخلوقاته العظيمة الدالة على قدرته وحقه في العباد، وذكر خلق الإنسان وضعفه وطغيانه وعجلته في أمره واتباعه لنفسه وهواه.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿يَسِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

في هذه الآية: دليل على مشروعية الذكر المطلق في كل زمان، وقد ثبت في الوحي مشروعية الذكر بإطلاق؛ وذلك في عمومات ثلاثة:
الأول: يُشرع الذكر في كل زمان بلا استثناء؛ لهذه الآية: ﴿يَسِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَرُونَ﴾، وقول عائشة رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»؛ رواه مسلم، وعلقه البخاري^(١).
وليس للذكر زمان مخصوص به كالصلاة والصيام والحج؛ فهو أعم منها.

الثاني: يُشرع الذكر على كل حال بلا استثناء؛ كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال تعالى:

(١) أخرجه مسلم (٣٧٣)، والبخاري معلقاً قبل حديث (٣٠٥).

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الثالث: يُشْرَعُ الذِّكْرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وهذا العموم دَخَلَهُ استثناءٌ بسيرٌ، كعند قضاء الحاجة وما يَلْحَقُ بها؛ وذلك لأنَّ النبي ﷺ لم يَرُدَّ السلامَ على مَنْ سَلَّمَ عليه وهو على حاجته^(١).

والشريعةُ خَصَّتْ بعضَ الأحوالِ والأزمانِ والأمكنةِ بِذِكْرِ مخصوصٍ فيكونُ فيها الذِّكْرُ سُنَّةً، ويكونُ فاضلاً وغيره مفضولاً، بل إنَّ تعمُّدَ تَرْكِ الفاضلِ في هذا الموضعِ والمداومةَ على غيره فيما جاءتِ السُّنَّةُ بخلافه، فذلك بِذَعَةٍ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُم كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَوَلَّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣].

في هذه الآيةِ نَسَبَ إبراهيمُ تحطيمَ الأصنامِ إلى كبيرِ الأصنامِ مع أنَّه هو الذي فعله، وليس هذا مِنَ الكَذِبِ الصريحِ؛ لأنَّ قَوْمَهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ الأصنامَ لا تتحرَّكُ، وليس فيها قُوَّةٌ ذاتِيَّةٌ تَقْدِرُ على التصرفِ؛ وإنَّما أرادَ إرجاعَهُمْ إلى الحقِّ فيَتَفَكَّرُونَ فيما يَعْبُدُونَ مما لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نفعًا ولا ضرًا. ويُسمَّى ذلك تجوُّزًا بالكذبِ؛ لأنَّه يُخَالِفُ الحقيقةَ المفوظةَ ولو كان معلومًا به معنًى عندَ القائلِ به وسامِعِهِ، وهذه هي المَعَارِضُ، والمعارِضُ تُسْتَعْمَلُ عندَ الحاجةِ وتجوُّزًا، وليست مِنَ الكَذِبِ المَحْضِ؛ كما في قولِ عِمرانَ: «إِنَّ فِي المَعَارِضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الكَذِبِ»^(٢)، وبينَ

(١) أخرجه مسلم (٣٧٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٠٩٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/١٩٩).

المعارض والكذب عموم وخصوص؛ فالكذب أعم من المعارض، والمعارض أخص؛ وذلك أن المعارض هي ما يخالف الحقيقة ظاهراً، ويوافقها باطناً، وأما الكذب فهو ما يخالف الحقيقة ظاهراً وباطناً؛ فاتفقت المعارض مع الكذب في مخالفة الظاهر.

وقد جاء مدح إبراهيم في السنة: أنه لم يستعمل إلا المعارض وفي مواضع ثلاثة؛ كما أخرج البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: (لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ ﷺ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، يُنْتَبِهُ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ ﷻ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾)، قال: (بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةٌ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقَبِلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِبَيْدِهِ فَأَخَذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأَخَذَ مِنْهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبِيَّتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ؛ إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ! فَأَخَذَهَا هَاجِرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلَاةٍ، فَأَوْمَأَ بِبَيْدِهِ: مَهْيَا؟ قَالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ - أَوْ الْفَاجِرِ - فِي نَحْوِهِ، وَأَخَذَهَا هَاجِرَ؛ رواه البخاري^(١).

وجاء في «صحيح مسلم»، في حديث الشفاعة؛ أن إحدى كذباته ﷺ هي قوله للشمس والقمر والكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٧]، ولم يذكر قصة الجبار^(٢).

وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمْ

(٢) أخرجه مسلم (١٩٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨).

يَكْذِبُ إِبْرَاهِيمُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وَلَمْ يَكُنْ سَقِيمًا، وَقَوْلِهِ لِسَارَةَ: أُخْتِي، وَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾^(١).

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَقْوَالِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَجَدَ أَنَّهَا مَعَارِيضٌ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ كَذِبًا؛ لَكُونِهَا تُفْهَمُ مِنَ السَّامِعِ عَلَى خِلَافِ مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ، وَأَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ فِي جَنْبِ اللَّهِ:

أُولَئِكَ: هُوَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾؛ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ يَعْلَمُ - وَقَوْمُهُ مِثْلُهُ - أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَنْطِقُ وَلَا تَنْتَصِرُ لِنَفْسِهَا؛ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا الْقَوْلَ؛ لِيَرْجِعَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَتَفَكَّرُوا فِيمَا غَفَلُوا عَنْهُ.

وَإِحْقَاقُ الْحَقِّ بِالْمَعَارِيضِ جَائِزٌ، بَلْ مَشْرُوعٌ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ يُونُسَ ﷺ: ﴿أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

وَمِنْ جَنْبِهِ قَوْلُهُ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]؛ يُرِيدُ مِنْهُمْ التَّفَكُّرَ وَالتَّأَمُّلَ؛ فَقَالَ لِيُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَيْسَ مُقَرًّا بِهِ لِيَأْخُذُوا ذَلِكَ عَنْهُ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِالتَّنْزِيلِ مَعَ الْخَضَمِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تُقَرُّ بِمَا مَعَهُ إِلَّا تَنْزُلًا؛ لِتَصِلَ إِلَى غَايَةِ بَيِّنَتِهَا مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يُوقَفُ عِنْدَ مَبْتَدَأِ يَفْصِلُ الْمَنَاطِرَةَ بَلَا حَقٍّ وَلَا بَاطِلٍ.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ عَبْدُهُ حَتَّى أَقْلَ^(٢)؛ وَهَذَا مُنْكَرٌ؛ فَالْبَيْتِيُّ ﷺ حِينَما عَدَّ هَذِهِ مِنْ مَعَارِيضِ إِبْرَاهِيمَ، ذَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ وَإِنَّمَا بَاطِنُهَا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا، وَلَوْ كَانَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا وَعَبْدَ الْكُؤُكَبِ حَتَّى أَقْلَ، لَمْ يَكُنْ لَتَسْمِيَةِ قَوْلِهِ: (هَذَا رَبِّي) كَذِبًا - مَعْنَى؛ لِأَنَّهُ شَرِكٌ؛ وَهَذَا لَا يَصُحُّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ.

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣١٦٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٥٦/٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٣٢٨/٤).

وثانيها: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ في سورة الصافات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِذْ جَاءَ رَبُّكَ بِقُلُوبٍ سَلِيمٍ ۝٨٥ إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا وَقَوْمِي مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَفَكَاةً أَوْ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٧ فَظَنَرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَأَى إِلَهُ الْإِنسَانِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۝٩٢ فَرَأَى عَلَيْهِمْ سَمَآءَ الْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِيدُونَ ۝٩٤ قَالَ اتَّعَبُودُونَ مَا تُنْحَوْنَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَعْبِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [٨٣ - ٩٨].

وإنما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ لكي يتخلَّف عنهم في ذهابهم، ويبقى عند أصنامهم ليحطِّمها؛ وهذا يدخل في المُخَادَعَةِ للعدو، وهذا من جنس قوله ﷺ: (الْحَرْبُ خَدْعَةٌ)^(١)، وكان النبي ﷺ إذا أراد غزوة، ورى بغيرها^(٢).

وثالثها: قوله لِسَارَةَ: (أُخْتِي)؛ فإنه أراد الدفع عن زوجته، ودفع الرجل عن عِزِّهِ يجب ولو بدفع الصائل عليه، فإن جازَ الدم، فغيره كالكذب من باب أولى؛ لأنه دُونُهُ؛ فقد قال النبي ﷺ: (مَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)؛ رواه أحمد وأهل السنن؛ من حديث سعيد بن زيد^(٣).

ولو خيَّرَ إنسان بين وقوع صائل على عِزِّهِ وانتهاك فرج امرأته وبين دفعه بالكذب، لكان ذلك جائزاً؛ بل واجباً، وهذا يقضي به العقل والنقل، وإنما تورَّع إبراهيم؛ لعلَّو منزلته ومقامه، ومقامات الأنبياء والأولياء ليست كمقام غيرهم؛ فإنهم يُنزَلُونَ في أنفسهم لا لغيرهم بعض

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٧)، ومسلم (٢٧٦٩) (٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/١٩٠)، وأبو داود (٤٧٧٢)، والترمذي (١٤٢١)، والنسائي

المباحات مقام المكروهات والمحرمات، لا لذاتها؛ وإنما لتعظيمهم لله، ويُزَلُّونَ في أنفسهم بعض المكروهات مقام المؤبقات؛ لمقام الخالق، لا لذات الفعل؛ فهم ينظرون إلى عظمة من يخالفون أمره، لا إلى عظمة فعلهم، وقد وصف الله إبراهيم بالصديقية، وهي مرتبة فوق الصادقية؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

الأحوال التي جاء الترخيص فيها بالكذب للمصلحة:

الأصل في الكذب: التحريم، ولا يجوز أن يتحول الإنسان إلى الكذب إلا للضرورة بقية، وكلُّ حق يستطيع أن يحقِّقه الرجل بالصدق، فلا يحلُّ له الكذب فيه لإحقاقه، وكلُّ باطل يستطيع الرجل دفعه بالحق، فلا يجوز له الكذب فيه لدفعه.

وقد جاء في السنة الترخيص بمواضع محدودة من الكذب، وكلُّها لا تلحق ضرراً بأحد، ولا تذهب حقاً، ولا تجلب باطلاً؛ وإنما تُحقِّق الحق وتبطل الباطل، ولقيلتها وضيقها وحضور القصد لله فيها؛ فإنها لا تطعن صاحبها على كذب.

وقد صحَّ في مسلم، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: (لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يَصْلُحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَبْرًا وَيَنْمِي خَبْرًا)، وفيه أيضاً عن ابن شهاب؛ أنه لم يُرَخَّصْ في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها^(١).

وكلُّ ما لا يتحقق من المصالح إلا بالكذب، فاختلِفَ في دخوله في الأنواع الثلاثة؛ وذلك أن كثيراً من الفقهاء لم يجعلوا الثلاثة في الحديث للحصر؛ وإنما للبيان الذي تجتمع فيه علل المصالح التي يجوز فيها الكذب.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٥).

وَلَا يَحِلُّ الْكَذِبُ لَجَلِبِ كُلِّ مَصْلَحَةٍ؛ فَمِنْهَا الْمَصَالِحُ الضَّعِيفَةُ
الْحَقِيرَةُ الَّتِي لَا تُسَاوِي عِظَمَةَ الْكَذِبِ، وَلَا يَجُوزُ الْكَذِبُ فِي دَفْعِ كُلِّ
سُوءٍ؛ لِأَنَّ مِنَ السُّوءِ مَا هُوَ ضَعِيفٌ لَا يُسَاوِي عِظَمَةَ الْكَذِبِ وَقُبْحَهُ عَلَى
صَاحِبِهِ، وَالْمُوَازَنَةُ فِي ذَلِكَ لَا تَكُونُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ سَوَاءً؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ
فِيهَا الْعَالِمُ الْعَارِفُ بِتَجَرُّدٍ وَصِدْقٍ، مُبْعَدًا هَوَاهُ، صَادِقًا مَعَ اللَّهِ فِي قُضْدِهِ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يُمَاسِكُمَا فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ
غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾﴾ [الأنبياء: ١٧٨].

تَخَاصَمَ رَجُلَانِ إِلَى دَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانَ؛ أَحَدُهُمَا صَاحِبُ غَنَمٍ،
وَالْآخَرُ صَاحِبُ حَرْثٍ، فَدَخَلَتِ الْغَنَمُ عَلَى الْحَرْثِ، فَأَكَلَتْهُ وَأَفْسَدَتْهُ،
فَقَضَى دَاوُدُ أَنَّ الْغَنَمَ لَصَاحِبِ الْحَرْثِ بَدَلًا عَمَّا أَتَلَفَتْ، وَقَضَى سُلَيْمَانُ
أَنَّ صَاحِبَ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الْحَرْثَ وَيُصْلِحُهُ وَيَسْقِيهِ حَتَّى يَصِيرَ كَمَا كَانَ عِنْدَ
أَكْلِهِ، وَالْغَنَمُ تَكُونُ عِنْدَ صَاحِبِ الْحَرْثِ بِنْتِفَعٍ مِنْهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ صَاحِبُهَا
مِنْ إِصْلَاحِ الزَّرْعِ وَثَمَرِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ غَنَمَهُ.

وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلًا؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾،
وَالنَّفْسُ يَكُونُ فِي اللَّيْلِ، وَبِهَذَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ فِي نَاقَةٍ لِلْبَرَاءِ دَخَلَتْ
حَائِطَ قَوْمٍ فَأَفْسَدَتْهُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي حِفْظَهَا بِاللَّيْلِ،
وَعَلَى أَهْلِ الْأَمْوَالِ حِفْظَهَا بِالنَّهَارِ؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ^(١).

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الضَّمَانِ فِيمَا أَفْسَدَتِ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَالِ،
سَوَاءً كَانَ حَرْثًا أَوْ مَتَاعًا:

ذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ: إِلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ مَا تُفْسِدُهُ بِاللَّيْلِ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٣٦/٥)، وَأَبُو دَاوُدَ (٣٥٦٩).

وبين ما تُفسدُه بالنهار؛ فأما ما تُفسدُه بالليل، فالضمان على صاحبها؛ وذلك لما جاء في قصة البراء، ولما جاء في قضاء سُليمان عليه السلام، وإن أفسدت بالنهار، فلا ضمان على صاحبها؛ لعموم قوله ﷺ: (العجماء جبار)؛ رواه الشيخان^(١).

وفرقوا بين الليل والنهار؛ للتفريق بينهما في الوحي. وذهب أبو حنيفة: إلى أنه لا ضمان في الليل والنهار على صاحبها، وعمم حديث: (العجماء جبار)، ولم يقيده، والصواب: تقيده بالنهار؛ لأن إطلاق ذلك يُفسد على الناس ماله، وليس في الناس قنرة على اليقظة في الليل؛ لحماية منافعهم وبساتينهم، ولكن للراعي قنرة على حفظ البهائم في مراقبها، وأما النهار، فهو محل عمل ورؤية لصاحب المال أن يحفظ ماله، والبهائم مطلقة ترعى يصعب قيدها في النهار عكس الليل.

ويلحق بهذه المسألة ما تُسببه البهائم من حوادث في الطرقات؛ فما تسببت به ليلاً، فالضمان على صاحبها، وما تسببت به نهاراً، فلا ضمان عليه؛ للحديث؛ وذلك أن السير في الطريق نهاراً يرى معه الراكب طريقه مدّ بصره بخلاف الليل، وإن أصاب بهيمة أو أصابته بهيمة في طريقه، فبسبب إهماله أكثر من إهمال صاحبها.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

اجتهد داود وسليمان في القضاء في شكوى الرجلين، وفي هذا دليل على جواز الاجتهاد في مواضعه وعند من يملك آتته، ومن اجتهد

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٢)، ومسلم (١٧١٠).

فهو مأجور؛ وذلك لما في «الصحيحين»؛ من حديث عمرو بن العاص؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ) ^(١).

ولا يجوز لأحد أن يقضي في مسألة برأيه إلا بشروط:

الأول: أن يكون عالماً يملك آلة الاجتهاد بما يقضي فيه؛ ولهذا وصف النبي ﷺ المجتهد المأجور بـ (الحاكم)؛ يعني: الذي يعرف مفاصل الحكم ومقاطع الحقوق وأدلتها، ولا يسمى حاكماً إلا وقد تأهل للحكم، ومن تكلم بأمر من غير تأهل فيه، فهو خاress لا حاكم، وكذلك فإن الله قال عن داود وسليمان مبيّناً سبب تأهلهما للحكم: ﴿وَكُنَّا عَالِمِينَ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

الثاني: أن يستفرغ وسعته باجتهاده؛ فإن العالم لا يلزم من كونه عالماً أن يطلق الحكم من غير تأمل وتفكير واستفراغ للوسع؛ بجمع الأدلة وعرضها وتميزها، ومعرفة لما ورد من الأدلة وما لم يرد، وبالنظر في دلالات النصوص وهل حسم الشارع المسألة بنص قطعي أو ظني أو تركها؛ فإن النبي ﷺ قال: (إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ)؛ يعني: أنه أفرغ وسعته ولم يتكلم بخرص، فقد يتساوى العالم بالجاهل عند خرصه، فلا فرق بين جاهل يجتهد وعالم خاress؛ فكلاهما قال بغير علم، وفي «السنن»؛ قال النبي ﷺ: (الْفُضَاءُ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ؛ فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ، فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ) ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٨٩١)، وابن ماجه (٢٣١٥).

الثالث: أن يكون عارفاً بالنازلة التي يقضي فيها؛ فإن الإحاطة بالأدلة لا تكفي للحكم على نوازل لا يحيط بها العالم، فقد يستعمل الدليل في غير موضعه وما لا يناسبه، فيخطئ بتفسيره لا باجتهاده.

والعالم المجتهد المخطئ مأجور أجراً واحداً، والمصيب المجتهد له أجران؛ كما في الحديث؛ فكلأهما استحقَّ أجراً لا اجتهداه، والمصيب استحقَّ الثاني لصوابه وتسديده، وإنما كان الفرق بينهما في الأجر مع أن جميعهما استفرغ وسعه؛ وذلك حتى لا يتواكل العالم في الفتيا ويتعجل، فكان للأجر الثاني نصيب بالطلب والقصد، فلو تساويا، لم يكن للمصيب ولا للصواب خصيصة، وفي النفوس تساهل خفي وجلي يدركها ولو كانت صالحة إن علمت تساوي الأجر في الحالين، ولأنه للصواب شرف وعلو منزلة، فلا بد أن يختص صاحبُه بمنزلة مثل منزله.

* * *

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

في هذه الآية: مشروعية اتخاذ السلاح وحمله ببقائه الإنسان العدو الصائل، وفجأة البأس عليه من حيوان مفترس وإنسان باغ.

ويتضمن هذا أن دفع الإنسان عن نفسه صولة الصائل عليه سنة فطرية، قبل كونه شريعة سماوية، وأن اتخاذ السلاح ولو في غير الحرب محمود لدفع ما يطرأ من بأس، خاصة زمن الفتن والتساهل بالأعراض وسفك الدماء، وقد كان النبي ﷺ وأصحابه يتخذون السلاح في المدينة من غير خوف تبسيت عدو؛ حتى إنهم لاتخاذهم السلاح نهى النبي ﷺ الناس عن رفعه عند دخولهم المسجد به؛ فقال: (إذا مر أحدكم في

مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبَلٌ، فَلْيُمْسِكْ عَلَى نَصَالِهَا - أَوْ قَالَ: فَلْيَقْبِضْ بِكَفِّهِ - أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ^(١).

وفي البخاري ومسلم، عن جابر: «أَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي الْمَسْجِدِ بِأَسْهُمٍ قَدْ أَبْدَى نُصُولَهَا، فَأَمَرَ أَنْ يَأْخُذَ بِنُصُولِهَا؛ لَا يَخْدِشُ مُسْلِمًا»^(٢)، وفي البخاري، عن أبي موسى؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا أَوْ أَسْوَاقِنَا بِنَبَلٍ، فَلْيَأْخُذْ عَلَى نَصَالِهَا؛ لَا يَغْفِرَ بِكَفِّهِ مُسْلِمًا)^(٣).

وفي «الصحيح»، عن عائشة؛ قالت: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ»^(٤)، وفي لفظ: «وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ بِحِجَارِهِمْ»^(٥).

وقد تقدّم ما يتعلّق بِاتِّخَاذِ السِّلَاحِ وإعدادِ العُدَّةِ لِلْكَافِرِينَ، عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].



(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٥)، ومسلم (٢٦١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧٤)، ومسلم (٢٦١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٥٥)، ومسلم (٨٩٢) (١٨).



سُورَةُ الْحَجِّ

سورة الحج مكيّة، وسُمِّيَتْ بالحجّ؛ لأنها أوّل آياتٍ نزلت فيها تفاصيلُ الحجّ والنُّسك، وكانت قبلَ فرضِ الحجّ على النبي ﷺ، وكان فرضُ الحجّ بالآياتِ التي نزلت على النبي ﷺ في المدينة، وهي في البقرة وآل عمران.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَمَلُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَامٍ يُظْلَمِ تُدْفَعُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

في هذه الآية: تعظيمُ المسجدِ الحرامِ وتعظيمُ الصّدِّ عنه؛ فقد جعله الله لكلّ متعبّدٍ موحّدٍ، لا يجوزُ صدٌّ مَنْ يقصّده، ولا أحدٌ أحقُّ به من أحدٍ؛ فهو لهم جميعاً؛ وذلك ظاهرُ قوله تعالى ﴿سَوَاءً الْعَمَلُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، فيستوي فيه المقيمُ فيه، وهو ﴿الْعَمَلُ﴾، أو الغريبُ القادمُ إليه، وهو ﴿الْبَادِ﴾؛ وبهذا فسرهُ غيرُ واحدٍ من السلف؛ كابن عباسٍ ومجاهدٍ وقتادة^(١)، وقد عدَّ بعضُ العلماءِ هذه الآيةَ مدنيّةً؛ لِذِكْرِ الصّدِّ فيها^(٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤٠٩/٥).

(١) «تفسير الطبري» (٥٠٢/١٦).

حُكْمُ بَيْعِ رِبَاعٍ مَكَّةَ وَدُورِهَا:

لا يَخْتَلِفُ السَّلَفُ عَلَى أَنَّ أَمَاكِنَ الْمَنَاسِكِ الْخَاصَّةَ لَا يَجُوزُ بَيْعُهَا؛ كَالْمَطَافِ وَالْمَسْعَى وَمَرْمَى الْجِمَارِ، وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ غَيْرَ وَاحِدٍ؛ كَابْنِ عَقِيلٍ^(١) وَابْنِ تَيْمِيَّةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا، وَكَذَلِكَ: فَإِنَّ مَزَارِعَ مَكَّةَ يَجُوزُ بَيْعُهَا، وَبِهِ قَالَ الْجَمَاهِيرُ، وَقَدْ حَكَى ابْنُ تَيْمِيَّةٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ^(٢)، وَلَكِنَّ الْفُقَهَاءَ اخْتَلَفُوا فِي دُورِ مَكَّةَ وَمَسَاكِنِهَا وَرِبَاعِهَا: هَلْ يَجُوزُ بَيْعُهَا؟ عَلَى أَقْوَالٍ ثَلَاثَةٍ، هِيَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ عَنْ مَالِكٍ:

الأولُ: ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ: إِلَى جَوَازِ تَمْلِكِهَا وَبَيْعِهَا؛ وَذَلِكَ لِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ: (وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ، أَوْ دُورٍ؟)، «وَكَانَ عَقِيلٌ وَرَبٌّ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ، وَلَمْ يَرْتَهُ جَعْفَرٌ وَلَا عَلِيٌّ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ»^(٣).

وقد جاء عن بعض الصحابة أنهم اشتروا من أرض مَكَّةَ، كما اشترى عمرُ بنُ الخطابِ من صفوان بن أمية دارَهُ بِمَكَّةَ، فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم^(٤).

ورُوي عن عمرَ خلاف ذلك؛ وفيه نظرٌ.

وقد قال بهذا القول طائفتان وعمرُ بنُ دينارٍ.

الثاني: مذهبُ جماعةٍ من السلفِ؛ كعطاءٍ ومجاهدٍ، وبه قال أبو حنيفةٌ وإسحاقُ: أنها لا تُباعُ؛ وعلى هذا مشهورُ مذهبِ الحنابلةِ، واستُدلَّ لذلك بما رواه ابنُ ماجهٍ؛ من حديثِ علقمة بن نضلة؛ قال:

(١) «المغني» لابن قدامة (٣٦٧/٦). (٢) «مجموع الفتاوى» (٢٩/٢١١).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١).

(٤) أخرجه البخاري معلقاً قبل حديث (٢٤٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/٣٤).

«تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَمَا تُدْعَى رِبَاعٌ مَكَّةَ إِلَّا السَّوَائِبُ؛ مَنِ اخْتِاجَ سَكَنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أَسْكَنَ»^(١).
وهو مرسل ضعيف.

وبما روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَكَّةُ مُنَاجٍ، لَا تَبَاعُ رِبَاعُهَا، وَلَا تُؤَاجَرُ بَبُوتِهَا)؛ أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ^(٢)، وَفِيهِ جِهَالَةٌ، وَرَوَى نَحْوَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَلَا يَصِحُّ رَفْعُهُ^(٣).

وَأَمَّا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ «السُّنَنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ؛ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَبْنِي لَكَ بِمَنْى بَيْتًا أَوْ بِنَاءً يُظِلُّكَ مِنَ الشَّمْسِ؟ فَقَالَ: (لَا، إِنَّمَا هُوَ مُنَاجٌ مَنِ سَبَقَ إِلَيْهِ)^(٤)، فَهُوَ فِي أَمَاكِنِ الْمَنَاسِكِ؛ فَمَنْى مِنْ مَوَاضِعِ التُّسُكِ كَعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَالْمَسْعَى وَمَرْمَى الْجِمَارِ: لَا تُمْلِكُ، وَإِنَّمَا كَلَامُ الْفُقَهَاءِ عَامَّتُهُ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ، لَا فِي مَنَاسِكِهَا.
الثالث: مذهب أحمد: أَنَّهَا تُمْلِكُ وَتُورَثُ وَتُبَاعُ، لَكِنَّهَا لَا تُؤَجَّرُ؛ فَمَنِ اسْتَغْنَى عَنْهَا أَسْكَنَهَا؛ وَبِهَذَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ.

وَقَالَ قَوْمٌ بِالْكَرَاهَةِ، فَأَجَازُوا الْبَيْعَ عَلَى كِرَاهَةٍ فِيهِ؛ وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ.

وَالْأَظْهَرُ: جَوَازُ بَيْعِ دُورِ مَكَّةَ وَرِبَاعِهَا وَإِجَارَتِهَا، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ يَبْنُونَ دُورًا وَيَبِيعُونَهَا وَيُؤْجِرُونَهَا، وَلَوْ كَانَ النِّهْيُ صَرِيحًا لِجَمِيعِ رِبَاعِ مَكَّةَ، لَكَانَ وَارِدًا بِنَصِّ قَطْعِيٍّ يَجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُ الصَّحَابَةِ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَقَدْ كَانَ بِمَكَّةَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَمْ يَنْهَبْ عَنْهُمْ الْقَطْعُ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ (٣١٠٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي «سُنَّتِهِ» (٥٨/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي «سُنَّتِهِ» (٥٧/٣).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٨٧/٦)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢٠١٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٨٨١)، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٠٠٦) وَ(٣٠٠٧).

بذلك، ثم إنَّ البيعَ كالميراث، وثبتَ أنَّ أهلَ مَكَّةَ يتوارثون، والإرثُ انتقالُ الملكِ من شخصٍ لشخصٍ، والبيعُ مثلهُ ولكن باختلافِ السببِ، وفي المنعِ من بيعِ دُورِ مَكَّةَ ورباعِها من الضُّبِّيِّ والحرَجِ ما اللهُ بهِ عليهم. والناسُ يتوارثون ويتبايعون مَسَاكِنَ مَكَّةَ ودُورَها إلى اليومِ، وعملُهم الشائعُ في كلِّ القرونِ عليه.

وقد بيَّن اللهُ عَظَمَةَ الصَّدِّ عن المسجدِ الحرامِ في مواضعٍ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْلَمُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآؤُهُ إِلَّا الْآمَنُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وتقدَّم الكلامُ على تعظيمِ المسجدِ الحرامِ، وحُرْمَةِ الصَّدِّ عنه وقطعِ الطريقِ إليه، في مواضعٍ؛ منها عندَ قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهوَّله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِظِ بَظْلَمٍ تُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ لِعَظَمَةِ الْبَيْتِ جَعَلَ اللهُ مَنْ هَمَّ بِظُلْمٍ فِيهِ مُسْتَحِقًّا لِلْعُقُوبَةِ ولو لم يَفْعَلْ، وقد فسَّرَ بعضُ السلفِ - كابنِ عَبَّاسٍ ومجاهِدٍ - الظُّلْمَ في الآيةِ: بِالشُّرْكِ^(١).

وقد تقدَّم الكلامُ على أمانِ مَكَّةَ وحُرْمَتِها، وما وَقَعَ فيها من شذائِدَ وقتلٍ، وما يَقَعُ فيها بعدَ ذلك، عندَ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾﴾ [الحج: ٢٦].

في هذا: فضل التوحيد؛ إذ هو أعظم المقاصد من تشييد البيت وعمارته، وكل ما كان من عبادات، فهي تابعة له؛ من طواف وسعي وسقيا وإطعام طعام، فالتوحيد أعظم من كل عمل وقول، وقد قال تعالى مبيناً منزلته على غيره مما كان يغتر به كفار قريش من عمل صالح فيُغويهم عن منزلة التوحيد: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَالْعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩].

وتقدم الكلام على تطهير البيت وأنواعه وفضله عند قوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيكُم مِّنْ كُلِّ مَفْجٍ عَمِيقٍ﴾﴾ [الحج: ٢٧].

في هذا: مشروعية النداء بالحج لمن بجهله والتذكير لمن ينساه أن يتعاهدوا البيت الحرام بالحج في موسميه من كل عام مؤذنين لفريضة الله عليهم؛ حتى لا يهجر البيت ويقل قاصدوه، وهذه السورة مكيّة، ووجوب الحج لم يؤخذ من هذه الآية، بل مما في سورة البقرة وآل عمران من آيات الحج.

تفاضل المشي والركوب في الحج:

وفي قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الرِّجَالُ؛ يعني:

السائرين على أرجلهم ماشين، والمراد بقوله: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛
يعني: راكبين، والضامر: المهزول الخفيف، وهي الخيل، وقد أخذ
بعضهم من تقديم الله للراجلين على الراكبين فضل المشي على الركوب
في المناسك، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة:

فمنهم: من فضل المشي؛ لتقديم الآية، ولكونه أكثر نصباً؛ فقد
قال النبي ﷺ لعائشة لما أهلّت من الثنيم: (وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ
نَصَبِكَ)^(١)، وهذا قول للشافعي وإسحاق.

ومنهم: من فضل الركوب؛ وهذا قول مالك وأبي حنيفة.
والأظهر: أن الفضل يعود إلى العمل؛ فمن كان أداؤه للعبادة
والنسك أفضل حال ركوبه، فيركب، ومن كان أداؤه لها أفضل حال
مشيه، فالمشي أفضل؛ وذلك أن من الناس في دفعه من عرفة من يزدحم
الناس عليه ويخشى التأخر في وصوله إلى عرفة إن لم يركب، فركوبه
أفضل من مشي يتأخر به، ومثله لو كانت المراكب مزدحمة ويتأخر لو
ركب، فالأفضل له أن يمشي ليصل على الوقت المشروع.

ومثل ذلك التعب والنصب؛ فمن رأى أنه إن مشى، ضعفت في العبادة
ولم يؤدّها كما جاءت بها السنة، فركوبه أفضل، والناس يختلفون في ذلك.
وقد سار النبي ﷺ من ذي الحليفة محرّماً على راحلته، وعليها
أهلٌ وكبرٌ وحمدٌ ومسح^(٢).

وقد تقدّم في سورة البقرة الكلام على المناسك، في آيات الحج،
وفي سورة آل عمران الكلام على الاستطاعة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [٩٧].

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١) (١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٥١).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلِمَاتٌ يَّسْرًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْفَقِيرِ﴾﴾ [الحج: ٢٨].

في أداء المناسك: منافع دينية ودينية؛ فالدينية: تحقيق التوحيد، وتعظيم الله وعبادته، وكسب الأجر، وتكفير الذنوب، والدينية: كالتيجارة، وجلب الأرزاق إلى ساكني المسجد الحرام، وإطعام الفقراء وغير ذلك، ومن المفسرين: من قيدها بالمنافع الدينية، ويكلا القولين قال ابن عباس^(١)، ومجاهد^(٢)؛ وهذا من التنوع لا التعارض؛ فالمقصود عموم المنافع.

وقصد الدنيا مع قصد الحج مباح لا حرج فيه؛ وفي ذلك قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٩٨]، بل لو قصد المسلم مكة للتجارة وكان قد أدى فريضة الحج من قبل، فلا حرج عليه، ولكن لا ينبغي لمن كان حاجًا أن يعطل واجبات الحج ومناسكه طلبًا للدنيا، فينسى آخرته ويذكر دنياه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُم مِّنْ حَجِّهِمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ ﴿وَمِنهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾: اختلف في المراد بالأيام المعلومات، وأشهر الأقوال قولان، وكلاهما جاء عن ابن عباس، وهما روايتان عن أحمد:

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٤٨٨/٨). (٢) «تفسير الطبري» (٥٢١/١٦).

قيل: إنها أيام النحر، وأولها يوم العيد وثلاثة أيام بعده، وهي أيام التشريق^(١)؛ وعلى هذا فالأيام المعلومات من المعدودات المذكورات في سورة البقرة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [٢:٢٣]؛ وصح عن ابن عمر أن المعلومات تشترك مع المعدودات؛ فقد جاء عنه: أن الأيام المعلومات والمعدودات من جميعاً أربعة أيام؛ فالمعلومات: يوم النحر ويومان بعده، والمعدودات: ثلاثة أيام بعد النحر^(٢)؛ وبهذا القول قال مالك.

وقيل: إنها أيام عشر ذي الحجة؛ وبهذا قال أبو موسى الأشعري وأكثر أصحاب ابن عباس؛ كمجاهد وعطاء وسعيد بن جبير، وهو قول قتادة، وإليه ذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه^(٣).

وفي الأيام المعلومات قول ثالث، لم أره يصح عن أحد من الصحابة؛ وإنما قال به ابن زيد، وبه أخذ أبو حنيفة: أن الأيام المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وما بعده^(٤).

الهدئي والأضحىة والأكل منها:

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْفُقَرَاءَ﴾: فيه مشروعية الأكل من الهدئي وإطعام الفقير؛ كما فعل رسول الله ﷺ حيث نحر هديته بيده ثم أكل منه لما طبخ له وشرب من مرقه، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر أن يوضع من كل هدي ذبحة قطعة في قدر فيطبخ ليطعم من جميعه، مع أنه ساق مئة من الإبل ونحر بيده ثلاثاً وستين، وجعل علياً ينحر ما بقي منها؛ كما جاء في «الصحيح»؛ من حديث جابر^(٥).

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٨٩/٨)، وتفسير ابن كثير (٤١٦/٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٨٩/٨). (٣) تفسير ابن كثير (٤١٥/٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٤١٦/٥). (٥) أخرجه مسلم (١٢١٨).

وأفضلُ الإطعام أن يكونَ للأشدَّ فقراً؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَطِمْؤُوا الْبَاسَ الْفَقِيرَ﴾، والباسُ: المضطَّرُّ الذي ظَهَرَ بؤسُهُ مع فقره، وهو قدرٌ زائدٌ عن مجردِ الفقرِ.

وَيُسْتَحَبُّ الْأَكْلُ مِنَ الْهَدْيِ كُلِّهِ وَاجِبِهِ وَمُسْتَحَبِّهِ عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ وَجَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ.

خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ؛ فَقَدْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَا يَأْكُلُ الْمُهْدِي مِنْ لَحْمِ هَدْيِهِ الْوَاجِبِ؛ لِأَنَّهُ هَدْيٌ وَجِبَ بِالْإِحْرَامِ، فَلَمْ يَجْزِ الْأَكْلُ مِنْهُ؛ كَدَمِ الْكَفَّارَةِ، وَأَجَازَ الْأَكْلَ مِنَ هَدْيِ التَّطَوُّعِ فَقَطْ.

وَهَذَا يُخَالِفُ مَا ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ، فَلَمْ يُفَرِّقِ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْهَدْيِ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ، وَلَا عَلَّمَ أَصْحَابَهُ ذَلِكَ مَعَ كَثْرَةِ هَدْيِهِمْ وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ.

وَلَا يَأْكُلُ الْمُهْدِي مِنْ جِزَاءِ صَيْدِهِ وَفَدْيَةِ أَذَاهُ.

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ: إِلَى وَجوبِ الْأَكْلِ مِنَ الْهَدْيِ وَالْأَضْحِيَّةِ؛ لظَاهِرِ الْأَمْرِ فِي الْآيَةِ، وَهُوَ قَوْلُ لَأَحْمَدَ.

وَالْأَظْهَرُ: الِاسْتِحْبَابُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَمَرَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَعْتَقِدُ حُرْمَةَ الْأَكْلِ مِنْ هَدْيِهِمْ، فَجَاءَ الْأَمْرُ رَافِعًا لِمَا تَوَهَّمُوهُ مِنْ حَظَرٍ، لَا مُوجِبًا لِحُكْمٍ، وَفَرَّقَ بَيْنَ أَمْرِ جَاءَ عِنْدَ اسْتِوَاءِ الْأَمْرَيْنِ بَيْنَ حَظَرٍ وَإِبَاحَةٍ، وَبَيْنَ أَمْرِ جَاءَ بَعْدَ حَظَرٍ، فَالْأَمْرُ وَحْدَهُ بَعْدَ الْحَظَرِ لَا يُفِيدُ الْوَجوبَ إِلَّا بِغَيْرِهِ مِنْ عَمَلٍ وَقَرِينَةٍ أُخْرَى.

تَقْسِيمُ الْهَدْيِ وَالْأَضْحِيَّةِ:

وَأَخَذَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِنْ هَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِمْؤُوا الْبَاسَ الْفَقِيرَ﴾ تَقْسِيمَ الْهَدْيِ وَالْأَضْحِيَّةِ إِلَى نِصْفَيْنِ: نِصْفٍ يَطْعَمُهُ صَاحِبُ الْهَدْيِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَنِصْفٍ لِلْفُقَرَاءِ.

وذهب جماعة: إلى أنه يُقسَّم ثلاثة أقسام؛ أخذًا من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَلْبِسُوا الْقَنَاقَ وَالْمَعْتَرَةَ﴾ [الحج: ٣٦] وبه قال ابن مسعود وابن عمر، وإليه ذهب أحمد والشافعي.

والتقسيم ثلاثا أصح، ولم يصح عن أحد من الصحابة تقسيم الهدي إلى نصفين.

وقد روى نافع، عن ابن عمر؛ قال: «الضَّحَايَا والهِدَايَا ثُلُثٌ لِأَهْلِكَ، وَثُلُثٌ لَكَ، وَثُلُثٌ لِلْمَسَاكِينِ»؛ رواه ابن حزم^(١).

وروى ابن أبي شينة والطبراني، عن علقمة، عن ابن مسعود رضي الله عنه: «كَانَ يَبْعَثُ بِالْبُذْنِ مَعَ عَلَقَمَةٍ، وَلَا يُمَسِّكُ عَمَّا يُمَسِّكُ عَنْهُ الْمُحْرِمُ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ إِذَا بَلَغَتْ مَحِلَّهَا أَنْ يَتَصَدَّقَ ثُلُثًا، وَيَأْكُلَ ثُلُثًا، وَيَبْعَثَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْةَ بْنِ مَسْعُودٍ ثُلُثًا»^(٢).

وهي صحيحة، ويروى في ذلك من حديث ابن عباس في صفة أضحية النبي ﷺ؛ قال: (وَيُطْعِمُ أَهْلَ بَيْتِهِ الثُّلُثَ، وَيُطْعِمُ فَقَرَاءَ جِيرَانِهِ الثُّلُثَ، وَيَتَصَدَّقُ عَلَى السُّؤَالِ بِالثُّلُثِ)^(٣).

ويروى عند مسدد في «مسنده»؛ من حديث إبراهيم مؤذن أهل المدينة، عن أبيه؛ قال: «شَهِدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه بِالمَصْلَى قَالَ لِرَجُلَيْنِ: مَا عِنْدَكُمَا مَا تُضْحِيَانِ بِهِ؟ قَالَا: لَا، فَانْطَلَقَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَخْرَجَ شَاتَهُ، قَالَ: تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، ثُمَّ أَخَذَ كَيْدَهَا أَوْ شَيْئًا مِنْهَا، فَأَكَلُوا مِنْهَا، ثُمَّ جَزَّأَهَا ثَلَاثَةَ أَجْزَاءَ، فَاثْلَبَ الرَّجُلَانِ بِشَيْئِهَا،

(١) أخرجه ابن حزم في «المحلى» (٧/ ٢٧١).

(٢) أخرجه سعيد بن أبي عروبة في «المناسك» (٤٥).

(٣) أورده ابن قدامة في «المغني» (١٣/ ٢٨٠)، وقال: «رواه الحافظ أبو موسى الأصفهاني في «الوطائف»، وقال: حديث حسن».

وَدَخَلَ بَيْتَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثَّلَاثُ^(١)؛ وَفِيهِ جِهَالَةٌ.

وكان السلف يُقْتَوْنَ بذلك في العقيقة أيضاً؛ كما روى عبد القدوس، عن عطاء ومجاهد؛ أَنَّهُمَا قَالَا: «كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْعَقِيقَةِ: ثُلُثٌ لِلْجِيرَانِ، وَثُلُثٌ لِلْمَسَاكِينِ، وَثُلُثٌ لِأَهْلِ الْبَيْتِ»؛ أَخْرَجَهُ أَبُو طَاهِرٍ السَّلْفِيُّ فِي «الْمَشِيخَةِ الْبَغْدَادِيَّةِ»^(٢).

وَاخْتُلِفَ فِي الْقَدْرِ الَّذِي تُقَسَّمُ عَلَيْهِ الْأُضْحِيَّةُ وَالْهَذِي: هَلْ تُقَسَّمُ أَثْلَاثًا أَمْ ثَلَاثًا؟ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ كُلِّ ثَلَاثٍ أَنْ يَكُونَ أَثْلَاثًا، كَمَا لَا يَلْزَمُ مِنَ التَّشْطِيرِ تَسَاوِي الْقَدْرِ فِي الْاِثْنَيْنِ، وَلَا يَظْهَرُ أَنَّ السَّلَفَ يَتَكَلَّفُونَ الْوِزْنَ، وَالْأَظْهَرُ: أَنَّ تَقْسِيمَ الْهَذِي وَالْأُضْحِيَّةِ يَكُونُ بِحَسَبِ الْحَالِ؛ فَإِنْ تَقَارَبَتْ حَالُ الْمُضْحِيِّ وَالْمُهْدِيِّ مِنْ حَالِ غَيْرِهِ الَّذِي يُهْدِيهِ أَوْ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقَسَّمُ أَثْلَاثًا، وَإِنْ كَانَتِ الْحَاجَةُ فِي إِحْدَى الْجِهَاتِ أَشَدَّ، فَإِنَّهُ يُقَسَّمُ ثَلَاثًا لَا أَثْلَاثًا، وَيَزِيدُ فِي الْجِهَةِ الْمَحْتَاجَةِ.

وَلَا حَدٌّ لِقَدْرِ كُلِّ قِسْمٍ يَلْزَمُ مَعَهُ تَسَاوِيهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَكُونُ الْحَاجَةُ إِلَى الْإِطْعَامِ أَشَدَّ مِنَ الْأَكْلِ، وَالْحَاجَةُ إِلَى الْأَكْلِ أَشَدَّ مِنَ الْإِطْعَامِ، فَيَزِيدُ فِي هَذَا، وَيَنْقُصُ مِنْ هَذَا؛ وَذَلِكَ لِمَا جَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (كُلُّوا مَا بَدَأَ لَكُمْ، وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا)^(٣)، وَأَصْلُهُ فِي مُسْلِمٍ^(٤)، وَجَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ بَلْفِظٍ: (كُلُّوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا)^(٥)، وَعِنْدَهُمَا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ، وَفِيهِ: (كُلُّوا وَتَزَوَّدُوا)^(٦)، وَعِنْدَهُمَا مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ

(١) «المطالب العالية» (٢٣٠٠).

(٢) الجزء الثاني والثلاثون من «المشيخة البغدادية» (٦).

(٣) أخرجه الترمذي (١٥١٠). (٤) أخرجه مسلم (٩٧٧) و(١٩٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٧٠)، ومسلم (١٩٧١).

(٦) أخرجه البخاري (١٧١٩)، ومسلم (١٩٧٢).

الأكوع، وفيه: (كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا)^(١)، وهو كما قال مالك: «لا حَدَّ فيما يأكلُ ويتصدقُ ويُطعمُ الفقراءُ والأغنياءُ؛ إن شاءَ نبيًا، وإن شاءَ مطبوخًا»^(٢).

وظاهرُ عملِ النبي ﷺ: التوسعةُ في الأضحيةِ مِنَ المأكولِ والمتصدقِ به والمُهدى منه، وقد روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن ثوبانٍ؛ قال: ذَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَحِيَّتَهُ، ثُمَّ قَالَ: (يَا ثُوبَانُ، أَصْلِحْ لَحْمَ هَذِهِ)، فَلَمْ أَزَلْ أَطْعِمُهُ مِنْهَا حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ^(٣).

وأما ما جاء في حديثِ عائشةَ، عندَ أبي داودَ؛ مِنْ طريقِ مالكٍ - وهو في «موطئه»^(٤) - عن عبدِ اللَّهِ بنِ أبي بكرٍ، عن عَمْرَةَ، عن عائشةَ، وفيه أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: (ادَّخِرُوا الثُّلُثَ، وَتَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ)^(٥)، فالأظهرُ: أَنَّهُ تصحيفٌ، واللفظُ: (ادَّخِرُوا لِثَلَاثٍ)؛ يعني: لثلاثةِ أيامٍ، وليس (الثُّلُثُ)؛ لمناسبةِ السياقِ، والحديثُ في مسلمٍ؛ مِنْ طريقِ مالكٍ؛ قال ﷺ: (ادَّخِرُوا ثَلَاثًا، ثُمَّ تَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ)^(٦).

وفقه مالكٌ يُخَالِفُ ذَكَرَ الثُّلُثِ، وهذا مِنْ قرائنِ تحريفِها، وإنْ كانتْ في نُسْخٍ عتيقةٍ؛ فهذا يَقَعُ مِثْلُهُ في كُتُبِ السُّنَنِ؛ وقد تكلَّم عليه الأئمةُ النُّقَّاد.

وَمِنَ الفقهاءِ: مَنْ أَوْجَبَ التَّصَدَّقَ مِنْ لَحْمِ الأَضْحِيَّةِ إِنْ كَانَتْ تَطَوُّعًا، وَلَوْ قَلِيلًا بِمَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الصَّدَقَةِ؛ وهو قولٌ في مذهبِ

(١) أخرجه البخاري (٥٥٦٩)، ومسلم (١٩٧٤).

(٢) ينظر: «الكافي في فقه أهل المدينة» لابن عبد البر (٤٢٤/١)، و«اختلاف الأئمة العلماء» لابن هبيرة (٣٣٩/١).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧٥).

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ» (٤٨٤/٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٨١٢). (٦) أخرجه مسلم (١٩٧١).

أحمد، وهو الصحيح من مذهب الشافعية وقول جمهورهم المتقدمين، والأفضل عندهم: التصديق بأكثرها.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾﴾ [الحج: ٢٩].

يُشْرَعُ يَوْمَ النَّحْرِ أَنْ يَأْخُذَ الْحَاجُّ بِأَسْبَابِ التَّحَلُّلِ، وَأَوَّلُهَا رَمْيُ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، وَبِهَا يَنْحَلُّ تَحَلُّلُهُ الْأَوَّلُ عَلَى الْأَرْجَحِ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَأْتِيَ بِأَعْمَالِ النَّحْرِ؛ كَمَا فَعَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ، فَيَدُأُ بِجَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، ثُمَّ يَنْحَرُ هَذَبَهُ، ثُمَّ يَحْلِقُ، ثُمَّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُسُوكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْاَلْتَّنَىٰ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وَلَوْ قَدَّمَ أَوْ آخَرَ شَيْئًا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ يَوْمِ النَّحْرِ، جَازَ لَهُ ذَلِكَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ هَذِهِ الْأَعْمَالَ وَلَمْ يُلْزَمْ بِهَا، بَلْ خَفَّفَ لِمَنْ اجْتَهَدَ وَقَدْ قَدَّمَ بَيْنَهَا وَآخَرَهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَمْ أَشْعُرْ، فَحَلَفْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ قَالَ: (أَذْبَحْ وَلَا حَرَجَ)، فَجَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ، فَتَحَرَّضْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ قَالَ: (ارْمِ وَلَا حَرَجَ)، فَمَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَيْءٍ قَدَّمَ وَلَا آخَرَ، إِلَّا قَالَ: (افْعَلْ وَلَا حَرَجَ)^(١).

وَالْتَفَتَ فِي هَوَاهُ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ هِيَ أَعْمَالُ النَّحْرِ؛ مِنَ الرَّمْيِ، وَالْحَلْقِ، وَلِبْسِ الْمَخِيطِ، وَقَصْرِ الْأَظْفَارِ وَالشَّارِبِ، وَجَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرٍو أَنَّهَا جَمِيعُ أَعْمَالِ الْمَنَاسِكِ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٦)، ومسلم (١٣٠٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٢٦/١٦).

وهو له تعالى، ﴿وَلْيُؤْفُقُوا نُذُورَهُمْ﴾ هو الذَّنْبُ يومَ النحرِ.

وفي هذه الآية: دليلٌ على مشروعية نحرِ الهدي في جميع الأنسك: الأفراد والقرانِ والتمتع، فقد جعله الله عملاً من أعمالِ يومِ النحرِ ولم يُخصَّصْ، وقد كان الصحابةُ يهدونَ في كلِّ أنسكهم وإن لم يكن واجباً عليهم، وكان النبي ﷺ يسوقُ هديه معه حتى في العمرة كما في الحديثية، بل قد كان يبعثُ بهديه إلى مكة ليُلْبِحَ يومَ النحرِ، وهو في المدينة حلالٌ.

وفي قوله تعالى، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ يعني: طوافِ الحجِّ، وهو طوافُ الإفاضة، وهو ركنُ الحجِّ بالإجماع، والطوافُ آخرُ أعمالِ يومِ النحرِ.

وفي الآية: دليلٌ على أنَّ الحجَّ يصحُّ بطوافِ الإفاضة؛ لأنه آخرُ الأركانِ وبه يتحلَّلُ، وأمَّا غيره، فواجباتٌ أو مستحباتٌ؛ لا تُسقطُ الحجَّ ولا تُبطله، ولكنها تنقصه.

وتشرعُ المبادرةُ بإنجازه؛ كما فعلَ النبي ﷺ؛ فقد طاف ضحى.

* * *

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآفَاقُ إِلَّا مَا يَتْلُو طَائِفَةٌ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٥﴾ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٧﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٠-٣٣].

حُرْمَاتُ اللَّهِ كثيرة، والمرادُ هنا حُرْمَاتُهُ في الحجِّ، وهي شعائرُ دينه التي أمرَ بإقامتها، فامتثالُ أمرِهِ في التَّسْكُ بِفعلِ المأمورِ واجتنابِ

المحظور من محظورات الحج: ذلك من تعظيم حُرُمَاتِهِ وشعائره.

وَيَبِّنَ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَجَلْتُ لَكُمْ آلَتَكُمْ إِلَّا مَا بَشَلَّ عَلَيْكُمْ﴾^(١)
أنه سبحانه جعل الأصل في البهائم الحِلَّ، وجعل المُسْتَشْنَى قليلاً مَثَلُوا،
وأضمر الحلال لكثيره، وسمَّى الحرام لقلته.

وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ﴾، في هذه الآية: بيان أن المَقْصِدَ الأعظم من الحج هو إقامة
توحيد الله ونَهْيُ الشُّرْكِ؛ حيث ذَكَرَ اللهُ اجْتِنَابَ الْأَوْثَانِ وأمر بالحنيفيةِ مِلَّةِ
إبراهيمَ بأحكام المناسك؛ لِيُشْعِرَ أَنَّهَا المرادة، وقد كان الجاهليُّونَ لا
يُقيمُونَ شعيرةً من المناسك إِلَّا خلطوها بشُرْكِ وكفر.

وفي الآية: تعظيمُ شهادة الزورِ وَقَرْنُهَا بالشُّرْكِ، وهو الافتراء بقول
الباطل مع زَعْمِ رُؤْيَيْهِ، وهو من الموبقات، وأعظم أنواعه ما كان فيه
شُرْكٌ وتبديلٌ لِلدِّينِ اللهُ، ثم ما كان فيه أكلٌ لأموالِ الناسِ بالباطل، ويأتي
كلامٌ يسيرٌ عليه عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَى الْقُلُوبِ﴾: المرادُ
بشعائرِ الله هنا كلُّ المناسك، وأخصُّها بالذكر: الهدي؛ وذلك لأنه هال
بعد ذلك: ﴿لَكَمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛
وبهذا قال ابنُ عباسٍ وعطاءٌ والضحاكُ^(٢)، وتعظيمُ شعيرةِ الهدي باختبارِ
الطَّيِّبِ السَّمِينِ.

وقد كان رسولُ الله ﷺ يتحرَّى الطَّيِّبَ فيضحي به؛ كما جاء عن
أنسٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَّى بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَفْرَتَيْنِ»^(٣).

(١) «تفسير الطبري» (١٦/٥٤٠ و ٥٤٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).

وَذَكَرُ أَنْسٍ لِهَذَا الْوَصْفِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا قُصِيدًا نَلْمُسًا لِلطَّبِّبِ مِنَ الْغَنَمِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْوَصْفُ مُؤَثِّرًا، مَا ذَكَرَهُ فِي سِيَاقِ عِبَادَةٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمُ الْإِجْمَاعَ عَلَى اسْتِحْسَانِ لَوْنِ الْأُضْحِيَّةِ كَالنُّوْيِ^(١)؛ فِي «السُّنَنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَحَّى بِكَبْشٍ أَقْرَنَ فَحِيلَ، يَأْكُلُ فِي سَوَادٍ، وَيَمْنِي فِي سَوَادٍ، وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ»^(٢).

وَقَدْ قَالَ أَبُو أَمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ: «كُنَّا نُسَمِّنُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمِّنُونَ»؛ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٣).

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَكَرَ فِيهَا مَنَفَعٌ إِلَيَّ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إِيحَاةُ الْإِنْتِفَاعِ بِالْهَدْيِ قَبْلَ نَحْرِهِ، وَذَلِكَ بِرُكُوبِهِ، وَالْحَمْلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنْتِفَاعِ بِصُوفِهِ وَوَبَرِّهِ وَشَعْرِهِ، وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَنْسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً، فَقَالَ لَهُ: (ارْكَبْهَا)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا بَدَنَةٌ؟ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ: (ارْكَبْهَا وَتِلْكَ، أَوْ وَيْحَكَ أ) ^(٤).

وَفِي الْحَجِّ مَنَاسِكٌ وَشَعَائِرٌ عَظِيمَةٌ، تَعْظِيمُهَا وَامْتِنَالُ التَّعَبُّدِ بِهَا بِمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: مِنْ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللَّهِ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ: (لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ)^(٥)؛ يَعْنِي: عَنْهُ؛ فَكُلُّ أَعْمَالِ الْمَنَاسِكِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ؛ كَالصَّافَا وَالْمَرُوءَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وَمِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ: الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ، وَالْقَلَائِدُ، وَقَاصِدُو الْبَيْتِ الْحَرَامِ،

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٢٠/١٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٩٦)، والترمذي (١٤٩٦)، والنسائي (٤٣٩٠)، وابن ماجه (٣١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً قبل حديث (٥٥٥٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٥٤)، ومسلم (١٣٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

وَالْهَدْيُ؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَنَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا أَمْثِلِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وكذلك في البُذْنِ والْهَدْيِ كما يأتي؛ في قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَنِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦].

وقد تقدّم الكلام على تلك الشعائر في مواضعها.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بِهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَلِلَّهِ الْإِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْصِيَيْنَ﴾ [الحج: ٣٤].

إرافة الدماء بذبح ونحر بهائم الأنعام شريعة لكل الأمم، وفيه يظهر فيهم التوحيد، وبه يُفارقون المشركين، فقد ذكر الله نحر الهدي وذكر اسم الله عليه، ويُنَّ أَنْ الغاية منه إقامة شعيرة التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ الْإِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْصِيَيْنَ﴾، فأمر بذكر اسمه وحده، لا كما يذكره الجاهليون على هديهم من ذكر آلهتهم.

وقوله تعالى: ﴿لِذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بِهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾: فيه مشروعية التسمية عند الذبح والنحر، وقد تقدّم تفصيل ذلك عند قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لِبْنِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالذِّكْرُ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَابَتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

❏ قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَعْتُمْ جَفَنُوهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

بعدما ذكر الله بهيمة الأنعام على سبيل الإجمال، لم يُسم الله هنا إلا البُذُن منها، ويتفق العلماء على أن الإبل من البُذُن في الآية، وإنما اختلفوا في دخول البقر فيها؛ وذلك أن البُذُن في لغة العرب هو ما ضُحِمَ من الأشياء:

وقد ذهب ابن عمر وعطاء وابن المسيب والحسن: أن البقر داخل في البُذُن في الآية^(١).

وقد قال مجاهد: ليس البُذُن إلا الإبل^(٢)؛ وذلك لنفاستها وفضلها، ومن هذا أخذ العلماء فضل البُذُن في الهدي على غيرها؛ وذلك أن النبي ﷺ لما حجَّ في حجة الوداع، ساق مئة من الإبل، ونحر بيده ثلاثاً وستين، ولم ينحر بقرة ولا شاة بيده، وإن كان ﷺ أهدى عن نسائه بالبقر؛ كما في «الصحيحين»^(٣).

ولا يختلف العلماء: أن البدنة والبقرة تُجزئ عن سبعة، ولا يختلفون أن البقرة لا تزيد في إجزائها عن ذلك، ولكنهم اختلفوا في البدنة، وقد ثبت أن البدنة تُجزئ عن سبعة؛ كما في حديث جابر بن عبد الله؛ قال: «نَحَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ». أخرجه مسلم^(٤).

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٢٥/٥). (٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٤٩٣/٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤)، ومسلم (١٢١١).

(٤) أخرجه مسلم (١٣١٨).

وقوله تعالى: ﴿لَكَزَ فِيهَا حَيْرٌ﴾؛ يعني: الأجر في الآخرة، والنفع في الدنيا من اللبن والركوب.

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ فيه مشروعية نحر الإبل قائمة معقولة، وفي «الصحيحين»، عن ابن عمر: «أنه أتى على رجل قد أَنَاخَ بَدَنَتَهُ يَنْحَرُهَا، قَالَ: ابْعَثْهَا قِيَامًا مُقَيَّدَةً؛ سُنَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

وبهذا كان يعمل الصحابة كما عند أبي داود؛ من حديث جابر^(٢)، وقد قال ابن عباس: «إذا أردت أن تنحر البدنة، فأقمها على ثلاث قوائم معقولة، ثم قل: باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا وَجَّحْتُ جُنُوبَهَا فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْفَانِ وَالْمُعْتَرَّ﴾ وَجَّحْتُ جُنُوبَهَا؛ يعني: سَقَطْتُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْأَكْلِ مِنْهَا، وَالْفَاءُ هُنَا لِلتَّعْقِيبِ، مَعَ أَنَّهَا لَا تُؤْكَلُ نِيَّةً؛ وَلَكِنْ لِلإِشْعَارِ بِالإِسْرَاعِ بِذَلِكَ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدْيِهِ فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَمُسْتَيْنَ بِيَدِهِ، ثُمَّ جُزِرَتْ وَقُطِعَتْ وَطُبِخَتْ، وَأَكَلَ مِنْ جَمِيعِهَا، وَهُوَ مَا زَالَ فِي ضُحَا يَوْمِ النَّحْرِ.

وفيه: مشروعية الإطعام من الهدي، والتماس الفقير، وهو الْمُعْتَرَّ، والتماس المتعفف الذي يُظْهِرُ الْقَنَاعَةَ وَهُوَ مُحْتَاجٌ، وَهُوَ الْفَانُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْكِيدٌ عَلَى تَتَبُعِ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ، وَمِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ، وَالتَّمَاكِسِ الْمَحْتَاجِ مِنْهُمْ.

وقد اختلف العلماء في صفة تقسيم الهدي، وقد تقدّم الكلام في ذلك عند قوله تعالى: ﴿فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]؛ من هذه السورة.

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٦٧). (٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٩٤/٨).

﴿قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ بَيْتَ اللَّهِ لَحُومٌهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنَّ بَيْتَهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُونَ فِي يَوْمِ النَحْرِ مِنْ طَاعَتِهِ؛ بِسَوْقِ الْهَدْيِ، وَاسْتِسْمَانِ الْأَضَاحِيِّ، وَاخْتِبَارِ طَيِّبِهَا: أَنَّ هَذَا نَفْعٌ لَأَنْفُسِهِمْ، وَتَقْوِيَةٌ لِقُلُوبِهِمْ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ نَفْعِ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، فَمَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ تَقْوَاهُمْ، لَا لِحُومُهُمْ وَهَدْيِهِمْ، فَيَأْجُرُهُمْ عَلَى مَا يَعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِمْ وَمَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ.

وَقَبْلَ: إِنَّ الْجَاهِلِيَّينَ كَانُوا يَنْحَرُونَ هَدْيَهُمْ وَيَنْضَحُونَ بِدِمَاءِ الْهَدْيِ الْبَيْتَ لِإِظْهَارِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ؛ فَبَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّهُ أَرَادَ ظَهْوَرَ التَّقْوَى فِي قُلُوبِكُمْ، لَا أَنْ تَتَكَلَّفُوا ذَلِكَ فِي بَيْتِهِ، فَلَنْ يَصِلَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ الْجَاهِلِيُّونَ؛ لِأَنَّهُ بِذَعَةٍ وَضَلَالَةٍ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُوسَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِشْعَارٌ لِلنَّبِيِّ بِالْقِتَالِ لَمَّا أُخْرِجَهُ قَوْمُهُ مِنْ مَكَّةَ ظُلْمًا وَبَغْيًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ آيَاتِ الْقِتَالِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرِجُوا نَبِيَّهُمْ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، لَيَهْلِكَنَّ الْقَوْمُ! هُنَزَلَتْ» ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾

الآية، قال أبو بكر: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ، قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال^(١).

وبهذا قال عروة؛ أنها أول آية نزلت في الجهاد^(٢).

وقد قال ابن زَيْد: «أَذِنَ لَهُمْ فِي قِتَالِهِمْ، بعدما عفا عنهم عَشْرَ سَنِينَ»^(٣).

وإنما تأخر تشريع الجهاد تلك المدة؛ لأن الصحابة كانوا في زمن ضَعْفٍ وقلة عدد، وكان الكافرون في موضع قوة وبأس، والله لا يأمرُ الناسَ بشيءٍ إلَّا وهو مُقْتَرِنٌ بأسبابٍ كونية ظاهرة، ما لم يجعل الله من ذلك إعجازًا لنبيٍّ من أنبيائه، والله لا يُريدُ ذلك في كل أفعال الأنبياء؛ حتى لا يُصاب أتباع الأنبياء بالوهن والضعف من بعد موت أنبيائهم، ولكن الله جعل نصر الأنبياء من جنس نصر الصحابة؛ فذلك أدعى لثباتهم وقوتهم وشدة عزائمهم بعد استخلافه لهم بعدهم.

ويؤخذ من تأخر نزول الآية مع شدة البأس والعذاب على الصحابة: أنه يجب على الناس عند تسلط عدو ظالم عليهم ألا يغلب عليهم حظ أنفسهم بالتشفي والانتقام على النظر إلى عاقبة الدين؛ فإن للنفس إقبالًا على الانتصار لنفسها والانتقام من عدوها ولو هلك.

والواجب: النظر إلى عاقبة الحق، ومدى فُترة العدو على استتصاليه باستتصاليهم؛ فإنهم - وإن كانوا قد باعوا أنفسهم لله - يجب أن يعلموا أن الله استودعهم حفظ دينه، فهم باعوا أنفسهم ولم يبيعوا دينه.

(١) أخرجه أحمد (٢١٦/١)، والترمذي (٣١٧١)، والنسائي (٣٠٨٥)، والطبري في تفسيره (٥٧٤/١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٤٩٦/٨).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٩٦/٨).

(٣) تفسير الطبري (٥٧٥/١٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٤٩٦/٨).

وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ حِفْظُهُ وَالتَّمَكُّينُ لَهُ، وَأَنْ يَتَجَرَّدُوا مِنَ الْجُبْنِ فَلَا يَتَظَاهَرُوا بِالْحِكْمَةِ، وَأَنْ يَتَجَرَّدُوا مِنَ التَّهَوُّرِ وَالْعَجَلَةِ وَالْإِنْتِقَامِ لِلنَّفْسِ فَلَا يَتَظَاهَرُوا بِالشَّجَاعَةِ، وَقَدْ يَقَعُ فِي النَفُوسِ الصَّادِقَةِ حُبٌّ عَظِيمٌ لِلْحَقِّ فَتُسْتَعِجَلُ الْإِنْتِصَارَ لَهُ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهَا التَّجَرُّدُ وَالْوُقُوفُ عِنْدَ أَوَامِرِ اللَّهِ وَحُدُودِهِ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْعَوَاقِبِ بِتَجَرُّدٍ، كَمَا تَجَرَّدَ الصَّحَابَةُ عِنْدَمَا وَجَدُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حُبًّا لِلْحَقِّ عَظِيمًا، فَاسْتَأْذَنُوا لِلإِنْتِقَامِ مِنْ عَدُوِّهِمْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ بِمَكَّةَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ فِتْنَةً قُلُوبُهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]، وَيُرَوَّى أَنَّهُ لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ يَثْرِبَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا نِيَقًا وَثَمَانِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَعْبِلُ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي - يَعْنُونَ أَهْلَ مَنَى - لِيَالِي مَنَى فَتَقْتُلَهُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنِّي لَمْ أُوْمَرْ بِهَذَا)^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، بَيَّنَّ اللَّهُ فِيهِ: أَنَّ الْمَقْصُودَ بِأُولَئِكَ الْمَظْلُومِينَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ هُمُ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَهِيَ مَكَّةُ، بِغَيْرِ حَقٍّ، إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَّدُوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ بِلَا شَرِيكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرْحَةُ مَسَاجِدَ اللَّهِ وَفُتَّتْ أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، فِيهِ: أَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ الْمَشْرِكِينَ بِالْمُؤْمِنِينَ لِيُقِيمَ دِينَهُ وَيُعْلِي ذِكْرَهُ، وَفِي هَذَا: بَيَانٌ لِلْمَقْصِدِ مِنَ الْجِهَادِ، وَهُوَ إِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢).

وَتَذُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ الْقِتَالُ لِدَفْعِ الْإِنْسَانِ عَنْ أَرْضِهِ، وَأَنَّهُ

(١) تفسير ابن كثير (٤٣٤/٥)، ووسيرة ابن هشام (٤٤٨/١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

في سبيلِ الله، وقد بيَّنا ذلك عند قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ بيان أن نصرَ الله يكون بمقدارِ نصرِ دينه؛ لأن نصره يكون بعونه وكفايته، وكفاية الله تكون بمقدارِ عبوديته سبحانه، وقد تقدّم الكلام على الأسباب الشرعية والكونية للنصر عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

وهو له تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أمرٌ للأخذ بأسباب النصر، فالله قادرٌ على إحداث إعجازٍ بنصرهم بلا قتالٍ ولا عملٍ، ولكنه يُريدُ من المسلمين الأخذ بالأسباب التي ينتصرون بها؛ حتى لا تتوكل نفوسهم عن العمل لله ولدينه، فإن من يتحقق له النصر بلا سببٍ ولا تعبٍ، بماذا يستحق الجنة؟! ولو كان كلُّ متبعٍ للإسلام والرسالة المحمدية ينتصر بلا سببٍ يأخذ به، ولا محنةٍ وشدةٍ تمرُّ عليه، وتُسيرةٍ الأقدار بلا اختيارٍ، لأقبل على الإسلام كلُّ أحدٍ؛ لما يروونه من عاجل الدنيا والتمكين فيها، والله لا يُريدُ لدينه إلا مقبلاً بصدق وإخلاصٍ يُريدُ الله والدار الآخرة.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَظِيمُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

بيَّن الله حال الذين يُمكنهم الله في الأرض من القيام بأمره وإظهار

ودينه، والعبادات تجب على الإنسان بمقدار تمكّنه في الأرض؛ فمن العبادات ما يتعلّق بالفرد، ومنها ما يتعلّق بالجماعة، وكلّما ضُعِفَ تمكينُ الإنسان، تقلّصَت الواجباتُ عليه، حتى لا يجبَ عليه إلّا ما يَصِحُّ به إسلامه، وإذا زاد تمكينه، زاد تكليفه، ومَن لم يَعْرِفْ مقدارَ تمكينه، اضطربَ في معرفة تكليفه؛ فإمّا أن يستعجلَ أحكامًا لا تجبُ عليه؛ فيُضِرَّ بنفسه ودينه، وإمّا أن يتراخى في الإتيانِ بما يجبُ عليه؛ فيُقصِّرَ في حقِّ الله عليه.

وكثيرٌ من الناسِ يَعْرِفُونَ مقاديرَ التكليف، ولكنهم لا يَعْرِفُونَ مقاديرَ التمكين؛ فيُخْطِئُونَ في تقديمِ الدينِ أو تأخيرِهِ، وقد كان النبي ﷺ يُعَلِّمُ أصحابَهُ الأمرَيْنِ؛ حتى يستقيمَ دينُ العبدِ ودينُ الدولة.

وأوّلُ ما يَبْدَأُ التمكينُ: مِنَ الأفرادِ، ثُمَّ يَكُونُ فِي الجماعاتِ، ثُمَّ يَكُونُ فِي الدُولِ، وَمَن لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ تمكينِ الأفرادِ وتمكينِ الجماعاتِ وتمكينِ الدُولِ، وجعلَ واحدةً في منزلةِ الأخرى، أَخْلَلَ باستقرارِ الشريعةِ، فلا يَلْزَمُ مِنَ تمكينِ الفردِ تمكينُ الجماعةِ، ولا مِنَ تمكينِ الجماعةِ تمكينُ الدولةِ، ولكنّه يَلْزَمُ مِنَ تمكينِ الجماعةِ تمكينُ الفردِ، وَمِنَ تمكينِ الدولةِ تمكينُ الجماعةِ والفردِ.

وقد بيّنَ النبي ﷺ ذلكَ كلّهُ.

وقد يقعُ في المؤمنِ مِنَ الغيرةِ والحميةِ لله ولدينه ما يجعلُهُ يتعجّلُ حُكْمًا قبلَ تمكينه، فلا يجدُ الحُكْمَ أرضَ تمكينٍ فيسقطُ وينهارُ؛ فإنَّ التمكينَ للتكليفِ كالأرضِ للمستوية لقواعدِ الكرسيِّ، فاستقرارُ التكليفِ ودوامُهُ باستواءِ التمكينِ، وَمَن أَقامَ تكليفًا على غيرِ تمكينٍ، نكَلَّفَ في تثبيتهِ نكَلْفًا يشقُّ عليه مشقةٌ شديدةٌ، وغالبًا أنّه لا يدومُ إلّا مع مخالفةِ أمرِ الله، فيَعْصِي اللهَ في الدفعِ عمّا استعجلَ إقامتهُ مِن حيثُ يُريدُ أن

يَرْضِيهِ؛ لَأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ يَقَعَ فِي التَّفْرِيطِ أَنْ تَسْقُطَ شَرَائِعُ اللَّهِ وَهُوَ يَرَاهَا،
فَيَقَعُ فِي مَخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ فِي تَثْبِيئِهَا، وَقَدْ كَانَ فِي سَعَةِ لَوْ عَرَفَ مَرَاهِلَ
الْتِمَكِينِ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ الَّتِي بَيَّنَّهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ، وَلَوْ مَاتَ الْعَبْدُ وَهُوَ يَسِيرُ
إِلَى الْتِمَكِينِ لِأَنَّهُ أَجَرَ النِّهَايَةَ وَلَوْ كَانَ فِي الْبَدَايَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ
يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]؛ فَاللَّهُ احْتَسَبَ الْأَجَرَ لِمَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ
قَاصِدًا الْهَجْرَةَ وَلَوْ كَانَ عَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ، مَا لَمْ يُقَمَّ فِي دَارِهِ رَاكِنًا إِلَى
دُنْيَاهُ.

مَرَاتِبُ الْتِمَكِينِ وَشُرُوطُهُ:

وَلِلْتِمَكِينِ مَرَاتِبٌ وَدَرَجَاتٌ يَجِبُ عَلَى الْمُصْلِحِينَ إِبْصَارُهَا؛ حَتَّى
يَعْرِفُوا مَقْدَارَ ثَبَاتِ مَا يُقِيمُونَ عَلَيْهِ دِينَ اللَّهِ؛ فَلَيْسَتْ الدُّوَلُ وَلَا الْأُمَمُ
عَلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْتِمَكِينِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦]،
وَكَلَّمَا زَادَتْ أَسْبَابُ الْقُوَّةِ وَقَبُولِ النَّاسِ، زَادَتْ أَسْبَابُ الْتِمَكِينِ، فَقَدْ
يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بَسْطَةٌ فِي مَالِهِ وَسُلْطَانِيَّةٌ، وَلَيْسَ لَهُ بَسْطَةٌ عَلَى النَّاسِ،
فَالْمَالُ وَحْدَهُ لَيْسَ تَمَكِينًا مَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ رِجَالٌ يُمَكِّنُونَ لَهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا
أَرَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِنَاءَ سَدٍّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ، عَلِمَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى تَمَكِينَيْنِ:
تَمَكِينِ مَالٍ، وَتَمَكِينِ رِجَالٍ، وَلَمَّا قِيلَ لَهُ: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]، عَرَضُوا
عَلَيْهِ الْمَالُ، وَهُوَ (الْخَرَجُ)، رَدَّ عَلَيْهِمْ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي
بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]، فَكَانَ لَدَيْهِ تَمَكِينُ مَالٍ، وَمَعَ
النَّاسِ تَمَكِينُ رِجَالٍ، فَاجْتَمَعَ التَّمَكِينَانِ عَلَى الْقِيَامِ بِنَاءِ الرَّدْمِ بَيْنَ النَّاسِ
وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ.

وأول ما يبدأ التمكين: في الفرد، ولكن التمكين إذا أُطلق في القرآن لا يُراد به تمكين الأفراد؛ وإنما يُراد به تمكين الجماعة والأمة، ومن ظن أن الفرد إن تمكّن من إقامة دينه، فيعني ذلك تمكين دينه، فقد أخطأ؛ ولهذا لما طلب الصحابة من النبي ﷺ بمكة قتال قريش لما آذوهم وفتنواهم، منعهم الله من ذلك؛ لعدم تمكينهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقْبِصُوا الصَّلَاةَ وَآمِنُوا بِالزَّكَاةِ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْمِنَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، فلم يجعل الله إقامتهم للصلاة وإيتاءهم للزكاة تمكيناً لجماعتهم ودولتهم، فالصلاة والزكاة تمكين أفراد، والجهاد تمكين جماعة ودولة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، فقد جعل الله تمكين أمّتهم واستخلافهم في الأرض مُمَسِّكِينَ بأسبابها - بعد إيمانهم وعملهم الصالح في أنفسهم - فلم يجعل مجرد إيمان الأفراد وعملهم الصالح تمكيناً واستخلاقاً، بل جعل التمكين والاستخلاف بعده؛ وذلك أن تمكين الأفراد يكون مع خوف، وتمكين الدولة يكون مع أمن؛ وهذا ظاهر في قوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]؛ يعني: أنهم كان زمن إيمانهم وعملهم الصالح الخاص زمن خوف، والتمكين كان زمن الأمن.

ومن هذا: ما كان عليه موسى؛ فقد كان ومن آمن معه على إيمان وعمل صالح، ولم يكونوا على تمكين؛ ولهذا وصفهم الله بالضعف والخوف، قال تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمُوتَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْهِمُوا﴾ [القصص: ٥]؛ يعني: موسى ومن معه، ثم ذكر تمكينهم بعد ذلك، فقال: ﴿وَتُكَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦]، فمع إيمانهم وعملهم الصالح الخاص لم يجعلهم الله ممكّنين؛ بسبب الضعف والخوف.

ونحقق التمكين التام له شروط ثلاثة:

الشرط الأول: الأخذ بأسباب الأرض، والقُدرة على الانتفاع منها، وذلك بحرثها وغرسها وسقيها وحصادها وصرامها؛ فمن كان في أرض ولا يملك أن ينتفع بأرضها لخوف أو ضعف، فليس ممكناً فيها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، ومن لم يتمكن معاشه من أرضه من مُبتدأه إلى مُنتهائه، فليس ممكناً فيها، فمن له سلطان على الأرض، ملكها وملك انتفاعه بها، وكان له قدرة على تمكين الناس من الانتفاع منها بمنحهم وإقطاعهم؛ كما كان النبي ﷺ يُقطع بالمدينة بعض أصحابه لما تمكن من أرضها.

وليس من التمكين على الأرض من يأخذ ثمارها ولا يتمكن من مُبتدئ ذلك بحرث وغرس وحصاد؛ لأنَّ أخذ ثمارها فقط يَقْدِرُ عليه من لم يتمكن؛ وذلك كأخذه بتخويف أهلها، وقد يَقْدِرُ عليه السَّراق الذين يُبْتِغُونَ الناسَ على أرزاقهم، وقد كان النبي ﷺ متمكناً من خيبر، وصالح اليهود عليها، فأذن لهم بحرثها وغرسها وسقيها وصرامها، فجعلهم كالعَمَّالِ فيها، فهو قادرٌ ﷺ على أن يجعل المسلمين يقومون بذلك، ولكنه صالح اليهود عليها.

الشرط الثاني: السَّيرُ في الأرض بأمان، فمن كانوا في الأرض لا يتمكنون من السير فيها والتبوء والسكنى منها حيث شاؤوا، لا يُعْتَبَرُونَ ممكنين فيها؛ فالله لم يجعل يوسف ﷺ ممكناً في مصر حتى أمكنه السير فيها حيث شاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، فمن كان لا يسير في أرضه إلا خائفاً متسرعاً، فلا يُعَدُّ ممكناً فيها، فالتمكين لا يجتمع مع شدة الخوف،

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وقد قال الله عن تمكين قريش: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُخَوِّجُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصاص: ٥٧]؛ فقد كان لكفار قريش تمكين أرض، لكن ليس لديهم تمكين من العمل الصالح، وقد كان للنبي ﷺ تمكين من العمل الصالح، ولكن ليس لديه تمكين في أرض مكة حينها، فلم يُؤمَرْ بإقامة كثير من التكاليف؛ لأنَّ قُدْرَ التمكن أقصر منها، فقُصِرَتِ التكاليف معها، ولو اجتمع التمكينان له، لأُمِرَ بإقامة شعائر الله كلها في مكة كما أقامها في المدينة.

الشرط الثالث: الأخذ بأسباب الناس حتى ينقادوا أمراً ونهيًا؛ رغبة أو رهبة، ومن هذا تمكين النبي ﷺ في المدينة، فقد تمكَّن في الأرض أول قدميه وأمن فيها، ولم يكن الناس كلُّهم على انقياد تام فيها، وإنما تدرَّج تمكينه، ومع تدرُّج تمكينه تدرَّج تكليفه؛ ولهذا نزلت عليه الشرائع والأحكام والحدود يتاعا.

وقد يتحقَّق لسلطان أو قوم أحد شروط التمكين ويفقد غيرها، فلا يكون متحقِّق التمكين، وذلك كحال النجاشي في الحبشة؛ فقد كان ملكًا على الحبشة، له البسطة على أرضها والانتفاع منها، وآمن فيها؛ لكنَّه لا يملك الأخذ بأسباب الناس أمرًا ونهيًا في الحق، فقد جاءه الحق وآمن به وحده، وأُثِّتَ كلُّها نصرانيَّةً، فلو أَمَرَهُم ونهاهم، لَمَّا أطاعوا أمره، ولقاموا عليه، فأسلمَ وكتَمَ إيمانه، ولم يُعَادِ الحقَّ وأهله، بل نصرهم، وعدَّه الله لعدم تمام تمكينه بالحق، ولو كان مستوفيًا تمام التمكين، لم يكن معذورًا عند الله، فلمَّا عُدِرَ، ذلَّ على أنَّه صحَّ إسلامه وعُدِرَ بما ترك لعجزه، وهذا يختلف عمَّن كان ممكَّنًا بالحق ولكنَّه أكره الناس على الباطل.

وفرقَ بَيْنَ مَنْ كَانَتْ وِلَايَتُهُ عَلَى بَاطِلٍ، فَتَدْرَجُ بِنَقْضِ عُرَا الْبَاطِلِ،
وَبَيْنَ مَنْ كَانَتْ وِلَايَتُهُ عَلَى حَقٍّ، فَتَدْرَجُ بِنَقْضِ عُرَا الْحَقِّ.

وَقَدْ يَكُونُ لِأَحَدٍ تَمَكُّيْنٌ كَامِلٌ وَأَخْذٌ بِأَسْبَابِ الْأَرْضِ وَالنَّاسِ
جَمِيعًا، وَهَذَا مِنْ جَنْسِ تَمَكُّيْنِ اللَّهِ لِذِي الْقَرْنَيْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا
مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

وَيَتِمَامُ التَّمَكُّيْنِ تَقَوُّمُ شَرَائِعَ كَثِيرَةٍ، وَبِنَقْضِهِ يُعَذَّرُ الْعَاجِزُونَ عَنْهَا،
كَمَا يُعَذَّرُ الْعَبْدُ فِي نَفْسِهِ فِي آدَاءِ الصَّلَاةِ قَائِمًا لِمَرْضٍ، فَيُصَلِّيُهَا قَاعِدًا أَوْ
عَلَى جَنْبٍ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا
الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: ذِكْرُ لَأَسْبَابِ دَوَامِ التَّمَكُّيْنِ
وَحِفْظِهِ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ يُتِمُّ اللَّهُ لَهُ تَمَكُّيْنَهُ، ثُمَّ يَقُومُ بِحِفْظِ شَعِيرَةِ الصَّلَاةِ فِي
نَفْسِهِ وَفِي النَّاسِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَيَأْخُذُ الزَّكَاةَ وَيَقْسِمُهَا بِالْعَدْلِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ،
وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ، إِلَّا دَامَ تَمَكُّيْنُهُ بِمَقْدَارِ حِفْظِهِ لِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ،
وَيَنْقُصُ تَمَكُّيْنُهُ بِمَقْدَارِ نَقْصِهَا، وَمَنْ أَقَامَ التَّكَالِيفَ أَكْثَرَ مِنْ قَدْرِ التَّمَكُّيْنِ
لَهُ فِي الْأَرْضِ، لَمْ يَدُمِ تَمَكُّيْنُهُ، وَقَدْ بَطُنَ فِيهِ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ وَالظَّالِمِينَ
أَنَّهُ لَمْ يُمَكَّنْ إِلَّا بِسَبَبِ عَدَمِ صِلَاحِ شَرِيعَتِهِ وَدِينِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ تَعَجُّلِ
التَّكْلِيفِ قَبْلَ التَّمَكُّيْنِ، فَفَتَنَ النَّاسَ وَصَرَفَهُمْ عَنِ الْحَقِّ، فَأَسَاؤُوا الظَّنَّ
بِهِ، فَهَازِئِهِمْ أَهْلُ الْحَقِّ فَتَنَةً لِأَهْلِ الْبَاطِلِ بِشَبَابِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ؛ وَفِي هَذَا
يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوِّمِ الظَّالِمِينَ﴾
[يونس: ٨٥]؛ قَالَ مُجَاهِدٌ فِي مَعْنَاهُ: «لَا تُصِيبْنَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ وَلَا
بِأَيْدِيهِمْ، فَيُفْتِنَتُوا وَيَقُولُوا: لَوْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ، مَا سُلْطَنَّا عَلَيْهِمْ وَلَا
عُدُّبُوا»^(١).

وَأَمَّا عَنْ شَرِيعَةِ الْجِهَادِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى زَمَنِ مَشْرُوعِيَّةِ الْقِتَالِ وَمَرَاحِلِهِ، وَبَعْضِ مَعَانِي التَّمَكِينِ، وَوُجُوبِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ لِلنَّصْرِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧].

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَزُوفٌ خَفِيفٌ﴾ [الحج: ٦٠].

أَذِنَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْعِقَابِ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ الْإِنْسَانُ بِهِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ حَقًّا لَهُ، وَتَوَعَّدَ الْبَاغِيَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْهَزِيمَةِ، وَالْمُتَنَصِّرَ بِالنَّصْرِ؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَبْتَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْإِنْتِصَارِ لِلنَّفْسِ بِمِثْلِ مَا بُغِيَ عَلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدْتُمْ عَلَيْهِمْ فَاغْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وَسَيَأْتِي بَيَانُ أَحْوَالِ الْإِنْتِصَارِ لِلنَّفْسِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشَّعْرَاءِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعِلَهُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَمْ يُنْقَلِبُونَ﴾ [٢٢٧].

وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، لَقُوا جَمْعًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَهْرِ الْحَرَمِ، فَنَاشَدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لَثَلَا يُقَاتِلُوهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَأَبَى الْمُشْرِكُونَ إِلَّا قِتَالَهُمْ وَبَغَوْا عَلَيْهِمْ، فَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَذَا عَنْ مُقَاتِلٍ^(١)، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ^(٢).

* * *

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٥٠٣/٨). (٢) «تفسير الطبري» (٦٢٠/١٦).

﴿قَالَ تَعَالَى: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلْهَ أَتَيْكُمْ إِزْرَاهِمٌ هُوَ سَمَنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَلِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

في هذا: فضل جهاد اللسان؛ فهذه الآية مكيّة، وقد شرع الله فيها مجاهدة الكفار بالحجة والبيان والبرهان، وحينما أمر الله بجهاد اللسان، وصف النوع الذي يأمر به بوصفين في كتابه لم يصف بهما جهاد السنان مع عظمته وفضله وجلالة قدره:

الأول: أنه جهاد كبير؛ كما في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [٥٢].

والثاني: أنه حق الجهاد؛ كما في هذه الآية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

وجهاد اللسان أمضى من جهاد السنان لمن قدر عليه وسدده الله. وهو له تعالى: ﴿قُلْهَ أَتَيْكُمْ إِزْرَاهِمٌ﴾: المراد بالأبوة: الأبوة الدينية؛ لإبراهيم إمام الحنفاء، وهو أب للمؤمنين بهذا المعنى تعظيمًا وإجلالًا، وكما تطلق الأبوة على إبراهيم بهذا المعنى، فإنها تطلق على النبي ﷺ؛ فإنما أخذت أمهات المؤمنين منه الأمومة، وفي قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس، ومجاهد والحسن وقتادة: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم^(١)).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/١٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١١٥/٩)، و«تفسير القرطبي» (١٧٧/١١)، و«تفسير ابن كثير» (٣٨١/٦).



سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

سورة المؤمنين مكيّة، وتظهر مكيّتها في معانيها ودلالاتها؛ فغايتها بيانٌ وُحْدَانِيَّةُ اللهِ بِذِكْرِ آيَاتِهِ فِي خَلْقِهِ؛ كَتدبيرِ الأكوان، وخلقِ الإنسان، وتسخيرِ الأنعام، وعاقبةِ الظالمينَ مِنَ الأممِ السابقين؛ تذكيراً بعاقبةِ كفرهم وعنادهم، وَأَنَّ مَنْ لَحِقَ بِطَرِيقِهِمْ فَهَيْئَتُهُ كُنْهَاتِهِمْ.

وقد صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّاسِ بِمَكَّةَ، وَقَرَأَ بِهِذِهِ السُّورَةَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِالنَّاسِ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّائِبِ؛ قَالَ: «صَلَّى لَنَا النَّبِيُّ ﷺ الصُّبْحَ بِمَكَّةَ، فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى جَاءَ ذِكْرُ مُوسَى وَهَارُونَ، أَوْ ذِكْرُ عِيسَى - شَكَّ بَعْضُ الرُّوَاةِ - أَخَذَتِ النَّبِيُّ ﷺ سَعْلَةً، فَرَكَعَ»^(١).

* * *

❏ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ❏

[المؤمنون: ١ - ٢].

قَدَّمَ اللهُ الْخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى سَائِرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ قُوَّةَ إِيمَانِ الْإِنْسَانِ بِمِقْدَارِ خُشُوعِهِ فِي صَلَاتِهِ، وَكَأَنَّ مَا يَلِي مِنَ صِفَاتِ هِيَ تَبَعٌ لِهَذِهِ الصِّفَةِ؛ فَكَامِلُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ حَاضِرُ الْقَلْبِ فِيهَا؛ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُحَقِّقًا لَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ مِنْهَا؛ كَالْإِعْرَاضِ

عن اللُّغُو، وأداء الزكاة، وحِفْظِ الفُروج، ومراعاة الأمانة والعهد.

معنى الخشوع:

والخشوعُ هو السكونُ والذلُّ عند أوامرِ الله وكلامِهِ هَيْبَةً وَرَهْبَةً وتعظيمًا؛ كما قال تعالى في حالِ الظالمينَ: ﴿وَرَكِبَهُمُ يَمْرُؤُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ [الشورى: ٤٥]، ومن ذلك سُمِّيتِ الأرضُ خاشعةً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ افْتَرَّتْ وَرَبَّتْ﴾ [فصلت: ٣٩]، فحركةُ الجسمِ تُنافي خشوعَهُ، ومثلُها الحركةُ في الصلاة، فخشوعُ الشيءِ ثباتُهُ وسكونُهُ مع انكسارِهِ؛ كقوله: ﴿خَشِيعَةً أَنْفُسُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣، والمعارج: ٤٤].

وبين الصلاة والخشوع تلازُمٌ، فلا تكتُمِلُ الصلاةُ إلَّا بخشوع، ولا يكتُمِلُ الخشوعُ إلَّا مع الصلاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَوِينَا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاقِشِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ يعني: أنَّ الصلاةَ ثَقِيلَةٌ وكَبِيرَةٌ على مَنْ لَمْ يَخْشَعْ فِيهَا.

ومِمَّا يُعِينُ العبدَ على الخشوع كثرةُ ذِكْرِ الله، وقراءةُ القرآنِ بتدبُّرٍ وتأمُّلٍ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وَبَيَّنَّ أَنَّ قَسْوَةَ القلبِ بسببِ قراءتِهِ بلا تدبُّرٍ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك فَإِنَّ الذِّكْرَ كُلَّهُ والسجودَ مع حضورِ القلبِ يَزِيدُ في الخشوعِ وَيُقَوِّيه، كما قال تعالى: ﴿وَيُخَوِّشُونَ لِالْأَذْقَانِ يَكُونُوا وَزِيدَهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقَدَّمَ اللهُ الخشوعَ في سورة (المؤمنون) على الحِفَاطِ على الصلاة، مع أَنَّهُ لَا يَخْشَعُ في صلاتِهِ إلَّا مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الخشوعَ هو المقصودُ مِنَ الصلاة، وليس حركةُ البدَنِ بقيامٍ وركوعٍ وسجودٍ مجردٍ.

حُكْمُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ:

والخشوعُ في الصَّلَاةِ عَظِيمُ الْقَدْرِ؛ بِهِ رَفَعَةُ الْعَبْدِ وَبِهِ وَضْعُهُ، وَهُوَ قَلْبُ الصَّلَاةِ وَلُبُّهَا، وَهُوَ مَنَاطُ اسْتِحْقَاقِ الْأَجْرِ فِيهَا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَنَمَةَ؛ قَالَ: رَأَيْتُ عَمَارَ بْنَ يَاسِرٍ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، فَأَخَفَتِ الصَّلَاةُ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ، قُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، لَقَدْ خَفَفْتَ! قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَنِي انْتَقَضْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنِّي بَادَرْتُ بِهَا سَهْوَةً الشَّيْطَانِ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عَشْرُهَا، تُسَعُّهَا، تُمْنَعُهَا، سُبْعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا) ^(١).

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَجَرَ الصَّلَاةِ بِمَقْدَارِ خُشُوعِ الْمُصَلِّي فِيهَا، وَفَهُمُ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِحُضُورِ الْقَلْبِ، لَا بِمَجَرَّدِ طَوْلِهَا.

وَعِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى حُكْمِ الْخُشُوعِ فِي الشَّرْعِ، فَلَا بَدْءَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْجِهَةُ الْأُولَى: حُكْمُهُ مِنْ جِهَةِ أَصْلِهِ: فَأَمَّا أَصْلُهُ، فَمُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَفِي ذَلِكَ رَوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ، وَالْأَرْجَحُ: أَنَّ أَصْلَهُ مُسْتَحَبٌّ لَا وَاجِبٌ، وَحَكَى النَّوَوِيُّ الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ وَجُوبِهِ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ فَقَدْ قَالَ بِوُجُوبِهِ جَمَاعَةٌ؛ فَهُوَ رَوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ، قَالَ بِهَا الْغَزَالِيُّ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ، وَرَجَّحَهَا ابْنُ حَامِدٍ وَابْنُ تَيْمِيَّةٍ مِنَ الْحَنَابِلَةِ، وَجَعَلَهُ الرَّازِيُّ شَرْطَ صَحْوَةٍ.

وَالصَّوَابُ سُنِّيَّتُهُ مَعَ جَلَالَةِ فَضْلِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْخُشُوعَ لَوْ قِيلَ بِوُجُوبِهِ، لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَشَقَّةٌ؛ إِذْ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ حِينَهَا مِنْ إِثْمٍ؛ إِذْ لَا

يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ سَهْوٍ يَتَّبَعُهُ اسْتِرْسَالٌ عَنْ عَمَدٍ بِمَقْدَارِ إِيمَانِ الْإِنْسَانِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقْطَعُهُ مِنْ أَوَّلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُ مِنْهُ لِحِظَةً وَمِنْهُمْ لِحِظَاتٍ، وَالْقَوْلُ بِتَأْتِيمِ أَوْلَئِكَ أَمْرٌ دَقِيقٌ، لَوْ كَانَ، لَمْ تَتْرُكِ الشَّرِيعَةُ التَّشْدِيدَ فِيهِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ جاءتْ ببيانِ فضلِ الخشوعِ، ولم تَأْتِ بِالْفَاطِظِ الوَعِيدِ لِتَارِكِهِ؛ فَذَلَّ عَلَى قَصْدِ الْفَضْلِ، وَوُجُودِ الْحَرَجِ بِالْإِجَابِ، وَيَعْضُدُ ذَلِكَ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «إِنِّي لِأَجْهَرُ جِيشِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ»؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ^(١)؛ وَهُوَ صَحِيحٌ عَنْهُ، وَعَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ مِنْ «صَحِيحِهِ»، فِي بَابِ تَفَكُّرِ الرَّجُلِ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ^(٢).

وَهَذَا مِنْ عُمَرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ شَيْءٍ وَلَوْ بِسِيرًا مِنَ الْاسْتِرْسَالِ الْمَقْصُودِ، وَلَوْ كَانَ يُغَالِبُ أَصْلَهُ، وَمِنْهُ مَا لَا يَقْوَى عَلَيْهِ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ، وَقَدْ رُوِيَ: «أَنَّ عُمَرَ صَلَّى الْمَغْرِبَ فَلَمْ يَقْرَأْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ؟» قَالَ: «إِنِّي حَدَّثْتُ نَفْسِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ بِعَبِيرٍ وَجَّهْتُهَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَلَمْ أَزَلْ أَجْهِّزُهَا حَتَّى دَخَلَتِ الشَّامُ! ثُمَّ أَعَادَ الصَّلَاةَ وَالْقِرَاءَةَ»^(٣).

وَرَوَى مَالِكٌ بِلَاغًا عَنْ عُمَرَ؛ قَالَ: «إِنِّي لَأَضْطَجِعُ عَلَى فِرَاشِي، فَمَا يَأْتِينِي النَّوْمُ، وَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ فَمَا تَتَوَجَّهُ إِلَيَّ الْقِرَاءَةُ؛ مِنْ اهْتِمَامِي بِأَمْرِ النَّاسِ»^(٤).

وَرُوِيَ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَخْسِبُ جَزِيَةَ الْبُخَرَيْنِ وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ»^(٥).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٧٩٥١).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مَعْلَقًا قَبْلَ حَدِيثِ (١٢٢١).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٤٠١٢).

(٤) «شرح السُّنَّةِ» لِلْبُخَارِيِّ (٢٥٧/٣).

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٧٩٥٠).

وحكاية عمرَ ذلك عن نفسه ليست في سياق ارتكاب المحرم والتحدث به؛ وإنما لبيان ما يُغلب عليه وهو معذور به ولو كان منه استرسال فيه.

بل إن بعض الأئمة يرى أن الخاطرة التي تغلب صاحبها ولو كانت تطول لو فكر بها، وتركها يشوش عليه: لا يجب عليه الخروج منها، كما نص على ذلك الشاطبي، فقال: «لا يجب على من ابتلي بالخاطر الخروج منه، إذا كان خروجه يشوش خاطره أكثر». ويبقى بعد هذا النظر في وجوب إعادة الصلاة أو استجابها أو سقوطها.

ومن قرائن الفضل والاستجاب وعدم الوجوب: ما جاء في حديث عمار بن ياسر السابق: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيُصَلِّيَ الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا، تُسَعِّهَا، تُمْنِّهَا، سُبْعُهَا...»^(١)، فذكر نقصان الأجر، ولم يذكر لحاق الوزر، ولو كان الفعل محرماً، لذكر الإثم، ولكنه بين نقصان الأجر؛ لعدم التمام فيها، لا لارتكاب محرم.

الجهة الثانية: حكمه من جهة أثره؛ فإن أثر الخشوع عظيم على الإيمان، وأثر فقدوه كبير عليه كذلك على ما تقدم؛ فإن الله لم يقدم الخشوع على بقية أوصاف المؤمنين إلا لأثره عليه، وأن تفويته سبب لإطلاق اللسان باللغو، وعدم حفظ الفروج، وتضييع الزكاة، وتضييع الأمانات، وتحريم العهود، فترك الخشوع المتسبب في ذلك يائمه به صاحبه، وإن لم نقل بوجوب أصل الخشوع، ولكن القدر الذي يفحش حتى يقضي إلى ضعف الإيمان، والابتلاء بالمحرمات، وتضييع الأمانات والعهود: محرم، فيجب من الخشوع القدر الذي يحفظ للعبد خشية الله، ويحول بينه وبين ما حرم، وهذا القدر - وإن تعسر على كثير من الناس

تمييزه في الكتابة وتحرير العلم - إلا أنهم يستطيعون تمييزه في العمل والعبادة؛ فللصلاة أثرٌ على صاحبها بمقدار خشوعه فيها، والله أعلم.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۝﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

في هذه الآية: وجوب حفظ الفرج من جميع الفواحش، وصيانته من الحرام؛ وهذا من أخص أوصاف المؤمنين، واستثنى الله من حفظ الفرج: الزوجات وما ملكت الأيمان، فرفع الله اللوم في ذلك ولو استكثروا؛ فإن الله لم يحرم حراماً إلا وفي الحلال غنية عنه.

حكم الاستمناء:

وبهذه الآية استدل مالک على منع الاستمناء، وتسميه العرب: جلد عميرة، وهي التي تسمى في اصطلاح أهل الاجتماع اليوم بالعادة السرية، وسميت بذلك لقبجها؛ لأن من فعلها يعتادها ويستتر بها عن الخلق حتى عن زوجة وما ملكت يمينه؛ لأنه من الفعل المكروه الذي يحيك في النفس، وقد قال حرملة بن عبد العزيز: سألت مالكا عن الرجل يجلد عميرة؟ فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۝﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ ۝﴾^(١).

ولا يختلف العلماء على أن من خشي على نفسه الرنى؛ لقربه منه،

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/١١).

وانفتاح أبوابه عليه: أَنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ لَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ، وكذلك فَإِنَّهُ يُبَاحُ فِعْلُهُ
بِبَدَنِ الزَّوْجَةِ، ومنهم مَنْ حَكَى الْإِتِّفَاقَ عَلَى هَذَا، وَقَدْ كَرِهَ فِعْلُهُ بِهَا
بَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَفِيَّةِ.

وَأَمَّا أَصْلُ الْفِعْلِ، فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَهُمَا رَوَايَتَانِ فِي
مَذْهَبِ أَحْمَدَ.

وجماهيرُ العلماءِ عَلَى الْمَنْعِ مِنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَّ عَلَى تَحْرِيمِهِ،
وَهُوَ الْأَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ يُزْمَدُ فِي النِّكَاحِ الْمَشْرُوعِ، وَيَدْفَعُ صَاحِبُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ
الْأَحْيَانِ إِلَى الْحَرَامِ وَيُرْعَبُهُ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ صَرْفِهِ عَنْهُ، وَيَذْكُرُ أَهْلُ الطَّبِّ
ضَرَرَهُ عَلَى فَاعِلِهِ فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ.

وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي الْإِسْتِمْنَاءِ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ، وَقَدْ كَرِهَهُ
عَطَاءٌ، وَقَالَ: «مَكْرُوهٌ؛ سَمِعْتُ أَنَّ قَوْمًا يُحْشَرُونَ وَأَيْدِيهِمْ خَبَالَى، فَأُظَنُّ
أَنَّهُمْ هَؤُلَاءِ»^(١).

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُذَكَّرُوا بِمَا فِي بُطُونِهَا
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَطَلِيهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾
[المؤمنون: ٢١ - ٢٢].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ بِأَنْ رَزَقَهُمْ مَا يَشْرَبُونَ مِنَ الْبَاقِ
الْأَنْعَامِ، وَمَا يَأْكُلُونَ مِنْ لَحُومِهَا، وَذِكْرُ مَنَافِعِهَا الْكَثِيرَةِ، وَمِنْهَا الرُّكُوبُ،
وَمِنْهَا الْإِتِّفَاقُ بِالْجُلُودِ وَالشَّعْرِ وَالصُّوفِ.

وَهُوَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُذَكَّرُوا﴾ قَدَّمَ الْإِعْتِبَارَ عَلَى
الْإِتِّفَاقِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى تَعْظِيمِ الْخَالْقِ وَعِبَادَتِهِ

والخضوع له، وأمّا الانتفاع من غير اعتبار، فإنه يُؤدّي إلى بَطَرٍ وكِبَرٍ
وَعَفْلَةٍ عن حقِّ الله.

وقد تقدّم الكلام على مسألة جلود الأنعام عند قولهِ تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥].

وتقدّم الكلام على ركوب البحر وأحواله وحكم الغزو فيه وفضله عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْنَا بكم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].

❖ ❖ ❖

﴿ قَالَ نَعَالِي لَنُوحٍ : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾﴾

[المؤمنون : ٢٧].

في هذه الآية: وجوب حفظ أرزاق العباد ومنافعهم عند الكوارث،
ووجوب تنميتها، وحفظ الحيوان من الانقراض؛ فلا يجوز استئصال
جنس أمة من الحيوان؛ كما تقدّم ذلك عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ
أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ
عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ أَمِنٌ وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا أَسْمُوتُتْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

فَجَعَلْنَا مِنَ الْقَوْمِ الْفَٰطِلِينَ ﴿٧٨﴾ وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي مَزَلًا مُّبَارَكًا وَأَمَّا خَيْرُ الْمَوَٰزِينِ ﴿٧٩﴾

[المؤمنون : ٢٨ - ٢٩].

يُسْتَحَبُّ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ الرُّكُوبِ، وَعِنْدَ نَزُولِ مَنْزِلٍ لَمْ يَنْزِلْهُ مِنْ قَبْلُ؛

فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَبَرُّكًا بِالْمَذْكُورِ سُبْحَانَهُ، وَتَعَرُّضًا لِكِفَايَتِهِ وَحِفْظِهِ، وَنَبَرُّوًا مِنْ حَوْلِ الْإِنْسَانِ وَقُوَّتِهِ فِي حُسْنِ الْإِخْتِيَارِ لِلْجِهَةِ وَمَكَانِ النُّزُولِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذِكْرِ الرُّكُوبِ وَدَعَاءِ السَّفَرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمْرَتَهَا وَمُرسَلُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

دعاء نزول المنزل:

وَأَمَّا دَعَاءُ نَزُولِ الْمَنْزِلِ، فَظَاهِرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ انْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، وَظَاهِرٌ: أَنَّهُ فِي نَزُولِ مَنْزِلٍ لَمْ يُنْزَلْ مِنْ قَبْلُ، وَلَيْسَ فِي نَزُولِ الْمَنْزِلِ الَّذِي يَعْتَادُهُ الْإِنْسَانُ؛ كَدُخُولِهِ بَيْتَهُ وَبُسْتَانَهُ وَالْمَكَانَ الَّذِي يَتَدَوُّ فِيهِ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، لَاشْتَهَرَ الْقَوْلُ بِهِ وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ فِي السُّنَّةِ.

وَيَكُونُ هَذَا الدُّعَاءُ عِنْدَ اتِّخَاذِ الْمَنَازِلِ الْجَدِيدَةِ وَالرِّبَاطِ الْجَدِيدِ فِي تَغَرٍّ مِنَ الثُّغُورِ، وَلَوْ كَانَ النُّزُولُ عَارِضًا لَا دَائِمًا؛ كَمَنْ يَتَدَوُّ فِي بَرِّيَّةٍ، أَوْ يَتَّخِذُ مَكَانًا لِمَاشِيَتِهِ مِنْ غَنَمٍ وَإِبِلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ النُّزُولُ فِي مَكَانٍ يَعْتَادُهُ، أَوْ جَدِيدٍ كَذَلِكَ، فَيُسْتَحَبُّ لَهُ الدُّعَاءُ بِمَا وَرَدَ فِي مُسْلِمٍ؛ مِنْ حَدِيثِ خَوْلَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)^(١).

وَهَذَا يُسْتَحَبُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُنْزَلُ وَلَوْ اعْتَادَهُ، وَأَمَّا بَيْتُ الرَّجُلِ وَمَسْكَنُهُ الدَّائِمُ، فَلَا يُسْتَحَبُّ قَوْلُ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ كُلِّ نَزُولٍ.

وَالنُّزُولُ فِي الْحَدِيثِ يُرَادُ بِهِ الْمُكُثُّ فِي مَكَانٍ جَدِيدٍ أَوْ مَكَانٍ غَنِيٍّ، لَكِنْ بَعْدَ انْقِطَاعٍ عَنْهُ؛ وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي حَدِيثِ خَوْلَةَ السَّابِقِ؛ حَيْثُ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٨).

قال فيه: (حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ)؛ يعني: أنه ليس مسكنًا له، ومثل ذلك حديث أنس عند أحمد وأهل «السنن»؛ قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا، لَمْ يَرْتَحِلْ حَتَّى يُصَلِّيَ الظُّهْرَ»^(١)، فالْمَنْزِلُ تَطْلُقُ عَلَى مَا يَحْطُّ الْمَسَافِرُ وَالْعَابِرُ فِيهِ رَحْلَهُ.

وَمَنْ كَانَ يَدْخُلُ فِي بَيْتِهِ وَيَخْرُجُ وَهُوَ مُقِيمٌ فِي بَلَدِهِ لَا يُسَمَّى دَخُولَهُ بَيْتَهُ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ: نَزُولًا؛ وَإِنَّمَا النَزُولُ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ سَفَرٍ، أَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ جَدِيدٍ لَمْ يُسْكَنْ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ سَاكِنًا حَاضِرًا لَا يُسَمَّى الدَّخُولُ فِيهِ نَزُولًا إِلَّا لِمَنْ كَانَ غَرِيبًا، فَيُقَالُ: نَزَلَ فُلَانٌ عِنْدَ فُلَانٍ، وَلَا يُقَالُ لِمَا كَانَ فِي الدَّارِ: نَازَلَ، إِلَّا إِنْ كَانَ بَعْدَ سَفَرٍ، أَوْ طَوَّلَ عَهْدَهُ، أَوْ فِي مَكَانٍ جَدِيدٍ.

وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ - أَي: فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ إِقَامَةٍ - الدُّعَاءُ بِمَا فِي الْآيَةِ؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ طَلَبَ الْبَرَكَةِ فِي مَكَانِهِ وَمَوْضِعِهِ الْجَدِيدِ، وَالدُّعَاءُ بِمَا فِي الْحَدِيثِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْإِلْتِمَاءَ مِنْ شَرِّ مَنْ فِيهِ وَشَرُّ عَامِرِيهِ.





سُورَةُ النُّورِ

سورة النور مدنيّة، وقد حُكي الإجماعُ على ذلك^(١)، ويظهر ذلك في تفاصيل أحكامها من أحكام النظر، والحجاب، والتحيّة، والاستئذان عند الدخول، وحقوق البيوت وأهلها، والحدود الواردة فيها كحدّ الزّنى والقذف، ممّا لم يكن مثله ينزل بمكّة، وهذه الأحكام والتفاصيل نزلت بالمدينة بعد استقرار التوحيد وتحقّق التمكين للنبي ﷺ.

وفي هذا: إشارة إلى أنّ الأحكام العامّة والحدود إنّما يؤمر بها عند التمكين في الأرض وعند التمكين من الناس وقبول كثير منهم للحق؛ لأنّ الحق إذا أقيم في ناس لا يريدونه جميعاً، كان مدعاةً للتنكر له وجحوده وخربه وردّه كلّ، حتى وإن كان الاعتراض على بعضه، فلا تُقام الحدود إلا عند التمكين ووجود ناصرٍ من الناس يحميه عند تمرّد بعض الناس عليه، وقد تقدّم الكلام على التمكين ومراتبه وشروطه وأحواله مفصّلاً عند قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٤١].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

بيّن الله تحريم الزّنى وعظم خطره وكونه من الموبقات، وهو من

الأفعال المنبوذة التي لو رضيها الإنسان في عرض غيره، لم يرضها في عرضه؛ وذلك أن النفوس تعمى عند الحرام إن كان لها، وتبصره إن كان لغيرها؛ لأن المتعة إن قامت في النفس، عميت الأنفس عن التمييز.

وقد تقدم الكلام على فاحشة الزنى وبشاعتها، وبيان أول ما نزل في عقوبة فاعليها عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ إِسَاءَتِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَاسْكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

حد الزاني والزانية:

في هذه الآية: بيان لحد الزانيين، وقد جاءت الآية بالإطلاق هنا من غير تفريق بين مُحْصَنٍ وغير مُحْصَنٍ، ولكنَّ السُّنَّة قد خصصته بالِكَرِّ لا الشَّيْب، وفي السُّنَّة تفصيل ذلك:

فأما الْكَرُّ:

فلا خلاف عند العلماء أن عليه الجَلْد مِئَةً؛ لظاهر الآية: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ رَجُلٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾، ولما يأتي من أحاديث.

وأما العبد والأمة إن زنيا، فعليهما نِصْف ما على الْمُحْصَن من العذاب ولو كانا ثَبِيْن في قول جماهير الفقهاء، وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْكَ بِكَ حِشْوَةٍ فَعَلَيْنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقد حكى غير واحد من الأئمة أن العبد والأمة لا يُرْجَمَانِ في الزنى بلا خلاف عند السلف، وقد قال الشافعي: «ولم يختلِف المسلمون في أن لا رَجْم على مملوك في الزنى»^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٦٥).

وَأَمَّا الْمُحْصَنُ:

فهو الذي وَطِئَ بِنِكَاحٍ صَحِيحٍ وهو حرٌّ عَاقِلٌ بَالِغٌ، وَحُدُّهُ الرِّجْمُ بلا خِلافٍ، وَقَدْ رَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَجَمَ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَلَمْ يَخْتَلِفِ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ فِي الْقُرُونِ الْمَفْضَلَةِ، وَلَا عِنْدَ فُقَهَاءِ الْإِسْلَامِ فِي سَائِرِ الْمَذَاهِبِ الْفَقْهِيَّةِ، وَقَدْ كَانَ الرِّجْمُ مِنْ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ، فَتُسَخِّحُ لِفُظٍّ وَبَقِيَ حُكْمًا، وَهِيَ كَمَا قَالَ عَمْرٌ: «كَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ: آيَةُ الرِّجْمِ: (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا، فَارْجُمُوهُمَا الْبَيِّنَةُ)»^(١).

وَرَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: (خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا؛ الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِئَةٌ وَنَفْيٌ سَنَةٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدٌ مِئَةٌ وَالرَّجْمُ)^(٢).

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ؛ قَالَا: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: أُنْشِدْكَ اللَّهُ إِلَّا قَضَيْتَ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَامَ خَضْمُهُ، وَكَانَ أَفْقَهُ مِنْهُ، فَقَالَ: أَفْضِلْ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَذِّنْ لِي، قَالَ: (قُلْ)، قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَرَأَى بِأَمْرَائِهِ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِئَةِ شَاةٍ وَخَادِمٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونِي: أَنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِئَةٍ وَتَغْرِيبَ عَامٍ، وَعَلَى أَمْرَائِهِ الرِّجْمُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ - جَلَّ ذِكْرُهُ -: الْمِئَةُ شَاةٍ وَالْخَادِمُ رَدُّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدٌ مِئَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمُهَا)، فَعَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَارْجَمُهَا^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٢٧)، ومسلم (١٦٩٧).

وبهذا يَعْمَلُ وَيَقْضِي الخلفاء، وفي «الصحيحين»؛ ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال عمر: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ، حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: لَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، أَلَا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى وَقَدْ أَحْصَنَ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبْلُ، أَوْ الْإِغْتِرَافُ، أَلَا وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ^(١).

ولم يَخْتَلِفِ الفقهاء في ذلك، وقد ظَهَرَ في الزَمَنِ المتأخِّرِ مَنْ أَدْرَكَهُ وَهْنُ الْغَرْبِ، وَالتَّمَسَّ مِنَ الْفُهْمِ مَا يُدْلِلُّ بِهِ مَا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ قِسْوَةِ الشَّرِيعَةِ عَلَى الْفُجُورِ وَالظُّلْمِ، فَقَالُوا بِبُطْلَانِ الرَّجْمِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحُدُودِ، وَمَنْعَهُمْ مَنْ نَفَى شَرْعِيَّتَهُ، وَلَا يُوجَدُ مَنْ تَشَرَّبَ اللَّيْبَرَالِيَّةَ إِلَّا أَصَابَهُ وَهْنُ الْغَرْبِ فِي إِضْعَافِ الْمَحْرَمَاتِ، فَرَقَّتْ فِي قَلْبِهِ عَظَمَةُ الزَّنى، وَرَقَّ فِي قَلْبِهِ مَنْزِلَةُ الْحِجَابِ وَالِاخْتِلَاطِ بِالنِّسَاءِ، فَمَنْ ضَعُفَ فِي قَلْبِهِ مَنْزِلَةُ الزَّنى وَبِشَاعَتِهِ، ضَعُفَتْ فِي قَلْبِهِ مَنْزِلَةُ حُدُودِهِ، فَاسْتَكْثَرَ وَاسْتَعْظَمَ الْحَدَّ عَلَى مَا رَقَّتْ مَنْزِلَتُهُ فِي قَلْبِهِ، وَلَوْ نَطَقَ بِخِلَافِ ذَلِكَ تَهْيِئًا لِلشَّرِيعَةِ.

وَيُدْلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُنْكَرُ حَدَّ الرَّجْمِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ مَنْزِلَةُ الزَّنى فِي قَلْبِهِ لَيْسَتْ مَنْزِلَتُهُ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ الصَّحِيحَةِ: أَنِّي لَمْ أَرِ أَحَدًا مِمَّنْ أَنْكَرَ الرَّجْمَ الْيَوْمَ وَلَوْ كَانَ مِمَّنْ يُظْهَرُ التَّدْيِينُ وَالْفَقْهُ إِلَّا وَذَرَأَتْ الزَّنى هَيْئَةً فِي قَلْبِهِ كَالْحِجَابِ وَالِاخْتِلَاطِ وَالْحُلُوءِ، وَمِنْ عِلَالِمَاتِ ضَعْفِ بِشَاعَةِ الزَّنى: ضَعْفُ ذَرَائِعِهِ فِي النَّفْسِ؛ فَإِنَّ هَوَانَ الْوَسَائِلِ يَدُلُّ عَلَى هَوَانِ الْغَايَاتِ، وَهَوَانُ الْغَايَةِ يَدْفَعُ إِلَى اسْتِعْظَامِ وَاسْتِبْشَاعِ الرَّجْمِ عَلَيْهَا، وَالزَّنى أَهْوَنُ الْأَفْعَالِ الْيَوْمَ فِي الْغَرْبِ؛ يُشْرَعُونَهُ وَلَا يُحَرِّمُونَهُ، وَلَكَثْرَتِهِ وَانْتِشَارِهِ فِيهِمْ وَتَشْرِيعِهِ فِي مُحَاكِمِهِمْ؛ لَا يَتَصَوَّرُونَ عَقُوبَةً تَقَعُ عَلَى مِثْلِ مَا شَاعَ فِيهِمْ وَرَأَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ.

وَأَمَّا مَا يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِهِمْ مِمَّا وَرَدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه:
«أَنَّهُ سُئِلَ: هَلْ رَجِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ سُئِلَ: بَعْدَ مَا أُنْزِلَتْ
سُورَةُ النَّوْرِ أَمْ قَبْلَهَا؟ قَالَ: لَا أَذْرِي»^(١).

فَجَعَلُوا نَزُولَ سُورَةِ النَّوْرِ نَاسِخًا لِلْفِعْلِ السَّابِقِ، وَتَكَلَّفُوا أَنَّ الرَّجْمَ
كَانَ قَبْلَهَا؛ لِعَدَمِ عِلْمِ ابْنِ أَبِي أَوْفَى، فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى لَمْ يُنْكِرِ
الرَّجْمَ، بَلْ نَفَى عِلْمَهُ بِتَوْقِيتِهِ، فَحَمَلُوا نَفْيَهُ لِلزَّمَانِ عَلَى شَكْوِهِ فِي الْحُكْمِ،
وَهَذَا بَاطِلٌ لَمْ يَقُلْهُ وَلَا فَهِمَهُ عَنْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ وَلَا الْفُقَهَاءُ فِي قُرُونِ
الْإِسْلَامِ الْفَاضِلَةِ، وَالرَّجْمُ كَانَ بَعْدَ سُورَةِ النَّوْرِ قَطْعًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ نَزُولَ
سُورَةِ النَّوْرِ كَانَ فِي قِصَةِ الْإِفْكِ، وَهِيَ بَيْنَ الْأَرْبَعِ وَالسَّتِّ لِلْمُهْجَرَةِ، لَا
قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا بَعْدَهُ، وَالرَّجْمُ كَانَ بَعْدَهَا، وَقَدْ حَضَرَهُ أَقْوَامٌ مِنَ الصَّحَابَةِ،
وَإِنَّمَا كَانَ إِسْلَامُهُمْ بَعْدَ حَادِثَةِ الْإِفْكِ كَأَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَدْ حَضَرَهُ وَإِنَّمَا أَسْلَمَ
هُوَ قَبْلَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَرْبَعِ سِنِينَ؛ كَمَا قَالَهُ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
عَنْهُ^(٢)، وَهُوَ مِنْ أَخْصِ أَصْحَابِهِ، وَحَضَرَ الرَّجْمَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَدْ جَاءَ مَعَ
أُمِّهِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ نَزُولِ سُورَةِ النَّوْرِ وَحَادِثَةِ الْإِفْكِ؛ وَذَلِكَ سَنَةً تَسَعٍ.

حُكْمُ الْجَلْدِ مَعَ الرَّجْمِ لِلْمُحْصَنِ:

وَإِنَّمَا الْخِلَافُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الرَّجْمِ وَالْجَلْدِ لِلْمُحْصَنِ:
فَهَلْ يُجْلَدُ قَبْلَ رَجْمِهِ فَيُقَى حُكْمُ الرَّجْمِ عَلَيْهِ أَوْ لَا؟ عَلَى خِلَافٍ عِنْدَهُمْ،
عَلَى قَوْلَيْنِ:

ذَهَبَ جَمْهُورُ الْفُقَهَاءِ: إِلَى أَنَّ حُكْمَ الرَّجْمِ عَلَى الْمُحْصَنِ يُسْقِطُ
الْجَلْدَ عَنْهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ جُلِدَ مَنْ رَجَمَهُ كَمَا عَزَّ وَالْأَسْلَمِيَّةُ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٨١٣)، وَمُسْلِمٌ (١٧٠٢).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١١١/٤)، وَأَبُو دَاوُدَ (٨١)، وَالنَّسَائِيُّ (٢٣٨).

وَأَمَرَ أَنْيَسَا أَنْ يَغْدُوَ إِلَى امْرَأَةِ الرَّجُلِ فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَيَرْجُمُهَا، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِجَلْدِهَا.

وحديثُ عبادةَ السابقِ متقدِّمٌ، وهو في أولِ حدِّ الزُّنى.

وذهبَ أحمدُ وإسحاقُ: إلى الجمعِ بينَ الجَلْدِ والرجمِ؛ وذلك لظاهرِ حديثِ عبادةَ السابقِ في الجمعِ بينهما؛ حيثُ قال ﷺ: (وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدٌ مِثْلُ الرَّجْمِ)^(١)؛ فالجلدُ للزُّنى، والرجمُ للإحصانِ.

وبهذا فعلَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ؛ حيثُ جلدَ شِراخَةَ الهَمْدَانِيَّةَ يومَ الخميسِ، ورجَمَها يومَ الجمعةِ، وقال: «أَجْلِدُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَرْجُمُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»؛ رواه البخاريُّ وغيره^(٢).

حُكْمُ التَّغْرِيبِ:

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي التَّغْرِيبِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَذْكُرْهُ فِي سُورَةِ

النُّورِ:

وَقَدْ ذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ: إِلَى بَقَائِهِ، وَأَنَّهُ مُحْكَمٌ، وَعَدَمُ ذِكْرِهِ كَعَدَمِ ذِكْرِ الرَّجْمِ، وَكِلَاهُمَا ثَابِتٌ فِي السُّنَّةِ، وَقَدْ صَحَّ التَّغْرِيبُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَرَدَ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ؛ كَعَبَادَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ، وَبِهِ قَضَى الصَّحَابَةُ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ.

وَلَمْ يَقُلْ بِالتَّغْرِيبِ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ؛ وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَصْلِهِمْ مِنْ مَنَعَ الْقَوْلَ بِنَسْخِ الْكِتَابِ بِالسُّنَّةِ، وَيُرْوَنَ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ نَسْخٌ لَهُ، وَجَعَلَ أَبُو حَنِيفَةَ التَّغْرِيبَ إِلَى الْإِمَامِ، وَجَعَلَهُ اجْتِهَادًا فِي التَّأْدِيبِ لَا حَدًّا لَازِمًا.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨١٢)، وأحمد (٩٣/١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧١٠٢).

وَأَمَّا مَالُكَ، فقال بالتغريب؛ ولكنه ذهبَ إلى تغريبِ الرجلِ دونَ المرأةِ؛ لأنَّ تغريبَهَا يُضِرُّ بِمَحْرَمِهَا، وَيَلْزِمُهُ لِحَاقَةُ بِهَا، وهذا ضررٌ؛ فقد تغرَّبَ كما تغرَّبْتُ.

ويقومُ الحبسُ اليومَ مقامَ التغريبِ؛ كالحبسِ في البيوتِ وعدمِ الخروجِ، وهو للنساءِ خاصَّةٌ أَحْسَنُ مِنْ حَبْسِهِنَّ فِي دُورٍ يَخْتَلِطُ بِهَا النِّسَاءُ المحبوساتُ في مُوجِبَاتِ شَتَّى؛ كسرقةٍ وقتلٍ وغيرِ ذلك.

شهودُ الجَلْدِ والرَّجْمِ:

قال تعالى: ﴿وَلَشَدَّ عَذَابُهَا طَائِفَةً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ويُرادُ مِنْ ذلك: تأديبُ النفوسِ المريضةِ التي تُريدُ الفاحشةَ أو تفعلُها؛ لِتَخْشَى مَغَبَّةَ فِعْلِهَا وعاقبتَهُ، وليكونَ ذلكَ الفعلُ مستبشعًا في النفوسِ فيزدادَ بشاعةً فيها، وَيَكْسِرَ سَوْرَةَ مَنْ تَسْتَحِسُّهُ نَفْسُهُ.

وشهودُ الناسِ للحدِّ مستحبٌّ لا واجبٌ في قولِ عامَّةِ أهلِ العلمِ، مع اختلافِهِمْ في حدِّ الطائفةِ، وصحَّ عن ابنِ عَبَّاسٍ وعِكْرِمَةَ ومجاهدٍ: أنَّ الواحدَ طائفةً^(١).

ولا ينبغي أن يكونَ هناكَ خلافٌ أنَّ الاستنارَ بالحدودِ كُلِّهَا، وإخفاءَها عن الناسِ حتى لا يُظَنَّ أنَّ الحدودَ تُقامُ: لا يجوزُ؛ فَإِنَّ المقصودَ مِنْ إقامةِ الحدودِ هو الجزاءُ لِمَنْ اقترَفَهَا، وتأديبُ مَنْ يطمعُ فيها؛ كما قال اللهُ في السرقةِ: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَسَبَا تَكْلًا مِّنْ أَثَرِهِ﴾ [المائدة: ٣٨].

وحينما يقولُ العلماءُ بعدمِ وجوبِ الإشهارِ، لا يُريدونَ مِنْ ذلكِ: تعطيلَهُ؛ وإنَّما لا يجبُ في كلِّ حدٍّ حتى لا يصحَّ إلَّا به، ولكن لا يجوزُ إخفاؤه مطلقًا؛ حتى لا يُظَنَّ الناسُ تعطيلَ الحدودِ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾﴾ [النور: ٢٣].

في هذا: تحريم الزنى وبيان عظمته، وأنه لا تطاوع عليه إلا زانية أو مشركة، ولا يطاوع المرأة عليه إلا زانٍ أو مشرك؛ وأريد من ذلك تنزيه أهل الإيمان عن ذلك.

وفيه: التنفير من نكاح الزواني واتخاذهن زوجات حتى يتبأن إلى الله، وقد حرم الله نكاح الزانية العاهرة، وقرن نكاحها بالافتران بالمشرك: ﴿لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وظاهر الآية: تبشيع الزنى، وأنه لا يليق وقوعه من المؤمنين، وأنه يقع من المشركين الذين لا يقيمون لحرمات الله وزناً، وليس المراد بذلك تحقق مفهومه؛ أن يجوز للمسلمة الزانية نكاح المشرك، أو للمسلم الزاني نكاح المشركة غير الكتابية.

وقد تقدم الكلام على حرمة إنكاح المشركين ونكاح المشركات، عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَتَّى يَنْزِلَ مِنْكُمْ وَكُفُّوا أَعْيُنَكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]، وحكم نكاح الكتابيات عند قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

حكم نكاح الزانية وإنكاح الزاني:

اختلف العلماء في المراد بالنكاح في قوله تعالى: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾؛ فقيل: المراد به وطء الزنى، وقيل: المراد به وطء النكاح الصحيح؛ ذهب أحمد؛ إلى أنه لا تزوج العفيفة من الزاني الباقي على فجوره، ولا يزوج العفيف من الزانية الباقية على فجورها.

وكان أحمدُ بنُ حنبلٍ لا يرى صحةَ العقدِ الذي يكونُ بينَ عفيفٍ وزانيةٍ، أو عفيفةٍ وزانٍ.

ويروى عن ابنِ عباسٍ أنَّ طُرُوءَ الزَّنى يفسخُ النكاحَ. وذهبَ الجمهورُ: إلى الجوازِ، وكرِهَهُ مالكٌ والشافعيُّ، ولم يُحرِّماه.

والصحيحُ عن ابنِ عباسٍ: عدمُ فسخِّه، وحملُ الآيةِ على الزَّنى لا النكاحِ بعقدٍ صحيحٍ؛ قال: «ليس هذا بالنكاحِ؛ إنما هو الجماعُ؛ لا يزني بها إلَّا زانٍ أو مشركٌ»^(١).

ومن القرائنِ الدالَّةِ على تصويبِ مرادِ ابنِ عباسٍ هذا، وأنَّ المقصودَ بالنكاحِ: وطءُ الزَّنى: ذَكَرُ الإِشْرَاقِ في الآيةِ، فلا يحلُّ لمسلمٍ زانٍ أن يَنكِحَ مشركَةً ولو عفيفةً عن الفاحشةِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]، فقال: ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾، ولم يقل: حتى يَعْفُوَ أو يُحْصَنَ، ومثلهُ فإنَّ الزانيةَ لا يحلُّ لها نكاحُ المشركِ ولو كان عفيفاً من الفاحشةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾، فقال: ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾، ولم يقل: حتى يُحْصَنُوا أو يَعْفُوا.

وحملُ النكاحِ في الآيةِ على النكاحِ الصحيحِ مُحْتَمِلٌ أيضًا؛ فقد جاءتْ رواياتٌ عديدةٌ في أسبابِ نزولِ الآيةِ في أقوامٍ أرادوا الزواجَ من زانياتٍ يَعْرِفُونَهُنَّ في الجاهليَّةِ، فمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ، وحملُ الآيةِ على معنيينِ لاستيعابِ وإصلاحِ أمرَيْنِ في الناسِ واردٌ، وتقتضيه سعةُ ألفاظِ الوحي وإعجازُ لغةِ القرآنِ.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٥٢٢/٨).

والأظهر: أنه لا يجوز تزويج العفيف الزانية، ولا الزاني العفيفة؛ وهذا قول أحمد وجماعة من السلف؛ كالحسن وقنادة.

وأما حديث ابن عباس: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن عندي امرأة، هي من أحب الناس إلي، وهي لا تمنع يد لامس؟ قال: (طلّقها)، قال: لا أضرب عنها، قال: (استمنع بها)، فقد رواه أبو داود والنسائي^(١)، وقال أحمد: حديث منكر^(٢)، وقال النسائي: ليس بثابت^(٣)، ولو صح، فليس المراد بذلك الزنى على الأرجح؛ فقد حملته بعضهم على السخاء المفسرف الذي يهدر مال الزوج؛ وبهذا قال الأصمعي وأحمد^(٤)، والنبوي ﷺ لا يقر رجلاً أن يكون ديوثاً، فقد جاءه من يتهم زوجته في الزنى، فقال له: (البينة أو حد في ظهرك)^(٥).

وأما تزويج الزانيتين بعضهما من بعض، فأكثر السلف على جوازه، وقال ابن عباس^(٦) وابن عمر^(٧): «أوله سفاح، وآخره نكاح».

وصح عن ابن المسيب وعلقمة وسعيد بن جبيرة وعطاء ومجاهد، وقال عكرمة: «هو بمنزلة رجل سرق نخلة ثم اشتراها»^(٨).

ومنع من تزويج الزانيتين بعضهما من بعض بعض السلف، وليس كل من قال بمنع نكاح الزانيتين بينهما جعله مؤبداً، بل الصحيح عندهم: عدم تأبيده؛ وإنما في حال عدم التوبة، ومن السلف: من يرى منع الجمع بين مجلودتين في حد الزنى.

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٩)، والنسائي (٣٢٢٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٢/٦). (٣) «سنن النسائي» (٣٢٢٩).

(٤) «التلخيص الحبير» (٢٢٦/٣). (٥) أخرجه البخاري (٢٦٧١).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٧٨٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٧٧٩).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٧٨٢).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٧٨٨).

وَبَيَّنَ عَنْ عَمْرِو جَوَازِ تَزْوِيجِ الزَّانِيَةِ بَعْدَ التَّوْبَةِ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ؛
بشروطين:

الأول: التوبة مما بَدَرَ منها؛ فَمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ، كَانَ فِي حُكْمِ مَنْ
لَمْ يَقْتَرِفْهُ، وَقَدْ رَوَى طَارِقُ بْنُ شِهَابٍ: «أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَتَهُ،
فَقَالَتْ: إِنِّي أَخْشَى أَنْ أَفْضَحَكَ؛ إِنِّي قَدْ بَغَيْتُ! فَاتَى عَمْرًا، فَقَالَ:
الَيْسَتْ قَدْ تَابَتْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَزَوَّجْهَا»؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ^(١).
وَرُوِيَ عَنْ عَمْرٍ: «أَنَّهُ أَمَرَ بِسِتْرِهَا وَتَزْوِيجِهَا عَلَى مَا صَلَحَ مِنْ
حَالِهَا»^(٢).

الثاني: وجوب استبراء الرحم؛ فلا يجوز إنكاح الأمة والزانية حتى
يُسْتَبْرَأَ رَحْمُهَا مِنْ مَاءٍ غَيْرِهَا بِحَيْضَةٍ.
وَمِنَ السَّلَفِ مَنْ عَدَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ مَنْسُوخَةً
بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالنَّكَاحُ الْأَيْمَنُ وَمَنْكَرٌ﴾ [النور: ٣٢]؛ وَبِهَذَا قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ^(٣)
وَالشَّافِعِيُّ^(٤)، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ؛ فَكُلٌّ لَهُ بَابُهُ، وَالثَّانِيَةُ عَامَّةٌ،
وَالْأُولَى خَاصَّةٌ فِي حُكْمِ الزَّانِيَيْنِ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
مَنْبَيْنِ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤-٥].

قَدْ ذُكِرَ الْمُحْصَنَاتُ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ، وَهُوَ مِنَ الْمُؤَبَّاتِ الْمُهِلِكَاتِ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٦٩٣٨).

(٢) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٠٦٨٩).

(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (١٥٩/١٧)، وَ«تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٢٥٢٤/٨).

(٤) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (١٣/٦).

لصاحبها؛ وذلك لما يلحق المؤمنين من أذى، وأعظم الأذى القذف في العرض، وما يتبعه من طعن في النسب، وزهد الناس في القرب من المقدوف، وتعدّي ذلك إلى أهله وولديه ومن اتصل به بسبب ونسب؛ ولهذا قدّر الله على بعض نساء الأنبياء الكفر، ولكنه لم يقدّر على واحدة منهن العهر؛ لأن العهر يتعدّى إلى عرض الزوج، والكفر لازم لمن كفر لا يتعدّى إلى أهله؛ ولذا عدّ النبي ﷺ قذف المحصنات من الموبقات؛ كما في «الصحيحين»؛ من حديث أبي هريرة؛ قال ﷺ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوْبِقَاتِ)، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) (١).

والحكمة في عدم ذكر النبي ﷺ (الزنى) من السبع الموبقات في حديث أبي هريرة: أنه ذكر قذف المحصنات به؛ للدلالة على بشاعته؛ فإن مجرد القذف به موبق ومهلك، فكيف بالوقوع فيه؟! فأنهائم بريء به من السبع الموبقات، فكيف لو زنى القاذف نفسه؟! وهذا نظير اتهام أحد بالكفر وهو بريء منه، فهو عظيم، ووقوع القاذف في الكفر أعظم من ذلك.

القذف الصريح والكناية:

لا يختلف الفقهاء على أن القذف الصريح يُقام فيه الحد كالرمي بالزنى، وإنما اختلفوا في إقامته على القذف غير الصريح؛ وذلك لاختلاف الناس في مراد المتكلم وفهم السامع له؛ فإن ألفاظ الكناية تختلف في قُرْبها من الصريح؛ فليست متطابقة في مراد السامع ولا في

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ، وَيَخْتَلِفُ النَّاسُ فِيهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ؛ كَالْوَصْفِ بِالْعَهْرِ
وَعَدَمِ الشَّرَفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَوِلُ مَعَانِي، مِنْهَا الزُّنَى، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي
ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ، هُمَا رَوَاتَانِ عَنْ أَحْمَدَ:

فَرَأَى بَعْضُهُمْ إِقَامَةَ الْحَدِّ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ، وَبِهِ قَضَى عَمْرٌ.

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ: إِلَى عَدَمِ إِقَامَةِ الْحَدِّ؛ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ
يُسْقِطُونَ الْحَدَّ لَا يُسْقِطُونَ التَّعْزِيرَ بِغَيْرِ الْحَدِّ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ
زَجَرٍ وَتَأْدِيبٍ.

وَالْأَظْهَرُ: أَنَّ الْحَاكِمَ يُقِيمُ حَدَّ الْقَذْفِ فِي قَذْفِ الْكِنَايَةِ إِنْ غَلَبَ
اسْتِعْمَالُهُ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى الزُّنَى، مَا لَمْ يَكُنْ فِي سِيَاقِ الْقَوْلِ قَرِينَةٌ تَصْرِفُهُ
عَنِ الْغَالِبِ؛ كَمَنْ يَتَّهِمُ غَيْرَهُ بِعَدَمِ الشَّرَفِ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنِ الرِّشْوَةِ
فِي الْحَقِّقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قَذْفُ الْحُرَّةِ وَالْأَمَةِ وَالْكَافِرَةِ:

وَحَدُّ الْحُرِّ فِي الْقَذْفِ ثَمَانُونَ بَلَا خِلَافٍ، سِوَاءَ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى.
وَلَا خِلَافَ أَنَّ حَدَّ الْقَذْفِ حَقٌّ لِلْمَقْدُوفِ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُونَ فِي إِقَامَتِهِ
لِحَقِّ اللَّهِ عِنْدَ عَفْوِ صَاحِبِ الْحَقِّ:

وَالْجُمْهُورُ: أَنَّهُ لَا يُقَامُ حَتَّى يُطَالِبَ الْمَقْدُوفُ بِحَقِّهِ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ لَهُ،
تَلَحُّفُهُ مَعْرُتُهُ، وَلَهُ إِسْقَاطُهُ؛ وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْحَدَّ لَا يَسْقُطُ بِتَوْبَةِ الْقَاذِفِ قَبْلَ طَلَبِ الْمَقْدُوفِ.

وَقَبِدَ اللَّهُ الْحَدَّ عَلَى قَاذِفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَلَيْسَ عَلَى مَنْ قَذَفَ
غَيْرَهُنَّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَعَانِي الْإِحْصَانِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٤]، وَذَكَرْنَا أَنَّهُ
يُطْلَقُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَفَافِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالنِّكَاحِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا هُوَ الْعِفَّةُ
بَلَا خِلَافٍ؛ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ فِي إِرَادَةِ بَعْضِ مَعَانِي الْإِحْصَانِ الْآخَرَى

- كالإسلام والحرية - في آية حد القذف للمُحصَنات - على قولين:

القول الأول: أن الحرية والإسلام مقصودان في هذه الآية؛ وبهذا قال جمهور العلماء، وقد قيد الله القذف بالإيمان في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَزْنُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣]، فذكره للإيمان للدلالة على الإسلام، وذكره للعقبة للدلالة على العفاف، ودل ذلك على أنه أراد بالإحصان في قوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرية، وقد روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ أنه فسر المُحصَنات في الآية بالحرائر^(١).

ويروى في الحديث: (مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ بِمُحْصَنٍ)؛ رواه الدارقطني؛ من حديث ابن عمر^(٢)، وهو متكلم في رفعه.

القول الثاني: أن الحرية والإسلام غير مُرادين؛ وبهذا قال مالك. وعلى هذين القولين يتفرع عند أصحابهما القول بحد قاذف الأمة والكافرة.

والعبد والأمة يُجلدان في القذف نصف حد الحر والحرّة، وعلى هذا الأئمة الأربعة، خلافاً للأوزاعي وأبي ثور وأهل الظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾: فيه زجر للقاذف وردع له، حينما وقع في أعظم ما يختص بعرض الإنسان وشرفه، ولا يختلف العلماء في أن شهادته مردودة قبل توبته؛ لأنه أسقط عدالته بقذفه.

شهادة القاذف بعد توبته:

ويختلف العلماء في قبول شهادته بعد توبته، والجمهور على قبولها بعد توبته، خلافاً لأبي حنيفة؛ حيث أسقطها مطلقاً؛ لظاهر قوله:

(١) التفسير ابن أبي حاتم (٢٥٢٨/٨).

(٢) أخرجه الدارقطني في «سننه» (١٤٧/٣).

﴿أَبَدًا﴾، ولكنَّ هذا الإطلاق قُبِدَ بعده بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾؛ والاستثناء عائدٌ على الشهادة والفسق جميعًا.

وُشْتَرِطَ للتوبة إظهارها بعملٍ صالح، وأمَّا حديث: (لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ، وَلَا مَخْدُودٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا ذِي غَمَرٍ عَلَى أَخِيهِ)، فقد رواه أحمدٌ وغيره؛ من حديث عمرو بن شعيبٍ، عن أبيه، عن جده^(١)، ولا يصحُّ، والرواية عن عمرو متكلِّمٌ فيهم، ولو صحَّ فهو كعموم الآية يُقَيَّدُ بزوالِ العلة، وهي عدمُ التوبة.

ويقبولُ شهادته بعدَ توبته أخذَ عمرُ بنُ الخطابِ وابنُ عباسٍ وابنُ المسيبِ وعطاءٌ وطاؤُسٌ ومجاهدٌ والشَّعْبِيُّ وقتادةٌ.

وذهب إلى عدمِ قبولها من السلفِ ما دام حيًّا وإن تاب: سعيدُ بنُ جبْرِ والحسنُ ومكحولٌ والنخعيُّ.

ومن لم يقبلْ شهادةَ القاذفِ أبدًا، جعلَ الاستثناء في الآية عائدًا على الفسق فقط.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ① وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعْنَتْ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ② وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ③ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ④ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦ - ١٠].

بعدما ذكرَ الله حدَّ الزانيتين، وعقوبةَ القذف، بيَّنَ الله تعالى حُكْمَ قذفِ الزوجِ لزوجته؛ لأنَّ الأمرَ يختلفُ؛ لأنَّ قذفَ الرجلِ لعرضه ثقيلٌ

عليه وعلى أهله وولده، وأثره على الزوجة وما تستقبله من أمرها ونسب ولدها عظيم، وقذف الأبعدين بعضهم بعضاً قد بقع كثرها وانتقاماً، ولا يتضرر القاذف، بل يتضرر المقدوف، ولكن الزوجين يتضرران جميعاً، فجعل الله لقذف الزوج لزوجته حكماً خاصاً يختلف عن أحوال القذف الأخرى.

سبب نزول لعان الزوجين:

ويظهر أن سبب نزول هذه الآية كان في هلال بن أمية وزوجته، وأنهم بها شريك بن سحماء، ومثله وقع مع عويمر العجلاني وزوجته، وكلا الحديثين في «الصحيحين»، وفيهما جميعاً: أن الله أنزل فيهما؛ ففي قصة هلال وزوجته، قال ابن عباس - وهو راوي الخبر -: «فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَأَنزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوْجَهُمْ﴾، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾»^(١)، وفي قصة عويمر وزوجته، قال سهل بن سعد راوي الخبر: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعُومِرَ: (قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ)^(٢)».

أما حديث ابن عباس، فقد رواه البخاري عنه: «أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (الْبَيْتَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتُمِسُ الْبَيْتَةَ؟! فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (الْبَيْتَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ)، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبْرِئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَأَنزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوْجَهُمْ﴾، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فَاَنْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ،

فَهَلْ مِنْكُمْ نَائِبٌ؟، ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَفُوهَا، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، سَابِغِ الْأَلْبَتَيْنِ، خَدْلَجِ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكَ بْنِ سَخْمَاءَ)، فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ)^(١).

وَأَمَّا حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، فَرَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْهُ؛ أَنَّ عُؤَيْمِرَ الْعَجْلَانِيَّ جَاءَ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَاصِمُ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيْقَلُّهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ سَلْ لِي يَا عَاصِمُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَاصِمٌ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، حَتَّى كَبُرَ عَلَى عَاصِمٍ مَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَجَعَ عَاصِمٌ إِلَى أَهْلِهِ، جَاءَ عُؤَيْمِرُ، فَقَالَ: يَا عَاصِمُ، مَاذَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عَاصِمٌ: لَمْ تَأْتِنِي بِخَيْرٍ، قَدْ كَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي سَأَلْتُهُ عَنْهَا، قَالَ عُؤَيْمِرُ: وَاللَّهِ لَا أَنتَهِي حَتَّى أَسْأَلَهُ عَنْهَا، فَأَقْبَلَ عُؤَيْمِرُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَسَطَ النَّاسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيْقَلُّهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبَيْكَ، فَادْفَعْ قَاتٍ بِهَا)، قَالَ سَهْلٌ: فَتَلَاعَنَا وَأَنَا مَعَ النَّاسِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَعْنَا، قَالَ عُؤَيْمِرُ: كَذَبْتُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَمْسَكْتُهَا، فَطَلَّقَهَا ثَلَاثًا، قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢).

وَشَرَعَ اللَّهُ لِعَانَ الزَّوْجَيْنِ لِأَمْرَيْنِ:

- (١) أخرجه البخاري (٤٧٤٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢).

الأول: إذا قَذَفَ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ بِالزَّوْنِ، ولم يَأْتِ بالشَّهَادَةِ الأَرْبَعَةَ عَلَى قَوْلِهِ، فَإِنَّهُ يُلَاعِنُ لِيَذَرَ الحَدَّ عَنْ نَفْسِهِ.

والثاني: أن يُرِيدَ نَفْيَ الْوَلَدِ الَّذِي وَضَعَتْهُ زَوْجَتُهُ عَنْهُ.

وقد اختلف الفقهاء في اشتراط تقييد قذف الزوج لزوجته بمشاهدته لها على الفاحشة على قولين:

فذهب مالك: إلى اشتراط تقييد رؤيته لها على الفاحشة؛ وذلك لظاهر قصة هلال بن أمية مع زوجته، وقصة عويمر العجلاني مع زوجته.

والذي عليه جمهور الفقهاء: عدم اشتراط هذا القيد، ولا يلزم أن يكون الزوج مُقَرَّأً برويته لزنى زوجته حتى يُقْبَلَ منه اللعان؛ لأنه قد يُلَاعِنُ لنفي الولد، فيرى أنه ليس بولده، كأن يدعي أنه لم يَطَأْ زوجته مطلقاً؛ لمرض، أو ضعفٍ وعجز، أو هجر، أو غياب بسجن، أو هجرة ونفي عنها، فحملت ولم يرَ زوجته على الزنى، لكنه أراد نفي الولد، فيلاعنها على قذفٍ لها؛ لأنه لا يقع حملٌ إلا بوطء، والوطء: إمَّا مِنْ نِكَاحٍ، وإمَّا مِنْ صِفَاحٍ.

وقد اختلف في آية اللعان وكونها مخصصة لآية القذف أم مؤسسة لحكم جديد:

فذهب جماعة: إلى أن آية القذف عامة لكل قاذف ولو كان زوجاً لزوجته، ثم خصَّصَ الله قذف الزوج لزوجته بآية اللعان.

ومنهم: مَنْ قال: إن آية القذف نزلت ولم يدخل فيها الزوجان ابتداءً، فقذف الزوج لزوجته له حُكْمُهُ بآيته.

وذهب آخرون: إلى أن آية اللعان مخصصة لآية القذف، وأن آية القذف يدخل فيها الزوجان قبل نزول اللعان المخصص لهما؛ وذلك لقول النبي ﷺ لهلال بن أمية: (البَيِّنَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ)، فقال هلال:

«وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلْيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبْرِئُ ظَهْرِي مِنْ الْحَدِّ»، قال ابنُ عَبَّاسٍ: «فَنَزَلَ جِبْرِيلُ»^(١)، فَأَجْرَى النَّبِيُّ ﷺ حَالَ هَلَالٍ مَجْرَى كُلِّ قَاذِفٍ، وَهُوَ الْحَدُّ.

وقد قال بعموم آية اللعان في كلِّ زوج قاذفٍ مسلمٍ أو كافرٍ، حرٍّ أو عبدٍ: مالك والشافعي وأحمد في رواية.

وقال بأنها خاصة بالزوجين المسلمين الحرَّين العدلين أبو حنيفة، وجعلَ الشروط في المتلاعنين كالشروط في الشهود؛ وذلك أن الله سمَّاهما شهودًا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَكُنْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ﴾؛ فكلُّ ما لا تصحُّ شهادته لا يصحُّ لعانه عنده لأجل ذلك، ولكنَّ الله يُسمِّي اليمينَ شهادةً، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿قَالُوا فَشَهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، ثُمَّ سَمَّى الله فعلهم بعد ذلك يمينًا بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢].

مَرَاكِزُ قَذْفِ الزَّوْجِ لَزَوْجَتِهِ:

وقذف الزوج لزوجته على مراحل خمس:

المرحلة الأولى: طلبُ الشهود؛ وبهذا يتفق الزوج مع غيره من الناس الذين يقعون في القذف، فكلُّهم يُطالبُ بأربعة شهود لإثباتِ قوله؛ يشهدون أنهم رأوا الفاحشة بأعينهم رأوا الوطاء الصريح كالميل في المكحلة، فإن جاء الزوج بالشهود، أُقيمَ الحدُّ على الزوجة، وهو الرجم، ولا تُطالبُ بالشهادة لنفسها، ولا يذَرُّ عنها العذاب شيء، بعدَ بيِّنة الشهود، وينتهي أمرُ القذف بذلك.

خلافًا للشافعي؛ فإنه يرى أنها تدفع عن نفسها العذاب بالشهادة

واللَّعْنَةُ ولو أتى الزوج بالشهود عليها، ففَرَّقَ بَيْنَ شَهْوَ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ وَبَيْنَ شَهْوَ الرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ عَلَيْهَا؛ فَشَهْوَ الْأَجْنَبِيِّ يُقَامُ بِهِ عَلَيْهَا الْحَدُّ بِالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا شَهْوَ زَوْجِهَا، فَاسْتِثْنَاهُمُ الشَّافِعِيُّ فِي حُكْمِ اللَّعَانِ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ لَدَى الزَّوْجِ شَهْوَ، فَهَلْ لَهُ أَنْ يَخْتَارَ اللَّعَانَ وَيَدَعَ إِقَامَةَ الْبَيِّنَةِ؛ لِيَتَحَقَّقَ نَفْيُ الْوَلَدِ، وَيُرْفَعَ عَنْهَا الْحَدُّ فَلَا تُرْجَمُ؟ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ:

وَقَدْ ذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ: إِلَى أَنَّهُ يَحِقُّ لِلزَّوْجِ اخْتِيَارُ اللَّعَانِ وَإِنْ قَامَتِ الْبَيِّنَةُ عِنْدَهُ بِالشَّهْوَ.

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَدَاوُدُ: إِلَى عَدَمِ جَوَازِ اللَّعَانِ إِنْ قَامَتِ الْبَيِّنَةُ بِالشَّهْوَ عَلَى زَنَاهَا.

المرحلة الثانية: إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَى الزَّوْجِ شَهْوَ عَلَى قَدْرِهِ لَزَوْجَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يُطْلَبُ مِنْهُ الشَّهَادَةُ لِنَفْسِهِ بِالصَّدَقِ أَرْبَعًا، وَيَلْعَنُ فِي الْخَامِسَةِ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ كَاذِبًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۖ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۖ﴾، وَشَهَادَتُهُ وَلَعْنَتُهُ لِنَفْسِهِ لَيْسَ بَيِّنَةٌ عَلَى زَوْجَتِهِ بِوُقُوعِهَا فِي الْفَاحِشَةِ، وَلَكِنَّهُ يَرْفَعُ عَنْهُ الْحَدَّ فَقَطْ، وَقَدْ يَكُونُ كَاذِبًا وَقَدْ يَكُونُ صَادِقًا.

وَإِنْ امْتَنَعَ الزَّوْجُ عَنِ الشَّهَادَةِ وَاللَّعْنِ، فَإِنَّهُ يُجْلَدُ حَدُّ الْقَذْفِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً؛ كَمَا يُجْلَدُ كُلُّ قَاذِفٍ بِلا بَيِّنَةٍ؛ وَبِهَذَا قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ.

خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ؛ فَإِنَّهُ رَأَى تَعْزِيرَهُ بِحَبْسٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ فِي نُكُولِهِ حَدًّا؛ لَعَدَمِ النَّصِّ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ مَعْنَى ثَبَتِ بَدَلَالَةِ السِّيَاقِ بِلا نَصٍّ، بِدَلَالَةِ ذِكْرِ اللَّهِ نُكُولَ الْمَرْأَةِ أَنَّهُ يُوجِبُ الْحَدَّ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُهَا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ وَظَاهَرُ السِّيَاقِ: أَنَّ الشَّهَادَةَ تَدْرَأُ عَنْهُ الْعَذَابَ كَذَلِكَ.

المرحلة الثالثة: طلب الشهادة من الزوجة بعد شهادة الزوج لشريئ نفسه من نهمته، فإن شهدت على زوجها بالكذب أربعاً، وشهدت في الخامسة أن عليها الغضب إن كان زوجها صادقاً -: برئت من الحد؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ (٨) وَلَقَسْنَا أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

وإن لم تشهد على نفسها، وامتنعت ناكلة، فقد اختلف في الحد المقصود في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾: فجمهور العلماء: على أن المراد بالعذاب هو حد الزنى.

خلافًا لأبي حنيفة؛ فإنه لم يجعل العذاب في الآية حدًا؛ وإنما جعله تعزيرًا فقال بحبسها حتى تلاعن، ودفع عنها الدم بأن الأصل عظمه الدم؛ كما في حديث: (لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)^(١)، ولا بد من بيئة، والنكول ليس بيئة توجب سفك الدم، وإلى قوله ذهب بعض الفقهاء من الشافعية؛ كالجويني، وبعض الفقهاء من المالكية؛ كابن رشد.

ولا يختار الموت ويترك اليمين في مثل هذه الحال إلا من قام الحق عليه، ومنعه من اليمين عاقبتها وشؤمها في الدارين.

المرحلة الرابعة: التفريق بين المتلاعنين بعد اللعان؛ وذلك لقوله ﷺ لعونيمر العجلاني: (لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا)^(٢)، وقد اختلف العلماء في سبب التفريق: هل هو حكم لازم في الشرع فيكون أبدًا، أو لأجل حكم الحاكم فيه؟ على قولين:

قال بالتفريق شرعًا مالك والشافعي وأحمد، وقال بالتفريق بحكم الحاكم أبو حنيفة.

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣١٢)، ومسلم (١٤٩٣).

نَفْيُ الْوَلَدِ بِاللَّعَانِ:

المرحلة الخامسة: نفي الولد؛ فلا خلاف أن الزوجين إن لم يتلاعنا بعد قذف الزوج لزوجته، فإن الولد لا ينفي؛ بل يبقى نسبه لأبيه، ولو قذفت أمه به، فالولد للمفراش حتى يلاعن صاحبه، وقد ثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريرة؛ أن أغرابيا أتى رسول الله ﷺ، فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود، وإنني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: (هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟)، قال: نعم، قال: (فَمَا أَلَوَاتُهَا؟)، قال: حُمُرٌ، قال: (هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْزَقٍ؟)، قال: إن فيها لوزقا، قال: (فَأَنَّى تَرَى ذَلِكَ جَاءَهَا؟)، قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِرْقُ نَزَعَهَا، قال: (وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقُ نَزَعَهُ)، وَلَمْ يُرْخَصْ لَهُ فِي الْإِتِّقَاءِ مِنْهُ^(١).

وفي رواية لمسلم؛ قال أبو هريرة في الرجل: «وَهُوَ حِينَئِذٍ يُعْرَضُ بِأَنْ يَنْفِيَهُ»^(٢).

وإذا لاعن الزوج زوجته، فإنه لا يلزم من اتهام زوجته بالزنى أن يجعل ما في بطنها من الزنى؛ فإن قذفه لها وملاعتته قد يكون لأجل الوقوع في الفاحشة، لا لأجل الولد، وربما يكون لأجل الولد ولو لم يرها تفعل شيئا بعينه، فإن كان الزوج لا يريد نفي الولد، فإنه لا ينتفي، ويبقى ولده ولو بعد اللعان.

وأما إن كان يريد نفيه، فالثابت أنه ينفيه بعد اللعان، وهذا ظاهر السنة؛ ففي «الصحيحين»، عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أن رجلا لاعن امرأته في زمن النبي ﷺ، وانتهى من ولدها، ففرق النبي ﷺ بينهما، وألحق الولد بالمرأة^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٠٠) (١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٤٨)، ومسلم (١٤٩٤).

وصَحَّ الْحَاقُّ الْوَلَدَ بِأُمِّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ رَوَاهُ عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ^(١).

وَلَا وَجَهَ لِلْقَوْلِ بِأَنَّ الْوَلَدَ لَا يَنْتَفِي مِنْ أَبِيهِ إِنْ أَرَادَ نَفْيَهُ بِاللَّعَانِ، بِحُجَّةٍ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالصُّدْقِ وَلَعَنَ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ كَاذِبًا؛ وَذَلِكَ لِأُمُورٍ:

أَوَّلًا: أَنَّ الشَّهَادَةَ لِذَرِّهِ الْحَدُّ عَنْ الزَّوْجَيْنِ؛ فَالزَّوْجُ يَشْهَدُ لِبَدْفَعٍ عَنْ نَفْسِهِ حَدَّ الْقَذْفِ، وَالزَّوْجَةُ تَشْهَدُ لِنَدْرَأَ عَنْهَا حَدَّ الزَّوْنِ؛ كَمَا هُوَ فِي ظَاهِرِ الْآيَةِ: ﴿وَيَذَرُوهَا عَنَّا الْعَذَابَ﴾، وَالْوَلَدُ لَا يَتَعَلَّقُ حُكْمُهُ بِمَجْرَدِ وَقُوعِ التَّلَاعُنِ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ الْقَذْفَ قَدْ يَكُونُ لِأَجْلِ الْفَاحِشَةِ، وَقَدْ يَكُونُ لِأَجْلِ نَفْيِ الْوَلَدِ، فَرُبَّمَا يَتَّهَمُ الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ بِالْفَاحِشَةِ وَلَا يَتَّهَمُهَا بِوَلَدِهَا.

ثَانِيًا: أَنَّ أَعْظَمَ أَسْبَابِ الْمُتْلَاعَةِ نَفْيُ الْوَلَدِ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «إِنَّهُ أَجَلُ فَوَائِدِ اللَّعَانِ»^(٢).

وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَوْ رَأَى زَوْجَتَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ وَلَا يَخْشَى الْوَلَدَ مِنْهَا وَلَا يُرِيدُهَا، فَارْقَاهَا؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ قَذْفِهِ ثُمَّ مُلَاعِنَتِهِ لَهَا لَا يَتَحَقَّقُ لَهُ إِلَّا الْمُفَارَقَةُ مِنْهَا، وَهَذَا يَسْتَطِيعُهُ بِلَا قَذْفٍ وَلَا لِعَانٍ؛ بِطَلَاقٍ أَوْ خُلْعٍ، فَلَا حَاجَةَ لَهُ إِلَى تَفْحِمِ الْقَذْفِ وَاللَّعَانِ وَالتَّشْهِيرِ بِنَفْسِهِ وَزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ السَّابِقِ مِنْهَا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْمُفَارَقَةِ لَوْ لَمْ يَكُنْ وَلَدٌ، وَالْحَقُّ وَظَاهِرُ الدَّلِيلِ: أَنَّ نَفْيَ الْوَلَدِ حَقٌّ لِلزَّوْجِ؛ فَلَهُ أَنْ يَنْفِيَهُ وَلَهُ أَنْ يُبْقِيَهُ، وَأَمَّا حَقُّ زَوْجَتِهِ مِنَ اللَّعَانِ، فَتَذَرَأُ عَنْ نَفْسِهَا الْعَذَابَ، وَيَلْحَقُ الْوَلَدُ بِهَا، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا لِمَجْرَدِ نَفْيِ أَبِيهِ لَهُ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»، فِي وَلَدِ زَوْجَةِ عُثْمَانَ، قَالَ سَهْلٌ: «فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ»^(٣)، وَفِي «الْمُسْنَدِ»، وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ؛ مِنْ حَدِيثِ

(١) «تفسير الطبري» (١٧/١٨٥).

(٢) «زاد المعاد» (٥/٣٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٤٥).

ابن عباس؛ قال في قصة هلال بن أمية وزوجته ولدها: «فَفَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَضَى أَلَّا يُدْعَى وَلَدُهَا لِأَبٍ، وَلَا تُرْمَى، وَلَا يُرْمَى وَلَدُهَا، وَمَنْ رَمَاهَا أَوْ رَمَى وَلَدَهَا، فَعَلَيْهِ الْحَدُّ»^(١).

ثالثاً: لو كان الزوج لا يَقْدِرُ على نفى الولد بعد اللعان لمجرد شهادة الزوجة وملاعنتها، فهذا يُبقيه منسوباً إليه وهو في علمه أنه ليس ولده، وهذا مَجْلِبَةٌ لِمَفَاسِدَ عَظِيمَةٍ لَاحِقَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجِهِ والولد، والشرعة ما جاءت باللعان إلا لتُغْلِقَ الباب على شرٍّ وفتنةٍ طويلة.

وأما ما جاء في قصة هلال بن أمية وزوجته؛ حيث قال النبي ﷺ: (أَبْصِرُوهَا؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، سَابِغُ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَجُ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ)^(٢)، وما جاء في قصة عويمر وزوجته؛ حيث قال النبي ﷺ: (انْظُرُوا؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمُ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ، عَظِيمُ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَجُ السَّاقَيْنِ، فَلَا أَحْسِبُ عُوْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَّقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَحْمِرُ كَأَنَّهُ وَحَرَّةٌ، فَلَا أَحْسِبُ عُوْمِرًا إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا)^(٣)، فإن النبي ﷺ لم يُرِدْ بِالْأَشْبَاهِ أَنَّ الْحَاقَّ الْوَلَدَ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ بِاللَّعَانِ فِيهِ، فَذَلِكَ لَمْ يَفْهَمُهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ بَيَانَ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَأَنَّ الشَّهَادَةَ وَاللَّعْنَ تَدْرَأُ عَنْ صَاحِبِهَا الْحَدَّ وَلَوْ قَامَتِ الْقَرَائِنُ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَتِ الْأَشْبَاهُ تُلْحِقُ النَّسَبَ، لَمَا رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ الرَّجُلَ لِاخْتِلَافِ لَوْنِ وَلَدِهِ عَنْهُ، فَذَكَرَهُ بِاخْتِلَافِ الْوَانِ إِلَيْهِ.

والعلماء يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الزَّوْجَ يَنْتَفِي وَلَدُهُ بَعْدَ اللَّعَانِ إِنْ كَانَ لِعَانُهُ لَهَا لِأَجْلِ نَفْيِ الْوَلَدِ؛ وَإِنَّمَا الْخِلَافُ عِنْدَهُمْ فِي زَمَنِ نَفْيِ الْوَلَدِ.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩/١)، وأبو داود (٢٢٥٦).

(٢) سبق تخريجه. (٣) أخرجه البخاري (٤٧٤٥).

والصحيح: أَنَّ اللِّعَانَ يَكُونُ حَالَ الْحَمْلِ وَقَبْلَ الْوَضْعِ فِي قَوْلِ
جَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ وَصَاحِبَيْهِ وَالْمُزَنِّيَّ، فَقَدْ مَنَعُوا مِنَ اللَّعَانِ قَبْلَ
الْوَضْعِ.

وظَاهِرُ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَهْلِ: أَنَّ اللَّعَانَ كَانَ زَمَنَ الْحَمْلِ لَا
الْوَضْعِ.

وَأَمَّا حَدِيثُ: (الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ)^(١)، فَهُوَ فِي غَيْرِ
لِعَانِ الزَّوْجِ لَزَوْجَتِهِ لِنَفْيِ الْوَلَدِ، وَالْفِرَاشُ قَدْ ارْتَفَعَ بِاللِّعَانِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ
لِعَانٌ، لَكَانَ الْوَلَدُ لَهُ.

وَمَنْ أَرَادَ نَفْيَ الْوَلَدِ، وَلَمْ يَتَّهِمْ زَوْجَتَهُ بِالزُّنَى، فَقَالَ: الْوَلَدُ لَيْسَ
لِي، وَلَا أَتَّهِمُهَا بِزُنَى، فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ، هُمَا
قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ، وَرَوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ:

الْأَوَّلَى: أَنَّهُمَا يَتَلَاَعَنَانِ، وَيَنْتَفِي الْوَلَدُ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لَا لِعَانَ، وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ.

قَدْ فُذِّقَ الزَّوْجَةُ لَزَوْجِهَا:

وَإِذَا قَدْ فُذِّقَتِ الزَّوْجَةُ لَزَوْجِهَا، فَهِيَ تَأْخُذُ أَحْكَامَ الْقَذْفِ لَا اللَّعَانِ؛
لَأَنَّ اللَّعَانَ خَاصٌّ بِقَذْفِ الزَّوْجِ لَزَوْجَتِهِ؛ كَمَا فِي الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ، لَا
بِقَذْفِ الزَّوْجَةِ لَزَوْجِهَا؛ كَمَا فِي هَوِيلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾﴾ [النور: ١٩].

حَرَّمَ اللَّهُ إِشَاعَةَ الْفَاحِشَةِ، وَبَيَّنَّ عَاقِبَةَ مُشِيعِهَا فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ إِشَاعَةَ الْفَاحِشَةِ بَيْنَ النَّاسِ؛ بِالْحَدِيثِ عَنْهَا، وَتَحْبِيبِهَا إِلَيْهِمْ، وَتَرْيِيزِهَا لَهُمْ: أَعْظَمُ مِنْ فِعْلِ الرَّجُلِ الْفَاحِشَةَ فِي نَفْسِهَا مُسْتَتِرًا بِهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِشَاعَةَ تُفْسِدُ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ وَتُوقِعُهُمْ فِيهَا، فَيَأْخُذُ الْمُشِيعُ إِنْثَمَهُمْ جَمِيعًا، وَفَاعِلُ الْفَاحِشَةِ يَأْخُذُ إِنْثَمَ نَفْسِهِ.

وَإِشَاعَةُ الْفَاحِشَةِ مُحَرَّمٌ وَلَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً، كَمَا يَتَحَدَّثُ عَنْ وَاقِعَةٍ فَحُشِيَ بَيْنَ النَّاسِ وَإِنْ لَمْ يُسَمَّ أَهْلُهَا، فَلَا يَجِلُّ لَهُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ صَادِقًا، فَالشَّرِيعَةُ لَمْ تَنْهَ عَنْ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ لَكُونِهَا كَذِبًا؛ بَلْ نَهَتْ عَنْهَا؛ حَتَّى لَا يُرْفَقَ ذَلِكَ النَّفُوسَ عَنْ تَعْظِيمِ الْحَرَامِ وَتَبْشِيرِهَا؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْفَاحِشَةِ يُشَوِّفُ إِلَيْهَا وَيُهَوِّنُهَا، وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَطَاءٍ؛ قَالَ: «مَنْ أَشَاعَ الْفَاحِشَةَ، فَعَلِيهِ النَّكَالُ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا»^(١).

إِشَاعَةُ الْفَاحِشَةِ وَسَبَبُ عَدَمِ جَعْلِ الشَّرِيعَةِ لَهَا حَدًّا:

وَإِشَاعَةُ الْفَاحِشَةِ تَعْظُمُ بِمَقْدَارِ إِشَاعَتِهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَعَدَدِ مُتَلَقِّيهَا، وَحُجْمِ تَأْثِيرِهَا فِيهِمْ؛ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ الشَّرِيعَةَ لَمْ تَجْعَلْ حَدًّا لِإِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ؛ لِأَنَّهَا تَخْتَلِفُ، وَلَا تَنْضَبِطُ؛ فَبَيْنَ يَسِيرِهَا وَجَلِيلِهَا كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، بِخِلَافِ بَقِيَّةِ الْآثَامِ الَّتِي وَضَعَتِ الشَّرِيعَةُ لَهَا حَدًّا كَالزُّنَى وَالسَّرْفَةِ وَالْقَتْلِ وَشَرَبِ الْخَمْرِ وَغَيْرِهَا، فَأَوْصَافُهَا مُحَدَدَةٌ مُضْبُوطَةٌ، وَلَوْ وَضَعَتِ الشَّرِيعَةُ حَدًّا لِإِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ، لَوْصِفَتِ الشَّرِيعَةُ

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٥٥٠).

بالتناقض ومساواة ما لا يَتَشَابَهُ في الصورة في العقوبة، ولا سَتَوَتْ إشاعة الفاحشة في مجلس فيه واحدٌ مع إشاعتها في وسائل إعلامية يُشَاهِدُهَا أُلُوفٌ مؤلَّفةٌ؛ ولهذا كانت عقوبة إشاعة الفاحشة التعزير؛ تبدأ بأدنى العقوبات، وتنتهي بأشدّها؛ وهو القتل والصلب.

وتعظيم إشاعة الفاحشة الذي تُقدَّرُ به عقوبة المُشيعِ لها تعزيرًا - مرتين بأمور ثلاثة:

الأول: نوعُ الفاحشة المُشاعة؛ فالفواحش تختلف في نوعها؛ منها الصريح، ومنها الكناية، ويختلف الصريح منها في نوعه؛ منه ما يُخَالِفُ الفِطْرَةَ كاللواط والسحاق ونكاح المحارم ونحوه، ومنه ما يُوَافِقُ الفِطْرَةَ مِن وجوه ويُخَالِفُهَا مِن وجوه؛ كَمَيْلِ الجنسين بعضهما إلى بعض؛ فهذا يُوَافِقُ الفِطْرَةَ مِن هذا الوجه، ويُخَالِفُهَا إذا كان الميلُ بغير ما أَحَلَّ اللهُ كالزنى.

وقد يكون فعلُ الرَّجُلِ ما أَحَلَّ اللهُ له علانيةً مِن إشاعة الفاحشة؛ لأنَّ الله ما جَعَلَ كُلَّ حلالٍ بجورِ المُجَاهَرَةِ به، فإذا فَعَلَ الرَّجُلُ مع زوجته في الأسواق والطُرُقَاتِ ما يُسْتَحْيَا منه ولا يُفَعَلُ إِلَّا في البيوت، عُوقِبَ على ذلك ولو كانت زوجته؛ لأنَّ هذا يدفعُ الناسَ إلى تقليديه ومحاكاته، ويدفعُ مَنْ يَتَّخِذُ أَخْذَانًا أن يفعلَ مِثْلَ فعله؛ فإنَّ المحرَّمات تبدأ مِن المكروهات، ولا تفسدُ أخلاقَ الأممِ إِلَّا بعدَ سقوطِ سُورِ المروءات؛ فليس كُلُّ المروءاتِ واجبةً؛ ولكنها سُورٌ يَحْمِي النُفُوسَ مِنَ الجُرْأَةِ على الجرام.

الثاني: مقدارُ إشاعتها؛ فبمقدارِ سَعَةِ إشاعة الفاحشة تعظُمُ؛ فَمَنْ يُشيعُهَا في مجلسٍ غيرُ مَنْ يُشيعُهَا في قريةٍ وبلدٍ، وَمَنْ يُشيعُهَا في بلدٍ غيرُ مَنْ يُشيعُهَا في كُلِّ بلدٍ، وبمقدارِ سَعَتِهَا تُغلَظُ العقوبةُ عليه، واليومَ يَقْدِرُ

كثيرٌ من أهل الفسادِ على إشاعة الفاحشةِ في وسائل إعلامية تصل إلى بلدانٍ ودولٍ وملايين الناسِ.

الثالثُ: مكانُ إشاعتها؛ فإنَّ إشاعة الفاحشةِ في موضعٍ مُعظمٍ كالمساجِدِ تختلفُ عن المَجَالِسِ، وإشاعتها في البلدانِ المقدَّسةِ كمكةَ والمدينةِ وبيت المقدسٍ تختلفُ عن غيرها؛ لأنَّ محادثة الله فيها أعظمُ من غيرها؛ لأنَّ مقتضى تحريم المسجدِ الحرامِ ومقتضى تعظيم المدينةِ وبيت المقدسٍ والبركةِ فيها: إجلالُها وتعظيمُها والبُعدُ عن عِضَيانِ الله فيها.

وهو الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ آخر الآية: إشارة إلى أنَّ الله حرَّم إشاعة الفاحشةِ وشدَّد فيها؛ لأنَّ لها أثراً لا يعلمه إلا هو، وأكثرُ حِكْمَتِهِ غائبةً، ولو أدركَ الناسُ تمامَ الحِكْمَةِ لَسَلَّمُوا وتيقَّنوا جميعاً بصلاحِ الحُكْمِ، ولكنَّهم يَحْكُمُونَ على ما ظَهَرَ، وَيَغِيبُ عنهم ما خَفِيَ مِنَ الْأَثَرِ.

* * *

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَاسْأَلُوا عَنْ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿النور: ٢٧-٢٨﴾.

نهى الله عن دخول البيوتِ إلا بإذنِ أهلها؛ فإنَّ لها حُرْمَةً وَعَوْرَةً لا يجوزُ الاطِّلاعُ عليها، حتى وإنْ غَلَبَ على ظنِّ الإنسانِ الإذنُ له، أو أنَّه لا يَرَى شيئاً يكرهه أهلها لكونهم أهل احتشامٍ دائمٍ، فهذا لا يجوزُ؛ كما أنَّه لا يجوزُ له أن ينظرَ من ثَقْبِ بابٍ، أو مِن فَوْقِ سُورٍ بِحُجَّةٍ أَنَّ أَهْلَهُ أهلُ احتشامٍ دائمٍ؛ لأنَّ الحُكْمَ تعلقَ بالفعلِ ولو لم تُوجَدِ الْعِلَّةُ.

وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ بُيُوتِكُمْ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ بَيْتَ الْإِنْسَانِ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْإِسْتِثْنَانُ مِمَّنْ فِيهِ، بَلْ يَدْخُلُهُ بِلَا اسْتِثْنَانٍ مِمَّنْ فِيهِ؛ وَهَذَا ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ نَّسْتَأْذِنُوا﴾: الْإِسْتِثْنَانُ؛ يَعْنِي: الْإِسْتِثْنَانُ مِنَ أَهْلِهَا، وَقَدْ قَرَأَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبِيٌّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: (حَقِّي نَسْتَأْذِنُوا)^(١)، وَسُمِّيَ الْإِسْتِثْنَانُ اسْتِثْنَانًا؛ لِأَنَّهُ يُؤْنَسُ صَاحِبَ الدَّارِ وَيُبْعَدُ عَنْهُ الْوَحْشَةُ وَالْوَجَلُ وَالْخَوْفُ.

حُكْمُ الْإِسْتِثْنَانِ عِنْدَ دُخُولِ الْبُيُوتِ وَصِفَتُهُ وَعِلَّتُهُ:

وتحريمُ دخولِ البيوتِ إِلَّا بِالْإِسْتِثْنَانِ دَلِيلٌ عَلَى وَجوبِ الْإِسْتِثْنَانِ؛ لِأَنَّ الْمَحْرَمَ الَّذِي لَا يُسْتَحَلُّ إِلَّا بِشَرْطٍ، فَذَلِكَ الشَّرْطُ وَاجِبٌ لَهُ.

وَالْإِسْتِثْنَانُ شُرْعٌ لِحُرْمَةِ الدُّورِ وَحُرْمَةِ أَهْلِهَا، فَلَا يَجُوزُ دُخُولُهَا بِدُونِهِ؛ وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: أَطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرِ فِي حُجَرِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْزَى يَحْكُ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ: (لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ تَنْظُرُ، لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ؛ إِنَّمَا جُعِلَ الْإِسْتِثْنَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ)^(٢).

وَأَمَّا صِفَةُ الْإِسْتِثْنَانِ عِنْدَ إِرَادَةِ دُخُولِ الْبُيُوتِ، فَتَكُونُ بِإِصْصَالِ صَوْتِ الدَّاخِلِ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا، وَلَا أَنْ يَفْقَ وَسَطَ أَبْوَابِهَا، بَلْ يَتَنَحَّى عَنْهَا يَمِينًا أَوْ شِمَالًا؛ حَتَّى لَا يَرَى مَنْ فِيهَا؛ كَمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ؛ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا

(١) «تفسير الطبري» (٢٤١/١٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨٨/١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤١)، ومسلم (٢١٥٦).

أَتَى بَابَ قَوْمٍ، لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تَلَقَّاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ
أَوْ الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ)؛ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ
يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَيْدُ سُورٍ^(١).

ويكون ذلك بطلب الإذن بالدخول؛ كقوله: (ادْخُلْ)، أو رفع
الصوت بالنحنحة، ويدخل في ذلك كلُّ صوتٍ أو كلامٍ مُشعرٍ بوجودِ
مُستأذِنٍ للدخول؛ لاختلافِ أعرافِ أهلِ البلدانِ في ذلك.

ويكون الاستئذان ثلاثاً لا أكثرَ من ذلك؛ حتى لا يكون مؤذياً
لهم؛ فقد يكون أهلُ البيتِ نياماً أو في شُغلٍ، وفي «الصحيحين»؛ مِنْ
حديثِ أبي سعيدٍ؛ قال ﷺ: (إِذَا اسْتَأْذَنْ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ،
فَلْيَرْجِعْ)^(٢)، وأما إطالةُ الاستئذانِ فوقَ ثلاثٍ، فلا يجوزُ إلَّا مِنْ ضرورةٍ؛
كندِيرِ القومِ، وصاحبِ النازلةِ المستجيرِ منها.

ورخصَ مالكٌ في الزيادةِ في الاستئذانِ فوقَ ثلاثٍ لِمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ
يُسْمَعْ، فلا يرى بأساً أَنْ يَزِيدَ إِذَا اسْتَيْقَنَ أَنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ.

ويلحقُ بالاستئذانِ ثلاثاً الاتصالُ عبرَ وسائلِ الاتصالِ، فيكونُ ثلاثاً
لا يُجاوِزُها؛ لأنَّ الاتصالَ في حُكْمِ الاستئذانِ لا يكونُ فوقَ ثلاثٍ.

ويسقطُ الاستئذانُ للدخولِ لِمَنْ دُعِيَ، فجاء مُجيباً في الزمانِ
والمكانِ الذي دُعِيَ فيه، وقد رَوَى أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
مَسْعُودٍ؛ قَالَ: «إِذَا دُعِيَ، فَهُوَ إِذْنُكَ؛ فَسَلِّمْ ثُمَّ ادْخُلْ»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّتُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ فيه مشروعيةُ السلامِ عندَ دخولِ
البيوتِ؛ إشعاراً لهم بالأمانِ والطَّمَأْنِينَةِ مِنَ الدَّاخلِ عليهم، وقد تقدَّم

(١) أخرجه أبو داود (٥١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥٨٢٨).

الكلام على حُكْمِ بَذْلِ السَّلامِ وأحواله وفضلِهِ ومَراتِبِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّتٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٦].

السَّلامُ عِنْدَ دُخُولِ الْبُيُوتِ وَصِفَتُهُ وَعَدَدُهُ:

وَيُشْرَعُ السَّلامُ عِنْدَ دُخُولِ الْبُيُوتِ، وَيَكُونُ ثَلَاثًا بِمَا يُسْمَعُ بِهِ أَهْلُ الْبَيْتِ، مَا لَمْ يَكُنْ دَاخِلًا عَلَى وَاحِدٍ بَعِيْنِهِ لَيْسَ فِي الدَّارِ غَيْرُهُ فَيَكْفِي مَرَّةً وَاحِدَةً، وَفِي «الصَّحِيحِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا سَلَّمَ، سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَعَادَهَا ثَلَاثًا»^(١).

وَقَدْ زَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ)، فَلَمْ يَرُدُّوْا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ)، فَلَمْ يَرُدُّوْا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ)؛ فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا فَقَدَ سَعْدٌ تَسْلِيمَهُ، عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ انصَرَفَ، فَخَرَجَ سَعْدٌ فِي أَثَرِهِ حَتَّى أَدْرَكَهُ، فَقَالَ: وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّمَا أَرَدْنَا أَنْ نَسْتَكْثِرَ مِنْ تَسْلِيمِكَ، وَقَدْ وَاللَّهِ سَمِعْنَا، فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ سَعْدٍ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ^(٢).

وَلَا يَكْفِي الْاسْتِثْنَاءُ عَنِ السَّلامِ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَعُدُّونَ السَّلامَ وَمِفْتَاحَ الدُّخُولِ، وَالسَّلامُ قَدْ يَنْوُبُ عَنِ الْاسْتِثْنَاءِ، وَلَكِنَّ الْاسْتِثْنَاءَ لَا يَنْوُبُ عَنِ السَّلامِ؛ فَقَدْ رَوَى عَطَاءٌ؛ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِذَا قَالَ: أَدْخُلْ؟ وَلَمْ يُسَلِّمْ، فَقُلْ: لَا، حَتَّى تَأْتِيَ بِالْمِفْتَاحِ، قُلْتُ: السَّلَامُ؟ قَالَ: نَعَمْ»؛ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ»^(٣).

وَرَوَى صَالِحُ الْبَغْدَادِيِّ؛ قَالَ: «بَعَثَنِي أَهْلِي إِلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٢٤٤).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٢١/٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٥١٨٥)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السنن الكبرى» (١٠٠٨٤).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (١٠٨٣).

بِهَدْيَةٍ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى الْبَابِ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقُلْتُ: أَذْخُلُ؟ فَسَكَتَ، ثَلَاثًا، قَالَ: قُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: فَدَخَلْتُ، فَقَالَ: لَمْ أَرَكَ تَهْتَدِي إِلَى السُّنَّةِ، فَعَلِمْتُكَ؛ رواه ابن أبي شيبة^(١).

وَأَمَّا إِنْ كَانَ صَاحِبُ الدَّارِ قَرِيبًا يَسْمَعُ أَوَّلَ كَلَامِ الدَّاخِلِ، فَيُشْرِعُ تَقْدِيمَ السَّلَامِ عَلَى الْاسْتِئْذَانِ؛ لِأَنَّ السَّلَامَ هُنَا أَخَذَ حُكْمَ اللِّقَاءِ؛ فَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَأَهْلُ «السَّنَنِ» مِنْ حَدِيثِ رَبِيعٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ: أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ: أَلَيْحَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِخَادِمِهِ: (اخْرُجْ إِلَى هَذَا، فَعَلَّمَهُ الْاسْتِئْذَانِ، فَقُلْ لَهُ: قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَذْخُلُ؟)، فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَذْخُلُ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ^(٢).

* * *

❦ قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩].

رَخَّصَ اللَّهُ بِدُخُولِ الْبُيُوتِ الَّتِي لَا سَاكِنَ لَهَا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُ يَجُوزُ دُخُولُ الْبَيْتِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَهْلُهُ لِسَفَرٍ أَوْ غَيْرِهِ؛ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْبُيُوتِ غَيْرِ الْمَسْكُونَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا عَامِرٌ، أَوْ لَهَا عُمَارٌ وَلَكِنْ مِنْ الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَسْكُنُهَا النَّاسُ كَالْمَسْتَشْفِيَّاتِ وَالْمَسَاكِنِ الْمُشَاعَةِ الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِسَاكِنٍ.

وَذَكَرَ اللَّهُ جَوَازَ ذَلِكَ بِهَوْلِهِ: ﴿فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥٨٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٨/٥)، وأبو داود (٥١٧٧)، والنسائي في «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (١٠٠٧٥).

الولوج والخروج في البيوت والمساكن ولو كانت غير مسكونة ينبغي أن يكون لسبب وحاجة، لا عن فضول.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

أمر الله المؤمنين بغض البصر، قبل أمرهم بحفظ الفروج؛ لبيان أن إطلاق البصر جالب للفاحشة وباب لها، وحبل من حبال الشيطان الموصلة إليها، فقدّم الوسيلة على الغاية، وجعل الله ذلك ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾؛ يعني: أنه أطهر للنفس وأطيب لها.

الحِكْمَةُ مِنْ تَقْدِيمِ أَمْرِ الرِّجَالِ عَلَى أَمْرِ النِّسَاءِ بِغَضِّ الْبَصَرِ:

وإنما قدّم الله أمر الرجال بغض البصر قبل أمر النساء بذلك؛ لأمر: منها: أن الرجال أكثر عُرضَةً لرؤية العورات؛ لكثرة خروجهم وكسبهم وتعرّضهم للتعامل مع الناس، فالأصل في الرجال: الخروج والكسب، والأصل في النساء: القَرَارُ والكفاية؛ ولهذا نهى النبي ﷺ الرجال عن الجلوس في الطُّرُقَات؛ حتى لا يتعرّضوا لرؤية العورات، فلما أبدوا حاجتهم بها، أمرهم بغض البصر؛ كما في «الصحيحين»؛ قال: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ)، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ)، قالوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: (غَضُّ الْبَصَرِ، وَكُفُّ الْأَدَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ)^(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

ومنها: أَنَّ أَثَرَ النَّظَرِ عَلَى الرِّجَالِ أَشَدُّ مِنْ أَثَرِهِ عَلَى النِّسَاءِ، وَفِتْنَةُ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ) ^(١)، فَنَاسَبَ تَقْدِيمَ أَمْرِهِمْ بَغْضَ الْبَصَرِ قَبْلَ أَمْرِ النِّسَاءِ.

ومنها: أَنَّ الرِّجَالَ أَجَسَرُ عَلَى مَدِّ الْبَصَرِ مِنَ النِّسَاءِ؛ فَإِنَّ الرِّجُلَ إِنْ كَانَ ضَعِيفَ الْإِيمَانِ مَرِيضَ الْقَلْبِ فَهُوَ أَجَسَرُ عَلَى مَدِّ الْبَصَرِ وَإِطَالَتِهِ، بِخِلَافِ نَظَرِ الْمَرْأَةِ إِلَى الرَّجُلِ، فَهِيَ أَضْعَفُ؛ لِأَنَّ جُبِلَتْ عَلَيْهِ مِنْ حَيَاءٍ وَضَعْفٍ وَخَوْفٍ.

ومنها: أَنَّ الرِّجَالَ أَجَسَرُ عَلَى مَا يَتَّبِعُ الْبَصَرَ مِنْ تَتَبُعِ الْفَاحِشَةِ، بِخِلَافِ الْمَرْأَةِ؛ فَإِنَّ الرِّجُلَ قَدْ يَتَّبِعُ الْبَصَرَ مِنْ مَنَاهِي الْكَلَامِ كَالْفُحْشِ وَالتَّغَرُّلِ مَا لَا تَفْعَلُهُ الْمَرْأَةُ؛ فَإِنَّهَا تُطَلِّقُ الْبَصَرَ وَتَتَهَيَّبُ الْإِقْدَامَ عَلَى مَا وَرَاءَهُ، وَقَدْ سَمَى النَّبِيُّ ﷺ نَظَرَ الْعَيْنِ زِنَاهَا، وَجَعَلَ النَّظَرَ أُولَى خُطَوَاتِ الرَّجُلِ إِلَى الزَّوْنِ؛ يَبْدَأُ بِهِ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ بِكَلَامٍ ثُمَّ مَشْيِ الْقَدَمِ وَالْمَسِّ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزَّوْنِ، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ) ^(٢).

لَا تَلَازِمَ بَيْنَ غَضِّ الْبَصَرِ وَسُقُورِ النِّسَاءِ:

وَلَمَّا كَانَ النَّهْيُ عَامًّا فِي الْآيَةِ: ﴿يَنْفُسُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ تَحْرِيمَ النَّظَرِ إِلَى جَمِيعِ الْعَوْرَاتِ وَلَوْ فِي غَيْرِ النِّسَاءِ كَالنَّظَرِ إِلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٩٦)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٠).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٢٤٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٥٧).

الأمرد، وكذلك في النساء، فَنَظَرُهُنَّ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ بِشَهْوَةٍ دَاخِلٌ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَأَمَّا مَا يَحْتَجُّ بِهِ بَعْضُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ عَلَى جَوَازِ سَفُورِ الْمَرَأَةِ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الرِّجَالَ بِغَضِّ الْبَصَرِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَاشِفَاتٍ، لَمْ يَأْمُرِ الرِّجَالَ بِغَضِّ أَبْصَارِهِمْ، فَهَذَا غَلَطٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ نَظَرِ الرَّجُلِ لَا إِلَى مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْمَرَأَةِ، وَإِنَّمَا نَهَى نَهْيًا عَامًّا لِكُلِّ مَا يَحْرُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَمَا لَمْ يَحْرُمِ النَّظَرُ إِلَيْهِ إِذَا كَانَ فِيهِ فِتْنَةٌ كَنَظَرِهِ إِلَى لِبَاسِهَا وَشَخْصِهَا طَوْلًا وَعَرْضًا، وَكَذَلِكَ فِي نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي مِثْلُهُ يَقْتَضِي بِهِ، فَلَوْ قِيلَ بِذَلِكَ، لَجَازَ الْقَوْلُ: إِنَّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ يَجُوزُ لَهُمْ كَشْفُ مَا يَشَاوُونَ مِنْ أَعْيَانِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِغَضِّ الْبَصَرِ، وَلَا يَأْمُرُ بِغَضِّ الْبَصَرِ إِلَّا عَنْ شَيْءٍ مَكْشُوفٍ السَّتْرِ، فَلَا تَلَازَمَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بَيْنَ عَوْرَةِ السَّتْرِ وَعَوْرَةِ النَّظَرِ؛ فَقَدْ يَأْمُرُ اللَّهُ بِغَضِّ الْبَصَرِ عَنْ شَيْءٍ أَمَرَ بِسَتْرِهِ؛ كَسَتْرِ الْمَرَأَةِ عَنْ غَيْرِ مَحْرَمِهَا، وَعَوْرَةِ الرِّجَالِ عَنْ الرِّجَالِ، وَقَدْ يَأْمُرُ بِغَضِّ الْبَصَرِ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِسَتْرِهِ؛ كَشَاخِصِ الْمَرَأَةِ، وَكَمَا قَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ النَفُوسِ الْمَرِيضَةِ مِنْ مِيلٍ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ مِنْ مَحَارِمِهِ؛ كَأَخْتِهِ وَعَمَّتِهِ وَخَالَاتِهِ وَبَنَاتِهِ، فَاللَّهُ أَمَرَ بِغَضِّ بَصَرِهِ عَمَّا يَفْتِنُهُ مِنْهُنَّ مِمَّا أَجَازَ لَهُنَّ إِظْهَارُهُ، وَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ نَصُوصِ الْكَشْفِ وَنَصُوصِ النَّظَرِ؛ فَلِكُلِّ جِهَتِهِ وَمَوْضِعِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: (لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ^(١)؛ فَنَهَى اللَّهُ الرَّجُلَ عَنْ النَّظَرِ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، مَعَ أَمْرِهِ الرَّجُلَ بِسَتْرِ عَوْرَتِهِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ أَحْمَدَ وَأَهْلِ السُّنَنِ: (أَخْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ)^(٢)، فَذَاكَ حُكْمُ النَّاظِرِ، وَهَذَا حُكْمُ الْمَنْظُورِ.

(١) أخرجه مسلم (٣٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٥)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٩٢٣)، وابن ماجه (١٩٢٠).

حُكْمُ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَى الْمَرْأَةِ:

لا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ نَظَرَ الرَّجُلِ إِلَى مَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ إِظْهَارَهُ بِشَهْوَةٍ، أَوْ عَلِمَ أَنَّ نَظْرَهُ إِلَيْهَا يُثِيرُ فِتْنَةً فِيهِ: أَنَّهُ حَرَامٌ، سَوَاءً كَانَتْ شَابَةً أَوْ قَاعِدًا، وَسَوَاءً كَانَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْ صُورَةً لَهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ النَّظَرَ إِلَى الْمَرْأَةِ لِعَلِّ كَثِيرَةٍ، مِنْ أَجْلِهَا مَا يَتَّبِعُ النَّظَرَ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ فِي النَّاطِرِ وَتَشَوُّفِهِ إِلَى الْفَاحِشَةِ؛ فَالنَّظَرُ يُحِبِّبُ الْحَرَامَ وَلَوْ فِي غَيْرِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهَا، وَجُلُّ مَنْ وَقَعُوا فِي النَّظَرِ الْحَرَامِ لَمْ يَقَعُوا فِي الزَّنى بِجُلِّ مَنْ نَظَرُوا إِلَيْهِنَّ؛ وَإِنَّمَا فِي أُخْرِيَّاتٍ غَيْرِهنَّ؛ فَالنَّظَرُ الْحَرَامُ وَقُودُ الزَّنى.

وَالْأَصْلُ: أَنَّ نَظَرَ الرَّجُلِ إِلَى الْمَرْأَةِ يُثِيرُ فِتْنَةً؛ وَلِهَذَا جَاءَ الْأَصْلُ بِالنَّهْيِ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ؛ فَإِنَّ الْفِتْنَةَ قَدْ لَا تُوجَدُ مِنْ أَوَّلِ نَظَرَةٍ وَلَا ثَانِيهَا وَلَا ثَالِثِهَا؛ وَإِنَّمَا تَحْيَا بِالْقَلْبِ مَعَ إِدَامَةِ النَّظَرِ، فَجَاءَ النَّهْيُ عَنْ أَوَّلِهِ؛ حَتَّى لَا يَتَّهَى بِصَاحِبِهِ إِلَى فِتْنَةٍ فِي آخِرِهِ، وَلَمَّا كَانَتِ الْفِتْنَةُ غَالِبَةً فِي النَّظَرِ - خَاصَّةً الْمَتَكَرِّرَ - جَاءَ النَّهْيُ عَامًّا، وَيَشْتَدُّ الْإِثْمُ بِمَقْدَارِ وَرُودِ الْفِتْنَةِ فِي صَاحِبِهِ، وَقَدْ يَكُونُ النَّظَرُ الْمَحْرَمُ سَهْلًا فِي أَوَّلِهِ؛ لِعَدَمِ قِيَامِ الْفِتْنَةِ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ إِدَامَتِهِ يَكُونُ كَالْقَيْدِ الَّذِي يُقْتَلُ وَيُوثَقُ صَاحِبُهُ، وَالْعَيْنُ تَقْتَلُ قَيْدَ الْقَلْبِ بِإِدَامَةِ النَّظَرِ حَتَّى يَتَقَيَّدَ وَلَا يَسْتَطِيعُ صَرْفَ الْبَصَرِ؛ وَلِذَا لَمَّا سَأَلَ جَبْرِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفَجَاءَةِ، قَالَ لَهُ: (اصْرِفْ بَصَرَكَ)^(١).

وَيَجُوزُ نَظَرُ الرَّجُلِ إِلَى الْمَرْأَةِ لِلضَّرُورَةِ؛ كَنَظَرِ الْقَاضِي فِي الْخُصُومَاتِ وَالْحَقُوقِ إِلَى وَجْهِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ اسْتِشْكَالِهِ لِحَقِيقَتِهَا، إِنْ لَمْ يُوْجَدْ مَنْ يَنْوُبُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ مِنَ النِّسَاءِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢١٥٩)، وَأَحْمَدُ (٣٦١/٤)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢١٤٨)، وَاللَّفْظُ لَهَا.

﴿قَالَ نَعَالِي: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّخِضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ إِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِقِ السُّلَّةِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾﴾ [النور: ٣١].

أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَضِّ الْبَصَرِ، وَقَدَّمَ غَضَّ الْبَصَرِ عَلَى حِفْظِ الْفَرْجِ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَ الْبَصَرِ طَرِيقٌ يَنْتَهِي بِإِضَاعَةِ الْفَرْجِ؛ فَقَدَّمَ اللهُ حِفْظَ الْوَسِيلَةِ لِحِفْظِ الْغَايَةِ، ثُمَّ نَهَى اللهُ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ إِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ، وَثَمَّةٌ تَلَازُمٌ بَيْنَ إِطْلَاقِ الْبَصَرِ وَبَيْنَ الزَّيْنَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا تُكْثِرُ التَّزَيْنُّ لِلرِّجَالِ الْأَجَانِبِ إِلَّا مَنْ أَطْلَقَتْ بَصَرَهَا فِيهِمْ، فَتَشَوَّقَتْ إِلَيْهِمْ بِبَصَرِهَا، فَزَيَّنَتْ بَدَنَهَا وَلِبْسَهَا، وَلَوْ لَمْ تُطْلِقْ بَصَرَهَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ دَاعٍ لِلتَّزَيْنِ لَهُمْ، وَمَنْ حَفِظَتْ بَصَرَهَا، حَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَلَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِهَا جَذْبُ الرِّجَالِ إِلَيْهَا فِي الزَّيْنَةِ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ خَالٍ مِنْهُمْ؛ وَلِهَذَا قَدَّمَ اللهُ حِفْظَ الْبَصَرِ عَلَى حِفْظِ الْفَرْجِ وَالنَّهْيِ عَنِ الزَّيْنَةِ؛ لِأَنَّ الْبَصَرَ حَبْلٌ يَجْذِبُ الْقُلُوبَ وَيَحْرُكُهَا إِلَى التَّزَيْنِ لِإِغْرَاءِ الرِّجَالِ وَإِغْوَائِهِمْ وَالْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ.

وَشَدَّدَ اللهُ عَلَى الرَّجُلِ فِي غَضِّ الْبَصَرِ، وَشَدَّدَ عَلَى الْمَرْأَةِ فِي الْحِجَابِ؛ حَتَّى يُقَلَّلَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ تَجَادُفٍ وَمِثْلِ، وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ إِبْدَاءُ مَفَاتِيهِ، وَلَا أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ إِطْلَاقُ بَصَرِهَا فَتُفْتَنَ، وَلَكِنْ الْوَحْيُ يَشُدُّ الْحَبَالَ الْمُرتَخِيَةَ فِي النُّفُوسِ أَشَدَّ مِنَ الْحَبَالِ الثَّابِتَةِ فِيهَا، وَأَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى السَّقُوطِ يُجَذَّبُ أَشَدَّ مِنَ الْبَعِيدِ عَنْهَا؛ حَتَّى تَكْتَمِلَ فِطْرَةُ الْعَفَافِ وَتَصِحَّ، فَإِذَا لَمْ يَغْضُ الرِّجُلُ بَصَرَهُ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ تَدْفَعُ فِتْنَتَهُ

بحجابها، وإن لم تتحجب المرأة، فالرجل يدفع فتنتها بغض بصره؛ ولهذا ربط الله بين غص البصر وبين الزنى؛ لأنه سبب له، فقال للرجال: ﴿قُلِ الْمُؤْمِنَاتُ يَغْضُوا مِنْ أَنْبَصِرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠]، وقال للنساء: ﴿قُلِ الْمُؤْمِنَاتُ يَغْضَيْنَ مِنْ أَنْبَصِرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾؛ ولكنه زاد في النساء: ﴿وَلَا يَبْرِيك زِينَتُهُنَّ﴾.

ولا يختلف العلماء على أن نظر المرأة إلى ما يفتنها من الرجال محرّم، سواء كان نظراً إلى أبشارهم أو شخوصهم، وأمّا نظر المرأة إلى ما يجوز للرجل إبداءه من غير فتنة فيه، فقد وقع في ذلك نزاع بين الفقهاء:

فمن العلماء: من أخذ بعموم النهي في الآية، ولأن الغالب أن نظر المرأة إلى الرجل أنه فتنة آجلة أو عاجلة؛ فمن أطلقت بصرها، انتهى بها إلى الافتتان؛ وهذا الصحيح من مذهب الشافعي وأحمد، وعلى هذا جمهور الصحابة والتابعين.

والله قد أمر النساء بمثل ما أمر به الرجال، ولم يفرق بينهم، بل زاد النساء عدم إبداء الزينة.

وذهب قوم: إلى جواز نظر المرأة إلى الرجل بغير شهوة؛ وذلك لأن النبي ﷺ أذن لعائشة نظرها إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، وظاهره: أن عائشة تنظر إلى لعبهم، لا إلى وجوههم، ولم تكن قريبة منهم، فلم تكن تخصّ واحداً منهم بل ترى حركة الجماعة، ولم تكن أمام وجوههم بحيث تأخذ حكم المتقابلين، ولم يكن النبي ﷺ يأذن لنسائه بمحادثة الرجال وجهاً لوجه، فتنظر إليهم كما ينظر الرجل إلى جليسه.

وغالباً ما تُطلق المرأة أو الرجل البصر ولا يجدان الفتنة من النظرة

الأولى، ثم ما يزال الشيطان يُسَوِّلُ لهم الجواز؛ لِانعدامِ العِلَّةِ الداعيةِ للنهي؛ حتى تتولدَ الفِتْنَةُ مع تَكَرُّرِهِ، فَيُوقِعُهُمُ الشَّيْطَانُ فِي شِرَاكِهِ؛ فله خطواتٌ تَبْدَأُ بِالْمُبَاحِ وتَنْتَهِي بِالْحَرَامِ الذي لا يَنْفَكُ مِنْهُ صَاحِبُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يَذِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِمُعَلِّنَةٍ أَوْ نَوَاصِيَةٍ﴾:

نَهَى اللهُ الْمَرْأَةَ عَنْ إِبْدَاءِ زِينَتِهَا عِنْدَ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ بِصَرِيحِ الْخَطَابِ عَلَى سِتْرِ الزَّيْنَةِ حَتَّى لَا تَفْتِنَ الرِّجَالَ، وَلَمْ يَأْمُرِ اللهُ الرِّجَالَ بِعَدَمِ إِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ قُطِرَتْ عَلَى التَّزْيِينِ أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ فِطْرَةً، وَتَتَنَوَّعُ فِيهِ، وَتَسْتَكْثِرُ مِنْهُ، وَتَنْشَأُ عَلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهَا: ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزَّحْرَفُ: ١٨]، وَلِأَنَّ زَيْنَةَ الْمَرْأَةِ تَجْذِبُ الرَّجُلَ أَشَدَّ مِنْ جَذْبِ زَيْنَةِ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ، وَلِأَنَّ الرَّجُلَ أَجْسَرُ عَلَى إِطْلَاقِ الْبَصَرِ مِنَ الْمَرْأَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾: الْخِمَارُ: اسْمُ مَصْدَرٍ؛ خَمَرَ يُخَمَرُ تَخْمِيرًا؛ يَعْنِي: غَطَّى، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْخَمَرُ خَمْرًا؛ لِأَنَّهُ يُغْطَى الْعَقْلُ، وَالْخِمَارُ: لِبَاسٌ تَلْبَسُهُ الْمَرْأَةُ فِي أَعْلَاهَا عَلَى الرَّأْسِ وَمَا دُونَهُ، وَيُسَمَّى النَّصِيفَ، وَيُسْتَعْمَلُ الْخِمَارُ لِتَغْطِيَةِ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ وَشَدَّهَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يُضْرَبُ عَلَيْهِ بِالْخِمَارِ:

الأول: الرَّأْسُ؛ لظَاهِرِ الْآيَةِ، فَالرَّأْسُ مُرْتَكِزُ الْخِمَارِ وَقَاعِدَتُهُ، وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ تُسَمَّى عِمَامَةُ الرَّجُلِ خِمَارًا؛ جَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ^(١) وَثَوْبَانَ^(٢) وَبِلَالٍ^(٣) وَسَلْمَانَ^(٤)، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَمْسَحُ عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٥٤/٤).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٨١/٥).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٥).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٣٩/٥)، وَابْنُ مَاجَةٍ (٥٦٣).

خمارها^(١)؛ يعني: بدلَ شَعَرِ رَأْسِهَا، وَصَحَّ عَنْ نَافِعِ مَوْلَى ابْنِ عَمْرٍ؛ قَالَ: «رَأَيْتُ صَفِيَّةَ بِنْتَ أَبِي عُبَيْدٍ تَوْضَأْتُ وَأَنَا غَلَامٌ، فَإِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَمْسَحَ رَأْسَهَا، سَلَخَتْ الْخِمَارَ»^(٢).

وَصَحَّ نَحْوُهُ عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ^(٣) وَالنَّخَعِيِّ^(٤).

وَصَحَّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رِيَّاحٍ فِي الْمَرْأَةِ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَمْسَحَ رَأْسَهَا، قَالَ: «تُدْخِلُ يَدَيْهَا تَحْتَ الْخِمَارِ، فَتَمْسَحُ مُقَدِّمَ رَأْسِهَا يُجْزِئُ عَنْهَا»^(٥).

وَصَحَّ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ: «أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ تُصَلِّيَ الْمَرْأَةُ وَأُذُنُهَا خَارِجَةٌ مِنَ الْخِمَارِ»^(٦).

الثاني: الصَّدْرُ؛ لظَاهِرِ هَوْلِهِ، **﴿عَلَى جُيُوبٍ﴾**؛ لِأَنَّ الْجُيُوبَ هِيَ مَا عَلَى الصَّدُورِ مِنَ الثِّيَابِ، وَالضَّرْبُ يَأْتِي مِنَ أَعْلَى وَيَنْزِلُ عَلَى جَنْبِ الْمَرْأَةِ، وَهُوَ صَدْرُهَا؛ فَالْجُيُوبُ هِيَ الصَّدُورُ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ مَسِّ الْجُيُوبِ^(٧)؛ نَهْيًا لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَشُقَّ جَنْبَهَا عِنْدَ الْمَصِيبَةِ.

الثالث: الْوَجْهُ؛ فَإِنَّ الْخِمَارَ قِمَاشٌ طَوِيلٌ مَمْتَدٌّ مُشْدُودٌ تُنْزِلُهُ الْمَرْأَةُ مِنْ قَاعِدَتِهِ، وَهِيَ الرَّأْسُ، عَلَى مَا شَاءَتْ، وَمِنْهُ الْوَجْهُ، وَصَحَّ عَنْ هِشَامٍ، عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ أُمِّ الْهَذَلِ؛ قَالَتْ: «تُخَمَّرُ الْمَرْأَةُ الْمَيِّتَةُ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢٢٣).

(٢) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٥١)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢٤٢).

(٣) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٥٠).

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢٥١).

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢٤٦).

(٦) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٥٠٥١).

(٧) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٩٤)، وَمُسْلِمٌ (١٠٣).

كما تُخَمَّرُ الْحَيْثُ، وَتُنْتَرَعُ مِنَ الْخِمَارِ قَدَرُ ذِرَاعٍ تُسَدِّلُهُ عَلَى وَجْهِهَا»^(١).
وقال الفَرَزْدَقُ:

نِسَاءٌ بِالْمَضَابِقِ مَا يُوَارِي مَخَازِيَهُنَّ مُنْتَقِبُ الْخِمَارِ

وكذلك: فَإِنَّ الْخِمَارَ يُسَمَّى نَصِيفًا عِنْدَ الْعَرَبِ، وَفِي لُغَةِ الشَّرْعِ؛
وَلِذَا جَاءَ فِي «الصَّحِيحِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ مَرْفُوعًا: (لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ
أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ، لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَّتْ مَا بَيْنَهُمَا
رَبْعًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي: الْخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)^(٢)، وَقَدْ جَاءَ
فِي «الْمُسْنَدِ»، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ تَفْسِيرُ الْخِمَارِ بِالنَّصِيفِ صَرِيحًا مِنْ
قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٣).

وَالنَّصِيفُ - وَهُوَ الْخِمَارُ - تُطْلَقُهُ الْعَرَبُ عَلَى مَا يُغْطَى بِهِ الْوَجْهَ،
وَقَدْ قَالَ:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرَدْ إِسْقَاطُهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْبَدِ

وَيُسْتَعْمَلُ الْخِمَارُ لِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَوْ بَعْضِهَا، وَلَكِنْ أَصْلُ اسْتِعْمَالِ
النِّسَاءِ لِلْخِمَارِ: أَنَّ لَهُ مُحِيطًا وَوَسْطًا؛ يَبْدَأُ مِنَ الرَّأْسِ وَيُحِيطُ بِهِ، وَيَنْزِلُ
تَبَعًا عَلَى الْكَتِفَيْنِ وَالْوَجْهِ وَالصَّدْرِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي «الصَّحِيحِ»:
«الْخِمَارُ الَّذِي تَسْتُرُ بِهِ وَجْهَهَا، بَلْ تُسَدِّلُ الثَّوْبَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهَا عَلَى
وَجْهِهَا»^(٤).

وَأِنْ كَشَفَتِ الْمَرْأَةُ خِمَارَهَا عَنْ وَجْهِهَا لَمَحَرَّمَهَا، بَقِيَ مُحِيطًا
بِوَجْهِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ بْنِ أَبِي حُرَّةٍ؛ قَالَ: «لَمَّا حُصِرَ
ابْنُ الزُّبَيْرِ، دَخَلَ عَلَى أُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَبَّلَهَا وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٦٢٢٠).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٦٨). (٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٨٣/٢).

(٤) «صَحِيحُ ابْنِ خُزَيْمَةَ» (١٢٧٦/٢).

الْخِمَارِ إِلَى الْوَجْهِ فَوْقَ الْجَبْهَةِ؛ رَوَاهُ الْحَاكِمُ^(١).

وَالْأَصْلُ: أَنَّ الْخِمَارَ لَا يَبْقَى عَلَى الرَّأْسِ، بَلْ يَكُونُ مِنْهُ عَلَى مَا دُونَهُ؛ فَفِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ»: «أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا - الَّذِي نَذَرَتْهُ إِلَّا تُكَلِّمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ - فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا»^(٢).

قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ: «الْجِلْبَابُ فَوْقَ الْخِمَارِ وَدُونَ الرِّدَاءِ تَسْتَوِثِقُ الْمَرْأَةُ صَدْرَهَا وَرَأْسَهَا»^(٣).

وَالْغَالِبُ: أَنَّ الْمَرْأَةَ عِنْدَ تَغْطِيتِهَا لَوَجْهِهَا تَأْخُذُ الْخِمَارَ مِنْ أَسْفَلِهِ الَّذِي عَلَى صَدْرِهَا وَتَرْفَعُهُ عَلَى وَجْهِهَا، وَبِالنِّسْبَةِ لِلْجِلْبَابِ تُذْنِبُهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهَا وَتُسَدِّلُهُ أَوْ تَضْرِبُ بِهِ عَلَى وَجْهِهَا، وَيَصُحُّ الْعَكْسُ، خَاصَّةً إِنْ كَانَ الْخِمَارُ وَاسِعًا، سَدَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا.

أَنْوَاعُ زِينَةِ الْمَرْأَةِ:

وَلِلْمَرْأَةِ زِينَةٌ فِي بَدَنِهَا خُلِقَتْ عَلَيْهَا، وَلَهَا زِينَةٌ مُكْتَسَبَةٌ تَضَعُهَا: فَأَمَّا زِينَتُهَا الَّتِي خُلِقَتْ عَلَيْهَا: فَوَجْهُهَا وَشَعْرُهَا، وَلَوْنُهَا وَصُورَةُ خِلْقَتِهَا.

وَأَمَّا الزَّيْنَةُ الْمَكْتَسَبَةُ: فَهِيَ مَا تَلْبَسُهُ مِنْ حُلِيِّ وَثِيَابٍ، وَمَا تَضَعُهُ مِنْ لَوْنٍ؛ كَحِجَّاءٍ وَأَصْبَاغٍ عَلَى وَجْهِهَا وَيَدَيْهَا وَشَعْرِهَا.

وَاللَّهُ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الزَّيْنَةَ، وَجَعَلَهَا إِجْمَالًا عَلَى نَوْعَيْنِ:

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٥٢٥/٤).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٦٠٧٣).

(٣) «الْمُسْتَدْرَكُ» أَخْرَجَ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤٧٤/٢).

الأولى: الزينة الباطنة التي لا تظهر لأحد، وهذا في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ﴾، ثم أتبعها بالاستثناء.

الثانية: الزينة الظاهرة، التي تظهر لمن خصهم الله بها، بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وبعض الناظرين لتفسير السلف لقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يحول تفسيرهم أنهم يظهرونه للأجانب غير المحارم، فينقلون عن جماعة من الصحابة والتابعين قولهم في ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أنه (الكف والوجه)؛ كما روي عن ابن عباس وابن عمر والضحاك^(١)، أو (الكحل والخضاب والخاتم)؛ كما روي عن ابن عباس^(٢) ومجاهد^(٣) وابن جبير^(٤)، أو (الكحل والخاتم)؛ كما روي عن أنس^(٥)، أو (الخضاب والكحل)؛ كما روي عن عطاء^(٦)، أو (الكحل)؛ كما روي عن الشعبي وقتادة، أو (الوجه والياب)؛ كما روي عن الحسن وقتادة أيضا^(٧)، أو (الوجه وتغرئة النحر)؛ كما جاء عن عكرمة^(٨)، أو (الكحل والياب)؛ كما جاء عن الشعبي^(٩)؛ وهذا أصح ما جاء عن الصحابة والتابعين من تفسير آية الزينة.

والأظهر أن كلام هؤلاء السلف إنما هو في الزينة الظاهرة للمحارم من النسب والرضاع، والصحابة والتابعون كانوا على قدر شديد من العفاف والستر، حتى إنهم قلما يسألون عما تبديه المرأة للرجل الأجنبي.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٥٧٤/٨). (٢) «تفسير البغوي» (٣٤/٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٦٠/١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٥٧٤/٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٠١٥).

(٥) «الدر المنثور» (٢٣/١١).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٠١٢).

(٧) «تفسير الطبري» (٢٦١/١٧).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٠٢١).

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٠٠٧).

ويوضح أن مراد الصحابة والتابعين كشف الزينة الظاهرة للمحارم لا الأجانب: نصوصهم الأخرى ونصوص غيرهم الصريحة في ذلك، التي لا تتفق وتجتمع إلا على هذا المعنى؛ وذلك من أربعة وجوه:

الوجه الأول: أن جميع من صح عنه تفسير الزينة الظاهرة في آية النور: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، قد صح عنه ما يحول تفسيره على تخصيصه للمحارم صريحا في موضع آخر:

أما عبد الله بن عباس: فصح عنه أنه قال: «الزينة الظاهرة: الوجه وكحل العين وخضاب الكف والخاتم، فهذا تظهره في بيتها لمن دخل عليها» - ثم قال صريحا -: «ولا يدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو عباؤهن أو أبنائهن أو أبنكأهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو إسيهن أو ما ملكت أيمتهن أو التبعين غير أولى الآرية من الرجال»، والزينة التي تبديها لهؤلاء الناس قُرطاهما وفلاذئها وسواراهما، فأما خلخالها ومغضدتها ونحرها وشعرها، فلا تبديها إلا لزوجها.

أخرجه البيهقي، عن علي، عن ابن عباس؛ وهو صحيح^(١). وصح عن ابن عباس أيضا لما ذكر المحارم: «الزينة التي تبديها لهؤلاء: قُرطاهما وفلاذئها وسواراهما، وأما خلخالها ومغضداتها ونحرها وشعرها، فإنها لا تبديها إلا لزوجها»؛ أخرجه ابن جرير، عن علي، عن ابن عباس^(٢).

وعلى هذا اتسق جميع تفسير ابن عباس وأقواله في كل أبواب الفقه؛ كالحج وآية الأحزاب، وفي آية القواعد (العجائز): ﴿فَلْيَسَّ

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩٤/٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٦٤/١٧).

عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ فِيَابَهُنَّ ﴿[النور: ٢٠] قَالَ: (الجلابيب)﴾^(١)، وهي التي على الشابة؛ كما صَحَّ عن ابن عباسٍ قوله: «أَمَرَ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بَيْوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ أَنْ يُعْطِينَ وَجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ بِالْجَلَابِيبِ، وَيُبْدِينَ عَيْنًا وَاحِدَةً»^(٢)، وَصَحَّ عَنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ: «تُذَلِّي الْجَلَابِبَ عَلَى وَجْهِهَا»^(٣).

وَجَمِيعُ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِينَ رَوَوْا عَنْهُمْ مَا يُشَابِهُ قَوْلَهُ - لَمْ يَكُونُوا يُسْأَلُونَ عَنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُمْ غَيْرُ وَارِدٍ؛ لَوْضُوحِهِ وَجَلَالِهِ، وَقَدْ كَانُوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْعَفَافِ وَالسَّتْرِ شَدِيدٍ، فَيُطْلِقُونَ إِطْلَاقًا لَا يَفْهَمُهَا مَنْ تَأَثَّرَ بِوَأَقِعِ السُّفُورِ وَالتَّعَرِّيِّ، حَتَّى أَصْبَحَتْ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَلَبَّسَ عِنْدَ الْأَجَانِبِ مَا لَا تَلَبَّسُهُ نِسَاءُ السَّلَفِ عِنْدَ أَيْبَاهَا وَأَخِيهَا وَابْنِهَا، وَمَنْ جَمَعَ أَقْوَالَ أَوْلِيكَ السَّلَفِ الْمَفْسِّرِينَ لِلزَّيْنَةِ مِنْ أَبْوَابِ السَّتْرِ وَالْعُورَاتِ، ظَهَرَ لَهُ مَرَادُهُمْ جَلِيًّا:

فَأَمَّا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَصَحَّ عَنْهُ أَنَّ تَخْفِيفَ اللَّهِ عَنِ الْقَوَاعِدِ (الْعَجُوزِ) هُوَ وَضْعُ (الْجَلَابِيبِ) فَقَطْ؛ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: لَا تَتَبَرَّجْنَ بِوَضْعِ الْجَلَابِيبِ أَنْ يُرَى مَا عَلَيْهَا مِنَ الزَّيْنَةِ^(٤)، وَالْجَلَابِيبُ هِيَ مَا يَسْتُرُ الْوَجْهَ عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي آيَةِ الْقَوَاعِدِ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٦٠]، وَآيَةُ الْأَحْزَابِ: ﴿يَذَرِكْنَ عَلَيْنَهُنَّ جُلَابِيَهُنَّ﴾ [٥٩]، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الرُّخْصَةُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ لِلْعَجُوزِ، فَهِيَ لَيْسَتْ رُخْصَةً لِلشَّابَّةِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِلْعَجُوزِ إِظْهَارُ شَعْرِهَا؛ حَكَى الْإِجْمَاعُ

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٣٦٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٦٤١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ١٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣١٥٤).

(٣) «معرفة السنن والآثار» للبيهقي (٤/ ٩)، و«مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود» (ص ١٥٤) مسألة (٧٣٢).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٦٤٢).

ابن حزم^(١) والجصاص^(٢).

وأما عطاء بن أبي رباح: فقد صح عنه تفضيلُه ستر الشعر عن المحارم؛ فقد قال في الرجل يرى من النساء ما يحرم عليه نكاحه: «رؤوسهن إن سترت أحب إلي، وإن رأى فلا بأس»؛ أخرجه ابن أبي شيبة، عن عبد الملك، عن عطاء^(٣)؛ وهو صحيح.

ثم إنه قد صح عن عطاء ما صح عن سعيد بن جبير في العجوز أنه تضع جلبابها، والجلباب ما على الوجه.

وأما مجاهد بن جبر: فصح عنه أنه لا يرى وضع الخمار عند المرأة الكافرة، فكيف يحمل قوله في الزينة الظاهرة: (الخاتم والكحل) أنها للرجال الأجانب مشركين ومسلمين؟! فقد روى ليث، عن مجاهد؛ قال: «لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة ولا تقبلها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ سَائِهْن﴾؛ فليس من نسائهن»؛ رواه البيهقي عنه^(٤)، ورواية ليث عن مجاهد كتاب ونسخة؛ ذكره ابن حبان.

وقد صح عن مجاهد كما صح عن سعيد بن جبير وعطاء في العجوز، وأن الله رخص لها بوضع جلبابها^(٥)، وهذه خصيصة العجوز عنده عن الشابة.

وأما قول عامر الشَّعْبِي: (الكحل والثياب)، وقول عكرمة مولى ابن عباس: (الوجه وتغرة النحر): فقد صح عنهما أنهما كانا ينهيان أن تضع المرأة خمارها عند عمها وخاليها؛ خلافاً لجمهور العلماء، فكيف

(١) «المحلى» (٣٢/١٠).

(٢) «أحكام القرآن» للجصاص (١٩٦/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٢٧٩).

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩٥/٧).

(٥) «تفسير الطبري» (٣٦٣/١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٠/٨).

يُحْمَلُ قَوْلُهُمَا فِي ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: أَنَّ الْمَرْأَةَ تُبْدِي وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا وَتُخْلِي لَهَا جَانِبَ الْأَبْعَدَيْنِ، وَهِيَ يُشَدَّدَانِ فِي الْمَحَارِمِ غَيْرِ الْمَذْكُورَيْنِ فِي الْآيَةِ؟ فَقَدْ رَوَى دَاوُدُ، عَنِ الشَّعْبِيِّ وَعِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ، ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا، قَالَا: «لَمْ يُذَكِّرِ الْعَمُّ وَالْخَالَ؛ لِأَنَّهُمَا يَنْعَتَانِ لِأَبْنَائِهِمَا، وَقَالَا: لَا تَضَعُ خِمَارَهَا عِنْدَ الْعَمِّ وَالْخَالَ؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ^(١) وَابْنُ جُرَيْرٍ^(٢) وَابْنُ الْمُنْذِرِ^(٣).

وَيَعْضُدُ هَذَا: مَا رَوَاهُ جَابِرٌ، عَنْ عَامِرٍ: «أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَعْرِ كُلِّ ذِي مَحْرَمٍ؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ^(٤).

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ صَحَّ عَنِ الشَّعْبِيِّ^(٥) مَا صَحَّ عَنْ ابْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ وَمَجَاهِدٍ فِي الْعَجُوزِ.

وَأَمَّا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فَإِنَّهُ لَا يَرَى أَنْ يَرَى الْأُخْ أخته بِلا خِمَارٍ عَلَى رَأْسِهَا؛ فَقَدْ صَحَّ عَنْ هِشَامٍ، عَنِ الْحَسَنِ؛ فِي الْمَرْأَةِ تَضَعُ خِمَارَهَا عِنْدَ أَخِيهَا؟ قَالَ: «وَاللَّهِ؛ مَا لَهَا ذَاكَ»؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ^(٦)؛ وَهُوَ صَحِيحٌ، وَهَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ يَقْصِدُ الْمَحَارِمَ، وَمَا كَانُوا يُسْأَلُونَ عَنْ غَيْرِ الْمَحَارِمِ، وَلَا يَقْصِدُونَ غَيْرَهُمْ؛ لِشِدَّةِ وَرَعِهِمْ.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ مِثْلُ مَا صَحَّ عَنْ ابْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ وَمَجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ فِي الْعَجُوزِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَصَّهَا بِوَضْعِ الْجِلْبَابِ^(٧).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٢٩٣).

(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (١٧٣/١٩). (٣) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (٤٧/٦).

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٢٨٢).

(٥) «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٣٦٣/١٧).

(٦) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٢٨١).

(٧) «تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٢٦٤١/٨).

وأما الضحّاك: فيدُلُّ على أنّه يتكلّم عن المجارِم، ما رواه مزاحمُ عنه أنّه قال: «لو دخلتُ على أمِّي، لقلتُ: غطي رأسك»؛ أخرجه ابنُ أبي شيبة^(١).

وأما قتادة: فصَحَّ عنه ما صحَّ عن ابنِ جُبَيْر وعطاءٍ ومجاهدٍ والشعبيِّ والحسنِ في العجوزِ^(٢).

وعلى هذا المعنى لم يخرج واحدٌ من أصحابِ ابنِ عباسٍ وغيرهم من التابعين؛ فقد روى عكرمةُ وأبو صالح: أنَّ الزينةَ الظاهرةَ (الدُّرْعُ)^(٣)، والدُّرْعُ: ثوبُ البيتِ لا ثوبُ الخروجِ؛ كما هو معروفٌ؛ لأنَّ الدرْعَ يَظْهَرُ معه الشَّعْرُ والنَّحْرُ، وهو محرَّمٌ بالإجماع.

وصحَّ عن طاوُسٍ: «ما كان أَكْرَهَ إليه من أن يَرى عَوْرَةً من ذاتِ محرَّم، قال: وكان يَكْرَهُ أن تَسْلَخَ خِمَارَها عنده»؛ رواه عبدُ الرزاق، عن ابنِ طاوُسٍ، عن أبيه^(٤)؛ وهو صحيح.

وأما عبدُ الله بنُ عمر: فإنَّه قد صحَّ عنه أنّه جعلَ ما استثناهُ الله للعجوزِ أن تكشفهُ هو جِلْبَابُها^(٥)، ويتفقُ العلماءُ أنَّ لا خصيصةَ للعجوزِ في ذلك، فبقيَ جلبابُ الوجوهِ على الشَّابَّةِ، ولا يليقُ بفقهِ الصحابةِ ولا بعقولهم وفهمهم ضربُ أقوالهم في البابِ البينِ الواضح؛ كحجابِ المرأةِ ولياسيها.

وعلى هذا يؤيِّدُ البيهقيُّ في «سُنَّته»؛ فقد ترجمَ على تفسيرِ ابنِ عباسٍ لقوله تعالى: «وَلَا يَبْيِغْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا»؛ فقال: «بابُ ما

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٢٨١).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤١/٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٠٠٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٨٣١).

(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٠/٨)، و (٢٦٤١).

تُبْدِي الْمَرْأَةُ مِنْ زِينَتِهَا لِلْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ مِنْ مَحَارِمِهَا، ثُمَّ أوردَ قولَ ابنِ عَبَّاسٍ الَّذِي فِيهِ: وَالزَّيْنَةُ الظَّاهِرَةُ: الْوَجْهُ وَكُحْلُ الْعَيْنِ وَخِصَابُ الْكَفِّ وَالخَاتَمُ، فَهَذَا تُظَاهِرُهُ فِي بَيْتِهَا لَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهَا^(١).

وَنَصَّ عَلَى هَذَا ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، فَجَعَلَ كَشْفَ الزَّيْنَةِ وَإِظْهَارَهَا لِلْمَحَارِمِ لَا لِلْأَجَانِبِ، فَقَالَ: «إِنَّ ذَوِي الْمَحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ وَالرِّضَاعِ لَا يُحْتَجَبُ مِنْهُمْ وَلَا يُسْتَتَرُ عَنْهُمْ إِلَّا الْعَوْرَاتُ، وَالْمَرْأَةُ فِيمَا عَدَا وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا عَوْرَةٌ»^(٢).

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى تَفْسِيرِ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ، وَجَدَ أَنَّهُ يَتطَابَقُ مَعَ هَذَا الْمَعْنَى وَيُؤَافِقُهُ؛ كَمَا صَحَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ الزَّيْنَةَ الظَّاهِرَةَ (الْثِيَابُ)^(٣)؛ وَعَلَى هَذَا جَمِيعُ أَصْحَابِهِ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعِرَاقِيِّينَ؛ كَأَبِي الْأَحْوَصِ وَالنَّخَعِيِّ وَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَقَالَ بِهِ مُجَاهِدٌ^(٤)، وَمَرَادُهُ بِالثِّيَابِ الَّتِي تَكُونُ تَحْتَ الْجِلْبَابِ مِمَّا عَلَى الثِّيَابِ الدَّاخِلِيَّةِ مِنْ زَخْرَفَةٍ وَزِينَةٍ، فَالْجِلْبَابُ يَسْتُرُ زِينَةَ الْمَلَابِسِ الدَّاخِلِيَّةِ، فَلِلْمَحَارِمِ رُؤْيَا ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الزَّيْنَةَ تَكُونُ بِالثِّيَابِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ يَعْنِي: زِينَةَ ثِيَابِكُمْ؛ وَبِهَذَا فَسَّرَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيُّ قَوْلَ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ فَقَدْ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لَمَّا رَوَى تَفْسِيرَ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْهُ^(٥).

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ فِقْهَ السَّلَفِ فِي غَيْرِ التَّفْسِيرِ فِي بَقِيَّةِ أَبْوَابِ السُّتْرِ وَالنَّظَرِ دَالٌّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ فَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ قَوْلُهُ:

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩٤/٧). (٢) «التمهيد» (٢٣٦/٨).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٥٦/١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٥٧٣/٨).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٥٧٤/٨). (٥) «تفسير الطبري» (٢٥٧/١٧).

«لا بأس أن ينظر الرجل إلى قُصَّةِ المرأة من تحتِ الخِمَارِ إذا كان ذا مَحْرَمٍ، فأما أن تَسْلَخَ خِمَارَهَا عنده، فلا»^(١).

وعن الزُّهْرِيُّ أيضًا في المرأة تَسْلَخُ خِمَارَهَا عندَ ذي مَحْرَمٍ، قال: «أما أن يرى الشيء من دونِ الخِمَارِ، فلا بأس، وأما أن تَسْلَخَ الخِمَارَ، فلا»؛ أخرجه عبدُ الرزاقِ، عن مَعْمَرٍ، عنه^(٢)؛ وهو صحيح.

ومن جمَعَ أقوالَ السلف في جميع الأبواب، ونظرَ فيها في سباقٍ واحدٍ، أدركَ حَجْمَ وَرَعَهُم وتحفُّظَ نَسَائِهِم، وأدركَ أَنَّهُم يَدُورُونَ في دائرةٍ أخرى من العِفَّةِ والاحتياطِ على غيرِ ما يَحْمِلُهُ كثيرٌ من الكتابِ عنهم، فإنَّهُم لا يُريدونَ من معنى الزينة التي تتعلَّقُ بالوجهِ وما حوله للأجانبِ الأبعدين، وهم لا يختلفونَ في جوازِ كشفِ المرأةِ لوجهها للأقربين، ولا يخوضونَ في ذلك؛ وإنَّما يذكرونَ الوجهَ اختصارًا لإجازةِ زينتهِ تبعًا من الكُحْلِ والقرطِ والخِصَابِ، ويذكرونَ اليدَ اختصارًا ليدخلَ فيها زينتها من الخاتمِ والخِصَابِ والسَّوَارِ، ولا يَغْنُونَ الوجهَ بذاته، ومن نظرَ في مجموعِ تفسيرهم، أدركَ ذلك يقينًا.

الوجهُ الثالثُ: أن الله رَخَّصَ للقواعدِ أن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ، فقال: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]، وقد اتَّفَقَ المفسِّرونَ من الصحابةِ والتابعينَ: أن الثيابَ التي رَخَّصَ اللهُ بها للعجوزِ هي (الجلابيبُ)؛ جاء ذلك بسندٍ صحيحٍ عن ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وابنِ عمرَ والشَّعْبِيِّ وابنِ جُبَيْرٍ والحسنِ ومجاهدٍ وعطاءٍ وعكرمةَ وقتادةَ وغيرهم، وهؤلاء كلُّهم لهم تفسيرٌ للزينة؛ كما تقدَّم

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٨٢٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٨٣٠).

أنها: «الزينة الظاهرة»، واتفقوا هنا على أن ما تختص به العجوز عن الشابة رفع الجلابب فقط، والجلابب هي ما تختص بستر الوجه من بشرة الجسم، وتكون فوق بقية الثياب ثوباً على ثوب، فالجلابب فوق الخمار، ويدل على أن الجلابب ما كانت تستر الوجوه للشابة جملة من تفسير أفصح الناس وأقربهم إلى الوحي، وهم الصحابة والتابعون:

منها: قول عائشة: «تسد المرأة جلبابها من فوق رأسها على وجهها»؛ أخرجه سعيد بن منصور بسند صحيح^(١)، وقولها في «الصحيحين»: «فَحَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي»^(٢).

ومنها: قول ابن عباس: «تدلي الجلابب على وجهها»؛ أخرجه أبو داود في «المسائل» بسند صحيح^(٣)، وقوله: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يعطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويدين عينا واحدة»؛ رواه ابن جرير بسند صحيح^(٤).

ومنها: ما رواه عاصم الأحول؛ قال: كنا ندخل على حفصة بنت سيرين، وقد جعلت الجلابب هكذا، وتقفت به، فنقول لها: رجمك الله! قال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجِينَ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]، وهو الجلابب؟ قال: فتقول لنا: أي شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠]، فتقول: هو إثبات الجلابب^(٥).

وإذا اتفق الصحابة على أن رخصة النساء العجائز وضع الجلابب، وكشف الوجه من غير زينة، فماذا يُجْلَوْنَ للمرأة الشابة أمام الأجانب؟!

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٤٠٦/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٣) سبق تخريجه. (٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩٣/٧).

وقد حكى الإجماع غير واحد من العلماء على أنه لا يجوز للعجوز أن تكشف شعرها للأجانب مهما بلغ سنّها؛ حكى الإجماع ابن حزم^(١)، والجصاص^(٢)، وغيرهما، فشعر العجوز عورة للأجانب كشعر الشابة بلا خلاف.

وإذا كان تفسير ابن عمر وابن عباس وابن جبير وعكرمة والحسن والشعبي والضحاك ومجاهد وقتادة الآية: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: أنها الوجه والكفان ويراد بها للأجانب، فما الفائدة من نزول آية القواعد، والترخيص لها بالجلاب؟

الوجه الرابع: أن الله نهى عن إظهار الزينة بقوله: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، ثم أراد أن يبين المعنيين بالإظهار مفضلاً لمراتبهم بحسب قربهم، فقال: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِعُورِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانُ بُعُولِهِنَّ أَوْ إِسَاءَتَهُنَّ﴾ الآية، وقد يستشكل البعض ذكر الزوج مع أنه لا يستثنى دونه شيء، وإنما ذكر مع غيره من المحارم من باب حصر المعنيين؛ حتى لا يُظن أن الخطاب للأبعدين، وليس المراد أن الزينة له كالزينة لغيره؛ ولذا بدأ به للخصوصية، فالمفسرون يعلمون اختلاف مراتب المذكورين؛ روى ابن وهب، عن ابن زيد؛ قال: «والزوج له فضل، والآباء من وراء الرجل لهم فضل، قال: والآخرون يتفاضلون، قال: وهذا كله يجمعه ما ظهر من الزينة»؛ أخرجه ابن جرير^(٣).

فقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «وهذا كله يجمعه ما ظهر من

(١) «المحلى» (٣٢/١٠).

(٢) «أحكام القرآن للجصاص» (١٩٦/٥). (٣) «تفسير الطبري» (١٧٤/١٩).

الزينة»؛ يعني: أَنَّ المذكورين هم المحارم، وهم المعنيون بقوله قبل ذلك: ﴿وَلَا يَدْرِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وليس الأجانب، فذكروا للبيان والإيضاح، والزوج له فضل على الجميع وخصوصية؛ كما قاله ابن زيد.

التدرُّج في فرضِ الحِجابِ:

يلهت بعضُ المفسرين: أَنَّ الحِجابَ لم يُفرضْ جُمْلَةً واحدة؛ وإنما جاء متدرِّجاً، فأوَّلُ ما نَزَلَ وذكِرَ فيه عمومُ المؤمنات: آياتُ النورِ، ثم آياتُ سورة الأحزاب، ومن هؤلاء ابنُ جريرِ الطبريُّ وأبو بكرِ الجصاصُ وابنُ تيميةَ وغيرهم، وهؤلاء يتفقون مع غيرهم في الغاية والنهائية التي استقرَّ عليها الحُكْمُ، وإن اختلفوا مع غيرهم في المراحل.

وكثيرٌ ممن ينظرُ في كتبِ المفسرينَ فينبظرُ في سورةِ النورِ فيراهم ينقلون كلامَ السلفِ في الزينةِ الظاهرةِ بإجمالٍ، ثم يعلّقون أولئك الأئمةَ في سورةِ النورِ وينصّون على جوازِ كشفِ المرأةِ لوجهها وكفّيها، ولو نظروا في كلامهم في سورةِ الأحزاب، لوجدوا أنهم يَمنعون، وليس هذا اضطراراً ولا قولين؛ فالمؤلفُ واحدٌ، والكتابُ واحدٌ؛ وإنما لأنهم يرونَ تقدّمَ آيةِ الحِجابِ من سورةِ النورِ على آيةِ الحِجابِ من سورةِ الأحزاب، فيفسرونَ كلَّ موضعٍ بحسبِ ما فهموه في موضعه، ومن جهلَ المتقدّمَ والمتأخّرَ من السورِ عندَ الأئمةِ، لم يفهم مَقاصدَ القرآنِ وأحكامه عندَ المفسرينَ:

قال ابنُ جريرِ الطبريُّ في سورةِ الأحزاب: «لَا يَتَشَبَّهْنَ بِالْإِمَاءِ فِي لِبَاسِهِنَّ إِذَا هُنَّ خَرَجْنَ مِنْ بَيْوتِهِنَّ لِحَاجَتِهِنَّ، فَكَشَفْنَ شُعُورَهُنَّ وَوُجُوهَهُنَّ، وَلَكِنْ لِيُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ»^(١)، وذكرَ تفسيرَ السلفِ

لتغطية الوجه بالجلابيب، وهكذا فسر آية القواعد في سورة الأحزاب.
وقوله هنا في سورة النور بأن المرأة تُبدي وجهها يحكي المرحلة الأولى من فرض الحجاب، وآية الأحزاب بعدها.

وابن جرير إمام بصير ينقل أقوال السلف في الموضع ويبيّنه، ولو كانت الآية في حكم سابق، ثم تبعته آيات تزيد عليه في الحكم، فيذكر عند كل آيات حكمها، وهذا له نظائر كثيرة في «تفسيره».

وهكذا الإمام الجصاص ذكر معنى ما ذكره ابن جرير في آية النور؛ لأنها سابقة، ثم في آية الأحزاب المتأخرة قال: «في هذه الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنيين، وإظهار الستر والعفاف عند الخروج»^(١).

وهكذا كثير من المفسرين؛ يفسرون آية النور على حال سابقة؛ كما جاء عن ابن جرير، ثم ينصون صراحة على منع المرأة من كشف وجهها عند آية الأحزاب، ومن هؤلاء المفسرين: أبو الليث نصر السمرقندي الحنفي في «تفسيره»^(٢)، وأبو عبد الله بن أبي زَمِين^(٣)، والثعلبي^(٤)، والكيّ الهراشي^(٥)، والزمخشري^(٦)، والعز بن عبد السلام^(٧)، والبيضاوي^(٨)، والنسفي^(٩)، وابن جزي^(١٠)، والشبوطي^(١١)، والبقاعي^(١٢)، وأبو السعود^(١٣) وغيرهم.

(١) «أحكام القرآن» للجصاص (٢٤٥/٥). (٢) «تفسير السمرقندي» (٧٠/٣).

(٣) «تفسير القرآن العزيز» (٤١٢/٣). (٤) «تفسير الثعلبي» (٦٤/٨).

(٥) «أحكام القرآن» للكيّ الهراشي (٣٥٠/٤).

(٦) «تفسير الزمخشري» (٥٦٩/٣).

(٧) «تفسير العز بن عبد السلام» (٥٩٠/٢).

(٨) «تفسير البيضاوي» (٢٣٨/٤). (٩) «تفسير النسفي» (٤٥/٣).

(١٠) «تفسير ابن جزي» (١٥٩/٢). (١١) «تفسير الجلالين» (ص ٥٦٠).

(١٢) «نظم الدرر» (١٣٥/٦). (١٣) «تفسير أبي السعود» (١١٥/٧).

وكثيرٌ ممَّن ينقلُ أقوالَهُم السابقةَ في إبداءِ الزينةِ الظاهرةِ يُهملُ أقوالَهُم المُحكَّمةَ في سورةِ الأحزابِ، التي نزلتْ بعدَ ذلك. وسواءٌ قيل: إنَّ الحِجَابَ نَزَلَ متدرِّجًا أم نَزَلَ مرةً واحدةً وتنوَّعتْ نصوصُ القرآنِ في الخِطَابِ، فالغايةُ واحدةٌ، وهو ما ظهرَ في جميعِ الآياتِ وتجلَّى صريحًا في سورةِ الأحزابِ.

ومَن لم يَعْرِفْ أَزمنةَ نزولِ آياتِ الحِجَابِ، ولم يَجْمَعْ أقوالَ الصحابةِ في آياتِ الحِجَابِ والسُّرِّ بعضُها إلى بعضٍ، ولم يَنْظُرْ في مذاهِبِهِم فيما تعلَّقَ ببابِ لباسِ المرأةِ وسترِها وحِجَابِها - أشكَلَ عليه ذلك، وضربَ بعضُها ببعضٍ على ما تقدَّم بيَّانه؛ فأياتُ الحِجَابِ في سورةِ النورِ والأحزابِ لم تَنَزَلْ دَفْعَةً واحدةً، وأقوالُ الصحابةِ في التفسيرِ تتنوعُ حسبَ الحالاتِ والمواضعِ، ولا تتعارضُ، ومِن بابِ أولى أقوالُ الصحابيِّ في المسألةِ الواحدةِ؛ كما تقدَّم؛ وقد بَسَطْنَا أحكامَ لباسِ المرأةِ وحِجَابِها في كتابِ «الحِجَابِ في الشَّرْعِ والفِطْرةِ؛ بين الدليلِ، والقولِ الدَّخيلِ».

* * *

﴿قَالَ نَعَالِي: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

أَمَرَ اللَّهُ الْأَوْلِيَاءَ بِتَزْوِيجِ الْأَيَامَى؛ يَعْنِي: مَنْ لَا زَوْجَ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، الْأَحْرَارِ وَالْعَبِيدِ.

حُكْمُ تَزْوِيجِ الْأَيَامَى:

وَالْأَمْرُ فِي الْآيَةِ ظَاهِرُهُ الْوَجُوبُ؛ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْوَلِيِّ تَزْوِيجُ بَنْتِهِ إِنْ جَاءَهَا مَنْ يَرْضَى دِينَهُ وَخُلُقَهُ، وَإِنْ مَنَعَهَا مِنْ ذَلِكَ بِلَا مَوْجِبٍ شَرْعِيٍّ، فَمَنَعُهُ عَظْلٌ مُحَرَّمٌ، وَفِتْنَةٌ لَهُ وَلِهَا وَلِمَنْ خَطَبَهَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَمْ

يُزَوِّجُهُ، وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ، فَرُزَّجُوهُ؛ إِلَّا تَفْعَلُوا، تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيسٌ)^(١).

وَذَكَرُ الْفِتْنَةَ وَالْفَسَادَ الْعَرِيسَ فِي تَرْكِ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى وَجوبِ الْفِعْلِ، وَالْفِتْنَةُ الْمَذْكُورَةُ خَاصَّةٌ وَعَامَّةٌ:

أَمَّا الْفِتْنَةُ الْخَاصَّةُ: فَفِتْنَةُ الْخَاطِبِ وَالْمَخْطُوبِ فِي دِينِهِ عِنْدَ تَأْخُرِ تَزْوِيجِهِ، بَأَن يَتَعَرَّضَ لِلْحَرَامِ نَظَرًا أَوْ قَوْلًا أَوْ لَمْسًا أَوْ مُقَارَفَةً، وَفِتْنَةٌ لِلْوَلِيِّ بِالْحَاقِ إِثْمَ الْعِضْلِ بِهِ، أَوْ الدَّعَاءِ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْفِتْنَةُ الْعَامَّةُ: فَإِنَّ النَّاسَ إِنْ عَظَّلُوا إِحْصَانَ نَسَائِهِمْ وَرَجَالِهِمْ، فَتَحَتْ أَبْوَابَ الْحَرَامِ وَالتَّعَدَّى عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَشَاعَتِ الْفَاحِشَةُ، وَتَبِعَتْهَا عَقُوبَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا بِأَنْوَاعِهَا، فَتَنَشَأُ الْمَخَالَفَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ خَاصَّةً ثُمَّ تَكُونُ عَامَّةً، وَأَوَّلُ أَسْبَابِ فَتْحِ الْحَرَامِ يَكُونُ بِإِغْلَاقِ أَبْوَابِ الْحَلَالِ؛ فَاللَّهُ لَمْ يَخْلُقْ فِي النَّاسِ مَيْلًا إِلَى شَيْءٍ إِلَّا وَجَعَلَ فِي الْحَلَالِ مِنْهُ كِفَايَةً وَسَعَةً بِمَا يُغْنِيهِمْ عَنْ فَتْحِ أَبْوَابِ الْحَرَامِ، وَفَتَحَ أَبْوَابَ الْوُطْءِ وَحَدَّثَهَا وَجَعَلَ الْحَرَامَ مِنْهُ فِتْنَةً؛ اخْتِبَارًا وَابْتِلَاءً لِعِبَادِهِ، وَكَلَّمَا أَغْلَقَ بَابَ مِنَ الْحَلَالِ، قَابَلَهُ بَابٌ مِنَ الْحَرَامِ يُفْتَحُ، فَإِذَا وَجَدَتْ النَّاسَ قَدْ كَثُرُوا عَلَى الْحَرَامِ، فَابْحَثَ عَنْ أَبْوَابٍ مِنَ الْحَلَالِ مَغْلُوقَةٍ.

وَقَدْ تُغْلَقُ أَبْوَابُ الْحَلَالِ فِي النِّكَاحِ بِعِضْلِ الْفَتَيَاتِ، أَوْ غِلَاءِ الْمَهْرِ، أَوْ مَنَعِ التَّعَلُّدِ، وَثَمَّةَ دَوَافِعَ لِلْحَرَامِ كَالْتَعَرِّي وَالسُّفُورِ وَإِطْلَاقِ الْبَصَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَتَلِكُ دَوَافِعُ لِلْحَرَامِ، كَمَا لِلْحَلَالِ دَوَافِعُهُ؛ كَالْعَفَافِ وَالْحِجَابِ وَحِفْظِ الْبَصَرِ، وَكُلُّ دَافِعٍ حَرَامٍ يُقَابِلُهُ مِثْلُهُ فِي الْحَلَالِ.

وَقَدْ جَاءَ الْأَمْرُ فِي السُّنَّةِ لِلشَّبَابِ، كَمَا جَاءَ الْأَمْرُ فِي الْقُرْآنِ لِلْأَوْلِيَاءِ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (١٠٨٤)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٩٦٧).

أَنَّهُ قَالَ: (بِمَا مَعَشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ، فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَلَعَلَّهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ)^(١).

وَمَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى حِفْظِ نَفْسِهِ مِنَ الْحَرَامِ وَلَا يَدْفَعُهُ عَنْهُ إِلَّا النِّكَاحُ، فَإِنَّ النِّكَاحَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ بِلَا خِلَافٍ.

وَالخِطَابُ فِي الْآيَةِ تَوَجُّهُ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَكُونُ أَمْرُ الْبَنَاتِ، وَالنَّفْعُ مُتَبَادِلٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَكَأَنَّ الْوَلِيَّ وَهُوَ يُزَوِّجُ ابْنَتَهُ لِمُسْلِمٍ فَهُوَ يُعِينُ الْاِثْنَيْنِ فِي التَّزْوِيجِ وَالْإِحْصَانِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أَنَّ نِكَاحَ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ لَا يَصَحُّ إِلَّا بِإِذْنِ سَيِّدِهِ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (إِذَا نَكَحَ الْعَبْدُ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ، فَنِكَاحُهُ بَاطِلٌ)^(٢)، وَعَنْ جَابِرٍ بِنَحْوِهِ^(٣)؛ رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُدَ، وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى هَذَا غَيْرُ وَاحِدٍ؛ كَابْنِ الْمُنْذِرِ^(٤) وَغَيْرِهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى شَرْطِ الْوَلِيِّ لِلْحُرَّةِ فِي النِّكَاحِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغِنَى وَالْكَفَايَةِ الزَّوْاجُ، فَلَا يَمْنَعُ الْفَقِيرَ فَقْرُهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ؛ فَاللَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ تَكَفَّلَ بِرِزْقِ أَهْلِهِ فِيهِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يُبْتَلَوْنَ بِضَعْفِ الْيَقِينِ، فَيُؤْكَلُونَ إِلَى ظَنِّهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَاللَّهُ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ.

* * *

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٦٥)، وَمُسْلِمٌ (١٤٠٠).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٠٧٩).

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٠١/٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢٠٧٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١١١١).

(٤) «الإشراف على مذاهب العلماء» لابن المنذر (١٤١/٥).

❏ قال تعالى: ﴿وَلِاسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ عَلَى الْإِثْلَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَفْسًا لِنَبْتَلِئَا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

أمر الله مَنْ لم يجد قدرةً على النكاح؛ كَمَْنْ لا يجد مهرًا يُنفقه، ولا دارًا تُؤويه: أَنْ يَسْتَعِفَّ بِسَعْيِهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ بالكسبِ حتى يُغْنِيَهُ الله من فضله، وفي هذا أمرٌ بالأخذ بالأسبابِ حتى لا يتواكَل الناسُ.

وقد أمر الله مَنْ لم يجد مالا يتزوَّج به أَنْ يتكسَّب، ولم يأمره بالترهُّبِ والتخلِّي للعبادة والانتقطاع لها؛ لأنَّ النكاحَ سُنَّةُ الإنسانِ وفِطْرَةُ الحيوانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: فيه مشروعيةُ مُكَاتَبَةِ المَوالِي إِنْ أَرَادُواها وفيهم قدرةٌ على الوفاء، فَمَنْ رَغِبَ مِنَ العبيدِ في المُكَاتَبَةِ لإعتاقِ نفسه، فيُكَاتَبُ إِنْ ظَهَرَتْ قُدْرَتُهُ على الوفاء وحُسْنُ قصده.

والجمهورُ على أَنَّ المُكَاتَبَةَ للاستحبابِ لا للوجوبِ، وهو الأظهرُ، ومنهم مَنْ جعلَ المُكَاتَبَةَ واجبةً، وهذا رُوي عن عطاءٍ وأبي حنيفة؛ وبه يقولُ أهلُ الظاهرِ.

والذي عليه الجمهورُ: أَنَّ الخَيْرَ في الآيةِ هو المالُ، وصحَّ هذا عن عطاءٍ^(١) ومجاهدٍ.

قال مجاهدٌ: «إِنْ عَلِمْتُمْ لَهُمْ مَالًا، كائنةً أخلاقُهُمْ وأدبائُهُمْ ما كانت»^(٢).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/٢٨١).

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٢٨٢).

وفي هذا أنَّ مَنْ لَا حِرْفَةَ لَهُ وَلَا كَسْبَ يُحْسِنُهُ: أَنَّ الْأَفْضَلَ عَدَمُ مَكَاتِبِهِ؛ حَتَّى لَا يَعْدَ وَلَا يَقْبَى، وَرَبَّمَا أَصَابَ الْمَالُ بِحَرَامٍ؛ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ مُطَالَبَتِهِ، وَلَوْ كَاتَبَ مَنْ لَا كَسْبَ لَهُ، جَازَ، كَمَا كَاتَبَ أَهْلُ بَرِيرَةَ بَرِيرَةُ وَلَا كَسْبَ لَهَا، وَقَدْ جَاءَتْ إِلَى عَائِشَةَ تَطْلُبُ الْعَوْنَ^(١).

وَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إِعَانَتُهُمْ بِالتَّخْفِيفِ عَنْهُمْ بِإِسْقَاطِ بَعْضِ الْمَكَاتِبِ، وَقَدْ كَاتَبَ عُمَرُ وَابْنُهُ وَابْنُ عَبَّاسٍ عَيْدًا، وَوَضَعُوا عَنْهُمْ شَيْئًا مِنْ مَكَاتِبِهِمْ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُدْخِلُونَهَا يُدْخِلُونَهَا بِالْأَصْلَابِ﴾ [النور: ٣٦].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: فَضْلُ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَتَشْيِيدِهَا، وَرَفْعُهَا وَإِبْرَازِهَا؛ لِيَرَاهَا النَّاسُ؛ فَيَقْصِدُوهَا لِلْعِبَادَةِ مِنْ صَلَاةٍ وَاعْتِكَافٍ وَذِكْرِ. وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: «هِيَ الْمَسَاجِدُ يُكْرِمُونَهَا»، وَنَهَى عَنِ اللَّغْوِ فِيهَا^(٢).

وَصَحَّ هَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا^(٣). وَمِنَ السَّلَفِ: مَنْ حَمَلَ الْبُيُوتَ عَلَى مَسَاكِنِ النَّاسِ عَامَّةً؛ كَعُكْرِمَةَ^(٤)، وَجَعَلَ فِي ذَلِكَ مَشْرُوعِيَّةً ذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا وَعَمَارَتَهَا بِطَاعَتِهِ. وَمِنْهُمْ: مَنْ خَصَّهَا بِبُيُوتِ النَّبِيِّ ﷺ^(٥).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥٦١)، وَمُسْلِمٌ (١٥٠٤).

(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٣١٦/١٧)، وَتَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٢٦٠٤/٨).

(٣) «تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٢٦٠٥/٨).

(٤) «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٣١٧/١٧)، وَتَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٢٦٠٥/٨).

(٥) «تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٢٦٠٤/٨).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعُ﴾ الأصل فيه أنه رفع معنوي بالذكر والعبادة، وتنزيها عن اللغو والنجس.

وقد تقدم الكلام على عمارة المساجد وتشبيدها وبنائها عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْفُؤَادِ وَالْأَصْوَالِ﴾؛ يعني: الصلاة فيها بكرة وعشيا، فالتسبيح هنا الصلاة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّهْيِ وَالْإِنْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]، ويُشرع في هذا الوقت الذكر والصلاة؛ ففيه مع صلاة الصبح وصلاة العشي أذكاء الصباح وأذكاء المساء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُؤَادِ وَالْأَصْوَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

* * *

قال تعالى: ﴿رَبِّاجِلْ لَا تُلْهِمِهِمْ تَحَضُّرًا وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ أَهْلِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [النور: ٣٧].

ذكر الله التجارة وعدّها من العوارض التي لا تُلْهي أهل الإيمان؛ إشارة إلى أنها من أكثر ما يُلْهي غيرهم؛ وذلك لما للمال من فتنة وجاء ومتعة.

ترك الأسواق والبيع وقت الصلاة:

قوله تعالى: ﴿تَحَضُّرًا وَلَا بَيْعَ﴾ ذكر الله البيع بعد ذكره التجارة مع أن التجارة بيع وشراء فلا يدور مال التاجر إلا بهما؛ لأن المقصود أهل البيع، وهم الباعة، وأهل المتاجر، وفي ذكر (البيع) في الآية مقاصد وحكم أظهرها - والله أعلم :-

أولاً: أَنَّ الفتنَةَ والشُّغْلَ بالبيعِ أَكْثَرُ مِنَ الفتنَةِ بالشُّرَاءِ؛ فَإِنَّ ذَهْنَ مَنْ يَبِيعُ سِلْعَةً يَنْشُغِلُ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّنْ يَبْحَثُ عَنْ سِلْعَةٍ يَشْتَرِيهَا، وَالْبَائِعُ يَهْتَمُّ بِتَدْوِيرِ مَالِهِ، بِخِلَافِ الْمُشْتَرِي، فغالبًا النَّاسُ تَشْتَرِي لِتَسْتَهْلِكَ، وَالْبَائِعُ يَبِيعُ سِلْعَتَهُ لِيشْتَرِيَ مِثْلَهَا وَيَبِيعَهُ وَيَتَكَسَّبَ.

ثانيًا: أَنَّ المقصودَ بها أَهْلُ الحَوَانِيتِ والدكاكينِ والمَتَاجِرِ، وهؤلاءُ يَبِيعُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَشْتَرُونَ، وَالْبَائِعُ ثَابِتٌ وَالْمُشْتَرِي عَابِرٌ، وَالتَّاجِرُ فِي مَتَجَرِّهِ يَشْغَلُهُ الْبَيْعُ أَكْثَرَ مِنَ الشُّرَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَشْتَرِي الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مَرَّةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَبِيعُهُ مُجَزَّأً، فَيَعْرِضُونَ سِلْعَتَهُمْ لِلنَّاسِ طَوْلَ الْيَوْمِ، وَهَذَا خِطَابٌ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ سَمِعُوا النِّدَاءَ لِلصَّلَاةِ أَنْ يُجِيبُوا، وَلَا تَشْغَلَهُمْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَسْوَاقُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ.

ثالثًا: أَنَّ الْبَائِعَ يَتَحَكَّمُ فِي السِّلْعَةِ وَالسُّوقِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُشْتَرِي، وَالْبَائِعُ أَقْدَرُ عَلَى حِرْمَانِ الْمُشْتَرِي مِنَ الْإِنْتِفَاعِ مِنَ السِّلْعَةِ، وَهُوَ يَتِمَكَّنُ مِنَ الْإِحْتِكَارِ وَالتَّسْعِيرِ وَالْإِضْرَارِ بِالسُّوقِ وَالنَّاسِ.

رابعًا: أَنَّ الْبَائِعَ غَالِبًا تَاجِرٌ، وَأَمَّا الْمُشْتَرِي فَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُحْتَاجًا وَرَبِّمَا فَقِيرًا؛ فَهُوَ يَشْتَرِي لِإِنْتِفَاعِهِ لِنَفْسِهِ.

أَمْرُ النَّاسِ وَأَهْلِ الْأَسْوَاقِ بِالصَّلَاةِ:

وَيُظْهَرُ مِنْ هَذَا تَعْظِيمُ قَدْرِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَتَأْكِيدُ تَرْكِ الْأَسْوَاقِ لَهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي تَرْكِ أَهْلِ الْأَسْوَاقِ أَسْوَاقَهُمْ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْجَمَاعَةِ عِنْدَ التَّقَاءِ الصَّغِيرِ فِي الْقِتَالِ؛ فَكَيْفَ لَا يُؤْمَرُ بِهَا عِنْدَ التَّقَاءِ الْمُبَاحِ عِنْدَ الْأَسْوَاقِ؟

وَلَمْ تَكُنِ الْأَسْوَاقُ تُفْتَحُ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ الْأَذَانِ تَعْظِيمًا لِهَذِهِ الشَّعِيرَةِ؛ فَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي «تَفْسِيرِهِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنه)؛ هَالِ، «رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ بِحِجْرَةٍ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»: كَانُوا رِجَالًا لَا يَتَنَبَّهُونَ مِنْ

فَضَّلَ اللَّهُ يَشْتَرُونَ وَيَبِيعُونَ، فَإِذَا سَمِعُوا النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ، أَلْقُوا مَا بَأْيَدِهِمْ وَقَامُوا إِلَى الْمَسَاجِدِ فَصَلُّوا»^(١).

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: «عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ»^(٢).

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍ: «أَنَّهُ كَانَ فِي السُّوقِ فَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَأَغْلَقُوا حَوَانِيَتَهُمْ، ثُمَّ دَخَلُوا الْمَسْجِدَ، فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍ: فِيهِمْ نَزَلَتْ ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ صَخْرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾»^(٣).

وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: «أَنَّهُ رَأَى نَاسًا مِنْ أَهْلِ السُّوقِ سَمِعُوا الْأَذَانَ، فَتَرَكُوا أَمْتَعَتَهُمْ وَقَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ: ﴿لَا تُلْهِيمُ صَخْرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾»^(٤).

وَكَانَ هَدْيُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - تَنْبِيَهُ النَّاسَ فِي الطَّرِيقِ وَإِقَامَتَهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، وَأَلَّا يَكِلَهُمْ إِلَى إِيْمَانِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ، وَلَا إِلَى سَمَاعِهِمُ النِّدَاءَ؛ كَمَا جَاءَ عَنْ مُسْلِمٍ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَكَانَ لَا يَمُرُّ بِرَجُلٍ إِلَّا نَادَاهُ بِالصَّلَاةِ أَوْ حَرَّكَهُ بِرَجْلِهِ»؛ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٥).

وَرُوِيَ هَذَا فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ بِمَعْنَاهُ؛ فَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»،

(١) «الدر المنثور» (١١/٨٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/٣٢٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٦٠٨).

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٢/٦١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٦٠٧)، و«الدر المنثور» (١١/٨٥).

(٤) تكملة كتاب «التفسير من سنن سعيد بن منصور» (٦/٤٥٠)، و«تفسير الطبري» (١٧/٣٢٢).

(٥) أخرجه أبو داود (١٢٦٤).

عن عبد الله بن طهفة؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ، جَعَلَ يُوقِظُ النَّاسَ: (الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ) ^(١).

وقد كانتِ الأسواقُ في زمنِ النبي ﷺ تُفْتَحُ مع صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَبَيْنَ بَعْضِ الصَّحَابَةِ خَطُورَةُ التَّخَلُّفِ عَنِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْأَسْوَاقِ قَبْلَهَا؛ فَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «الْوَحْدَانِ»، وَمِنْ طَرِيقِهِ أَبُو نَعِيمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنْ مِثْمَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: «يَعْتَدُو الْمَلَكُ بَرَايَتِهِ مَعَ أَوَّلِ مَنْ يَغْدُو إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلَا يَزَالُ بِهَا مَعَهُ حَتَّى يَرْجِعَ فَيَدْخُلَ بَابَ مَنْزِلِهِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَعْتَدُو بَرَايَتِهِ مَعَ أَوَّلِ مَنْ يَغْدُو إِلَى السُّوقِ» ^(٢).

وكانَ عَمَلُ الصَّحَابَةِ ﷺ عَدَمَ الْبَيْعِ وَقَتَ الصَّلَاةِ، بَلِ الْإِنْصِرَافَ مِنَ السُّوقِ وَتَرْكُهُ إِلَى الْمَسَاجِدِ؛ فَروى أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ؛ قَالَ: «كُنَّا نَصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَغْرِبَ، وَنَنْصَرِفُ إِلَى السُّوقِ» ^(٣).
يعني: أَنَّهُمْ قَطَعُوا الضَّرْبَ فِي الْأَسْوَاقِ عَصْرًا بِدُخُولِ وَقْتِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى سُوقِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى.

وكانَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ وَالطَّوَافُ عَلَى النَّاسِ وَتَنْبِيهُهُمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فِي الْمَدِينَةِ وَفِي آخِرِ حَيَاتِهِ ﷺ، وَفِي أَسْفَارِهِ أَيْضًا؛ كَمَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ؛ كَمَا رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ»، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ مَوْلَايَ فَضَالَةَ بْنِ هِلَالٍ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ) ^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٤٢٦/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الأحاديث والمثنوي» (٢٧١٥)، وأبو نعيم في «معركة الصحابة» (٦٣٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (١١٤/٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «معركة الصحابة» (٦٦٥٤).

وقد جاء في أول الأمر ما رواه ابن خزيمة في «صحيحه»، والطبراني، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أنس؛ قال: «كانت الصلاة إذا حضرت على عهد النبي ﷺ، سعى رجل إلى الطريق، فنادى: الصلاة الصلاة»^(١).

وكان هذا العمل في زمن الخلفاء الراشدين: يُنبهون على الصلوات النائم، فضلاً عن القائمين والقاعدين في الأسواق، ويأمرؤنهم بذلك؛ فقد اشتهر هذا في فعل الخلفاء عمر وعلي يقومون به بأنفسهم لا يُنبهون عليه أحداً؛ قال أبو زيد المجاشي في شرحه على «مختصر ابن أبي جمرة»: «ذكر غير واحد ممن ألف في السير أن عمر بن الخطاب وعلياً كانا من عادتهما إذا طلع الفجر، خرجا يُوقظان الناس لصلاة الصبح»^(٢).

وروى كثير من أهل المسانيد والسير؛ كالطبري وابن عساكر والخطيب، بأسانيد أكثر من أن تُساق في موضع، ومتون أشهر من أن يتطرق إليها احتمال الشك بضعف؛ منها عن ثابت البناني، عن أبي رافع: «كان عمر يخرج يُوقظ الناس للصلاة صلاة الفجر».

وروى ابن سعد بإسناد صحيح إلى الزهري: «خرج عمر يُوقظ الناس للصلاة صلاة الفجر، وكان عمر يفعل ذلك»^(٣).

وإذا كان هذا حال النائم في زمنه، فكيف باليقظان يبيع ويشترى ويفترش الطرقات؟ بل قد كان الأعرابي يقدم المدينة ومعه الجلب لبيعه في سوق المدينة وقت الصلاة ولا يجد الناس في السوق، فيلزم الصلاة معهم، ويخرج بعدها إلى السوق؛ كما رواه ابن أبي الدنيا في «إصلاح

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٣٦٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩٨٤).

(٢) «الترتيب الإداري» لعبد الحي الكتاني (١/١٣٤).

(٣) «الطبقات الكبرى» (٣/٣٤٥).

المال»، عن أَصْبَغَ بْنِ نُبَاتَةَ؛ قال: «خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ ذِرْوَدٍ - وهو جبلٌ مِنْ أَطْرَافِ الْبَادِيَةِ - حَتَّى نَنْتَهِيَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي غَلَسِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ، فَانصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاتِهِمْ، فَخَرَجَ النَّاسُ عَلَى أَسْوَاقِهِمْ، وَدَفَعَ إِلَيْنَا رَجُلٌ مَعَهُ دِرَّةٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا أَعْرَابِيَّ، أَتَبِيعُ؟ فَلَمْ أَزَلْ أَسَاوِمُ بِهِ حَتَّى أَرْضَاهُ عَلَى ثَمَنِ، وَإِذَا هُوَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَجَعَلَ يَطُوفُ فِي السُّوقِ يَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ يَقْبَلُ فِيهَا وَيُدْبِرُ»^(١).

وَكَمَا ثَبَتَ هَذَا عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ التَّابِعِينَ؛ كَأَيُّوبَ بْنِ أَبِي تَمِيمَةَ السَّخْتِيَّانِيَّ؛ كَمَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الشَّعْبِ»، عَنْ ضَمْرَةَ، عَنْ ابْنِ شَوْذَبٍ؛ قَالَ: «كَانَ أَيُّوبُ يَزُومُ أَهْلَ مَسْجِدِهِ - يَعْنِي: فِي الْبَصْرَةِ - وَيَقُولُ هُوَ لِلنَّاسِ: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ!»^(٢).

يعني: يطوف عليهم مذكراً لهم.

وَيُسْتَحَبُّ فِي حَقِّ الْوَالِي أَنْ يَمْنَحَ الْأَعْمَى وَالْعَاجِزَ مَا يُوصِلُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ جَمَاعَةً مِنْ قَائِدٍ وَمَرْكَبٍ، مَا تيسَّرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمَالُ وَلَمْ يَشُقَّ عَلَى الْمُصَلِّي؛ فَقَدْ رَوَى ابْنُ سَعْدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَحْرَمَةَ؛ قَالَ: «جَاءَ عَمْرُ بْنُ سَعِيدٍ سَعِيدَ بْنَ يَزِيدٍ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَعَزَّاهُ فِي ذَهَابِ بَصْرِهِ، وَقَالَ: لَا تَدْعِ الْجُمُعَةَ وَلَا الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَيْسَ لِي قَائِدٌ، فَقَالَ الْفَارُوقُ: فَنَحْنُ نَبْعَثُ إِلَيْكَ بِقَائِدٍ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِغُلَامٍ مِنَ السَّنِيِّ»^(٣).

وكَانَتْ الْأَسْوَاقُ لَا تُقَامُ وَالصَّلَاةُ حَاضِرَةً فِي الْحَوَاضِرِ، وَإِذَا قَدِمَ أَهْلُ الْبَوَادِي، أَخَذُوا حُكْمَ الْحَوَاضِرِ؛ كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (ص ٧٥).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠٠٥).

(٣) «الطبقات الكبرى» - متمم الصحابة - الطبقة الرابعة (ص ٣٦٢).

والبيهقي في «الشَّعْب» - واللفظ له - وغيرهما، عن المغيرة بن عبد الله الشُّكْرِي، عن أبيه؛ قال: «قَدِمْتُ الكُوفَةَ أَنَا وصَاحِبٌ لِي لِأَجْلِ بَ منها نَعَالًا، فَعَدَوْنَا إِلَى السُّوقِ وَلَمَّا تُقَمَّ، فَقُلْتُ لصَاحِبِي: لو دَخَلْنَا المسجدَ»^(١).

ورُوِيَ عن الحسن: «والله، لقد كانوا يَتَبَايَعُونَ في الأسواقِ، فإذا حَضَرَ حَقٌّ مِنْ حَقِّهِ الله، يَدْعُونَ بِحَقِّ الله حَتَّى يَقْضَوْهُ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى تِجَارَتِهِمْ»^(٢).

وفي «الحَلِيَّة» لأبي نُعَيْم، عن سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: «كانوا يَشْتَرُونَ وَيَبِيعُونَ، وَلَا يَدْعُونَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَاتِ فِي الْجَمَاعَةِ»^(٣).

وكان جماعةً مِنَ الْمَفْسَّرِينَ مِنَ التَّابِعِينَ عَلَى تَبَائِنِ بُلْدَانِهِمْ، يَحْمِلُونَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَلْهِمُهُمْ مِجْرَةً وَلَا يَبِيعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ على تَرْكِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالانْصِرَافِ لِلصَّلَاةِ، وَمَنْ قَالَ بِهَذَا: عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ رُقَيْعُ بْنُ مِهْرَانَ، وَأَيُّوبُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَمَطَرُ الْوَرَّاقِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ، وَمِقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَالضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ^(٤).

وقد كانتِ الْأَسْوَاقُ فِي بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ؛ كَانُوا يَدْعُونَ أَسْوَاقَهُمْ، وَيَتَّجِهُونَ إِلَى الصَّلَاةِ؛ كَمَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ فِي «قُوتِ الْقُلُوبِ»، ذَاكِرًا حَالِ الْأَسْوَاقِ عِنْدَ السَّالِفِينَ: «إِذَا سَمِعُوا الْأَذَانَ، ابْتَدَرُوا الْمَسَاجِدَ، وَكَانَتِ الْأَسْوَاقُ تَخْلُو مِنَ التِّجَارَةِ، وَكَانَ فِي أَوْقَاتِ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧٢/٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٢٠).

(٢) «أحكام القرآن» للجصاص (١٨٩/٥).

(٣) «حلية الأولياء» (١٥/٧)، و«شعب الإيمان» (٢٦٦١).

(٤) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٠٧/٨ - ٢٦٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٦٩/٦)، و«صحيح البخاري» (٥٥/٣).

الصلاة معاشٍ للصَّيَّانِ وأهلِ الذَّمَّةِ، وكانوا يُسْتَأْجَرُونَهم التجارُ بالقراريط والدوانيق؛ يَحْفَظُونَ الحَوَانِيتَ إلى أوانٍ انصرفهم مِنَ المساجِدِ^(١).

وقال أبو حامد الغزالي في «الإحياء»: «كان السلفُ يَتَبَدَّرُونَ عندَ الأذانِ، وَيُخْلُونَ الأسواقَ للصَّيَّانِ وأهلِ الذَّمَّةِ، وكانوا يُسْتَأْجَرُونَ بالقراريط لحفظِ الحَوَانِيتِ في أوقاتِ الصلواتِ»^(٢).

وقال ابنُ تيمية في «الفتاوى»: «إذا تعمَّدَ الرجلُ أَنْ يَقْعُدَ هناك ويتركَ الدخولَ إلى المسجدِ كالذين يقْعُدُونَ في الحَوَانِيتِ، فهو لاءٍ مُخْطِئُونَ مُخَالِفُونَ لِلسُّنَّةِ»^(٣).

وأكثرُ المؤرِّخينَ لَا يَنْصَوْنَ عليه؛ لاشتهاره؛ وإنَّما يذكرونه على سبيلِ مناقبِ الأفرادِ المخصوصينَ ببعضِ الولاياتِ، وبلغَ عملُ الحكَّامِ به أقاصيَ بلادِ الإسلامِ حتى بلادِ المغربِ الأقصى؛ كالسُّلْطَانِ أَبِي عَنَانَ المَرِينِيِّ حاكمِ المغربِ الأوسطِ كلِّه في القرنِ الثامنِ، كما ذكره أبو زيد الفاسي في تاريخه «تاريخ بيوتاتِ فاس» لدى كلامه على بيتِ بَنِي زَنْبِقٍ؛ ذكرَ أَنَّ السُّلْطَانَ يُنِيبُ أبا المكارمِ منديلَ بَنِ زَنْبِقٍ؛ لِيُحَرِّصَ الناسَ في الأسواقِ على الصلاةِ في أوقاتها، وَيَضْرِبَ عليها بالسَّيَاطِ والمَقَارِعِ بأمرِ أميرِ المؤمنينِ أَبِي عَنَانَ^(٤).

والأمرُ بذلك إلى اليومِ في الحجازِ ونجدٍ وسائرِ جزيرةِ العربِ؛ يُؤمَّرُ به وَيُعْمَلُ، وأكثرُ الناسِ يَدْعُونَ متاجرهم رَغْبَةً لَا رَهْبَةً.

* * *

(١) «قوت القلوب» (٢/٤٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣/٤١١).

(٣) «بيوتات فاس الكبرى» لإسماعيل بن الأحمر (ص ٥٠)، و«التراتيب الإدارية» (١/

١٣٤).

﴿قَالَ نَعَالِي: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَنْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ نِصْفَيْهِ يَتَوَكَّفُونَ فِي بُيُوتِهِمْ فِي الظُّهْرِ وَإِنْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ لَوْفُوتٍ عَلَيْكُمْ بِمَضَعِكُمْ عَلَى بَعْضِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

أَمَرَ اللَّهُ بِاسْتِئْذَانِ الْمَوَالِي عِنْدَ دُخُولِهِمْ بُيُوتَ أَسْيَادِهِمْ، وَالْأَحْرَارِ الصَّغَارِ الَّذِينَ لَمْ يَتَلْعَبُوا الْحُلُمَ، فِي أَوْقَاتٍ ثَلَاثَةٍ:

الأول: قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ نَوْمٍ وَتَكْشُفٍ.

الثاني: عِنْدَ الظُّهْرِ؛ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ الْقِيلُولَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ رَاحَةٍ تُوضَعُ فِي مِثْلِهَا الثَّيَابُ.

الثالث: بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ وَضْعِ لِبَاسٍ وَرَاحَةٍ وَمُعَاشَرَةٍ. وَالْخِطَابُ تَوَجُّهُ إِلَى الْمَوَالِي وَالصَّغَارِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ إِنْ لَمْ يُدْرِكُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ.

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ الْعِلَّةَ مِنَ الْأَمْرِ بِالِاسْتِئْذَانِ، وَهِيَ ظُهُورُ الْعَوَرَاتِ وَمَا يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ رُؤْيَاهُ، وَذَلِكَ فِي هَوَاهُ: ﴿ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ﴾.

وَأَصْلُ لَفْظِ الْعَوْرَةِ يُطْلَقُ عَلَى النِّقْصِ وَالْخِلَالِ، وَلَمَّا كَانَ صَاحِبُ النِّقْصِ يَكْرَهُ أَنْ يُرَى وَيَتَكَشَّفَ نَقْصُهُ، دَخَلَ فِي مَعْنَى (الْعَوْرَةِ) كُلُّ مَا يَشْتَرِكُ فِي كِرَاهَةِ رُؤْيَاهُ عَقْلًا أَوْ شَرْعًا أَوْ عُرْفًا وَلَوْ كَانَ فِي حَقِيقَتِهِ كَامِلًا:

فَفِي الْعُرْفِ لَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ تُرَى بَيُوتُهُمْ مِنَ الدَّخْلِ إِلَّا بِإِذْنِهِمْ؛ فَقَالَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿إِنْ يُوَفَّكَ عَوْرَةً﴾ [الأحزاب: ١٣] تَدْخُلُ وَنَحْنُ نَكْرَهُ وَلَا أَحَدٌ يَمْنَعُ، فَتُسَمَّى الْبُيُوتُ الْمَفْتُوحَةُ عَوْرَةً وَلَوْ كَانَتْ الْبُيُوتُ لَا عَيْبَ فِيهَا وَلَا نَقْصَ.

وَيُطْلَقُ عَلَى الْجَهَةِ الَّتِي يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ مِنْهَا عَوْرَةً؛
كَبَابِ الْبَيْتِ وَنَافِذَتِهِ وَثَقْبِ الْبَابِ، وَجَهَةِ الْحَيِّ وَالْمَدِينَةِ الَّتِي لَا حَارِسَ
عَلَيْهَا مِنْ عَدُوٍّ أَوْ سَارِقٍ؛ قَالَ لَيْبَدٌ:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ بَدَا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا

وَمِنْ هَذَا جَاءَ النَّهْيُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى لَا يُرَى صَاحِبُ الْبَيْتِ مِنْ
خَادِمِهِ وَمَوْلَاتِهِ وَالصَّغِيرِ عَلَى حَالٍ يَكْرَهُهَا وَلَوْ لَمْ تَكُنْ خَطَأً أَوْ حَرَامًا؛
كَتَخَفُّهِ مِنْ لِبَاسِهِ أَوْ مَبَاشَرَتِهِ لَزَوْجَتِهِ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: «إِذَا
خَلَا الرَّجُلُ بِأَهْلِهِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، فَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ خَادِمٌ وَلَا صَبِيٌّ إِلَّا بِإِذْنِهِ
حَتَّى يُصَلِّيَ الْعَدَاةَ»^(١).

وَقَدْ عَدَّ بَعْضُ السَّلَفِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهَا نَزَلَتْ
فِي حَالٍ ضَعْفِ الْحَالِ وَعَدَمِ السَّرِّ وَالْأَبْوَابِ وَالغُرَفِ الَّتِي تُحْكَمُ وَتُغْلَقُ
بِأَبْوَابٍ وَأَقْفَالٍ، قَالُوا: «وَبِذَلِكَ يَرْتَفِعُ الْحَرَجُ عَنِ الْمَوَالِي وَالصُّعَارِ».

وَالصَّحِيحُ: إِحْكَامُهَا، وَارْتِفَاعُ الْعَلَةِ لَا يَعْنِي ارْتِفَاعَ الْحُكْمِ؛ فَقَدْ
تَعَوَّدَ الْعَلَةُ؛ فَيَعُودُ الْحُكْمُ مَعَهَا، ثُمَّ إِنَّهَا لَمْ تَرْتَفِعْ بِإِطْلَاقٍ وَإِنْ ارْتَفَعَتْ
مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ لِلْيَسَارِ وَالنَّعِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَزِيدَ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ
يَقُولُ: «لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ؛ آيَةُ الْإِذْنِ، وَإِنِّي لَأَمُرُّ جَارِيَتِي هَلِةَ
تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ»^(٢).

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ عِكْرِمَةَ: «أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا: يَا بَنَ
عَبَّاسٍ، كَيْفَ تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أَمَرْنَا فِيهَا بِمَا أَمَرْنَا، وَلَا يَعْمَلُ بِهَا
أَحَدٌ؟ هَوَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَوْدِعُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ
لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ بَيْنِ الظُّهُورِ

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٣٤/٨). (٢) أخرجه أبو داود (٥١٩١).

وَمِنْ بَعْدِ مَكْلُوفَةِ الْوَسْطَى ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ ﴿١﴾ إِلَى ﴿عَلَيْكُمْ حَكِيمٌ﴾؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ السَّتْرَ، وَكَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِابْنَتَيْهِمْ سُتُورٌ وَلَا حِجَالٌ (جمع: حَجَلَةٌ، وهي بيتٌ كَالْقُبَّةِ يُسْتَرُّ بِالثِّيَابِ، يَجْعَلُونَهَا لِلْعُرُوسِ)، فَرُبَّمَا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوْ الْوَلَدُ أَوْ بَنِيْمَةُ الرَّجُلِ وَالرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ، فَجَاءَهُمُ اللَّهُ بِالسُّتُورِ وَالْخَيْرِ، فَلَمْ أَرِ أَحَدًا يَعْمَلُ بِذَلِكَ بَعْدَهُ ^(١).

وَأَمْرُ الصَّبِيِّ فِي الْآيَةِ لَيْسَ مَتَوَجِّهًا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَكْلُوفٍ؛ وَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ إِلَى وَلِيِّهِ أَنْ يَأْمُرَهُ وَيُعَلِّمَهُ وَيُؤَدِّبَهُ إِنْ خَالَفَهُ؛ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﷺ: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَنَةِ سِنِينَ) ^(٢).

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا أَسْتَعِذُ الْذِّبْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾﴾
[النور: ٥٩].

في هذا: تشديدٌ على الصِّغَارِ بَعْدَ بُلُوغِهِمْ فِي دُخُولِهِمْ عَلَى وَالِدَيْهِمْ وَأَخْوَانِهِمْ وَأَخَوَاتِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَخَالَاتِهِمْ، وَأَنَّ ثُبُوتَ الْمَحْرَمِيَّةِ لَا يَعْنِي جَوَازَ الدُّخُولِ بِلَا إِذْنٍ؛ لِأَنَّ نَمَّةَ عَوْرَاتٍ لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَرَاهَا حَتَّى الْأَرْحَامُ سِوَى الزَّوْجَاتِ، وَنَمَّةَ أَحْوَالٍ يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ رُؤْيَاهَا عَلَيْهَا وَلَوْ مِنْ زَوْجِهِ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ الْإِذْنُ عَلَى أُمَّهَاتِكُمْ» ^(٣).

(٢) سبق تخريجه.

(١) أخرجه أبو داود (٥١٩٢).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/٢٤٥).

وقوله تعالى: ﴿بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ خُطَابَ الْأَطْفَالِ النَّاسِ، وَلَيْسَ الْأَطْفَالُ الْأَبْعَدِينَ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الْحُكْمُ فِي أَطْفَالِهِمْ، فَأَطْفَالُ الْأَبْعَدِينَ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَفْذُوا كَمَا اسْتَفَذَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: إنهم أَخَذُوا حُكْمَ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْبَالِغِينَ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنْ صِفَةِ الْاسْتِثْنَاءِ وَبَذَلِ السَّلَامِ.

واللهُ قَدْ خَفَّفَ عَلَى الصُّغَارِ فِي حَالِ صِغَرِهِمْ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ الْبُلُوغِ أَلْحَقَهُمْ بِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْحَالِمِينَ، فَقَدْ جَعَلَ الْأَطْفَالَ الصُّغَارَ وَالْمَوَالِي يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَلَكِنْ جَعَلَ اسْتِثْنَاءَهُمْ بَعْدَ بُلُوغِهِمْ: كُلَّ وَقْتٍ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِهِمْ.

وقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: «أَمَّا مَنْ بَلَغَ الْحُلُمَ، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ - يَعْنِي: مِنَ الصُّبْيَانِ الْأَحْرَارِ - إِلَّا بِإِذْنٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذُوا كَمَا اسْتَفَذَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾»^(١).

وَجَاءَ عَنْ عَطَاءٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذُوا﴾؛ قَالَ: «وَاجِبٌ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا إِذَا احْتَلَمُوا، عَلَى مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ»^(٢).

* * *

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٣٥٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٦٣٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/٣٥٩).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾﴾ [النور: ٦٠].

المرأة القاعِدَة: هي التي قعدت عن الحيض والوليد لِكِبَرِها، ولا تُرْعَبُ غالبًا مِنَ الرِّجَالِ؛ فيجوزُ لها وضعُ ثيابها غيرَ متزيّنة.

حِجَابُ الْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ:

اتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: أَنَّ الثِّيَابَ الَّتِي رَخَّصَ اللَّهُ بِهَا لِلْعَجُوزِ هِيَ (الْجَلَابِيبُ)، وَالْجَلَابِيبُ جَمْعُ جَلَبَابٍ، وَهُوَ مَا يَكُونُ مِنْ لِيَاسٍ فَضْفَاضٍ فَوْقَ الْخِمَارِ يَسْتَوْعِبُ أَعْلَى الْبَدَنِ وَوَسْطَهُ، وَيُسَدِّلُ فَيُغْطِي بِهِ الْوَجْهَ وَالصَّدْرَ؛ فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قَالَتْ: «فَحَمَرْتُ وَجْهِي بِجَلَبَابِي»^(١).

وَالْجَلَبَابُ قَرِيبٌ مِنَ الْعَبَاءَةِ الْيَوْمَ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مَفْصَّلٍ، وَيُسَمَّى الْقِنَاعَ أَوْ الْمَلَاءَةَ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخِمَارِ وَالْجَلَبَابِ: أَنَّ الْخِمَارَ يَكُونُ تَحْتَ الْجَلَبَابِ، وَالْخِمَارُ تَلْبَسُهُ الْمَرْأَةُ وَتَشُدُّهُ عَلَى رَأْسِهَا وَمَا دُونَهُ، وَيَكُونُ مَلِاصِقًا لِلْجَسَمِ مَشْدُودًا، بِخِلَافِ الْجَلَبَابِ فَهُوَ غِطَاءٌ زَائِدٌ فَوْقَهُ فَضْفَاضٌ يُرْخَى غَالِبًا وَلَا يُشَدُّ؛ لَا عَلَى الْوَجْهِ، وَلَا عَلَى الصَّدْرِ، بَحَيْثُ يُبْرِزُ حُجْمَ الْعَضْوِ؛ وَلِذَا وَرَدَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أُمِّ سُلَيْمٍ: (أَنَّهَا خَرَجَتْ مُسْتَعِجَلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا)^(٢)؛ يَعْنِي: تَذِيرُهُ عَلَى رَأْسِهَا وَتَشُدُّهُ، وَالْخِمَارُ

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٣).

هو الذي تَصُرُّ بِطَرَفِهِ بَعْضُ النِّسَاءِ الْأَوَائِلِ دَنَائِرَهَا؛ لَتَمَاسُكِهِ وَثَبَاتِهِ عَلَيْهَا.

والصَّحَابَةُ والتَّابِعُونَ رَخَّصُوا لِلْقَاعِدِ أَنْ تَضَعَ الْجَلْبَابَ الَّذِي تُؤَمِّرُ بِهِ الشَّابَّةُ كَمَا فِي آيَةِ الْأَحْزَابِ، وَقَدْ جَاءَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عُمَرَ وَالشَّعْبِيِّ وَابْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَمَجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ لَهُمْ تَفْسِيرٌ لِلزَّيْنَةِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تُنْهَى الشَّابَّةُ عَنْ إِبْدَائِهَا إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُنَّ أَنْ يُبَدِيَنَّهُ؛ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

وَاتَّفَقُوا هُنَاكَ عَلَى أَنَّ مَا تَخْتَصُّ بِهِ الْعَجُوزُ عَنِ الشَّابَّةِ رَفْعُ الْجَلْبَابِ فَقَطْ، وَالْجَلَابِيبُ: هِيَ مَا تَخْتَصُّ بِسِتْرِ الْوَجْهِ مِنْ بَشَرَةِ الْجَسْمِ، وَتَكُونُ فَوْقَ بَقِيَّةِ الثِّيَابِ ثَوْبًا عَلَى ثَوْبٍ، فَالْجَلْبَابُ فَوْقَ الْخِمَارِ، وَيُدُّ عَلَى أَنَّ الْجَلَابِيبَ مَا كَانَتْ تَسْتُرُ الْوَجْهَ لِلشَّابَّةِ جَمْلَةً مِنْ تَفْسِيرِ أَفْصَحِ النَّاسِ وَأَقْرَبِهِمْ إِلَى الْوَحْيِ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، وَلَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذِهِ الْآثَارِ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾؛ فَلْتَنْظُرْ هُنَاكَ.

وَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعِينَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى دَلِيلٌ عَلَى الْقَدْرِ الْبَاقِي الَّذِي اخْتَصَّتْ بِهِ الشَّابَّةُ وَمَيَّزَهَا عَنِ الْقَاعِدِ، وَمَا اخْتَصَّتْ بِهِ الْقَاعِدُ عَنِ الشَّابَّةِ.

وَلَا يَتَحَقَّقُ فَهْمُ حِجَابِ الْقَوَاعِدِ إِلَّا بِفَهْمِ حِجَابِ الشَّابَّةِ، وَبُعَيْنُ فَهْمِ حِجَابِ الْقَوَاعِدِ عَلَى فَهْمِ حِجَابِ الشَّابَّةِ.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِهْنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِمُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَحِثُّوا بَيْنَكُمْ بِحُثٍّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾﴾ [النور: ٦١].

لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ تَحْرِيمَ أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ وَشَدَّدَ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، تَحَرَّجُوا لَوَرَعِهِمْ مِنَ الْأَكْلِ مِنْ بُيُوتِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا مِمَّا كَانُوا يَتَسَامَحُونَ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَبَيَّنَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّ لَا حَرَجَ مِنَ الْأَكْلِ مِنْ بُيُوتِ قَرَابَاتِهِمْ وَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِالْإِذْنِ بِهِ كَبُيُوتِ الْأَصْدِقَاءِ وَالْقَرَابَاتِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾﴾ [النساء: ٢٩]، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَالطَّعَامُ هُوَ أَفْضَلُ الْأَمْوَالِ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِّنَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَكَفَّتِ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ؛ فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؛ رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(١).
وَيَنْحُوهُ قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ الآية: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْأَكْلِ مِنْ بُيُوتِ الْقَرَابَاتِ الَّتِي جَرَى الْعُرْفُ بِالتَّسَامُحِ فِيهَا، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ تَسْتَأْذِنَ الزَّوْجَةُ مِنْ زَوْجِهَا لِإِطْعَامِ

(١) «تفسير الطبري» (٣٦٦/١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٨/٨).

قَرَابَاتِهِ وَقَرَابَاتِهَا فِي بَيْتِهِ؛ قَالَ السُّدِّيُّ: «كَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ بَيْتَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ ابْنِهِ، فَتُشْحَفُ الْمَرْأَةُ بِشَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْ أَجْلِ أَنْ رَبَّ الْبَيْتِ لَيْسَ نَمًّا»^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مُفَافِعَهُ﴾؛ يَعْنِي: الْمَوَالِي وَالْخَدَمَ وَمَنْ يَخْلُقُ الرَّجُلَ فِي بَيْتِهِ عِنْدَ ذَهَابِهِ لِلغَزْوِ، فَيَأْكُلُونَ مِنْ بَيْتِهِ بِالْمَعْرُوفِ؛ قَالَ بِهَذَا عَائِشَةُ^(٢)، وَبَنَحُوهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيِّ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾؛ يَعْنِي: أَنَّ دُخُولَ الرَّجُلِ إِلَى بَيْتِ صَدِيقِهِ وَإِذْنُهُ لَهُ بِالْدُخُولِ يُجِيزُ لَهُ الْأَكْلَ بِلَا حَرَجٍ فِي ذَلِكَ مِمَّا يَجِدُهُ وَلَوْ لَمْ يَسْتَأْذِنُهُ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: «لَوْ دَخَلْتُ عَلَى صَدِيقٍ ثُمَّ أَكَلْتُ مِنْ طَعَامِهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، لَكَانَ لَكَ حَلَالًا»^(٤).

وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى تَرْكِ الْجِهَادِ لِمَنْ كَانَ مَعْدُورًا عِنْدَ وَجُوبِهِ عَلَى النَّاسِ كَزَمَنِ النِّفِيرِ وَالْدَفْعِ، وَحَمَلُوهَا عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي التَّوْبَةِ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَضِ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]؛ وَهَذَا يُرَوَّى عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ^(٥) وَابْنِ زَيْدٍ^(٦).

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٦/٨).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٦/٨).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٧/٨).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٨/٨).

(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٤/٨).

(٦) «تفسير الطبري» (٣٦٩/١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٤/٨).

ومنهم: مَنْ حَمَلَهُ عَلَى تَحْرِجِهِمْ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى؛ لَأَنَّهُ لَا يُبْصِرُ الْأَكْلَ وَمَا فِيهِ مِنْ طَيِّبَاتٍ، فَتَحَرَّجُوا مِنَ الْإِسْتِثَارِ بِأَكْلِ الطَّيِّبِ دُونَهُ، وَالْأَعْرَجُ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ مَقْعَدُهُ لَتَنَاوُلِ الْأَكْلِ كَالصَّحِيحِ الْمُعَافَى، وَالضَّعِيفُ الْمَرِيضُ الَّذِي لَا يَقْوَى عَلَى أَكْلِ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ فَيَمْنَعُهُ الْعِجْزُ أَوْ الْمَرَضُ؛ وَهَذَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ جُبَيْرٍ وَمُقْسِمٍ وَالضَّحَّاكِ وَسُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى^(١).

وَصَحَّ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: «مُنِعَتِ الْبُيُوتُ زَمَانًا كَانَ الرَّجُلُ لَا يُطْعِمُ أَحَدًا وَلَا يَأْكُلُ فِي بَيْتِ غَيْرِهِ تَأْتِمًا مِنْ ذَلِكَ؛ فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ رُخِّصَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْأَعْمَى، ثُمَّ رُخِّصَ بَعْدَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ عَامَّةً»^(٢).

وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: «كَانَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِالْأَعْمَى وَالْمَرِيضِ وَالْأَعْرَجِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ إِلَى بَيْتِ أَخِيهِ، أَوْ عَمِّهِ، أَوْ خَالِهِ، أَوْ خَالَتِهِ، فَكَانَ الزَّمَنُ يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ؛ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَذْهَبُونَ بِنَا إِلَى بُيُوتِ غَيْرِهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ رُخْصَةً لَهُمْ؛ رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ»^(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾؛ جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «كَانُوا أَيْضًا يَأْتِفُونَ وَيَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ الطَّعَامَ وَحْدَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ؛ فَرُخِّصَ اللَّهُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ فَهَذَا، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ»^(٤).

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٣/٨ - ٢٦٤٤).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٤/٨).

(٣) «تفسير الطبري» (٣٦٨/١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٥/٨).

(٤) «تفسير الطبري» (٣٧٥/١٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٨/٨).

وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ^(١).

فَضْلُ الْاجْتِمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ:

وقد جاء استحبابُ الأكلِ جماعةً في أحاديثٍ وآثارٍ؛ وذلك لما في جمعِ الناسِ على الطعامِ مِنْ بَرَكَةِ الإطعامِ، والدُّعَاءِ، وذكرِ اللهِ عليه، وحَمْدِهِ على تلكِ النُّعْمَةِ، وما فيه مِنَ الإكرامِ والإحسانِ إلى الآكِلِ ولو كان غنيًّا.

وفي «المسنَدِ»، و«السُّنَنِ»؛ أَنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ؟ قَالَ: (لَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ؟)، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: (فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ)^(٢).

ويُروى عَنْ عَبْدِ ابْنِ مَاجَةَ؛ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (كُلُوا جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا؛ فَإِنَّ الْبَرَكَةَ مَعَ الْجَمَاعَةِ)^(٣).

ويُروى مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ مَرْفُوعًا: (إِنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَى اللَّهِ مَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْأَيْدِي)؛ رواه أَبُو يَعْلَى^(٤) وَغَيْرُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تُبْرِكُ عَلَيْكُمْ طَبَعًا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فيه: مشروعيةُ بذلِ السلامِ والتَّحِيَّةِ عِنْدَ دُخُولِ الْبُيُوتِ وَالْأَمَاكِنِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ دُورًا مَمْلُوكَةً، وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالتَّخَعُّمِيِّ حَمْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾ عَلَى الْمَسَاجِدِ^(٥).

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٦٤٩/٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠١/٣)، وأبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٢٨٧).

(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٠٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٧٣١٧).

(٥) «تفسير الطبري» (٣٨١/١٧).

وصحَّ عن ابن عباسٍ عمومُ البيوت^(١).

وُيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ حَتَّى فِي دُخُولِ الرَّجُلِ بَيْتَهُ، فَيُسَلِّمُ عَلَى مَنْ فِيهِ مِنْ زَوْجِهِ وَوَلَدِهِ وَخَادِمِهِ وَعَبْدِهِ وَأَمَتِهِ، بَلْ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَحَدٌ؛ لَوْجُودِ الْمَلَائِكَةِ، وَفِيهِ إِبْنَانٌ وَإِذَا هَابَ لِلْوَحْشَةِ حَتَّى فِي بَازِلِ السَّلَامِ، وَالْبَيْوتُ مُنْكَرَةٌ فِي الْآيَةِ: ﴿يُؤْتَاكَ﴾؛ لَتَشْمَلَ كُلَّ مَنْكَنٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَلِّتُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؛ فَالْمَرَادُ الْمُسْلِمُونَ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّلَامَ خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ لَيْسَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لَهُمْ أَنْ يُحْيَوْهُ بِغَيْرِ تَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ تَحِيَّةَ الْإِسْلَامِ السَّلَامُ، وَهِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ، وَتِلْكَ لَا تَكُونُ لِكَافِرٍ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى أَحْكَامِ التَّحِيَّةِ وَحُكْمِهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٦].

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُكَ لِيَعِضَ شَأْنِهِمْ فَإِنْ لَا مَنَ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَكَ اللَّهُ إِنْكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

فِيهِ: تَعْظِيمُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَطَاعَتِهِ، وَبِمَقْدَارِ الْإِيمَانِ بِهِ يَكُونُ الْإِمْتِثَالُ لَهُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ نَزُولُهَا خَاصًّا، فَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٦٥٠).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾^(١)
هو في كلِّ أمرٍ يَلْزَمُ فِيهِ اجْتِمَاعُ النَّاسِ وشهودُهُمْ؛ كالجهادِ، والجمعةِ،
والعيدينِ.

ودليلُ الْخَطَابِ مِنَ الْآيَةِ يُجِيزُ الذَّهَابَ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَائٍ فِي غَيْرِ
الْأَمْرِ الْجَامِعِ؛ كالتقاءِ النَّاسِ جماعاتٍ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْوَلَائِمِ وَنَحْوِهَا مِنْ
الْأُمُورِ الَّتِي الْأَصْلُ فِي الْأَنْصِرَافِ مِنْهَا: عَدَمُ الْإِذْنِ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا
قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ لَوْادًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ
أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

كَانَ النَّاسُ يَتَجَوَّزُونَ فِي مُنَادَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ؛ كَمَا
يَقْعَلُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَهُمْ بِدُعَائِهِ بِأَوْصَافِ الْإِجْلَالِ
وَالْتَكْرِيمِ؛ كَقَوْلِهِمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ؛
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ الْخَالِقُ الْمَعْبُودُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَخْلُوقُهُ وَعَبْدُهُ: يَقُولُ لَهُ
فِي نِدَائِهِ: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ».

وَنَاسَبَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَا قَبْلَهَا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا
النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ ذَهَابِهِمْ مِنْ عِنْدِهِ فِي الْأُمُورِ الْجَامِعَةِ، فَكَانَ مُنَاسِبًا تَعْلِيمُهُمْ
أَسْلُوبَ النَّدَاءِ عِنْدَ الْاسْتِثْنَاءِ وَالْخَطَابِ.

وَقَدْ جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا
يَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ»^(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ لَوْادًا﴾: الْمُرَادُ بِهِ

الذين يَنْسَجِبُونَ مُتَسَلِّلِينَ مُسْتَخْفِينَ عَنِ الْأَعْيُنِ مُخَالِفِينَ أَمَرَ اللَّهِ بِطَاعَةِ نَبِيِّهِ، وَهَذَا نَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِي يُجِبُونَ الْمُخَالَفَةَ وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يَرَاهُمْ أَحَدٌ عَلَيْهَا، وَلَا يَفْعَلُونَ الطَّاعَةَ إِلَّا إِنْ رَأَاهُم النَّاسُ؛ تَظَاهَرُوا بِهَا وَتَصَنَّعُوهَا وَلَوْ كَانُوا يَكْرَهُونَهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فِيهِ: أَنَّهُ بِمَقْدَارِ الْمُخَالَفَةِ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ تَكُونُ الْفِتْنَةُ، وَلَا يَدْفَعُ الْفِتْنَةَ عَنِ النَّاسِ إِلَّا اتِّبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ.



سُورَةُ الْفُرْقَانِ

سورة الفرقان مكية بكاملها، وعامة السلف على هذا، ويحكي عن ابن عباس وقتادة؛ أنهما قالوا: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]^(١)، والصحيح عن ابن عباس: أن هذه الآيات الثلاث مكية أيضا كما في الصحيح، عن القاسم بن أبي بزة؛ أنه سأل سعيّد بن جبّير: «هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ فقراأت عليه: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فقال سعيّد: قراؤها على ابن عباس كما قراؤها عليّ، فقال: هذه مكية نسختها آية مدنيّة التي في سورة النساء»^(٢)؛ يريد: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ الآية [٩٣].

ولم يوافق الضحاك على قوله: إنها مدنيّة إلا الآيات الثلاث من أولها إلى قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ [الفرقان: ٣]^(٣)، وآيات السورة ومقاصدها دالة على كونها مكية لا مدنيّة؛ فإن الله ذكر في السورة فضله بإنزال القرآن، وشيئا من صفاته، وقرّر توحيده، وحذّر من ضلال المشركين باتخاذ إله مع الله، وذكر ما طلبه المشركون إلى النبي ﷺ بمكة من معجزات مقترحة نعتا وعنادا، وبين عاقبتهم في الآخرة، وذكر سبب ذلك، وأن أعظم ما

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/٣٦٤). (٢) أخرجه البخاري (٤٧٦٢).

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان (٦/٤٣٩).

وَقَعُوا فِيهِ الشُّرْكَ وَالْقَتْلُ وَالزَّنى، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الزَّنى بِمَكَّةَ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُ فِطْرِيٍّ، ثُمَّ تَأَخَّرَ تَشْرِيعُ تَحْرِيمِ مَسَائِلِهِ وَضَبْطُهَا فِي الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يُقِرُّ بِالْغَايَةِ لَا يَشَدُّ عَلَيْهِ فِي الْوَسِيلَةِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِحُرْمَةِ الْغَايَةِ.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشَى فِي الْأَمْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾﴾ [الفرقان: ١٧].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ مَخَالَطَةِ النَّاسِ وَفِعْلِ مَا يَفْعَلُونَ، وَعَدَمُ التَّرَفُّعِ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَلْبَسٍ وَمَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَمَكْسَبٍ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنَ الدِّينِ سُلْمًا إِلَى دُنْيَاهُ، فَيَتَّخِذَ جَاهًا وَمَالًا وَسُلْطَانًا لِنَفْسِهِ، وَلَمَّا كَانَ كِفَارُ قَرِيشٍ أَصْحَابَ دُنْيَا وَحُبَّ لِلشُّؤْدِدِ وَالْعُلُوِّ وَالْجَاهِ، لَمْ يَسْلَمُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ لِكَوْنِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِهِ وَهُوَ مِثْلُ النَّاسِ فِي مَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَمْلَأَتِهِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ عَالِيًا فِي مَالِهِ وَسُلْطَانِهِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ طَمَعًا لَا صِدْقًا، وَخَوْفًا وَرَهْبَةً لَا رَغْبَةً وَبَقِيَّةً، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ سَيَتَّخِذُ سُنَّةً مِنْ بَعْدِهِ لِاتِّبَاعِهِ؛ أَنْ يَطْلُبُوا الدُّنْيَا وَالْعُلُوَّ وَالسُّلْطَانَ بِالْأَدِينِ، فَيَصْبِحُ الدِّينُ سُلْمًا لِمُبْتَغِي الدُّنْيَا لَا لِمُبْتَغِي الْآخِرَةِ، وَيَدْخُلُهُ كُلُّ صَاحِبِ طَمَعٍ، وَيَحْرِفُ الدِّينُ لِحَقِيقِ الْغَايَاتِ، وَكُلُّ سُلْطَانٍ وَصَاحِبٍ جَاءَ يَتَّخِذُ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ أَسْوَةً فِي قَصْدِ الْمَالِ وَالشَّرَفِ.

وَالْأَصْلُ: أَنَّ النَّفْسَ إِنْ اِمْتَلَأَتْ مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ شَيْءٌ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ نَصيبًا، وَنَصِيبُ الدِّينِ هُوَ الْأَكْبَرُ.

وَيُسْتَحَبُّ لِلْعُلَمَاءِ أَلَّا يَخْرُجُوا عَنْ عَادَاتِ النَّاسِ مَا لَمْ تُخَالِفْ أَمْرَ اللَّهِ، فَيَكُونُونَ مِثْلَهُمْ فِي مَلْبَسِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَمَسْكَنِهِمْ

وَمِمَّا هُمْ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَأَلَّا يَتَكَلَّفُوا حَالًا تَمَيِّزُهُمْ عَنْهُمْ، فَلَا يُوجَدُ فِي الْإِسْلَامِ زِيٌّ يُسَمَّى زِيَّ الْعُلَمَاءِ، وَلَا لِبَاسٌ يُسَمَّى لِبَاسَ الصَّالِحِينَ؛ وَإِنَّمَا الَّذِي فِيهِ زِيُّ الْمُسْلِمِينَ وَلِبَاسُهُمْ، فَهَمُ فِيهِ سَوَاءٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَا اللَّبَاسِ هُوَ الَّذِي امْتَازَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِالْمُخَالَفَةِ؛ كَمَنْ يَلْبَسُ الْحَرِيرَ وَالذَّهَبَ مِنَ الرِّجَالِ، وَلِبَاسَ الشُّهْرَةِ وَالْمُسْبَلِ مِنَ الشَّيَابِ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْبَسُ كَمَا يَلْبَسُ قَوْمُهُ: عِمَامَةٌ وَإِزَارًا وَرِدَاءً، وَرَبَّمَا ثَوْبًا وَقَمِيصًا وَجُبَّةً، وَيَتَخَذُ لَوْنًا كَالْوَانِهِمْ، وَحِذَاءً كَأَحْدِيَّتِهِمْ، وَمَرْكَبًا كَمَرَائِكِبِهِمْ، وَمَسْكَنًا مِثْلَهُمْ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ أَهْلِهِ كَمَا يَقْضِي النَّاسُ حَاجَتَهُمْ، وَهَذَا هَذِيَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ هَذَا التَّفَاضُلَ بَيْنَ الْخَلْقِ: رَفِيعٌ وَوَضِيعٌ، وَقَوِيٌّ وَضَعِيفٌ، وَغَنِيٌّ وَفَقِيرٌ، وَمَلِكٌ وَمَمْلُوكٌ، وَسَيِّدٌ وَعَبْدٌ - فِتْنَةً، لَيْسَتْ بِذَاتِهَا حَقًّا وَلَا بَاطِلًا، وَإِنَّمَا الَّذِي يُمَيِّزُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ تَمَيِّزُهُمَا بِنَفْسَيْهِمَا؛ فَالْحَقُّ حَقٌّ بِنَفْسِهِ؛ فَقَدْ يَكُونُ مَعَ عَبْدٍ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ سَيِّدٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ رَفِيعٍ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ وَضِيعٍ؛ قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]: هُوَ التَّفَاضُلُ فِي الدُّنْيَا وَالْقُدْرَةُ وَفَهْرُ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ؛ فَهِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]^(١) فَهِيَ فِتْنَةٌ وَابْتِلَاءٌ لِلتَّمَايُزِ، وَتَحْقِيقِ سُنَّةِ التَّدَاخُلِ، وَتَرْكِيبِ مَنْظُومَةِ الْكَوْنِ لِيَسْتَقِيمَ أَمْرُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَبْصَحُ كَوْنُ الْخَلْقِ فِيهِ مِنْ جَنْسٍ وَنَوْعٍ وَاحِدٍ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

اشتكى النبي ﷺ لربه من هجر قومه للقرآن، وعدم أخذهم له، مع كونه كلام ربهم الذي خلقهم.

هَجْرُ الْقُرْآنِ وَأَنْوَاعُهُ:

وهجر القرآن هو تركه وعدم الاعتبار به قراءة وتدبراً وعملاً، وأعظم من ذلك إذا تبع هجر القرآن عُذْوَانٌ عليه بوصفه بالسُّخْرِ والخُرافَةِ، أو إهانته بتمزيقه ورميه، وهكذا كانت تَفْعَلُ قريش؛ حيث هَجَرُوهُ وكَفَرُوا به، وقالوا فيه الباطل؛ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عنه، فهم قد زادوا على مجرد تركه في أنفُسِهِمْ قَوْلَ الباطل فيه؛ لِيَتْرَكَهُ غَيْرُهُمْ فَيَصُدُّوا النَّاسَ عنه؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وفي قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾؛ قال مجاهد: يقولون: هو سخر^(١)، وقال النخعي: قالوا فيه غير الحق^(٢)، وقال ابن زيد: لا يريدون أن يسمعه^(٣).

وهجر القرآن على مراتب وأنواع ثلاثة:

النوع الأول: هجر قراءته وتلاوته:

وتُشْرَعُ قراءة القرآن لِمَنْ يَحْفَظُهُ وَمَنْ لَا يَحْفَظُهُ، والقرآن شديد

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٤٤٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٦٨٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/٤٤٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٦٨٨).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/٤٤٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٦٨٨).

التَفَلُّتِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَصْلَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ؛
أَنَّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الْقُرْآنِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ أَدْبَرَ عَنْهُ:

فَالأُولَى: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ حِفْظَهُ أَسْهَلَ مِنْ غَيْرِهِ لِمَنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ وَسَلِمَ
قَصْدُهُ؛ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ نِسْيَانَهُ أَسْرَعَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْمَحْفُوظِ.

فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ إِقْبَالَهُ سَهْلًا يَسِيرًا لِقَاصِدِهِ، وَإِدْبَارَهُ سَرِيعًا عَنِ
الْمُعْرِضِ عَنْهُ؛ فَلَا يَبْقَى فِي قَلْبِ مَنْ زَهَدَ فِيهِ وَرَغِبَ عَنْهُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ:
(يُسَمَّا لِأَحَدِهِمْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةً كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِيَ، اسْتَذْكِرُوا
الْقُرْآنَ؛ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ ضُلُوعِ الرِّجَالِ، مِنَ النِّعَمِ بِعُقْلِيهَا)؛ رَوَاهُ
الْشَيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ مَرْفُوعًا: «تَعَاهَدُوا
هَذَا الْقُرْآنَ؛ فَوَاللَّهِ نَفْسُ مُحَمَّدٍ بَيْنَهُ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي
عُقْلِيهَا»^(٢).

وَلَمَّا كَانَتْ الْمَعَاصِي مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَلَوْ إِعْرَاضَ عَمَلٍ، فَإِنَّ
الْقُرْآنَ يُعْرِضُ عَنْ صَاحِبِهِ بِمِقْدَارِ هَجَرِهِ لِلْعَمَلِ بِهِ؛ كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ،
عَنِ الضَّحَّاكِ؛ قَالَ: مَا تَعَلَّمَ رَجُلٌ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا بِذَنْبٍ؛ ثُمَّ قَرَأَ
الضَّحَّاكُ: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]،
ثُمَّ قَالَ الضَّحَّاكُ: وَأَيُّ مُصِيبَةٍ أَغْظَمُ مِنْ نِسْيَانِ الْقُرْآنِ؟^(٣)

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لِنَفْسِهِ، فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِهِ، لَكِنْ
يُسْتَحَبُّ لَهُ ذَلِكَ وَيُسَنُّ؛ لِأَنَّ لِلْأُذُنِ حَقًّا كَمَا أَنَّ لِللِّسَانِ وَالْقَلْبِ حَقًّا، وَقَدْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٣٢)، وَمُسْلِمٌ (٧٩٠).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٣٣)، وَمُسْلِمٌ (٧٩١).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٢٩٩٩٦).

كان النبي ﷺ يفعل ذلك؛ كما روى الشيخان، من حديث عبد الله؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ)، قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: (إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي)، قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ لِي: (كُفْ - أَوْ أَمْسِكْ -)، فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ^(١).

أَدْنَى الزَّمَنِ الَّذِي يُشْرَعُ فِيهِ خَتْمُ الْقُرْآنِ وَأَعْلَاهُ:

أَدْنَى الزَّمَنِ الَّذِي يُشْرَعُ فِيهِ خَتْمُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَنَقَلَ ابْنُ حَزْمٍ اتِّفَاقَهُمْ عَلَى جَوَازِ الْخَتْمِ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ^(٢)؛ وَإِنَّمَا خِلَافُهُمْ فِي دُونَ الثَّلَاثِ عَلَى قَوْلَيْنِ:

وَالْوَارِدُ: النَّهْيُ عَنْ قِرَاءَتِهِ فِي دُونَ ثَلَاثٍ؛ كَمَا فِي السُّنَنِ؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: (لَا يَنْفَقُهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ)^(٣).

وَصَحَّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَوْلُهُ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فِي سَبْعٍ، وَلَا تَقْرُؤُوهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ»؛ رَوَاهُ سَعِيدٌ^(٤).

وَكَرِهَ ذَلِكَ مَعَاذُ بَنِي جَبَلٍ؛ كَمَا رَوَاهُ أَبُو عُبَيْدٍ عَنْهُ^(٥).

وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ، لَمْ يَعْزِلْ غَالِبًا مَا قَرَأَ؛ فَفُوتَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٥٥)، وَمُسْلِمٌ (٨٠٠).

(٢) «مَرَاتِبُ الْإِجْمَاعِ» (ص ٢٥١).

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٦٤/٢)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٤٧)، وَأَبُو دَاوُدَ (١٣٩٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٩٤٩).

(٤) التفسير من «سُنَنِ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ» (١٤٦).

(٥) أَخْرَجَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ١٨٠)، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٥٩٥٠)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٨٥٧٧).

التدبُّر والتأمل، وحتى لا يَغْلِبَ عليه حبُّ التَكثُّر بإقامة الحروفِ على إقامة المعاني، وحتى تأخُذَ النَّفْسُ نصيبَها مِنَ الْقُرْآنِ خشوعًا وخضوعًا؛ فَإِنَّ النَّفْسَ لا تخشعُ على الحقيقةِ إِلَّا إِذَا فَهَمَّتِ المعاني - وأَمَّا خشوعُها بلا فهم للمعنى، فغالبًا يكونُ لأجلِ صوتِ القارئِ؛ فَإِنْ قرأه بالتحزين، حَزَنَ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ المعنى، وَإِنْ قرأ بالتغني، وَجَدَ في نفسه نشوةً - ويجدُ السامعُ خشوعًا ولو لَمْ يَفْهَمْ المعنى؛ لِأَثَرِهِ في طردِ الشياطينِ ووساوسِ النفسِ وكونه شفاءً لِمَا في الصدورِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْاَثَرَ يزولُ غالبًا إِنْ تَرَكَ القراءةَ، أَمَّا فَهْمُ مَعَانِيهِ، فَتَوَثَّرَ في الْقَلْبِ خضوعًا وخشوعًا وإيمانًا يدومُ في الْقَلْبِ مَا دَامَ فِيهِ ذَلِكَ المعنى حاضرًا.

وذهَبَ بعضُ السلفِ: إلى جوازِ قراءتِهِ دونِ ثلاثٍ، وبه عمل بعضُهم؛ كعثمانَ وتميمِ الداريِّ وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ وأبي بكرِ بنِ عِيَّاشٍ ومنصورِ بنِ زاذانَ ويحيى بنِ سعيدِ الْقَطَّانِ، كانوا: يَخْتِمُونَ كُلَّ يَوْمٍ^(١)، وصَحَّ عَنْ مجاهدٍ والشافعيِّ: تخصيصُ رمضانَ بِالْخَتْمِ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ؛ فَيَخْتِمُ مجاهدٌ مرَّةً، والشافعيُّ مرَّتَيْنِ؛ رواهُ عَنْ مجاهدِ ابْنُ أَبِي داودَ^(٢)، وعن الشافعيِّ رواهُ الرِّيْعُ، وأسنَدَهُ عنه البيهقيُّ^(٣)، وَرَوَى عَنْ أَبِي حنيفةَ نحوه^(٤).

وكان ابنُ المسيَّبِ يَخْتِمُ في لَيْلَتَيْنِ^(٥)، وكان الأسودُ بنُ يزيدَ يَخْتِمُهُ في رمضانَ كُلَّ لَيْلَتَيْنِ^(٦).

(١) ينظر: «مختصر قيام الليل» للمروزي (ص ١٥٧)، و«التيان في آداب حملة القرآن» (ص ٥٩ - ٦١)، و«تحفة الأحوف» (٢٧٢/٨ - ٢٧٣).

(٢) «التيان في آداب حملة القرآن» (ص ٦٠).

(٣) «منافب الشافعي» (١٥٩/٢).

(٤) «تاريخ بغداد» (٤٨٤/١٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٤٠٠/٦).

(٥) «مختصر قيام الليل» للمروزي (ص ١٥٧).

(٦) «الطبقات الكبرى» (٧٣/٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٥١/٤).

والأفضل: عدم الحثم دون ثلاث إلا في الأزمنة الفاضلة كالعشر الأخير من رمضان، والناس يتفاوتون في مقدار ذكائهم وقدرتهم على التدبر والتأمل؛ ولكن الغالب أن من قرأ دون ثلاث، فاته كثير من معاني القرآن أو أكثرها، وإذا كان السلف، وهم من هم في الفصاحة والبيان، ونزل القرآن على لسانهم، يذهب أكثرهم إلى عدم القراءة دون ثلاث، فغيرهم في الزمن المتأخر مع شدة العجمة وضعف اللسان - أولى بالتزام ذلك.

ويُسْنُ أَلَّا يَتَجَاوَزَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْأَرْبَعِينَ، فَإِنْ تَجَاوَزَهَا، كُرِهَ لَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ أَفْصَى حَدٌّ ثَبِتَ فِيهِ الْخَبَرُ؛ قَالَ أَحْمَدُ: «أَكْثَرُ مَا سَمِعْتُ أَنَّ يَخْتِمَ الْقُرْآنَ فِي أَرْبَعِينَ»^(١).

وَقَدْ ثَبِتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: (اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ)، قَالَ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، حَتَّى قَالَ: (فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ)^(٢).

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ؛ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: كَمْ يُقْرَأُ الْقُرْآنُ؟ قَالَ: (فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا)، ثُمَّ قَالَ: (فِي شَهْرٍ)، ثُمَّ قَالَ: (فِي عَشْرِينَ)، ثُمَّ قَالَ: (فِي خَمْسَ عَشْرَةَ)، ثُمَّ قَالَ: (فِي عَشْرِ)، ثُمَّ قَالَ: (فِي سَبْعٍ)، لَمْ يَنْزِلْ مِنْ سَبْعٍ^(٣).

نِسْبَانُ الْقُرْآنِ:

لَا يَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ: أَنَّ نِسْبَانَ الْقُرْآنِ إِنْ كَانَ عَنْ إِعْرَاضٍ وَصَدَّ زَهْدًا فِيهِ وَرَغْبَةً عَنِ الْعَمَلِ بِهِ: أَنَّ نَاسِيَهُ يَأْتُمُ بِذَلِكَ، وَأَنَّ نِسْبَانَهُ إِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، لَا يَأْتُمُ بِهِ صَاحِبُهُ؛ كَمَنْ يَنْسَاهُ لِكِبَرٍ وَهَرَمٍ أَوْ

(١) «مسائل الإمام أحمد» رواية أبي داود (ص ١٠٣)، و«المغني» (٢/ ٦١١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٤)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٩٥).

مصيبه ونازلة أفقدته حضور ذهنه، ونقل ابن رشد المالكي الإجماع على أن من نسي القرآن لاشتغاله بعلم واجب أو مندوب، فهو غير مأثوم^(١).

وقد اختلف العلماء في نسيان القرآن تهاونا وكسلا: هل يأنم به صاحبه؟ على قولين:

القول الأول: قال قوم بإثم ناسيه؛ إلى هذا ذهب جماعة من أصحابنا، وبه قال ابن تيمية، وهو مذهب الشافعية، ومنهم من جعل ذلك كبيرة كالرافعي، ومثله ابن حجر الهيتمي في «الزواجر»^(٢)، ونقل العلاني عن النووي ذلك، ولعله أراد سكوته عن كلام الرافعي، فجعله إقرارا، والنووي أعل الحديث الذي استدلل به على كونه كبيرة، ولم يجعل بعض الشافعية هذا قولاً للنووي كالبلقيني والزركشي^(٣).

واحتج من جعله كبيرة بما رواه أبو داود والترمذي، عن أنس مرفوعا: (عُرِضْتُ عَلَى ذُنُوبٍ أَتَمِّي، فَلَمْ أَرْ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنْ سُورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أَوْتِيَهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا)^(٤).

وروى أيضا عن سعد بن عبادَةَ مرفوعا: (مَا مِنْ أَمْرٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثُمَّ يَنْسَاهُ، إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجَلَمَ)^(٥).

وحديث أنس مُنْكَرٌ؛ أنكره ابن المديني والبخاري^(٦)، وحديث سعد ضعيف؛ لانقطاعه، وفيه يزيد بن أبي زياد، وفيه كلام معروف، وقد

(١) «مساقل ابن رشد» (ص ٦٩١).

(٢) «الزواجر»، عن إقتراف الكبائر (١/ ١٩٩).

(٣) ينظر: «الزواجر»، عن إقتراف الكبائر (١/ ٢٠٠ - ٢٠١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦١)، والترمذي (٢٩١٦).

(٥) أخرجه أبو داود (١٤٧٤).

(٦) سنن الترمذي (٢٩١٦).

ضَعَّفَ الْحَدِيثَ الدَّارِقُطْنِيُّ ^(١) وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ^(٢).

وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي تَأْتِيمِ نَاسِيِ حِفْظِ الْقُرْآنِ مَعْلُومَةٌ؛ وَإِنَّمَا عَامَّةُ السَّلَفِ عَلَى النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ وَالتَّشْدِيدِ فِيهِ، وَصَحَّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ - وَهُوَ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ -: «كُنَّا نَعُدُّ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الرَّجُلُ الْقُرْآنَ ثُمَّ يَنَامَ عَنْهُ حَتَّى يَنْسَاهُ» ^(٣).

وَعَنْ ابْنِ سِيرِينَ فِي الَّذِي يَنْسَى الْقُرْآنَ: كَانُوا يَكْرَهُونَهُ وَيَقُولُونَ فِيهِ قَوْلًا شَدِيدًا ^(٤).

وَقَدْ قَالَ أَحْمَدُ: «مَا أَشَدَّ مَا جَاءَ فِيمَنْ حَفِظَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ» ^(٥).

الْقَوْلُ الثَّانِي: قَالَ قَوْمٌ: إِنَّ نَاسِيَّ حُرُوفِ الْقُرْآنِ يُكْرَهُ لَهُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَأْتُمُّ مَا دَامَ عَامِلًا بِهِ وَلَمْ يَتْرُكْ حَدُودَهُ، وَحَمَلُوا النَّسْيَانَ الْوَارِدَ فِي الْأَحَادِيثِ عَلَى هَجْرِ الْعَمَلِ بِهِ، وَمَعْنَى قَالَ بِهَذَا: ابْنُ عُيَيْنَةَ، وَأَبُو يَوْسُفَ صَاحِبُ أَبِي حَنِيفَةَ، وَأَبُو شَامَةَ شَيْخُ النَّوَوِيِّ، وَقَدْ سَمِيَ اللَّهُ الْإِعْرَاضَ عَنِ الْقُرْآنِ وَتَرْكَ الْعَمَلِ بِهِ نَسْيَانًا؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ^(١٢٦) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ^(١٢٧) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ^(١٢٨) [طه: ١٢٤ - ١٢٦]، وَفِيهِ قَالَ اللَّهُ: ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وَالْأَعْرَافُ: ١٦٥؛ أَيْ: تَرَكُوا، وَقَالَ: ﴿سُوا اللَّهَ فَلَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَنَسِكُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الباقية: ٣٤]، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَهِتْنَا إِلَكَ مَا دَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى﴾ [طه: ١١٥]، قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: «لَيْسَ مَنْ اسْتَهَى حِفْظَهُ وَتَفَلَّتَ مِنْهُ بِنَاسٍ لَهُ إِذَا كَانَ بِحُلُلٍ

(١) «علل الدارقطني» (٢٥٨٣). (٢) «التمهيد» (١٣٦/١٤).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٤٥). (٤) «فتح الباري» لابن حجر (٨٦/٩).

(٥) «مسائل الإمام أحمد» رواية أبي داود (ص ١٠٣)، و«الفروع» لابن مفلح (٣٨٢/٢).

حلاله ويحرم حرامه، قال: ولو كان كذلك، ما نسي النبي شيئاً منه؛ قال الله: ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَسْقَ ۝١﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿[الأعلى: ٦ - ٧]، وقد نسي رسول الله منه أشياء، وقال: (ذَكَرَنِي هَذَا آيَةٌ أَنْسِيْتُهَا)»^(١).

وحمل أبو يوسف معنى النسيان الوارد في وعيد ناسي القرآن: على نسيان قراءته من المصحف، فينسى علم القراءة وحروف العرب.

النوع الثاني من الهجر: هجر تدبر معانيه واحكامه:

والمقصود من إنزال القرآن: تدبره وتأمله للعمل بما فيه، ومن شغلته حروف القرآن عن حدوده فضيعها، كان ذلك أظهر القوادح في نيته وقصده، وأنه يطلبه لغير الله، ومن عمل بالقرآن ولم يعرف حروفه خيراً ممن يقيم الحروف وهو مضيع للحدود.

وقراءة القرآن مع عدم تدبر من صفات المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وتدبر القرآن يفتح القلب للحق ويرققه للتأبع، وعدم التدبر علامة على الإعراض، ولا يحرم عبد تدبر القرآن إلا بذنوب، فيفسد قلبه به، ثم يعرض عنه، فيكون ثقيلاً عليه؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

النوع الثالث: هجر العمل بما فيه من لوازم واحكام:

وهو أعظمها وأشدّها؛ لأن المقصود من التلاوة والقراءة العمل، فقد يقرأ القارئ القرآن ولا يعمل به، وقد يتدبر معانيه ويعرف أحكامه ويعرض عنها، وكلما كان الإنسان بالقرآن أعلم، كان التكليف عليه أشد، والإعراض منه أكبر؛ فإنما يؤاخذ العبد بترك ما علم، لا بترك ما لم يعلم.

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الاستذكار» (٥٨/٨).

وهجرُ العملِ به على أنواع كثيرة: منها هجرُ الإيمانِ به، وهجرُ امتثالِ أوامره واجتنابِ نواهيه، وهجرُ الحاكمِ والسُّلطانِ والقاضي لأحكامه وتعطيلُها، والقضاءُ بالهوى والرأي، وسُنُّ القوانينِ المخالفةِ له.

❏ قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَجَاهِدُوا بِهِمْ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

[الفرقان: ٥٢].

المرادُ بالجهادِ هنا: هو الجهادُ باللِّسانِ، وبيانُ الحقِّ بالقرآنِ وحُجَجِهِ وبراهينه، وجهادُ اللِّسانِ والبيانِ أعظمُ من جهادِ السُّنانِ؛ فإنَّ الأولَ قد يقومُ بدونِ الثاني، والثاني لا يقومُ إلَّا بالأولِ، وهذه الآيةُ مكيَّةٌ كهذه السُّورة، ونزلتْ ولم يُقرَضِ الجهادُ بعدُ.

وحينما أمر الله بجهادِ اللِّسانِ وصَفَ النوعَ الذي يأمرُ به بوصفَيْنِ في كتابه لم يَصِفْ بهما جهادَ السُّنانِ؛ الأولُ: أَنَّهُ جهادٌ كبيرٌ؛ كما في الآية، والثاني: أَنَّهُ حقُّ الجهادِ؛ كما في قوله تعالى في سورة الحجِّ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [٧٨].

❏ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ

رَبِّهَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

في هذه الآية: وجوبُ تجرُّدِ المُصلِحِ وإعراضِهِ عن دُنْيَا الناسِ؛ حتى لا يظُنُّوا به سوءًا؛ كقطع في الدُّنيا والجاه؛ وذلك أنَّ أولَ ظنِّ الظالمينَ بالمُصلِحينَ حينما يُنكرونَ عليهم ضلالتهم: أَنَّهُمْ يُريدونَ مُزاحمتهم على سُلطانهم وجاههم؛ لأنَّ نفوسهم تتشربُ مِن اتِّباعِ ذلك،

فَيَخَافُ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنْفَسِ شَيْءٍ عَلَيْهِ؛ لَذَا يَخَافُونَ الْمُزَاحِمَةَ؛ فَيَشْكُونَ فِي الْمُصْلِحِينَ، وَهَكَذَا ظَنُّوا بِالنَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ وَالنِّسَاءَ، وَفِي «الْمُسْنَدِ»، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُبَلٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: (تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِذَا عَلِمْتُمُوهُ، فَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَخْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْبِرُوا بِهِ)^(١).

وقد تقدّم الكلام على الحكمة من نهي الأنبياء وأتباعهم عن ذلك، عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ لَا اسْتَلْعَمَ عَلَيْنَا مَالٌ إِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَى قَوْمًا يَهْمَلُونَ﴾ [مرد: ٢٩].

* * *

﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

في هذا: تعظيم نافلة الليل وفضلها على نافلة النهار؛ حيث ذكّرها الله في خصائص عبودية أهل الإيمان، ولا يختلف العلماء على أن نافلة الليل المطلقة أفضل من نافلة النهار المطلقة؛ كما قال ﷺ: (أَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ)؛ رواه مسلم من حديث أبي هريرة^(٢).

ويأتي الكلام على قيام الليل، وكيفية تقسيمه في سورة المزمل؛ بإذن الله.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٤٤٤/٣).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٣).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

في هذه الآية: مشروعية القصد والاعتدال حتى في النفقة والصدقة؛ فلا يُجحف المتصدق على نفسه ويضيع من يعول، وقد تقدم الكلام على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَذَاقُ الْفُرْقَةَ حَقًّا وَالْمُسْكِينَ وَأَبَنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِالْقَوْرِ مَرُّوا كِرَامًا﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

الزُّور: الكذب والبهتان؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]، وقوله: ﴿وَلَهُمْ لَقَوْلُونَ مَنَّكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]، وكل قول مُفْتَرَى فهو زور، ويعظم إذا كان مقرونا بالشهادة، فيشهد الإنسان على شيء لم يره ولم يسمعه، وهذا أعظم من مجرد قول الزور وفعله؛ فإن الإنسان قد يقول الباطل فينسب باطلاً لأحد ولم يزعم أنه رآه ولا سمعه منه، فهذا مع كونه عظيماً إلا أن الأعظم منه إذا زعم أنه شاهد عليه بسمعه أو بصره؛ فهذه شهادة الزور.

وقد غلظ النبي ﷺ شهادة الزور، وحلّ منها تحذيراً شديداً؛ كما في «الصحيحين»، من حديث أبي بكرة ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِكَبِيرِ الْكِبَائِرِ - ثَلَاثًا - ؟ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ - أَوْ قَوْلُ الزُّورِ -)، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَمَا

زَالَ يُكْرَرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ^(١).

وقد قرن النبي ﷺ شهادة الزور بالإشراك مع الله شيئاً، وفي ذلك يُروى حديث في «السُّنَنِ»، من حديث خُرَيْمِ بْنِ قَاتِكِ الْأَسَدِيِّ، قال: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَامَ قَائِمًا، فَقَالَ: (عَدِلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ بِالإِشْرَاقِ بِاللَّهِ) ثَلَاثَ مَرَارٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّيسَ مِنَ الْأَدْنَىٰ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ حُفَّاةً يَدْعُوهُ تَشْرِيكًا بَيْنَ رَيْبٍ﴾ [الحج: ٣٠ - ٣١]^(٢).

وَكَيْتَمَانُ الشَّهَادَةِ شَيْءٌ بِشَهَادَةِ الزُّورِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةً أَلَّهُ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]: «شَهَادَةُ الزُّورِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ، وَكَيْتَمَانُهَا كَذَلِكَ»^(٣).

قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ «أَيُّ: فَاجِرٌ قَلْبُهُ»^(٤).
وَقَدْ قَالَ قَتَادَةُ: «لَا تَقُلْ: «رَأَيْتُ» وَلَمْ تَرَ، وَ«سَمِعْتُ» وَلَمْ تَسْمَعْ، وَ«عَلِمْتُ» وَلَمْ تَعْلَمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ»^(٥).



(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٢١/٤)، وأبو داود (٣٥٩٩)، وابن ماجه (٢٣٧٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٧٢٨/١).

(٤) تفسير الطبري (١٢٦/٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥٧٢/٢).

(٥) تفسير الطبري (٥٩٤/١٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٣٣١/٧).



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿قَالَ تَعَالَى: «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾
[الشعراء: ١٨١ - ١٨٣].

فيه: تعظيمُ بَخْسِ الحقوقِ وظلمِ الخلقِ؛ حيثُ كان قومُ شعيبٍ إذا اكتالوا لأنفسِهِم زادوا، وإذا كالوا للناسِ، بَخَسُوهم، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾؛ يعني: الْمُتَقَصِّصِينَ لِلْكَيلِ.

وعقابُ الظلمِ في حقوقِ الناسِ أَعَجَلَ مِنَ الظُّلْمِ في حقِّ الله؛ لأنَّ اللهَ يَنْتَصِرُ لِعِبَادِهِ الْمَظْلُومِينَ في حقوقِهِمْ أَسْرَعَ مِنْ انتصارِهِ لِحَقِّهِ سبحانه؛ لِكَمالِ غِناءِ وعلوِّ شأنِهِ؛ إذ لا يَضُرُّهُ مخلوقٌ، ويُمَهِّلُ الخَلْقَ في حقِّهِ غالبًا، ويَعَجِّلُ في حقوقِ العِبَادِ؛ لأنَّ هذا مُقتضى ربوبيَّتِهِ لَهُمْ، وقد كان السلفُ يُحَذِّرونَ مِنَ البقاءِ بِأَرْضٍ يَظْهَرُ فيها ظُلْمُ الناسِ وَبَشِيعُ وَيُشْرِعُ، وقد صَحَّ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ قَوْلُهُ: «إِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ يُوقُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، فَلَا تَعْجَلْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ لَا يُوقُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، فَعَجَلْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا»^(١).

وهذه الآيةُ في قومِ شعيبٍ وما وَقَعُوا فِيهِ مِنْ ظُلْمِ الْأَمْوَالِ، وقد تقدَّم الكلامُ على ما وَقَعُوا فِيهِ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ عِنْدَ

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/٢٨١١).

قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

* * *

قال تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقْبُكُ فِي السَّجْدِ ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠].

جاء ذكرُ النبي ﷺ حين قيامه وتقلبه في الساجدين، ورؤية الله له في ذلك؛ فمن السلف من حمل المعنى على تقلبه في صلب آبائه؛ كما روي عن ابن عباس^(١)، وجاء عن مجاهد أنه حمل معنى قوله: ﴿وَتَقْبُكُ فِي السَّجْدِ﴾ على رؤيته لمن خلقه وهو يصلي^(٢).

وحمل عكرمة وقتادة وعطاء الخراساني قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ على صلاة النبي ﷺ منفردا، وقوله: ﴿وَتَقْبُكُ فِي السَّجْدِ﴾ على صلاته جماعة مع المصلين^(٣).

وفي هذا: مشروعية أن يكون للعبد صلاة منفردا مع صلاته جماعة مع المسلمين، يخلو بانفراده بها بربه يُناجيه؛ ليتطهر باطنه من آثار رؤية الخلق له وسماعهم لذكره، فيكون في موضع لا يسمعه إلا الله ولا يبصره إلا هو، وهذا إن احتاج إليه الأنبياء مع عِصْمَتِهِمْ وطهارة قلوبهم، فإن حاجة غيرهم أكث وأعظم.

وقد تقدّم الكلام على حكم الصلاة جماعة عند قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

* * *

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٢٨/٩).

(٢) تفسير الطبري (٦٦٧/١٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٨٢٩/٩).

(٣) تفسير ابن كثير (١٧١/٦).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾﴾
[الشعراء: ٢٢٧].

في هذه الآية: مشروعية انتصار المظلوم من ظالمه بمقدار مَظْلَمَتِهِ من غير بَغْيٍ، وقد جاء في القرآن حمدُ العفو عَمَّنْ ظَلَمَ في مواضع؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنْ يُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

انتصار المظلوم من ظالمه وأحواله:

وفي هذه الآية حمد الله المنتصر بعد ظلمه: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾؛ وذلك أَنَّ الانتصارَ مِنَ الظالمِ على نوحَيْن:

النوع الأول: انتصار خالص للنفس مِمَّنْ ظَلَمَ؛ فهذا الانتصار حقٌّ، ولكن العفو عند القدرة والتحمل للأذى أفضل؛ وهذا أكثرُ حمدٍ العفو عليه في الكتاب والسنة.

النوع الثاني: انتصار الله وليِّه، ولو امتزج بشيءٍ من حقِّ النفس، فالانتصارُ لله متأكَّدٌ وواجبٌ، ما لم تُقَمِّمْ مَفْسَدَةً في الدينِ أعظمَ من مَفْسَدَةِ البَغْيِ الذي يُرادُّ الانتصارُ منه، وقد كان النبي ﷺ لا ينتصرُ لنفسه؛ وإنما ينتصرُ لله وحُرُمَاتِهِ إذا انتهكت، وهذه الآية انتصارُ الله؛ وذلك أَنَّ سببَ نزولها كان بسببِ ظلمِ قريشٍ للنبي ﷺ بإنشادِ الشُّعْرِ فيه

وسبّه وتشويه رسالته، فقام بعض الأنصار من الصحابة بالانتصار منهم
بمثل ما قالوه من الشعر؛ قال ابن عباس: «يرُدُّونَ على الكفار الذين
كانوا يَهْجُونَ به المؤمنين»^(١).

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لحسان: (اهْجُهُمْ - أَوْ
هَاجِهِمْ - وَجَبْرِيلُ مَعَكَ)^(٢).



(١) «تفسير الطبري» (١٧/٦٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦).



سُورَةُ النَّملِ

❏ قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩].

سَمَّى اللهُ تَبَسَّمَ سَلِيمَانَ ضَاحِكًا؛ وبهذه الآية استدلَّ بعضُ السلفِ على أَنَّ التَّبَسُّمَ في الصلاةِ يَأْخُذُ حُكْمَ الضَّحْكِ، وفيه نظرٌ؛ كما روى الحَكَمُ بْنُ عَظِيَّةَ، عن ابنِ سيرينَ؛ أَنَّهُ سُئِلَ عن التَّبَسُّمِ في الصلاةِ؟ فَقَرَأَ هذه الآيةَ: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾: لا أَعْلَمُ التَّبَسُّمَ إِلَّا ضَاحِكًا؛ أَخْرَجَهُ ابنُ أَبِي شَيْبَةَ^(١).

حُكْمُ الضَّحْكِ فِي الصَّلَاةِ وَالتَّبَسُّمِ:

الضَّحْكَ في الصلاةِ مُبْطِلٌ لَهَا؛ لِأَنَّهُ يُخَالِفُ وَقَارَهَا، وهو أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِنْ كَثِيرِ الْحَرَكَةِ وَالْإِلْتِفَاتِ، وإنْ كَانَتِ الْعَرَبُ لَا تَعُدُّ الضَّحْكَ كَلَامًا، إِلَّا أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ وَأَبْشَعُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْكَلَامُ فِي الصَّلَاةِ مَعَ خُشُوعٍ وَخُضُوعٍ وَحَاجَةٍ، وَأَمَّا الضَّحْكَ وَالْقَهْقَهَةُ، فَلَيْسَ فِيهَا خُضُوعٌ قَلْبٍ وَلَا حُضُورَةٌ، وَلَا تَعْظِيمٌ لِلْمَوْقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَامَّةُ السَّلَفِ عَلَى بُطْلَانِ صَلَاةٍ مَنْ قَهَقَ فِي صَلَاتِهِ وَضَحِكَ؛ صَحَّ هَذَا عَنْ جَابِرٍ^(٢)، وَلَا مُخَالَفَ لَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ.

(١) أَخْرَجَهُ ابنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٩٠٦).

(٢) سَيَأْتِي تَخْرِيجُهُ.

وصَحَّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هَلَالٍ، قَالَ: كَانُوا فِي سَفَرٍ فَصَلَّى بِهِمْ أَبُو مُوسَى، فَسَقَطَ رَجُلٌ أَعُورٌ فِي بَثَرٍ أَوْ شَيْءٍ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ غَيْرَ أَبِي مُوسَى وَالْأَحْنَفِ؛ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعْبِدُوا الصَّلَاةَ^(١).

وَقَدْ حَكَى ابْنُ الْمُنْذِرِ^(٢) الْإِجْمَاعَ عَلَى بَطْلَانِ صَلَاةٍ مَنْ ضَحِكَ.

وَأَمَّا التَّبَسُّمُ مِنْ غَيْرِ ضَحِكٍ وَفَهْقَةٍ، فَقَدْ ذَهَبَ عَامَّةُ السَّلَفِ إِلَى عَدَمِ بَطْلَانِ الصَّلَاةِ بِالتَّبَسُّمِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَهْقَةِ، وَقَدْ قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «التَّبَسُّمُ لَا يَقْطَعُ، وَلَكِنْ تَقْطَعُ الْقَرْقُرَةُ»^(٣).

وَبِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ^(٤)، وَالْحَسَنُ^(٥)، وَالنَّخَعِيُّ^(٦)، وَيُرْوَى هَذَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٧)؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي خِلَافُهُ؛ لِأَنَّ التَّبَسُّمَ تَعَابِيرُ فِي الْوَجْهِ، وَقَدْ يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ؛ كَالْفَرَحِ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ وَسَعَةِ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ جَنْسِ ضَحِكِ الْفَهْقَةِ الَّذِي لَا يَكُونُ عَنْ تَعْظِيمٍ وَسُرُورٍ بِالْحَقِّ؛ وَإِنَّمَا خُرُوجٌ عَنْ مَقَامِ الصَّلَاةِ وَعَظَمَتِهَا.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ جَعَلَ التَّبَسُّمَ ضَحِكًا؛ كَمَا رَوَاهُ الْحَكَمُ بْنُ عَطِيَّةَ، عَنْ ابْنِ سِيرِينَ؛ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ التَّبَسُّمِ فِي الصَّلَاةِ؟ فَهَرَأَ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٩١٤).

(٢) «الْأَوْسَطُ» (٤٣٩/٣)، وَ«الْإِجْمَاعُ»؛ لَا بِنَ الْمُنْذِرِ (ص ٣٤).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٩٠٢)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٧٧٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٢٥١/٢).

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٩٠٤)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٧٧٥).

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٩٠٥).

(٦) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٩٠٣).

(٧) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٩٠١)، وَالتَّطَبُّعِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٨٧٣٦).

هذه الآية: ﴿تَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾: لا أعلم التَّبَسُّمَ إِلَّا ضَحْكًا^(١).

ولا أعلم مَنْ قال بقول ابنِ سِيرِينَ هذا مِنَ الصحابة ولا مِنَ التابعين في أَنَّ التَّبَسُّمَ يُبْطِلُ الصلاةَ، وتفرَّدَ به عنه الحكمُ بنُ عَطِيَّةٍ، وقد ضَعَّفَهُ النَّسَائِيُّ^(٢)، وقد قال فيه أحمدُ: «حَدَّثَ بِمَنَاقِيرٍ»؛ قال المَرُوذِيُّ: «كَأَنَّهُ ضَعَّفَهُ»^(٣).

وَيَتَّفَقُ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الضَّحْكَ وَالْفَهْقَهَةَ خَارِجَ الصَّلَاةِ لَا يُبْطِلُ الْوُضُوءَ؛ كَمَا حَكَاهُ ابْنُ الْمُثَنِّيرِ^(٤)، وَأَنَّ الضَّحْكَ بِلَا فَهْقَهَةٍ لَا يَنْقُضُ الْوُضُوءَ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ؛ كَمَا حَكَاهُ النَّوَوِيُّ؛ وَإِنَّمَا خِلَافُهُمْ فِي الضَّحْكِ مَعَ الْفَهْقَهَةِ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ: هَلْ يُبْطِلُ الصَّلَاةَ وَالْوُضُوءَ، أَمْ يُبْطِلُ الصَّلَاةَ فَحَسْبُ؟ وَالصَّحِيحُ: عَدَمُ نَقْضِ الْوُضُوءِ، وَهُوَ قَوْلُ جَمْهَوِرِ الْعُلَمَاءِ؛ لِعَدَمِ الدَّلِيلِ الصَّحِيحِ عَلَى ذَلِكَ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ، بَلِ الصَّحِيحُ عَنِ الصَّحَابَةِ: عَدَمُ النَقْضِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ جَابِرٍ قَوْلُهُ: «إِذَا ضَحَكَ فِي الصَّلَاةِ، أَعَادَ الصَّلَاةَ وَلَمْ يُعِدِ الْوُضُوءَ»^(٥).

وَكُلُّ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي نَقْضِ الْوُضُوءِ بِالضَّحْكِ مَعْلُولَةٌ، وَقَدْ بَيَّنَّهَا فِي «كِتَابِ الْعِلَلِ».

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الضعفاء والمتروكين» للنسائي (ص ٨٠).

(٣) «العلل» للإمام أحمد، رواية المروزي وغيره (ص ٧٨).

(٤) «الأوسط» (١/ ٣٣٠)، و«الإجماع» لابن المنذر (ص ٣٤).

(٥) أخرجه البخاري معلقًا قبل حديث (١٧٦)، ووصله عبد الرزاق في «مصنفه» (٣٧٦٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٩٠٨)، والدارقطني في «سننه» (١/ ١٧٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ١٤٤).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَدَّبَحَنَّكَ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾﴾ [النمل: ٢١].

في هذا: وعيد سليمان للهدهد بالعذاب الشديد أو الذبح، وجاء أن سبب تفقد سليمان للهدهد وتوعد له عن ابن عباس: أنه جلس إلى عبد الله بن سلام، فسأله عن الهدهد: لِمَ تَفَقَّدَهُ سليمانُ من بين الطير؟ فقال عبد الله بن سلام: إنَّ سليمانَ نَزَلَ منزلةً في مسيرٍ له، فلم يَدْرِ ما بُعِدَ الماء، فقال: مَنْ يَعْلَمُ بُعْدَ الماءِ؟ قالوا: الهدهد؛ فذاك حينَ تَفَقَّدَهُ؛ رواه ابن جرير^(١).

قوله تعالى: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وقد توعدَه بعذابه، وقد صحَّ عن ابن عباس^(٢)، ومجاهد^(٣): أنَّ عذابه بَشْفٍ ريشه.

حُكْمُ تَأْدِيبِ الْحَيَوَانِ وَتَعْذِيبِهِ:

في هذه الآية: تجويزُ تعذيبِ الحيوانِ، وهو الهدهد، وإنما توعدَه سليمان؛ لأنَّ الحيوانَ يُدْرِكُ أَمْرَ سليمانَ له؛ فقد علَّم الله سليمانَ مَنْطِقَ الطير، ولكنَّ الله لم يعلم الطيرَ مَنْطِقَ سليمانَ، فالإعجازُ لنبيِّ الله لا للطير؛ لأنَّ الله قال على لسانِ سليمانَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مَّنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وفي الحيوانِ نوعٌ إدراك، ولكن ليس بينه وبين بني آدم خطابٌ مفهومٌ، وقد حَجَبَ اللهُ الخطابَ بينهم؛ فلم يَسْتَطِعِ الإنسانُ خطابَ الحيوانِ بلسانه، ولا الحيوانُ خطابَ الإنسانِ بلسانه.

وفي الآية: جوازُ تأديبِ الحيوانِ؛ ففي الحيوانِ نوعٌ إدراك،

(١) «تفسير الطبري» (٣٠/١٨).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٣/١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/٢٨٦٢).

(٣) «تفسير الطبري» (٣٣/١٨).

فِيْعَاقِبُ حَسَبَ مَا يُدْرِكُ، وَالْحَيَوَانَاتُ تَتَبَايَنُ مِنْ جِهَةِ إِدْرَاقِهَا وَمَقْدَارِهِ وَنَوْعِهِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَ مِنْهَا مَا يَقْبَلُ التَّعْلِيمَ؛ كَالْكَلْبِ وَالطَّيْرِ وَالْفَرَسِ، وَمِنْهَا مَا لَا يَقْبَلُهُ؛ كَالْجَرَادِ وَالْفَرَاشِ وَالنَّمْلِ.

وقد دلَّ الدليلُ على أَنَّ الحيوانَ يُدْرِكُ تَقْدِيرَهُ الْفُطْرِيَّ الَّذِي أَوْجَدَهُ اللَّهُ لِأَجَلِهِ، بَلْ يُدْرِكُ بَعْضَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُحَاسِبُ عَلَى مِثْلِهَا فِي الْآخِرَةِ بِالْقِصَاصِ فَقَطْ بِلَا جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحِ؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: (لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)^(١)، وَعَلَى هَذَا فَسَّرَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وَفِي «الْمُسْنَدِ»، عَنْ أَبِي ذَرٍّ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدْرِي فِيْمَ تَنْتَطِحَانِ؟)، قَالَ: لَا، قَالَ: (لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا)^(٢).

وَرُويَ فِي الْفَصْلِ بَيْنَ الْبَهَائِمِ؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو^(٣).

وقد روى عبدُ الرزَّاقِ، عن مَعْمَرٍ، عن الزُّهْرِيِّ، عن عروة، عن عائشة؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (كَانَتْ الضَّفْدَعُ تُطْفِئُ النَّارَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ الْوَرُغُ يَنْفُخُ فِيهِ)، فَهِيَ عَنْ قَتْلِ هَذَا، وَأَمَرَ بِقَتْلِ هَذَا^(٤).

وفِي «الْمُسْنَدِ» وَابْنِ مَاجَةَ، عَنْ سَائِبَةَ مَوْلَاةِ الْفَاكِهَةِ: أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ، فَرَأَتْ فِي بَيْتِهَا رُمَحًا مَوْضُوعًا، فَقَالَتْ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَضَعِينَ بِهِذَا؟ قَالَتْ: نَقْتُلُ بِهِ هَذِهِ الْأَوْرَاعَ؛ فَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَنَا؛ أَنَّ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٢). (٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٦٢/٥).

(٣) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٥٧٥/٤).

(٤) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٨٣٩٢).

إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ، لَمْ تَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةً إِلَّا أَطْفَاتِ النَّارِ،
غَيْرَ الْوَزْغِ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَيْهِ؛ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِهِ^(١).

ولم يؤخذ الوزغ إلا لأنه يعلم ما فعل، ويدرك إبراهيم من غيره.
واقتصاصُ الله بين البهائم حقوقها دليل على أن فيها نوع إدراك؛
لأن الله لا يقتصر بين مجانين بني آدم وأطفالهم الحقوق التي تكون
بينهم؛ لأنهم لا يدركون، فدل على أن إدراك البهائم فوق إدراكهم،
ولكن الله حجب الوساطة والرابطة بين الحيوان وبين بني آدم، وهو
اللسان، ولم يخص بها إلا سليمان ومن شاء من خلقه.

وضرب الحيوان لتعليمه، أو لتأديبه وعقابه على جنايته وخطئه -
على نوعين:

النوع الأول: ضرب الحيوان على ما يتعلمه؛ كضرب الكلب
ليتعلم، والفرس والجمل ليسرع، وكذلك عقابه على خطئه؛ كضرب
الكلب إن أكل من الصيد دون إذن سيده، ويكون ضربه وتأديبه بما
يحصل المقصود منه، لا يريد عليه فيعذبه؛ فإن الزيادة على ذلك محرمة.
ولا يجوز ضرب الحيوان الذي لا يتعلم مثله بقصد تعليمه،
ولا تعذيب من لا يدرك خطأه من الحيوان بقصد زجره عن تكرار فعله؛
وإنما يجوز ضربه لدفعه عن الإضرار وحماية النفس منه بما يدفعه.

النوع الثاني: تعذيب وضرب له على ما لا يدركه من تصرفه،
وعلى ما لا يتأدب عن تركه أو فعله؛ لأنه لا يفهم المقصود من
الضرب، ولا على أي شيء نزل به، فهذا لا يجوز إلا بمقدار ما يدفع
الإنسان عن حقه من مال وزرع ومسكن، وإذا كان لا يندفع أذاه إلا
بقتل، قتله؛ كما أذن النبي ﷺ بقتل الفواسق الخمس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾: لَمْ يُنْزِلْ سَلِيمَانُ الْعَذَابَ بِالْهَدْمِ حَتَّى أَمَهَلَهُ لِيَأْتِيَهُ بَيِّنَةٌ تَعْلِرُهُ عَنْ غِيَابِهِ؛ وَفِي هَذَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْزَالُ الْعِقَابِ عَلَى الْمَخْطِئِ حَتَّى تُسْمَعَ حُجَّتُهُ، وَإِنْ طَلَبَ الْإِمَهَالُ يُمَهَّلُ لِيَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ وَشَاهِدَةٍ، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ الْأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ جَاءَ مُدَّعِيًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى يَهُودِيٍّ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (أَلَاكَ بَيِّنَةٌ؟) ^(١)، وَلَمَّا جَاءَهُ هَلَالٌ بْنُ أُمَيَّةَ، وَقَدْ قَذَفَ زَوْجَتَهُ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ) ^(٢).

* * *

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

اسْتَنْكَرَ الْهَدْمُ مَا رَأَى مِنْ قَوْمٍ سَبَّأٍ وَمَلِكْتِهِمْ، فَذَكَرَ مَا لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِهِ، وَهُوَ مُلْكُ الْمَرْأَةِ عَلَى الْقَوْمِ وَالْبُلْدَانِ؛ وَفِي هَذَا أَنَّ فِطْرَةَ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ جُعِلَتْ عَلَى قِيَامِ الرِّجَالِ بِالْمُلْكِ وَمِيَادَةِ الْبُلْدَانِ وَسِيَاسَةِ النَّاسِ.

وَلَيْسَ فِي الْآيَاتِ إِقْرَارٌ مِنْ سَلِيمَانَ لَهَا عَلَى مُلْكِهَا لِقَوْمِهَا، بَلْ فِيهَا إِقْرَارٌ مِنْ سَلِيمَانَ لِلْهَدْمِ عَلَى اسْتِنْكَارِهِ، وَقَوْمٌ سَبَّأٌ لَمْ يَكُونُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالْأَنْبِيَاءُ يُخَاطَبُونَ الْأُمَمَ بِأَعْظَمِ أَخْطَائِهِمْ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالشُّرْكُ، وَلَا يَسْتَفْلُونَ بِمَا دُونَهُ حَتَّى يُصْلِحُوا مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَتْ مَلَكَةُ سَبَّأٍ فِي مُلْكِ سَلِيمَانَ، لَمْ يُؤْلَهَا شَيْئًا.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤١٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٧١).

وَلَايَةُ الْمَرَأَةِ:

وَوَلَايَةُ الْمَرَأَةِ عَلَى نَوْعَيْنِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: وَلَايَةُ عَامَّةٌ، وَمَا تَجَزَّأَ عَنْهَا؛ فَهَذِهِ وَلَايَةُ لَا تَجُوزُ لِلْمَرَأَةِ، وَيَتَّفَقُ الصَّحَابَةُ عَلَى هَذَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَى السُّلْطَانِ وَالْإِمَامِ، فَهُوَ مِمَّا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: (لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ) (١).

وَمَا يَتَجَزَّأُ مِنَ وَلَايَةِ الْإِمَامِ: الْقَضَاءُ؛ وَذَلِكَ لِتَضَمُّنِهِ الْعُقُوبَةَ وَالْحَبْسَ وَالْجَلْدَ وَالْقِصَاصَ وَالتَّغْرِيبَ، وَوَلَايَةُ الشَّرْطِ وَالْجُنْدِ وَالْجِيُوشِ، وَإِمَارَةُ الْجِهَادِ، وَتَنْفِيزُ الْحُدُودِ، وَوَلَايَةُ الْبُلْدَانِ وَالْقُرَى، وَتِلْكَ الْوَلَايَاتُ الَّتِي تَجَزَّأَتْ عَنْ وَلَايَةِ الْإِمَامِ لَا يُقَالُ: «إِنَّهَا جَائِزَةٌ؛ لَكُونِهَا لَيْسَتْ وَلَايَةُ عَامَّةٌ»؛ بَلْ هِيَ وَلَايَةُ عَامَّةٌ تَجَزَّأَتْ، وَلَوْ صَحَّحَتْ أَنَّ تَلِيَهَا الْمَرَأَةُ، لَجَازَ لِلْإِمَامِ الْأَعْظَمِ أَنْ يَقْسِمَ وَلَايَاتِهِ إِلَى أَجْزَاءٍ، وَيَضَعَ عَلَى كُلِّ جُزْءٍ امْرَأَةً، وَيُنْيِبُهُنَّ عَنْهُ؛ فَتَكُونُ حِينَئِذٍ الْوَلَايَةُ الْكُبْرَى بِيَدِ الْمَرَأَةِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ؛ وَهَذَا لَا يَجُوزُ.

وَاللَّهُ قَدْ جَعَلَ الرُّجَالَ قَوَّامِينَ عَلَى النِّسَاءِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْكَ بِالْمَرْءِ وَالرِّجَالِ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ الْمَرَأَةُ فِي بَيْتِهَا تَأْتِمِرُ بِأَمْرِ زَوْجِهَا وَتَخْرُجُ مِنْهُ بِإِذْنِهِ، ثُمَّ تَنْتَهِي وَلَايَتُهُ وَقَوَامَتُهُ عَلَيْهَا عِنْدَ خُرُوجِهَا لِتَلِيٍّ أَمَرَ زَوْجِهَا وَأَمَرَ الْأُمَّةِ، فَإِنْ كَانَتْ فِي بَيْتِهَا، كَانَتْ تَحْتَ قَوَامَتِهِ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وَإِنْ خَرَجَتْ، كَانَتْ الْأُمَّةُ تَحْتَ قَوَامَتِهَا؛ وَهَذَا لَا تَقَرُّرُ مِثْلَهُ الشَّرِيعَةُ.

وعملُ الأُمَّةِ في كلِّ القرونِ الفاضلةِ وما بعدها على ذلك في سائرِ
البلدانِ وفي عملِ سائرِ المذاهبِ؛ لم تكنِ المرأةُ تلي شيئاً من هذا النوعِ
من الولاية، كما قال القَرَفِيُّ: «لم يُسمَعْ في عصرٍ من العصورِ أنَّ امرأةً
وَلَّيَتِ القضاءَ؛ فكان ذلك إجماعاً؛ لأنَّه غيرُ سبيلِ المؤمنين... وقياساً
على الإمامةِ العظمى»^(١).

وقد كانت أمهاتُ المؤمنين أفضلَ نساءِ زمانِهِنَّ، ومات النبي ﷺ
عن أكثرِهِنَّ، وكذلك نساءُ الصحابةِ مِنَ المهاجراتِ والأنصاريَّاتِ، لم
يُثْبِتْ أنَّ الصحابةَ وَلَّوْا امرأةً مِنْهُنَّ، مع عَقْلِهِنَّ ودينِهِنَّ وعِلْمِهِنَّ.
وينسَبُ بعضهم إلى ابنِ جريرِ الطبريِّ القولَ بولايةِ المرأةِ للقضاءِ؛
وهذا لا يثبتُ عنه، وهو مِنَ الكذبِ عليه، فلا يُوْجَدُ في كتبه صريحاً،
ولا أصولُهُ تَجْري على مِثْلِ هذا القولِ.

وأما قولُ أبي حنيفة: إِنَّ المرأةَ تَقْضي فيما تَشْهَدُ فيه، فليس ذلك
توليةً لها للقضاءِ فتولاؤه وتَنْصِبُ له؛ وإنما يَصْحُحُ منها الفصلُ العارضُ؛
لأنَّ إِمضاءَ الحُكْمِ شيءٌ، والانتصابُ للولايةِ عليه شيءٌ؛ فأبو حنيفة يَكْرَهُ
للمرأةِ الشَّابَّةِ خُرُوجَها إلى المساجِدِ نهاراً؛ حتى لا يراها الرجالُ؛ فكيف
يُنْصَبُها قاضيةً لهم؟

ويُنْسَبُ توليةُ المرأةِ مَنْصِبَ القضاءِ إلى الحنفيَّةِ؛ وهذا باطلٌ أيضاً؛
وفقهاءُ الحنفيَّةِ عبرَ القرونِ الماضيةِ مع انتشارِ مذهبِهِم في الدولةِ العثمانيةِ
لم يكنْ واحدٌ مِنْهُمْ يعملُ بذلك، ولا جَوَزهَ للسُّلْطانِ، ولا وَضَعُوا
مدارسَ لتعليمِ المرأةِ القضاءَ والفصلَ بينَ الخصومِ، ولم يَثْبُتْ في عصورِ
دولةِ الإسلامِ تَوَلَّى امرأةً للقضاءِ إِلَّا أُمُّ موسى القَهْرَمَانَةُ حينَما وَلَّتْها في
بغدادَ أُمُّ الْمُقْتَدِرِ حينَما تَوَلَّى ابنُها وهو دونَ البلوغِ، فولَّتْها باستبدادٍ
وقهرٍ، لا بعِلْمٍ وقُتْيا، ولم يُوَلِّها خليفةٌ مسلمٌ، وكانت معروفةً بالشرِّ

والظلم، ويأنيها الناس ضرورة لا اختياراً، ولم تكن مهمتها إلا التوقيع على الصكوك والمراسم، لا الفصل والقضاء، ثم لما رأى المقتدر بعد فسادها في الأموال والتصرفات، حبسها.

النوع الثاني: ولاية خاصة، وهي ولاية المنافع، وهي ما لا يتجزأ عن ولاية الإمام، ويصح أن يقوم به الرجال والنساء من غير إمام؛ كولاية المنافع من ولاية المرأة على البيع والشراء، وولايتها على الأيتام والأرامل أفراداً أو جماعات أو مؤسسات، وولايتها على نساء جنسها بتعليمهن، وولايتها على المدارس والمصحات التي لا يتصل بها مفسد تتعدى بها إلى محرم؛ فتحرّم حينئذ لأجل غايتها، لا لأجل مجرد الولاية؛ كولاية المرأة على تعليم الرجال والنساء؛ فذلك لا يصح، لا لأجل كونها ولاية؛ ولكن لكون ذلك يلزم منه مفسد؛ كاختلاطها بالرجال الأجانب؛ فهي إما أن تختلط بهم أو تقصر في ولايتها؛ وكلا الأمرين لا يجوز؛ فامتنع توليها.

ولما جازت هذه الأنواع؛ لأنها ولايات لا يلزم في قيامها إذن الإمام، وليست من ولايته ولا جزءاً منها، فيجوز للناس أن يعلموا صبيانهم، ويحفظوا أموالهم، ويعالجوا أنفسهم، ويبثوا ذوراً لذلك، ولا يشترط عند الفقهاء إذن الإمام بهذا؛ لأنها ليست من ولايته ولا من أجزائها، ما لم يكن قد وضع الإمام نظاماً يصلح أحوال الناس ويضبط حياتهم؛ حتى لا يبغي بعضهم على بعض، فيلتزم ذلك، لا لكونه لا يصح عمل الناس وتلك الولاية إلا به، ولكن لأنه أصلح للناس فتجب طاعته.

وهذا بخلاف ولاية الجنود والجيش والقضاء وإمارة البلدان والقرى، فهذا لا بد له من إذن الإمام؛ لأنه من ولايته وأجزائها؛ إذ لا يجوز للناس أن يضعوا لقريةهم أو حيّهم قاضياً أو أميراً - دون إذن

الإمام - يَفْصِلُ فِي أَمْرِهِمْ وَيُقِيمُ الْحُدُودَ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى، ما لم يكونوا في بلدٍ لا إمامَ أكبرَ فيه.

وولايةُ المرأةِ قد تحرّمُ لذاتها، وقد تحرّمُ لِمَا تُفْضِي إليه:
أَمَّا تحريمُها لذاتها: فهي ما تقدّمَ مِنَ الْوَلَايَةِ الْكُبْرَى وما تجزأ
عنها مِنَ ولايةِ الإمام.

وَأَمَّا تحريمُها لِمَا تُفْضِي إليه: فكولايتهما الجائزةُ في ذاتها، ولكنها تُفْضِي إلى مُحَرَّمٍ؛ كَأَن تُوَدِّيَ إِلَى سَفَرٍ بِلَا مَحَرِّمٍ، أَوْ اخْتِلَاطٍ بِالرِّجَالِ، أَوْ بُرُوزٍ دَائِمٍ إِلَيْهِمْ.

وَأَمَّا مَا يَنْقُلُهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ عَمَرَ وَلَّى الشُّفَاءَ الْحِسْبَةَ عَلَى السُّوقِ، فَلَيْسَ لِهَذَا أَصْلٌ، وَقَدْ أَنْكَرَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ، وَقَالَ: «هُوَ مِنْ دَسَائِسِ الْمُبْتَدِعَةِ»^(١).

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿هَآذِهِ نِكَآتِي هَآذِهِآ أَلْفَةً إِلَآيْهِمْ ثُمَّ نَوَّلَ عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾﴾ [النمل: ٢٨].

يُشْرَعُ كِتَابَةُ الْحَاكِمِ الْمُسْلِمِ إِلَى مَلُوكِ الْبُلْدَانِ وَرُؤُوسِ النَّاسِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ وَهَذَا أَعْظَمُ مِهْمَاتِ صَاحِبِ الْوَلَايَةِ: حِفْظُ الدِّينِ عَلَى النَّاسِ، وَنَشْرُهُ وَتَبْلِيغُهُ؛ لِأَنَّهُ يَنْوِبُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ.

وَلَا يَجُوزُ لِلْحَاكِمِ أَنْ تَخْتَصَّ صَلَاتُهُ وَمُكَاتَبَاتُهُ مَعَ الْأُمَمِ وَالِدُولِ غَيْرِ الْمُسْلِمَةِ بِالْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالْاِفْتِصَادِ وَالْاِنْظِمَةِ، وَيَتْرُكُ الْأَعْظَمَ، وَهُوَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَلَوْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ تَقُومُ بِغَيْرِهِ؛ لِأَنَّ قِيَامَهُ بِهَذِهِ الْمِهْمَةِ تَعْظِيمٌ لَهَا، وَهِيَ مِهْمَةُ الْخُلَفَاءِ الْأُولَى؛ فَالْمُكَاتَبَةُ مِنْهَا لَهَا أَثَرٌ عَلَى

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ٤٨٢).

الناس والرؤساء والملوك، بخلاف غيره، ودعوة من دونه لا تصل غالباً إلى رؤوس الناس؛ وإنما تقتصر على الشعوب، وفي نفوس الكبراء والرؤساء أنفة وكبر وعلو لا يقبلون غالباً إلا من مثلهم.

وقد كتب سليمان إلى ملكة سبأ يدعوها إلى الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَقْلُوا عَلَى أَنْفُسٍ﴾ [النمل: ٣٠ - ٣١].

وقد كاتب النبي ﷺ رؤوس الأمم وملوك الأقطار يدعوهم إلى الإسلام:

- فقد أرسل دحية الكلبي إلى هرقل إمبراطور بيزنطة؛ فسلمه يبضري كتاب النبي ﷺ.

- وأرسل عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس؛ فسلمه في المدائن، ومزق كتاب النبي ﷺ.

- وأرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة؛ وبه أسلم وأتبع الحق بنفسه.

- وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر؛ فسلمه في الإسكندرية.

- وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى التميمي ملك البحرين، وهي ما فوق الأحساء إلى ما وراء القطيف؛ فأسلم وتبع النبي ﷺ.

- وأرسل سليط بن عمرو إلى هودة بن علي ملك اليمامة.

- وأرسل إلى الحارث الغساني رأس الغساسنة، والحارث الحميري ملك حمير، وغيرهم كثير.

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا أَنَّ طَائِفًا مِّنْ أَتَوَاتِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٠ - ٣١].

ابتدأ سليمان كتابه إلى ملكة سبأ باسم الله الرحمن الرحيم؛ تيمناً وتبرُّكاً، وتعظيماً لله تعالى واستعانةً به، وبراءةً من الحَوْل والقُوَّة إلا به سبحانه، وإشعاراً للمخاطب بمَقَام الكتاب والمكتوب؛ فإنَّ البسملة تكون في الأمور والمَصَالِح الشريفة ذات البال، ولا تكون في الوضيعة.

الْبَدَءُ بِالْبَسْمَلَةِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَمْدَلَةِ:

يُشْرَعُ عِنْدَ الْمُكَاتَبَاتِ وَالْمُرَاسَلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ الْبَدَءُ بِالتَّسْمِيَةِ، وَخَاصَّةً عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلِيلَةِ ذَاتِ الْبَالِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ عَقُودُ التَّجَارَةِ وَالْذِيُونِ وَالرَّهْنِ وَالْإِجَارَةِ وَالصَّلَحِ وَالْإِقْطَاعِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وقد كان النبي ﷺ يَبْدَأُ بِالْبَسْمَلَةِ فِي مُرَاسَلَاتِهِ؛ كَمَا فِي كِتَابَاتِهِ إِلَى رُؤُوسِ الْبُلْدَانِ وَمُلُوكِهِمْ؛ ككِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى فَارِسَ، وَهَرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، وَالْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ، وَالنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، وَمَلِكِ الْبَحْرَيْنِ الْمُنْدَرِ بْنِ سَأَوَى، وَقَدْ جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» كِتَابُهُ إِلَى عَظِيمِ الرُّومِ، وَفِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هَرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ...»^(١).

وكان يَبْدَأُ بِالْبَسْمَلَةِ فِي عَقُودِ الصَّلَحِ كَصُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَكِتَابَاتِ الْإِقْطَاعِ؛ كَمَا فِي كِتَابَاتِهِ لِإِقْطَاعِ بَعْضِ أَصْحَابِهِ ككِتَابِهِ لِتَمِيمِ الدَّارِيِّ، وَسَلَمَةَ بْنِ مَالِكٍ، وَغَيْرِهِمَا.

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)؛ من حديث عبد الله بن عباس ؓ.

والبداءة بالبسملة مشروعة لذلك، ولأن الله ابتدأ بها أعظم كلام، وهو كلامه، والبسملة من كلام الله - كما في سورة النمل هنا - فالبداءة بها بركة وتيمن.

وأما الفرق بين البداءة بالبسملة وبين البداءة بالحمدلة، فذلك أن البسملة تكون في المراسلات والمقالات، ومثلها أوراق العقود المالية، وعقود الصلح؛ فلما صالح النبي ﷺ كفار قريش في الحديبية، كتب البسملة ولم يكتب الحمدلة.

وأما الحمدلة، فتكون في الخطب وما في حكمها، ولا تبتدئ الخطب بالبسملة؛ وإنما بالحمدلة، ومثل الخطب: الكتب المؤلفة لبسط علم ونشر فقه، وما شابه المراسلات من الكتب لصغره، فلا حرج من الاكتفاء بالبسملة فقط؛ لمناسبة مقامه بمقام المراسلات والعقود، والله أعلم.

والشعر كالنثر؛ فما كان من معانيه الحسنة الحميدة، فيبدأ فيه بالبسملة أو الحمدلة بحسب مقامه وموضوعه، ولا يثبت عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة التفريق بين كتابة الشعر والنثر في البداءة بالبسملة، وما جاء عن الزهري والشعبي من كراهة البداءة بالبسملة في الشعر، فلا يصح عنهما، وعن سعيد بن جبير جاء الجواز، وفي سنده كلام، وكلها رواها الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي»^(١)، والأصل اشتراك الشعر والنثر في الحكم، ولا يحتاج الجواز إلى دليل خاص.

(١) ينظر: «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٢٦٣ - ٢٦٤).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ يَوْمَ يَجْعَلُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ آمِنُوا بِي مَا يَمَآلُ فَمَا ءَاتَيْنِ: اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَنْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِمِثْوَدٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٥ - ٣٧].

لَمَّا جَاءَ كِتَابُ سُلَيْمَانَ إِلَى مَلِكَةِ سَبَأَ وَفَرَائِثِهِ، أَرْسَلَتْ بِكِتَابٍ إِلَيْهِ تَسْتَمِيلُهُ لِكَيْ مَا يُرِيدُهُ؛ مِنْ لَحَاقِهَا بِهِ، وَخُضُوعِهَا لِلَّهِ، وَنَزُولِهَا تَحْتَ حُكْمِهِ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَخْتِيرَ صِدْقَ دَعْوَاهُ: هَلْ هُوَ صَاحِبُ دُنْيَا؛ فَتُسَكِّنُهُ الْهَدِيَّةُ - لِأَنَّ صَاحِبَ الدُّنْيَا إِنْ جَاءَهُ مَا يُرِيدُ، سَكَنَ طَمَعُهُ؛ لِتَحَقُّقِ مَقْصُودِهِ - أَوْ صَاحِبُ دِينٍ وَمَقْصُودُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ؟ كَمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَتْ إِلَيْهِ بَوَصَائِفَ وَوُصَفَاءَ، وَأَلْبَسَتْهُمْ لِبَاسًا وَاحِدًا؛ حَتَّى لَا يَعْرِفَ ذَكَرٌ مِنْ أَثْنَى، فَقَالَتْ: إِنْ زِلَّ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَعْرِفَ الذَّكَرَ مِنَ الْأُنْثَى، ثُمَّ رَدَّ الْهَدِيَّةَ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتْرَكَ مُلْكَنَا، وَنَتَّبِعَ دِينَهُ، وَنَلْحَقَ بِهِ^(١).

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: إِنَّهَا قَالَتْ: إِنْ هَذَا الرَّجُلُ إِنْ كَانَ إِنَّمَا هِمَّتُهُ الدُّنْيَا، فَسُتَرْضِيهِ، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُرِيدُ الدِّينَ، فَلَنْ يَقْبَلَ غَيْرَهُ^(٢).

حُكْمُ قَبُولِ الْهَدِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ مِنْهَا صَرْفٌ عَنِ الْحَقِّ:

وَلَمَّا جَاءَتْ الْهَدِيَّةُ سُلَيْمَانَ، رَدَّهَا وَلَمْ يَقْبَلْهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْهُ جَائِيًا لِلْمَالِ بَاحًا عَنْهُ؛ وَإِنَّمَا مَرِيدًا لِلنَّاسِ الْعِبَادَةَ وَاسْتِسْلَامَهُمْ لِلَّهِ، لَا لَهُ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ قَبُولِ الْعَالِمِ وَالْمُصْلِحِ الْهَدِيَّةَ إِنْ كَانَ مُهْدِيهَا يُرِيدُ بِهَا اسْتِمَالَةَ الْمُصْلِحِ إِلَى ضَلَالِهِ أَوْ إِسْكَاتِهِ عَنْهُ؛ فَإِنَّ

(١) «تفسير الطبري» (١٨/٥٣).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/٥٤).

النفوس مجبولة على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وسليمانُ لم يَرُدْ هَدِيَّةَ مَلِكَةٍ سِوَا إِلَّا لَأَنَّهَا جَاءَتْ بَعْدَ كِتَابِهِ إِلَيْهَا بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ.

وَمَنْ كَانَ قَائِمًا بِأَمْرِ اللَّهِ، مُنَابِذًا لِلْكَفْرِ، رَافِعًا رَايَةَ الْإِصْلَاحِ: لَا يَجُوزُ لَهُ قَبُولُ هَدَايَا الْمُعَانِدِينَ؛ خَشْيَةً كَسْرِ نَفْسِهِ وَسُكُونِهَا.

وَنَظَرُ الْعَالِمِ إِلَى حَالِ الْمُهْدِي عِنْدَ بَذْلِ الْهَدِيَّةِ وَاجِبٌ؛ فَإِنَّ أَحْوَالَ الْمُهْدِينَ تَنْطَوِي تَحْتَهَا مَقَاصِدُهُمْ، وَمَقَامُ الْعَالِمِ لَيْسَ كَمَقَامِ غَيْرِهِ؛ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَبْذُلُ الْهَدِيَّةَ حُبًّا فِي الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْذُلُهَا كُرْهًا لَهُمْ فَيَرَاهُمْ شُرًّا لَا يُدْفَعُ إِلَّا بِالْمَالِ، وَإِهْدَاءِ الْمَالِ لَيْسَ عَلَامةً عَلَى الْمُوَدَّةِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَقَدْ يُبْذَلُ الْمَالُ وَتُهْدَى الْهَدِيَّةُ وَيَقْصَدُ بِهِ قَابِلُهَا تَأْلِيفًا لِقَلْبِ الْمُهْدِي، لَا رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا؛ كَمَا قَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ هَدَايَا الْمُلُوكِ كَالْمُقَوْسِ وَغَيْرِهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى أَخْذِ الْأَجْرِ عَلَى نَشْرِ الْخَيْرِ وَقَبُولِ الْهَدَايَا وَالْعَطَايَا عَلَيْهِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَنْقُورُ لَا أَمْتَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ قَوْمًا يَهْتَابُونَ﴾ [هود: ٢٩].





سُورَةُ الْقَصَصِ

سورة القصص مكيّة، ويتجلى هذا في معاني آياتها وخطابها، ومن علامات السور المكيّة: تقرير التوحيد، وذكر القصص والعبر؛ ولهذا لم يكن في سورة القصص تشريعات وأحكام ظاهرة.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُؤَمَّنًا أَنْ لَرَضِيعَتُهُ﴾﴾ [القصص: ٢٧].

في هذا: أَنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِرَضَاعِ الصَّغِيرِ أُمُّهُ، وَإِنْ رَغِبَتْ فِي ذَلِكَ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُنْقَلَ إِلَى غَيْرِهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الرِّضَاعِ وَأَحْكَامِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَتُ يُرَضِّعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾ [٢٢٣]، وَيَذُلُّ عَلَى الرِّضَاعِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ [القصص: ١٢]، وَفِيهَا وَجُوبُ كِفَالَةِ الصَّغِيرِ وَرِعَايَتِهِ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْكِفَالَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَبِّلْهَا مِنْ رِثْمِهَا بِقَبُولِ حَسَنٍ وَالْبُجْبُهَا نَبَاكَ حَسَنًا وَكَفَّلَهَا ذُرِّيَّتًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ نَجْلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يَتَمَنَّى قَالَ يَتَمَنَّى إِلَيْكَ السَّلَاحُ

بِأَمْرٍ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَخَرَجَ إِلَيْكَ مِنَ الثَّمَرِينِ﴾﴾ [القصص: ٢٠].

اِثْمَرَ فِرْعَوْنَ وَشَاوَرَ قَوْمَهُ فِي قَتْلِ مُوسَى، وَتَوَاطَّأُوا عَلَى ذَلِكَ،

ولم يكن ذلك مُعَلَّنًا؛ حتى لا يَعْلَمَ موسى، فَيَهْرَبَ وَيَنْجُو مِنْ ظُلْمِهِمْ، فجاء رجلٌ فأخبرَ موسى بأمرهم.

وفي هذا: أَنَّهُ لَا حُرْمَةَ لِلْأَسْرَارِ إِنْ كَانَتْ تُضِرُّ بِمَظْلُومٍ، فَيَجِبُ إِفْشَاؤُهَا لِمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ وَمَنْ لَهُ حَقُّ النُّصْرَةِ؛ حَتَّى يُدْفَعَ الظُّلْمُ عَنِ الْمَظْلُومِ.

حِفْظُ الْأَسْرَارِ وَإِفْشَاؤُهَا:

وقصدُ فرعونَ وَمَنْ مَعَهُ قَتَلَ موسى كَانَ سِرًّا، كَمَا فِي ظَاهِرِ السِّيَاقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ.

وإفشاءُ الأسرارِ التي تَنْطَوِي عَلَى ظُلْمٍ وَبُغْيٍ وَحَرْبٍ لِلَّهِ وَمُحَادَّةٍ لِلَّهِ - وَاجِبٌ، وَيَدُلُّ عَلَى وَجوبِهِ أَمْرَانِ:

الأولُ: أَنَّ حِفْظَ الْأَسْرَارِ وَاجِبٌ، وَلَا يَنْتَقِضُ الْوَجُوبُ إِلَّا بِمَا هُوَ مِثْلُهُ أَوْ أَكْثَرُ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ أَوْثَمَنَ عَلَى شَيْءٍ، وَجَبَ عَلَيْهِ حِفْظُهُ وَعَدْمُ الْخِيَانَةِ فِيهِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَوْثَمَنَ خَانَ)^(١).

الثاني: أَنَّ دَفْعَ الظُّلْمِ وَالْبُغْيِ وَاجِبٌ عَلَى الْكُفَايَةِ، وَيَتَعَيَّنُ الدَّفْعُ عَلَى مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ، فَمَنْ عَرَفَ سِرًّا فِيهِ بُغْيٌ وَظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ عَلَى النَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَعْرَاضِهِمْ أَوْ دِينِهِمْ، تَعَيَّنَ عَلَيْهِ دَفْعُهُ بِإِفْشَاءِ مَا يَعْلَمُ إِلَى مَنْ يَسْتَطِيعُ الْإِحْتِرَازَ مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ وَبُغْيِ الْبَاغِي.

(١) أخرجه البخاري (٢٣)، ومسلم (٥٩).

وقوله تعالى على لسان الرجل: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ دليل على أن فعله برٍّ وإحسانٌ ونصحٌ، لا خيانةٌ للأمانة.



❏ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

لَمَّا جاء موسى إلى مَدْيَنَ، وَرَدَ موضعَ ماءٍ يجتمعُ الناسُ عليه لِيَسْقُوا، وقد هبَّ الله لموسى خروجَ المرأتينِ ليكونَ بدايةً لصَلاحِ أمرِهِ وأمانِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾: قال، ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾؛ أي: ليستا معهم؛ للدلالة على أن المرأة لا تختلطُ بمجاميع الرجال، بل تعتزلُهم، فقد كانتا تَذُودَانِ؛ قال ابنُ عباسٍ: «يعني بذلك حابستين غنهما»^(١)، وقال أبو مالكٍ: «تَحْبِسانِ غنهما حتى يفرغَ الناسُ وتَخْلُوَ لهما البئر»^(٢).

ويظهرُ هذا في قولهما: ﴿لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، وفي هذا استحبابُ عَرْضِ قضاءِ حاجةِ المرأةِ عندَ ظهورِ تعطيّلها؛ لِأَنَّهُنَّ غَالِبًا يَمْنَعُهُنَّ حَيَاؤُهُنَّ عَنْ طَلَبِ مُسَاعَدَةِ الرِّجَالِ.

وقولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ دليلٌ على ما سبق؛ ففيه بيانٌ عُدْرهما بحضورهما إلى هذا الموضعِ من مواضع الرجال، ويُردَّنَ بذلك

(١) «تفسير الطبري» (٢٠٨/١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٩٦٢/٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٠٩/١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢٩٦٢/٩).

بيان أن أباهما كان يقوم بذلك، ولكن لما كبر، لم تجدأ بُدأ من الإتيان إلى هذا الموضع، وقد تقدّم الكلام على حُكْم اختلاط المرأة بالرجال، وبيان أحواله وأنواعه، في مواضع مضت؛ منها عند قول الله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿تَقَالُوا نَعُ أبنَاءَنَا وَأبنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]، وقوله تعالى في هود: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَابِئَةُ فَضَحِكْتِ﴾ [٧١]، وقوله في طه: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [١٠]، ويأتي الإشارة إلى ذلك في قوله: ﴿لَا يَخْرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَمَّ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وقد بيّنت ذلك مفصلاً في كتاب: «الاختلاط: تحرير، وتقرير، وتعقيب».

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَبَوْنَا سَيْحٌ كَذِبٌ﴾: وجوب قيام الرجل بالكسب ومؤونة أهله؛ زوجاً كان أو أباً، أو أخاً أو ابناً؛ وذلك لما جعل الله فيهم من خصيصه وقوامه؛ فالله فضّلهم لأجل أشياء، منها كسبهم ونفقتهم على أهلبيهم ومن يكون من النساء ومن لا يملك قوة وكفاية، فبنات صاحب مدّين اعتدّن عن أبيهنّ؛ وذلك لأنّ السؤال قام في ذهن موسى وغيره، فأجبن مع أنّه لم يسألهنّ؛ لأنّ المقام ليس مقامهنّ؛ بل مقام وليهنّ.

وقد بينّا ذلك عند قوله تعالى: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ عَلَى الْآسَاءِ يَمَّا فَمَسَكَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]، وقوله تعالى لآدَمَ وَحَوَّاءَ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]؛ أي: تخرجان جميعاً والشقاء لآدم؛ لأنه مكفي في الجنة من الصّرب في الأرض والعمل والتكسب، وأمّا في الدنيا، فسيشقى وحده، ومحلّ حواء في

قَرَارِهَا، وَاللَّهُ أَمَرَ الرِّجَالَ وَلَمْ يَنْهَ النِّسَاءَ عَنِ التَّكْسِبِ إِنْ احْتَجَجْنَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَبَرُّجٍ وَلَا اخْتِلَافٍ بِالرِّجَالِ الْأَجَانِبِ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ لِمَ كُنْتُمْ يَتَابِتِ اسْتَعِجْرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَعِجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾﴾ [النصر: ٢٦].

فيه: جوازُ اتِّخَاذِ الخادمِ، وعملُ الرِّفِيعِ مع مَنْ هُوَ دُونُهُ أَوْ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ، وَمُشَاوَرَةُ الْبَنَاتِ لَأَبِيهِنَّ، وَقَبُولُ رَأْيِهِنَّ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْإِجَارَةِ فِي الشَّرِيعَةِ، وَهَذَا مُحَلٌّ اتِّفَاقٍ عِنْدَ الْجَمِيعِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِجَارَةِ وَالْجِعَالَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿وَلَمَنْ جَاءَهُ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [٧٢].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَعِجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ بَيَانٌ لِأَرْكَانِ وَشُرُوطِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْأَمَانَةِ وَالْوَلَايَةِ عَلَى الْأَمْوَالِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [٥٥].

وَتَتَضَمَّنُ الْآيَةُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِجَابِ الْكَسْبِ عَلَى الرِّجَالِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ إِنْ عَجَزَ عَنِ الْكَسْبِ لِبَنَاتِهِ وَقَدَّرَ عَلَى اسْتِئْجَارِ مَنْ يَكْفِيهِنَّ الْمَوْنَةَ، وَجَبَ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يَكُنْ فَقِيرًا أَوْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَأْتِمُنُهُ عَلَى أَهْلِهِ، فَيُعَذَّرُ؛ لِأَنَّ اسْتِئْجَارَ صَاحِبِ مَدِينٍ لِمُوسَى: يَكْفِي بَنَاتِهِ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى مَوَاضِعَ يَلْزَمُ مِنْهَا خِلْفَةُ الرِّجَالِ كَوُرُودِ الْمَاءِ وَشُبُهِهِ، وَطَلَبِ بَنَاتِ صَاحِبِ مَدِينٍ جَرَى عَلَى الْفِطْرَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا الْبَشَرُ.

وَلَمَّا اسْتَأْجَرَهُ صَاحِبُ مَدِينٍ مَعَ مَا رَأَى فِيهِ مِنْ دِيَانَةٍ وَأَمَانَةٍ، عَرَضَ عَلَيْهِ الزَّوْاجَ مِنْ إِحْدَى بَنَاتِهِ مُقَابِلَ عَمَلِهِ مَعَهُ ثَمَانِي سَنِينَ مَهْرًا لَهَا؛ حَتَّى

لا يدوم بقاء غير محرم في البيت وليس فيه إلا نساء وأبوهن شيخ كبير، كما ظهر ذلك في الآية بعده، وهذا جرياً على الفطرة، لا تغليبا للثمة؛ فإن التزام الشرع في الحجاب وغط الطرف وتحريم الخلوة والاختلاط مع قرار: عام لجميع المكلفين؛ لا مقام فيه لتمييز الصالحين عن غيرهم.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَوْنٌ عِنْدَكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَابِدِينَ﴾ [الفصل: ١٧].

لما رأى صاحب مدين من موسى أمانته وصيانتة لعرضه وهو غريب، لَمَسَ منه الولاية والدَيَانَةَ، فعرض عليه الزواج من ابنته.

عرض البنات لتزويجهن:

وفي قوله تعالى: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ استحباب عرض البنات والأخوات على الأزواج الأكفأ، وذلك لا يعيب الرجل ولا ابنته، وقد عرض عمر بن الخطاب حفصة على بعض خيار الصحابة كابي بكر وعثمان؛ كما أخرج الإمام البخاري في باب (عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير): «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُثَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَوَفَّى بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيْالِي ثُمَّ لَقِينِي، فَقَالَ: قَدْ بَدَأَ لِي أَلَا أَنْزُوجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ زَوَّجْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتُ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، وَكُنْتُ أَوْجَدَ عَلَيْهِ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيْالِي، ثُمَّ حَظَبَهَا

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلِيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ، فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا؟ قَالَ عُمَرُ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ، إِلَّا أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكْتُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قِيلَتْهَا^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْ بَعِثَتِي جِجَعًا إِنِّي كُنْتُ عَشْرًا مِمَّنْ عِنْدَكَ﴾ دليل على مشروعية المهر، وأنه من شرائع الأنبياء، ومهر صاحب مدين لبناته أن يرعى موسى عليه ماشيته ثمانين مدين، فإن تبرع موسى بزيادة ستين فهو إليه، وإلا ففي ثمان كفاية.

وقد تقدم الكلام على المهر وحكمه وتفصيله، وتسميته وحده وحكم استرداده، وذلك مفرقا عند قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وعند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْتُونَ أَوْ يَعْتُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ بِيَلَدٍ﴾ [النساء: ٤]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الدَّيْنَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَزْنُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَمْسُوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْبِدَالَ رَوْحَ مَكَاتٍ رَوْحَ وَءَاتَيْتُمْ إِيَّاهُنَّ فَنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

وقد استدلل بعض الفقهاء بالآية على جواز استئجار الأجير على الطعام والكسوة؛ وذلك أن موسى استؤجر على أن يكون رعيه وخدمته

مَهْرًا، وَلَا زِمَ ذَلِكَ إِطْعَامُهُ وَإِسْكَانُهُ وَلِبَاسُهُ؛ وَبِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ، وَيُرْوَى فِي هَذَا: مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ؛ مِنْ حَدِيثِ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ؛ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْبَةَ بْنَ النَّدْرِ يَقُولُ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ: ﴿طَسَّرَ﴾ [القصاص: ١] حَتَّى إِذَا بَلَغَ قِصَّةَ مُوسَى، قَالَ: (إِنَّ مُوسَى ﷺ أَجَرَ نَفْسَهُ ثَمَانِي مِائِينَ، أَوْ عَشْرًا، عَلَى عِفَّةٍ فَرَجِهِ، وَطَعَامٍ بَطْنِهِ) ^(١).

* * *

❦ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصاص: ٢٩].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَا فِي سُورَةِ طه عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [١٠]؛ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى رَأَى النَّارَ وَنَأَى بِأَهْلِهِ عَنِ الْحَضُورِ مَعَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي الْأَسْفَارِ الرَّجَالُ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِتْيَانُ بِأَهْلِهِ بَيْنَهُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهُ صَاحِبُ رَجُلٍ، لَأَخَذَهُ مَعَهُ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ: (امْكُثْ)؛ بَتَقْوَى وَيَأْنَسُ بِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ مُوسَى أَرَادَ مَعَ إِبْعَادِهَا عَنْ مَوَاضِعِ الرَّجَالِ إِبْعَادَهَا عَنْ مَوَاضِعِ الْخَوْفِ، فَلَوْ رَأَوْهُ وَحْدَهُ مَعَ أَهْلِهِ، لَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَكْرُوهًا.

* * *



سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سورة العنكبوت مكيّة، وإنّما الكلام على مدنيّة أولها، وهي إحدى عشرة آية من أولها، فقال جماعة بأنّها نزلت في المدينة؛ وذلك لأنّ الله افتتح السورة بخطاب المؤمنين، وحذّر من النفاق في الحادية عشرة، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، والنفاق ظهر في المدينة، والناس في مكة: إمّا مؤمنون، وإمّا كفار ظاهرون، ثمّ بعد ذلك بدأ الخطاب بحال الكافرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]؛ فهذا وما بعده نزل بمكّة عند الأكثر^(١).

ويظهر في آياتها ما تُعرف به السور المكيّة من خطاب الكافرين، وذكر الآيات وإعجاز القرآن، والعبر والأمر بالاعتبار والمعجزات، وقصص بعض الأنبياء مع أممهم، والوعيد في الآخرة للمُعاندين.

* * *

❁ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

أمر الله بالإحسان إلى الوالدين، ونهى عن طاعتهما في الشرك، ولم يذكر جميع المعاصي، مع أنّه لا طاعة لأيّ مخلوق في معصية

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣٠٥/٤)، و«إزاد المسير» (٣٩٨/٣)، و«تفسير القرطبي» (٣٣٣/١٦).

الخالق ولو كان والدًا؛ وذلك لأنَّ الخطاب كان للمسلمين في أول الأمر، وكان آباؤهم يريدونهم على الشرك، لا على مجرد المعاصي.

وقد قرَنَ اللهُ بِرَّ الوالدين بتوحيده وعبادته لعظمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَكَّلُوا أَتَدُلُّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وتقدم الكلام في بِرِّ الوالدين وفضله فيما سبق من الآيات.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنذَرْتُ الْبَشَرِ النَّارَ وَتَقَطُّعُونَ الشَّيْءَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْنَبْنَا عَذَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ذَكَرَ اللهُ فَاحِشَةَ قَوْمِ لُوطَ، وَكَرَّرَ ذِكْرَهَا فِي الْقُرْآنِ؛ لِبَشَاعَتِهَا وَقُبْحِهَا وَسُوءِهَا. وَمَنَافَرَتِهَا لِلْفِطْرَةِ؛ حَيْثُ عَاقَبَ عَلَيْهَا عِقَابًا لَمْ يُعَاقَبْ أُمَّةٌ مِثْلَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى جُرْمِهِمْ وَمَا فَعَلُوهُ، وَمَرَاحِلِ تَدْرِجِهِمْ فِي الْفَاحِشَةِ، وَكَيْفَ وَصَلُوا إِلَى نَهَايَتِهَا، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَكِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿أَتَدُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَنْفِرَ الصَّلَاةَ إِتِ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ مِنَ الْفَاحِشَةِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أَمَرَ اللَّهُ بتلاوة القرآن، وقرَنَ ذلك بالأمر بالصلاة؛ للدلالة على أنَّ العبادة مع العلم متلازمان لا ينفكُّ واحدٌ عن الآخر، وأنَّ مَنْ اجتمعَ علمُهُ بالقرآن بعبادته، اكتمَلَتْ فيه أركانُ الثباتِ على الحقِّ؛ وذلك لأنَّ العلمَ والعبادة كالقَدَمَيْنِ لا يُقامُ إلَّا عليهما؛ فالعلمُ يُزيلُ الشُّبُهَاتِ، والعبادة تُزيلُ الشَّهَوَاتِ؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ الْعِلْمَ نَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وقد تقدَّم الكلامُ على حُكْمِ الصلاة وفرضِ صلاة الجماعة في مواضعٍ من هذا الكتاب.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمَبْطُلُونَ﴾ [المونكوت: ٤٨].

امتنَّ الله على نبيه بالقرآن وإعجازه بفصاحته وبيانه، مع جعله النبي ﷺ أمياً حتى لا يُتهمَ أنه قرأ ما يتلوه من أممٍ سابقة، وليس كاتباً حتى لا يُتهمَ أنه كتبه لهم من تلقاء نفسه، وكانت كفارُ قريشٍ تُعرفُ أمية النبي ﷺ؛ لأنه نشأ بينهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ﴾ فيه فضلُ استعمالِ اليمينِ في الكتابةِ وكلِّ شريفٍ ومكرمٍ، والتعاملِ بالأخذ والعطاء؛ كما تقدَّمت الإشارةُ إلى ذلك عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَاُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ بِثُمُونَ﴾ [طه: ١٧]؛ فقد كان موسى يُمسِكُ عصاً بيمينه.

* * *



سُورَةُ الرُّومِ

سورة الروم مكِّيَّة، وقد حكى بعضهم الإجماع على ذلك^(١)، وسمَّيت بسورة الروم؛ لأنهم لم يُسمُّوا في القرآن بذلك إلا فيها، ومن وجوه تسمية السُّورِ تفرُّدها بذكر شيء؛ كآلِ عِمْرَانَ وَلُقْمَانَ وقريش والمائدة والنحل والعنكبوت وغير ذلك.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿الْعَمَّ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ فِي آتَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُسْقِلُونَ ۝٣ فِي يَضَعُ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿[الروم: ١ - ٥].

كانت فارسُ والرومُ في سِجَالٍ وَقِتَالٍ وَعَدَاءٍ، وقد قاتَلَ الفرسُ الرومَ في الشام وطردوهم حتى الجؤوهم إلى القُسْطَنْطِينِيَّةِ، وكانت فارسُ مجوساً تعبدُ النَّارَ وتقولُ بِالْهَيْنِ، وكانت الرومُ كِتَابِيَّةً نصرانيَّةً، وليس للمجوسِ كتابٌ باقٍ، وليس في شرائعهم قُرْبٌ من شرائع الإسلام كالنَّصَارَى، وليس في كُتُبِهِمْ إشارةٌ إلى نُبوَّةٍ قادمةٍ ولا نبشِيرُ بها كما هي لدى أهل الكتابِ.

وقد قيل: إِنَّ لَهُمْ كِتَابًا، وبَدَّلُوهُ تَبْدِيلًا أَشَدَّ وَأَبْشَعَ مِنْ تَبْدِيلِ

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣٢٧/٤)، و«زاد المسيرة» (٤١٥/٣)، و«تفسير القرطبي» (٣٩٢/١٦).

النصارى واليهود، حتى أحلّوا نكاح المحارم، فرفع ما بقي من كتابهم ولم يبق لديهم منه شيء، وكان حكمهم كحكم سائر الوثنيين، إلا ما دل عليه الدليل كالجزية فساووا أهل الكتاب، وقد روى عبد الرزاق والشافعي، عن علي عليه السلام؛ قال: «كان المجوس أهل كتاب يقرؤونه، وعلم يدرسونه، فشرب أميرهم الخمر، فوقع على أخته، فلما أصبح، دعا أهل الطمع فأعطاهم، وقال: إن آدم كان ينكح أولاده بناته، فأطاعوه، وقتل من خالفه، فأصري على كتابهم وعلى ما في قلوبهم منه، فلم يبق عندهم منه شيء»^(١).

وأخرجه عبد بن حميد في «التفسير» بإسناد صحيح، عن ابن أبي، عن علي بنحوه^(٢).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يرون أن أهل الكتاب أقل شراً من المجوس، والروم أقرب من فارس لهذا الأمر؛ فكانوا يحبون الغلبة للروم على فارس، وإن كان الصحابة قاتلوهم جميعاً.

وقد روى أحمد والترمذي؛ من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس عليهما السلام؛ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى الرُّومِ﴾ ١ فِي آتَى الْأَرْضِ؛ قال: «غلبت وغلبت»، قال: «كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما إنهم سيفليون)، قال: فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً؛ فإن ظهرنا، كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم، كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين، فلم

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٢٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٨/٩).

(٢) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢٦١/٦)، و«الدر المنثور» (٣٣٧/١٥).

يُظْهِرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: (أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونِ - قَالَ: أَرَأَيْهَ قَالَ: الْعَشِيرُ؟ - قَالَ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْبِضْعُ: مَا دُونَ الْعَشِيرِ - ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ، وَاللَّهُ ① غَلَبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي يَضِجُ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ④ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) ⑤.

وجاء نحوه عن ابن مسعود^(٢)، والبراء^(٣)، ونيار بن مكرم^(٤)، وغيرهم.

فَرَحُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَزِيمَةِ أَحَدِ الْعَدُوِّينَ عَلَى الْآخَرِ:

وفي هذا: جوازُ فرحِ المُسلمينَ بهزيمةِ عدوٍّ على عدوٍّ آخرَ أشدَّ منه، وليس هذا حبًّا لِنُصْرَةِ الْكَافِرِ؛ بَلْ لِأَنَّ اللَّهَ يَذْفَعُ الشَّرَّ الْأَعْظَمَ بِيَدِ عَدُوِّهِ، فَيَبْقَى أَحْفَ الْعَدُوِّينَ ضَرَرًا فَيَنْفِرُ بِصَدِّهِ الْمُسْلِمُونَ، وَهَذَا مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الدَّفْعِ الَّتِي يُجَرِّبُهَا لِحُكْمٍ بِغَيْرِ إِرَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَفَرَحُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي ذَلِكَ: دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الْفَرَحِ فِي مِثْلِ هَذَا، وَقَدْ كَانَ سَبَبُ فَرَحِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي هَزِيمَةِ فَارَسَ وَعَلْبَةَ الرُّومِ سَبِيْن:

الْأَوَّلُ: أَنَّ كِفَارَ قَرِيْشٍ أَشَدَّ عَدُوًّا قَرِيبًا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يُحِبُّونَ الْفُرْسَ أَكْثَرَ مِنَ الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ مِثْلُهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ، وَهَزِيمَةُ فَارَسَ كَسَرُ نَفْسِ قَرِيْشٍ وَهَزِيمَةُ لِعَزَائِمِهِمْ؛ فَاحَبَّ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ.

الثَّانِي: أَنَّ فَارَسَ أَشَدُّ عَدَاوَةً مِنَ الرُّومِ، وَكِلَاهُمَا عَدُوٌّ لِلْمُسْلِمِينَ؛

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦/١)، والترمذي (٣١٩٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٢٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٥/١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٠٨٦/٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٩٤).

فَأَحَبُّ أَنْ يَزُولَ الْعَدُوُّ الْأَعْلَى بِالْعَدُوِّ الْأَدْنَى، بَدَلًا مِنْ قِتَالِ عَدُوِّينَ، أَوْ قِتَالِ الْعَدُوِّ الْأَعْلَى.

وَفَرَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا يَغِيظُ قَرِيشًا دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الْفَرَحِ بِمَا يَغِيظُ وَيُصِيبُ الْعَدُوَّ الْمُحَارِبَ، وَقَدْ اعْتَبَرَ اللَّهُ مِنْ مَقَاصِدِ قِتَالِ الْعَدُوِّ: شِفَاءُ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَهَابُ غَيْظِ قُلُوبِهِمْ؛ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَكْشِفُ سُدُورَهُمْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤) وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ (التوبة: ١٤ - ١٥).

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ: بَيَانٌ لِحُكْمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي مَعْرِفَةِ مَرَاتِبِ الْأَعْدَاءِ قُرْبًا وَبُعْدًا مِنَ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ الْأَعْدَاءَ لَيْسُوا عَلَى بَابٍ وَاحِدٍ فِي الشَّرِّ وَالْعَدَاءِ، وَلَا يَتَعَامَلُ مَعَ الْأَعْدَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَهُوَ يَتَعَامَلُ مَعَ الْحُلَفَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ، فَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ، وَيَجْتَمِعُ أَعْدَاؤُهُ عَلَيْهِ فَيَسْتَأْصِلُونَهُ؛ وَهَذَا جَهْلٌ بِالسِّيَاسَةِ، وَلَيْسَ مِنَ الْفَقْهِ فِي الدِّينِ.

رِهَانُ أَبِي بَكْرٍ بِمَكَّةَ، وَالرَّهَانُ فِي إِظْهَارِ الْحَقِّ:

وَقَدْ رَاهَنَ أَبُو بَكْرٍ بَعْضَ قَرِيشٍ فِي غَلْبَةِ الرُّومِ عَلَى فَارَسَ؛ كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَالْبَرَاءِ وَنِيَّارٍ، وَجَاءَتِ الْقِصَّةُ مِنْ مُرْسَلِ فَتَادَةٍ^(١)، وَعِكْرِمَةٍ^(٢)، وَابْنِ شَهَابٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ^(٣)، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْجِهَالَةِ وَالْعَرَرِ وَالرِّبَا، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُقَامَرَةِ وَنَزُولِ آيَتِهَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فِي غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ بَعْدَ أُحُدٍ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي دُخُولِ رِهَانِ أَبِي بَكْرٍ فِي النَّهْيِ؛ فَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فَهُوَ مَنْسُوخٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَاخِلًا فِي النَّهْيِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ مَا اسْتُثْنِيَ؛ كَمَا رَوَى أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: قَالَ

(١) «تفسير الطبري» (١٨/٤٥٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/٣٠٨٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/٤٥٠).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/٣٠٨٧).

رسولُ الله ﷺ: (لَا سَبَقَ إِلَّا فِي خُفٍّ أَوْ فِي حَافِرٍ أَوْ نَضْلٍ) ^(١)؛ وذلك أَنَّ غَلَبَةَ الرومِ على الفُرسِ كان عامَ الحُدَيْبِيَّةِ، وبه استَحَقَّ أبو بكرُ المالَ على رَهَانِهِ.

وقد قال بأنَّ فِعْلَ أَبِي بَكْرٍ دَاخِلٌ فِي الْمَنْسُوخِ جَمْعُهُ الْعِلْمَاءُ؛ وذلك أَنَّ الْفُقَهَاءَ يَرَوْنَ مَنَعَ الرَّهَانِ إِذَا كَانَ الْمَالُ مِنَ الْجَمِيعِ حَتَّى فِيمَا اسْتَثْنَيْ فِي الْحَدِيثِ، مَا لَمْ يَدْخُلْ مُحَلِّلٌ، وَجَعَلُوا مَا جَاءَ بِهِ حَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ أَوْلَى بِالْمَنْعِ وَالْقَوْلِ بِنَسْخِهِ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ اسْتَثْنَى مِنَ السَّبَقِ الْمَالُ الْمَبْدُولُ مِنْ بَعْضِ الْمَتَسَابِقِينَ لَا مِنَ الْجَمِيعِ، وَأَمَّا مِنَ الْجَمِيعِ فَلَا يُجِيزُونَهُ إِلَّا بِمُحَلِّلٍ؛ لِيَتَحَوَّلَ مِنْ مَالٍ بِذَلِكَ الْجَمِيعِ إِلَى مَالٍ بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ؛ كَمَا يَأْتِي بَيَانُهُ.

وقال الحنفيةُ بجوازِ الرِّهَانِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْحَرْبِيِّ؛ لِإِظْهَارِ الْحُجَّةِ؛ وَقُوَّةِ الْحَقِّ.

وبعضُ العلماءِ عَمَّمَ وقال بجوازِ المسَابَقَةِ فِي إِظْهَارِ الْحُجَّةِ الَّتِي بِهَا يَحْرَضُ النَّاسُ عَلَى الْحَقِّ، وَيُدْفَعُ الشَّرُّ، وَتُفْتَحُ الْقُلُوبُ لِلْإِسْلَامِ، وَبِهَا يَعْتَزُّ وَيَرْتَفَعُ، وَأَيْدِ هَذَا الْقَوْلِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ الْقَيِّمِ، وَعَلَى هَذَا حُمِلَ حَدِيثُ مَصَارَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِرُكَاةٍ.

وَمِنْ أَسْبَابِ الْخِلَافِ: أَنَّ الْعِلَّةَ الْجَامِعَةَ لِلثَّلَاثِ الَّتِي اسْتَثْنَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الرِّهَانِ الْمَحْرَمِ: الْجَامِعُ بَيْنَهَا إِظْهَارُ الْقُوَّةِ وَإِعْدَادُ الْعُدَّةِ لِلْجِهَادِ بِالسِّنَانِ وَاللِّسَانِ؛ سَوَاءً كَانَ بِرَمِي السَّهَامِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «نَضْلٍ»؛ يَعْنِي: سَهْمًا، أَوْ كَانَ بِسَبَاقِ الْخَيْلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «حَافِرٍ»، أَوْ بِسَبَاقِ الْإِبِلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «خُفٍّ»، أَوْ كَانَ ذَلِكَ بِالْمُنَاطَرَاتِ وَالْحُجَجِ؛ فَمَنْ رَأَى

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٧٤/٢)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢٥٧٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٧٠٠)، وَالنَّسَائِيُّ (٣٥٨٥)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٨٧٨).

عموم هذه العلة، أدخل فيها ما في حكمها مما يظهر قوة الإسلام وعزته، فأجازوا الرهان في مسائل العلم، والرهان على المباحثات والمناظرات، وخاصة ما كان بين المسلمين وغيرهم من رؤوس الملل الكفرية؛ كرهبان النصارى وأخبار اليهود.

والجمهور القائلون بالمنع يختلفون في الحيوان الذي يجوز فيه أخذ السبق، وهو (العوض)، واختلافهم دليل على عدم استقرار علة الترخيص الوارد في الحديث عندهم:

فالأظهر عند الشافعية جواز السبق بأن يكون في الخيل، والإبل، والفيل، والبغل، والحمار، ويرى المالكية: أنه مقصور على الخيل والإبل، ويرى الحنفية: جواز السبق على الأرجل بلا ركوب.

والأظهر: عموم العلة في كل قوة يكون في مثلها إعداد وظهور للحق؛ فإن الاقتصاد على نص الحديث يقصره على رمي السهام، ويمنع من الرمي بالسلاح والرصاص اليوم؛ وهو أشد وأعظم نكابة في العدو؛ ولا يشك عاقل في هذا.

وقد تصارع النبي ﷺ مع رُكَّانة على شاة يغرُمها المغلوب، ورويت تلك القصة بأسانيد، منها المتصل، ومنها المرسَل، يدلُّ على أنَّ لها أصلاً، ولم يُنكر الفعل الوارد فيها من نقاد المتون، وأما ما روى أبو داود أنَّ النبي ﷺ أرجع المال لِرُكَّانة ولم يأخذه، فهو مخرَّج في «مراسيله»^(١).

وجهاد اللسان أمضى من جهاد السنان لمن قدر عليه وسدَّه الله، وقد سَمَّى الله جهاد اللسان جهاداً كبيراً؛ فقال: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وسَمَّاهُ حقَّ الجهاد: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا كان بِمَكَّةَ، ولم يُسمَّ الله جهاد السنان

بالجهاد الكبير، ولا حقَّ الجهاد، مع عَظَمَتِهِ وفضيلته وجلالة قَدَرِهِ، فإن جاز الرِّهَانُ في إظهارِ الحقِّ بالسُّنَنِ في النَّصْلِ والخُفِّ والحافِرِ، ففي المناظرة والمُحَاجَّجَةِ مِثْلُهُ أو أَكْثَرُ منه، ولا يكونُ هذا بابًا يَدْخُلُ منه المُتَسَابِقُونَ في فضولِ العلمِ التي لا تُحِقُّ الحقُّ في الناسِ، فلم يكن الفقهاءُ يَدْخُلُونَ هذا النوعَ فيما أجازوه من فعلِ أبي بكرٍ رضي الله عنه.

وأما ما جاء في حديثِ البراءِ في رِهَانِ أبي بكرٍ مع قريشٍ عند ابنِ أبي حاتم؛ أَنَّهُ قال في المالِ: فجاء به أبو بكرٍ إلى النبي ﷺ، فقال: (هَذَا السُّخْتُ، تَصَلَّقْ بِهِ)^(١)، وما أَخْرَجَ أبو يَعْلَى في حديثِ البراءِ أيضًا؛ قال فيه: فقال رسولُ الله ﷺ: (هَذَا لِلنَّجَائِبِ)^(٢)، وكأَنَّهُ جَعَلَ المالَ للحيوانِ لا يأْكُلُهُ الإنسانُ -: فحديثُ البراءِ تَفَرَّدَ به مؤمِّلُ بنِ إِسْمَاعِيلَ؛ وفي حِفْظِهِ وَهَمٌّ وَغَلَطٌ.

وأما ما رواه ابنُ حُزَيْمَةَ في «التوحيد»، في حديثِ نِيَّارِ بنِ مُكْرَمٍ في رِهَانِ أبي بكرٍ، وفيه: «وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الرِّهَانِ مَا نَزَلَ»^(٣)، فحديثُ نِيَّارٍ تَفَرَّدَ به ابنُ أَبِي الزُّنَادِ، عن أبيه، عن عروَةَ بنِ الزُّبَيْرِ، عن نِيَّارٍ؛ به، ثُمَّ هو ليس من كلامِ نِيَّارٍ؛ وإنما من كلامِ بعضِ الرواةِ عنه.

أحكامُ الْعَوَضِ (السَّبْقِ) واشتراطُ المحلِّ في الرِّهَانِ:

لا يَخْتَلِفُ الفقهاءُ في جوازِ أَخْذِ المالِ في الرِّهَانِ والمَسَابَقَةِ إن كانَ المالُ مَبْذُولًا مِنْ بَيْتِ المالِ، أو مِنْ مالِ الإمامِ أو نائِبِهِ، وقد حَكَى الإجماعَ الزَّرْكَشِيُّ^(٤) وغيرُهُ، وقد كانَ النبي ﷺ يفعلُ ذلك؛ كما ثَبَتَ مِنْ

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣٠٨٦/٩).

(٢) «إتحاف الخيرة» للبوصيري (٥٧٨١)، و«المطالب العلية» لابن حجر (٣٦٨٠).

(٣) «التوحيد» لابن حزيمة (٤٠٥/١).

(٤) «شرح الزركشي على الخرقى» (٣٢١/٤).

حديث عبد الله بن عمر: «أن رسول الله ﷺ سَبَقَ بِالْخَيْلِ وَرَاهَنَ»؛ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ^(١)، وفي رواية عنده: «وَأَعْطَى السَّابِقَ»^(٢).

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْعَوْضُ مَبْذُولًا مِنْ مَالٍ عَامَّةٍ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ الْمُتَسَابِقِينَ، فَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى جَوَازِهِ، وَحُكِيَ عَنْ مَالِكٍ الْمَنْعُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِمَامِ؛ لِتَعَلُّقِهِ بِالْجِهَادِ؛ حَكَاهُ ابْنُ قُدَّامَةَ^(٣)، وَالْمَشْهُورُ عَنْ مَالِكٍ وَالَّذِي يَحْكِيهِ أَصْحَابُهُ: جَوَازُ ذَلِكَ، وَحُكِيَ جَمَاعَةٌ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ الْإِثْقَاقَ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْعَوْضُ (السَّبَقُ) مِنْ أَحَدِ الْمُتَسَابِقِينَ الْمَشَارِكِينَ؛ فَإِنْ سَبَقَ هُوَ، أَبْقَى مَالَهُ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَسْبِقْ، أُعْطَاهُ لِمَنْ سَبَقَهُ مِنْهُمْ، فَهَذَا قَدْ جَوَّزَهُ جَمْهُورُ الْفُقَهَاءِ، وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ: لَا يُعْجِبُنِي، ثُمَّ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ^(٤)، وَكَأَنَّهُ رَأَى تَرْكُهُ تَوَرُّعًا مَعَ عَدَمِ الْقَوْلِ بِعَدَمِ جَوَازِهِ، وَحُكِيَ ابْنُ قُدَّامَةَ عَنْهُ رَوَايَةٌ بِالْمَنْعِ^(٥).

وَبَرَى كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ: جَوَازَ ذَلِكَ بِشَرْطِ أَلَّا يَعُودَ السَّبَقُ إِلَى صَاحِبِهِ فِي حَالَةِ سَبْقِهِ هُوَ؛ وَإِنَّمَا يَدْفَعُهُ لْغَيْرِهِ مِمَّنْ شَهِدَ السَّبَاقَ إِنْ كَانَ السَّبَاقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَسَابِقُونَ جَمَاعَةً وَسَبَقَ هُوَ، جَعَلَ الْعَوْضَ (السَّبَقَ) لِلْمُتَسَابِقِ الَّذِي بَعْدَهُ، وَقَدْ حَكَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ذَلِكَ عَنْ رِبْعَةَ وَمَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ: أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُسَبَقَ بِهَا لَا تَرْجِعُ إِلَى الْمُسَبَقِ بِهَا^(٦).

وَقَدْ عَدَّ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ ذَلِكَ قِيَاسًا عَلَى حَالِ الْإِمَامِ؛ فَإِنَّهُ يُخْرِجُ الْمَالَ وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَهُوَ تَعْلِيلٌ لِبَسِّ الْقَوِيِّ؛ فَالْإِمَامُ لَا يُشَارِكُ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٦٧/٢).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٩١/٢).

(٣) «الْمَغْنِي» (٤٠٨/١٣).

(٤) «الْكَافِي فِي فَهْمِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» (٤٩٠/١).

(٥) «الْمَغْنِي» (٤٠٨/١٣).

(٦) «الْإِسْتِذْكَارُ» (٣١٠/١٤).

الْمُتَسَابِقِينَ سَبَاقَهُمْ فِي الْأَغْلَبِ، وَلَوْ شَارَكْتَهُمْ، لَكَانَ لَهُ حَقُّ كَحَقِّهِمْ عِنْدَ فَوْزِهِ، إِلَّا إِنْ كَانَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ أَجْرَى الْعَوَضِ مَجْرَى الْهَبَةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ أَنْ يَرْجَعَ فِيهَا صَاحِبُهَا، وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَهُوَ وَهَبُهَا هَبَةً مُشْرُوطَةً بِالْعَلَبَةِ وَالْفَوْزِ، وَقَدْ يَنْتَفِي وَقَدْ يَنْتَفِي فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ، وَالْجَعَالَةُ يَجُوزُ فِيهَا أَنْ يَبْذُلَ الشَّخْصُ مَا لَا لِمَنْ يَأْتِيهِ بِضَائِلَتِهِ، ثُمَّ يُشَارِكُهُمُ الْبَحْثَ عَنْهَا؛ فَإِنْ وَجَدَهَا هُوَ، بَقِيَ لَهُ مَالُهُ، وَإِنْ وَجَدَهَا غَيْرُهُ، أُعْطَاهُ إِيَّاهُ.

وعامةُ الفقهاءِ على جوازِ أن يكونَ السَّبَقُ مِنْ أَحَدِ الْمُتَسَابِقِينَ أَوْ مِنْ بَعْضِهِمْ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ جَمِيعِهِمْ، فَفِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ عِنْدَهُمْ، وَالْجَمْهُورُ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ وَحُرْمَتِهِ؛ لَدُخُولِهِ فِي الْقِمَارِ، مَا لَمْ يَدْخُلْ مُحَلَّلٌ بَيْنَهُمْ لَا يَدْفَعُ عَوَضًا، فَيُجِيزُونَهُ.

وَيُرِيدُ الْفُقَهَاءُ بِالْمُحَلَّلِ: أَنَّهُ الْمَتَسَابِقُ الَّذِي يُسَاوِي بَقِيَّةَ الْمُتَسَابِقِينَ فِي السَّبَاقِ، لَكِنَّهُ لَا يَبْذُلُ عَوَضًا لِمَنْ سَبَقَهُ، وَيَأْخُذُ الْعَوَضَ إِذَا سَبَقَ هُوَ، وَسَمَاءُ الْفُقَهَاءِ مُحَلَّلًا؛ لِأَنَّهُ يُحَلِّلُ لِلْسَّابِقِ أَخْذَ الْمَالِ، فَإِنَّ الْمُحَلَّلَ يَجْعَلُ الْعَقْدَ حَلَالًا، وَيُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ قِمَارًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْقِمَارَ: أَنْ يَكُونَ الْمُتَسَابِقُونَ مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْغَنَمِ وَالْعُرْمِ، وَأَمَّا الْمُحَلَّلُ، فَأَمَّا غَانِمٌ، وَأَمَّا سَالِمٌ لَيْسَ بِغَارِمٍ، وَبِهِ لَا يَكُونُ الْعَقْدُ قِمَارًا، وَيُسَمَّى الْمُحَلَّلُ عِنْدَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ: الدَّخِيلَ أَوْ الْمُحِلَّ أَوْ الْمَيْسَرَ، وَلِلْفُقَهَاءِ فِي دُخُولِ الْمُحَلَّلِ أَقْوَالٌ ثَلَاثَةٌ:

الأولُ: دُخُولُ الْمُحَلَّلِ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْعَقْدُ إِلَّا بِهِ؛ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَيْهِ مَذْهَبُ الْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْنِ مَالِكٍ، وَاشْتَرَطُوا لِدُخُولِهِ: أَلَّا يَدْفَعَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا، وَأَنْ يُسَاوِيَهُمَا فَيُكَافِي فَرَسَهُ فَرَسَيْهِمَا، أَوْ بَعِيرَهُ بَعِيرَهُمَا، أَوْ رَمِيَهُ رَمِيَهُمَا، فَلَا يَكُونُ دُخُولُهُ صَوْرِيًّا، وَأَنْ يَأْخُذَ الْمَالُ إِنْ سَبَقَ هُوَ مِنْ بَيْنِهِمْ؛ وَاسْتَدَلُّوا عَلَى

دخول المحلل بما جاء عند أحمد وأبي داود؛ من حديث سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَدْخَلَ فَرْسًا بَيْنَ فَرَسَيْنِ وَهُوَ لَا يَأْمَنُ أَنْ يَسْبِقَ، فَلَا يَأْمَنَ بِهِ، وَمَنْ أَدْخَلَ فَرْسًا بَيْنَ فَرَسَيْنِ وَقَدْ أَمِنَ أَنْ يَسْبِقَ، فَهُوَ قِمَارٌ)^(١).

وقد رواه مالك في «الموطأ»، فوقفه من حديث يحيى بن سعيد؛ أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: «لَيْسَ بِرَهَانِ الْخَيْلِ بَأْسٌ إِذَا دَخَلَ فِيهَا مُحَلِّلٌ، فَإِنْ سَبَقَ أَخَذَ السَّبْقَ، وَإِنْ سُبِقَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ»^(٢).

الثاني: كراهة دخول المحلل؛ وإلى هذا ذهب بعض الحنابلة المحققين؛ كابن تيمية وابن القيم؛ وذلك أنهم يرون البذل من الجميع غير جائز أصلاً، وإدخاله نوع تحايل عند من يحرّمه، ويرون أن المنع من السبق بمحلل وغير محلل أولى بالأخذ من القول بتحريمه ثم تحليله بالمحلل.

الثالث: لا يجوز إدخال المحلل؛ وبه قال جماعة من الفقهاء المالكية، وهو معتمد المذهب عندهم، وقد أنكّر مالك العمل بقول سعيد بن المسيب بالعمل بالمحلل، ولا يجوز عند مالك أن يجعل المتسابقين سبّقين يُخرج كل واحد منهما سبقاً من قبل نفسه على أن من سبق منهما، أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه، وقد قال مالك: «لا يجب المحلل في الخيل، ولا نأخذ فيه بقول سعيد»^(٣).

والفرق بين من قال بالكراهة ومن قال بعدم الجواز: أن من قال بالكراهة يرى أن دخوله لا يؤثر في الحل، ومن يرى عدم الجواز رأى دخوله لا يؤثر في التحريم.

(١) أخرجه أحمد (٥٠٥/٢)، وأبو داود (٢٥٧٩)، وابن ماجه (٢٨٧٦).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٤٦٨/٢). (٣) «تفسير القرطبي» (٢٨٥/١١).

ولمالك في دخول المحلل قول بجوازه يُوافق فيه قول ابن المسيب إلا أنه خلاف المشهور عنه.

وعَلَّلَ بعضُ المالكيَّةِ عدمَ جوازِ دخولِ المحلل بأنَّ الشرعَ منعَ في بابِ المعاوضةِ من اجتماعِ العَوَضَيْنِ لشخصٍ واحدٍ لم يَبْدُلْ، ويُحرَّمُ منه الباقرُ الباذِلُون، وذلك في مُعاوَضَاتِ البَيْعِ والإِجَارَةِ والشُّفْعَةِ؛ ففي البَيْعِ يكونُ الثَّمَنُ والمَثْمَنُ - وهو السلعةُ - مَقْسَمَيْنِ بَيْنَ البَائِعِ والمَشْتَرِي الذي انتَقَلَ إِلَيْهِ المَثْمَنُ، وهو المَبِيعُ.

وحديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ السَّابِقُ فِي المَحَلِّ لا يَثْبُتُ رَفْعُهُ؛ فَقَدْ رَفَعَهُ سَفِيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا، وَسَفِيَانُ يَهْمُ فِي حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ؛ كَمَا أَشَارَ إِلَى هَذَا أَحْمَدُ^(١)، وَابْنُ مَعِينٍ^(٢)، وَالنَّسَائِيُّ^(٣).

وَأَصْحَابُ الزُّهْرِيِّ الْكِبَارُ لَا يَرَفَعُونَهُ بَلْ يَقْطَعُونَهُ؛ كَمَعْمَرِ بْنِ رَاشِدٍ، وَعُقَيْلِ بْنِ خَالِدٍ، وَشُعَيْبِ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَغَيْرِهِمْ^(٤)، ثُمَّ إِنَّ تَرَكَيبَ الْحَدِيثِ لَا تُشَبِّهُ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا الْغَالِبَ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ؛ وَإِنَّمَا تُشَبِّهُ قُتَيْبًا التَّابِعِينَ.

وقد رَجَّحَ الْحَقَّاطُ الْقَطْعَ كَأَبِي حَاتِمٍ؛ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ فِي الْمَرْفُوعِ: «هَذَا خَطَأٌ، لَمْ يَعْمَلْ سَفِيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ شَيْئًا، لَا يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ عَنِ النَّبِيِّ، وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَكُونَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ مِنْ قَوْلِهِ»^(٥).

وَنَسَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى الدَّارِقُطْنِيِّ أَنَّ الرِّفْعَ مَحْفُوظٌ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَرُدِّ ذَلِكَ فِي «عِلَلِهِ»؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ رِوَايَةَ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ

(١) «العلل ومعرفة الرجال» لأحمد، رواية المروزي وغيره (٢٨).

(٢) «تاريخ ابن معين»، رواية الدارمي (ص ٤٤).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٢٨٠).

(٤) ينظر: «الفروسي» لابن القيم (ص ٢٢٩ - ٢٣٨).

(٥) «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٦٧٥/٥).

ابن المسيب لهذا الحديث وَهَمَّ، وَأَنَّهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، فَهُوَ يَرْجُحُ بَيْنَ وَجْهَيْنِ مَرْجُوحَيْنِ جَمِيعًا، لَا بَيْنَ وَجْهِ مَرْجُوحٍ ضَعِيفٍ وَبَيْنَ وَجْهِ رَاجِحٍ صَحِيحٍ^(١).

وَجَاءَ فِي الْمَحَلِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ مَرْفُوعًا^(٢)، وَفِيهِ عَاصِمٌ بْنُ عَمَرَ، مَتَكَلِّمٌ فِيهِ؛ قَالَ الْبُخَارِيُّ: مُنْكَرُ الْحَدِيثِ^(٣).

* * *

❏ قَالَ نَعَالِي: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسْمَوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ⑦ وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: فَضْلُ الصَّلَاةِ عَلَى مَوَاقِيتِهَا؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَوَاقِيتَ الصَّلَاةِ جَمِيعَهَا، وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه؛ أَنَّهُ قَالَ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي الْقُرْآنِ، فَقِيلَ لَهُ: أَيْنَ؟ فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسْمَوْنَ﴾: صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: صَلَاةُ الْفَجْرِ، ﴿وَعَشِيًّا﴾: الْعَصْرُ، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: الظُّهْرُ^(٤).

وَيُنَحْوِهِ رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ^(٥).

وَسَأَلَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَجِدُ مِيقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسْمَوْنَ﴾: الْمَغْرِبُ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: الْفَجْرُ، ﴿وَعَشِيًّا﴾: الْعَصْرُ،

(١) «علل الدارقطني» (١٦٩٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٦٨٩).

(٣) «التاريخ الكبير» للبخاري (٤٧٨/٦) ترجمة (٣٠٤٢).

(٤) «تفسير الطبري» (٤٧٤/١٨)، و«تفسير القرطبي» (٤٠٨/١٦).

(٥) «تفسير القرطبي» (٤٠٩/١٦).

﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾: الظُّهْرُ، قال: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَاسٍ لَكُمْ﴾ [النور: ٥٨] ^(١).

وصحَّ عن قتادة وابن زيد أنَّهما جعلَها دليلاً على أربعةِ مواقيتٍ، هي: المغربُ والفجرُ والعصرُ والظُّهْرُ ^(٢).

وقد تقدَّم الكلامُ على المواقيتِ الواردةِ في القرآنِ عندَ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِيِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرُنَا لِلذِّكْرِ﴾ [هود: ١١٤].

وتقدَّم الكلامُ على أذكارِ الصباحِ والمساءِ وفضلِها وحدُّها عندَ قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصْبَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

* * *

﴿فَالْتَسْكُنُوا﴾ قال تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِنَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فيه: إظهارُ مِنَّةِ اللهِ أَنْ خَلَقَ الأزواجَ مِنَ الأنفُسِ، وجعلَها تسكُنُ وتَمِيلُ وترتاحُ وتأنسُ إليها، فلا تَسْتَوْجِشُ منها لو كانتِ مِنْ غيرِ جنسِها، وجعلَ في ذلك بينَ الزوجينِ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً لا تكونُ بينَ اثنينِ، ولا يَسْقُطُها ويعظمُ عليها إلَّا مَوَدَّةُ الإِيمانِ ومحَبَّتُهُ.

وذكرُ اللهِ لِلسُّكُونِ في هَوَاهُ: ﴿الْتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ فيه إشارةٌ إلى السَّكَنِ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يتحقَّقُ له معنى سكونِ النَّفْسِ إلى زوجِهِ إلَّا بِسَكَنِ يَجْمَعُهُما، ويخلو بها فيه، ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ أعظمَ الغاياتِ مِنَ

(١) «تفسير الطبري» (١٨/٤٧٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/٤٧٥).

النكاح، وهو سكنُ النفوس، دَلَّ على أَنَّ ما لا تتحققُ تلك الغايةُ إلا به فهو مقصودٌ ومشروعٌ؛ ومن هذا تَوَخَّذُ قرينةً على وجوبِ السُّكْنَى للزَّوْجَةِ، وهذه الآيةُ نظيرُ ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وسيأتي الكلامُ على مسألةِ السُّكْنَى بتمامِها في سورةِ الطلاقِ، عندَ قولِ الله تعالى: ﴿اسْكُنُوا مِنْ حَيْثُ مَكَثْتُمْ مِنْ وَجْهِكُمْ﴾ [٦]؛ فإنَّها أصرَّحُ في المسألةِ.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَمِنْ عَائِنِهِ مَنَافِكُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتَغَاوْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿[الروم: ٢٣].

وفي هذه الآية: مِنْهُ الله على عِبَادِهِ بتقليبِ الأوقاتِ وتغيُّرها؛ لِتُنَاسِبَ تقسيمَ أعمالِ الإنسانِ بينَ عملٍ وراحةٍ، فجعلَ الليلَ للمِيتِ والمَنَامِ، وجعلَ النهارَ للكسبِ والمَعاشِ وطلبِ الفضلِ، وكان ذلك من الله آيةً لعباده.

الْقِيلُولَةُ فِي نَصْفِ النَّهَارِ:

وَحَمَلَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَنَافِكُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ عَلَى الْقِيلُولَةِ، وَهِيَ نَوْمَةُ نَصْفِ النَّهَارِ وَاسْتِرَاحَتُهُ، وَأَنَّهَا مِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ فِي يَوْمِهِ، وَلَا يَلْزَمُ فِي الْقِيلُولَةِ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا نَوْمٌ؛ وَلَكِنَّهَا تَكُونُ لِلرَّاحَةِ.

وقد ذَكَرَ اللهُ الْقِيلُولَةَ فِي مَوَاضِعَ:

مِنْهَا: فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ؛ وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ عَنْ نَصَبٍ وَوَصَبٍ وَتَعَبٍ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وَالْمَقِيلُ وَالْقِيلُولَةُ: اسْتِرَاحَةُ الْإِنْسَانِ نَصْفَ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا نَوْمٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْتَهَا فَمَآءَهَا بَاسُنَا يَبِتًا أَوْ هُمْ فَآلَهُوْا﴾ [الأعراف: ٤٤].

وفي القيلولة نفعٌ لنشاطِ البدنِ لِمَا بَقِيَ مِنْ عَمَلِ النَّهَارِ، وَمَعُوْنَةٌ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقَدْ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَسِّرْ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨].

والقيلولة فِظْرَةٌ وَمُسْتَحَبَّةٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، وَيُرَوَّى فِي الْأَمْرِ بِالْقِيلُولَةِ أَحَادِيثٌ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ: (قِيلُوا؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقْبَلُ)؛ كَمَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الطَّبِّ»^(١)، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: (اسْتَمِعُوا بِطَعَامِ السَّحْرِ عَلَى صِيَامِ النَّهَارِ، وَبِالْقِيلُولَةِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ)؛ كَمَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٢)؛ وَفِيهَا كَلَامٌ.

وَقَدْ ثَبَّتَ الْقِيلُولَةُ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَحَادِيثٍ كَثِيرَةٍ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ حَرَامٍ^(٣)، وَابْنِ عُمَرَ^(٤)، وَأَنْسٍ^(٥)؛ وَكُلُّهَا فِي الصَّحِيحِ.

وَجَاءَتْ مِنْ فِعْلِ الصَّحَابَةِ عَامَّةً فِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنْسٍ^(٦)، وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ^(٧)، وَفِيهَا مِنْ فِعْلِ ابْنِ عُمَرَ^(٨).

وَجَاءَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: «كُنَّا وَنَحْنُ شَبَابٌ نَبِيتُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَنَقِيلُ»^(٩).

* * *

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ» (٢٨)، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الطَّبِّ النَّبَوِيِّ» (١٥١).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (١٦٩٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٨٨)، وَمُسْلِمٌ (١٩١٢).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٩١٦).

(٥) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٢٨١)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٣١).

(٦) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٩٠٥) وَ(٩٤٠).

(٧) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤١)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٠٩).

(٨) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١٢١)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٧٩).

(٩) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٤٩١٤)، وَأَحْمَدُ (١٢/٢).

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٥) مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَأَنْقُوهُ وَأَقْبِسُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢٦) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم : ٣٠ - ٣٢] .

أمر الله نبيه بتوجيه وجهه إلى الله وتسليمه له، ويبيّن أن التوحيد هو الفِطْرَةُ التي خُلِقَ النَّاسُ مَفْطُورِينَ عَلَيْهَا، وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يَنْصَرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُجَسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟) (١).

يعني: أن الإنسان يُولَدُ مَفْطُورًا عَلَى الْإِيمَانِ بِخَالْقٍ وَاحِدٍ، ومَفْطُورًا عَلَى عِبَادَتِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَجَعَلَ اللَّهُ فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ مُوَافِقَةً لَشَرَائِعِهِ، فَلَا يَوْجَدُ شَيْءٌ مِنْهَا خِلَافَ الْآخَرِ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْحَرِفُ بِتَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ؛ كَمَا فِي «صحيح مسلم»، عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ: (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلُّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخْلَلْتُ لَهُمْ) (٢).

وقد جَعَلَ اللَّهُ الْفِطْرَةَ هِيَ الدِّينُ؛ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾؛ وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ تَغْيِيرُ الْفِطْرَةِ وَتَبْدِيلُهَا عَلَى مَا تَسْتَنْكِرُهُ الشَّرِيعَةُ وَالْأَوَامِرُ الرَّبَّانِيَّةُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَحُكْمِ تَغْيِيرِهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا مَرَّةً لَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء : ١١٩]،

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ النَّاسُ كَلْبًا فِي الْأَرْضِ خَلْقًا طَيْبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُلُقَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، ونَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ فِي صَدْرِ كِتَابِ «العَقَلِيَّةِ اللَّيْبِرَالِيَّةِ».

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: قرينة على كفر تارك الصلاة في مُشَابَهَتِهِ لَهُمْ بِتَرْكِهَا، وَتَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى كُفْرِ تَارِكِهَا فِي سُورَةِ الْمَاعُونِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ جِرْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونٌ﴾: أَنَّ الْفِرْقَ وَالْأَحْزَابَ فِي الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ مِنْ أَمْرِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ النَّاسُ عَلَيْهَا؛ فَاللَّهُ جَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ فَالْفِطْرَةُ تُحِبُّ الْجَمَاعَةَ وَالْوَحْدَةَ، وَالْوَاجِبُ نَفْيُ وَجْهِهِ التَّمَايُزِ وَالتَّفَرُّقِ؛ لِلْاجْتِمَاعِ عَلَى الْحَقِّ عَلَى الصَّرَاطِ الَّذِي خَطَّهُ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ بِقَوْلِهِ وَفَعَلِهِ.

وَأَمَّا تَمَايُزُ أَهْلِ الْحَقِّ عَنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْبِدْعِ وَالْكَفْرِ، فَهَذَا حَقٌّ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ الْاِفْتِرَاقِ، فَقَدْ مَدَحَ النَّبِيُّ ﷺ الْفِرْقَةَ الْمُتَّبِعَةَ وَلَوْ تَمَايَزَتْ عَنْ فِرْقِ الضَّلَالِ، فِي قَوْلِهِ ﷺ: (إِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً^(١))، وَمِنْ وَجْهِهِ الْجِرْمَانِ وَالضَّلَالِ: أَنَّ تَتَعَدَّدُ الْفِرْقُ فِي الْأُمَّةِ وَالْأَحْزَابُ بِدَعْوَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ تَرَى أَنَّهَا هِيَ تِلْكَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ وَلَيْسَتْ هِيَ إِلَّا مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣/١٢٠)، وَابْنُ مَاجَةَ (٣٩٩٣).

وَالْمُسْلِمُونَ فِي بَلَدٍ الْكَفَرِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَمَيَّزُوا عَنِ الْمَشْرِكِينَ،
ولو بأحزابٍ وجماعاتٍ ومنظماتٍ، ولكنه تمايزٌ بينَ إسلامٍ وكفرٍ، لا تمايزٌ
بينَ مُسْلِمِينَ وَمُسْلِمِينَ.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿فَكَانَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقَّهُ وَالْيَسِيرَ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا
لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن ذِكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ
اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ [الروم: ٣٨ - ٣٩].

فيه: فضلُ الإحسانِ، وأنه على ذوي القُرْبَى أفضلُ من غيرهم،
والصدقةُ على الأقاربِ أفضلُ من الصدقةِ على الأبعدين؛ لأنها صدقةٌ
وصلةٌ، والهديةُ للأقربينِ أفضلُ من الصدقةِ على الأبعدين؛ لأنَّ هديةَ
القريبِ عليه في جلبِ فضائلٍ عظيمةٍ؛ كصلةِ الرحم، وشدِّ الأزرِ به
عند الحاجةِ إليه في حقٍّ، وأثرُ الهديةِ في القريبِ أَدْوَمُ من أثرِ الصدقةِ
في البعيدِ؛ لِما في «الصحيحين»؛ أَنَّ ميمونةَ بنتَ الحارثِ رضي الله عنها أَعْتَقَتْ
وَلِيدَةً وَلَمْ تَسْتَأْذِنْ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ،
قَالَتْ: أَشَعَرْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتِي؟ قَالَ: (أَوْ فَعَلْتِ؟)،
قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: (أَمَّا إِنَّكَ لَوْ أَخْطَيْتَهَا أَخْوَالكِ، كَانَ أَكْظَمَ
لِلْأَجْرِكِ) ^(١).

وقد تقدَّم بيانُ فضلِ الصدقةِ والإحسانِ على الأقربينِ في مواضعٍ؛
منها عند قولهِ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا وَلَئِنْ

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ
[البقرة: ٢١٥].

إهداء الهدية رجاء الثواب عليها:

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
﴿١٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ فسرهُ
جماعة بمن يُعطي الهدية والعطية أو الصدقة، ويريد مقابلاً عليها؛ فهذه
لا يتقبلها الله من صاحبها؛ لأنه لم يرد بها وجه الله؛ وهذا مروى عن
ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وطاوس^(١).

وقد روي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا فِي
أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ قال: «هو ما يُعطي الناس بينهم بعضهم
بعضاً؛ يُعطي الرجل الرجل العطية يريد أن يُعطي أكثر منها»^(٢).

وصح عن طاوس، قال: «هو الرجل يُعطي العطية، ويهدي الهدية؛
ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر»^(٣).

وهذا لا يتعارض مع كون النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، كما
ثبت في «الصحيح»؛ من حديث عائشة^(٤)؛ فهذا فعل المهدى إليه، وليس
فعل المهدي، والمهدي ينبغي له أن يهدي الهدية والعطية والصدقة
ولا ينتظر ثوابها؛ ليتحقق له الأجر، وأما المهدى إليه، فيستحب له أن
يثيب على الهدية؛ رداً للمعروف وإكراماً للمهدي ولو لم ينتظرها، وهذا
يرد مثله في الشريعة؛ فنظير ذلك: أنه يجوز للرجل أو قد يستحب أن

(١) «تفسير الطبري» (١٨/٥٠٣ - ٥٠٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/٥٠٣).

(٣) «تفسير الطبري» (١٨/٥٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٨٥).

يَقُومَ إِكْرَامًا لِشَخْصٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِ؛ لَكِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلدَّخْلِ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَمَثَلَ
النَّاسُ لَهُ قِيَامًا؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ: (مَنْ سَرَّهُ إِذَا رَأَتْهُ الرِّجَالُ
مُقْبِلًا أَنْ يَمَثُلُوا لَهُ قِيَامًا، فَلْيَتَّبِعُوا بَيْتًا فِي النَّارِ)^(١).



(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/٣٢٠).



سُورَةُ الْقَمَانِ

سورة لقمان مكيّة، وإنّما الخلاف في بعض آياتها^(١)، وموضوعها وآياتها دالّة على ذلك، وفي السورة: تعظيم القرآن، وفضل الله بإنزاله، وبيان ما يصرف الناس عنه من اللّهُو واللّغو، وبيان آيات الله ومُعجزاته في خلقه؛ من السماء والأرض والكواكب، وذكر الله من أخبار من سبق وقصصهم كلّهم، وبيان عاقبة المُعاندِين، والتذكير بيوم المَعاد.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ يُضِرُّ عِلْمَهُ وَتَخْذَعُهَا هَزْؤًا أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

كانت قريش تتخذ الغناء تلهو به عن سماع كلام الله، وهو أحسن الحديث؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فسقى الله غناءهم ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾.

وقد فسر لهو الحديث في هذه الآية بالغناء جماعة من الصحابة والتابعين؛ كابن مسعود، وابن عباس، وجابر، وسعيد بن جبّير، ومجاهد، وعكرمة، ومكحول وقتادة وغيرهم^(٢).

وقد روى ابن جرير والبيهقي، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ أنه

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٤٥٥/١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٥٣٤/١٨ - ٥٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢٣١/٦).

قال: «والله الذي لا إله إلا هو، إِنَّ لَهُوَ الْحَدِيثَ لَهُوَ الْغِنَاءُ»، ثُمَّ ذَكَرَهَا ثَلَاثًا^(١).

وابن مسعود هو من أعلم الصحابة بالتفسير، إن لم يكن أعلمهم على الإطلاق.

الْغِنَاءُ وَالْمَعَارِزُ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا:

وقد جاء في الشريعة النهي في هذا الباب عن شيئين يَخْلُطُ بَيْنَهُمَا كثيرٌ من الناس: الأول: الْغِنَاءُ، والثاني: الْمَعَارِزُ، ولا يَلْزَمُ اجتماعُهما؛ فقد يَكُونُ الْغِنَاءُ بلا مَعَارِزٍ، وقد تَكُونُ الْمَعَارِزُ بلا غِنَاءٍ، وقد يجتمعان.

أما الأول: فالْغِنَاءُ، والمراد به هو إنشادُ الشَّعْرِ بالصوتِ الْحَسَنِ المجرَّدِ عن أيِّ مضافٍ إليه مِنَ الْآلَاتِ، وهذا النوعُ نُهيَ عنه لا لِذَاتِهِ؛ وإنَّما إن كان يتضمَّنُ صِدًّا عن ذِكْرِ اللَّهِ، كما كانت تَتَّخِذُهُ قريشٌ في مَكَّةَ؛ حتى لا تَسْمَعَ كلامَ اللَّهِ وكلامَ النَّبِيِّ ﷺ.

ولا يَلْزَمُ مِنَ الْغِنَاءِ أن يَكُونَ معه مَعَارِزُ، ولكنَّه غَلَبَ في استعمالِ الناسِ أن الْغِنَاءَ هو الذي يَكُونُ معه آلاَتُ الطَّرَبِ، وليس مقصودًا بهذا المعنى عند العرب.

ومن نَظَرَ إلى النصوصِ مِنْ أفعالِ الصحابةِ وكذلك أشعارِ العربِ، وَجَدَ أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ الْغِنَاءَ وَيُرِيدُونَ به الشَّعْرَ وَالْحُدَاءَ، حتى أَشْكَلَ ذلك على كثيرٍ مِنَ المتأخِّرينَ، وظَنُّوا أَنَّ قولَ السلفِ فِي الْغِنَاءِ إنَّما هو الْمَعَارِزُ كما هو اصطلاحُ المتأخِّرينَ؛ وهذا جَهْلٌ وسوءُ فَهْمٍ؛ فإنَّ هذا لم يَكُنْ موجودًا عندَ السلفِ مطلقًا.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨/٥٣٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/٢٢٣).

فَالْغِنَاءُ عِنْدَ الْعَرَبِ هُوَ صَوْتُ الْقَمِّ؛ كَمَا يَقُولُ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ:
 حَجَبْتُ لَهَا أَنِّي يَكُونُ غِنَاؤُهَا فَصِيحًا وَلَمْ تَفْعَرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا^(١)
 وَيَرِدُ عَنْ بَعْضِ السَّابِقِينَ: أَنَّهُ سَمِعَ الْغِنَاءَ، وَالْمَرَادُ بِذَلِكَ: هُوَ
 إِنْشَادُ الشَّعْرِ بِالصَّوْتِ الْحَسَنِ، وَلَيْسَ الْمَرَادُ الْمَوْسِيقَا وَالْمَعَارِفَ.
 وَالْغِنَاءُ عِنْدَ السَّلَفِ جَاءَ النِّهْيُ عَنْهُ لَا لِذَاتِهِ؛ وَإِنَّمَا إِنْ صَدَّ عَنْ
 ذِكْرِ اللَّهِ، وَمِثْلُهُ إِنْشَادُ الْأَشْعَارِ بِاللُّحُونِ، وَإِنْ لَمْ يَصُدَّ جَارًا.
 وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: «كَانَ الْغِنَاءُ فِي زَمَانِهِمْ إِنْشَادُ قِصَائِدِ الرَّهْدِ،
 إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يُلْحَنُونَهَا»^(٢).

وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ بِحَضْرَةِ الرَّشِيدِ لَابْنِ جَامِعٍ: الْغِنَاءُ
 يُفْطِرُ الصَّائِمَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي بَيْتِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ إِذْ أُنْشِدَ:
 أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ عَادٍ قَمُبَكْرُ عَدَاةٍ عَدِ أَمْ رَائِحُ فَمُهَجْرُ
 أَيْفَطِرُ الصَّائِمِ؟

قَالَ: لَا؛ قَالَ: إِنَّمَا هُوَ أَنْ أُمِدَّ بِهِ صَوْتِي، وَأَحْرَكَ بِهِ رَأْسِي^(٣).
 وَمِنْ هَذَا: قَوْلُ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبِيعٍ: «لَا بَأْسَ بِالْغِنَاءِ وَالْحَدَاءِ
 لِلْمُحْرِمِ»^(٤).

وَأَمَّا الثَّانِي: فَالْمَعَارِيفُ، وَهِيَ آلَاتُ الطَّرَبِ مِنَ الْعُودِ وَالْقَصَبِ،
 وَالْمِزْمَارِ وَالْمَوْسِيقَا، وَالْآلَاتُ الْإِلِكْتَرُونِيَّةُ الْحَدِيثَةُ الَّتِي تُخْرِجُ مَا يَخْرُجُ
 مِنَ الْمَعَارِفِ، فَإِنَّهَا تَأْخُذُ حُكْمَهَا؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ
 الْمَتَمَثِّلَاتِ، فَإِنَّهَا لَمْ تَحْرِمِ الْخَمْرَ لِكُونِهِ تَمَرًا أَوْ زَبِيبًا أَوْ دُبَاءً أَوْ غَيْرَ

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٣٩/١٥) (غنا)، و«تاج المروس» (١٩٣/٣٩) (غني).

(٢) «تلبس إبليس» (ص ٢٠٣).

(٣) «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني (١/٨١٦).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣٩٥١).

ذلك؛ وإنما لأنه يُخامِرُ العقلَ ويُسكرُهُ ويُغْطِيهِ؛ فكلُّ ما كان فيه هذه العلة يُسمَّى خمرًا محرَّمًا ولو كان من غير تلك الأصناف؛ بل حتى لو كان إلكترونيًا كما حدث في هذا الزمن ممَّا يُسمَّى بالمخدَّرات الإلكترونية؛ إذ تُوضَعُ سَمَاعَاتُ فِي الْأُذُنِ وتُحَدِّثُ أصواتًا متناغمةً على نسقٍ معيَّنٍ يُؤَثِّرُ في انتظام العقلِ فيُخَلِّلُ، ويكونُ السامعُ بعدَ وقتٍ فاقداً لعقلِهِ كَنَشْوَةِ السُّكْرَانِ، ثُمَّ لَا يَلْبِثُ إِلَّا وَيُقْبِقُ.

والمعازِفُ حُرِّمَتْ لذاتها؛ فما كان آلة عَزْفٍ واتَّخَذَ لذلك، فهو محرَّمٌ ولو لم يكن معه شِعْرٌ وكلامٌ؛ وذلك لقولِ النبي ﷺ: (لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَارِفَ)؛ رواه البخاري^(١)، وقال بتعليقه ابنُ حزم^(٢)، وليس كذلك، وقد بيَّنا وضْله وصحَّته في رسالة «الغنَاء».

وتحليلُ المعازِفِ اليومَ من علاماتِ النبوة التي أخبرَ عنها النبي ﷺ، يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ يَقِينًا بِصَلَقِ رِسَالَتِهِ لِإِخْبَارِهِ، وَلَا يُشَكِّكُهُ فِي حُكْمِ الْمَعَارِفِ؛ إذْ لَا يَوْجَدُ مَذْهَبٌ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ، وَلَا قَرْنٌ مِنَ قُرُونِ الْإِسْلَامِ، وَلَا بَلَدٌ مِنَ بُلْدَانِهِ خَلَا مِنْ عَالِمٍ يَحْكِي الْإِجْمَاعَ عَلَى حُرْمَتِهَا.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

أَمَرَ لُقْمَانُ ابْنَهُ بِالصَّلَاةِ، وَقَرَنَ الْأَمْرَ بِهَا بِأَمْرِ آخَرَ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، يَعْنِي: أَوْمَرُ غَيْرَكَ؛ لِأَنَّ صَلَاةَ الْعَبْدِ إِنْ كَمَلَتْ، نَهَتْهُ هُوَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا

الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴿٤٥﴾، فَأَمَرَ لَقْمَانَ ابْنَهُ أَنْ يَأْمُرَ غَيْرَهُ؛ لِكِتْفَائِهِ بِقِيَامِ صَلَاتِهِ بِذَلِكَ فِي نَفْسِهِ؛ فَمَنْ تَمَّتْ صَلَاتُهُ، تَمَّ بَاقِي دِينِهِ، وَبِمَقْدَارِ نَقْصِهَا وَالتَّفْرِيطِ فِيهَا وَفِي خُشُوعِهَا بِنَقْصِ دِينِهِ وَيَضَعُفُ أَثَرُهَا عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فِيهِ: أَنْ دَعَا جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ الْجَمْعَ بَيْنَ (الْأَمْرِ) وَ(النَّهْيِ): أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ، وَلَا يُقْتَصَرُ عَلَى وَاحِدٍ دُونَ الْآخَرِ.

وَبَعْضُ الْمُصْلِحِينَ يَمِيلُ إِلَى إِظْهَارِ الْمَعْرُوفِ، وَيَعْطِلُ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يُجِبُونَ مَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ شَهَوَاتِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ الْمُصْلِحُونَ قَامُوا بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَرَكُوا بَعْضًا، وَمَنْعَهُمْ خَشْيَةُ تَفْوِيتِ مَحَبَةِ النَّاسِ وَاسْتِعْدَائِهِمْ، وَهَذَا لَيْسَ طَرِيقًا لِلْأَنْبِيَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾، فِيهِ: أَنَّ الْبَلَاءَ لَا بَدَّ أَنْ يَلْحَقَ الْأَمْرَ بِالْخَيْرِ وَالنَّاهِي عَنِ الشَّرِّ لَا مُحَالَةً؛ وَلِهَذَا لَمْ يَأْمُرْهُ بِتَجَنُّبِ الْبَلَاءِ؛ وَإِنَّمَا أَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ؛ لِكُونِ الْبَلَاءِ مُتَحَقِّقًا قَدْرًا؛ سِوَاءَ قَلٍّ أَوْ كَثْرٍ، وَلَكِنْ يَجِبُ مَعَهُ الصَّبْرُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى شَرِيعَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِرْشَادٌ إِلَى الْإِعْتِدَالِ فِي الْمَشْيِ وَالْكَلَامِ؛ فَيَكُونُ

وسطًا؛ فلا يُسرِعُ في مَشْيِهِ، ولا يكونُ بطيئًا كَسَيْرِ المتكبرِ، وقد فسّر مجاهدٌ قوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ بالتواضع^(١)، وقال فتادة: «نَهَاهُ عَنِ الْخِيَلَاءِ»^(٢).

وفسّر يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ القصدَ في المشي بالسرعة^(٣)، ولعله حمّل ذلك على أَنَّ السرعةَ في المشي تُنافي الخيلاء؛ فعادةُ أهلِ الكبرِ السَّيرُ البطيءُ المتكلفُ.

وقد كان النبي ﷺ يَحُثُّ عَلَى السَّكِينَةِ، وَيَأْمُرُ بِالتَّوَسُّطِ، وَيَنْهَى عَنِ الإسراعِ المتعجلِ؛ ومن ذلك قوله ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ؛ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالْإِضْطِرَاعِ)^(٤)، وَالْإِضْطِرَاعُ الإسراعُ، وَأَمَّا مَا يُرَوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: (سُرْعَةُ الْمَشْيِ تُلْهِبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِينَ)؛ فَقَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلِيَةِ»^(٥)؛ وَلَا يَصَحُّ.

وَعَضُّ الصَّوْتِ خَفْضُهُ؛ فَلَيْسَ بِالْمَرْتَفِعِ الصَّارِخِ كَصَوْتِ الْحِمَارِ، وَلَا بِالْخَافِضِ الَّذِي لَا يُسْمَعُ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْكَرَ الْأَمْوَاتِ﴾؛ يَعْنِي: شَرَّهَا.

وكان عمرُ لا يَرَى التَّكَلُّفَ بَرَفِ الصَّوْتِ حَتَّى فِي الْأَذَانِ؛ كَمَا رَوَى الْبَيْهَقِيُّ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ أَبِي مَخْذُومَةَ؛ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ مَكَّةَ، أَذْنْتُ، فَقَالَ لِي عُمَرُ: يَا أَبَا مَخْذُومَةَ، أَمَا خِفْتُ أَنْ يَنْشَقَّ مَرِيضَاؤُكَ؟^(٦).

وهذه الآياتُ مَكِّيَّةٌ كَمَا هُوَ أَصْلُ السُّورَةِ، وَعَادَةُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ لَا تَأْمُرُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَدَابِ وَالسُّلُوكِ؛ وَإِنَّمَا تَأْمُرُ بِمَا تَذَلُّ عَلَيْهِ الْفِطْرَةُ

(١) «تفسير الطبري» (٥٦٣/١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣٠٩٩/٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٦٣/١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٠٠/٩).

(٣) «تفسير الطبري» (٥٦٣/١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٠٠/٩).

(٤) أخرجه البخاري (١٦٧١).

(٥) «حلية الأولياء» (٢٩٠/١٠).

(٦) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣٩٧/١).

عَامَّةً، وَأَمَّا الْآدَابُ كَصِفَةِ الْمَشْيِ وَالْقِيَامِ وَالْقَعُودِ وَاللِّبَاسِ وَالْكَلَامِ
وَأَحْكَامِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ جَاءَتْ فِي
سِيَاقِ قِصَّةِ لُؤْمَانَ، وَلَمْ تَكُنْ أَمْرًا لِلنَّاسِ فِي مَكَّةَ وَتَشْرِيعًا يَخْتَصُّونَ بِهِ،
وَلِنْ انْتَفَعُوا مِنْ ذَلِكَ بِالْاِقْتِدَاءِ بِمَنْ سَبَقَ كَمَا يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ مِنَ
الْآدَابِ فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ كِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ.





سُورَةُ السَّجْدَةِ

سورة السَّجْدَةِ سورة مكيَّة، واستثنى بعضُ السلفِ منها بضْعَ آياتٍ؛ منهم مَنْ جعلها ثلاثاً، ومنهم مَنْ جعلها خمساً^(١)، وسياقُ آياتها سياقُ المكيَّاتِ في موضوعها؛ ففيها بيانُ تنزيلِ القرآنِ والحكمةِ منه، وتذكيرُ الإنسانِ بضَعْفِ خَلْقَتِهِ، وتدبيرُ اللهِ لِلْعَيْثِ وتسييرُهُ له، وبيانُ عاقبةِ الإنسانِ وتذكيرُهُ بوقوفِهِ بينَ يَدَيِ رَبِّهِ وأحوالِ الناسِ في الآخرةِ، والتذكيرُ ببعضِ الرُّسُلِ السابقين.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾﴾ [السجدة: ١٥].

ذكر اللهُ خِصَالَ الْمُؤْمِنِينَ، وذكرَ منها أَنَّهُمْ يَخْرُونَ سُجَّدًا لِلَّهِ، وَيُسَبِّحُونَ فِي سَجُودِهِمْ، وفي هذه الآية: مشروعَةُ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللهِ فِي السَّجُودِ.

حُكْمُ التَّسْبِيحِ فِي السَّجُودِ وَالرُّكُوعِ:

ولا خلافُ في مشروعَةِ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللهِ فِي السَّجُودِ؛ لِثُبُوتِهِ فِي الْقُرْآنِ وَعَمَلِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ فِي وَجوبِ

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٤/٣٥٧)، و«تفسير المسير» (٣/٤٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٥/١٧).

التسبيح في السجود، ومثله الركوع، على قولين للفقهاء، هما روايتان عن أحمد:

الأولى: الوجوب؛ وهو قول داود، وهو مذهب الحنابلة، ورجحه جماعة من محققي المذهب، وقال به داود؛ وذلك لما رواه أحمد وأبو داود؛ من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه؛ قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤ و٩٦، والحاقة: ٥٢]، قال رسول الله ﷺ: (اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ)، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، قال: (اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ)^(١)، وحملوا الأمر الوارد في الحديث على الوجوب.

الثانية: الاستحباب؛ وهو قول جمهور الفقهاء؛ وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَعْلَمْهُ الْمُسَيِّءُ فِي صَلَاتِهِ، وما عَلَّمَهُ إِلَّا ما تَصَحَّحَ بِهِ الصَّلَاةُ. وحديث عُقْبَةَ مَتَكَلَّمٌ فِيهِ، يَرْوِيهِ مُوسَى بْنُ أَيُّوبَ، عَنْ عَمِّهِ إِيَّاسِ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ عُقْبَةَ، وَإِيَّاسٌ مُسْتَوْرٌ قَلِيلُ الْحَدِيثِ لَا يُعْرَفُ رَأَوْ عَنْهُ غَيْرُ ابْنِ أَخِيهِ، وَمُوسَى فِي حَدِيثِهِ الْمَرْفُوعِ عَنْ عَمِّهِ كَلَامٌ؛ فَقَدْ ضَعَّفَ ابْنُ مَعِينٍ حَدِيثَهُ الْمَرْفُوعَ عَنْ عَمِّهِ^(٢).

ثُمَّ أَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فِي سُورَةِ الْأَعْلَى، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤ و٩٦، والحاقة: ٥٢] فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَالْحَاقَّةِ، وَهَذِهِ السُّورَةُ الثَّلَاثُ مَكِّيَّةٌ، وَتَقْيِيدُ الْأَمْرِ بِهَا عِنْدَ نَزُولِهَا دَالٌّ عَلَى أَنَّ الْوَجُوبَ كَانَ بِمَكَّةَ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَذْكَارِ وَجَنَسُ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي الصَّلَاةِ: لَمْ يُفَرَضْ إِلَّا فِي الْمَدِينَةِ، وَلَوْ كَانَ فَرَضًا قَدِيمًا لَاشْتَهَرَ فَرَضُهُ، وَتَمَّ تَعْلِيمُهُ النَّاسَ مَعَ تَعْلِيمِ الصَّلَاةِ لِكُلِّ أَحَدٍ.

(١) أخرجه أحمد (١٥٥/٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧).

(٢) ينظر: «الضعفاء الكبير» للعقيلي (١٥٤/٤).

وَأَمَّا التَّسْبِيحُ الْوَارِدُ فِي السُّجُودِ الَّذِي أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ، فَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي صَبِيحٍ، مِنْهَا مَا يَشْتَرِكُ فِيهِ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، وَمِنْهَا مَا يَنْفَرِدُ بِهِ السُّجُودُ؛ وَمِنْ ذَلِكَ:

- مَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ^(١).

- وَمِنْهَا: مَا فِي مُسْلِمٍ؛ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ)^(٢).

- وَمِنْهَا: عِنْدَهُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا سَجَدَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)^(٣).

- وَمِنْهَا: مَا فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: بَثُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ؛ قَالَ: فَانْتَبَهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ قَالَ فِي رُكُوعِهِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَحَمِدَ اللَّهَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَحْمَدَهُ، قَالَ: ثُمَّ سَجَدَ، قَالَ: فَكَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى)، قَالَ: ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، قَالَ: فَكَانَ يَقُولُ فِيمَا بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: (رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَارْقُضْنِي، وَارْزُقْنِي، وَاهْدِنِي)^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٨١٧)، وَمُسْلِمٌ (٤٨٤).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٤٨٧).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٧٧١).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٧١/١).



سُورَةُ الْأَحْزَابِ

سورة الأحزاب مدنية^(١)، ويظهر ذلك في دلالة آياتها على الأحكام والتشريعات وأحكام النساء في الطلاق والعدد والميراث والحجاب، وما تضمنته من أحكام النسب، وخطاب أمهات المؤمنين، وبعض أحكام بيت النبوة. وفي سورة الأحزاب نزل حد الرجم للزاني المخصن، وأحكام كثيرة تعادل أو تقارب سورة البقرة، ثم نسخ منها ما نسخ لفظاً وحكماً، وما نسخ لفظاً وأبقى حكماً كحد الرجم؛ كما روى أحمد؛ من حديث زر؛ قال: «قال لي أبي بن كعب: كائناً تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كائناً تعدّها؟ قال: قلت له: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط! لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا، فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم»^(٢).

* * *

❏ قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ❶ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْرُجُوا فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥].

يزعمُ المشركون أنهم يفهمون ما لم يفهمه النبي ﷺ، وأنَّ للواحد

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢/٥).

(١) «تفسير القرطبي» (٤٨/١٧).

منهم قَلْبَيْنِ يَفْهَمُ بِهِمَا أَعْظَمَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ أَشَدِّ صَوَارِفِ أَهْلِ الضَّلَالِ عَنِ الْحَقِّ دَعَايَ الْفَهْمِ بِالْوَهْمِ، فَمَا يَزَالُ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُدْرِكُ مَا لَا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ، وَتَعَرُّهُ نَفْسُهُ؛ حَتَّى يُخْتَمَ لَهُ بُؤْسٌ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِنْ أَرَادَتْ صَرَفَ الْإِنْسَانَ عَنِ الْحَقِّ، وَهَمَّتْهُ أَنْ عَقْلُهُ خَيْرٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْحَقِّ؛ لِنُسْلِيَةِ وَتُبْقِيَةِ عَلَى الْبَاطِلِ، فَالْنَفْسُ لَا تَقْوَى عَلَى الْعَقْلِ إِلَّا بِخُدَاعِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أَلْفًا تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُنْثَى كَرْهًا﴾، فِيهِ: إِبْطَالٌ لَطَلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِي كَانُوا يَضْرُوتُ بِهِ الْمَرَأَةَ، فَيُظَاهِرُونَ مِنْهَا وَيُحَرِّمُونَهَا عَلَيْهِمْ كَأُمَمَاتِهِمْ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى الظَّاهِرِ وَأَحْكَامِهِ فِي سُورَةِ الْمَجَادَلَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ أُنْثَى كَرْهًا﴾، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ: كَانَتِ الْعَرَبُ تَتَبَنَّى الْوَلَدَ وَتَسْمِيهِ بِاسْمِهَا، فَيَنْتَسِبُ كَأَوْلَادِهِمْ مِنْ أَصْلَابِهِمْ، وَيَرْتُونُ مِنْهُمْ كَأَبْنَاءِ النَّسَبِ، وَيُصْبِحُ مَحْرَمًا كَمَحَارِمِ الْأَوْلَادِ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَبَيَّنَّ أَنَّ تِلْكَ الْفَاطَاطَ يُطْلِقُونَهَا عَلَيْهِمْ (يَا بُنَيَّ)، وَلَيْسَتْ مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ، وَلَا أَثَرُ لَهَا فِي الْأَحْكَامِ.

وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَنْسَبَ لِنَفْسِهِ وَلَدًا لَيْسَ وَلَدًا لَهُ، وَحَرَّمَ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يَنْتَسِبَ إِلَى أَبِي لَيْسَ أَبًا لَهُ، وَشَدَّدَ فِي ذَلِكَ فَجَعَلَهُ كَبِيرَةً؛ لِاسْتِحْقَاقِهِ اللَّعْنَ، وَلِأَنَّهُ مِنْ كُفْرِ النِّعْمَةِ وَتُكْرَانِ الْفَضْلِ وَجَحْدِهِ، وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ سَعْدٍ؛ قَالَ ﷺ: (مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ)^(١)، وَفِيهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: (لَا تَرْغُبُوا عَنْ آبَائِكُمْ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ، فَهُوَ كُفْرٌ)^(٢)، وَفِي مُسْلِمٍ؛ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ مَرْفُوعًا: (مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انْتَمَى إِلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٦٦)، وَمُسْلِمٌ (٦٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٦٨)، وَمُسْلِمٌ (٦٢).

غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا^(١).

وقد أمر الله بنداء الناس بأنسابهم الصحيحة، ومن جهل نسبه فيُدعى بالأخوة الإيمانية أو النداء بالمولى؛ كما قال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْبَابِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَقْلُوا آبَاءَهُمْ فَلَا تُخَوِّكُم فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾.

وعفا الله عما جرى على اللسان من غير قصد للمعنى، ولكن الإثم بالقصد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾﴾ [الأحزاب: ٦].

في هذا: عِظَمُ حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ على المؤمنين، وأنه أولى منهم بأنفسهم، فيجب طاعته وتعظيمه فوق كل طاعة وإجلال لكل مخلوق، وإن أمرهم بشيء يخالف أهواءهم وما يَرْعَبُونَ، فيجب عليهم طاعته؛ لأنه أولى بهم من أنفسهم.

وذكر هذه الآية بعد الآية السابقة في تحريم أبوة غير النسب تنبيه على أن ما كان من أبواب الإجلال - كأن يقول الرجل لأحد: والدنا؛ إجلالاً، والسامع يعلم قصد الإجلال - أن ذلك جائز؛ ولهذا قال في هذه

الآية: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ يعني: لَسْنَ أُمَّهَاتٍ رَجِمَ؛ وَلَكِنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ إِجْلَالٍ وَإِكْرَامٍ.

أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَقَامُهُنَّ:

هال تعالى، ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ فكلُّ زوجةٍ للنبي ﷺ، فهي أُمٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لعموم الآية، على خلافٍ عند الفقهاء في حدِّ ذلك، وقد ذهب الشافعيُّ: إلى أن كلَّ زوجةٍ له: أُمٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ ولو طَلَّقَهَا، وبعضُهم خَصَّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَدْخُولِ بِهِنَّ؛ وهو قولُ إمامِ الْحَرَمَيْنِ.

وقد رُوِيَ أَنَّ الْأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ نَكَحَ الْمُسْتَعِيدَةَ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَهَمَّ بِرَجْمِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَدْخُولًا بِهَا، فَكَفَّ عَنْهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ هَمَّ بِرَجْمِهَا، فَقَالَتْ: وَلَمْ هَذَا وَمَا ضُرِبَ عَلَيَّ حِجَابٌ، وَلَا سُمِّيتُ لِلْمُسْلِمِينَ أُمًّا؟ فَكَفَّ عَنْهَا^(١).

وَرُوي كذلك عن ابنِ عَبَّاسٍ مِثْلُهُ مع أسماءِ بِنْتِ الثُّعْمَانِ^(٢).

وَأِنَّمَا أَخَذَنَ الْأُمُومَةُ مِنْ أَبَوَيْهِ ﷺ؛ فَهُوَ أَبُو الْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا جَاءَ فِي قِرَاءَةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ قَالَ: (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبُوهُمْ)^(٣)، وَالْأَنْبِيَاءُ آبَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَبَوَةٌ دِينِيَّةٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وَخُرْمَةُ النَّبِيِّ كُحْرَمَةُ الْوَالِدِ وَأَعْظَمُ.

وَأِنَّمَا سُمِّيتِ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ بِـ(أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ)، وَلَمْ يُسَمَّ النَّبِيُّ ﷺ بِـ(أَبِي الْمُؤْمِنِينَ)، مع أنَّهُ أُمُومَتُهُنَّ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يُسَمَّى

(١) «التلخيص الحبير» (١٣٩/٣)، و«تفسير الألوسي» (١٥١/٢١).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٧/٤).

(٣) «فضائل القرآن» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص ٣٢٢)، و«الدرر المنتورة» (١٠٨/٨).

بِأَعْظَمِ أَوْصَافِهِ وَأَشْرَفِهَا؛ فَأَشْرَفُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَوْصَافِ هُوَ النَّبُوءَةُ، وَأَشْرَفُ أَوْصَافِ أَزْوَاجِهِ هُوَ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعِنْدَ نِدَائِهِ يُسَمَّى بِأَشْرَفِهَا وَأَسْمَاهَا، وَإِنْ جَازَ أَذْنَاهَا اعْتِرَاضًا لَا التَّزَامًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فَالْمُرَادُ بِهِ تَحْرِيمُ الْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ أَبُوءَ نَسَبٍ؛ فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِالتَّبَنِّيِّ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَبَّئَ قَبْلَ النَّبُوءَةِ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَلَمْ يَكُنْ أَبَاهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَّاهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَحْرِيمُ نِكَاحِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِلا خِلَافٍ؛ فَلَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُمَّهُ.

وَبَعْضُ الْفُقَهَاءِ يَرَى أَنَّ الْخِطَابَ لِلذَّكُورِ مَقْصُودٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، وَأَنْهَنَّ أُمَّهَاتُ رِجَالِ الْمُؤْمِنِينَ لَا نِسَائِهِمْ، وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ.

وَقَدْ رَوَى مُسْرُوقٌ؛ قَالَ: قَالَتِ امْرَأَةٌ لِّعَائِشَةَ: يَا أُمَّةُ، فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ: «أَنَا أُمُّ رِجَالِكُمْ، وَلَسْتُ أُمَّ نِسَائِكُمْ»؛ رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ وَابْنُ بَيْهَقٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ، عَنْ مَصْعَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهَا قَالَتْ: «أَنَا أُمُّ الرِّجَالِ مِنْكُمْ وَالنِّسَاءِ»^(٢).

وَالْأَظْهَرُ: الْغَمُومُ، وَأَنْهَنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالًا وَنِسَاءً؛ لِأَنَّهِنَّ أَخَذْنَ أُمُومَتَهُنَّ مِنْ أَبَوَيْهِ ﷺ، وَأَبَوْتُهُ هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً، وَقِرَاءَةُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُنَّ، وَهُوَ أَبٌ لَهُنَّ)^(٣) إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ، وَلَعَلَّ مُرَادَ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» (٦٧/٨)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٧٠/٧).

(٢) «الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى» (١٧٩/٨ وَ ٢٠٠).

(٣) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (٦٣/١٧)، وَ«تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (٣٨١/٦).

عائشة بقولها: «أنا أم رجالكم»: أَنَّ الحُرْمَةَ مع الرِّجَالِ أعظمُ وأشدُّ من جهة النِّكاحِ وميلِ القلبِ والطَّمعِ فيهنَّ، بخلافِ النِّسَاءِ؛ فهذا ليس موجودًا فيهنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: هذه الآية ناسخة لكلِّ ما كانت تفعله العربُ مِنَ التَّوريثِ بالتَّبَنِّيِّ والمُؤاخاةِ والحِلْفِ، وأنَّ الميراثَ يكونُ لأوليِّ الأرحامِ بحسَبِ مرَّاتِهِم المذكورة، وقد تقدَّم الكلامُ على شيءٍ مِنْ ذلك عندَ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَلَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْوُهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٢٣].

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَّا أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ جوازُ فعلِ المعروفِ لِمَنْ يُؤَالُونَهُمْ، وَيُحِبُّونَ فِي حالِ الحياةِ بالهديةِ والعطيةِ والصَّدقةِ، ولكن لا يدخلونَ في الميراثِ بعدَ الموتِ.

* * *

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

في هذه الآية: حثٌّ على الاقتداء بالنبي ﷺ، والتَّأسي بفعليه؛ وذلك أَنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ في قوله وفعليه، وَيُشرَعُ النَّاسِي بِهَذِي جميع الأنبياء؛ كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال الله عن إبراهيم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾

[المتحنة: ٤]، وكلُّ ما اسْتَنْتَه نبوءَةُ النبي ﷺ مِنْ أفعالِ الأنبياءِ، فهو دليلٌ على نَسَخِهِ، وأعْظَمُ النَّاسِي يكونُ بالافتدَاءِ بفعلِ النبي ﷺ.

أنواعُ أفعالِ النبي ﷺ:

وأفعالُ النبي ﷺ على أنواعٍ:

النوعُ الأولُ: أفعالُ عبادَةٍ؛ وهي الأصلُ في أفعالِ النبي ﷺ، فالأصلُ فيما وردَ عنه مِنْ ذلك أَنَّهُ تَشْرِيعٌ وَيُنَاسِي بِهِ فِيهِ، وما لم يكنْ تَشْرِيعًا تَعْبُدِيًّا، فهو مِنْ الأفعالِ الحسنةِ التي لا تكونُ مذمومةً بحالٍ؛ فقد اختار الله لِنَبِيِّهِ أَحْسَنَ الأفعالِ، كما اختار له أَحْسَنَ الحديثِ.

وما كانَ مُشْتَبِهًا مِنْ فعلِهِ وتردَّدَ: هل هو عبادَةٌ أو عادةٌ؟ ولا مرجَحُ بينهما، فَيُلْحَقُ بِأَصْلِهِ، وهو التَّعَبُّدُ.

النوعُ الثاني: أفعالُ عادةٍ؛ وهي ما يفعلُها النبي ﷺ على ما اعتادهُ النَّاسُ مؤمنهم وكافرهم، ولم يَخْصُ ذلك الفعلَ بتأكيدٍ وحثٍّ عليه بالقولِ؛ وذلك مِثْلُ لُبْسِهِ العِمَامَةِ والإِزَارَ والرِّدَاءَ والقَمِيصَ، ورُكُوبِهِ الدَّوَابَّ، فهذا الأصلُ فيه الاشتراكُ مع النَّاسِ المؤمنين والكافرين، ولم يَخْتَصَّ به المؤمنونَ عن غيرهم؛ فحينئذٍ يُقالُ بأنَّه عادةُ النَّاسِ، لا سُنَّةٌ وعبادةٌ.

وأما ما فعلَهُ النبي ﷺ ممَّا كانَ النَّاسُ يفعلونه مؤمنهم ومشرِكهم، ولكنَّهُ حَثَّ عَلَيْهِ بالقولِ، فهذا تَشْرِيعٌ وعبادةٌ، وذلك كَتَشْمِيرِ الإِزَارِ ورفعِهِ فوقَ الكَعْبَيْنِ؛ وذلك أَنَّهُ مِنْ عادةِ العربِ تَشْمِيرُ الأُزْرِ؛ وذلك أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ علامةً على القوةِ وتركِ النِّعْمَةِ والدَّعَةِ، وكانوا يَمْدَحُونَ فاعِلَ ذلك؛ كما قال الشاعرُ:

كَمِيشُ الْإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى الْبُزْءِ طَلَّاعٌ أَنْجِدُ^(١)
وَيَقُولُ الْآخَرُ:

وَكُنْتُ إِذَا جَارِي دَمًا لِمَضُوفَةٍ
أَشْمُرُ حَتَّى يَنْصُفَ السَّاقَ مِثْرِي^(٢)

ولكنَّ النبي ﷺ فَعَلَ ذَلِكَ وَرَفَعَ إِزَارَهُ، وَأَمَرَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ؛ فَخَرَجَ
عَنْ كَوْنِهِ عَادَةً إِلَى كَوْنِهِ عِبَادَةً؛ كَمَا قَالَ ﷺ: (مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَمْبَيْنِ مِنَ
الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ)؛ رواه البخاري^(٣).

وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ)، قَالَ: فَقَرَأَهَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا! مَنْ هُمْ
يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الْمُسْبِلُ، وَالْمَتَّانُ، وَالْمُتَّقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ)؛
رواه مسلم^(٤).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (بَيْنَا رَجُلٌ يَجْرُ
إِزَارُهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)؛ رواه
البخاري^(٥).

النوع الثالث: أفعال الجيلة: وهي ما يُجَبَّلُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ وَيُطْعَمُ؛
مِنْ لَوْنِهِ وَخِلْقَتِهِ، وَطَوْلِهِ وَضَخَامَتِهِ، وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ مَا لَا يَتَكَلَّفُهُ الْإِنْسَانُ

(١) البيت لذُرَيْدِ بْنِ الصُّنَّةِ؛ كما في «الأصمعيّات» (ص ١٠٨)، و«الشعر والشعراء» (ص ٧٥١).

(٢) البيت لأبي جُنْدَبٍ الْهَلَلِيُّ؛ كما في «لسان العرب» (٩/٣٣١)، و«تاج المروس» (٢٤/٥٨).

(٤) مسلم (١٠٦).

(٣) البخاري (٥٧٨٧).

(٥) البخاري (٥٧٩٠).

مِنْ صِفَةِ مِشْيَتِهِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُطَبِّعُ عَلَى ذَلِكَ وَيُجْبِلُ وَلَا يَتَكَلَّفُهُ وَلَا يَكْتَسِبُهُ؛ فَهَذَا لَا يُمَدِّحُ الْإِنْسَانَ بِفَعْلِهِ وَتَكَلُّفِهِ لَوْ قَدَّرَ عَلَيْهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: مِشْيَةُ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَفِي مُسْلِمٍ؛ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ؛ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللَّوْلُؤُ، إِذَا مَشَى، تَكْفَأُ»^(١).

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَشَى، تَكْفَأُ تَكْفُؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ»؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ؛ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ^(٢).

وَمَنْ نَظَرَ فِي فِعْلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَجَدَ أَنَّهُمْ يُكْثِرُونَ مِنْ ذِكْرِ أَعْمَالِ النَّبِيِّ ﷺ التَّعْبُدِيَّةِ، وَيَذْكُرُونَهَا فِي سِيَاقِ الْاِقْتِدَاءِ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ أَعْمَالِهِ كَأَعْمَالِ الْعَادَةِ وَالْأَعْمَالِ الْجَبَلِيَّةِ، فَلَا يَذْكُرُونَهَا إِلَّا اعْتِرَاضًا وَفِي سِيَاقِ الْوَصْفِ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْمُرُونَ فَرِيقًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٦].

لَمَّا اجْتَمَعَتِ الْأَحْزَابُ ضِدَّ النَّبِيِّ ﷺ لِقِتَالِهِ، قَامَ الْيَهُودُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ بِمُظَاهَرَةِ أَوْلَئِكَ وَإِعَانَتِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَفَقَضُوا عَهْدَهُمُ الَّذِي كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ إِنْزَالَ بَنِي قُرَيْظَةَ ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾، وَهِيَ حَصُونُهُمْ، لِإِعَانَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ وَنَتَّةٌ مِنْهُ؛ لِيَكْشِفَ شِدَّةَ مَا تُكِنُّهُ صُدُورُهُمْ مِنْ حَقْدٍ وَبَغْضَاءٍ وَتَرَبُّصٍ وَتَحْيِينٍ لِلْفُرْصِ لِقَتْلِ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَفِي هَذَا أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ الشَّدَائِدَ فِي الْأُمَّةِ، وَفِي رَحِمِهَا مِنْنٌ وَخَيْرٌ لَهُمْ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٣٣٠).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٩٦/١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٦٣٧).

وقوله، ﴿ظَهَرُوا﴾؛ يعني: صاروا لهم ظهيرا؛ كالظهير من خلف الإنسان يقوم به ويسنده.

وفي هذه الآية: دليل على أن من ظاهر العدو على المسلمين، أخذ حكمهم؛ كما قال تعالى، ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْمُرُونَ بِرِيقًا﴾، فقتل النبي ﷺ رجال بني قريظة لأجل ذلك، وسبى نساءهم وذرايهم.

وبنو قريظة لم يُقاتلوا النبي ﷺ؛ وإنما كانوا ظهرا لقريش، فأخذوا حكمهم؛ فإن من قاتل مواجهة، أو كان ظهيرا لعدو قاتل المسلمين، فإنه يأخذ حكمهم في جواز قتاله، وقد تقدم الكلام على حكم المظاهرين والحلفاء للأعداء من نقضه العهود من المعاهدتين في مواضع؛ منها عند قوله تعالى: ﴿أَوْكَلْنَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّةٍ﴾ [التوبة: ٤].

* * *

قال تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلْ لِأَنفُسِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّلْنَاهَا فَنَعَلَكُم مَّا تَكُونُونَ وَأَمْرِيكُمْ مَّرْكَأً جَيْلًا ۖ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

أمر الله نبيه أن يُخَيَّرَ أزواجه بين اختياره وبين اختيار الحياة الدنيا والنعيم فيها والتلذذ بملذاتها؛ وذلك لأن النبي ﷺ لم يبعثه الله ليتنعم في

الدُّنْيَا وَيَرْكَنَ إِلَيْهَا، وَأَرَادَ اللَّهُ تَشْرِيفَ مَقَامِهِ وَتَنْزِيهَهُ عَنْ لُوثَاتِ الدُّنْيَا وَطَمَعِهَا عَنْ لَذَّةِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا الْمَقِيمِ.

وفي «الصحيحين»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُخَيَّرَ أَزْوَاجَهُ، فَبَدَأَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: (إِنِّي ذَاكِرٌ لِكَ أَمْرٍ، فَلَا عَلَيْكَ إِلَّا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى نَسْتَأْمِرَ أَبِي أَبِيكَ)، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوِيَّ لَمْ يَكُونَا بِأُمْرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ﴾ إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ)، فَقُلْتُ لَهُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوِيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ^(١).

* * *

❏ قال تعالى: ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ﴾ وَقَرَنَ فِي يُؤْنِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۚ﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٣].

حَصَّ اللَّهُ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْخِطَابِ، وَقَالَ: ﴿لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ وَذَلِكَ لِمَقَامِ النُّبُوَّةِ، فَهِنَّ قُدُوةٌ لِنِسَاءِ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا، بِخِلَافِ غَيْرِهِنَّ، وَلَأنَّ أَثَرَ خَطْنِهِنَّ يَتَعَدَّى إِلَى الزَّوْجِ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّ تَهْمَةَ الْمَرْأَةِ فِي عِرْضِهَا تَتَعَدَّى إِلَى زَوْجِهَا فِي إِقْرَارِهِ لَهَا عَلَى ذَلِكَ، وَالْأَمْرُ يَنْصَلُّ بِعِرْضِهِ وَنَسَبِهِ، بِخِلَافِ الْكُفْرِ؛ لِهَذَا قَدَّرَ اللَّهُ فِي نِسَاءٍ بَعْضِ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥).

الأنبياء الكفر كنوح ولوط، ولكنه سبحانه لم يقدر العهر على امرأة نبي؛ لأن الشرف والعهر يتعدى إلى النسب.

وفي هذا: عظم منزلة القدوة على غيره في وجوب احتياطه واحتياط أهل بيته؛ وذلك كلما كان قدوة في قومه وبلده، كان أولى بالاحتياط من غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾؛ يعني: لا تُرَقِّقْنَهُ ولو كان ذلك عن حسن قصد؛ فإن النهي ليس لأجلهن فقط، بل لأجل السامعين، فيميل من في قلبه طمع ومرض إليهن؛ فيتسببن في إهلاكه.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؛ يعني: من الخير الذي لو سمعته الناس، ما استنكروه، فيكون كلامهن مع الواحد ككلامهن مع الجماعة في خيره وعفافه.

ومن علامة الكلام المباح الذي يجوز للمرأة أن تتكلمه مع الرجل الأجنبي: أن تتكلم بكلام لو سمعته الناس منها معه، ما استنكروه ولم تستخحي هي منه، فيعرفه الناس ولا يستنكروه، وهكذا ينبغي أن تكون العفيفة في خطابها إن احتاجت إلى رجل لا يسمعها أحد؛ أن تُخاطبه بحديث لو سمعته زوجها وولدها والناس، لم يستنكروه، ولعدوه معروفًا.

وفي قول الله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ جعل الطمع في الرجل، مع احتمال ورويه من جنس المرأة عامة؛ وذلك تعظيمًا للنبي ﷺ وتطهيرًا لنسائه من أن يُظنَّ بهنَّ ظنُّ السوء، ولبیان خصوصية الرجال بالجسارة والميل أكثر من النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾، أمرهن بالقرار في البيوت وعدم الخروج إلا لحاجة، ونهاهن عن تبرج

الجاهلية من الاختلاط بالرجال، وإظهار المفاخر بالسفور، ووصف ذلك بأنه جاهلية لا عن علم وصلاح.

وقد ذكر بعض المفسرين كمقاتل بن حيان^(١): أن تبرج الجاهلية الأولى - قبل وجود العرب - الذي نهى الله عنه في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: أنهم كنَّ يُلْقِينَ الخمار على رؤوسهن ولا يشدُّنَّه، ومع ذلك نهى الله عنه، وشدَّ عليه، وذكره مثلاً لفعل سوء، وقد جاء عن بعض السلف كابن عباس^(٢) وغيره: أن تبرج الجاهلية الأولى كان بين نوح وإدريس؛ ولو كان هناك تبرج عام في التاريخ بعده أسوأ منه، لذكره الله مثلاً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أمر الله أمهات المؤمنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله؛ لبيان أن العفاف لا يكمل إلا بعبادة وطاعة الله ورسوله.

وفي هذه الآية: إشارة إلى أن الحجاب والعفاف فطرة، وما لم يُقرن بعبادة من صلاة وزكاة وغير ذلك، فإنه يكون عادة يسهل تحولها؛ ولهذا أمر الله أمهات المؤمنين ونساءهم بالعبادة مع العفاف، وكثير من البلدان التي طرأت عليها عادات فاسدة من تبرج وسفور ترى أنه ينسلخ من الحجاب فيها نساء العادات، ويثبت نساء العبادات، وهذا نظير إعفاء اللحي؛ فقد كانت الرجال تراه فطرة، وجاء الإسلام العرب وهو يُغفون لحاهم عادة لا عبادة، ولم تكن اللحي علامة على ديانة؛ لأنها أصل للمؤمن والكافر والصالح والفاسق، حتى اختلط العرب بالعجم؛ فتأثروا بهم، فزال لحي العروبة؛ لأنها (عادة)، وبقيت لحي الإسلام لأنها (عبادة)، فأصبحت عند المتأخرين علامة على الديانة، بخلاف السابقين؛

(١) تفسير ابن كثير (٦/٤١٠).

(٢) تفسير الطبري (١٩/٩٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٩/٣١٣٠).

فإنما هي شعبةٌ من شُعَبِ الإيمانِ ليستَ وحدَها علامةً على شيءٍ.

عمومُ أصلِ الخطابِ بِالْحَبَابِ وَخُصُوصِيَّةُ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ:

والخطابُ في هذه الآيةِ وما قبلها وما بعدها وإن كان موجَّهاً
لأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، إلَّا أَنَّهُ عَامٌّ يَشْتَرِكُ مَعَهُنَّ فِيهِ فِي عَمُومِ الْحُكْمِ بِقِيَّةِ
النِّسَاءِ؛ وَلَكِنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ تَأْكِيدًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ يَأْتِ
مِنْكُمْ بِفَلْحَشَةٍ فَيُتَنَزَّهْ بِضَعْفٍ لَهَا أَلْمَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]؛
يعني: أَنَّ أَصْلَ الْعَذَابِ مَشْتَرَكٌ؛ وَلَكِنَّ الْفَرْقَ تَضْعِيفُ الْحُكْمِ وَتَشْدِيدُهُ،
وَمِثْلَ ذَلِكَ قَالَهُ فِي الثَّوَابِ: ﴿وَمَنْ يَقْنَتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ مِثْلَ مَا
تُؤْتِيهِمْ أَجْرًا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]؛ يعني: أَنَّ هُنَاكَ ثَوَابًا مَشْتَرَكًا مَعَ بَقِيَّةِ
النِّسَاءِ؛ وَلَكِنْ لَهُنَّ الثَّوَابُ مُضَاعَفٌ.

وبيانُ عمومِ أصلِ الحُكْمِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَاشْتِرَاكِ عَمُومِ نِسَاءِ
الْمُؤْمِنِينَ بِهِ - مِنْ وَجْهِ:

أولاً: أَنَّ الْقُرْآنَ عَامٌّ لِلنَّاسِ بِجَمِيعِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ
هَٰذَا الْقُرْآنِ لِتُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ أَي: مَنْ يَبْلُغُهُ مَا فِيهِ مِنْ
يَجِيءُ بَعْدَكُمْ، فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ، وَالْعِبْرَةُ بِعَمُومِ حُكْمِهِ، وَإِنْ تَمَّ تَخْصِصُ
الْخِطَابِ لِأَعْلَى الْبَشَرِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، فَضْلاً عَنْ أَحَادِ الصَّحَابَةِ وَأَزْوَاجِ
الْأَنْبِيَاءِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَا
أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ)^(١)، فَلِذَا كَانَ خِطَابُ الْأَنْبِيَاءِ الْوَاردُ فِي الْقُرْآنِ
الْمَخْصُوصُونَ بِهِ عَامًّا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، فَكَيْفَ بِخِطَابِ تَوْجَّهٍ لِمَنْ هُوَ
دُونَهُمْ؟ فَلِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُونَ فِي خِطَابِ الْأَنْبِيَاءِ، فَدَخَلُوا النَّسَاءَ فِي
خِطَابِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أُولَى.

ثانياً: أَنَّ تَخْصِصَ الْقُرْآنِ لِأَحَدٍ بَعِيْنِهِ لِمَزِيدِ اِهْتِمَامٍ فِيهِ، وَأَنَّهُ أُولَى
بِالْإِتِّبَاعِ مِنْ غَيْرِهِ، وَالْخُصُوصِيَّةُ لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِدَلِيلٍ زَائِدٍ عَنْ مَجْرَدِ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٠١٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الخطاب؛ كما هي عادة القرآن في خصائص النبي ﷺ؛ قال تعالى: ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْفِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ثالثاً: أن آية الحجاب جاء معها في الخطاب نفسه أوامر أخرى: ﴿وَاذْكُرْنَ﴾ - يعني: يا أزواج النبي - ﴿مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]؛ فالذكر ليس خاصاً بهن، فلو قيل بالخصوصية، لم يُشرع ذكر ما يَتْلَى في بيوتهن من القرآن والسنة إلا لأزواجه! مع أن هذه الآية أظهر في الخصوصية؛ حيث قال: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وأما في آية الحجاب الآتية، فقال: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فما قال: (حِجَابِكُنَّ) كما هنا ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وهل يفهم من هذا التخصيص الزائد: ألا يدخل فيه تلاوة الآيات والحكمة في بيوت غيركن، ولا تلاوة غيركن في بيوتهن وبيوت غيرهن؟! وهذا لا يقال به، ولا يلتزمه من يقول بخصوصية الحجاب، مع أنه في نفس الآيات ونفس السياق.

رابعاً: ما أجمع عليه العلماء: أن الأحكام تدور مع العلل والمقاصد من التشريع؛ فالله تعالى قال هنا: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، وقال في آية الحجاب مخاطباً الصحابة: ﴿ذَلِكَ لِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، والعلّة موجودة في عموم الجنسين على اختلاف مراتبهم، ثم ما الشيء الذي يريد الله إبعاده من قلوب الصحابة وأمّهات المؤمنين، ولا يوجد عند بقية النساء وبقية الرجال؛ إذا تنقوا في المجالس والبيوت والتعليم؟! وما الشيء الذي يجدّه الصحابة تجاه أمهاتهن أمّهات المؤمنين ولا يجدونه في بقية النساء؟! فإذا كان الحجاب أطهر لقلوبهم، فمن بعدهم أحوج إلى هذه الطهارة.

خامساً: أن الله قال: ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾، فجعل طهارة قلوب الصحابة مطلباً بذاته؛ وهذا يحصل في جميع النساء؛ بل هو في غير

أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّ نَظَرَ الصَّحَابَةِ لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ نَظَرُ إِجْلَالٍ وَتَعْظِيمٍ وَتَوْقِيرٍ.

سَادِسًا: أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّحْنَ بُرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ لَا يُتَصَوَّرُ خُصُوصِيَّةُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ يَجُوزُ لغيرهنَّ أَنْ يَتَبَرَّحْنَ بُرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، وَأَمَّا أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَحْرُمُ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ فِي حَقِّ الْجَمِيعِ؛ وَلَكِنَّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدُّ فِي التَّحْرِيمِ.

سَابِعًا: أَنَّ الصَّحَابِيَّاتِ اعْتَدْنَ عَلَى تَتَبُعِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَمَا فَعَلْنَهُ يَرَيْنَهُ تَشْرِيعًا لَهُنَّ مِنْ بَابِ أُولَى؛ كَمَا جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ عُمَرَ؛ أَنَّ زَوْجَتَهُ رَاجَعَتْهُ، فَقَالَتْ لَهُ مَحْتَجَّةً بِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: «مَا تُنْكِرُ أَنْ أَرَاكِ عَيْتَكَ؟! فَوَاللَّهِ، إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيَرَاكِ عَيْتَهُ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ!»، (١).

ثَامِنًا: أَنَّ اللَّهَ يَخْصُصُ فِي بَعْضِ السِّيَاقَاتِ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّحَابَةَ تَنْبِيهًا إِلَى دُخُولِ غَيْرِهِمْ مِنْ بَابِ أُولَى فِي الْحُكْمِ، وَهَذَا أَسْلُوبٌ شَرْعِيٌّ كَثِيرٌ فِي الْأَحْكَامِ؛ تَنْبِيهًا إِلَى أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ الْأَعْظَمُ وَالْأَجَلُّ، فَغَيْرُهُ أُولَى؛ لِهَذَا قَالَ ﷺ فِي بَيَانِ الْحُدُودِ: (لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (٢)، وَقَالَ فِي تَحْرِيمِ الرِّبَا: (أَوَّلُ رَبِّبَا أَضْعُ رَبِّبَانَا رَبِّبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) (٣)، وَقَالَ فِي تَحْرِيمِ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ: (إِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ) (٤)، وَرَبِيعَةُ ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ.

تَاسِعًا: لَوْ قُلْنَا بِالْخُصُوصِيَّةِ، فَخُصُوصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَابِ أُولَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٦٨)، وَمُسْلِمٌ (١٤٧٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٧٥)، وَمُسْلِمٌ (١٦٨٨)؛ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٢١٨)؛ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٢١٨)؛ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في المواضع التي يَتَوَجَّهُ الْخِطَابُ إِلَيْهِ لَمَزِيَّةٍ لَهُ لَيْسَتْ فِي أَحَدٍ مِنَ الْأَتْبَاعِ، فَالآيَاتُ الَّتِي يُخَاطَبُ بِهَا النَّبِيُّ عَامَّةٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، مَعَ كَوْنِ الْخِطَابِ خَاصًّا بِهِ لَيْسَ بِمَشْتَرَكٍ بِالْمَقَابِلَةِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا هُنَا: ﴿أَطَهِّرْ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فَلَا يُقَالُ بِأَنَّ دُخُولَ الْبُيُوتِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ جَائِزٌ؛ لَخُصُوصِيَّةِ النَّصِّ بِالنَّبِيِّ ﷺ هُنَا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ مَزِيدُ تَشْدِيدٍ فِي بَيْتِهِ كَمَا أَنَّ التَّشْدِيدَ زَائِدٌ فِي نِسَائِهِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ السَّرَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالْمُتْعَةُ؛ فَخِطَابُ النَّبِيِّ بِهِ لَا يَجْعَلُهُ خَاصًّا لَهُ وَلَا زَوْاجَهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِهِ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَأَتَايَنَّ أَفْتَحَ لَكُمْ وَأَمْرٌ عَلَيْكُمْ سِرًّا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وَهَلْ مَنْ تُرِيدُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ النِّسَاءِ لَا تَدْخُلُ فِي اسْتِحْقَاقِ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ؛ كَمَا جَاءَ فِي سِيَاقِ نَفْسِ آيَاتِ الْحِجَابِ الْمَوْجَّهَةِ لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ﴾ - أَيْ: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ - ﴿تُرِيدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩]؟

عَاشِرًا: دَفَعَ فَهَمَ الْخُصُوصِيَّةِ فِي آيَاتِ الْحِجَابِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ مَفْسَّرِي السَّلَفِ؛ كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَاقِ فِي «تَفْسِيرِهِ»، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: «لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ، دَخَلَ نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ عَلَيْهِنَّ، فَقُلْنَ: ذِكْرُنَّ وَلَمْ تُذَكَّرْ، وَلَوْ كَانَ فِينَا خَيْرٌ، ذِكْرُنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾» [الأحزاب: ٣٥] ^(١).

حَادِي عَشَرَ: أَنَّ الْمَفْسَّرِينَ يُطَبِّقُونَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عَلَى اخْتِلَافٍ

(١) «تفسير القرآن» لعبد الرزاق (١١٦/٢).

مَشَارِبِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ، قَالَ الْجَصَّاصُ: «وهذا الْحُكْمُ وَإِنْ نَزَلَ خَاصًّا فِي النَّبِيِّ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ، فَاَلْمَعْنَى عَامٌّ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ»^(١).

وقال القرطبي: «في هذه الآية: دليلٌ على أَنَّ الله تعالى أَوْذَنَ فِي مَسْأَلَتِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ فِي حَاجَةٍ تَعْرِضُ، أَوْ مَسْأَلَةٍ يُسْتَفْتَيْنَ فِيهَا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ النِّسَاءِ بِالْمَعْنَى»^(٢).

وعلى هذا نَصَّ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣)، وَابْنُ كَثِيرٍ^(٤)، وَأَمَّةُ التفسير.

ثَانِي عَشَرَ: سَبَبُ تَخْصِيصِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَزِيدٍ تَشْدِيدٍ عَلَيْهِنَّ؛ لِأَنَّ أَمْرَهُنَّ يَمَسُّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَمَعْلُومٌ أَنَّ حِفْظَ الْعَرَضِ يُقَدَّمُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ عَلَى حِفْظِ الدِّينِ كَوْنًا وَقَدَرًا؛ اهْتِمَامًا بِهِ؛ فَقَدْ تَكُونُ زَوْجَةُ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ كَافِرَةً كَامِرَةً لُوطٍ وَامْرَأَةُ نُوحٍ، لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقَعَ فِي الزَّوْنِ، وَاللَّهُ يَعْصِمُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الزَّوْنِ أَذِيَّتُهُ مُتَعَدِّيةٌ لِلزَّوْجِ وَعَرَضِيَّةٌ، فَمَنْ بَقِيَ مَعَ زَانِيَةٍ وَهُوَ عَالِمٌ: دَيُّوتٌ فِي الشَّرْعِ، بِخِلَافِ مَنْ بَقِيَ مَعَ كَافِرَةٍ؛ لِهَذَا أَجَازَ اللَّهُ زَوَاجَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، وَكَرِهَ نِكَاحَ الزَّانِيَةِ وَلَوْ مُسْلِمَةً: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِهَهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]، وَقَالَ: ﴿الْمُحْبَبَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، وَأَمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ قِدْوَةٌ، وَالتَّشْدِيدُ عَلَيْهِنَّ أَوَّلَى: ﴿يَلْبَسَا النَّيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ يَقَعُشْنَ فَبَلَسَ فَبَضَعَفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٠]، مَعَ أَنَّ تَحْرِيمَ الْفَاحِشَةِ عَلَى جَمِيعِ النِّسَاءِ، وَلَكِنْ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ مَزِيدُ تَشْدِيدٍ، وَهُوَ فِي الْحِجَابِ وَفِي الْإِخْلَاطِ وَالْفَاحِشَةِ سَوَاءٌ، وَلِتِمَامِ عَدْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِنَّ جَعَلَهُنَّ فِي بَابِ الثَّوَابِ أَعْظَمَ مِنَ الصَّحَابِيَّاتِ - فَضْلًا عَنْ نِسَاءِ الْأُمَّةِ - فِي الْإِنَابَةِ

(١) «أحكام القرآن» للجصاص (٥/٢٤٢). (٢) «تفسير القرطبي» (١٧/٢٠٨).

(٣) «تفسير الطبري» (١٩/١٦٦). (٤) «تفسير ابن كثير» (٦/٤٠٨).

على العمل: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَئْلًا وَرَسُولِي وَتَعْمَلْ مِثْلَ مَا نُذِيرُهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وحينما ذكر المضاغفة في العقاب والثواب، دلّ على أنّ بقيّة النساء على إثم وثواب ولكن لا مضاغفة فيه.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

* * *

زوّج الله نبيّه من طليقة زيد بن حارثة؛ لأنّ زيد بن حارثة كان النبيّ ﷺ قد تبنّاه، وكانت العرب تجعل ابن التبنّي كابن النّسب في الميراث والتحريم، فأراد الله أن يُذهب ذلك الأمر والحرَج الذي رسَخ في نفوسهم بأن يفعلهُ قدوة العالمين محمداً ﷺ؛ فزوّجه الله ابنة عمّته زينب بنت جحش، وعمّته أُمَيمة بنت عبد المطلب، وكانت طليقة زيد، فكانوا يعتبرونها زوجة ولده، ولمّا زوّجه الله إيّاها، قام فدخل عليها النبيّ ﷺ بلا استئذان^(١)، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبيّ ﷺ، وتقول: «زَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ، وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»^(٢).

وهذا يدلّ أنّ انتساب التبنّي وثبوت المحرميّة عند العرب كان شديداً في نفوسهم لمّا طال العهدُ به بينهم، وفي هذا: أنّه احتيج - لرفعهِ من نفوسهم - أن يفعلهُ رسولُ الله ﷺ بنفسه؛ ليفعلوه هم بطمأنينة.

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٨)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿قَالَ نَعَالِي: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّوَهُنَّ سِرًّا جَمِيلًا﴾ [الاحزاب: ٤٩].﴾

ذَكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَطْلَقَةَ الَّتِي لَمْ تُمَسَّ وَلَمْ يُدْخَلَ بِهَا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهَا عِدَّةً، وَأَوْجَبَ اللَّهُ لَهَا الْمُتْعَةَ، وَلَمْ يُوجِبْ لَهَا الْمَهْرَ. وَلَا خِلَافَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ بِجَوَازِ تَطْلِيقِ الْمَرَأَةِ بَعْدَ الْعَقْدِ وَقَبْلَ الدُّخُولِ، وَبِمَجَرَّدِ وَقُوعِ الطَّلَاقِ عَلَيْهَا فَهِيَ بَاطِنَةٌ بِلا عِدَّةٍ؛ لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ، وَلِلرِّجَالِ أَنْ يَخْطُبُوهَا.

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» - وَعَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ - مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَعَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؛ قَالَ: فَجَاءَهُمَا مُحَمَّدُ بْنُ إِيَّاسَ بْنِ الْبَكْرِ، فَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، فَمَاذَا تَرَيَانِ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ مَا لَنَا فِيهِ قَوْلٌ؛ فَأَذْهَبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ؛ فَإِنِّي تَرَكْتُهُمَا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَسَلَّيْتُ عَنْهُمَا، ثُمَّ أَتَيْتُنَا فَأَخْبَرَنَا، فَذَهَبَ فَسَأَلَهُمَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَفَتَبَيَّنَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقَدْ جَاءَتْكَ مُغْضِلَةٌ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: الْوَاحِدَةُ تُبَيِّنُهَا، وَالثَّلَاثَةُ تُحَرِّمُهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِثْلَ ذَلِكَ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ عَائِشَةَ تَابَعَتْهُمَا عَلَى ذَلِكَ^(٢).

وَبِهَذَا قَضَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٣)، وَابْنُ مَسْعُودٍ^(٤)، وَزَيْدٌ^(٥)،

(١) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (٥٧١/٢)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٣٣٥/٧)، وَزَيْدٌ (٣٥٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٣٥٥/٧).

(٣) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١٠٨٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٨٥٣).

(٤) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١٠٨٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٨٥٨).

(٥) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١٠٨٤)، وَابْنُ الْمُنْذِرِ فِي «الْأَوْسَطِ» (١٥٩/٩).

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو^(١)؛ وَلَا مُخَالَفَ لَهُمْ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا نَكَحَتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ النِّكَاحِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا نَكَحَتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾؛ فَلَا بَدَّ لِلطَّلَاقِ مِنْ نِكَاحٍ يَسْبِقُهُ، فَمَنْ قَالَ: «إِنْ تَزَوَّجْتُ فَلَانَةً، فَهِيَ طَالِقٌ»، فَإِنَّهَا لَا تَطْلُقُ مِنْهُ إِنْ تَزَوَّجَهَا.

وَبِهَذَا يَقُولُ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ؛ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدُ، وَبِهِ يَعْمَلُ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ؛ فَقَدْ رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: كُلُّ امْرَأَةٍ أَتَزَوَّجُهَا فَهِيَ طَالِقٌ، قَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٢).

وَرَوَى مِنْ مُرْسَلٍ طَاوُسٍ^(٣)، وَمِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ^(٤)، وَمِنْ حَدِيثِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ^(٥) وَمَعَاذِ^(٦) مَرْفُوعًا: (لَا طَّلَاقَ إِلَّا بَعْدَ نِكَاحٍ).

وَقَالَ بِهَذَا عَلِيُّ وَعَائِشَةُ وَجَابِرٌ وَابْنُ الْمُسَيَّبِ وَطَاوُسٌ وَالْقَاسِمُ وَعُرْوَةُ وَالْحَسَنُ وَعَطَاءٌ، وَخَلَقٌ مِنَ السَّلَفِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» فِي بَابِ (لَا طَّلَاقَ قَبْلَ نِكَاحٍ) أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ نَفْسًا مِنَ السَّلَفِ عَلَى ذَلِكَ^(٧)، وَبِالتَّبَعِ هُمْ نَحْوُ الثَّلَاثِينَ.

(١) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (٥٧٠/٢)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٨٥٤).

(٢) «تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٣١٤٢/١٠).

(٣) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١٤٥٧)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٨١٥).

(٤) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» (٢٢٦٥)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٨١٤).

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (٢٠٤٨).

(٦) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١٤٥٥)، وَالدَّارِقُطَنِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» (١٧/٤)، وَالْحَاكِمُ

فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٤١٩/٢)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْأَسْنَدِ الْكَبِيرِ» (٣٢٠/٧).

(٧) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» (٤٥/٧).

الْوَسيعَ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَحَصِّنِينَ ﴿البقرة: ٢٣٦﴾،
وعند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ
فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدَةٌ الزَّكَاجُ﴾
[البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اتَّوَا الْإِنْسَاءَ صَدَقَاتٍ مِثْلَهُ﴾ [النساء: ٤]، وقوله
تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا الْإِنْسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]،
وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَرْدْتُمْ أَسْبَدَالَ ذَوَجٍ مَكَاتٍ ذَوَجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِيَّاهُنَّ
قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

ولكنَّ اللهَ خَصَّ نَبِيَّهَ بِأَنْ أَحَلَّ لَهُ مَنْ تَهَبَّ نَفْسَهَا لَهُ؛ كما قال تعالى:
﴿وَأَمَّا زُورَةُ الْمُؤْمِنَةِ إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فأَحَلَّ اللهُ لِنَبِيِّهِ مَنْ تَهَبَّ نَفْسَهَا لَهُ، وهذا خاصٌّ به؛
لظاھر الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَوَاتٍ عَمَّكَ وَنَوَاتٍ عَمَّتِكَ وَنَوَاتٍ خَالِكَ وَنَوَاتٍ خَلَّتِكَ﴾
دليلٌ على أَنَّ نِكَاحَ الْقَرَابَاتِ يَسْتَوِي فِي الْحِلِّ مَعَ نِكَاحِ الْبَعِيدَاتِ؛ فقد
أَحَلَّ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ ذلك كله على السَّوَاءِ، وَلَا يُحِلُّ اللهُ لِنَبِيِّهِ إِلَّا الطَّيِّبَاتِ.

وَأَمَّا مَا يُنْسَبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: (لَا تَنْكِحُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ؛ فَإِنَّ
الْوَلَدَ يُخْلَقُ ضَاوِيًّا)، وكذلك مقولة: «اغْتَرِبُوا؛ لَا تَضُؤُوا»، فباطلٌ
لَا أَصْلَ لَهُ فِي السُّنَّةِ، وَإِنَّمَا يُنْسَبُ مِنْ قَوْلِ عُمَرَ؛ أَنَّهُ قَالَ لِأَلِ السَّائِبِ:
«قَدْ أَضَوَيْتُمْ، فَانْكِحُوا النَّوَابِغَ»؛ رواه إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ فِي «غَرِيبِ
الْحَدِيثِ»؛ وَلَا يَصِحُّ^(١)، وَقَدْ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَةَ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ
جَحْشٍ، وَزَوَّجَ فَاطِمَةَ مِنْ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

(١) ينظر: «غريب الحديث» لإِبْرَاهِيمَ الْحَرَبِيِّ (٣٧٩/٢)، و«البلد المنير» (٥٠٠/٧)،
و«التلخيص الجدير» (١٤٦/٣).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا﴾ قراءتان: قراءة بكسر (إِنْ)، وقراءة بفتحها، وحمل بعضهم الكسر على عدم الوقوع عند نزول الآية، والمعنى: إِنْ وَهَبْتَ؛ يعني: إِنْ وَقَعَ ذَلِكَ، فهو حلالٌ خاصٌ بك، والعاملُ في ذلك قوله: ﴿أَطْلَنَّا﴾، فليس مجرد وَهَبِ النَّفْسِ مجيزاً للنكاح إلا للنبي ﷺ.

وقد اختلف في هذا: هل وَقَعَ أَنْ تَزُوجَ النَّبِيَّ ﷺ امرأةً وَهَبَتْ نفسها له أو لا؟ على قولين للعلماء؛ كما اختلف مَنْ قال بحدوث ذلك في تعيينها، وليس هذا محلُّ الكلام عليه، ولكنَّ الثابتُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ وَهَبَتْ نفسها كما في «الصحيحين»؛ مِنْ حَدِيثِ عائشة^(١)، وسهل بن سعد^(٢)؛ وَإِنَّمَا التَّرَاوُعُ فِي قَوْلِهِ لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* * *

قال تعالى: ﴿تَرْجِي مَن شَاءَ مِنْهُنَّ وَتَعِزِّي إِلَيْكَ مَن شَاءَ وَمَن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

في هذا: توسعة لرسول الله ﷺ في تعامله مع نسائه، وقد قال بعضُ السلف: إِنَّ اللَّهَ خَفَّفَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ التَّسْوِيَةِ فِي الْقَسَمِ، وَرُويَ هَذَا عَنْ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ^(٣)، وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ: «إِنَّ الْقَسَمَ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ لَيْسَ وَاجِبًا عَلَيْهِ».

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٠)، ومسلم (١٤٢٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٣٩/١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤٤٦/٦).

وقال جماعة من السلف: إنَّ المراد بذلك: هو أنَّ لك أن تُبقي من تشاء في عِصْمَتِكَ، وتطلِّق من تشاء؛ وَرَوِيَ هذا عن ابن عباس والحسن^(١)؛ وفي هذا أنَّ الله أباح له من النساء الزواج بلا عددٍ، وقد نصَّ على هذا المعنى الشافعي في «الأم»^(٢).

وبعضهم حمل الإرجاء في قوله: ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَأٍ مِثْنَهُ﴾؛ يعني: من الواهبَاتِ أَنْفُسَهُنَّ لك، وقال بهذا الشعبي^(٣).

وحمل بعض المفسرين الآية على العموم في إرجاء الواهبَاتِ أو إمساكهنَّ، وفي أمر القسم بين الزوجات أنه بالخيار، واستدلَّ عليه بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَتَى أَنْ تَكَرَّرَ أُعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾^(٤)؛ أي: أنَّ أمهات المؤمنين إنَّ عَلِمْنَ أنَّ الله أذن لك وليس بحقَّ لهنَّ ذلك، فالأمر أهونُ في نفوسهنَّ فلا يحزننَّ ولا يجدنَّ حرجًا، ولا يجدُ النبي ﷺ حرجًا من ذلك، فلا يُظنُّ به ميلٌ لواحدةٍ دونَ أخرى.

ومع ذلك كان النبي ﷺ يعدلُ بين نسائه ويستأذنهنَّ تطيبًا لنفوسهنَّ، وقد روى البخاري ومسلم، عن عائشة: «أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا، بَعْدَ أَنْ أَقْرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَأٍ مِثْنَهُ وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ وَمِنْ أَنْفَعَتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فَقُلْتُ لَهَا: مَا كُنْتَ تَقُولِينَ؟ قَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ لَهُ: إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ، فَإِنِّي لَا أُرِيدُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَنْ أُؤَيِّرَ عَلَيْكَ أَحَدًا»^(٥).

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «كان رسول الله ﷺ لَا يُفْضِلُ بَعْضَنَا

(١) «تفسير الطبري» (١٤٠/١٩). (٢) «الأم» (١٥١/٥).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٤٥/١٠).

(٤) «تفسير الطبري» (١٤٣/١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤٤٦/٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٨٩)، ومسلم (١٤٧٦).

عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ^(١).

وقد كان رسول الله ﷺ يستأذن أزواجه في أن يمرضن في بيت عائشة رضي الله عنها^(٢).

وفي وجوب عدل النبي ﷺ عليه مع أزواجه خلافاً عند الفقهاء، ولكنهم لا يختلفون في وجوب العدل في غيره مع أزواجهم، وقد قال ابن قدامة: «لا نعلم بين أهل العلم في وجوب التسوية بين الزوجات في القسم خلافاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وليس مع الميل معروف، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَحِبِّلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]^(٣)، وقد تقدم الكلام على مسألة العدل في القسم بين الزوجات عند قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَقْدِلُوا بَيْنَ الْنِسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَحِبِّلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

* * *

❏ قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَافِقًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

بعدما بين الله لنبيه ما يحل له، بين سبحانه ما يحرم عليه من النساء، وقد اختلف في المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدُ﴾:

فمنهم من قال: إن المراد بذلك: أن الله حرم على نبيه أن يتزوج النساء بعد هذه الآية، وألا يطلق نساءه، وحمل ذلك على مجازاة أمهات

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨)، ومسلم (٤١٨).

(٣) «المغني» (١٠/٢٣٥).

المؤمنينَ حينَما خَيَّرَهُنَّ اللهُ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَاخْتَرْنَ رَسُولَ اللهِ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ؛ كَابْنِ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرَهُمْ^(١).

وقد جاء أَنَّ اللهَ أَبَاحَ لِلنَّبِيِّ ﷺ النِّكَاحَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَعَلَّلَهُ بَعْضُهُمْ: أَنَّ تَكُونَ الْبَيْتَةَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِنَّ؛ إِكْرَامًا لَهُ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِ، وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَهُوَ فِي «السُّنَنِ» أَيْضًا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قَالَتْ: «مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أُحِلَّ لَهُ النِّسَاءُ»^(٢).

وقد قال بأنَّ تَحْرِيمَ النِّسَاءِ عَلَيْهِ تُنْصَحُ جَمَاعَةٌ؛ كَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ، وَمِنَ السَّلَفِ مَنْ قَالَ: إِنَّ التَّحْرِيمَ بَاقٍ عَلَيْهِ إِلَى وَفَاتِهِ ﷺ، وَإِنَّ آيَةَ التَّحْرِيمِ لَمْ تُنْصَحْ، وَرَوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣)، وَالْحَسَنِ^(٤)، وَابْنِ سِيرِينَ^(٥).

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: «مِنْ بَعْدُ»؛ يَعْنِي: مَا عَدَّهُ اللهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ لِنَبِيِّهِ، فَمَا بَعْدَهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ؛ وَرَوَى هَذَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ^(٦)، وَقَوْلًا لِمَجَاهِدٍ^(٧).

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَشْهُرُ، وَعَلَيْهِ جَمْعُهُمْ.

* * *

(١) «تفسير الطبري» (١٤٧/١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤٤٧/٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤١/٦)، والترمذي (٣٢١٦)، والنسائي (٣٢٠٤).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٤٦/١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٤٤٨/٦).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٤٧/١٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩٧/١٧).

(٥) «تفسير القرطبي» (١٩٧/١٧).

(٦) السابق.

(٧) «تفسير القرطبي» (١٩٧/١٧)، و«تفسير ابن كثير» (٤٤٨/٦).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبَاتٍ لَكُمْ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِنَّا دَعَيْتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

في هذه الآية: تعظيم لحُرْمَةِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، فَحَرَمَ الدُّخُولَ إِلَى بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لِحَاجَاتٍ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا فَرَضَ اللَّهُ الْحِجَابَ عَلَيْهِنَ؛ زِيَادَةً فِي تَطْهِيرِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَدَفْعًا لِلحَرَجِ الَّذِي يَجِدُهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ كَثَرَةِ النَّاسِ الْوَارِدِينَ إِلَى بَيْتِهِ بِحَاجَاتِهِمْ فَيُؤْذُونَهُ وَيُؤْذُونَ أَهْلَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾.

وفي هذا: عِظَمُ حَيَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ، مَعَ عُلُوِّ مَقَامِهِ وَسَيَادَتِهِ فِي الْخَلْقِ؛ فَإِنَّ الرَفِيعَ عَادَةً يَجْسُرُ عَلَى مَنْ دُونَهُ وَلَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ حَيَاءً كَمَا يَجِدُهُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ أَوْ فَوْقَهُ؛ وَهَذَا مِنْ كِمَالِ الْخُلُقِ وَصِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤]، وَقَدْ جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ؛ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرَمَا»^(١).

وَالْحَيَاءُ مَنْ دُونَ الْإِنْسَانِ هُوَ مُحَلُّ اخْتِبَارِ كِمَالِ الْأَخْلَاقِ وَنُبُلِهَا، وَأَمَّا حَيَاءُ الْإِنْسَانِ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ وَفَوْقَهُ، فَيَجِدُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٦٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٢٠).

وقد تقدّم الكلام على مسألة الاستئذان عند دخول البيوت وصِفَتِهِ،
وبَدَلِ السلام عند دخولها، في سورة النور.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ
إِذَا دُعِيتُمْ فَأَنْظِرُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَرُوا﴾؛ يعني: غير منتظرين نُضْجِ الطعامِ
واستواءه؛ وذلك أَنَّ منهم مَنْ كان يأتي إلى بيت النبي ﷺ وقتَ غَدَائِهِ
من غير دعوة، فنهاهم الله عن ذلك، وأذن لهم بدخول البيت عند الدعوة
فَحَسْبُ، من غير مجيء لانتظار الغداء بلا دعوة منه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، في هذا
تعظيمٌ لِحُرْمَةِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بعدما يَبْنِي حُرْمَةَ بَيْتِهِ.

والمَتَاعُ: كُلُّ مَا يُسْتَمْتَعُ بِهِ مِنَ الْبُيُوتِ عَادَةً؛ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ
وَأَنْعَاءٍ وَلِبَاسٍ.

وَالْحِجَابُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَعَانٍ، أَشْهَرُهَا وَأَعْمُهَا
- وهو المرادُ هنا -: أَنَّهُ بِمَعْنَى الْحَاجِزِ السَّاتِرِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وَيَكُونُ مِنْ
جِدَارٍ أَوْ قُمَاشٍ أَوْ خَشَبٍ، وَلَيْسَ هُوَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَى
مِن مَعَانِي اللَّبَاسِ أَوْ اللَّبْسِ، وَهُوَ الْمَرَادُ فِي الْآيَةِ لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ:
﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى: قَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِإِنْسِي أَنْ يُلْقِيَهُ أَقْدِمُ إِلَّا رَجُلًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾
[الشورى: ٥١]، وَقَوْلُهُ عَنْ مَرْيَمَ: **﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾** [١٧]،
وَقَوْلُهُ عَنْ نَبِيِّهِ سَلِيمَانَ: **﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى**
تَوَارَتْ بِأَلْحَابٍ﴾ [ص: ٣٢]، وَقَوْلُهُ عَنْ قَوْلِ الْكَفَّارِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: **﴿وَمِنْ بَيْنِنَا**
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونُ﴾ [فصلت: ٥]، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي السُّنَّةِ بِمِثْلِ
هَذَا الْمَعْنَى، فَلَيْسَ هُوَ لِبَاسًا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدٌ؛ وَإِنَّمَا هُوَ سَاتِرٌ بَيْنَ جِهَتَيْنِ
أَوْ شَيْئَيْنِ:

فقد يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على الفصلِ بَيْنَ رَجَالٍ وَرَجَالٍ؛ كما في حديثِ أَنَسٍ في «الصَّحِيحَيْنِ»، في قِصَّةِ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قال: «أَوَمَّا النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَتَقَدَّمَ، وَأَرْخَى النَّبِيُّ ﷺ الْحِجَابَ، فَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَ»^(١).

وقد يُطْلَقُ على الفصلِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ كما في قولِ عُمَرَ في الصَّحِيحِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ»^(٢).

وإنَّما شَدَّدَ اللَّهُ على نِسَاءِ النَّبِيِّ؛ تعظيماً للنَّبِيِّ ﷺ، وبقِيَّةِ النِّسَاءِ يَدْخُلْنَ في هذا الْحُكْمِ؛ لَكِنَّ حُكْمَهُنَّ أَخَفُّ؛ لِأَنَّ التَّبِعَةَ عَلَيْهِنَّ وَعَلَى أَزْوَاجِهِنَّ أَيْسَرُ، وَلِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ عِلَّةَ مُشْتَرَكَةٍ لِكُلِّ النِّسَاءِ: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، وَلَا يَسُوعُ أَنْ طَهَارَةَ قُلُوبِ سَائِرِ الْمُؤْمِنَاتِ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ بِمَطْلَبٍ في الشَّرْعِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ في أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَهِنَّ أَطْهَرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَفي الصَّحَابَةِ؛ وَهَم أَطْهَرُ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا، فغَيَّرَهُم أَحْوَجُ إِلَى ذَلِكَ، وَقَالَ بَعْمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَغَيْرُهُمَا^(٣).

وهذه الْآيَةُ جَاءَتْ في حُكْمِ الْاِحْتِجَابِ عَنِ الرِّجَالِ في الْبُيُوتِ، وَمِثْلُهُ التَّعْلِيمُ وَالْعَمَلُ؛ لِأَنَّهُ بِطَوَّلِ الْحَدِيثِ وَالْقَعُودِ فِيهَا، فَكَانَتْ آيَةُ الْحِجَابِ مَبْنِيَّةً لِحُكْمِ، وَآيَةُ الْجَلَابِيبِ مَبْنِيَّةً لِحُكْمِ آخَرَ، وَهُوَ اللَّبَاسُ عِنْدَ إِرَادَةِ الْخُرُوجِ إِلَى الطَّرَاقَاتِ وَالسُّوقِ وَالْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٨١)، ومسلم (٤١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٨٣).

(٣) «تفسير الطبري» (١٦٦/١٩)، و«التمهيد» (٢٣٦/٨).

وصلاة المؤمنين على النبي ﷺ ليست شفاعاً له منهم، ولكنه جزاء له على فضله عليهم، ولكرم الله وشرف نبيه جعل الله المؤمنين ينتفعون بصلاتهم عليه؛ كما في «صحيح مسلم»؛ قال ﷺ: (مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا)^(١)، وفي الترمذي مرفوعاً: (أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً)^(٢).

وظاهر الأمر بالصلاة على النبي ﷺ في الآية: الوجوب، وقد حكى ابن عبد البر الإجماع على وجوب الصلاة على النبي ﷺ للآية^(٣)، ويريد بذلك أصل الصلاة، وأما مواضع الصلاة، فعلى خلاف معروف. وقد ذهب جماعة من الأئمة: إلى أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على المؤمن بالرسالة إجمالاً، من غير تعيين زمان ولا مكان؛ وهذا نسب إلى أبي حنيفة ومالك والثوري والأوزاعي. وأوجبته الشافعي - وأحمد في رواية - في كل تشهد أخير في الصلاة.

ولا يتعين في الصلاة، ولا في وقت من الأوقات. واختلف العلماء في حكم الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره في المجلس، على أقوال:

منهم من قال: بوجوب الصلاة عند ذكره كل مرة، ولو تكرّر الذكر في المجلس الواحد؛ وإلى هذا ذهب الطحاوي والحليمي وابن بطّة وغيرهم.

ومنهم من قال: باستحباب الصلاة عند ذكره، وعدم وجوبه. والأظهر: أنه يجب عند ذكره في المجلس مرة، وإن تكرّر بعد

(٢) أخرجه الترمذي (٤٨٤).

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٣) «الاستذكار» (٢٥٥/٦)، و«التمهيد» (١٦/١٩١).

ذلك فَيُسْتَحَبُّ؛ لَأَنَّ الصَّلَاةَ الْوَاحِدَةَ تُسَقِّطُ الْإِجَابَ فِيمَا بَقِيَ، وَهُوَ أَدْنَى مَا يُمْتَثَلُ بِهِ فِي الْآيَةِ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ تَكُونَ الصَّلَاةُ عِنْدَ أَوَّلِ ذِكْرٍ لَهُ؛ حَتَّى لَا يَتَّكِلَ مَنْ يَنْشَغِلُ ذَهْنُهُ وَيَغْفُلُ عَمَّا بَقِيَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَقَدْ لَا يُذَكِّرُ فِي الْمَجْلِسِ إِلَّا مَرَّةً، وَالْكَمَالُ لِأَهْلِ الْكَمَالِ هُوَ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ عِنْدَ كُلِّ ذِكْرٍ لَهُ ﷺ.

وقد قال رسول الله ﷺ: (رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ جِنْدُهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) ^(١)، وقال ﷺ: (الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ جِنْدُهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) ^(٢)؛ رواهما الترمذي.

ونصح الصلاة على النبي ﷺ بأي لفظ، مختصراً كان أو مطوّلاً، وأفضل أنواعها الجمع بين الصلاة والتسليم؛ لظاهر الآية: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فيقال مختصراً: (عليه الصلاة والسلام)، أو (ﷺ)، وأتم أنواع الصلاة: الصلاة الإبراهيمية.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ وَبَنَاتِكَ وَفَسَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

لَمَّا جَاءَ الْخِطَابُ السَّابِقُ خَاصًّا بِأَمْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَشْتَرِكُ فِي أَصْلِ الْحُكْمِ عَامَّةُ الْمُؤْمِنَاتِ، جَاءَ اللَّهُ بِخِطَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَبَيِّنُ حَاجَةَ جَمِيعِ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ذَلِكَ؛ حَتَّى لَا تُنْظَرَ خُصُوصِيَّةُ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْبَلَّاسِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾:

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٤)، والترمذي (٣٥٤٥)؛ من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٤٦)؛ من حديث علي ؓ.

أمر الله بإدناء الجلباب، والجلباب هو ما يكون من لباس فضفاض فوق الخمار يستوعب أعلى البدن ووسطه، ويسدل فيغطي به الوجه والصدر؛ ففي «الصحيحين»؛ من حديث عائشة رضي الله عنها؛ قالت: «فخمرت وجهي بجلبابي»^(١).

والجلباب قريب من العباءة اليوم لكنه غير مفصل، ويسمى: القناع أو الملاءة.

والجلباب ليس غطاء خاصاً بالوجه وحده؛ ولكنه للوجه وغيره؛ ولذا قال: ﴿يَذَرِيكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾؛ يعني: تأخذ شيئاً من جلبابها وتنزله على وجهها؛ كما يأتي بيانه.

والفرق بين الخمار والجلباب: أن الخمار يكون تحت الجلباب، والخمار تلبسه المرأة وتشده على رأسها وما دونه، ويكون ملاصقاً للجسم مشدوداً، بخلاف الجلباب؛ فهو غطاء زائد فوقه فضفاض يرخى غالباً ولا يشد لا على الوجه ولا على الصدر بحيث يبرز حجم العضو؛ ولذا جاء في «صحيح مسلم»، عن أم سليم: «أنها خرجت مستعجلة تلوث خمارها»^(٢)؛ يعني: تديره على رأسها وتشده، والخمار هو الذي تضر بطرفه بعض النساء الأوائل دنائرها؛ لتماسكه وثباته عليها.

قال أبو نعيم الأصبهاني: «الجلباب فوق الخمار ودون الرداء تستويق المرأة صدرها ورأسها»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَذَرِيكَ عَلَيْهِنَ﴾:

الإدناء من الدنو، وهو القرب، ويكون من مكان عالٍ أو مواز،

(١) أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٣).

(٣) «المستدرج المستخرج على صحيح مسلم» (٤٧٤/٢).

والدنو نزول، فيسمى أسفل الشيء وأقربه: أدناه، ويسمى النازل الهابط بالنسبة للعالي: أذنى ودانياً؛ كما في قوله: ﴿فِي أَذْنِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ صَعْلُيُونَ﴾ [الروم: ٣].

والأمر في الآية هو لتغطية المرأة وجهها، فالجلباب في الأعلى، فأمرت أن تنزله على وجهها وتُرْخِيه عليه؛ قال الزَّمَخْشَرِيُّ: «يُقَالُ إِذَا زَلَّ الثَّوبُ عَنْ وَجْهِ الْمَرْأَةِ: أَذْنِي ثَوْبُكَ عَلَى وَجْهِكَ»^(١).

ويدلُّ على أنَّ الإدناء في الآية يتضمنُّ القُربَ من علو: قول ابن عباس: تُذَلِّي عَلَيْهَا مِنْ جَلَابِيبِهَا؛ كما عند الشافعي والبيهقي^(٢)؛ ففسر (الإدناء) بـ(الإذلاء)، والإذلاء يكونُ من الشيء العالي؛ ومنه قوله: ﴿مَلَكُهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۖ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۖ﴾ [النجم: ٥ - ٩]، وهو قُربُ جبريلَ من النبي ﷺ، فكان عاليًا ثم دنا فتدلى إليه، ومنه سُمِّيَ الدَّلْوُ دَلْوًا؛ لأنَّه يُذَلَّى به مِنْ عُلُوِّ إِلَى أَسْفَلِ الْبُتْرِ.

وقد فسر إدناء الجلابيب بتغطية الوجه في هذه الآية وغيرها جماعة من الصحابة؛ صحَّ عن ابن عباس وعائشة، ومن التابعين: عبيدة السلماني، ومحمد بن سيرين، وابن عَوْنٍ، ولا أعلم أحداً من الصحابة أو التابعين خالف هذا المعنى:

أما ما جاء عن ابن عباس، فقوله: «أمر الله نساء المؤمنين إذا خَرَجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ أَنْ يُعْطِينَ وُجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ بِالْجَلَابِيبِ، وَيُبْدِينَ عَيْنًا وَاحِدَةً»؛ أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، عن

(١) «تفسير الزمخشري» (٣/٥٦٩).

(٢) «مسند الشافعي» (ص ١١٨)، و«معركة السنن والآثار» للبيهقي (٩/٤).

علي، عن ابن عباس^(١)، وهي صحيفة قواها أحمد، واحتج بها البخاري^(٢).

وأما ما جاء عن عائشة، فقولها: «تُسدُّ المرأة جِلْبَابَهَا مِنْ فَوْقِ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا»؛ أَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي «سُنَنِهِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(٣).

وأما ما جاء عن عبيدة السلماني، فما رواه ابن عون، عن محمد بن سيرين؛ قال: «سَأَلْتُ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيَّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَكْنِ عَنِّي بَعْضَ عِلِّيَّيْنِ﴾، فغَطَّى وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ، وَأَبْرَزَ عَيْنَهُ الْيُسْرَى»، وبهذا فسره ابن سيرين وابن عون؛ رواه ابن جرير وغيره^(٤).

وعلى هذا كان عملُ نساء الصحابة جميعاً في الصُّدْرِ الْأَوَّلِ؛ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ، عَنْ أُمِّ عَطِيَّةٍ وَغَيْرِهَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَمَرَ بِحُضُورِ النِّسَاءِ لِلْعِيدَتَيْنِ، سُئِلَ: أَعَلَى إِحْدَانَا بَأْسٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْبَابٌ إِلَّا تَخْرُجُ؟ قَالَ: (لَتُلْبِسْنَهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا، وَلَتَشْهَدَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ)^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذَنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ تَمْيِيزٌ بَيْنَ حِجَابِ الْحَرَائِرِ وَالْإِمَاءِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ فُسَّاقًا فِي الْمَدِينَةِ كَانُوا يُؤْذُونَ الْحَرَائِرَ يَطْنُونَهُنَّ إِمَاءً، فَأَمَرَهُنَّ اللَّهُ بِالْحِجَابِ؛ حَتَّى يُعْرَفْنَ وَيَتَمَيَّزْنَ

(١) «تفسير الطبري» (١٨١/١٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٥٤/١٠).

(٢) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٤٣٨/٨ - ٤٣٩).

(٣) كما في «فتح الباري» لابن حجر (٤٠٦/٣).

(٤) «تفسير الطبري» (١٨١/١٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٥٥/١٠)، و«تفسير ابن كثير»

(٤٨٢/٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٤)، ومسلم (١٢/٨٩٠).

بِلِبَاسِهِنَّ عَنْ غَيْرِهِنَّ؛ دَفْعًا لِلْفِتْنَةِ، وَدَفْعًا لِلتَّعَدِّيِّ عَلَيْهِنَّ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

وَعَدُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَثَمَةِ: أَنَّ آيَةَ الْأَحْزَابِ نَزَلَتْ بَعْدَ آيَةِ الزَّيْنَةِ فِي النُّورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]؛ كَابِنِ جَرِيرٍ وَغَيْرِهِ، وَيُفَسِّرُونَ آيَةَ النُّورِ عَلَى إِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ الظَّاهِرَةِ، وَيُفَسِّرُونَ آيَةَ الْأَحْزَابِ عَلَى الْحِجَابِ التَّامِّ وَتَغْطِيَةِ الْمَرْأَةِ وَجْهَهَا، فَيَجِدُ مَنْ يَنْظُرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَنَّ كَلَامَ الْمَفْسِّرِ الْوَاحِدِ فِي آيَةِ النُّورِ يَخْتَلِفُ عَنْ كَلَامِهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَحْزَابِ، فَيَقْرَأُ هُنَاكَ مَا لَا يَقْرَأُ هُنَا؛ كَابِنِ جَرِيرٍ: فِي النُّورِ يَقُولُ كَلَامًا فِي إِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ وَظُهُورِ الْوَجْهِ^(١)، وَهُنَا فِي الْأَحْزَابِ يَأْمُرُ بِتَغْطِيَتِهِ^(٢)؛ لِأَنَّهُ يَرَى آيَةَ النُّورِ قَبْلَ آيَةِ الْأَحْزَابِ، فَيُفَسِّرُهَا عَلَى مَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ، لَا عَلَى مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحُكْمُ، وَمَنْ لَا يَفْهَمُ هَذَا، التَّبَسَّ عَلَيْهِ كَلَامُ الْأَثَمَةِ؛ حَتَّى أَصْبَحَ كَلَامٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأَثَمَةِ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ النُّورِ مُحَلًّا لِلتَّبَعِ وَالْأَخِذِ بِالْمُشْتَبِهِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ ذَلِكَ، وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى مَسْأَلَةِ لِبَاسِ الْمَرْأَةِ وَسِتْرِهَا فِي كِتَابِ «الْحِجَابِ فِي الشَّرْعِ وَالْفِطْرَةِ»، وَفِي آيَةِ الزَّيْنَةِ مِنْ سُورَةِ النُّورِ مَزِيدُ كَلَامٍ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: عِظَمُ الْأَمَانَةِ، وَخَطُورَةُ شَأْنِهَا، وَجَلِيلُ قَدْرِهَا وَتَبَعَتِهَا عَلَى أَصْحَابِهَا، وَأَعْظَمُ الْأَمَانَةِ: حَقُّ اللَّهِ الَّذِي تَحْمِلُهُ الْإِنْسَانُ

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٢٦١ - ٢٦٢). (٢) «تفسير الطبري» (١٩/١٨١).

بالعبودية له والامتثال لأمره، ثم يليه الوفاء بالعهد والميثاق وبذل الحقوق التي تكون للناس.

وفي هذه الآية: بيان لجسارة الإنسان بالإقدام على المخاطر وتجاهل العواقب؛ وذلك لظلمه لنفسه، وجهله بعاقبة أمره.

وقد تقدّم الكلام على العهود والأمانات الواجبة على العباد في صدر سورة المائدة وغيرها، وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ مَحِيمًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].





سُورَةُ سَبَأٍ

سورة سَبَأٍ سورة مكية^(١)، وآياتها ومَعَانِيها في خِطَابِ الكَافِرِينَ
وَذِكْرِ أحوَالِهِمْ وعَنَادِهِمْ وجُحُودِهِمْ، وَذِكْرِ اللَّهِ لِقِصَّةِ سُلَيْمَانَ وما وَهَبَهُ اللَّهُ
مِنْ مُلْكٍ، وَقَوْمِ سَبَأٍ وعَاقِبَتِهِمْ، وَحَالِ الشَّيْطَانِ فِي إغْوَاءِ الْإِنْسَانِ، وعَاقِبَةُ
الْمُشْرِكِينَ فِي الْآخِرَةِ مع مَعْبُودِيهِمْ، وَنَفْيِ شَفَاعَتِهِمْ لَهُمْ، وَذِكْرِ اللَّهِ لِقُدْرَتِهِ
وَكَرَمِهِ فِي رِزْقِهِ لِعِبَادِهِ، وَنَفْيِ ذَلِكَ عَنِ آلِهَتِهِمْ، وَحَالِ الضُّعْفَاءِ مع
أَسْيَادِهِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوْحُهاً شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ
عَيْنَ الْقَظِيرِ وَمَنْ آلَجْنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ ذُنُوبُهُمْ مَبْنُوءَةٌ عَنْ
أَمْرِنَا نُنْفِئُهُ مِنَ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

سَخَّرَ اللَّهُ لِسُلَيْمَانَ ما لَمْ يَسْخَرْ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ
لَهُ الرِّيحَ مَسْخَرَةً. بِأَمْرِهِ تَسِيرُ وَتَحْمِلُ لَهُ ما شاءَ إِلَى ما يُرِيدُ مِنَ
الْأَرْضِ، وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْقُدْرَةِ ما تَسِيلُ لَهُ بَعْضُ الْمَعَادِنِ، وَهِيَ
عَيْنُ الْقَظِيرِ، وَالْمَرَادُ بِهِ الثُّحَاسُ؛ كما قاله ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ
وغيرُهُمْ^(٢).

(١) «تفسير القرطبي» (٢٥٢/١٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٢٨/١٩ - ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤٩٩/٦).

الاستعانة بالجن:

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ تسخير الله الجن لسليمان يأتمرُونَ بأمره، ويتَّهونَ بنهيه، وتوَعَّدَهُمُ اللهُ أَنْ خَالَفُوا أَمْرَ نَبِيِّهِ سُلَيْمَانَ بِالْعَذَابِ، وهو الحَرْقُ.

والجن كالإنس خلقَهُمُ اللهُ لعبادته، ولكنَّ الله جعلَهُمُ عالمًا مجهولًا للإنس، وجعلَ الإنسَ عالمًا معلومًا للجن، والأصلُ في تعاملِ الخَلْقِ فيما بيْنَهُمُ الإباحة؛ ولكنَّ تعاملَ الجنِّ مع الإنسانِ تعاملٌ معلومٌ مع مجهولٍ بالنسبة للإنسانِ، وتعاملٌ معلومٌ مع معلومٍ بالنسبة للجنِّ، وبالنظرِ إلى التعاملِ بالنسبة للإنسانِ، وهو المقصودُ هنا، فإنَّ التعاملَ على نوعين:

النوعُ الأولُ: تعاملٌ عارضٌ؛ مِنْ السَّوَالِ والجوابِ، وردُّ القولِ والاستنطاقِ عندَ الْمَسِّ والضَّرِّ، والوعظُ والتَّصْحِيحُ، والترهيبُ والترغيبُ؛ فذلك جائزٌ، وقد حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ الجنَّ، وَأَسْمَعَهُمْ كَلَامَ اللهِ، ووعظَهُمُ وَعَلَّمَهُمُ؛ لأنَّه رسولٌ إليهم أُرْسِلَ إلى الثَّقَلَيْنِ، ولأنَّ النِّفْعَ في ذلك للجنِّ، لا للإنسانِ، فالإنسانُ باذِلٌ لا آخِذٌ.

النوعُ الثاني: التعاملُ الدائمُ؛ كَأَنْ يَتَّخِذَ الإنسانُ جِنِّيًّا أو جِنًّا يُحَادِثُهُمْ، وَيَسْتَخِيرُهُمْ وَيُخِيرُونَهُ، وَيَسْتَعِينُ بِهِمْ وَيُعِينُونَهُ، وَيَسْأَلُهُمْ وَيُعْطُونَهُ، فهذا لا يَجُوزُ؛ لِأُمُورٍ:

أولاً: لأنَّ الجنَّ مجهولٌ لا يُعْرَفُ كَفَرُهُ مِنْ إِيْمَانِهِ، وَصِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَعِلْمُهُ مِنْ جَهْلِهِ، ومِثْلُ هذا التعاملِ الدائمِ لا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مع إنسانٍ هذه حاله؛ فكيف بجان؟! وإنَّ أَجَارَةَ أَحَدٍ لِنَفْسِهِ مَرَّةً، فَإِنَّهُ لَا يُجِيرُهُ لِنَفْسِهِ مَرَّاتٍ، حتَّى يَكُونَ تَعَامُلُهُ معهُ كَتَعَامُلِ المَعْرُوفِ مع المَعْرُوفِ مِنَ الْإِنْسِ.

ثانيًا: أَنَّ خَبَرَ المَجْهُولِ لَا يَصُحُّ العَمَلُ بِهِ، وَنَقْلُهُ مَذْمُومٌ، وَكَمَا جَاءَ فِي الخَبَرِ: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ)^(١)، وَهَذَا فِي أَحَادِيثِ الْإِنْسِ، فَكَيْفَ بِأَحَادِيثِ الْجَانِّ؟ وَغَالِبُ مَا يُحَدِّثُونَ بِهِ مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِمْ هُوَ مِنَ الْغَيْبِيَّاتِ وَالظَّنِّيَّاتِ الَّتِي لَا يَتِمَّكُنُ الْإِنْسَانُ مِنْ رُؤْيَا حَقِيقَتِهَا بِعَيْنَيْهِ؛ وَإِنَّمَا هِيَ ظَنُونٌ، وَقَدْ يُخْبِرُ بِبَعْضِ الْحَقِّ لِيُخَدَعَ الْإِنْسَانُ فَيَصَدِّقَهُ، ثُمَّ يَمْزُجُهُ بِبَاطِلٍ كَثِيرٍ؛ فَيُضِلُّ الْإِنْسَانُ بِالْبَاطِلِ الْكَثِيرِ؛ اغْتِرَارًا بِالْحَقِّ الْقَلِيلِ.

ثالثًا: أَنَّ الْجَانَّ يُعَادِي الْإِنْسَانَ، بِخِلَافِ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَا يُعَادِي الْجَانَّ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ شَيَاطِينُ مَرَدَّةٌ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ، كَثُرَتْ شُرُورُهُ، وَعَظُمَتْ مَخَاطِرُهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَنْفَعُ الشَّيْطَانُ الَّذِينَ قَدْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمُ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْإِنْسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَخَافُ الْجِنَّ وَضَرَّهَا وَشَرَّهَا؛ حَتَّى عَبَدَتْهَا دَفْعًا لَشَرِّهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَقُولُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْإِنِّ فَرَادَاهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وَشَيَاطِينُ الْجَانِّ فِيهِمْ شَرٌّ عَظِيمٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَقُوفَ الْجَانِّ وَإِعَانَتَهُمْ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَتَسْلِيطَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتَلْقِيْنَهُمُ الْحُجَجَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١٦﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

رابعًا: أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْجَانَّ لَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَّا بِمَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَطْلُوبٌ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ، فَسَيَكُونُ لَهُ مَطْلُوبٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ يَسْتَدْرِجُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْعِهِ وَإِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ؛ حَتَّى يَعْلُقَهُ بِهِ وَلَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ الْفُكَاكَ وَالِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ، فَيَطْلُبُ مِنْهُ الْجَانُّ مَا يُرِيدُ، وَيَصْبِحُ الْإِنْسَانُ

بَيْنَ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ فِي نَفْسِهِ: بَيْنَ أَنْ يَقْدَمَ لِلْجَانِّ مَا يُرِيدُ، أَوْ أَنْ يَتَخَلَّى
عَنْ مُتَعَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَاعْتَادَهَا، وَرَبَّمَا آتَاهُ اللَّهُ جَاهًا بِهَا
عِنْدَ النَّاسِ؛ بِإِخْبَارٍ عَنْ غَيْبٍ، أَوْ سِيَادَةٍ، أَوْ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ كَقَضَاءِ
الْحَاجَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ يَقْعُونَ فِي شِرَاكِ التَّأْوِيلِ؛ فَيَبْدُوونَ
بِبَدَلِ مَا يُرِيدُهُ الْجَانُّ مِنْهُمْ تَأْوِيلًا ثُمَّ كَفَرًا صَرِيحًا، وَيَتَوَقَّعُونَ أَنَّهُمْ
مَتَأَوَّلُونَ؛ حَيْثُ أَغْنَتْهُمْ مُتَعَتُهُمْ مِنَ الْجَانِّ، وَلَوْ زَالَتْ تِلْكَ الْمَتْعَةُ،
لَأَبْصَرُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكٍ بَيْنَ صَرِيحٍ.

خَامِسًا: أَنَّ الاسْتِعَانَةَ الدَّائِمَةَ بِالْجَانِّ فَتْنَةٌ لَا تَنْتَهِي غَالِبًا إِلَى حَدٍّ،
فَمَنْ تَشَرَّبَهَا قَلَمًا يُقْلِعُ عَنْهَا، وَلَوْ رَأَى ضُرَّهَا عَلَيْهِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، فَإِنَّهُ
لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا؛ فَلَهَا فَتْنَةٌ عَلَى أَصْحَابِهَا أَشَدُّ مِنْ فَتْنَةِ إِدْمَانِ الْخَمْرِ
وَالْمُسْكِرَاتِ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ مَنْ أَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ هَذَا السَّبِيلِ أَنَّهُمْ كَانُوا
يُظَنُّونَ أَنفُسَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الرَّجُوعِ مِنْ أَوَّلِ طَرِيقِهِمْ، فَاسْتَدْرِجُوا حَتَّى
قَبِلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِفِتْنَتِهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الْبَابِ بَنِيَّةً صَالِحَةً، وَأَدْرَكَ مَا
هُوَ فِيهِ مِنْ بَلَاءٍ، لَا يُصَوِّرُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَتَعَامَلُ مَعَهُمُ بِالشَّرْكِ وَالْكَفْرِ
وَالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ، بَلْ يُصَوِّرُهَا لِلنَّاسِ عَلَى أَنَّهَا أَبْوَابُ وَلَايَةٍ
وَكِرَامَةٍ، وَعَامَّتُهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ عِبَادَةٌ، وَلَا يَشْتَهَرُونَ بِدِيَانَةٍ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَلَا
يَعْرِفُهُمُ النَّاسُ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا بِكَثْرَةِ صِيَامٍ وَلَا وَزْعٍ؛ بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يُذَكِّرُ
بِخِلَافِ ذَلِكَ، مِمَّا يَقْطَعُ مَعَهُ الْعَارِفُ أَنَّ الْجَانَّ لَمْ يَخْصُصْهُمْ بِذَلِكَ كِرَامَةً
لَهُمْ وَلَا حُبًّا لَهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ.

سَادِسًا: أَنَّ الْقَوْلَ بِتَجْوِيزِ التَّعَامُلِ الدَّائِمِ مَعَ الْجَانِّ بَابٌ يُفْتَحُ
لِلسَّحَرَةِ وَالْكَهْنَةِ لِلدَّخُولِ فِيهِ بِهِذِهِ الذَّرِيعَةِ؛ فَلَا يُعْرِفُ السَّاحِرُ وَالْكَاهِنُ
مِنْ غَيْرِهِ، وَهَذِهِ فَتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَشَرٌّ كَبِيرٌ.

وَلَا يُنْكِرُ أَنَّ السَّلَفَ يَعْزِضُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْكِرَامَاتِ فِي هَذَا

الباب، ولكنها لم تكن لأحد منهم دائمة وبطلب منه يتبعها ويتعامل مع قريبه كما يتعامل الجان، بل سمعنا منهم من يسمع أصواتاً توقظه للصلاة إن كان نائماً، ويسمع نداءً يُرْشِدُهُ إن كان نائماً، وهذا عارض، ليس طلباً وبحثاً منهم عن ذلك، كما يتعامل من يقصد الجن بالسؤال والجلوس إليهم والخلوة بهم في البر والظلمات؛، فليس هذا من هديهم ولا يُجيزونه.

وهذه الأمور كلها قد دفعها الله عن نبيه سليمان، فأطلعه على ما لم يُطلع عليه غيره من أمر الجان، وسخرهم له كالعبد مع سيده.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لِمَا يُشَاءُ مِنْ تَحَرِيْبٍ وَتَمَنِّيْلٍ وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيْنَ﴾ أَعْمَلُوا مِثْلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

سخر الله الجن لسليمان يعملون له ويضنعون معه ما يشاء من المحارِب، وهي الأبنية من مساكن وغيرها.

حكم التماثيل وصُور ذوات الأرواح:

وأما قوله تعالى: ﴿وَتَمَنِّيْلٍ﴾، فقول: هي الصُور؛ كما قاله السُّدِّيُّ والضَّحَّاكُ^(١).

ولم يثبت في شيء من السُّنَّة ولا من أقوال أحد من الصحابة: أن التماثيل التي كانت تُعمل لسليمان أنها صور ذوات أرواح، والتماثيل لا يلزم من إطلاقها أن تكون صوراً لشيء روح؛ فقد تكون لشجر وكوكب وآنية؛ فالتماثل هو المجسم الذي يكون مثلاً لشيء محسوس؛ سواء كان

(١) «تفسير الطبري» (١٩/٢٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٦/٥٠٠).

ذا رُوح أو ليس بلدي رُوح؛ وعلى هذا فلا ذريعة لِمَنْ قال بجوازها من هذا الوجه، ولو كانت لسليمان جائزة وهي ذات أرواح، لم يصح الاستدلال بها؛ لأن الله حَرَّمَ التماثيل وتصاوير الأرواح، كما أجاز الله لسليمان ملك الجن والتصرف فيهم، ولم يُجزه لغيره؛ كما في «الصححين»؛ أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ بِفَتِكَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَكَنِي مِنْهُ فَلَعَنَهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ - أَوْ كُلُّكُمْ - ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْنِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَنِيَّ﴾ [ص: ٣٥]، فَرَدَّ اللَّهُ خَاسِتًا^(١).

وتصاوير ذوات الأرواح محرمة كذلك على الأمة، والأحاديث فيها متواترة؛ كما في «الصححين»؛ من حديث عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ)^(٢). وفيهما أيضًا؛ قال ﷺ: (إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّورِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ يُقَالُ لَهُمْ: أَخْبُوا مَا خَلَقْتُمْ!)^(٣).

وفيهما عن أبي زرعة؛ قال: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي دَارِ مَرْوَانَ، فَرَأَى فِيهَا تَصَاوِيرَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ بِخَلْقِ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً)^(٤).

وفيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رجلاً قال له: إِنِّي رَجُلٌ أَصَوِّرُ هَذِهِ الصُّورَ، فَأُفْتِنِي فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: اذْنُ مِنِّي، فَدَنَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: اذْنُ مِنِّي،

(١) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٩٦/٢١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٥٧)، ومسلم (٩٦/٢١٠٧)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

فَدَنَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ: أَنْبِئْكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوْرَهَا: نَفْسًا، فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ) ^(١).

وأما التّصاوِيرُ التي لا يتصرّف فيها الإنسان؛ وإنّما هو تشبّهت لِمَا هو مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، كما يَظْهَرُ في المِرْآةِ والماءِ والشّاشاتِ العاكسةِ، مباشرةً أو مسجّلةً، وما ثَبَتَ فيها مِنْ صُورٍ، فهذا ليس مِنْ صَنِيعِ الإنسان ولا تدبيره؛ وإنّما هو انعكاسٌ لَخَلْقِ اللَّهِ كانعكاسِ المِرْآةِ والماءِ، إلّا أنّ هذا وقتيٌّ ويزول، وذاك يُقدَّرُ على تشبّهته، على اختلافٍ في مُدَّةِ تشبّهته، فيجوزُ فعلُ ذلك بشرطَيْنِ:

الشرطُ الأولُ: ألاّ يُتصرّفَ في تلك التّصاوِيرِ بشيءٍ يُخرِجُها عمّا هي عليه بطبيعتها التي خَلَقَهَا اللَّهُ عليها؛ لا بتضخيم ولا بتحقير، ولا بتغيير لَوْنٍ أو عَيْنٍ أو أَنْفٍ أو أُذُنٍ لِلإنسانِ؛ فإنَّ تغييرَ ذلك يجعلُها مرسومةً بخطِّ الإنسانِ وبِيدِهِ.

الشرطُ الثاني: ألاّ تُعظّمَ، وممّا يُشعِرُ بتعظيمِها تعليقُها في المَجَالِسِ والميادينِ، وكلّما كانتْ هيئَةُ التعظيمِ أَظْهَرَ، كان التحريمُ أَشَدَّ، وتعليقُ المعظّمِ محرّمٌ، وقد لا يكونُ ذا رُوحٍ، والغالبُ أنّ الناسَ تُعلّقُ صُورَ ذواتِ الأرواحِ للتعظيمِ، وتُعلّقُ صُورَ الطّبيعةِ للتّزيينِ، وتعلّقُ غيرَ المعظّمِ مباحٌ؛ كما لا يُعرَفُ عادةً أنّ الناسَ تُعظّمُه؛ كصُورِ تماثيلِ الأشجارِ والأواني والجبالِ والأفلاكِ والبحارِ والأنهارِ والسحابِ.

وقد رُخِّصَ بالصُّورِ المُتمَنّية، والتي لم يَسْجُجْها أو يَصْنَعْها الإنسانُ بنفسِه، ومثلُ ذلك: الصُّورُ التي تكونُ على التَّعْلِيقِ والخُفِّ والسرّابيلِ والفرُشِ الأرضيّةِ، بخلافِ ما يُعلّقُ على الحيطانِ معتدلاً مَبْرُوزاً، وما

يُوضَعُ عَلَى صَدُورِ الْمَلَابِسِ وَعَلَى مَا يُلبَسُ عَلَى الرَّأْسِ؛ كَالْعَصَابَةِ.
وهذان الشرطانِ يَظْهَرَانِ فِي عِلَّةِ تَحْرِيمِ التَّمَاثِيلِ وَالتَّصَوِيرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ
حَرَّمَ التَّمَاثِيلَ لِعِلَّتَيْنِ: الْأُولَى: مِثْلُهَا خَلَقَ اللَّهُ، وَالثَّانِيَةُ: حَتَّى لَا تُعْظَمَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَوْ مَعَ طُولِ الْأَمَدِ؛ فَكُلُّ مَا يُحَقِّقُ الْعِلَّتَيْنِ، فَهُوَ مُحَرَّمٌ،
فَخَرَجَتْ بِالْشَّرْطِ الْأَوَّلِ الْعِلَّةُ الْأُولَى، وَخَرَجَتْ بِالْشَّرْطِ الثَّانِي الْعِلَّةُ
الثَّانِيَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنَ التَّفْصِيلِ حَوْلَ الصُّوْرِ وَالتَّمَاثِيلِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿أَنزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ الْغُيُوتَ فَأَنْفَعُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾
[آل عمران: ٤٩].

وَهُوَ: ﴿وَجَفَّانِ كَلْبَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾: الْجَفَّانُ: جَمْعُ جَفْنَةٍ،
وَهِيَ وَعَاءٌ كَحَوْضِ الْإِبِلِ وَنَحْوِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كَالْجَوْبَةِ مِنَ
الْأَرْضِ»^(١).

وَالْقُدُورُ الرَّاسِيَةُ: الْكَبِيرَةُ الثَّابِتَةُ لِعِظَمِهَا.



(١) «تفسير الطبري» (٢٣٢/١٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣١٦٣/١٠).



سُورَةُ فَاطِرٍ

سورة فاطرٍ سورةٌ مكيّةٌ^(١)، ذَكَرَ اللهُ فيها حَقِيقَةَ خَلْقِ الملائكةِ، وذَكَرَ العِبَادَةَ بِنِعْمَةِ اللهِ عليهم، وَخَلْقَهُ لَهُم، وَضَعْفَ أَصْلِهِم، وَذَكَرَ عَاقِبَةَ المَكْذِبِينَ، وَأَسْبَابَ ضَلَالِ المَشْرِكِينَ، وَابْدَاعَ اللهِ فِي صُنْعِهِ وَخَلْقِهِ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَأَمَرَ بِالاعتبارِ بِأَحْوالِ السَّابِقِينَ المَكْذِبِينَ.

* * *

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ ثَلَاثِلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَتَهْنَأَنَّ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾﴾ [فاطر: ١٢].

في هذا: مِنْهُ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْ هَيَّا لَهُم شَرَابًا سَائِغًا يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ وَيَرْتَوُونَ مِنْهُ، وَجَعَلَ مَاءَ مَالِحًا أُجَاجًا، وَهُوَ الْبَحْرُ، وَرَزَقَ عِبَادَهُ فِيهَا نِعَمًا، أَظْهَرُهَا:

أَكْلُ اللَّحْمِ الطَّرِيِّ، وَهِيَ الْأَسْمَاكُ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنْ كَائِنٍ فَالْأَصْلُ فِيهِ حِلٌّ الْأَكْلِ، وَاسْتِخْرَاجُ الْحِلْيَةِ مِنَ الْجَوَاهِرِ كَاللُّؤْلُؤِ وَغَيْرِهِ، وَرُكُوبُ الْبَحْرِ بِالسُّفُنِ الَّتِي يَسِيرُ فِيهَا النَّاسُ إِلَى مَنَافِعِهِمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ عَلَى صَيْدِ الْبَحْرِ وَمَيْتَتِهِ عِنْدَ

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ
لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا
لَّكُمْ وَلِلْغَنَاءِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيِّدُ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرُمَاتُ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا
تَحَشَّروا﴾ [المائدة: ٩٦].

وتقدّم الكلام على ركوب البحر وأحواله، وحكم الغزو فيه وفضله،
عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
وَجَرَيْنَ يَمَ يَرْيَحُ طُنْبُو وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].





سُورَةُ الْيُسُفٰ

سورة يس مكيّة، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء؛ وبهذا قال ابن عباس وعائشة وقتادة، وقيل بمدنيّتها، وهو قول شاذ، إلا آيات يسيرة هي موضع نظر بين القول بمدنيّتها والقول بمدنيّتها^(١).

وقد بين الله فيها نعمة القرآن وما فيه من فصل القول والهداية والرّشاد لطالبيه، ومهمة النبي ﷺ وحقيقة رسالته، والتذكير بآياته الكونيّة وخلق الإنسان وضعفه، وأحوال بعض المعاندين لرسلهم من السابقين، والتذكير بالآخرة وفجأتها، ووعد الله للظالمين.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ١٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿[يس: ٤٨ - ٥٠].

ذكر الله تعالى أمر قيام الساعة، واستعجال المشركين لها، وبين أنها صيحة واحدة مفاجئة تبتغتهم وهم في خصامهم ونزاعهم غافلون عنها، وهذه الصيحة هي نفخة الصّعق، وبين الله أن نهايتهم لا تجعلهم

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٤٤٥)، و«زاد المسير» (٣/ ٥١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٤٠٣)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣١١).

يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْوَصِيَّةِ لِأَحَدٍ، وَلَا الرَّجُوعَ إِلَى أَهْلِهِمْ، فَنَأْخُذُهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ.
وفي هذه الآية: عِظُ الْوَصِيَّةِ لِلأَحْيَاءِ، وَخَاصَّةً فِيمَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ
بَعْدَ مَوْتِهِ وَالْحَيَّ بَعْدَهُمْ فِي حَيَاتِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُكْمِ الْوَصِيَّةِ
وَأَحْكَامِهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ
خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأُولَادَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]،
وقوله تَعَالَى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١]، وقوله تَعَالَى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ
دُرِيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

* * *

❦ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئُنَا أَنْعَامًا فَهُمْ
لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعُفٌ
وَمَشَارِبٌ أَفْلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

أَرشَدَ اللَّهُ إِلَى النَّظَرِ وَالاعتبارِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْهَا الْأَنْعَامُ الَّتِي
يَتَمَلَّكُونَهَا، وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِهَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فَسَخَّرَهَا اللَّهُ مُذَلَّلَةً
لَهُمْ؛ لِيَتَنَفَّعَهُمْ بِرُكُوبٍ وَأَكْلِ وَشَرْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى
أَحْكَامِ رُكُوبِ الدَّوَابِّ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَحْمِيلِ أَنْعَامِكُمْ إِلَى الْبَلَدِ لَعَلَّكُمْ
تَكُونُوا بِكَيْفِهِمْ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَالْحَيْلِ وَالْإِعَالَ
وَالْحَبِيرَ لِرُكُوبِهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧-٨].

* * *



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

سورة الصافات مكية بالإجماع؛ وبمكيّتها قال ابنُ عباسٍ^(١)؛ وإنما الخلاف في آياتٍ يسيرة، وقد ذكّر الله في هذه السورة عظمَةَ الملائكة وأنهم ليسوا بناتِ الله، وذكّر خلقَ الأفلاك، وحفَظ السماء من المردة، وذكّر بالعاقبة ومرجع الناس إليه، وذكّر خصومة المعاندين يوم القيامة وتلاؤمهم وتحشّرتهم، وذكّر بالجحيم والنعيم وأنواعه، وذكّر أساليب المعاندين المنكرين للبعث، وذكّر بعناد قوم نوح، وذكّر إبراهيم وحاله مع ولده الذبيح، وقوم موسى ولوط ويونس وغيرهم، وذكّر ضلال المشركين فيما نسبوه إلى الله من باطلٍ وافتراءٍ عليه.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].

لَمَّا كَانَ يُونُسُ فِي الْفُلْكِ مَعَ قَوْمٍ وَاضْطَرَبَ الْبَحْرُ وَمَاجَتِ الْأَمْوَاجُ وَخَشِيَ مَنْ عَلَى ظَهْرِ الْفُلْكِ الْهَلَاكَ، رَأَوْا أَنْ يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِهِ بَعْضُهُمْ؛ لِيَخْفَ وَزْنُهُ فَلَا يَغْرَقُوا جَمِيعًا، وَكَانَ الْفُلْكَ مَلِيًّا بِالنَّاسِ وَمَتَاعِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠]، فاقْتَرَعُوا فَخَرَجَتْ عَلَى يُونُسَ أَنْ يَرْمِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعَانٍ جَلِيلَةٌ:

منها: مشروعية الفرعة عند الحاجة إليها؛ وقد تقدّم الكلام عليها

(١) ينظر: «زاد المسير» (٣/٥٣٥)، و«تفسير القرطبي» (٣/١٨)، و«الدر المنثور» (١٢/

وأدلتها عند قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَسْتُمْ أَتَيْهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وهاتان الآيتان أصل في مشروعية الفرعة في القرآن؛ كما نص على ذلك الشافعي وغيره^(١).

ومنها: ارتكاب المفسدة الدنيا لدفع العُلْيَا، وأن الضرر العام أشد من الضرر الخاص.

ومنها: جواز الأخذ بعلبة الظن؛ فمن كان في الفلک، وغلب على ظنهم الهلاك، عملوا بذلك ولو بإزهاق نفس.

ومنها: استواء نبي الله يونس مع غيره في الحقوق وفي القضاء والحكم، فلم يستثن نفسه، ولم يطلب ذلك لمقامه وثبوته.



(١) ينظر: «الأم» (١١٩/٥) و(٣/٨).



سُورَةُ ص

سورة ص مكِّيَّة، وقد حكى الإجماع غير واحدٍ من العلماء؛ وبذلك قال ابنُ عباسٍ^(١)، وقد حكى الدَّانِيُّ لبعضهم أنها مَدَنِيَّةٌ^(٢)؛ وهو قولٌ غريبٌ.

ذَكَرَ اللهُ فِي سورة ص القرآن، وأَقْسَمَ به على بيانِ عنادِ الكافرينِ واستكبارِهِمْ بِشِرْكِهِمْ وظُلْمِهِمْ لأنفُسِهِمْ، وَذَكَرَ اللهُ بعضَ الأممِ الْمُعَانِدَةِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَفِرْعَوْنَ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَغَيْرِهِمْ، وَعَفَلَتْهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَبَيَّنَّ صَبْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَثَبَاتَهُمْ تَشِيئًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَبَيَّنَّ اللهُ فِيهَا إِبْدَاعَ خَلْقِهِ فِي الْكَوْنِ وَأَيَاتِهِ الْمُعْجِزَةَ، وَمَا خَصَّ اللهُ بِهِ بعضَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ مُلْكٍ وَقُوَّةٍ كَسُلَيْمَانَ، وَذَكَرَ حَالَ بعضِ الْأَنْبِيَاءِ مع رَبِّهِمْ ومع أَمَمِهِمْ؛ لِيَكُونَ أَوْلَئِكَ أُسْوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَأَمَّتِهِ، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا، وَجَهَنَّمَ وَعَذَابَهَا؛ تَذْكِيرًا بِعَاقِبَةِ الْفَرِيقَيْنِ.

وَذَكَرَ بِدَايَةَ الصَّرَاعِ وَالتَّزَاوُعِ بَيْنَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ عِنْدَ بِدَايَةِ خَلْقِ آدَمَ؛ تَذْكِيرًا بِدَايَةِ الصَّرَاعِ وَالتَّزَاوُعِ وَالتَّوْبِصِ وَالْمَكْرِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِجَدِيدٍ، وَسَيَبْقَى إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِكُلِّ سَلَفٍ مِنَ الصَّادِقِينَ وَمِنَ الْمُعَانِدِينَ.

* * *

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٤/٤٩١)، و«زاد المسير» (٣/٥٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٨/١٢١)، و«الدر المثور» (١٢/٥٠١).

(٢) «البيان، في حد أي القرآن» لأبي عمرو الداني (ص ٢١٤).

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِيَ نَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ ﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَاتِكَ إِنِّي نَجَاكِ وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُلُكَةِ يَسْأَلُنِي عَنْهُمْ عَلَى بَعْضِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٣ - ٢٤].

ليس في تفصيل قصة الخصمين اللذين اختصما عند داود شيء، وسبب فتنة داود في ذلك ليس فيه شيء يثبت في المرفوع، ولا شيء عن الصحابة، وقد روى يزيد بن أبي زياد الرقاشي عن أنس فيها خبراً، وهو ضعيف^(١).

وهذان الخصمان اختصما لداود في أن لأحدهما تسعاً وتسعين نعمة، وللآخر نعمة واحدة، فطمع صاحب الكثير في القليل الذي مع أخيه؛ ليكمل ما لديه فتكون مئة.

قال الأخ صاحب التسع والتسعين نعمة: ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾؛ يعني: أطلقها وأعطني إياها.

وقوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾؛ يعني: غلبني في قوله والحاجة علي، فظلمني وقهرني؛ إذ أخذ النعمة إلى نجاجه، وترك أخاه بلا شيء.

وفي قوله: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَاتِكَ إِنِّي نَجَاكِ ﴾ دليل على أن ما أخذ من الحقوق بسيف الحياء والإلحاح: لا يجوز، ويجب أن يُعاد إلى صاحبه؛ وذلك أن لكثير من النفوس كسراً وضعفاً، فتفهر بالحياء؛ كمن يطلب حقه بثمن بخس من رجل عزيز أمام ملاء، ويستحث فيه كرمه، وأن الناس تُعبّره إن باع بغير بخس، فيبيع خجلاً من الناس؛ فهذا البيع باطل، والمال أخذ بغير طيب نفس.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣٢٣٩/١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٦٠/٧).

وتقدّم الكلام على أنّه لا يجوز أخذ الشيء بسبب الحياة والإلحاح عند قوله تعالى في صدر سورة النساء: ﴿فَإِنْ طَبِقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ لَفَسًا﴾ [٤]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُ بِحُكْمٍ عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَثُرَ بَيْنَ الْفُلُكَلِ لَيْسَ بِغَضَبٍ عَلَى بَعْضٍ﴾، فيه دليل على جواز خلطة بهيمة الأنعام، والخلطة تُصير المال المختلط في حكم المال الواحد إذا كان مجموعها يبلغ النصاب وإذا كان أصحاب المال من أهل الوجوب، ويُستزط في الخلطة الاشتراك في المراح والمسرّح والمرعى، فيسرحن جميعاً ويرجعن جميعاً، وفحلها واحد، فإن كانت الخلطة كذلك فهي في حكم المال الواحد؛ سواء كانت شراكة أعيان أو أوصاف، وعند الزكاة لا يجوز التفريق بينهما خشية الصدقة؛ بل تجب الزكاة فيهما جميعاً كالمال الواحد؛ وذلك لقوله ﷺ: (لَا يُجْمَعُ بَيْنَ مُتَفَرِّقٍ، وَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَ مُجْتَمِعٍ؛ خَشْيَةَ الصَّدَقَةِ)^(١)، (وَمَا كَانَ مِنْ خَلِيطَيْنِ، فَإِنَّهُمَا يَتَرَاجَعَانِ بَيْنَهُمَا بِالسُّوِيَّةِ)^(٢).

وجماهير العلماء على أنّ الخلطة لا تؤثر في الزكاة إلا في بهيمة الأنعام، وأمّا غيره من المال، فلو اختلط، لوجبّت الزكاة على كل واحد في نصيبه، وإن كان الجميع يبلغ الزكاة ولكن لو تفرّقوا جميعاً، لم يبلغ كل واحد نصاباً، لم تجب عليهم الزكاة.

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٠)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥١)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَخُذْ بِدُوكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِوَيْءٍ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّكَ وَجَدْتَ صَابِرًا يَوْمَ الْمَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

أَقْسَمَ أَيُّوبُ أَنْ يَضْرِبَ زَوْجَتَهُ مِئَةَ جَلْدَةٍ؛ لِفَعْلِهِ فَعَلَتْهَا، قِيلَ: إِنَّهَا بَاعَتْ ضَفِيرَتَهَا بِخُبْزٍ فَأَطْعَمَتْهُ إِيَّاهُ، فَلَامَهَا عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ حِينَهَا مَرِيضًا ﷺ، وَلَيْسَ فِي فَعْلَتِهَا شَيْءٌ يَثْبُتُ فِي السُّنَّةِ، وَلَمَّا شَفَاهُ اللَّهُ، أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ عُودًا فِيهِ مِئَةُ قَضِيبٍ، وَقِيلَ: حُزْمَةٌ مِنْ عِيدَانٍ فِيهَا مِئَةُ عُودٍ، وَقِيلَ: الضُّعْثُ مِنَ الْأَثْلِ، فَيَضْرِبُهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً كَمَا لَوْ ضَرَبَهَا مِئَةً مُتَفَرِّقَةً، فَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ مَخْرَجًا لَهُ فِي يَمِينِهِ فَلَا يَحْنُثُ، وَرَحْمَةً بِزَوْجِهِ.

وَمِنَ الْفُقَهَاءِ: مَنْ حَمَلَ هَذَا عَلَى الْحَيْلِ الْمَشْرُوعَةِ، وَمِنْهُمْ: مَنْ لَمْ يَجْعَلْهَا مِنَ الْحَيْلِ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَهَا مِنْ حَمْلِ الْيَمِينِ عَلَى الْأَلْفَظِ وَمَقَاصِلِهَا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحَيْلِ وَأَنْوَاعِهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَّارِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠].





سُورَةُ غَافِرٍ

سورة غافر مكيّة بلا خلاف؛ وبهذا قال ابنُ عباسٍ والحسنُ ومجاهدٌ وعكرمةٌ، ولا مخالَفَ لهم من السلف؛ وإنّما النزاعُ في آيةٍ أو آيتينِ منها^(١)، وذوي عن ابنِ عباسٍ أنّ جميعَ الحواميمِ مكيّةٌ^(٢).

وفي سورة غافر دعوة الكافرين إلى الله، وتحذيرُهُم من عقابه، وتذكيرُهُم بطريق مَنْ سبَّهم، وبيانُ عَظَمَةِ الله وَخَلْقِهِ كالملائكةِ والسماءِ والماءِ، وحذَر من يومِ القيامةِ وما فيه من حسابٍ وعذابٍ، وذكرِ المشركينَ بِجَحْدِهِم لبعضِ الأنبياءِ السابقينَ المشابهينَ لرسالةِ محمدٍ ﷺ، فكانتْ عاقبتُهُم السَّوءُ، وذكرِ الإنسانِ بِضَعْفِهِ وَعَظَمَةِ الله وَقُدْرَتِهِ.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَمَلُّوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

ذكر الله بِنِعْمَتِهِ بَخَلْقِ الْأَنْعَامِ وَرَكوبِهَا وَتَعَدُّدِ مَنَافِعِهَا، وهذا في القرآنِ كثيرٌ؛ لأنّها الصُّلُوبُ النَّعْمِ بِالْإِنْسَانِ، وَأَظْهَرُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ومع هذا كان في غَفْلَةٍ عن عَظَمَتِهَا وعن شكرِ الله عليها، وقد تقدّم الكلامُ على

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥٤٥/٤)، و«تفسير القرطبي» (٣٢٢/١٨).

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (٥/١٣).

أحكام ركوب الدواب عند قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّكُمْ تَكُونُوا بِأَيْدِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأُنْقُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ وَالْحَبَلُ وَالْغَالُ وَالْحَمِيرَ لِيَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَمَخْلُقًا مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧-٨]، وتقدم الكلام على ركوب البحر وأحواله، وحكم الغزو فيه وفضله، عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّهْتُمْ يَوْمَ يَبِيعُ طَلَبُهُمْ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ صَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].





سُورَةُ فُضِّلَتْ

سورة فُضِّلَتْ مكيَّةٌ، وقد حُكِيَ الإجماعُ على ذلك^(١)، ومَعَانِيهَا ظاهرةٌ في الدعوة إلى التوحيد، وبيان منزلة القرآن وخصائصه المعجزة، ورسالة النبي ﷺ وحقيقة دَعْوَتِهِ، وخصومه وأقوالهم الباطلة، وخلق الله وإبداعه الخلق والكون، وذكر قصص بعض السابقين وأحوالهم وعاقبتهم، وأحوال المعاندين يوم العرض، وحال المتقين الصابرين وحسن عاقبتهم، وبيان سعة علم الله وقوته وإحاطته.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَبَلِّغِ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

في هذا: وعبد من الله لتارك الزكاة، وجعل ذلك من أوصاف المشركين؛ وبهذا قال قلة من العلماء؛ أن تارك الزكاة كافر؛ لأن الله ذكر أسباب كفر المشركين وعُد منها الزكاة، وفي هذا نظر؛ لأن الله ذكر شركهم، وذلك أنه أخرجهم من عبادة إله واحد كما يوحد المؤمنون، ولكن ذكر تركهم للزكاة علامة على عدم إيمانهم بها، ومن القرائن على ذلك: أن سورة فُضِّلَتْ مكيَّةٌ، وفي زمن فرض الزكاة خلافًا، ولا خلاف

(١) بنظر: «تفسير القرطبي» (٣٨٨/١٨).

أَنَّ الزَّكَاةَ مَشْرُوعَةٌ بِمَكَّةَ، وَلَكِنَّ النِّزَاعَ فِي فَرْضِيَّتِهَا، ثُمَّ إِنَّهُ لَا خِلَافَ حَتَّى عِنْدَ مَنْ قَالَ بِأَنَّهَا فُرِضَتْ بِمَكَّةَ أَنَّ جِبَابَتَهَا وَتَقْدِيرَ نِصَابِهَا لَمْ يُفْرَضْ إِلَّا فِي الْمَدِينَةِ.

وقد ذهب غير واحد من الفقهاء: إلى أن فرض أصل الزكاة كان في المدينة في السنة الثانية من الهجرة؛ وإليه ذهب النووي وغيره، والوعيد الوارد في تارك الزكاة في السور المكية هو لجاحد التشريع لا للبخل؛ وذلك أن المسلمين بمكة قلّة وغالبهم أهل فقر وضعف، وأما أهل الغنى والسيادة، فلم يُسَلِّمُوا أصلاً إلا ما ندر، وكلهم يزكّون، فليس بمكة قبل الهجرة مؤمن فاسق ولا منافق، فمن آمن فإنه يؤمن بكليته؛ لشدّة ما يلاقيه من نكران قومه وهجرهم وتسليطهم بالعذاب، ولا يتصور مؤمن بالرسالة قبل الهجرة تارك للزكاة بخلاً.

وقد روى أحمد والنسائي وابن ماجه؛ من حديث قيس بن سعد بن عبادة؛ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بِصَدَقَةِ الْفِطْرِ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الزَّكَاةُ، لَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَنْهَنَا، وَنَحْنُ نَفْعَلُ»^(١).

وزكاة الفطر فرضت بعد رمضان، ورمضان فرض في المدينة بلا نزاع، وفي هذا الحديث أن الزكاة بعده، ولعل فرضيتها يقصد بها بيان مقاديرها ونصابها وجبايتها، وقد تكون مفروضة قبل ذلك بلا تقدير، وكان صرفها موكولاً إلى أصحابها.

وبعض ما جاء في حديث سعد - أن الزكاة متأخرة -: ما رواه الطبري؛ من حديث علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] قال: السكينة: الرحمة؛ ﴿لِيَزَادُوا إيمَانًا مَعَ إيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]؛ قال: إن الله جل ثناؤه بعث نبيه

(١) أخرجه أحمد (٦/٦)، والنسائي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (١٨٢٨).

محمداً ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلمَّا صدَّقوا بها، زادهم الصلاة، فلمَّا صدَّقوا بها، زادهم الصيام، فلمَّا صدَّقوا به، زادهم الزكاة، فلمَّا صدَّقوا بها، زادهم الحجَّ، ثمَّ أكملَ دينهم؛ فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] ^(١).

وقد تقدَّم الكلامُ على حُكْم تاركِ الزكاةِ بخلاً، والنِّزاعِ في كُفْرِهِ عندَ الأئمةِ، وأنَّ الذي عليه عامَّتُهُمْ أَنَّهُ مرتكبٌ لكبيرةٍ، عندَ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

تُشرعُ الاستعاذةُ عندَ ورودِ الشيطانِ على الإنسانِ بالوسوسةِ وخطراتِ السُّوءِ، أو دخولِ الإنسانِ أماكنَ يَغلبُ عليها الشيطانُ؛ كأماكنِ القَدْرِ والنَّجَسِ، أو الخلواتِ الموحِشةِ التي يَغلبُ على الظنِّ ورودُ الجنِّ والشیاطينِ إليها، ولو لم يَرِدْ دليلٌ في خاصَّةِ ذلك، وقد تقدَّم الكلامُ على أحكامِ الاستعاذةِ في سورةِ الأعرافِ عندَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٠٠].

وتقدَّم الكلامُ على صيغِها عندَ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

* * *



سُورَةُ الشُّورَى

سورة الشُّورَى مكيّة؛ رُوِيَ ذلك عن ابنِ عَبَّاسٍ، وحكى بعضهم الإجماع على ذلك، واستثنى بعضُ السلفِ آياتِ منها^(١)، وتضمنت سورة الشُّورَى تذكيراً بحقِّ الله بإفراذه بالعبادة، والتحذيرَ من الإشراكِ معه شيئاً، والتذكيرَ بنعمة القرآنِ حُجَّةً وبيانا وإعجازاً، وذكرَ الله تعالى فيها أحوالَ بعضِ الأممِ السابقة ووصاياهُ لهم وعنادهم لها، وبينَ حكمته في قسمةِ الرُّزقِ والمعاشِ وتهيئةِ الأرضِ والبحرِ لهم، وذكرَ فيها بالبعثِ والجزاء، والثوابِ والعقابِ.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا اُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ اَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا اَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَاُمِرْتُ لِاعْمَلُ بِمَا يَنْهَى اللهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ لَنَا اَعْمَالُنَا وَلَكُمْ اَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَاِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

أمر الله نبيه أن يدعُو إلى دينه، وأن يكون مع دَعْوته مستقيماً على ما أمره الله في نفسه ودَعْوته وفي حُكمه في غيره؛ فقوله تعالى ﴿وَاَسْتَقِمْ كَمَا اُمِرْتَ﴾ لنبيه، وهو المعصوم، أن تكون استقامته وحُكمه كما أمره الله، فغيره من بابِ أولى ألا يجتهدَ بهوَاهُ وما يشتهي متخلياً عن الوحي المنزَّل.

(١) ينظر: «زاد المسير» (٥٨/٤)، و«تفسير القرطبي» (٤٤٠/١٨)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤١٨/١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ حِكْمَةٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِإِقَامَةِ الدِّينِ وَإِصْلَاحِ الدُّنْيَا، وَلَا يُلْتَمَسُ عَدْلٌ كَعَدْلِهِ، وَتُصِيبُ الْعُقُولُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ كَثِيرًا مِنَ الْحَقِّ بِفُطْرَتِهَا، وَلَكِنْ لَا تُصِيبُ الْحَقَّ كَامِلًا إِلَّا بِالْقُرْآنِ.

* * *

❏ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَعْرِفْ حَسَنَةً نِّدَّ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

دعا الله الْمُصْلِحِينَ إِلَى التَّجَرُّدِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ دُنْيَا النَّاسِ؛ حَتَّى لَا يَظُنُّوا بِهِمْ سُوءًا؛ كَطَمَعٍ فِي الدُّنْيَا وَالْجَاوِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ ظَنٍّ الظَّالِمِينَ بِالْمُصْلِحِينَ حِينَئِذَا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ ضَلَالَهُمْ: أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ مُزَاحَمَتَهُمْ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَجَاهِهِمْ؛ لِأَنَّ نَفُوسَهُمْ تَشْرَبُ مِنْ اتِّبَاعِ ذَلِكَ، فَيَخَافُ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنْفُسِ شَيْءٍ عَلَيْهِ؛ لِذَا يَخَافُونَ الْمَزَاحِمَةَ، فَيَشْكُونَ فِي الْمُصْلِحِينَ، وَهَكَذَا ظَنُّوا بِالنَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ وَالنِّسَاءَ، وَفِي «الْمُسْنَدِ»، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُبَلٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ، فَإِذَا عَلِمْتُمُوهُ، فَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْبِرُوا بِهِ)^(١).

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحِكْمَةِ مِنْ نَهْيِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَقْوَظُوا لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْكُمْ مَالًا إِنِ اجْتَرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَيَكْفِيَنَّ أَرْكَكُمْ قَوْمًا فَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قد صحَّ عن ابن عباس؛ قال: «كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قريش، فلما كذَّبوه، وأبوا أن يُبايعوه، قال: يا قوم، إذا أبيتُم أن تُبايعوني، فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيرُكم من العربِ أولى بحفظي ونصرتي منكم»؛ رواه ابن أبي حاتم^(١).

ورَوَى البخاري؛ من حديث طاوُس، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتُ! إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَطْرُقُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ^(٢).

وظاهرُ هذه الآية: أَنَّهَا فِي صِلَةِ الرَّحِمِ وَأَدَاءِ الْحَقِّ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ قَوْمِهِ قُرَيْشٍ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَالْخَطَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ لَا سَائِرِ الْعَرَبِ.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾﴾ [الشورى: ٢٨].

ذَكَرَ اللَّهُ صِفَاتِ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ، وَذَكَرَ أَوَّلَهَا إِقَامَ الصَّلَاةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ، وَأَظْهَرُ التَّعَبُّدِ يَكُونُ فِيهَا؛ وَلِهَذَا جَاءَ التَّأَكُّدُ عَلَيْهَا فِي الشَّرِيعَةِ أَشَدَّ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ، ثُمَّ ذَكَرَ التَّشَاوُرَ بَعْدَهَا ذَكَرَ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّ مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، صَحَّ رَأْيُهُ وَسَلِمَ فِكْرُهُ مِنَ الْأَهْوَاءِ، فَلَا يُشِيرُ عَنْ طَمَعٍ وَحِظِّ نَفْسٍ، وَأَمَّا رَأْيُ غَيْرِهِمْ،

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٢٧٥). (٢) أخرجه البخاري (٤٨١٨).

فَيَكُونُ بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ وَطَمَعِهِمْ، وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ بَاطِنَةٌ إِلَى أَنَّ غَيْرَ الْمُصْلِحِينَ لَيْسُوا بِأَهْلِ شُورَى يُضَدَّرُ عَنْ رَأْيِهِمْ.

الشُّورَى وَفَضْلُهَا وَشَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِهَا:

وَفِي ذِكْرِ الشُّورَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ بَيَانٌ لِفَضْلِ الشُّورَى، وَأَنَّهَا مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي دَعَتْ إِلَيْهَا الشَّرِيعَةُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ وَالنَّاسُ قَلِيلٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّاسَ بِمَكَّةَ مَعَ قَلَّتِهِمْ عَلَى يَقِينٍ، فَالْمُؤْمِنُ مِنْهُمْ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا بِإِقْبَالِ وَقُوعِ إِيْمَانٍ وَصِدْقٍ، وَمَعَ ذَلِكَ حَمَدَ اللَّهُ تَشَاوُرَهُمْ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُمْ لَوْ أَمَرُوا بِشَيْءٍ، لَمْ يُخَالِفُوهُ، وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي زَمَنِ قُوَّةِ الْإِيْمَانِ وَالْيَقِينِ وَقِلَّةِ الْعَدُوِّ، فَهُوَ مَعَ ضَعْفِ الْإِيْمَانِ وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ آكُذُّ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنَّ الْآيَةَ قُصِدَ بِهَا الْأَنْصَارُ فِي الْمَدِينَةِ»؛، وَبِهَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ^(١)؛ فَحَمَدَهُمُ اللَّهُ لَنَبِيِّهِ وَهُوَ بِمَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا وَأَبْدَوْا خَيْرًا فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَتَشَاوُرًا فِي أَمْرِهِمْ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أَنَّ الشُّورَى فِي أَمْرِهِمْ، لَا فِي أَمْرِ اللَّهِ؛ فَمَا قَضَى اللَّهُ فِيهِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ النَّاسِ شُورَى؛ فَذَلِكَ مُحَادَّةٌ لِلَّهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٣٦]، فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيمَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِيهِ إِلَّا اخْتِيَارُ قَضَائِهِمَا، وَأَمَّا أَمْرُهُمْ فَشُورَى بَيْنَهُمْ، لَا يَقْصِلُ أَحَدٌ عَنْ جَمَاعَتِهِ فِيهِ.

وَمَا قُضِيَ فِيهِ الشَّرِيعَةُ وَاخْتَارَتْهُ، وَلَكِنَّهَا وَسَّعَتْ فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ كَالْجِهَادِ، فَلِلْمُسْلِمِينَ التَّشَاوُرُ فِي تَعْيِينِ جِهَةِ الْقِتَالِ وَزَمَانِهِ؛ لِأَنَّ التَّشْرِيعَ لَا يُشَاوَرُ فِيهِ، وَكَالْوِلَايَةِ؛ قَضَى اللَّهُ أَنْ لَا سُلْطَانَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا

منهم، فلا يجوزُ التشاورُ بينَ ولايةِ كافرٍ ومسلمٍ باختيارِهم، ما لم يُقهرُوا، ولكنْ لهم التشاورُ بينَ المُسلمينَ فيختارُون مَنْ يصلحُ منهم.

والشورى فيما لم يَقْضِ اللهُ فيه سُنَّةٌ؛ كالذي يَتعلَّقُ بمصالحِ العبادِ والبُلدانِ مِنَ الأموالِ والأعمالِ والنُظمِ، وإذا عرَضَ الأميرُ الأمرَ على المُسلمينَ، فتشاورُوا، فهل يكونُ رأيهم مُلزِمًا للأميرِ أو مُعلِّمًا له؟ إنْ أَجمَعَ أهلُ الشورى على أمرٍ، فلا يجوزُ للأميرِ مخالفتُهُ إذا كان أمرًا عامًا ومصلحةً للناسِ؛ وذلك لِما في خروجِهِ عن إجماعِهِم من فتنةٍ عليه وعليهم جميعًا، وأمّا إنْ اختلفُوا فيما بينهم وغلبَ بعضهم على بعضٍ كثرةً وسَوَادًا في الرأي، فلا يخلو من حالين:

الأولى: إنْ كان الأميرُ عالمًا بصيرًا مستنيطًا، فالشورى بالنسبة له مُعلِّمةٌ تُعطيهِ علمًا إلى عِلْمِهِ، فقد يرى ما لا يروُنَ، فيجوزُ له مخالفتُهُم ما دام عالمًا فيما استشارهم فيه.

الثانية: إنْ كان الأميرُ جاهلًا فيما استشارهم فيه، فالشورى مُلزِمةٌ له على الصحيح؛ لأنَّهُ إنْ صلَرَ بأمرِهِ سيصدُرُ عن جهلٍ وهوى، ولا يكادُ اليومُ يُوجدُ في الأمّةِ حاكمٌ عالمٌ، وإنْ عَلِمَ في بابٍ، فإنَّهُ على خلافِ ذلك في عامّةِ الأبوابِ، وقد أمرَ اللهُ بِإرجاعِ الأمرِ إلى العالمينَ المُستنيطينَ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وَمَنْ لَا يَعْلَمُ لَا يَسْتَنبِطُ، وَمَنْ لَا يَسْتَنبِطُ لَا يَفْصِلُ، وإنْ كان عِلْمُهُ بغيرِهِ، فيحكُمُ وَيَفْصِلُ بِمَنْ يَسْتَشِيرُهُ وَيُعْلِمُهُ، واللهُ أعلمُ.

وقد تقدّم الكلامُ على الشورى وأحكامِها وأحوالِها، عندَ قولِهِ تعالى: ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ثُمَّ يَتَصَمَّرُونَ ﴿٣٩﴾ وَحَرِّزُوا سِتْنَةً مَّتَٰلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مَن سَبِيلٌ﴾ [النورى: ٣٩ - ٤١].

شرح الله لِمَنْ بُغِيَ عليه أن يَتَصَمَّرَ لنفسه، وألا يَبْغِيَ عند انتصاره فتغلبه نفسه فيزيد في حقه من مالٍ أو عرضٍ أو دم، فيتزايد الناس في طلب البغي الذي لا ينتهي، فيتعاطم ويشتد الظلم بتزايدهم في انتصارهم لأنفسهم، وكثيراً ما يدخل المظلوم باب الانتصار لنفسه حتى يصبح ظالماً وقد كان مظلوماً، وما يزالون يتزايدون في الانتصار لأنفسهم كما يترابى أهل الأموال ربا الأموال؛ ولهذا حثَّ الله على تقديم العفو؛ حتى لا يقع الناس في شيء من ذلك، فيكون شراً عاماً بدلاً من شرٍّ وبُغْيٍ خاصٍّ.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنتَصِرَ اللَّهُ إِيَّاهُ اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]، وقد تقدّم الكلام على الانتصار للنفس بمثل ما بُغِيَ عليها في سورة البقرة عند قوله: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَأَقْضُوا لِلَّهِ﴾ [١٩٤]، وقد تقدّم أيضاً الكلام على أحوال الانتصار للنفس، ومتى يجب أن ينتصر الإنسان من الظالم ومنى يستحب له العفو والصفح، في سورة الشعراء عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْفِلُونَ﴾ [٢٢٧].



سُورَةُ الزُّحُرِفِ

سورة الزُّحُرِفِ حُكْمِي الإجماعُ على مكيَّتها^(١)، وفيها بيانُ فضلِ القرآنِ، وسُنَّةِ اللهِ في الأوَّلِينَ وحالِهِمْ في الإعراضِ، وبيانُ آيَاتِهِ الكونيَّةِ وإبداعِ خَلْقِهِ وصُنْعِهِ، وَحَقُّ اللهِ بالتوحيدِ، وذكرُ بعضِ الأنبياءِ وحالِ أُمَمِهِمْ معهم، والتذكيرُ بِآخِرِ الزمانِ وقُرْبِ الساعةِ، وحالِ الفريقَيْنِ في الآخِرَةِ.

* * *

❏ قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُوبُونَ﴾ [الزحرف: ١٢].

هذا تذكيرٌ مِنَ اللهِ بِنِعَمِهِ وَخَلْقِهِ الْأَزْوَاجَ لَتَتَنَاسَلَ وَتَتَكَاثَرَ؛ ليدومَ نعيمُهُ، وتقومَ حُجَّتُهُ، وذكرُ بشيءٍ مِنَ النِّعَمِ، وهو ركوبُ الدوابِّ والفُلُكِ لمَنافعِ النَّاسِ، وقد تقدَّم الكلامُ على أحكامِ ركوبِ الدوابِّ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِنَّ بَلَدًا لَّتَكُونُوا فِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْسُ إِنَّكُمْ لَرَوَوْا رَجِيمٌ ۝٧﴾ وَالْمَيْلَ وَالْإِمَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَرْكَبُوهَا وَرَبْنَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧ - ٨]، وتقدَّم الكلامُ على ركوبِ البحرِ وأحوالِهِ، وحُكْمِ الغزوِ فِيهِ وَفَضْلِهِ، عندَ قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٥/١٩).

حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّعَنَّ يَمُّ رِيحٍ طَیْبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ
[يونس: ٢٢].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ
عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَٰهَ
رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ﴾ [الزحرف: ١٣ - ١٤].

ذَكَرَ اللَّهُ نِعْمَةَ الرُّكُوبِ عَلَى الدُّوَابِّ وَالْفُلُكِ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ أَعْظَمَ
الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَتَذَكَّرُ فِيهَا الْعَبْدُ نِعْمَةَ هِيَ حَالُ انْتِفَاعِهِ مِنْهَا، وَأَمَرَ بِشُكْرِ
الْمُنْعِمِ عِنْدَ ذَلِكَ وَذِكْرِهِ، وَإِظْهَارِ الْاِفْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ
إِلَّا بِهِ؛ حَتَّى لَا يَغْتَرَّ الْإِنْسَانُ بِمَا فَعَلَ مِنْ تَدْبِيرٍ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ
وَالْمَرَاقِبُ مِنَ الْأَنْعَامِ: الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَلَمْ يَصْنَعْ الْإِنْسَانُ حِينَئِذٍ إِلَّا
الْفُلُكَ بِيَدِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ بِتِلْكَ النِّعَمِ، وَأَمَرَ بِالْاِفْتِقَارِ وَعَدَمِ
الْاِغْتِرَارِ، وَالْإِنْسَانُ الْيَوْمَ أَحْوَجُ إِلَى ذَلِكَ وَهُوَ يَصْنَعُ طَائِرَاتٍ وَسَيَّارَاتٍ
وَقَاطِرَاتٍ وَأَنْوَاعَ الْمَرَاقِبِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِيَمَنْ قَبْلَهُمْ، وَفَتَنَتْهُمْ فِيهَا أَشَدُّ
مِمَّنْ قَبْلَهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: بَيَانٌ لِّذِكْرِ الرُّكُوبِ عَلَى الْمَرَاقِبِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ
الْكَلَامُ عَلَى ذِكْرِ الرُّكُوبِ وَدُعَاءِ السَّفَرِ وَذِكْرِهِ، وَالْفَرْقِ بَيْنَهُمَا، عِنْدَ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَقَالَ أَتَكْبَرُوا فِيهَا يُسِّرُ اللَّهُ مَجْرِمَهَا وَمَرْمَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[هود: ٤١].

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْمِنْ يُنَشَّؤْنَ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾﴾ [الزحرف: ١٨].

ذَكَرَ اللَّهُ الْمَرَأَةَ فَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا تُنَشَّأُ لَابِسَةً حُلِيًّا وَزِينَةً مِنْ صِغَرِهَا، وَفِي ذَلِكَ أَنَّ الْحُلِيَّةَ مِنْ خِصَائِصِ الْمَرَأَةِ، وَأَمْرُهَا فِي ذَلِكَ فِيهِ سَعَةٌ؛ فَيَجُوزُ لِلْمَرَأَةِ أَنْ تَلْبَسَ مِنَ الْحُلِيِّ مَا شَاءَتْ.

لُبْسُ الصَّبِيِّ وَالرَّجُلِ لِلْحُلِيِّ:

وَالْأَصْلُ: أَنَّهُ لَا يُشْرَعُ تَحْلِيَةُ الْغُلَامِ، وَلَا أَنْ يَتَحَلَّى الرَّجُلُ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ خِصَائِصِهِ الْفِطْرِيَّةِ، وَتَحْلِيَتُهُ بِالْحُلِيِّ كَالْفِلَادَةِ وَالسَّوَارِ تَأْنِيثٌ لَهُ، فَيُكْرَهُ إِبْلَاسُ الصَّبِيِّ الْمَعَادِنَ تَحْلِيَةً لَهُ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ذَهَبًا، فَهِيَ إِنْ لَمْ تَحْرَمْ لَكُونِهَا ذَهَبًا وَفِضَّةً، إِلَّا أَنَّهُ يُمْنَعُ مِنْهَا لِمُخَالَفَتِهَا لِلْفِطْرَةِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ: (لَوْ كَانَ أَسَامَةُ جَارِيَةً، لَحَلَّيْتُهٗ وَكَسَوْتُهُ؛ حَتَّى أُتَفَّقَهُ)؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ^(١)، فَكَمَا أَنَّ الْجَارِيَةَ تُفَارِقُ الْغُلَامَ فِي الْكِسْوَةِ، فَإِنَّهَا تُخَالِفُهُ كَذَلِكَ فِي الْحُلِيِّ.

وَأَمَّا الذَّهَبُ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الرِّجَالِ التَّحْلِيَّ بِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ: (أَحِلَّ الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ لِلنَّاتِثِ أُمَّتِي، وَحَرَّمَ عَلَى ذُكُورِهَا)؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ^(٢)، وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَجُلٍ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ لَهُ: (يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَنْرَةٍ مِنْ نَارٍ، فَيَجْعَلُهَا فِي يَدَيْهِ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

فَلَا يَجُوزُ لُبْسُ الرَّجُلِ لَخَاتَمِ الذَّهَبِ، وَأَمَّا خَاتَمُ الْفِضَّةِ، فَجَائِزٌ أَنْ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٣٩/٦)، وَابْنُ مَاجَةَ (١٩٧٦).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٩٢/٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٥١٤٨).

(٣) مُسْلِمٌ (٢٠٩٠).

يَلْبَسُهُ الرَّجُلُ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ اتَّخَذَ خَاتِمًا مِنْ فِضَّةٍ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَنَسٍ؛ قَالَ: «لَبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاتَمَ فِضَّةٍ فِي يَمِينِهِ»^(١).

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ فِي الْفَصَامِ عَيْرٌ مُبِينٌ﴾ أَنَّ الْمَرَأَةَ جُبِلَتْ عَلَى حَيَاءٍ وَانْكَسَارٍ؛ فَلَا تَقْوَى عَلَى إِظْهَارِ الْحُجَّةِ عِنْدَ الْخُصُومَاتِ وَالْخِلَافَاتِ، وَفِي هَذَا ضَعْفٌ مَنْزِلَتِهَا فِي أَبْوَابِ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَامِلًا فِي الْإِفْصَاحِ عَنْ حُجَّتِهِ عِنْدَ النَّزَاعِ، فَإِنَّ قَضَاءَهُ عِنْدَ تَخَاضُّمِ النَّاسِ إِلَيْهِ أَظْهَرَ فِي الضَّعْفِ، فَالْمَرَأَةُ تَغْلِبُهَا الْعَاطِفَةُ وَالشَّفَقَةُ، وَتُفْقِدُهَا تَمْيِيزَ الْحَقُوقِ، فَتَلِينُ مَعَ مَنْ يُبْدِي ضَعْفًا وَمَسْكَنَةً وَيُكَاءَ وَرِقَّةً وَلَوْ كَانَتْ حُجَّتُهُ ضَعِيفَةً، عَلَى مَنْ كَانَ ثَابِتًا قَوِيًّا وَلَوْ كَانَتْ حُجَّتُهُ قَوِيَّةً، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى وَلَايَةِ الْمَرَأَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].





سُورَةُ الْأَحْقَافِ

سورة الأحقاف مكية؛ وبهذا قال ابن عباس والحسن وعكرمة، وإنما الخلاف في آيات يسيرة^(١).

ويظهر في الأحقاف الدعوة إلى التوحيد، واتفاق دعوة الرسل عليه وعلى التحذير من الشرك، وبيان خطر عاقبة المشركين وحسرتهم، وفي السورة: الدعوة إلى بعض أصول الفطرة العامة كالبر والإحسان، وفيها ذكر لآيات الله الكونية وتفرده بالخلق واستحقاقه لذلك للعبادة وحده.

* * *

❏ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقد أمر الله بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، بل قد قرن الله بر الوالدين بتوحيده وعبادته؛ لعظمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المنكوت: ٨]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/١٠٢).

مِثْقَ بَيْتٍ إِشْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا وَلَدَيْنِ إِحْسَنَّا ﴿[البقرة: ٨٣]﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَا وَلَدَيْنِ إِحْسَنَّا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُنْشِرُونَ لِقَاءَ رَبِّكُمْ أَنَّكُمْ أَتَّيْتُمُوهُمُ بِالْبُذُنِ إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وتقدم الكلام في برِّ الوالدين وفضله فيما سبق من الآيات.

وهو له تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾؛ يعني: على كرهٍ وشدةٍ وألمٍ، وقدم الله الأمَّ وخصَّها بالذكر؛ لفضلها وتقدم حقها على حق الأب بالإجماع، وفي هذا يقول النبي ﷺ كما رواه أحمد: «أُمُّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتُكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ»^(١).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة؛ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: (أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)^(٢).

أكثر الحمل والرضاع وأقلُّه:

وفي قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَضَعُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ إشارة - لا صريح - عبارة - إلى أن أقلَّ الحمل ستة أشهر؛ وذلك أن الله جعل مدة الرضاع حولين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؛ وذلك أن الله جعل الحمل والرضاع ثلاثين شهرًا، والحولان أربعة وعشرون منها، وبقي ستة أشهر.

وروي الاستدلال بذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس؛ فقد روى ابن أبي حاتم، عن أبي الأسود الدَّيْلَمِيُّ؛ أن عمر بن الخطاب رَفَعَتْ

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

إليه امرأةٌ وَلَدَتْ لِسِتَةِ أَشْهُرٍ، فَهَمَّ بِرَجْمِهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا، فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْهَا رَجْمٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوِلْدَانُ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وَسِتَّةُ أَشْهُرٍ؛ فَذَلِكَ ثَلَاثُونَ شَهْرًا^(١).

وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ، عَنْ بَعْجَةَ بْنِ زَيْدِ الْجُهَنِيِّ؛ أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ دَخَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَيْضًا، فَوَلَدَتْ لَهُ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعِثْمَانَ بْنِ عَمَّانَ، فَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُرْجَمَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، وَقَالَ: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [القمان: ١٤]، قَالَ: فَوَاللَّهِ، مَا عَبِدَ عِثْمَانُ أَنْ بَعَثَ إِلَيْهَا تَرْدُ^(٢).

وَقَدْ أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْمُسْتَدِيلَ إِنَّمَا هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٣). وَهُوَ صَحِيحٌ، وَقَدْ ذَكَرَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» بِإِسْنَادٍ^(٤).

وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نَوَازِلٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَقْلِ الْحَمْلِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ: أَنَّ أَقْلَهُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ؛ وَذَلِكَ لِمَا سَبَقَ.

وَقَدْ يُوجَدُ مَنْ يُوَلِّدُ لِأَقْلٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، لَكِنَّهُ لَا يَعِيشُ غَالِبًا بَعْدَ وَلَادَتِهِ إِلَّا بِمُنْقِذٍ مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَجْهَظَةِ الْحَدِيثَةِ، وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ فِي أَبْوَابِ الْإِطْلَاقِ، وَإِلَّا لَمْ يَصُحِّ إِطْلَاقٌ وَلَا عَمُومٌ وَلَا قَاعِدَةٌ، وَلَيْسَ فِي إِثْبَاتِ الْوِلَادَةِ لِأَقْلٍ مِنْ سِتٍّ مَا يُشْكِكُ فِي الْوَحْيِ؛ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْبَاطِلِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَصْرُخْ بِذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَهُ تَقْرِيبًا، لَا حَدًّا

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٤٢٨/٢).

(٢) «تفسير الطبري» (٦٥٧/٢٠)، وفيه: «قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: عَيْدٌ: اسْتَشْكَفَ».

(٣) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٣٤٤٦).

(٤) «موطأ مالك» (٨٢٥/٢).

فاصلاً لا يَسْتَأْخِرُ ولا يَسْتَقْدِمُ؛ لَأَنَّ حَوْلِي الرِّضَاعَةَ يَجُوزُ قَصْرُهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وَكَانَ الرِّضَاعُ وَالْحَمْلُ يَكْفِيهِ ثَلَاثُونَ شَهْرًا، فَلَوْ وُلِدَ لِتَسْعَ، فَإِنْ قُصِرَ الرِّضَاعُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، فَذَلِكَ لَا يُوَثِّرُ عَلَى كِمَالِ الطِّفْلِ، وَلَا حَقُّهُ فِي الْإِرْضَاعِ عَلَى أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ وَمُرْضِعَتِهِ، وَكَأَنَّهُ بَيَانٌ لِحَدِّ الْكِفَايَةِ؛ فَمَا فَاتَهُ مِنْ غِذَاءٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يَسْتَدْرِكُهُ بِإِتِمَامِ الْحَوْلَيْنِ، وَمَا أَتَمَّهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يَجُوزُ قَصْرُهُ مِنَ الرِّضَاعِ عَنِ الْحَوْلَيْنِ، وَبِذَلِكَ يَتِمُّ حَقُّهُ بِالطَّعَامِ، وَهُوَ ثَلَاثُونَ شَهْرًا؛ وَهَذَا مُحْتَمَلٌ.

ثُمَّ إِنَّ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ الرَّحِمِ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ خَارِجٍ عَنِ الْعَادَةِ - لَيْسَتْ مَقْصُودًا فِي الْآيَةِ؛ فَاللَّهُ ذَكَرَ الْحَمْلَ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾؛ يَعْنِي: عَلَى شِدَّةٍ وَكُرْهٍ وَمَشَقَّةٍ، فَهِيَ الْحَامِلَةُ لَا غَيْرُهَا، وَأَمَّا الْحَمْلُ فِي غَيْرِ الرَّحِمِ كَمَا يَكُونُ فِي الطَّبِّ الْحَدِيثِ، فَذَلِكَ غَيْرُ مَقْصُودٍ فِي إِحْصَاءِ الْمُدَّةِ فِي الْآيَةِ.

وقد اختلف في أكثر مدة الحمل أيضًا:

وأكثره عند الجمهور: أربع سنوات؛ وهو قول المالكية والشافعية والحنابلة.

وفي قول لبعض الفقهاء من المالكية: أنها خمس سنوات.

ومذهب الحنفية - وبه يقول بعض الحنابلة - : أنها ستان.

ومنهم: من حدَّ أعلاه بسنة؛ كابن عبد الحكم وابن رشد^(١).

ومن العلماء: من لم يجعل للحمل حدًا، لا في قليله ولا في كثيره؛ وبه قال أبو عبيد^(٢).

(٢) «المغني» (١١/٢٣٣).

(١) «بداية المجتهد» (٢/٣٥٨).

وهذا التقدير من الفقهاء جرياً على ما سَمِعُوهُ من أحوال النساء، وليس في ذلك شيء يَفْصِلُ من الشرع ولا يَثْبُتُ، وفي كتب التاريخ والسِّيَر مرويَّات في الحملِ سِنِينَ، وهذا كُلُّهُ ممَّا لا يَثْبُتُ، ومنه ما يُجْزَمُ بكذبه، وما صَحَّ سَنَدُهُ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ يَظُنُّونَ انْتِفَاحَ بَطْنِ الْمَرْأَةِ حَمَلاً لَجَهْلِهِمْ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ مَا فِيهَا وَلَدٌ، وَيَظُنُّونَ مَا زَوْجُهَا وَيَظُنُّونَ مَوَطِئَهُ عَلَى حَمَلٍ، فَتَحْمِلُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَظُنُّ أَنَّ حَمْلَهَا بَدَأَ مِنْ حَسَابِ حَمْلِهَا الْكَاذِبِ؛ وَذَلِكَ لِقَلَّةِ الطَّبِّ وَمَعْرِفَةِ النَّاسِ، وَأَقْوَالُ الْفُقَهَاءِ فِي ذَلِكَ لَيْسَتْ عَنْ نَصٍّ؛ وَإِنَّمَا لِسَمَاعِ أَحْوَالِ بَنَوِهَا عَلَيْهَا وَاحْتِنَاطُهَا، وَفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: «وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهادُ، والرَّدُّ إلى ما عُرِفَ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ»^(١).





سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سورة محمد تُسمَّى سورة القتال؛ لِما فيها مِنْ أحكام القتال والأسرى، وهي مَدَنِيَّةٌ على الأصحَّ، وقد حُكِيت الإجماعُ على ذلك^(١)، وليس كذلك؛ فَمِنَ العلماءِ مَنْ قال: بأنَّها مَكِّيَّةٌ، وهذا يُروى عن سعيد بن جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ، والذي عليه أكثرُ السلف: أنَّها مَدَنِيَّةٌ، وهو مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، وعبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ، ومجاهِدٍ، وقال بذلك عبدُ الرزَّاقِ^(٢)، وعامةُ المفسِّرينَ^(٣).

وتضمَّنت سورةُ مُحَمَّدٍ حالَ الكافِرِينَ والمُؤمِنِينَ في اتِّباعِ الحقِّ، وعاقبةَ الفريقَيْنِ ومُستقرَّهم، وحُكْمَ قتالِ الكافِرِينَ ومُهادنتِهِم، ومواقفِ المُنافِقِينَ مِنْهُ وأوصافِهِم، وفضلَ النفقةِ في سبيلِ اللهِ.

* * *

﴿قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقُوا فَنَسُوا الرِّقَابَ فَإِذَا مَتَّ بَعْدُ وَلَئِنْ فُلْنَا حَتَّى نَضَعَ الرِّقَابَ أُولَئِكَ وَلَوْ بِإِشَاءِ اللَّهِ لَأَنْصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُعْطِيَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

أمر الله بجهاد الكافرين والشدة عليهم في ذلك، وعند لقاء العدو

(١) تفسير ابن عطية (١٠٩/٥).

(٢) تفسير القرآن لعبد الرزاق (٢٢٠/٢).

(٣) ينظر: «زاد المسير» (١١٥/٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٣٩/١٩)، و«الدر المنثور» (٣٤٨/١٣).

في الحرب يُضْرَبُ بما يُقْنِيهِ، وَيُقَدَّمُ القَتْلُ على الأَسْرِ؛ حتى يتَحَقَّقَ الإِثْنَانُ فيهِمْ، فإذا تَمَّ الإِثْنَانُ فيهِمْ وَتَحَقَّقَ تَنكِيلُهُمْ، يُقَدَّمُ الأَسْرُ؛ وهذه الآيةُ نَظِيرُ قولِهِ تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْتَهِى أَنْ يَكُونَ لَكَ أَمْرٌ حَتَّى يَتَخَفَتَ فِي الْأَرْضِ فَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقد تَقَدَّمَ فيها الكلامُ على تقديم القتلِ على الأسْرِ في بداية القتالِ والحِكمَةُ مِنْ ذلك، وكذلك تَقَدَّمَ حُكْمُ ضَرْبِ العدوِّ كَيْفَمَا اتَّفَقَ وإصابتهُ في أيِّ موضعٍ، عندَ قولِهِ تعالى: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

حُكْمُ أَسْرِ الْمُشْرِكِينَ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمُ التَّخْيِيرُ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأَسْرَى: إِمَّا بِالْمَنْ عَلَيْهِمْ وَإِطْلَاقِهِمْ تَأْلِيفًا لَهُمْ وَلِقَوْمِهِمْ، وَإِمَّا بِمُفَادَاتِهِمْ بِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ أَوْ بِالْمَالِ. وقد اختلفَ في نَسْخِ هذه الآية:

فمنهم: مَنْ قال: بأنها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]؛ وبه قال قتادة^(١)، والحَكَمُ^(٢)، ويُرَوَّى النسخُ عن ابنِ عَبَّاسٍ؛ رواه عنه العوفي^(٣)، وقد خالفه عليُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عن ابنِ عَبَّاسٍ بعدمِ النسخِ، وأنَّ الإمامَ مَخِيرَ^(٤)؛ وهو أصحُّ.

وأكثرُ العلماءِ على عدمِ النسخِ، وبه قال مِنْ السلفِ عطاءٌ والحسنُ وعمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وغيرُهُمْ^(٥).

وقد اختلفَ العلماءُ في أَمْرِ الْمُشْرِكِينَ بَيْنَ التَّخْيِيرِ بَيْنَ القَتْلِ وَالْمَنْ وَالْفِدَاءِ، وَبَيْنَ تقديمِ واحدٍ منها على الآخرِ، على أقوالٍ:

(١) «تفسير الطبري» (٢١/١٨٤).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٩/٢٤٥).

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/١٨٥).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/١٧٣٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/١٨٥ - ١٨٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٢٤٦).

قَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّهُ مَخِيرٌ بَيْنَ الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ، وَلَيْسَ لَهُ الْقَتْلُ؛ أَخَذًا مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ يُخَيِّرْهُ بِالْقَتْلِ؛ وَصَحَّ هَذَا عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَالْحَسَنِ^(١)، وَرَأَوْا أَنَّ الْأَسِيرَ لَا يُقْتَلُ إِلَّا فِي الْحَرْبِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ يَجِبُ فِيهِمُ الْقَتْلُ، وَإِنَّ التَّخْيِيرَ مَنْسُوخٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ حَكَايَتُهُ، وَمِمَّنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ مَنْ جَعَلَ الْآيَةَ خَاصَّةً بِأَهْلِ الْأَوْتَانِ؛ فَلَا يُقَادُونَ وَلَا يُمْنُ عَلَيْهِمْ؛ وَفِيهِ نَظَرٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَشْنَى الْمَرَأَةَ؛ لِأَنَّهَا لَا تُقْتَلُ؛ فَيَجُوزُ الْفِدَاءُ بِهَا. وَبِقَتْلِ الْأَسَارَى قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ؛ حَتَّى لَا يَعُودُوا لِقَاتِلِ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ جَمْهُورُ الْفُقَهَاءِ: بِأَنَّهُ مَخِيرٌ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ وَالِاسْتِرْقَاقِ، وَهَذَا الْأَرْجَحُ؛ فَقَدْ قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْوَامًا مِنْ أَسْرَى الْكَافِرِينَ؛ فَفِي بَذْرِ قَتْلِ النَّضَرَ بْنِ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ أَنَّ ثُمَامَةَ بْنَ أَثَالٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» «إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ، فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ»^(٢).

وَأَمَّا لَمْ يُذَكَّرِ الْقَتْلُ فِي الْآيَةِ؛ لظهوره، وَقَدْ كَانَ سَابِقًا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْأَسْرَى، وَالْحَاجَةُ مَأْمُةٌ لِبَيَانِ الْحَقِّ بِالْفِدَاءِ أَوْ الْمَنِّ، وَقَدْ قَتَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَسْرَى فِي بَدْرٍ، وَقَتَلَ رَجَالَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَهَذَا الْعَمَلُ الْمَشْتَهَرُ لَوْ كَانَ مَنْسُوخًا، لُنُسِخَ بِنَصٍّ وَاضِحٍ بَيْنَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ، وَلَتَجَلَّى فِي عَمَلِ الصَّحَابَةِ.

وَبِالتَّخْيِيرِ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ وَالرَّقْءِ قَالَ جَمْهُورُ الْأَثَمَةِ، وَهُوَ

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ١٨٥ - ١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

الصحيح عن ابن عباس، وجاء عن ابن عمر والثوري والأوزاعي، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد، وهو قول لأبي حنيفة حكاه عنه الطحاوي.

وقد روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يَنْشِئَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، قال: ذلك يوم بدر والمسلمون يؤمِّنون قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم، انزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى: ﴿فَمَا مَتَا بَعْدَ ذَلِكَ؟﴾، فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار: إن شاؤوا قتلوه، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم^(١).

وقد حكى الجصاص الاتفاق على جواز قتل الأسير^(٢)، والصواب: أنه المذهب الصحيح لعامةهم.

وقد تقدّم الكلام على مسألة فكاك أسرى المسلمين ومفاداتهم بأسرى الكفار، وحكم فكاك أسرى المسلمين بهم وبالمال، عند قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّقَمُونَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

وتقدّم الكلام في التعامل مع الأسير وتعذيبه عند قوله تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُسْخَرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

* * *

(١) «تفسير الطبري» (٢٧٢/١١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٧٣٢/٥).

(٢) «أحكام القرآن» للجصاص (٢٦٩/٥).

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ قُلْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾﴾ [محمد: ٢٢].

ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّ لَوْ تَوَلَّى الْمُؤْمِنُونَ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَمِنْهَا الْجِهَادُ، وَأَنَّ تَوَلَّيْهِمْ سَيَكُونُ سَبَبًا لِلْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ كَمَا كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَفِي هَذَا بَيَانٌ أَنَّ الْجِهَادَ إِنَّمَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِحَرْبِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَأَنَّ عَقُوبَةَ تَرْكِهِ تَمْزِيقُ الْأُمَمِ وَتَفَاقُلُهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ إِنْ لَمْ يُقَاتِلُوا بِالْحَقِّ الْبَاطِلَ، اقْتَتَلَ الْحَقُّ فِيمَا بَيْنَهُ حَتَّى يُمَرِّقَ، ثُمَّ يَخْلُقُهُ الْبَاطِلُ، وَيَقْتَتِلُ الْبَاطِلُ فِيمَا بَيْنَهُ حَتَّى يُمَرِّقَ، ثُمَّ يَخْلُقُهُ الْحَقُّ، فَيَدُورُ الْبَشَرُ فِي دَائِرَةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، فَيَدْفَعُ اللَّهُ الْفَسَادَ كُلَّهُ بِالْجِهَادِ.

وَفِي قُرْنِ اللَّهِ لِقَطِيعَةِ الْأَرْحَامِ مَعَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الرَّحِمَ إِنْ قُطِعَتْ، فَسَدَتِ الْأُمَمُ؛ لِأَنَّ الْأَرْحَامَ وَوَضَلَهَا يَعْنِي اجْتِمَاعَ النَّاسِ؛ وَذَلِكَ يَحْفَظُ فِي النَفُوسِ الْحَيَاءَ وَفِطْرَتَهَا الصَّحِيحَةَ، وَلَكِنْ إِنْ تَمَرَّقَتْ، ذَهَبَ الْحَيَاءُ، وَضَعُفَتِ الْفِطْرَةُ، وَفَعَلَتِ الْحَرَامَ بِلا خَشْيَةٍ مِنَ اللَّهِ وَلَا حَيَاءٍ مِنَ النَّاسِ؛ وَلِهَذَا شَدَّدَ اللَّهُ فِي أَمْرِ الرَّحِمِ وَعَظَّمَ شَأْنَهَا، وَقَدْ رَوَى الشَّيْخَانِ؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَالَ: (خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهُ، قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ؟ قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِلِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ)، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفَرُّوْا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ قُلْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(١).

وقد تقدّم الكلام على صلة الأرحام عند قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

أمر الله المؤمنين بحفظ أعمالهم الصالحة وحسناتهم، وألا ينقضوها بعمل سيئ؛ سواء كان كفراً يُحبط العمل كله، أو كان كبيرة تُحبط الحسنات، فإنه لا خلاف عند السلف: أن الحسنات تُذهب السيئات؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ولما تواتر في السنة، وإنما خلاف أهل السنة في إحباط السيئات للحسنات؛ والدليل يعضد ثبوت ذلك؛ وبه قال الحسن، والزُّهري^(١)، وقتادة، وقد حمل بعض السلف قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ على هذا النوع، كما صحَّ عن قتادة أنه قال في قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: مَنْ استطاع منكم ألا يبطل عملاً صالحاً عملاً بعمل سيئ، فليُفعل، ولا قوة إلا بالله؛ فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها^(٢).

وقد تقدّم الكلام على أنواع إحباط العمل الصالح استطراداً عند قوله تعالى من سورة الكهف: ﴿وَكَلَّبُهُمْ بِسِطْرِ ذَرَأَيْهِ بِآلُوصِيٍّ لَّوِ أَطْلَقَتْ عَلَيْهِمْ لَوْلِيَّتْ مِنْهُمْ فَارَأَىٰ وَلَمَلِئَتْ مِنْهُمْ رُجُبًا﴾ [١٨].

وتقدّم الكلام على إحباط الردة للعمل الصالح عند قوله تعالى:

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٨٧/١٩). (٢) «تفسير الطبري» (٢٢٦/٢١).

﴿وَمَنْ يَزِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَمِثُّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَفْزِكَ أَمْرُكُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

نَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَسْبَابِ الْهَوَانِ وَالصَّغَارِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَظْلُبُوا السَّلْمَ مَعَ الْكَافِرِينَ زَمَنَ قُوَّتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَتَمَكُّنِهِمْ؛ فَإِنَّ الْكَافِرِينَ وَإِنْ أَظْهَرُوا اللَّيْنَ وَالْمَوَدَّةَ، فَهُمْ يَظْوُونَ فِي نَفْسِهِمُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ وَالتَّرْبُصَ؛ فَنَهَى اللهُ عَنْ مُسَالَمَتِهِمْ زَمَنَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَمَكُّنِهِمْ؛ فَإِنَّ دَوَامَ الْمُسَالَمَةِ تَدْفَعُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُخَالَطَتِهِمْ وَالْقَرَارِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَالْإِعْجَابِ بِهِمْ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى أَحْكَامِ السَّلْمِ وَالْهُدْنَةِ وَحُدُودِهَا وَأَثَارِهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَرَاتِبِ الْأَعْدَاءِ فِي الْقِتَالِ، وَالتَّدْرِجِ فِي ذَلِكَ، وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ، وَالْفَرْقِ بَيْنَ عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَسِيَاسَةِ الْإِسْتِعْدَاءِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

* * *

❦ قال الله تعالى: ﴿مَتَّعْتُكُمْ مَتَٰلَآءَ تَدْعَوْتُمْ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَفُورُ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَلَٰئِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

عَظَّمَ اللهُ مَنْزِلَةَ النِّفْقَةِ فِي سَبِيلِهِ، وَحَذَّرَ مِنَ الْبَخْلِ عِنْدَ حَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى ذَلِكَ، وَخَاصَّةً عِنْدَ حَاجَتِهِمْ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَصَدِّ عَدُوِّهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ تَرْكَ النِّفْقَةِ عِنْدَ قِيَامِ مُوجِبِهَا هَلَاكٌ لِلْمُتَمَسِّكِينَ، وَمَحَقُّ بَرَكَاتٍ لِلْقَادِرِينَ، وَسَمَّى اللَّهُ الْمُحَذَّرِينَ مِنَ الْإِنْفَاقِ، الدَّاعِينَ لِلْإِمْسَاكِ: بِالْمُنَافِقِينَ؛ كَمَا فِي سُورَةِ (الْمُنَافِقُونَ) وَغَيْرِهَا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى النِّفْقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَحُكْمِهَا عِنْدَ قِيَامِ مُوجِبِهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].





سُورَةُ الْفَتْحِ

سورة الفتح مدنيّة، وبه قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ^(١)، وقد روى الزُّهريُّ، عن عُروَةَ بنِ الزُّبَيْرِ، عن المسوَرِ بنِ مَحْرَمَةَ وَمَرْوَانَ؛ قالَا: «نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة؛ كلّها في شأنِ الحُدَيْبِيَّةِ»^(٢)، وفي «صحيح مسلم»؛ من حديث أنس؛ أنّها نزلت مُنصرفَةً مِنَ الحُدَيْبِيَّةِ، ثُمَّ قال: (لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا)^(٣).

وقد حَكى الإجماعُ على مدنيّتها جماعة؛ كالزَّجَّاج وابنِ الجَوْزِيِّ وغيرهما^(٤)، وتضمّنت السُّورَةُ البُشْرَى بالفتح المُبِينِ للمؤمنين، وذلك إشارةً إلى صلحِ الحُدَيْبِيَّةِ وما يَعْقُبُهُ مِن خَيْرٍ، وتضمّنت فضلَ أَهْلِ بَيْعَةِ الشَّجَرَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ، ووجوبَ الإعدادِ، وخطرَ النِّفاقِ، وبيانَ أَهْلِ الْأَعْدَادِ عَنِ الْجِهَادِ، وفيها ذِكْرُ الصَّرَاحِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ.



(١) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (٤٩١/٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٩٤/١٩)، و«الدر المنثور» (٤٥٤/١٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/٢٠)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٤٥٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٢٣/٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٦).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١٩/٥)، و«زاد المسير» (١٢٥/٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٩٤/١٩).

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ تَسْلَمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا بُرُوحَكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

حَصَّ اللَّهُ الْأَعْرَابَ بِالْخِطَابِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ قُرْبِ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ لِلْمُشْرِكِينَ؛ وَذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ تَوَلَّى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَغْبَةٍ بَأْسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ هَوَازِنُ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ ثَقِيفٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ الْفَرَسُ وَالرُّومُ، وَقِيلَ: الثُّرُكُ؛ وَيَكُلُّ هَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ، وَالْأَظْهَرُ: عَمُومُ ذَلِكَ لِكُلِّ قَوْمٍ يُقَاتِلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْكُفْرِ.

وَتَنْضَمُّ هَذِهِ الْآيَةُ وَجُوبُ الْجِهَادِ عِنْدَ اسْتِنْفَارِ الْإِمَامِ؛ لظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ إِنْ تَخَلَّفُوا: ﴿وَلَنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُكْمِ اسْتِنْفَارِ الْإِمَامِ وَإِجَابَتِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَوْلُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [النوبة: ٣٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَبِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ تَسْلَمُونَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى دَيْمُومَةِ الْجِهَادِ مَا وَجَدَ الْإِسْلَامُ وَالْكَفْرُ؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقد تقدّم الكلام على دَيُّمُومَةِ الجِهَادِ عندَ قوله تعالى: ﴿وَلَنْ جَنُوحًا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿بَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَأَتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ حُكْمَ الجِهَادِ ووجوبَهُ عِنْدَ النِّفَرِ، بَيَّنَّ عُنْزَ أَهْلِ الْأَعْدَارِ وَفَضْلَ الْأَمْرِ بَيْنَ الْقَادِرِينَ وَبَيْنَ الْعَاجِزِينَ؛ حَتَّى لَا يَتَوَهَّم أَحَدٌ أَنَّهُ قَادِرٌ وَهُوَ عَاجِزٌ، وَلَا يَتَوَهَّم أَحَدٌ أَنَّهُ عَاجِزٌ وَهُوَ قَادِرٌ.

وقد تقدّم الكلام على أَهْلِ الْأَعْدَارِ الَّذِينَ يَجُوزُ تَخَلُّفُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ بِأَخْذُوتِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [١٩] وَعَدَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُوتِهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَلَاكَهُمْ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٩ - ٢٠].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مِنَّةُ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي حِلِّ الْغَنَائِمِ لَهُمْ وَالْأَنْفَالِ وَمَا أَصَابُوهُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْأَنْفَالِ: ﴿كُلُوا وَمِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وقد تقدّم الكلام على الغنائم بأنواعها في صدر سورة الأنفال، وفي قوله تعالى منها: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [٤١]، وفي البقرة عند قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [٢١٦]، وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [١٦١].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَبَسَاءٌ مُؤْمِنَةٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ نَطْفُوهُمْ فَتُضِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

ذكر الله ما فعلته قريش من أمرٍ عظيم، وهو صدّ النبي ﷺ ومن معه من المسلمين من الدخول إلى حرم الله، ومنعواهم من إيصال هديهم أن يبلغ مَحَلَّهُ فيُنَحَرَ يوم النحر لله، فجعل الله ذلك أمراً عظيماً، وعملاً خطيراً، وقد نوحدهم الله بالعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقد تقدّم الكلام عن مسألة الصدّ عن المسجد الحرام وما فعلته قريش عند قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْهَارِ الَّتِي فِيهَا قُلٌ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* * *

﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّكَ تَعْلَمُونَهُمْ أَن تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾﴾ [الفتح: ٢٥].

كان في مَكَّةَ مُسْلِمُونَ يَكْتُمُونَ إِسْلَامَهُمْ؛ مَنَعَهُمْ مِنَ الْهِجْرَةِ والخروج العُدْرُ؛ فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّهُ لَمْ يُسَلِّطِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ فِي مَكَّةَ فَيَسْتَبِيحُوهُمْ قَتْلًا وَتَشْرِيدًا بِسَبَبِ طَائِفَةٍ مُّؤْمِنَةٍ تَكْتُمُ إِيمَانَهَا خَوْفًا وَرَهْبَةً، وَبَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مُخْتَفُونَ؛ ﴿لَّكَ تَعْلَمُونَهُمْ﴾، وَأَنَّكُمْ لَوْ أَصَبْتُمُوهُمْ، أَصَبْتُمُوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وفي هذا تعظيمُ دمِ المسلم وبيانُ شديدي حُرْمَتِهِ، فَأَخَّرَ اللَّهُ قِتَالَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُشْرِكِينَ؛ حَتَّى تَتَحَقَّقَ مِنْ ذَلِكَ مَصَالِحُ؛ مِنْهَا خِلَاصُ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْفُسِهِمْ فَيَلْحَقُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ فِي رَيْبٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَتَرَدَّدٍ، وَكَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ: أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَخَّرَ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَوْ تَرَكْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ يَعْنِي: لَوْ تَمَازَيَزُوا وَخَرَجَ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْكَافِرِينَ، لَاسْتَحَقُّوا الْقِتَالَ وَالنَّكَالَ وَالْعَذَابَ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَدْ صَحَّ عَنْ قِتَادَةَ؛ أَنَّهُ قَالَ: «هَذَا حِينَ رَدَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ، فَكَانَ بِهَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ، فَكَّرَهُ اللَّهُ أَنْ يُؤَدُّوا أَوْ يُوطَّؤُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَتُصِيبَكُم مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ»^(١).

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عِدَّةَ أَوْلِيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْتَلِطِينَ بِالْمُشْرِكِينَ وَمَنْ قَصَدَ اللَّهُ بِالرَّحْمَةِ قَلِيلٌ؛ حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُمْ تِسْعَةٌ نَفَرٌ؛ كَمَا رَوَى الطَّبْرَانِيُّ؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ؛ قَالَ: «اسْمَعْتُ جُبَيْدَ بْنَ سَبْعٍ يَقُولُ: قَاتَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَ النَّهَارِ كَافِرًا، وَقَاتَلْتُ مَعَهُ آخِرَ النَّهَارِ مُسْلِمًا، وَفِينَا نَزَلْتُ، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾»، قَالَ: كُنَّا تِسْعَةً نَفَرٍ: سَبْعَةٌ

رجالٍ وامرأتين»^(١).

وَرُوي أَنَّهُمْ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ، وَتَسْعُ نِسْوَةٌ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَتُصِيبُكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ المَعَرَّةُ: الإِثْمُ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَارِ، وهو الْعَيْبُ.

وَأَخَذَ مِنْهُ بَعْضُهُمْ وَجُوبَ الدِّيَةِ عِنْدَ قَتْلِهِمْ؛ كما قاله ابنُ إِسْحَاقَ^(٣)، وَالْأَظْهَرُ: عَدَمُ وَجُوبِ الدِّيَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَسْقَطَ الدِّيَةَ وَأَوْجَبَ الْكَفَّارَةَ فِي قَتْلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَكُونُ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ وَلَا يُعْلَمُ بِهِ؛ كما قال تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرٌ رِّقَبِكُمْ مِّمَّنْكُمْ﴾ [النساء: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ وَابِلَةٍ مِنْ ثَمَرِهِ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

ولم يأمر النبي أسامة بديّة مَنْ قَتَلَهُ لَمَّا تَشَهَّدَ وهو في صفِّ الْمُشْرِكِينَ، والحديث في «الصحيحين»^(٤)، وقد تقدّم الكلام على هذه المسألة عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرٌ رِّقَبِكُمْ مِّمَّنْكُمْ﴾ [النساء: ٩٢].

حُكْمُ تَرَسُّسِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمُسْلِمِينَ:

التَّرَسُّسُ مَاخُودٌ مِنَ التَّرَسِّ، وهو نوعٌ مِنَ السِّلَاحِ يُتَوَقَّى بِهِ، وَتَرَسَ الرَّجُلُ بِالتَّرَسِ؛ يَعْنِي: أَنَّهُ تَوَقَّى بِهِ.

ومسألة تَرَسُّسِ الْكُفَّارِ بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ السَّلَفِ وَالْفُقَهَاءِ، وَالْكَلَامُ فِيهَا لَيْسَ عَلَى بَابٍ وَاحِدٍ أَوْ نَوْعٍ مُتَّحِدٍ؛ وَإِنَّمَا هِيَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٢٢٠٤).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٣٥٤٣).

(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٣٠٦/٢١).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢٦٩)، وَمُسْلِمٌ (٩٦).

على أحوال؛ وذلك أنه لا يخلو الجهاد غالباً من ذلك، خاصةً في الزمن المتأخر في زمن تكاثر الشعوب والأمم واختلاطها، وتترس الكفار بالمسلمين على أقسام:

القسم الأول: أن يتترس الكفار بفتنة من المسلمين، ومرادهم حماية أنفسهم فقط، ولا خوف ولا ضرر على جماعة المسلمين من ترك أولئك الكافرين وإمهالهم حتى ينجو المؤمنون ولو طال الأمد، فلا يجوز رمي المشركين بما يقتل به المسلمون؛ وذلك كحال النبي ﷺ مع قريش؛ إذ منع الله من دخول مكة بقتال يوم الحديبية؛ لأن في ذلك وظناً للمسلمين المتخفين بإيمانهم وسط المشركين، فيقتلون من حيث لا يعلم المؤمنون، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، خلافاً للحنفية؛ فقد أجازوا الضرب بكل حال مع عدم قصد المسلمين عند الرمي، ولو أصابوهم، فلا شيء عليهم.

القسم الثاني: أن يتترس الكفار بفتنة من المسلمين، وليس مرادهم حماية أنفسهم فقط، بل للإضرار بالمسلمين، وترك قتال المشركين يلحق المسلمين ضرراً؛ وذلك كأن يتترس الكفار بالمسلمين ويتخذوهم دروعاً ليتقدموا ويقتلوا ويصيبوا المسلمين برميهم الرصاص والقذائف والسهام، فيظفروا بالمسلمين وحرمانهم، فإن امتنع المسلمون عن رميهم، تضرر المسلمون، وإن صبدوهم، قتلوا المسلمين مع الكافرين، فلا يخلو الضرر الذي يلحق المؤمنين من حالين:

الأولى: أن يكون رمي المشركين يحقق ضرراً بالمسلمين المترسين أشد من الضرر اللاحق لجماعة المسلمين عند رمي العدو لهم، كأن تكون الجماعة المترسة بها كثيرة كآلف رجل وامرأة من المسلمين، ولو رماهم المسلمون، لقتلوه جميعاً، ولو تركوا العدو يرميهم، فإنه

لَا يُصِيبُ مِنْهُمْ إِلَّا قَدَرًا سِيرًا لَا يُدَكَّرُ، فَلَا يَجُوزُ قَتْلُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَتَرَسُّ بِهَمِ الْعَدُوِّ عَلَى الْأَرْحِجِ؛ وَهَذَا كَمَا تَتَرَسُّ الْبَاطِنِيُّونَ هَذِهِ الْأَيَّامَ مِنَ النَّصِيرِيَّةِ بِالْفَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ نَوَاحِي الشَّامِ يَحْتُمُونَ بِهِمْ، وَمَا يَلْحَقُ أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْ رَمِيهِمْ أَقْلٌ مِنْ عَشْرِ مِغْشَارٍ مَا لَوْ رَمَوْهُمْ وَقَتَلَوْهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ عَدَمُ رَمِيهِمْ؛ حَتَّى لَا يُصَابَ الْمُسْلِمُونَ لِكَثَرَتِهِمْ؛ وَإِنَّمَا يُحَاصِرُونَهُمْ حَتَّى يُنَجِّيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَدْفَعَ شَرَّ الْبَاطِنِيِّينَ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ رَمِيُّ الْمَشْرِكِينَ يَدْفَعُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ضَرَرًا أَشَدَّ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَلْحَقُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَتَرَسُّ بِهِمِ الْعَدُوُّ؛ كَأَنْ يَتَرَسُّ الْعَدُوُّ بَعْدَ قَلِيلٍ، وَيَقُومُ بِرَمِيِّ الْمُسْلِمِينَ بِمَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْقَذَائِفِ، فَيُصِيبُ مِنْهُمْ وَيَقْتُلُ أَكْثَرَ مِمَّا يَقْتُلُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ إِخْوَانِهِمِ الَّذِينَ يَتَرَسُّ بِهِمِ الْعَدُوُّ، وَلَوْ تَرَكَ الْعَدُوُّ لِأَجْلِ تَرَسُّهِ لَتَقَدَّمَ وَأَتَخَنَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَاسْتَبَاحَ الدِّمَاءَ وَالْأَعْرَاضَ.

فَيَجُوزُ رَمِيُّ الْمَشْرِكِينَ وَلَوْ قَتَلُوا مَعَهُمْ مَنْ تَتَرَسُّوا بِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ حَكَى الْإِتِّفَاقُ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ كَالْقُرْطُبِيِّ^(١)، وَابْنِ تَيْمِيَّةٍ^(٢)، وَقَدْ ذَكَرَ النَّوَوِيُّ وَجْهًا لِلشَّافِعِيِّ بِالْمَنْعِ^(٣).

وَبَعْضُ الْفُقَهَاءِ يَجْعَلُ مَنَاطَ الْمَنْعِ وَالْجَوَازِ هُوَ ضَرَرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ، وَالصَّحِيحُ التَّفْصِيلُ، وَالْحَاجَةُ مَاسَّةٌ إِلَيْهِ، خَاصَّةٌ فِي زَمَانِنَا؛ لِكَثْرَةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَسَلُّطِ الْكُفَّارِ وَالْمَشْرِكِينَ، فَقَدْ يُحِيطُ الْمَشْرِكُونَ وَيَتَرَسُّونَ بِأَهْلِ قَرِيْبَةٍ كَامِلَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَفِيهَا آلَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْمَشْرِكُونَ قَلِيلٌ؛ وَلَكِنَّهُمْ تَمَكَّنُوا مِنْهُمْ بِقُوَّةِ سِلَاحٍ مَعَهُمْ، كَمَا تَتَرَسُّ الْبَاطِنِيُّونَ وَهُمْ قَلِيلٌ فِي الشَّامِ بِسِجْنٍ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافٍ مُسْلِمٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ فَلَا يَجُوزُ وَلَا يَصَحُّ أَنْ يُقَالَ: إِنْ كَانَ فِي هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ ضَرَرٌ

(١) «تفسير القرطبي» (١٩/٣٣٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥٢/٢٠).

(٣) «روضة الطالبين» (١٠/٢٤٦).

ولو قليلاً على جماعة المسلمين المقاتلة، فإنه يجوز لهم أن يبيدوا المشركين ومن تترسوا به من أهل القرية جميعاً، وأسلحة اليوم ليست كأسلحة السابقين، والتترس اليوم ليس كالتترس السابق؛ وإنما الواجب التفصيل في مقدار الضرر في التترس اللاحق من جهتي المسلمين المتترس بهم والمقاتلة.

وقد جاء عن مالك؛ أنه سُئِلَ عن قوم من المشركين في البحر في مراكبهم أخذوا أسارى المسلمين، فأدركهم أهل الإسلام وأرادوا أن يحرقوهم ومراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ قال مالك: لا أرى أن تلقى عليهم النار، ونهى عن ذلك وقال: **يَقُولُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي كِتَابِهِ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** ^(١).

ويجب أن يعلم أن العلماء حينما ينصون على جواز قتل المتترس به عند وجود الضرر بالمسلمين، فإنهم يتكلمون على ضرر متحقق، لا ظني متوهم.

القسم الثالث: التترس الذي يكون حال القتال وتركه يتعطل الجهاد؛ وذلك أنه لا يتعلق بجهة أو بقعة وجماعة معينة؛ وإنما يتعطل به سير الجهاد، ولا يتقدم المسلمون به إلا بالرمي؛ ففي المسألة قولان قويان: ذهب الشافعي: إلى جواز الرمي ولو قُتِلَ المتترس بهم؛ لأن حرمة تعطيل الجهاد أعظم وأشد.

وذهب الأوزاعي والثبتي: إلى المنع.

ومن قال بالجواز احتج بأن الله حرم قتل النساء والصبيان والشيوخ من المشركين، ولكن إن كان لا يستمر الجهاد ولا يتمكن من العدو إلا بذلك، جاز فعله من غير قصدهم؛ كما جاء في حديث الصَّعْبِ بْنِ

جَنَامَةً ﷺ؛ قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ أَهْلِ الدَّارِ بَيِّنُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ؟ قَالَ: (هُمْ مِنْهُمْ)، وفي رواية: (هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ) ^(١).

ولكنَّ حديثَ الصَّعْبِ في حُرْمَاتِ ذُرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ ونِسَائِهِمْ وشيوخِهِمْ، لا في حُرْمَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ لتفاوتِ الحُرْمَتَيْنِ، فاللهُ لَمَّا مَنَعَ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ قِتَالِ قُرَيْشٍ خَشِيَةً إصَابَةِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ، لَمْ يَذْكُرْ نِسَاءَ الْمُشْرِكِينَ وَذُرَارِيَّهُمْ.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنَاتٍ حُلُوقٍ رِءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ وَمَنْ مَعَهُ بِدُخُولِ مَكَّةَ فِي عَامِ آتٍ بَعْدَ الْحُدُوبِيَّةِ، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُمْ عَامًا مُحَدَّدًا، وَذَكَرَ الْحُلُقَ وَالتَّقْصِيرَ؛ لِبَيَانِ أَنَّ دُخُولَهُمْ سَيَكُونُ فِي نُسُكٍ؛ تَطْمِينًا لِنَفُوسِهِمْ وَنَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً.

وفي هذه الآية: تَفْضِيلُ الْحُلُقِ عَلَى التَّقْصِيرِ؛ حَيْثُ قَدَّمَهُ عَلَيْهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُلُقِ وَالتَّقْصِيرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحِلُّوْا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

* * *



سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

سورة الحُجُرَاتِ مدنيّة؛ وبهذا قال ابنُ عبّاسٍ وابنُ الرُّبَيْرِ^(١)، وقد حكى الإجماعُ على ذلك جماعة^(٢)، وهذا ظاهرٌ في آياتها؛ ففيها تعظيمُ النبي ﷺ، ووجوبُ توقيره واتباعه، والأدبُ معه عندَ سماعه ومناداته، ووجوبُ التثبُّتِ عندَ الأخبارِ وحالِ القتالِ الذي يقعُ بينَ المؤمنين، والتحذيرُ من أسبابِ الشُّقاقِ بينهم من السُّخريّة والتنازُرِ بالألقابِ والغيبة والتجسُّسِ وسوءِ الظنِّ.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْلِبُوا فِي دُيُورِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١-٢].

في هذه الآية: تعظيمُ النبي ﷺ، ومن تعظيمه: عدمُ التقدُّمِ بينَ يديه ويَدَيِ قولِهِ حيًّا وميتًا، فإذا سَمِعَ حديثه ولو من غيره، فينبغي غضُّ الصوتِ وخفضُهُ تعظيمًا للوحي؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَطْلُقُ مِنَ الْهَوَى ② إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجْمٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٢-٤].

(١) «الدر المشور» (١٣/٥٢٦).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/١٤٤)، و«زاد المسير» (٤/١٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٣٥٢).

وقد قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة^(١).

تعظيم أقوال النبي ﷺ وأصحابه:

ولا يجوز لأحد إذا سمع حديث النبي ﷺ أن يقدم عليه قول أحد من الناس، وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ نزل في أبي بكر وعمر مع أنهما أفضل الأمة بعد نبيها، فجرى عليهم التشديد مع مقامهم وفضلهم؛ فكيف بغيرهم؟! وقد ثبت في البخاري من حديث ابن أبي مليكة قال: كاذ الحيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر ﷺ؛ رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالآخر بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أخفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه؛ يعني: أبا بكر ﷺ^(٢).

ومن تعظيم النبي ﷺ: تعظيم قول أصحابه، خاصة خلفاء؛ لأنهم أعلم الناس بمراوده ﷺ؛ فأقوالهم وأفعالهم تخصص أقواله وتوجهها؛ لأنهم يعلمون منه ما لا يعلمه غيرهم، وفضلهم وديانتهم لا يمكن أن يتعمدوا عضيانه، ولا يجوز لأحد أن ينرك قول الخلفاء الراشدين بحجة

(١) تفسير الطبري (٢١/٣٣٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٥).

أَنَّهُمْ لَيْسُوا مَعْصُومِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ مُسْلِمٌ بَعْضَتَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا يَقْدُمُ أَحَدٌ فَهْمَهُ عَلَى فَهْمِهِمْ، إِلَّا مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُمْ.

وقد كان مالكُ بنُ أنسٍ ينهى عن تقديم أقوالِ فقهاءِ التابعين - مع فضلِهِم - على أقوالِ الخلفاءِ الراشدين كعمرَ؛ بل يدعو إلى استتابة مَنْ يفعلُ ذلك؛ كما روى ابنُ حزمٍ عن الهيثمِ بنِ جميلٍ؛ قال: قلتُ لمالكِ بنِ أنسٍ: يا أبا عبدِ الله، إنَّ عندنا قومًا وضَعُوا كِتَابًا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: ثَنَا فلانٌ، عن فلانٍ، عن عمرَ بنِ الخطابِ بكذا وكذا، وفلانٌ عن إبراهيمَ بكذا، ويأخذُ بقولِ إبراهيمَ؟ قال مالكٌ: وصَحَّ عندهم قولُ عمرَ؟

قلتُ: إنما هي رواية؛ كما صحَّ عندهم قولُ إبراهيمَ. فقال مالكٌ: هؤلاء يُسْتَتَابُونَ، واللهُ أَعْلَمُ^(١).

وهذا في فقيهٍ تابعيٍّ متأخِّرٍ، ويَعُدُّهُ بعضهم من أتباعِ التابعين، مع تقدُّمِ زمانِهِ وجلالةِ قدرِهِ في الفقه؛ فتقديمُ قولِ غيره ممَّن كان بعده من بابِ أولى أَنْ يُزَجَرَ فاعِلُهُ.

وأقوالُ الصحابةِ عموماً مقدَّمةٌ على أقوالِ التابعين، وأقوالُ التابعين مقدَّمةٌ على أقوالِ أتباعِهِمْ؛ وذلك أَنَّهُ كُلَّمَا قُرُبَ الْعَهْدُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، كان القولُ أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ، وَأَسْلَمَ مِنَ الْهَوَى.

والأَصْلُ في أقوالِ الصحابةِ: أَنَّ مُسْتَنَدَهَا الرَّفْعُ؛ إمَّا مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ فِعْلِهِ أَوْ تَقْرِيرِهِ، أَوْ مَا سَكَتَ عَنْهُ وَلَمْ يُبَيِّنْ فِيهِ شَيْئًا، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَاخْتِلَافُهُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَعْنَى مَرْفُوعٍ، وَهُوَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ مِنْ مَسَائِلِ السَّعَةِ، لَا مِنْ مَسَائِلِ التَّشْدِيدِ.

(١) «الإحكام، في أصول الأحكام» (٦/ ١٢٠ - ١٢١).

والأصل في أقوال التابعين: أن مُسْتَدْرَكًا الوقف على الصحابة؛ إما عن واحد أو عن جماعة؛ ولهذا يقول أحمد بن حنبل: «لا يكاد يجيء عن التابعين شيء إلا يوجد فيه عن أصحاب النبي ﷺ»^(١). وإنما عظمَت القرون المفضلة الأولى؛ لقربها من النبي ﷺ؛ فعظم الزمان بتعظيمه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحِبُّوا أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فيه: أن من أعظم ما يُحِبُّ الأعمال: عدم تعظيم سنة النبي ﷺ؛ بالإعراض عنها عند سماعها، أو رفع الصوت عندها، أو تقديم أقوال الرجال عليها. وفي الآية: دليل على أن السيئات تُحِبُّ قَدْرًا من الحسنات، وقد تقدّم الكلام على ذلك.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَيَضْيعُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَصَائِرًا﴾ [الحجرات: ٦].

أمر الله بالتثبت في رواية الأخبار والأقوال، وكلما كان أثر الخبر عظيمًا على الناس، كان التثبت فيه أعظم وأوجب، وأوجب الأقوال أن يُتَبَّهَ فيها: هي الأقوال المنقولة عن الله ورسوله؛ وذلك أن أعظم الكذب هو الكذب على الله؛ قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَكَيْفَ إِذَا تُمِيزُوا﴾ [النساء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ لَا يُمْسِكُونَ﴾ [يونس: ٦٩]، ووصف الله من افتري عليه الكذب بعدم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرَى الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

ولا يجوزُ نقلُ الكلام عن الله وعن نبيه والنفسُ تشكُّ في كذبه وعدم صحته؛ ولذا يقول النبي ﷺ: (إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ)^(١)، ويروى عنه ﷺ؛ أنه قال: (مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ بَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ)^(٢)، فأخذ حُكَمَ الكذب، مع كونه ناقلًا لا مفتريًا.

وإذا كان الكلام يتصلُ بغيرِ الله ورسوله، فأعظمه: أشده موضعًا؛ كالذي يتعلَّقُ بأعراضِ الناسِ كالقذف، وما يتعلَّقُ بأماناتهم وأموالهم، وما تُؤكَلُ به حقوقهم.

وكُلُّما كان الأثرُ عظيمًا، وجَبَ التَّشَبُّتُ فيه، ولو لم يكن بالنقلِ عن شخصٍ بعينه؛ كالكلام الذي يتعلَّقُ بخوفِ الناسِ وأمنهم؛ فقد جعلَ الله نقلَ مثلِ هذا الكلام بلا تثبُّتٍ من صفاتِ المُنافقين: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ونقلُ الكلام لا يُعفي ناقله، ولو لم يكن قائله؛ فالناقلُ شريكٌ في حكايةِ الأقوال بلا تثبُّت؛ كما قال ﷺ: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ)^(٣).

وبمقدارِ الجهالةِ على الناسِ في نقلِ الأقوالِ عنهم يكونُ عِظَمُ الإثمِ؛ قال تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَتِكُمْ﴾.

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤)؛ من حديث المغيرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٠/٤)، والترمذي (٢٦٦٢)، وابن ماجه (٤١)؛ من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٩٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٨٤٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفُتِلُوا إِلَىٰ تَبِيعِ حَقِّ نَفْسِهِ إِلَّا أَمَرَ اللَّهُ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿ [الحجرات: ٩ - ١٠].

هذه الآية في قتال أهل البغي، وكل قتال بغير حق بين المسلمين فهو من قتال البغي، وقد يكون البغي من جهة واحدة، وقد يكون من الجهتين بتساويهما بالمعدوان بعضهما على بعض.

والله أمر بالإصلاح بين المقتتلين من المسلمين، وهذه الآية نزلت في قتال بين الأنصار؛ حيث اقتتل الأوس والخزرج؛ كما في «الصحيحين»؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: لو أتيت عبد الله بن أبي، فأنطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وركب حماراً، فأنطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إليك عني، والله لقد آذاني نثر حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك، فعضب لعبد الله رجل من قومه، فشنمه، فعضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت؛ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١).

وفي هذه الآية: دليل على فضل الصلح بين المسلمين، وأن البغي والظلم والقتل بغير حق مع كونه كبيرة وموبقة، فإنه لا يخرج صاحبه من الإيمان، وفي البخاري؛ من حديث أبي بكر؛ أنه قال: رأيت

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: (إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(١).

الْفَرْقُ بَيْنَ الْبُغَاةِ وَالْخَوَارِجِ:

وهذه الآية نزلت في البُغَاةِ وليسَتْ في الخوارجِ، وفرق ما بينهما؛ فالخوارجُ إنما خرجوا عن جماعة المسلمين كلها، وأما البُغَاةُ، فبَعَثُوا على طائفةٍ منهم، والخوارجُ كان بَعْثُهُمْ في ضلالٍ اعتقاديهم، فكفَرُوا بغيرِ مكفرٍ، واستحلُّوا الدَّمَ الحَرَامَ لأجلِ ذلك، وأما البُغَاةُ، فقتلُهم ليس عن تكفيرِ المسلمين؛ وإنما لتأويلهم حقًّا هم أولى به من غيرهم؛ كالقتالِ على الولاية، والقتالِ على المالِ والثَّارِ متأولينَ، ولشبهةِ اعتقُدوها وظنُّوا أَنَّهُم الأَحَقُّ، فبَعَثُوا على غيرهم لأجلِ ذلك، ويجتمعُ البُغَاةُ مع الخوارجِ في بَعْثِهِمْ وظلْمِهِم الظَّاهِرِ، ولكنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ في الجَهَةِ والقَصْدِ الباطِنِ.

والخوارجُ يُقَاتِلُونَ بتأويلٍ باطلٍ، والبُغَاةُ يُقَاتِلُونَ بتأويلٍ مُحْتَمِلٍ.

وبعضُ الفقهاء لا يفرِّقُ بَيْنَ البُغَاةِ والخوارجِ إِلَّا في الاسمِ.

وهذا فيه نظرٌ، وقد فرَّقَ الصحابةُ وأئمةُ السلفِ بَيْنَ الخوارجِ وبَيْنَ أَهْلِ الْجَمَلِ وَصِفَيْنِ.

والخوارجُ شرٌّ مِنَ البُغَاةِ؛ ولهذا جاء في السُّنَّةِ تغليبُ قتلِهِمْ على استصلاحِهِمْ؛ قال ﷺ: (لَيْسَ أَنا أَدْرِكُنَّهُمْ، لَأَقْتُلَنَّهْم قَتْلَ عَادٍ)^(٢)، وجاء في القرآنِ تغليبُ استصلاحِ البُغَاةِ على قتلِهِمْ، وتغليبُ قتالِ الخوارجِ لا يعني تَرْكَ استصلاحِهِمْ؛ فالصحابةُ استصلَحُوا الخوارجَ وناظَرُوهم،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤)؛ من حديث أبي سعيد الخُدري.

وكذلك فإن تغليب استصلاح البغاة لا يعني ترك قتالهم؛ وإنما كان التغليب؛ لأن الخوارج لا يزول شرهم إلا بقتال، ولكنه قد يخف بالاستصلاح، والبغاة قد يزول شرهم باستصلاحهم بالبيان والمال وإنزالهم على ما يرضون به؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بقتال الخوارج ابتداء؛ لأنه لا يدفع شرهم إلا هذا، وأمر بإصلاح أمر البغاة ابتداء قبل قتالهم؛ لأنه قد يصلحون بلا قتال.

والخوارج يؤمر بقتالهم ولو لم يئفوا على أحد؛ لأجل ما يعتقدونه في المسلمين ويحملونهم على معتقدهم بكفر المسلمين واستحلال دمهم؛ ولذا قال ﷺ: (أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(١)، وإن كان اصطلاح اللغة يجعل كل خارجي باغيا، ولكنه لا يكون كل باغ خارجيا؛ ولهذا يتجاوز بعض الفقهاء بذكر قتال الخوارج في أبواب قتال أهل البغي.

وإن اشترك البغاة مع الخوارج في الفعل الظاهر، فإن الفارق بينهما: أن الخوارج يكفرون بغير مكفر، ويقاتلون لأجل ذلك، وأما البغاة، فيقاتلون المسلمين بتأويل، لا بتكفير بذنوب ولا بمباح، وقد فرق النبي ﷺ بين البغاة والخوارج في قوله ﷺ: (تَمَرُّقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ)^(٢).

وقد أمر بالإصلاح بين الفئتين المقتتلتين من المسلمين، وإن أثبت أحدهما الإصلاح، وأصررت على القتال، فيجب على المسلمين دفع شرها وبغيها بقتالها، وإن امتنعت الطائفتان جميعا عن الصلح وأبتا إلا الاقتتال والانتقام حتى تُفني إحداهما الأخرى، فإن كان لجماعة المسلمين شوكة وقوة، فيجب عليهم قتال الطائفتين؛ لاستحقاقهما وصف البغي جميعا،

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦)؛ من حديث عليٍّ ؓ.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٤)؛ من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

وَاللَّهُ أَمَرَ بِقِتَالِ الْبَاغِيِّ؛ سواءً كان الوصفُ في واحدةٍ أو في اثنتين: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَلَاوَا أَلَيْ تَبْغِي حَقَّ تَفْوَةٍ إِلَٰهَ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بَيْنَ الْأَمَمِ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فِيما سَبَقَ اقْتِتَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِيما بَيْنَهُمْ وَيَعْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، نَهَى هُنَا عَنْ إِطْلَاقِ اللَّسَانِ بِسُخْرِيَّتِهِمْ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَالسَّبُّ وَالتَّعْيِيرُ وَالتَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ؛ وَهَذَا فِيهِ إِشَارَةٌ أَنَّ إِطْلَاقَ اللَّسَانِ بِالْبَاطِلِ أَعْظَمُ أَسْبَابِ الْفِتَنِ الْكُبْرَى الَّتِي يَقْتَتِلُ فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ؛ فَمَنْ لَمْ يَحْفَظْ لِسَانَهُ عَنْ أَخِيهِ، لَا يُؤْمِنُ مِنْ إِطْلَاقِ مِثْلِهِ عَلَيْهِ.

الْكِبْرُ وَاحْتِقَارُ النَّاسِ سَبَبٌ لِلْفِتَنِ بَيْنَهُمْ:

❏ قال تعالى: ﴿لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾، وَالسُّخْرِيَّةُ هِيَ اسْتِصْغَارُ النَّاسِ وَاحْتِقَارُهُمْ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ مُتَكَبِّرٍ، وَبِمَقْدَارِ كِبَرِهِ يَنْطَلِقُ لِسَانُهُ فِي النَّاسِ تَحْقِيرًا وَتَصْغِيرًا، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (الْكِبْرُ: بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ)^(١)، وَفِي لَفْظٍ: (وَعَمَصَ النَّاسَ)^(٢)، وَمَنْ تَكَبَّرَ احْتَقَرَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَعْلُوهُ أَحَدٌ.

(١) أخرجه مسلم (٩١)؛ من حديث عبد الله بن مسعود ؓ.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٩٩).

وأعظمُ السُّخْريَّةِ والاحتقارِ هي التي تُطلَقُ على جماعةٍ؛ كسُّخْريَّةِ قبيلةٍ من قبيلةٍ، وأهلِ بلدٍ من أهلِ بلدٍ؛ حتى تكونَ الفتنةُ بينهم أشدَّ ممَّا يقعُ من واحدٍ لواحدٍ، فيتباغضُونَ ويتنازَعُونَ وتذهبُ بينهم حرارةُ الأخوةِ الإيمانيَّةِ، وطعنُ القبائلِ والشعوبِ بعضهم في بعضٍ من الكبائرِ، ويتساهلُ الناسُ بذلك، فتطعنُ أُمَّةٌ في أُمَّةٍ لأجلِ رجلٍ واحدٍ منهم أساءَ، ويسخرُ شعبٌ من شعبٍ لأجلِ واحدٍ منهم، وقد رَوَى ابنُ ماجهٍ؛ من حديثِ عائشةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: (إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ فِرْيَةً لِرَجُلٍ هَاجَى رَجُلًا، فَهَجَا الْقَبِيلَةَ بِأَسْرَهَا، وَرَجُلٌ انْتَقَى مِنْ أَبِيهِ وَرَأَى أُمَّةً^(١)).

وهو له تعالى: ﴿عَمَّ أَنْ يُكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ بَيْنَ اللَّهِ أَنْ الْخَيْرِيَّةَ لَا تُوزَنُ
بِالظَّوَاهِرِ الَّتِي يُزْدَرَى فِيهَا النَّاسُ غَالِبًا، وَذَلِكَ لِأَشْكَالِهِمْ أَوْ أَلْوَانِهِمْ أَوْ
لِبَاسِهِمْ أَوْ بُلْدَانِهِمْ؛ فَاللَّهُ ذَكَرَ بِأَمْرِ لَا يَرَاهُ النَّاسُ، وَهُوَ أَمْرُ الْبَوَاطِنِ، وَفِيهِ
تَبْيِيهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ اِزْدِرَاءٌ لِأَحَدٍ أَوْ تَنْقُصُ لَهُ، أَنْ يَتَذَكَّرَ
أَمْرَ الْبَوَاطِنِ الَّتِي لَا يَرَاهَا إِلَّا اللَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ فِي سِرِّرَتِهِ خَيْرًا مِنْ
السَّاحِرِ بِهِ، وَقَدْ نَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَذَا؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ؛ مِنْ
حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،
فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: (مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟)، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ
النَّاسِ، هَذَا - وَاللَّهِ - حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ،
قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
(مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ
الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ إِلَّا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ إِلَّا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ
أَلَّا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ
مِثْلَا) (٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٧).

(۱) أخرجه ابن ماجه (۳۷۶۱).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَمِيَ أَن يَكُنَّ خِيَرًا مِّنْهُنَّ﴾ حَصَّرَ اللهُ النساءَ بالذكرِ مع دخولهنَّ في عمومِ قوله تعالى: ﴿لَا يَسَخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ فهنَّ مِنَ القومِ؛ وذلك لأنَّ النساءَ عادةً لا يُطْلَقْنَ السِّتْرَ إِلَّا فِي بَعْضِهِنَّ؛ لِمَا فِيهِنَّ مِنَ الْغَيْبَةِ أَكْثَرُ مِنْ غَيْبَةِ الرِّجَالِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَكَلَامُ النِّسَاءِ فِي النِّسَاءِ وَشُخْرِيَّتُهُنَّ بِهِنَّ أَكْثَرُ مِنْ كَلَامِ الرِّجَالِ فِي الرِّجَالِ وَشُخْرِيَّتُهُمْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ: فَإِنَّ النِّسَاءَ لَا يُخَالِطُنَ الرِّجَالُ وَلَا يَعْرِفُنَّ عِيوبَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ؛ وَإِنَّمَا يَتَخَالَطُنَ بَيْنَهُنَّ، وَالْإِنْسَانُ يُطْلِقُ لِسَانَهُ فِيمَا يَرَاهُ وَيُبْصِرُهُ؛ فَغَلَبَ إِطْلَاقُ النِّسَاءِ بِالنِّسَاءِ، وَذَلِكَ غَالِبٌ مَا يَقَعُ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا يَتَكَلَّمْنَ فِي الْأَقْوَامِ وَالشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ بِالشُّخْرِيَّةِ كَحَالِ الرِّجَالِ.

وَمِنْ أَسْبَابِ تَخْصِيصِهِنَّ بِالذَّكْرِ: أَنَّ جَرَاءَ الْمَرَأَةِ: فِي لِسَانِهَا، وَجَرَاءَ الرَّجُلِ: فِي جَوَارِحِهِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ نَهْيُ النِّسَاءِ عَنْ إِطْلَاقِ اللَّسَانِ أَكْثَرَ مِنَ الرِّجَالِ، وَجَاءَ نَهْيُ الرِّجَالِ عَنْ إِطْلَاقِ الْجَوَارِحِ أَكْثَرَ مِنَ النِّسَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنَ الْمَفْسَّرِينَ: مَنْ جَعَلَ الْخِطَابَ الْأَوَّلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَسَخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ خَاصًّا بِالرِّجَالِ، وَلَفْظُ (الْقَوْمِ) مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَامَّةِ الَّتِي قَدْ يُرَادُّ بِهَا الْخُصُوصُ، وَقَدْ جَاءَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْقُرْآنِ لِلرِّجَالِ، وَجَاءَ اسْتِعْمَالُهَا لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى اخْتِلَاطِ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ فِي الْمَجَالِسِ الدَّائِمَةِ وَبَيَانِ تَحْرِيمِهِ فِي مَوَاضِعَ؛ مِنْهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تَقَالُوا

نَدُّعُ آبَائِنَا وَأَبْنَاؤُنَا وَنِسَاءَنَا وَنَفْسَاتُنَا وَأَنْفُسُكُمْ ﴿٦١﴾ [آل عمران: ٦١]، وقوله تعالى في قصة موسى في القصص: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [٢٣]، وفي قوله في طه والقصص: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه: ١٠]، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [القصص: ٢٩]، وقد بيّنت أحكام هذه المسألة في رسالة مستقلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، نهى الله عن التنازع واللمز المؤمن لأخيه، وجعل ذلك كَلْمَهِ لِنَفْسِهِ، وفي هذا تنبيه إلى الأخوة الإيمانية ووجوب أن يشعر المؤمن بأخيه، وأن وقوعه فيه كوقوع غيره فيه، وأنه يجب أن يحس بأخيه كإحساسه بنفسه، وكثيراً ما يذكر الله ذلك تذكيراً للمؤمن بما ينسأه من حق الأخوة الإيمانية؛ كما قال في تحريم الأموال: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؛ أي: فانت تأكل مال نفسك، وكقوله في القتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وقد روى ابن جرير؛ من حديث سعيد، عن قتادة؛ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]؛ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ﴿وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، ونفسك يا بن آدم أهل ملتك^(١).

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ يعني: لا يطعن بعضكم في بعض، والتنازع بالألقاب إطلاق أوصاف السوء وأسمائها، وأشدّها ما يكون في دينه؛ كقوله: يا كافر، أو يا يهودي، أو يا مجوسي، أو في عرضه؛ كقوله: يا زاني، أو يا عاهر، وغير ذلك، ويأتي بعد ذلك ألقاب التعيير والتنقص، وكلام الناس بعضهم في بعض له مواضع ومقاصد، ولمز الناس بعضهم بعضاً وتنازعهم على موضعين:

(١) «تفسير الطبري» (٢/٢٠٢).

الموضع الأول: في أشياء غير اختيارية؛ وذلك كالأوانيهم وقبائلهم وخلفيتهم؛ فهذا أعظم عند الله؛ لأنهم لم يختاروا هذا الشيء لأنفسهم؛ وإنما اختاره الله لهم.

الموضع الثاني: في أشياء اختيارية؛ كلباسهم وبيوتهم وعاداتهم؛ فهذا محرّم؛ لأنه لا يوجد أمة إلا ولها عادة ولباس يختلف عن الأخرى، وكل أمة ترى أنها أمثل من غيرها في اختيارها، ولو جاز لأمة تعبير أمة بما اختارته لنفسها، لوقع الناس بعضهم في بعض.

ولا يجوز السخرية من الناس حتى وإن وقعوا في حرام ومعصية؛ لأن السخرية شيء مذموم لذاته؛ لأنه يتضمن علو النفس وكبرها، ويجعلها تنسى فضل ربها عليها أن وفقها إلى الخير وحرّم غيرها، وربما تستدرج حتى تجحد ولو بسوء القصد، فتغتر ثم يكون عقابها عند الله أشد ممّن سخرت منه، والواجب فيمن وقع في حرام نصحه وأمره ونهيّه بما يصلحه، والشفقة عليه لا السخرية منه، فمن أضله قادر على أن يصلّ غيره.

والسب والتعير فيه التعزير؛ كل كلمة بحسب معناها وأثرها في المقصود بها، وبمقدار انتشارها بين الناس، ويقدر القاضي الضرر في ذلك، ويوقع التعزير بمقداره.

التعويض عن الضرر المعنوي:

وأما التعويض المادي عن الضرر المعنوي، فمحل خلاف عند الفقهاء؛ فقد اختلفوا فيمن وقع في عرضه أو أسيء إليه بأي نوع من الإساءة المعنوية: هل له أن يعوّض عنها بالمال أو لا؟ في المسألة خلاف على قولين:

ذَهَبَ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: إِلَى أَنَّهُ لَا يُعَوِّضُ عَنِ الْأَضْرَارِ الْمَعْنَوِيَّةِ؛
وَأَمَّا يُكْتَفَى بِتَعْزِيرِ الْمُخْطِئِ وَالْجَانِي، وَإِنْ اقْتَضَى رَفْعُ الضَّرْرِ الْمَعْنَوِيِّ
إِعْلَانُ عَقُوبَتِهِ حَتَّى يَرْتَفَعَ الضَّرْرُ الْمَعْنَوِيُّ عَنِ الْمَتَضَرِّ، فَيُعْلَنُ؛ زَجْرًا لَهُ،
وَرَفْعًا لِلخَرَجِ عَنِ الْمَتَضَرِّ.

وَأَمَّا مَنَعَ الْجَمْهُورُ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُجِيزُونَ التَّعْزِيرَ بِالْمَالِ،
وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِرْعُ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: بِجَوَازِ التَّعْوِضِ بِالْمَالِ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَنْسُوبٍ
لَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ.

وَالْأَضْرَارُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتِي تَلْحَقُ النَّاسَ الْيَوْمَ أَشَدُّ مِنَ الْأَضْرَارِ
الْمَعْنَوِيَّةِ السَّابِقَةِ؛ وَذَلِكَ لِاخْتِلَافِ الْوَسَائِلِ، وَسُرْعَةِ انْتِشَارِ الْأَقْوَالِ،
وَتَنَوُّعِ وَسَائِلِ ذَلِكَ مَرْتَبَةً وَمَكْتُوبَةً وَمَسْمُوعَةً، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ
فَسَادِ تِجَارَاتٍ، وَكَسَادِ سِلْعٍ، وَتَشَوُّهِ أَعْرَاضٍ، وَقَدْ ضَعُفَتِ الدِّيَانَةُ فِي
النَّاسِ فِي ارْتِكَابِ تِلْكَ الْوَسَائِلِ وَاتِّخَاذِهَا لِلْإِضْرَارِ بِالنَّاسِ، وَالشَّرِيعَةُ قَدْ
جَاءَتْ بِأَصْلٍ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)^(١)؛ فَمَا كَانَ مِنْ
الْأَضْرَارِ الَّتِي جَعَلَتِ الشَّرِيعَةُ فِيهَا الْعُقُوبَةَ تَعْزِيرًا، فَإِنَّ دَفْعَ الضَّرْرِ بِالْمَالِ
فِيهَا جَائِزٌ، وَقَدْ جَعَلَ الشَّارِعُ أَصْلَ الْعُقُوبَةِ بِالتَّعْزِيرِ مُوسَعًا بِمَا يَرَاهُ
الْحَاكِمُ مُصْلِحًا لِلْخَالِ وَزَاجِرًا، فَإِنْ كَانَ هَذَا جَائِزًا وَلَوْ بِإِتْلَافِ النَّفْسِ
بِالْقَتْلِ أَوْ الْقَطْعِ، فَإِنَّ أَخْذَ مَا دُونَ النَّفْسِ كَالْمَالِ مِنْ بَابِ أَوْلَى أَظْهَرَ
بِالْجَوَازِ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣١٣/١)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٣٤١)؛ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

نهى الله عن كثيرٍ من الظنِّ؛ لأجلِ السُّوءِ في بعضه، وهذا لا يكون إلا في أهلِ الدِّيانةِ والصِّدِّيقِ؛ وهذه الآية أصلٌ في الورعِ.

وإنما لم يَنْهَ الله عن جميعِ الظنِّ؛ حتى لا يشملِ الظنُّ الحسنَ؛ فالله يأمرُ بإحسانِ الظنِّ بالناسِ، وحَمَلَ أقوالهم وأفعالهم على محاملٍ حسنةٍ، وقد قال ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) (١).

وإنما نهى الله عن الظنِّ قبلَ نهيه عن التجسُّسِ في قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ لأنَّ التجسُّسَ يبدأ بظنِّ السُّوءِ، ثُمَّ يُرِيدُ الظَّانُّ أَنْ يُؤَكِّدَ ظَنَّهُ، فيتجسَّسُ على غيره، ويمثِلُ الآيةَ رَتَّبَ النَّبِيُّ ﷺ النهيَ، فنَهَى عن الظنِّ قبلَ نهيه عن التجسُّسِ؛ لأنَّ الظنَّ يَدْفَعُ إليه؛ قال: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا)؛ رواه البخاريُّ ومسلمٌ، عن أبي هريرة (٢).

والتجسُّسُ كبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ، ويكونُ التجسُّسُ بالسمعِ لمن يكرهُ سماعه وهو مستترٌ بقوله عن الناسِ، أو بالبصرِ كمن يَطْلُقُ بصره عمن يستترُ بعورته عن الناسِ، ويكونُ بتحسسِ البدنِ وهو بلمسِ ما يُخْفِيهِ الناسُ ويسترونه عن الناسِ؛ وكلُّ ذلك داخلٌ في التجسُّسِ المنهَى عنه.

ويدلُّ على كونِ التجسُّسِ كبيرةً: أَنَّ اللهَ جَعَلَ جزاءَ مَنْ يَطْلُعُ بعينه

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣)؛ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

على عَوْرَةِ بَيْتٍ أَنْ يُفْقَأَ عَيْنُهُ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَطْلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَخَذَفْتُهُ بِخَصَاةٍ، فَفَقَأَتْ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ) ^(١)، وَلَا تُهْدَرُ الْعَيْنُ إِلَّا بِفَعْلٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْكِبَائِرِ، ثُمَّ إِنَّ الْأَصْلَ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ صَرِيحًا فِي الْقُرْآنِ: أَنَّهُ كَبِيرَةٌ، مَا لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ قَرِينَةٌ تُصَرِّفُهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْصِيَتِكُمْ الْغِيبَةَ﴾، فِيهِ تَحْرِيمُ الْغِيبَةِ، وَهُوَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ؛ كَمَا جَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَتَذَرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟)، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: (إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبَتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتَهُ)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٢).

وَإِذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُ فِيهِ شَاهِدًا، فَلَيْسَتْ بِغِيبَةٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَبَاحًا وَقَدْ يَكُونُ حَرَامًا؛ بِحَسَبِ الدَّافِعِ لَهُ وَالْمَقْصُودِ مِنْهُ، وَبِحَسَبِ مِطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِلْحَقِّ.

وَالْغِيبَةُ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَتَكُونُ عَظَمَتُهَا بِمِقْدَارِ الْكَلَامِ الْمُتَلَفِّظِ بِهِ، وَبِحَسَبِ أَثَرِهَا عَلَى أَهْلِهَا وَعَلَى النَّاسِ، وَالْغِيبَةُ أَكْثَرُ مَا يُهْلِكُ النَّاسَ وَيُذْهِبُ حَسَنَاتِهِمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

الأحوال التي تجوز فيها الغيبة:

وَالْأَصْلُ فِي الْغِيبَةِ التَّحْرِيمُ، إِلَّا أَنَّهُا تَجُوزُ فِي حَالَاتٍ سِتٍّ:

الْحَالَةُ الْأُولَى: الْمَظْلُومُ، الَّذِي يَذْكُرُ ظَالِمَهُ بِالْقَدْرِ الَّذِي يَرْجُو بِهِ عَوْدَةَ حَقِّهِ، وَعِنْدَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْصُرُهُ أَوْ يُعِينُهُ بِرَأْيٍ، وَبِالْقَدْرِ الَّذِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٠٢)، وَمُسْلِمٌ (٢١٥٨).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٩)؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

لا يَخْرُجُ عن طلبِ الحقِّ إلى البَغْيِ والتشْفِي والتعْبِيرِ، وكثيرًا ما يكونُ المظلومُ ظالمًا؛ لكثرةِ بَغْيِهِ على ظالمِهِ بالقولِ، وتسَلُّطِهِ على عِرْضِهِ بالعَيْبِ؛ فيصيرُ ظالمًا وهو يَحْسَبُ نفسه مظلومًا.

وَمَنْ كان مظلومًا بأخذِ ماله أو انتفاصِ عِرْضِهِ، فيجوزُ له ذِكْرُ أخيه بما يَكْرَهُهُ؛ بشرطَينِ:

الأولُ: أن يكونَ ذِكْرُهُ له عندَ مَنْ يرجو أَنه ينصُرُهُ ويُنصِفُهُ؛ سواءً برأيٍ أو سلطانٍ، ولا يَتَكَلَّمُ بذلكَ عندَ مَنْ لا يرجو منه نصرًا ولا رأيًا.

الثاني: أن يكونَ بالقَدْرِ الذي يكفي فيه بيانُ الحالِ؛ فلا يَزِيدُ كلامًا في غيرِ مَظْلَمَتِهِ، ولا يُكْثِرُ مِنَ التَّظَلُّمِ بما يَخْرُجُ عن طلبِ النُّصْرَةِ إلى التشْفِي والبَغْيِ.

الحالةُ الثانيةُ: المُعَرِّفُ، الذي يَعْرِفُ بأحدٍ عندَ مَنْ لا يَعْرِفُهُ ويحتاجُ إلى معرفةِ حالِهِ؛ كالسَّوَالِ عن أحوالِ رِوَاةِ الحديثِ والأخبارِ؛ لِيَعْلَمَ صِدْقَهُمْ مِنْ كَذِبِهِمْ، وكذلكَ التعرِيفُ لتمييزِ الأشخاصِ بلا تَشْهٍ وهوى؛ كوصفِ أحدٍ بأنه أعمى أو أعرجُ أو قصيرٌ أو طويلٌ تعريفًا لا تنقُصًا، وأمَّا إن كان وصفُهُ في سياقٍ تنقُصِهِ لا في سياقٍ التعرِيفِ به، فذلكَ غِيبَةٌ محرَّمةٌ، وفي «السُّنَنِ»؛ أَنَّ عائِشَةَ قالت: قلتُ للنبيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا - تَعْنِي قَصِيرَةً - فقال لها رسولُ الله ﷺ: (لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً، لَوْ مَزَجْتَ بِمَاءِ الْبَحْرِ، لَمَزَجْتَهُ!)^(١).

الحالةُ الثالثةُ: المُحَذِّرُ مِنْ صاحبِ سُوءٍ؛ فلا حَرَجَ مِنْ ذِكْرِهِ بما هو فيه؛ بشرطِ أن يكونَ التحذيرُ منه عندَ مَنْ يُخْشَى عليه منه وَيَعْنِيهِ ذِكْرُهُ بما يَكْرَهُ؛ وذلكَ كالتحذيرِ مِنْ خِيَانَةِ تاجرٍ غيرِ أمينٍ عندَ مَنْ يُشارِكُهُ، وكالتحذيرِ مِنْ زوجٍ فاسقٍ يُظْهَرُ الصِّلاحُ لِيَتَزَوَّجَ وهو خلافُ ذلكِ.

(١) أخرجه أحمد (١٨٩/٦)، وأبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢).

ويجوزُ من بابِ التحذيرِ ذِكْرُهُ بِسُوءٍ؛ بشرطَينِ:

الأولُ: أن يكونَ عندَ مَنْ يَغْنِيهِ أمرُهُ، ولا يجوزُ ذِكْرُهُ عندَ مَنْ لا يَغْنِيهِ أمرُهُ؛ فلا يجوزُ له أن يذكرَ أحداً بما يَعْلَمُهُ عنه من فُحْشٍ وبُخْلِ عندَ مَنْ لا يُريدُ أن يَزُوجَهُ، ولا ذِكْرُهُ بما يَعْلَمُهُ عنه من ضعفِ أمانَةٍ عندَ مَنْ لا يُعَامِلُهُ بالمالِ، ولا يُعَامِلُهُ بعَهْدٍ ولا سِرٍّ.

الثاني: أن يكونَ ذِكْرُهُ بما هو فيه؛ لا يَزِيدُ عليه وصفاً لا يَغْنِيهِ؛ كالتاجرِ يَغْنِيهِ الأمانةُ، والزوجةِ يَغْنِيها الدِّيانَةُ والمخلوقُ.

الحالةُ الرابعةُ: غِيبةُ المُجاهِرِ بِفُسْقه؛ كَمَنْ يُعلنُ للناسِ شُرْبَهُ للخمرِ، أو المرأةُ التي تخرُجُ سافرةً أمامَ الناسِ؛ فذِكرُ هذا بما هو فيه من غيرِ تشفٍّ جائزٌ، ولا يجوزُ ذِكْرُهُ على وجهِ السُّخريَّةِ والتشفِّي؛ فذلك شماتةٌ مذمومةٌ.

وقد حكى ابنُ عبدِ البرِّ الإجماعَ على أن لا غِيبةَ للمُجاهِرِ بِفُسْقه.

وجوازُ غِيبةِ المُجاهِرِ بِفُسْقه لا يعني استباحةَ عِرْضِهِ فيما لم يُجاهِرْ به؛ وإنَّما كلامُ العلماءِ في المُجاهِرِ بِفُسْقه إذا اغْتِيبَ بما جاهرَ به، فأما ما لم يُجاهِرْ به، فلا تجوزُ غِيبتُهُ فيه؛ كالمسلمِ الذي يُجاهِرُ بمعصيةٍ كَشُرْبِ الخمرِ، لا يجوزُ غِيبتُهُ بما يكرههُ من غيرِ ذلك؛ وهذا بلا خلافٍ.

الحالةُ الخامسةُ: المستفتي في أمرٍ يحتاجُ معه إلى ذِكرٍ مَنْ يتعلَّقُ بفتاؤه؛ كالزوجةِ تَسْتَفْتِي، فتحتاجُ أن تذكرَ زوجها بالبخلِ أو الضربِ أو الهجرِ، وتُريدُ حُكْماً فيه؛ فلا حرجَ عليها في ذلك، ومن ذلك ما جاء في «الصحيحينِ»؛ من حديثِ عائشةَ؛ أَنَّ هَندَ بنتَ عُبَيْةٍ قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سَفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا

أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ؟ فَقَالَ: (خُلِّي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ)^(١).
 الحالة السادسة: طالب الإعانة على صاحب مُنْكَرٍ؛ فيجوزُ ذِكْرُ
 مُنْكَرِهِ ولو كان مستتراً به ما دام يُضِرُّ بصاحبه ويخشى عليه من دوايمه
 عليه؛ فيجوزُ غيبته حيثلُ بشرطين:

الأول: أن يذكره عند مَنْ يرجو منه عوناً لإصلاح مُنْكَرِهِ؛ كَمَنْ
 يَشْرَبُ الخمرَ أو يبيعُ محرماً؛ فلا حرجَ من الاستشارة أو الاستعانة بمن
 يملكُ العونَ والرأيَ فيه.

الثاني: أن يكونَ المُنْكَرُ مستحقاً لطلبِ النُصْحِ؛ كالمُنْكَرَاتِ
 الكبيرة، ولا يكونَ مِنَ اللَّئِمِ الذي لا يتعدى غالباً إلى غيره، ولا ما
 يستترُّ به صاحبه من عوارضِ المنكرات التي لا يُدِيمُ عليها صاحبها عادةً.

غيبَةُ الكافر:

ظاهرُ الآية: أنها في غيبَةِ المؤمن؛ وذلك أن الله خاطبَ المؤمنينَ
 في الآية، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثم قال تعالى بعد: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمُ
 بَعْضًا﴾، ومثله في الحديث؛ قال ﷺ: (ذَكَرْتُ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)؛ فالمؤمنُ
 من نفسِ المؤمنِ وبعضُ منه، بخلافِ الكافرِ، فليس منه، وعدمُ دخولِ
 الكافرِ في حُكْمِ الغيبَةِ في الآية لا يُجيزُ بُهتانَهُ ولا الافتراءَ والبُغيَ عليه؛
 فهذا لا خلافَ في تحريمه، وأمّا ذِكْرُهُ في حالِ غيابه بما هو فيه
 ويكرهه، فإن كان حربياً، فلا خلافَ في جوازِ ذلك، وأمّا إن كان ذمياً
 ومعاهدًا، فقد اختلفَ في ذِكْرِهِ بما يكرهه وهو فيه، على قولين:

الأول: قال بعضهم بتحريمِ غيبَةِ الذمّي؛ لأنَّ ذلك يُنفِره من دفعِ
 الجزية؛ وبهذا قال زكريّا الأنصاري والغزالي؛ واستدلَّ على ذلك بما

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

رواه ابن حبان مرفوعاً: (مَنْ سَمِعَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، دَخَلَ النَّارَ) ^(١)؛
يعني: سَمِعَهُ مَا يُؤْذِيهِ وَيَكْرَهُهُ، وهذا لا دليل فيه؛ لأنَّ الغيبة فيمن لم
يَسْمَعْهَا، وإنَّ سَمِعَهَا لم تكن غيبة؛ وإنما أذى، قد يحرم وقد يجوز؛
بحسب نوعه وقدره وأثره وكونه حقاً أو باطلاً.

الثاني: الجواز، وبه قال ابن المنذر؛ وذلك لأنَّ الكافر لا حرمة
له ولا دليل على تحريم غيبته، وقد استدللَّ على ذلك بعضهم بحديث
عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: (يَسُنُّ أَخُو
العَشِيرَةِ، وَيَسُنُّ ابْنُ الْعَشِيرَةِ)، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي وَجْهِهِ
وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ
رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ؟
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهْدَتْنِي فَحَاشَا؟! إِنَّ شَرَّ النَّاسِ
عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ) ^(٢).

وقد جعله بعض الأئمة أصلاً في جواز غيبة الفاجر والكافر.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
[الحجرات: ١٣].

في هذه الآية: فضل معرفة الأنساب، وبيان منفعتها، وأنها لتعارف
الناس فيما بينهم، وتراحمهم وتواصلهم وتناصرهم، وحينما ذكر الله
التعارف، جعل فوقه الإيمان، وأن معرفة الإيمان والتواصل به أعظم من

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٨٨٠)؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

التواصل بالأنساب والأحساب؛ فجعلَ مَرْتَبَةَ الأنسابِ دونَ مَرْتَبَةِ الإيمانِ.

وَيُرَوَّى عن النبي ﷺ؛ قال: (تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ؛ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، مَنَسَاءٌ فِي الْأَثَرِ)؛ رواه أحمدُ والترمذيُّ عن أبي هريرة^(١).

والأنسابُ بها يَتَعَارَفُ النَّاسُ ولا يَتَنَافَرُونَ؛ لَكِنْ لا ولاءَ ولا وَشِيَجَةً أَعْظَمُ مِنْ ولاءِ الإيمانِ وَوَشِيَجَتِهِ، ولا بَرَاءَ أَعْظَمُ مِنْ بَرَاءِ الكُفْرِ، والكافرُ بعيدٌ ولو قَرُبَ نَسَبًا، والمؤمنُ قريبٌ ولو ابتعدَ نَسَبًا.



(١) أخرجه أحمد (٣٧٤/٢)، والترمذي (١٩٧٩).



سُورَةُ قَدْ

سورة في سورة مكية؛ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة^(١)، وقد حكى الإجماع على ذلك جماعة كابن حزم وغيره^(٢)، وتضمنت التذكير بعظمة القرآن، والترهيب من الآخرة، والتخويف من عذاب الله، والتذكير بالموت وقصر الدنيا، والحساب والكتابة على العبد ما يعمل، وما بعد الموت من سؤال وعرض، وعذاب ونعيم.

❏ قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [لق: ٢٩].

أمر الله نبيه بالصبر على ما يسمعه من المشركين، والاستعانة على ذلك بشغل القلب عما يقولونه بتعظيم الله والحضور بين يديه في الصلاة، وكان هذا قبل فرض الصلوات الخمس، فأمر الله نبيه بالصلاة قبل طلوع الشمس، وهي صلاة الغداة صلاة الفجر، وقبل الغروب، وهي صلاة العشي، وهي العصر، وبقي هذا الحكم عاماً في تعظيم هاتين الصلاتين؛ لأنهما أول ما فرض من الصلوات المكتوبة من الصلوات الخمس، وفي «الصحيحين»؛ من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي: الْبَدْرَ - فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/١٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٤٢٤).

(٢) «الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص ٥٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/١٥٥).

رَبِّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(١).

وقد تقدّم الكلام على مواقيت الصلاة في القرآن عند قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْبُحَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرُوا لِلذَّكْرِ﴾ [هود: ١١٤].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْلٍ فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

أمر الله بالتسبيح في الليل، والمراد بالتسبيح هنا: الصلاة على الأظهر مع احتمال المعنيين؛ لأن الله ذكر التسبيح في الليل وأدبار السجود؛ ولكن حمّله على ذكر التسبيح لا يأتي على قول بعض السلف: إنّ المراد بقوله: ﴿وَادْبَرْ السُّجُودِ﴾ أنه صلاة السنّة البعدية بعد المكتوبة؛ كما يأتي.

وهذه الآية هي نظير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَائِي أَيْلٍ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

وأما تفاضل الذكر في السحر، فإن الاستغفار أفضل من التسبيح، وقد خصّبه الله من بين الذكر في قوله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْمَارِ مِمَّنْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقوله: ﴿وَالسُّغْفِرِ بِالْأَسْمَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَادْبَرْ السُّجُودِ﴾: حُمِلَتْ هذه الآية على معانٍ ثلاثة: المعنى الأول: أن المراد بالتسبيح أدبار السجود: هو سُنَّةُ الأذكار

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

بعد الصلاة، وخاصّة التسبيح؛ على ما ثبت في السنّة، وقد جاء عن ابن عباس؛ أنه يرى التسبيح في الآية بعد الصلوات كلّها؛ كما رواه البخاري في «صحيحه»؛ من حديث مجاهد؛ قال ابن عباس: أمره أن يُسَبِّح في أدبار الصلوات كلّها؛ يعني: قوله: ﴿وَأَذْكُرُ السُّجُودَ﴾^(١)، وقد ذكر النبي ﷺ التسبيح دبر الصلاة كما في قوله: (مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ...) الحديث^(٢).

وعلى هذا المعنى يُحْمَلُ التسبيح في الآية؛ في الليل: على معنى الصلاة، وفي أدبار السجود: على الذّكر، وعامة السلف على أن المراد بالتسبيح في الليل الصلاة، وليس هو ذكّر التسبيح: (سبحان الله).

وقد ثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات الغلاء، والنعيم المقيم، فقال: (وَمَا ذَاكَ؟)، قالوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيُصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فقال رسول الله ﷺ: (أَفَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئًا تَذْكُرُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟)، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: (تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتُحَمِّدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً)، قال أبو صالح: فَرَجَعَ فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)^(٣).

المعنى الثاني: أن المراد بالتسبيح أدبار السجود: هو صلاة السنّة بعد المغرب؛ وعلى هذا المعنى يُحْمَلُ التسبيح في الآية في الموضعين:

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ ﴿وَأَذْبَنَرُ السُّجُودِ﴾ على معنى الصلاة، وهنا خَصَّصَهُ عَامَّةُ السلفِ على الركعتين بعد المغرب، وبهذا حمَلَهُ الصحابةُ والتابعون؛ كعمرَ وعليَّ وابنِ عباسٍ والحسنِ وأبي هريرةَ وأبي أمامةَ ومجاهدٍ والشَّعْبِيِّ وعِكْرِمَةَ والنَّحْعِيِّ وغيرهم^(١).

وكان الأوزاعيُّ يقولُ: «الركعتانِ بعدَ المغربِ في كتابِ الله»، ويذكرُ قوله، ﴿وَأَذْبَنَرُ السُّجُودِ﴾^(٢).

إلا أنَّ ابنَ زيدٍ يرى أنَّها النوافلُ خلفَ الفرائضِ^(٣)، ولم يُوافقه على ذلك كبيرُ أحدٍ؛ حتى إنَّ ابنَ جريرٍ قال: «ولولا ما ذُكِرْتُ مِنْ إجماعها عليه، لرَأَيْتُ أَنَّ القولَ في ذلك ما قاله ابنُ زيدٍ»^(٤).

المعنى الثالث: أنَّ المرادَ بالتسبيحِ أدبارَ السجودِ: هو التسبيحُ في السجودِ، وقد ذَكَرَهُ الجصاصُ^(٥)؛ وهو قولٌ غريبٌ شاذٌّ.



(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٦٩/٢١ - ٤٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٤٦٢/١٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤١٠/٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٤٧٢/٢١).

(٣) السابق (٤٧٣/٢١).

(٤) السابق (٤٧٤/٢١).

(٥) «أحكام القرآن» للجصاص (٢٩٣/٥).



سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

سورة الذَّارِيَّاتِ سورة مكيَّة؛ كما قاله ابنُ عباسٍ وابنُ الزُّبَيْرِ^(١)، وقد حكى الإجماعُ على ذلك جماعة^(٢)، وتتضمَّنُ آياتُها ذِكْرَ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ وتدبيرِهِ وتسخيرِهِ لَهُ بِحِكْمَةٍ وَدَقَّةٍ، وَذِكْرَ أَوْصَافِ الْفَرِيقَيْنِ: أَهْلِ النَّعِيمِ وَأَهْلِ الْجَحِيمِ وأعمالِهِمَا، وَذِكْرًا لِبَعْضِ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ السَّابِقِينَ لِلإِعْتِبَارِ.

* * *

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. ﴾

ذَكَرَ اللَّهُ أَجَلَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهَا النِّفْقَةُ وَتَفَقُّدُهُمْ أَحْوَالَ الْمُعْزِزِينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ وَالَّذِينَ يَتَكَفَّفُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ، وَالْمَحْرُومِ هُوَ الَّذِي فِيهِ قُوَّةٌ، لَكِنَّهُ لَا يَجِدُ عَمَلًا يَتَكَسَّبُ مِنْهُ؛ لِكِسَادِ السُّوقِ، أَوْ لَجَذْبِ الْأَرْضِ، أَوْ بِسَبَبِ الْخَوْفِ كَأَزْمِنَةِ الْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَى الْمَحْرُومِ خَاصَّةً، وَأَهْلِ الزَّكَاةِ عَامَّةً، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَصْدَقْتُ لِلْفَقْرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ٦٠].

* * *

(١) «الدر المنثور» (١٣/٦٤٩).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/١٧١)، و«زاد المسير» (٤/١٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٤٦٨).

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾﴾
[الدَّارِيَات: ٢٥].

في هذا: بَذَلَ إِبْرَاهِيمَ التَّحِيَّةَ لِلْمَلَائِكَةِ وَرَدُّهُمْ عَلَيْهَا بِمِثْلِهَا، وَقَدْ
تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى بَذْلِ التَّحِيَّةِ وَأَحْكَامِهَا وَالْفَاطِظُهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النِّسَاء: ٨٦].

* * *

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْآلِهَةِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾﴾ فَقَرَأَهُ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟ [الدَّارِيَات: ٢٦ - ٢٧].

أَكْرَمَ إِبْرَاهِيمَ أَضْيَافَهُ الْمَلَائِكَةَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْهُمْ وَلَمْ يُشَاوِرْهُمْ، وَلَوْ
شَاوَرَهُمْ، لَمَّا أَدْنَوْا لَهُ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ، وَفِي هَذَا
اسْتِحْبَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مِنْ غَيْرِ سَوْأَلٍ وَاسْتِثْنَاءٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَمَا قَبْلَهَا
مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هُود: ٦٩]، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

* * *



سُورَةُ الطُّورِ

سورة الطور سورة مكِّيَّة؛ كما قاله ابنُ عَبَّاسٍ وابنُ الرَّبِيعِ^(١)، ومن العلماء مَنْ نَصَّ على الإجماع على ذلك^(٢)، وفي السورة ذِكْرٌ لآيَاتِ اللَّهِ وبديع مخلوقاته السماويَّة والأرضيَّة، وتذكيرٌ بما بعد الموت للمُعَانِدِينَ والمُؤْمِنِينَ، وذِكْرٌ لأقوالِ بعضِ المُعَانِدِينَ وأحوالهم الذين استكبروا عن قَبُولِ الوحي.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ بالصبرِ على حُكْمِ اللَّهِ وأمره بالامتثالِ له، وعلى ما يَسْمَعُهُ مِنَ الكفارِ والإعراضِ عنه، وقد بيَّنَ اللَّهُ مِنْتَهُ على عبده أَنَّهُ مُصْطَفِيهِ مِنَ بَيْنِ خَلْقِهِ، وحافظُهُ وحامِيهِ مِنْ فِتْنَةِ أَعْدَائِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ حُومِلَ معنى القيامِ في هذه الآية على معانٍ:

منها: أَنَّهُ حُومِلَ على ذِكْرِ اللَّهِ وتَسْبِيحِهِ عِنْدَ القيامِ إلى الصلاة؛ وهذا

(١) «الدر المثور» (١٣/٦٧٧).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/١٨٥)، و«زاد المسير» (٤/١٧٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٥١١).

قول الضحَّاك والربيع وعبد الرحمن بن زيد^(١).

ومنها: أنه حُمِلَ على القيام من النوم؛ وبهذا قال أبو الجوزاء^(٢) وابن جرير الطبري^(٣)، وعلى هذا فمعناه ذُكِرُ الاستيقاظ أو عند الانتباه والتَّعَارُ على الفراش في الليل، ومن ذلك ما في «المسنَد» والبخاري؛ من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عن رسول الله ﷺ؛ قال: (مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي - أَوْ قَالَ: ثُمَّ دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَنَوَضًا ثُمَّ صَلَّى، تَقَبَّلَتْ صَلَاتُهُ)^(٤).

ومنها: أنه حُمِلَ على القيام من المَجْلِسِ؛ وبهذا قال مجاهد وأبو الأحوص وعطاء بن أبي رباح^(٥)، وذلك في معنى كَفَّارَةِ المَجْلِسِ، فَتُخْتَمُ المَجَالِسُ بالذِّكْرِ والحمد، وقد تقدَّم الكلام على الذِّكْرِ في ختام المَجْلِسِ عند قوله تعالى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ فسرهُ ابن عباسٍ وقتادةُ بأنه الركعتان قبل صلاة الفجر^(٦)، وذلك بعد ذهاب الليل وإدبار نجومه، وإقبال الفجر وضوئه، وذُكِرُ الله لها في كتابه دليلٌ على فضلها، وهي أعظمُ السنن الرواتبِ فضلاً، وأشدُّها تعامداً من النبي ﷺ عليها؛ كما

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٣٨/٧)، (٤٣٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤٣٩/٧).

(٣) «تفسير الطبري» (٦٠٦/٢١).

(٤) أخرجه أحمد (٣١٣/٥)، والبخاري (١١٥٤).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤٣٩/٧).

(٦) «تفسير الطبري» (٦٠٨/٢١).

في «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ مِنْهُ تَعَاهُداً عَلَى رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ»^(١).

وقد جاء في «صحيح مسلم»، عنه ﷺ؛ أنه قال: (رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)^(٢).

ومنهم: مَنْ حَمَلَ المعنى في التسبيح إِدْبَارَ النجومِ على صلاةِ الفجرِ؛ وهو قولُ الضَّحَّاكِ وابنِ زَيْدٍ، وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣).

وقد تقدَّم الكلامُ على الاهْتِدَاءِ بِالنجومِ لِمَعْرِفَةِ الصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ، عِنْدَ قَوْلِهِ نَعَالِي: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْهَجَرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].



(١) أخرجه البخاري (١١٦٩)، ومسلم (٧٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٥)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) «تفسير الطبري» (٦٠٩/٢١).



سُورَةُ النَّجْمِ

سورة النّجم سورة مكّيّة؛ كما قاله ابنُ عبّاسٍ وغيره^(١)، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ على الإجماعِ على ذلك^(٢)، وقد وعظَ اللهُ وذكّر، ورهّب ورغب كفارَ قريشٍ، وبينَ اللهُ صدقَ نبيّه وإعجازَ كلامه، وكيف نزولُ وحيه، وفَضَلَ النبيَّ ﷺ وصدقَه، وذكرَ بعضَ ضلالٍ وكفرِ المشركينَ وعنادهم، وصفاتِ المؤمنينَ والمُعاندينَ، وحالِ الناسِ في الحسابِ، والعذابِ والنعيمِ، وآياتِ اللهِ وإعجازَه، وحالِ بعضِ الأممِ الغابرةِ المُعاندةِ، وما آلَ بهم عنادُهم إليه.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كَثِيرَ الْآثِمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

ذكر اللهُ من صفاتِ المؤمنينَ الصادقينَ: خشيةَ اللهِ، ومُفارقةَ السيئاتِ، واجتنابَ أسبابِ غضبه، وتعظيمه، ومُفارقةَ الذنوبِ صغيرها وكبيرها، تعظيمًا لله، من غيرِ تفريقٍ بينَ صغيرةٍ وكبيرةٍ؛ لأنَّهم ينظرونَ إلى عِظَمِ مَنْ يُعصى، ولا ينظرونَ إلى صِغَرِ المعاصي.

(١) «الدر المنثور» (٥/١٤).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/١٩٥)، و«زاد المسير» (٤/١٨٣).

وهو له تعالى، ﴿كَثِيرَ الْإِنِّ وَالْفَوْحِ إِلَّا اللَّهُ﴾، فيه: دليل على التفريق بين الذنوب كبيرها وصغيرها، وأنها على مراتب وليست على مرتبة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك وتفصيله وبيان موقف السلف منه، عند قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ لُكْفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَدْخُلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

بين الله أن الإنسان لا يثاب إلا على ما كسبته يمينه، وسعى إليه بنفسه؛ وذلك للحث على المبادرة وعدم الاعتماد على ثواب يأتيه من غير كسبه؛ فيندم على تفريطه وتسويفه، ويستثنى من هذه الآية ما خصه الدليل؛ ومنه قوله ﷺ: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) ^(١).

وقد تقدم الكلام على مسألة إهداء الثواب وأجور القرب للميت عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا زُرْ وَلَارِءُ وَزَرُ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَكِينُونَ﴾ [النجم: ٦١].

ذكر الله لهو كفار قريش عن سماع الوحي، وروي عن بعض السلف: أن معنى السُّمُودِ هنا هو الغناء، والمراد: الانشغال بالغناء عن كلام الله؛ رواه عكرمة عن ابن عباس قوله: ﴿سَكِينُونَ﴾ قال: هو الغناء؛

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١)؛ من حديث أبي هريرة ؓ.

كانوا إذا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَغَتَّوْا وَلَعِبُوا، وَهِيَ لُغَةُ أَهْلِ الْيَمَنِ؛ قَالَ الْبِمَانِيُّ:
اسْمُذُ؛ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١).

وَلَا يُوجَدُ قَوْمٌ يُعْرِضُونَ عَنِ اللَّهِ إِلَّا وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ
إِعْرَاضِهِمْ: فَشَوْ الْغِنَاءِ وَاللَّهْوِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْغِنَاءِ عِنْدَ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَتَخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَمْ يُعَذِّبْ اللَّهُ مُهِنًا﴾ [القمان: ٦].



(١) «تفسير الطبري» (٢٢/٩٧).



سُورَةُ الْقَمَرِ

سورة القمر سورة مكية، وحكي الإجماع على ذلك^(١)، وانشقاق القمر حدث لما كان النبي ﷺ بمكة، وفي هذه السورة ذُكرَ آيات الله ومعجزاته، ونهيب للمُعاندين، وتذكير لهم بعاقبتهم، وتحذير من كفرهم وشركهم، وذُكرَ لطريقة أمثالهم السابقين ونهائيتهم.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيَبَيِّنُهُمْ أَنَّ الْمِلَّةَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرِبَ مِنْ حَضَرٍ»﴾

[القمر: ٢٨].

بعث الله الناقة آية لثمود قوم صالح، وأمرهم ألا يمشوها بسوء، وجعل لها مؤردًا إلى الماء في يوم غير موردهم، وجعل الله لكل مشربته؛ حتى لا يتنازعوا فيسول لهم الشيطان عدوانًا عليها لمزاحمتها لهم وعدم كفايتهم؛ ليقطع عنهم العذر، وتقوم عليهم الحجة.

وفي هذه الآية: أن العدل في قسمة المال ومنافع الأرض موجب لدفع النزاع والخلاف بين الناس، ألا لمن ظهر بغية وعناؤه، وقد تقدم الكلام على ذلك في مواضع، عند قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَآءَ صَرَافَةَ الْأَنْحَارِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَكَذَّبُوا فَسَاءَ لَوْلَا أَنَّا لَمَسْنَا عَذْرَاءَ عَمْرَأَةٍ فَاتَّخَذَتْ مِنْهُمْ سَبْعَ آيَاتٍ فَظَاهَرُوا بِغْيَتِهِمْ فَذَرْنَاهُمْ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ﴾.

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢١١/٥)، و«زاد المسير» (١٩٦/٤)، و«تفسير القرطبي» (٧١/٢٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤٤٥/١).

عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ﴿[الأعراف: ١٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ
مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]،
وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمُذَرُّهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ
وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٧٣].





سُورَةُ الرَّحْمَنِ

سورة الرحمن سورة مكّية؛ كما قاله ابن عباس وعائشة وابن الزبير وجماعة، وهو قول الأكثر^(١)، وسورة الرحمن نزلت في تعظيم الله وذكر آياته ومخلوقاته، وبيان عظم شرائعه من الأمر بالعدل والتحذير من الظلم والبغي، وتذكير الإنسان بأصله وضعفه، وعموم ربوبية الله وحقه في العبادة، وبيان الفرق بين الحياة الدنيا الفانية والآخرة الباقية، وما في الجنة من نعيم، وما في النار من عذاب أليم.



❏ قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۚ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾
[الرحمن: ٧ - ٩].

أمر الله بالعدل، وحذر من الظلم ولو كان قليلاً، وقد وضع الله الميزان عندما خلق السماء؛ لبيان أنه بالعدل قامت السموات والأرض، فليس العدل ولا الميزان جديداً؛ بل مأمور به فطرة قبل نزول الشرائع السماوية.

وقد تقدّم بيان ما وقع فيه قوم شعيب من أكل أموال الناس بالباطل عند قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١١١/٢٠)، و«الدر المنثور» (١٤/١٠٠).

وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿٨٦﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٨٦]، ونقدم الكلام على حُرْمَةِ مَالِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقوله تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحُكْمٍ عَنْ بَاطِلٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمِنْ قَصَرْتُ الْأَلْفُوفَ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسُ قَبَلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].﴾

وَصَفَّ اللَّهُ نِسَاءَ الْجَنَّةِ وَخُورَهُنَّ أَنَّهُنَّ يَقْصُرْنَ نَظَرَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، مَعَ أَنَّ دَاعِيَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ فِي نَفُوسِهِنَّ وَنَفُوسِ غَيْرِهِنَّ لَا وَجُودَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ، وَفِي ذَلِكَ مَزِيدُ إِكْرَامٍ لِأَزْوَاجِهِنَّ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ النِّعَمِ الْمَعْنَوِيِّ.

* * *

وقوله تَعَالَى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسُ قَبَلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ الطَّنْطُ: هُوَ الْجِمَاعُ، وَنَفْيُ الشَّيْءِ دَلِيلٌ عَلَى إِمْكَانِ وَقُوعِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْمُحَالِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ يُجَامِعُونَ، وَمِنْ هَذَا أَخَذَ بَعْضُهُمْ إِمْكَانَ زَوَاجِ الْإِنْسِ مِنَ الْجِنِّ، وَالْعَكْسِ، وَلَيْسَ فِي الْوَحْيِ شَيْءٌ صَرِيحٌ يَثْبُتُ بِهِ، وَقَدْ صَنَّفَ بَعْضُ الْحَنْفِيَّةِ الدَّمَشَقِيِّينَ الْمَتَأَخِّرِينَ كِتَابًا فِي ذَلِكَ، وَقَدْ جَوَّزَ وَقُوعَ ذَلِكَ وَحْدُوتهُ غَيْرُ وَاحِدٍ كَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَكُلُّ مَا يَحْكِيهِ النَّاسُ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَمِمَّا لَا طَرِيقَ لِلتَّشْبِثِ مِنْهُ.

وَأَمَّا دُخُولُ الْجَانِّ لِلْإِنْسَانِ وَتَخَبُّطُهُ بِهِ، فَبِهَذَا ثَابِتٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَمَّا الاستدلالُ على الزواجِ بِمَثَلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فَلَيْسَ دَلِيلًا، وَلَيْسَتِ الْآيَةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ؛ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَسْوِيلُ الْحَرَامِ لَهُمْ، وَتَحْبِيبُهُ إِلَيْهِمْ؛ كَالرَّيَا وَالْمَيْسِرِ وَالتَّطْفِيفِ وَالزُّنَى؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَعَذَابُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].





سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

سورة الواقعة مكية^(١)، وهي تذكير بالآخرة وعلاماتها عند قيامها، والبعث والنشور، وما بعد ذلك من أحوال وأحوال ومنازل للمؤمنين والكافرين.

❏ قال الله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩].

في هذه الآية: تعظيم للقرآن الكريم؛ لأنه كلام الله، وهو أعظم الكلام وأشرفه، وقد قالت كفار قريش: إن الشياطين تنزل به على محمد ﷺ، فبين الله أن الذي نزل به الملائكة وليست الشياطين الذين لا يتمكنون من السمع فضلاً عن المس؛ فقال في سورة الشعراء: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ❏ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ❏ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعُزُولُونَ ❏ [٢١٠ - ٢١٢].

ولا يختلف المفسرون من الصحابة والتابعين ممن صَحَّ عنه النقل أن المراد بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ الكتاب الذي في السماء، وهذا جاء عن ابن عباس وأبي العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وجابر بن زيد وقتادة^(٢)، ومنهم: من أدخل في حكمه غيره، فجعل حكم القرآن

(١) تفسير القرطبي (١٧٥/٢٠).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٣٦٢/٢٢ - ٣٦٦).

المنزَّل بين أيدينا بأخذ الحُكْم الذي تَضَمَّنَهُ الخبرُ في قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (١٢) في مُحْصٍ تَكَرَّرَ (١٣) تَرَفُّعًا مُطَهَّرًا (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كَرَامٍ بَرَرَةٍ (عيس: ١٢ - ١٦).

الطهارة عند القراءة ومس المصحف:

لا يختلف العلماء في مشروعية التطهير عند ذكر الله، وأعظم الذكر كلام الله، ومثل ذكر الله مس كتابه، وكذلك فإن قراءة القرآن بلا طهارة من الحديث الأصغر ولا مس للمصحف جائزة عند السلف، ولا يكادون يختلفون إلا في كراهيتها، وقد روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس وابن عمر؛ قال: كانا يقرأان أجزاءهما من القرآن بعدما يخرججان من الخلا قبل أن يتوضأاً^(١).

وصح مثله عن قتادة، عن سعيد بن المسيب؛ أن أبا هريرة كان يخرج من المخرج ثم يحذر السورة^(٢).

وبمثله كان يرخض ابن مسعود^(٣) وأصحابه كعَلَقَمَةَ والأسود^(٤) وعبد الرحمن بن يزيد^(٥)، وكذلك جاء عن سعيد بن جبير^(٦).

أخرجه ابن أبي شيبة عنهم.

وأما صاحب الحديث الأكبر، فأكثرهم على أنه لا يقرأ القرآن؛

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١٠٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١٠٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١١٦).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١٠١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١٠٠).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١١١).

وهو قولُ عمرَ وعليٍّ وابنِ مسعودٍ، وصَحَّحَ عن ابنِ عَبَّاسٍ جوازُ ذلك، ورَخَّصَ عِكْرِمَةُ له بقراءة الآية والآيتين.

وأمرُ الحائضِ أَخْفَ وأيسرُ مِنَ الجُنْبِ؛ لأنَّهُ يطوُّ عليها حيضُها، وليسَ بيدها رفعُها، بخلافِ الجُنْبِ؛ فَإِنَّهُ يَمْلِكُ رفعَ جنابته؛ فَشُدِّدَ في أمره، فيجوزُ للحائضِ أَنْ تَقْرَأَ القرآنَ؛ حتى لا تنساه، وتذكَّرَ وَرَدَها، وتُحَصِّنَ نَفْسَها في ذِكْرِها ليومِها وليلتِها.

ويختلفُ العلماءُ في وجوبِ التطهُّرِ عندَ مَنْ المصحفُ؛ سواءً قصَدَ القراءةَ أو غيرَ القراءة؛ وذلك لاختلافهم في المعنى الذي تحتِمُهُ هذه الآية: هل يتعدَّى إلى مَنْ المصحفِ الذي بأيدي الناسِ، أو هو خبرٌ عمَّا في اللُّوحِ لا يقتضي حُكْمًا؟

القولُ الأولُ: أَنَّ الآيةَ تَحْتَمِلُ معنى المصحفِ؛ وعليه نصُّ الشافعيِّ، فقال: وهذا المعنى تحتِمُهُ الآيةُ^(١).

وهو الذي عليه جمهورُ العلماءِ وعامَّتُهُمْ؛ أَنَّهُ يَجِبُ التطهُّرُ عندَ مَنْ المصحفِ، وألَّا يَمَسَّ القرآنَ إلَّا طاهرًا، وهذا مرويٌّ عن الأئمةِ الأربعةِ، وقد شَدَّدَ في ذلك مالكٌ، وقال: «إِنَّهُ لَا يُمْسُّ وَلَوْ بِحَائِلٍ كَعِلَاقَةٍ وَوِسَادَةٍ وَقُمَاشٍ»^(٢).

وعلى هذا الصحابةُ وفقهاءُ الحجازِ كالفقهاءِ السَّبعةِ وغيرهم:

فقد جاء عن سَلْمَانَ الفارسيِّ أَنَّهُ قَضَى حاجتَهُ، فقبلَ له: لو تَوَضَّأْتَ؛ لَعَلَّنَا نَسْأَلُكَ عَنْ آيٍ مِنَ الْقُرْآنِ؟ فقال: سَلُونِي؛ فَإِنِّي لَا أَمْسُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، قال: فَسألناه، فقرأَ علينا قبلَ أَنْ يتوضَّأَ؛

(١) أخرجه البيهقي في «معركة السنن والآثار» (١/١٨٥).

(٢) «موطأ مالك» (١/١٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/٢٢٤).

أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْدارقطني والبيهقي؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْهُ^(١)؛ وَهُوَ صَحِيحٌ.

وَرَوَى مَالِكٌ فِي «المَوْطَأِ»؛ مِنْ حَدِيثِ مُضْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ أُمْسِكُ الْمُضْجَفَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَأَحْتَكِكْتُ، فَقَالَ سَعْدٌ: لَعَلَّكَ مَسِسْتَ ذَكَرَكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: قُمْ، فَتَوَضَّأْ، فَقُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ»^(٢).
وَهُوَ صَحِيحٌ.

وَرُوِيَ فِي قِصَةِ إِسْلَامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ قَالَ حِينَ دَخَلَ عَلَى أُخْتِهِ: فَإِذَا بِصَحِيفَةٍ وَسَطَ الْبَابِ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الصَّحِيفَةُ هَاهُنَا؟ فَقَالَتْ لِي: دَعْنَا عَنْكَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَلَا تَتَطَهَّرُ؛ وَهَذَا لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ».

أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ وَالْبَزَّازُ، ثُمَّ قَالَ الْبَزَّازُ: «وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُ رَوَاهُ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عُمَرَ، إِلَّا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحُثَيْنِيُّ، وَلَا نَعْلَمُ يُرَوَّى فِي قِصَةِ إِسْلَامِ عُمَرَ إِسْنَادٌ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا الْإِسْنَادِ»^(٣).

قُلْتُ: وَإِسْحَاقُ وَأُسَامَةُ ضَعِيفَانِ فِي الْحَدِيثِ.

وَقَدْ رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ؛ مِنْ حَدِيثِ الْقَاسِمِ بْنِ عَثْمَانَ، عَنْ أَنَسٍ؛ وَالْقَاسِمُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١٠٠)، وَالْدارقطني فِي «سُنَنِهِ» (١٢٤/١)، وَالبيهقي فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٩٠/١).

(٢) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «المَوْطَأِ» (٤٢/١).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ فِي «مُسْنَدِهِ» (البحر الزخار) (٢٧٩)، وَالْحَاكِمُ فِي «المُسْتَدْرَكِ» (٥٩/٤).

(٤) أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (١٢٣/١)، وَالْحَاكِمُ فِي «المُسْتَدْرَكِ» (٥٩/٤)، وَالبيهقي فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٨٨/١).

ورواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في «تاريخه»، وعنه أبو نعيم؛ من حديث إسحاق بن عبد الله، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، عن ابن عباس به؛ وإسحاق متروك الحديث^(١).

وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عمن أدرك من فقهاء أهل المدينة الذين يُنتهى إلى قولهم؛ أنهم كانوا يقولون: «لا يمس القرآن إلّا طاهر»^(٢).

القول الثاني: قالوا بعدم احتمال الآية لمعنى مس المصحف، وجوّزوا مسّه بلا طهارة؛ ورُوي هذا عن أبي حنيفة وداود الظاهري، وهو مروي عن الحَكَم وحماد.

القول الثالث: جواز مس حواشي المصحف لا مس حروفه؛ وهو قول لأبي حنيفة.

والأظهر: أن القرآن لا يمس إلّا عن طهارة؛ تعظيمًا له، وإن لم تحتمل الآية هذا المعنى، فيحتملُه عمل الصحابة والتابعين؛ فبه يقول سلمان الفارسي وسعد، ولا يخالف لهما من الصحابة، وإن لم يقطع بإثم من مسّه بغير طهارة؛ لعدم وجود النص الصريح في ذلك، وإنما يكتفى بالأمر بالطهارة؛ تعظيمًا للقرآن وتطهيرًا له، والسلف كانوا يأْمُرُونَ بأشياء ولا ينصّون على نوع الأمر وشِدَّتِه؛ لأنهم يُريدون الامتثال، حتى توسّع الفقهاء في النظر، فأخذوا يُفصلون في مُجَمِّلِ ألفاظهم وأوامرهم وما ينهون عنه؛ حتى يُنسبَ للواحد منهم أكثر من رأي والقول عنه واحد، وسننّه إليه واحد، وحكاية الأمر بشيء على سبيل الإجمال لا يُنافي الرُّفقَ وتحريرَ الفقه، وقد يكون جملة تعظيمًا للشريعة، وكثيرًا ما

(١) «حلية الأولياء» (٤٠/١)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص ٢٤١).

(٢) أخرجه البيهقي في «معركة السنن والآثار» (١/١٨٥).

يَكُونُ تَفْصِيلُ الْأَوَامِرِ تَهْوِينًا فِي نَفُوسِ النَّاسِ فَيَتَرَكُونَهَا زَهْدًا فِيهَا؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ فِعْلَ الْوَاجِبِ وَتَرْكَ الْمَحْرَمِ وَالِاقْتِصَارَ عَلَيْهِ.

وَإِطْلَاقُ الْأَمْرِ وَالنَهْيِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ لِمَرْتَبَةِ الْأُمُورِ بِهِ وَالْمَنْهْيُ عَنْهُ: مِنَ الْأَسَالِبِ النَّبَوِيَّةِ وَالصَّحَابِيَّةِ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَقَرًّا عِنْدَ عَامَّةِ الصَّحَابَةِ مَرْتَبَةُ الْمَقْصُودِ مِنَ السِّيَاقِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مُسْتَقَرًّا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ التَّابِعِينَ وَلَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَتْبَاعِهِمْ، وَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَتَكَلَّفُونَ التَّمْيِيزَ فِي ذَلِكَ.

وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَّةِ الْأَمْرُ بِالتَّطَهُّرِ عِنْدَ مَسِّ الْمُضْغَفِ؛ كَمَا رَوَى مَالِكٌ فِي «مَوْطِئِهِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ؛ أَنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ: (أَنْ لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ)^(١).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمَرَاسِيلِ»؛ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ؛ قَالَ: قَرَأْتُ فِي صَحِيفَةٍ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (وَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ)^(٢).

وَكِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ ثَابِتٌ فِي أَصْلِهِ؛ وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي ثُبُوتِ بَعْضِ نَصُوصِهِ وَحُرُوفِهِ، وَصَحَّحَ أَصْلَ الْكِتَابِ ابْنُ مَعِينٍ^(٣) وَأَحْمَدُ^(٤) وَالشَّافِعِيُّ^(٥) وَيَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ^(٦).

وَقَدْ رَوَى الدَّارِقُطَنِيُّ؛ مِنْ حَدِيثِ سَالِمٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو مَرْفُوعًا: (لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ)^(٧).

(١) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (١/١٩٩). (٢) «الْمَرَاسِيلُ» لِأَبِي دَاوُدَ (٩٤).

(٣) «تَارِيخُ ابْنِ مَعِينٍ»، رِوَايَةُ الدُّورِيِّ (٦٤٧).

(٤) «مَسَائِلُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ»، رِوَايَةُ الْبَغَوِيِّ (٣٨ وَ ٧٣)، وَ«الْكَامِلُ فِي ضَعْفَاءِ الرِّجَالِ» لِابْنِ عَدِي (٣/٢٧٥).

(٥) «الرِّسَالَةُ» (١/٤٢٢ - ٤٢٣). (٦) «الْمَعْرِفَةُ وَالتَّارِيخُ» (٢/٢١٦).

(٧) أَخْرَجَهُ الدَّارِقُطَنِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (١/١٢١).

وقد احتج أحمدٌ بحديث ابنِ عمرَ هذا؛ كما قاله الأثرم^(١).
وأما ما رواه الشيخان، عن ابنِ عمرَ: «أنَّ رسولَ الله ﷺ نهى أن يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ»^(٢)، فذلك مخافة أن يناله العدو.
وقد كان بعضُ السلفِ يرخِّصُ في تحويلِ المصحفِ من موضعٍ إلى موضعٍ بلا طهارة، ولم يجعلوه كالْمَسِّ الطويلِ؛ كما صحَّ عن ابنِ سيرينَ فيما رواه هشامٌ عنه؛ أنه لم يكن يرى بأساً أن يحوّل الرجلُ المصحفَ وهو غيرُ طاهرٍ^(٣).

وجوزَ مثلَ هذا بعضُ الفقهاءِ مِنَ الشافعيةِ.
وكتبُ التفسيرِ ليستَ قرآناً؛ فيجوزُ مسُّها بلا طهارة، ومن بابِ أولى كتبُ الفقه، والمراسلاتُ التي تتضمنُ قرآناً؛ فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ؛ أن في كتابِ رسولِ الله ﷺ إلى هرقلَ آيةٌ مِنَ القرآنِ الكريمِ، وهي قوله تعالى: ﴿يَتَأَمَّلَ الْكِتَابَ نَعَالُوا إِلَيْنَا كُلُّ مَكْرٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْآلَافُ نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]^(٤).



(١) ينظر: «التلخيص الحبير» (١/١٣١)، و«نيل الأوطار» (١/٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٤٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)؛ من حديث ابن عباس ؓ.



سُورَةُ الْحَدِيدِ

سورة الحديد مدنيّة، وقد قال ذلك ابنُ عباسٍ وابنُ الزُّبَيْرِ^(١)، وقد حكى الإجماعُ على ذلك غيرُ واحدٍ^(٢)، وقيل بمكيّة بعضها^(٣). وتضمّنت السُّورة ذكْرَ آيَاتِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَصُنْعِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ، وَنَعَمِهِ وَأَفْضَالِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَالتَّحْذِيرَ مِنَ الْتَفَاقٍ وَأَوْصَافِ أَهْلِهِ، وَحَثًّا عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَحَثًّا عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَذَكَرَ بَعْضَ أَحْوَالِ السَّابِقِينَ لِلْإِعْتِبَارِ.

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾﴾ [الحديد: ٧].

أمر الله بالصَّدَقَةِ وَالْبَذْلِ؛ شُكْرًا لِمَا وَهَبَ اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْ نِعَمِ الْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا، وَذَكَرُ اللَّهُ لِلْإِسْتِخْلَافِ فِي الْآيَةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُثَبِّتُ النِّعَمَ، وَتُسَقَّرُ بِهِ الْأُمَمُ.

وقد تقدّم الكلامُ على فرضِ الزكاةِ فيما يخرجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الْمَعَادِنِ وَالنِّقْطِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وَزَكَاةِ عُرُوضِ التِّجَارَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ

(١) «الدر المنثور» (٢٥٥/١٤). (٢) «تفسير القرطبي» (٢٣٥/٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢٥٦/٥)، و«زاد المسير» (٢٣٢/٤).

عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[التوبة: ١٠٣]، وزكاة الشمار
والحبوب عند قوله تعالى: ﴿وَعَانُوا حَقَّقَهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[الحديد: ٢٥].

أمر الله تعالى بالعدل بين الناس، وبين أنه أنزل الوحي لإصلاح
الدين وإصلاح الدنيا؛ وذلك لأن الدنيا لا تقوم إلا بالعدل فيها، وهكذا
الدول والأمم لا تستقر إلا بالعدل.

وذكر الله للحديد في سياق المنة فيه، بعد ذكره للعدل والأمر به:
إشارة إلى أن العدل لا يقوم إلا بقوة وأطر للنفس عليه؛ حتى تخبخ
شهواتها وشبهاتها عن الطمع والشح؛ فلا تسرق ولا تغصب ولا تستأثر؛
ولهذا شرع الله الحدود والعقوبات في ذلك.

ويُقَامُ العدل بالحديد في موضعين: في الجهاد، وفي الحدود
والعقوبات.

* * *



سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

سورة المُجادلة مدنية^(١)، وقد ثبت في «الصحيح»؛ من حديث عائشة؛ قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المُجادلة إلى النبي ﷺ تُكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، إلى آخر الآية [المجادلة: ١]»^(٢)، وتضمنت السورة أحكام الظهار وبعض الآداب المتعلقة بالحديث والمجالس، وأحكام الآداب من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾﴾^(١) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ فَوْعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٢ - ٤].

في هذه الآية: تحريم لمظاهرة الرجل من امرأته، وهو أن يُشبهها بظهر أمه التي تحرم عليه تحريمًا معظمًا لا يُحِلُّه شيء؛ فيقول: (أنت

(١) «تفسير القرطبي» (٢٨٠/٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤٦/٦)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، والبخاري معلقًا قبل حديث (٧٣٨٦).

عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي)؛ وهذا لأنه تحریمٌ لِمَا أَحَلَّ اللهُ، وإلحاقٌ له بما حرَّمَهُ اللهُ تحریمًا مغلَّظًا أبدیًا، وفيه تَعَدُّ على حدودِ اللهِ وشریعته؛ ولذا قال: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ لَیْقُولُوا مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾، وَبَیِّنَ اللهُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا یَجْعَلُ مِنْ زَوْجَانِهِمْ أُمَّهَاتِهِمْ: ﴿مَّا مَنَ أُمَّهَاتُهُمْ إِنِ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا آلِی وَلَدَتْهُمُ﴾، وَلَا یَخْتَلِفُ الْمُسْلِمُونَ فِي حُرْمَةِ الظَّهَارِ لِأَجْلِ ذَلِكَ؛ فَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ مُنْكَرًا وَزُورًا، وَهُوَ شِدَّةُ الْكَذِبِ.

وَكَانَ الْجَاهِلِيُّونَ یُفَارِقُونَ نِسَاءَهُمْ بِعِبَارَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا الظَّهَارُ، فَيَجْعَلُونَهَا فِرَاقًا مغلَّظًا، فَنَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَثَبَتِ الْمُفَارَقَةَ بِالطَّلَاقِ بِحُدُودِهِ.

الْفَاظُ الظَّهَارِ الْمُتَّفَقُ وَالْمُخْتَلَفُ فِيهَا:

لَا یَخْتَلِفُ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ عَلَى أَنَّ قَوْلَ الزَّوْجِ لَزَوْجِهِ: (أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي)؛ أَنَّهُ ظَهَارٌ، وَلَكِنَّهُمْ یَخْتَلِفُونَ فِیْمَنْ ذَكَرَ شَیْئًا غَیْرَ ظْهَرِ أُمِّهِ كَبَطْنِهَا وَفَرْجِهَا، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجَمَاهِيرُ: أَنَّهُ ظَهَارٌ؛ وَهُوَ قَوْلُ الْأَثَمَةِ الْأَرْبَعَةِ، وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلٌ: أَنَّهُ لَیْسَ بِظَهَارٍ، وَجَاءَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ یَكُونُ ظَهَارًا فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أُمِّهِ یَحْرُمُ نَظْرُهُ إِلَيْهِ، وَمَرَادُهُ أَنَّهُ إِنْ قَالَ لَزَوْجَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَبَدِ أُمِّي وَوَجْهِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَحْرُمُ؛ لِأَنَّهُ لَا یَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّظْرُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أُمِّهِ.

وَالْأَظْهَرُ: أَنَّ ذَكَرَ الْعَضْوِ لَیْسَ مَقْصُودًا لِذَاتِهِ؛ وَإِنَّمَا إِنْ لَمْ یَذْكُرْ عَضْوًا مِنْ أُمِّهِ وَحَرَمَهَا كَأُمِّهِ، فَهُوَ ظَهَارٌ، وَلَوْ ذَكَرَ لِبَاسِ أُمِّهِ الَّذِي لَا یُظْهَرُ إِلَّا لَزَوْجِهَا، وَقَصَدَ بِهِ حُرْمَةَ النِّكَاحِ، فَهُوَ ظَهَارٌ، وَالشَّرِيعَةُ جَاءَتْ عَلَى ذِكْرِ قَوْلِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَالْغَايَةُ مِنَ التَّحْرِیمِ: عَدَمُ مُشَابَهَةِ الزَّوْجَةِ لِحُرْمَةِ الْأُمِّ، وَالْأُمُّ أَغْلَظُ الْمَحْرَمَاتِ عَلَى الرَّجُلِ؛ فَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَقَصَدَ بِهِ تَحْرِیمَ الزَّوْجَةِ كَتَحْرِیمِ الْأُمِّ، فَهُوَ ظَهَارٌ.

واختَلَفُوا فيما إذا جَعَلَ زَوْجَتَهُ كَأَخْتِهِ، فقال: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُخْتِي
أَوْ عَمَّتِي أَوْ خَالَتِي، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَحَارِمِ.

والذي عليه جمهور العلماء: أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ ظَهَارٌ؛ وَهُوَ الصَّوَابُ؛
لأنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا حَرَّمَ الظَّهَارَ الْمَلْفُوظَ فِي زَمَانِهِمْ لِعِلَّتِهِ، لَا لِمَجْرَدِ
الْفَاضِلِ؛ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ ظَهْرِ الْأُمِّ وَبَطْنِهَا؛ بَلْ لَوْ قَالَ: فَرَجُّهَا، لَكَانَ أَغْلَظَ
مِنْ بَطْنِهَا؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ فِيهِ أَظْهَرُ وَأَصْرَحُ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا فَالْعِلَّةُ فِي جَمِيعِ
الْمَحَارِمِ سَوَاءٌ كَانَتْ ابْنَتُهُ أَوْ أُخْتُهُ أَوْ عَمَّتُهُ أَوْ خَالَتُهُ.

وَلَا يَصِحُّ مُظَاهَرَةُ الْمَرْأَةِ لَزَوْجِهَا؛ كَأَن تَقُولَ: (أَنْتِ عَلَيَّ كَأُخِي
وَأُخْتِي)؛ بِاتِّفَاقِ الْأَثَمَةِ الْأَرْبَعَةِ؛ لِأَنَّ الظَّهَارَ يُرَادُّ مِنْهُ الْمُفَارَقَةُ وَالطَّلَاقُ،
وَالْعِصْمَةُ بِيَدِ الرَّجُلِ لَا بِيَدِ الْمَرْأَةِ.

وَلَيْسَ فِي مُظَاهَرَتِهَا كِفَارَةٌ ظَهَارٍ وَلَا يَمِينٍ؛ عَلَى الصَّحِيحِ.
وَمِنَ الْعُلَمَاءِ: مَنْ جَعَلَ ظَهَارَهَا مِنْ زَوْجِهَا يَمِينًا عَلَيْهَا يَجِبُ عَلَيْهَا
فِيهَا الْكِفَارَةُ، وَقَدْ أَوْجَبَ الْكِفَارَةَ عَلَيْهَا كِفَارَةُ يَمِينٍ: الْأَوْزَاعِيُّ^(١).

كِفَارَةُ الظَّهَارِ:

هُوَ تَعَالَى، ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: فِي الْعَوْدِ
الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ خِلَافَ عِنْدَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ، عَلَى أَقْوَالٍ:
مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعَوْدِ هُوَ الْعَوْدَةُ إِلَى الْمُظَاهَرَةِ بَعْدَ
تَحْرِيمِهَا، فَحَمَلُوا الْعَوْدَ عَلَى الظَّهَارِ؛ وَهَذَا رُويَ عَنْ مُجَاهِدٍ^(٢)
وَطَاوُسٍ^(٣)، وَرَوَايَةٌ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، وَلَا زُمْ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ كِفَارَةَ الظَّهَارِ
تَجِبُ بِمَجْرَدِ الْمُظَاهَرَةِ وَلَوْ رَغِبَ الزَّوْجُ فِي مُفَارَقَةِ زَوْجَتِهِ بَلَا رَجْعَةٍ.

(١) ينظر: «الاستذكار» (١٧/١٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/٢٨٩).

(٢) «تفسير البغوي» (٨/٥١). (٣) «الدر المنثور» (١٤/٣٠٩).

ومنهم مَنْ قال: إِنَّ الْعَوْدَ هُوَ تَكَرُّرُ الظَّهَارِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، فَجَعَلُوا التَّكَرَّارَ عَوْدًا؛ وَهَذَا قَوْلُ دَاوُدَ^(١)؛ وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ التَّكَرَّارَ إِنَّمَا هُوَ تَأْكِيدٌ لَا عَوْدٌ.

ومنهم مَنْ قال: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعَوْدِ هُوَ الْعَوْدَةُ إِلَى الزَّوْجَةِ وَالرَّغْبَةُ فِي إِبْقَائِهَا فِي عِصْمَتِهِ وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهَا؛ وَهَذَا الْأَرْجَحُ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، وَبِهِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ؛ كَأَبِي الْعَالِيَةِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ^(٢)، وَلَا زَمُّهُ: أَنَّ الزَّوْجَ إِنْ ظَاهَرَ وَأَمْضَى ظَهَارَهُ وَفَارَقَهَا، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ.

وَلَكِنَّ مِنْهُمْ: مَنْ قَيَّدَ الْعَوْدَ بِالْوَطْءِ كَمَالِكٍ، وَمِنْهُمْ: مَنْ وَسَّعَهُ وَجَعَلَهُ إِرَادَةَ الْوَطْءِ وَالْإِبْقَاءَ بِالْعِصْمَةِ وَلَوْ مِنْ غَيْرِ وَطْءٍ، وَالْأَخِيرُ أَظْهَرُ؛ وَهُوَ قَوْلُ لَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ، وَظَاهَرُ كَلَامِ الشَّافِعِيِّ.

وَأَمَّا الظَّهَارُ الْمُؤَقَّتُ؛ كَأَن يَقُولَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي شَهْرًا كَامِلًا، فَيُحْتَسَبُ فِيهِ التَّوْقِيتُ فِي قَوْلِ جَمْهُورِ الْعُلَمَاءِ؛ فَمَنْ فَارَقَ زَوْجَتَهُ مَدَّةَ تَوْقِيتِهِ، فَظَهَارُهُ يَنْتَهِي بِتَوْقِيتِهِ، وَتَسْقُطُ عَنْهُ الْكُفَّارَةُ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَنْبَلِيِّ وَالْحَنَابِلَةِ وَالشَّافِعِيِّ فِي الْقَوْلِ الْأَظْهَرِ، وَلَا يَكُونُ الْمُظَاهِرُ عَائِدًا إِلَّا بِالْوَطْءِ فِي الْمُدَّةِ.

وَذَهَبَ الْمَالِكِيُّ وَبَعْضُ الشَّافِعِيِّ فِي غَيْرِ الْأَظْهَرِ: إِلَى أَنَّ الظَّهَارَ لَا يَصِحُّ فِيهِ التَّوْقِيتُ، فَإِنَّ قِيْدَهُ بِوَقْتٍ، تَأْبَدُ كَالطَّلَاقِ، وَيَصِيرُ مُظَاهِرًا أَبَدًا؛ لَوْجُودِ سَبَبِ الْكُفَّارَةِ.

ومنهم: مَنْ جَعَلَ الظَّهَارَ الْمُؤَقَّتَ لَفَوًّا، فَلَمْ يُرْتَّبْ عَلَيْهِ شَيْئًا، وَهُوَ قَوْلُ لِبَعْضِ الشَّافِعِيِّ؛ وَفِيهِ نَظَرٌ.

(١) «تفسير القرطبي» (٢٠/٢٩٤ - ٢٩٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/٣٩ - ٤٠).

وَحُمِلَتِ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْدُونَ لِمَا قَالُوا﴾ عَلَى مَعْنَى (فِي)؛
وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛
بِمَعْنَى: «فِيهِ»، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَحِلُّهَا لَوْفَلًا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ بِمَعْنَى: فِي
وَقْتِهَا.

وَكُفَّارَةُ الظَّهَارِ كَمَا فِي الْآيَةِ: ﴿فَنَحْنُ رِزْقَ رَبِّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ
تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾﴾ فَمَنْ لَمْ يَمِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلِطَعَامٍ سِتِّينَ يَشْكِنًا، وَالْكُفَّارَةُ عَلَى التَّرْتِيبِ
الْمَذْكُورِ بِلَا خِلَافٍ.

وَلَا يَجُوزُ لَهُ قُرْبُ زَوْجَتِهِ بِجَمَاعٍ قَبْلَ تَكْفِيرِهِ؛ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَمَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾، وَصَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمَسَّ الْجَمَاعُ^(١)، وَبِهِ
قَالَ عَطَاءٌ وَالزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ^(٢)، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ
وَالشَّافِعِيِّ.

وَذَهَبَ جَمَهُورُ الْعُلَمَاءِ: إِلَى أَنَّ الْمَسَّ هُوَ الْمُبَاشَرَةُ وَلَوْ دُونَ
الْفَرْجِ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ فِي قَوْلِهِ لَهُ، وَقَدْ قَالَ
الزُّهْرِيُّ: «لَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْبَلَهَا وَلَا يَمَسَّهَا حَتَّى يُكْفَرَ»^(٣).
وَقَدْ جَعَلَ مَالِكٌ النَّظَرَ إِلَيْهَا بَتَلَذُّذٍ فِي حُكْمِ الْمَسِّ.

وَمَنْ مَسَّ امْرَأَتَهُ بَعْدَ ظَهَارِهِ مِنْهَا وَقَبِلَ كُفَّارَتَهُ، فَلَا يُسْقِطُ مَسَّهُ
وَجُوبَ الْكُفَّارَةِ عَلَيْهِ، وَهُوَ بِفِعْلِهِ ذَلِكَ آثِمٌ يَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ، وَقَدْ رَوَى
أَهْلُ السُّنَنِ؛ مِنْ حَدِيثِ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ظَاهَرْتُ مِنْ امْرَأَتِي، فَوَقَعْتُ قَبْلَ أَنْ أَكْفُرَ؟ قَالَ: (وَمَا
حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ؟)، قَالَ: رَأَيْتُ خَلْعَالَهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ،

(١) «تفسير الطبري» (٢٢/٤٦١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/٤٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/٤٠).

فَقَالَ: (لَا تَقْرُبُهَا حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ) ^(١).

والصواب إرساله عن عكرمة ^(٢).

وذهب بعضهم: إلى أن على من مس قبل الكفارة كفارتين.

والصحيح: أن عليه كفارة واحدة؛ وهو قول الأئمة الأربعة، وقد

روى سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر البياضي، عن النبي ﷺ؛ في
المُطَاهِرِ يُوَافِقُ قَبْلَ أَنْ يُكْفَرَ، قَالَ: (كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ) ^(٣).

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَمُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ
وَيَنْتَحِرُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ
اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْتَسَ
الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَلَّجَعُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَوا بِالْبَرِّ وَالْتَقَوْا وَأَنْقَرُوا اللَّهُ أَلَيْسَ إِلَهُكُمْ تُعْتَبَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا
الْتَجَوْنِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ٨ - ١٠].

كان اليهود إن مر بهم مسلم تناجوا؛ حتى يظن المسلم أنهم
يقصدونه ويأتمرون عليه ليحزن ويخشى، وقد كانوا يحيون رسول الله ﷺ
بغير تحية الإسلام، فيقولون: (السَّامُ عليك)؛ ليوهموه بأنهم يسلمون
عليه، وهم يذعنون عليه بالموت.

وفي «الصحيحين»؛ من حديث عائشة رضي الله عنها؛ أن اليهود دخلوا على

(١) أخرجه الترمذي (١١٩٩)، والنسائي (٣٤٥٧)، وابن ماجه (٢٠٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٢٢١، ٢٢٢٢)، والنسائي (٣٤٥٨، ٣٤٥٩).

(٣) أخرجه الترمذي (١١٩٨)، وابن ماجه (٢٠٦٤).

النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَلَعَنَتْهُمْ، فَقَالَ: (مَا لَكُمْ؟)، قُلْتُ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: (فَلَمْ تَسْمَعْ مَا قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ) (١).

وقد وجه الله الخطاب بعد ذلك للمؤمنين محذراً من مشابهة اليهود بالتناجي على طريقتهم، بما يُوغِر الصدور ويُوقِع البغضاء؛ فلا يجوز أن يتناجى أحد مع أحد بقصد إحزان أحد الحاضرين ولو لم يكن مقصوداً بذلك؛ فما دام أنه يظن أنه المراد، فلا يجوز التناجي أمامه ولو كان في المجلس غيره؛ وذلك لظاهر الآية.

أنواع التجوى المنهي عنها:

وقد نهى الله ونبيه عن التجوى والمُسارة في الحديث في حالات ثلاث:

الحالة الأولى: التناجي بالإثم والعُدوان، والغيبة والنميمة، والمكر والخديعة؛ فهذه مع كونها محرمة في ذاتها إلا أنه خُصَّ النهي عن التناجي بها؛ لأن الإسرار بالشر يُنميه ويجسّر النفوس على المزيد منه وفعله، ولا يجد فاعله مُنكراً عليه؛ لأن الناس لا يرونه، ولو قُصِدَ أحد بسوء بتلك التجوى، لم يحتَظ لنفسه من شرهم، وأما الجهر به، فمع كونه محرماً إلا أن فاعله يجد مُنكراً يُنكر عليه لو سمعته، والنفس تنفر من المُجاهرة بالسوء بطبيعتها، والمُنكر المعلن لا يدوم؛ لأن الفطرة والناس يُقاومونه ويدفعونه، بخلاف المنكر الذي يستتر به، فيدوم وتتوطن عليه النفس؛ ولهذا تبدأ الشرور ميراً في الناس حتى يتطبعوا عليها، ثم يعلنون بها؛ فالسرُّ أصل كل شر.

الحالة الثانية: التناجي لإحزان أحد أو جماعة من المؤمنين،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٥)، ومسلم: (٢١٦٥).

وذلك بإظهار التآمر عليهم، وقصد عيبتهم وغيبتهم؛ فهذا محرّم ولو كان المتناجون في جمع من الناس، ما دام قصدهم هذا، وما دام يُفهم منهم ذلك، ومن الناس من يُناجي صاحبه وليس لديه قول سوء؛ وإنما يُشعر من يكرهه أنه يطعن فيه عند أخيه، وهذا محرّم، ومن النجوى المنهي عنها.

الحالة الثالثة: أن يتناجى اثنان عند وجود الثالث ولو لم يكن مقصودًا بالنجوى، وقد ثبت في «الصحيحين»؛ من حديث ابن عمر؛ أن النبي ﷺ قال: (إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ) ^(١).

وإذا كثّر الناس، فالأمر أخف، ما لم يكن القصد معروفًا عند واحد منهم، فيغلب على ظنه أنه المعني بالنجوى، وقد روى ابن حبان، عن أبي صالح، عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ)، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَقُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: فَأَرْبَعَةٌ؟ قَالَ: لَا يَضُرُّكَ ^(٢).

وقد روى مالك في «موطئه»، عن عبد الله بن دينار؛ قال: كُنْتُ أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بْنِ عُقْبَةَ النَّبِيِّ بِالسُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرَ الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَتَنَاجِيَهُ، فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَجُلًا آخَرَ حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً، فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الَّذِي دَعَا: اسْتَأْخِرَا شَيْئًا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ) ^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٨٤).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٨٨/٢).

وَيَدْخُلُ فِي حُكْمِ النَجْوَى حَدِيثُ الْإِنْسَانِ بُلُغُهُ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا هُوَ وَمَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ عِنْدَ مَنْ يَسْمَعُهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمَرَادَ، وَيَعْلَمُ تَكْلُفَهُمْ بِقَصْدِ عَدَمِ إِفْهَامِهِ مَا يَقُولُونَ؛ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْفَارْسِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الْعَرَبِيَّةَ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ جَمِيعًا الْكَلَامَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِثْلَهُ؛ وَلَكِنَّهُمْ تَكَلَّفُوا تَرْكَهَا؛ لَعَدَمِ فَهْمِهِ لِمَرَادِهِمْ.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَعُّوْا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْجُدُوا فَسَجَّ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ائْتِزُوا فَاتَّسَرُّوْا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

هذه الآية في آدابِ المَجَالِسِ، وفيها حثٌّ على حِفْظِ حَقِّ الدَاخِلِينَ بِالْجُلُوسِ، وَفَضْلُ التَّوَسُّعِ لَهُمْ وَإِيْوَاتِهِمْ؛ ففِي ذَلِكَ مِنَ الْمُوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالرَّحْمَةِ مَا يُؤَلَّفُ بِهِ بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَعَلَى هَذَا كَانَ يَحْرِصُ السَّلَفُ، وَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ: «الْجَلِيسِيُّ عَلَيَّ ثَلَاثُ خِصَالٍ: إِذَا دَنَا رَحَّبْتُ بِهِ، وَإِذَا جَلَسَ وَسَّعْتُ لَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ»^(١).

مَا يُسْتَحَبُّ لِلدَّاخِلِ إِلَى الْمَجَالِسِ:

وَيُسْتَحَبُّ لِلدَّاخِلِ أَحْكَامٌ؛ مِنْهَا: الْاسْتِئْذَانُ، وَبَذْلُ السَّلَامِ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النُّورِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْهَا: أَنْ يَجْلِسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَهَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ؛ فَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ؛ قَالَ: «كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ، جَلَسَ أَحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهِي»^(٢).

(١) «تاريخ دمشق» (١٣٧/٢١)، و«تهذيب الكمال» (٥٠٧/١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٩١/٥)، وأبو داود (٤٨٢٥)، والترمذي (٢٧٢٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٨٦٨).

وقد رَوَى الطبراني؛ من حديث شَيْبَةَ بنِ عَثْمَانَ مَرْفُوعًا؛ قال: (إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ، فَإِنْ وَسَّعَ لَهُ، فَلْيَجْلِسْ؛ وَإِلَّا فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَوْسَعِ مَكَانٍ يَرَى، فَلْيَجْلِسْ)^(١).

ولا يقوم بالتفريق بين اثنين ليجلس بينهما؛ فقد يكون بينهما حديث أو مودَّة أو مصلحة، فيقطع ذلك؛ فيحيلان في نفسيهما عليه؛ ففي «المسند»، و«السنن»؛ من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: (لَا يَجُلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا)^(٢).

ويستحب للداخل: أَلَّا يُضَيِّقَ عَلَى جَالِسٍ فَيُزَاحِمَهُ وَفِي الْمَكَانِ سَعَةً، ولا أَنْ يَجْلِسَ فِي مَجْلِسٍ مَنْ قَامَ عَنْهُ لِيَجْلِسَ مَكَانَهُ؛ فَرُبَّمَا قَامَ حَيَاءً فَيَجْلِسُ مَكَانَهُ كِبْرًا، مَا لَمْ يَتَيَقَّنْ أَنَّهُ يَفْرَحُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِمَكَانِهِ؛ لَأَنَّهُ يُحِبُّ إِكْرَامَهُ وَيَدْخُلُ السُّرُورَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَرَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ؛ قال: أَخْبَرَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ بِجَنَازَةٍ، فَعَادَ تَخَلَّفَ حَتَّى إِذَا أَخَذَ النَّاسُ مَجَالِسَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ، تَشَدَّبُوا عَنْهُ، فَقَامَ بَعْضُهُمْ لِيَجْلِسَ فِي مَجْلِسِهِ، فَقَالَ: لَا؛ إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ خَيْرَ الْمَجَالِسِ أَوْسَعُهَا)، ثُمَّ تَنَحَّى وَجَلَسَ فِي مَجْلِسٍ وَاسِعٍ^(٣).

وَأَمَّا إِقَامَةُ أَحَدٍ لِلْجُلُوسِ مَكَانَهُ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ بِصَرِيحِ السُّنَّةِ؛ فَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: (لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ؛ وَلَكِنْ تَفْسَحُوا وَتَوَسَّعُوا)^(٤).

وإِنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ قَرِيبًا، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَجَالِسِ الْعَامَّةِ وَالْمَرَافِقِ وَالْمِيَادِينِ، الَّتِي لَا يَتَوَطَّنُ الْإِنْسَانُ فِيهَا

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٣/٢)، وأبو داود (٤٨٤٥)، والترمذي (٢٧٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٨/٣)، وأبو داود (٤٨٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧).

موضعًا خاصًا، وقد رَوَى مُسْلِمٌ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:
(إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ) ^(١).

وَمِنَ السَّلَفِ: مَنْ حَمَلَ الْآيَةَ عَلَى صُفُوفِ الْجِهَادِ وَمَجَالِسِهَا،
فَحَمَلَ التَّنْفِيسَ عَلَى التَّغْيِيرِ فِي هَوَاهُ: ﴿تَنَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَأَتَسَّحُوا يَنْسَحِ اللَّهُ
لَكُمْ﴾، وَيُرَوَّى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا قَدِ أَنْشَرْنَاهُ فَلَا تُشْرِكُوا﴾؛ بِمَعْنَى: الْإِجَابَةُ لِكُلِّ دَاعٍ
يَدْعُو إِلَى خَيْرٍ وَهَدًى، فَيُجِبُ أَنْ يُجَابَ.

* * *

❏ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ
بَيْتِكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَشْفَقْتُمْ
أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ بَيْتِكُمْ صَدَقَةً فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَكَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٢ - ١٣].

لَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ الْمَسَائِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاثْقَلُوا عَلَيْهِ فِي
الْجَلِيلِ وَالْدَقِيقِ، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ ذَلِكَ، فَأَمَرَ مَنْ أَرَادَ أَنْ
يَسْأَلَ نَبِيَّهَ أَنْ يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاهُ صَدَقَةً لِفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ يُنْفِقُهَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ وَلَا لِأَيِّهِ، وَلَمْ تُقَدِّرْ
الصَّدَقَةُ بِقَدْرِ مَعْيْنٍ؛ وَإِنَّمَا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ السَّائِلُ، ثُمَّ لَمَّا شَقَّ عَلَيْهِمْ
ذَلِكَ، نَسَخَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ بَيْتِكُمْ صَدَقَةً فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا
وَكَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، وَقَدْ تَحَقَّقَ الْمَرَادُ بِنَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَلَوْ نُسِخَتْ، فَأَدْرَكَ
النَّاسُ إِثْقَالَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ وَنَسَخَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢١٧٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٤٧٨/٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤٨/٨).



سُورَةُ الْحَشْرِ

سورة الحشر مدنية، وقد قال ذلك ابن عباس وابن الزبير^(١)، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد^(٢)، وقد أنزلها الله على نبيه لبيان بعض أحكام تعامله مع بعض أعدائه؛ كبنى النصير من اليهود، وما يُفِيء الله به عليه من أموالهم، ويُنَّ الله فيها فضل الصحابة وخطر المنافقين، وأحوال الفريقين في الآخرة، وقد كان ابن عباس يُسميها سورة بني النصير^(٣)؛ لأنها نزلت فيهم.

❏ قال الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ عَلَى أَسْوَلِهَا فَإِذَنْ لَّأَلَّوْا وَلِيُخْرِىَ الْفَلْسِيقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْضَ بَنِي النَّصِيرِ، قَطَعَ ثَمَارَهُمْ مِنْ نَخِيلٍ وَثَمَرٍ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ ابْنِ عَمْرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّصِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ الْبُؤَيْرَةُ، فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ عَلَى أَسْوَلِهَا فَإِذَنْ لَّأَلَّوْا وَلِيُخْرِىَ الْفَلْسِيقِينَ﴾^(٤).

وقيل: إِنَّ الصَّحَابَةَ اخْتَلَفُوا فِي إِحْرَاقِ نَخْلِ الْيَهُودِ وَإِفْسَادِهِ، فَانْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ هَذِهِ الْآيَةَ، وَفِي «السُّنَنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،

(١) ينظر: «الدر المنثور» (٣٣١/١٤).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢٨٣/٥)، و«زاد المسير» (٢٥٣/٤)، و«تفسير القرطبي» (٣٣٣/٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٢٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٨٤)، ومسلم (١٧٤٦).

عن ابن عباس؛ في هوله، ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَيُأْذِنُ اللَّهُ وَلِيُخْرِىَ الْفَنَاقِينَ﴾؛ قال: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، وَأَمَرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ، فَحَاكَ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا، وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: هَلْ لَنَا فِيْمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ، وَهَلْ عَلَيْنَا فِيْمَا تَرَكْنَا مِنْ وَزْرِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ، ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيُّمَةٌ﴾^(١).

وفي هذا: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنَكِّرْ عَلَى نَبِيِّهِ وَلَا عَلَى صَحَابَتِهِ فِعْلَهُمْ؛ وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي هَوْلِهِ تَعَالَى، ﴿فَيُأْذِنُ اللَّهُ وَلِيُخْرِىَ الْفَنَاقِينَ﴾، وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَأْذَنَ لِنَبِيِّهِ بِمَحْرَمٍ، بَلْ سَمَّاهُ هُنَا خِزْيًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَذُلًّا وَصَغَارًا لَهُمْ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِ إِتْلَافِ حَرْثِ الْعَدُوِّ الْمُحَارِبِ وَدُورِهِمْ، عَلَى قَوْلَيْنِ:

ذَهَبَ جَمَاعَةٌ: إِلَى جَوَازِ ذَلِكَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ كَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْمَالَ لَنْ يُوَوَّلَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَنْ يَنْتَفِعُوا مِنْهُ؛ وَبِهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ؛ أَخَذًا مِنْ ظَاهِرِ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَنِي النُّضَيْرِ، وَلَمْ يَنْهَهُ اللَّهُ وَلَمْ يُعَاتِبْهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ أَجَازَ أَحْمَدُ الْحَرَقُ إِذَا كَانَ بِلَا عِبَثٍ؛ وَإِنَّمَا لِمَصْلَحَةٍ؛ كَالْمَوَاضِعِ الَّتِي لَا بَدْ مِنْهَا، وَيَنْحَوُّ قَالَ إِسْحَاقُ؛ فَقَدْ جَوَّزَهُ نِكَايَةً، بَلْ جَعَلَهُ سُنَّةً بِذَلِكَ الْقَيْدِ.

وَذَهَبَ الْأَوْزَاعِيُّ فِي قَوْلٍ وَغَيْرُهُ: إِلَى الْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ^(٢)، وَجَعَلَ فِعْلَ النَّاسِ فِي بَنِي النَّضِيرِ مَنْسُوخًا، وَأَنَّهُ قَضِيَّةٌ عَيْنِ نُهْيٍ عَنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَاسْتَدَلَّ بِمَا رَوَى مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ؛ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ بَعَثَ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٣٠٣)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكَبِيرِ» (١١٥١٠).

(٢) يَنْظُرُ: «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٥٥٢).

جُبُوشًا إِلَى السَّامِ، فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَاعِ، فَقَالَ: «إِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَغْفِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَا كَلَلَهُ، وَلَا تُخْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تُعْرِقَنَّه، وَلَا تَغْلُلَنَّ، وَلَا تَجْبُنَنَّ»^(١)، وَهُوَ مُرْسَلٌ، وَقَدْ جَاءَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ؛ فَرَوَاهُ عِشْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ؛ وَهُوَ مُرْسَلٌ أَيْضًا.

وهذا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ قَوْلِ مَنْ أَجَازَ؛ لِأَنَّ مَنْ قَالَ بِجَوَازِ ذَلِكَ، لَمْ يَنْفِ مَنَعَهُ عِنْدَ تَحْقِيقِ كَوْنِهِ إِفْسَادًا، أَوْ لَمْ يَكُنِ الْعَدُوُّ مُنْتَفِعًا مِنَ الزَّرْعِ، وَلَا أَثَرَ عَلَيْهِ بِحَرْقِهِ، فَإِنْ كَانَتْ الْحَالُ كَذَلِكَ، فَيُقَالُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ.

* * *

❏ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٦﴾ مَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ النَّبِيِّ وَالْمَسْكِينِ وَأُولَى السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَعْيَانِ مِنْكُمْ وَمَا عَلَيْكُمْ الرِّسُولُ فَعُدُّوه مَا نَهَلَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا وَانْفُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[الحشر: ٦-٧].

صَالِحُ النَّبِيِّ ﷺ يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ فِي قُرَاهُمْ فَذَكَرَ وَمَا حَوْلَهَا، فَأَعْطَوْهُ مَا لَهُمْ لِيَذْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ الْقِتَالَ، فَسَمَّى اللَّهُ ذَلِكَ الْمَالَ فَيْئًا؛ لِأَنَّ الْمَالَ الَّذِي يُغْنِمُ مِنَ الْعَدُوِّ بِلَا قِتَالٍ فَيْءٌ؛ كَمَا هَلَا تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾؛ يَعْنِي: أَنْكُمْ لَمْ

تُسْرِعُوا بِخَيْلِكُمْ وَإِبِلِكُمْ فِي غَزْوٍ وَلَا كَرْ وَلَا قَرْ فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ؛ وَإِنَّمَا هُوَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَنْ مَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ بِلَا قِتَالٍ.

وَالْفَيْءُ الَّذِي يُغْنِمُ بغيرِ قِتَالٍ قَدْ اخْتَلَفَ فِي تَقْسِيمِهِ:

فَمِنَ الْعُلَمَاءِ: مَنْ جَعَلَهُ خَالِصًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَسِّمُهُ كَمَا يَشَاءُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ ذَلِكَ وَلَمْ يُخَمِّسْهُ؛ كَمَا فِي هَوِيلِهِ: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ﴾.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ: مَنْ جَعَلَ الْفَيْءَ يُقَسَّمُ كَالْغَنِيمَةِ، وَأَنَّ الْآيَةَ ذَكَرَتْ الْخُمْسَ الْخَاصَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَّا الْأَخْمَاسُ الْأَرْبَعَةُ الْبَاقِيَةُ، فَمَسْكُوتٌ عَنْهَا، وَتَلَحُّقٌ فِي حُكْمِهَا حُكْمُ الْغَنِيمَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الْغَنِيمَةِ؛ ذَكَرَ خُمْسَ النَّبِيِّ ﷺ، وَسَكَتَ عَنِ الْبَاقِي لِلْعِلْمِ بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ؛ فَجَعَلَ مَعْنَى آيَةِ الْحَشْرِ كَمَعْنَى آيَةِ الْأَنْفَالِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْفَيْءَ يُخَمَّسُ كَالْغَنِيمَةِ، وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَبَعْدَهُ تَكُونُ لِلْمُقَاتِلِينَ، وَالْخُمْسُ الْبَاقِي فَيَمَنُ سَمَّى اللَّهُ.

وَلَهُ قَوْلٌ آخَرُ: أَنَّ مَا كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَكُونُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَمَصَالِحِهِمْ.

وَقَدْ عَدَّ بَعْضُ السَّلَفِ آيَةَ الْفَيْءِ هُنَا مَنْسُوخَةً بِمَا فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْفَيْءَ يُخَمَّسُ كَالْغَنِيمَةِ؛ وَبِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ^(١).

وَالْأَرْجَحُ: أَنَّ كِلْتَا الْآيَتَيْنِ مُحْكَمَةٌ، وَأَنَّ الْمَالَ الَّذِي يُكْسَبُ بِلَا قِتَالٍ يَخْتَلِفُ عَنِ الْمَالِ الَّذِي يُغْنَمُ بِقِتَالٍ، وَفَرْقٌ بَيْنَ آيَةِ الْغَنِيمَةِ وَآيَةِ الْفَيْءِ؛ فَآيَةُ الْغَنِيمَةِ بَيَّنَّتْ أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْخُمْسَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ

حُمْسُهُ ﴿[الأنفال: ٤١]، فَبَيَّنْتَ أَنَّ الْبَاقِيَ أَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ، وَأَمَّا آيَةُ الْفَيْءِ هُنَا، فَلَمْ تَذْكُرْ أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَدْرًا مَحْدُودًا: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الْآيَةُ، ثُمَّ أَكْثَرْتَ أَنَّ الْفَيْءَ عَلَى الرَّسُولِ لَا عَلَى غَيْرِهِ، بِخِلَافِ آيَةِ الْغَنِيمَةِ، فَتَسَبَّتِ الْغُنْمُ لِلْمُسْلِمِينَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١]، فَالْغَنِيمَةُ كَسَبُوهَا فَاسْتَحَقُّوهَا، وَأَمَّا الْفَيْءُ، فَلَمْ يَكْسِبُوهُ؛ وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ خَالِصٌ؛ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِبِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِصَةً، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةً سَنَتِهِ - وَقَالَ مَرَّةً: قُوتَ سَنَتِهِ - وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ»^(١).

وبهذا قال مالكٌ وأحمدٌ وجماعةٌ.

وقد حَمَلَ جماعةٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي الْفَيْءِ هُنَا: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ عَلَى كُلِّ مَا غَنِمَ بِلَا قِتَالٍ؛ كَالْجِزْيَةِ وَخَرَاجِ أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا نَصَّ عَلَى هَذَا مَعْمَرٌ وَغَيْرُهُ^(٢).



(١) أخرجه أحمد (٢٥/١)، والبخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٥١٦/٢٢).



سُورَةُ الْمُتَحَنِّنَةِ

سورة الْمُتَحَنِّنَةِ سورة مدنيّة بلا خلاف^(١)، وفيها بيّن الله وجوب موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، وبين ما تُخَفِّيه صدور الكافرين والمنافقين على الإسلام وأهله، وبين بعضاً من أحكام التعامل والصلة بين المسلم والمنافق والكافر مُحَارِبًا ومُسَالِمًا، وبعض أحكام المُهَاجِرَات وما لهنَّ وعليهنَّ.

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَفْرَنْ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾﴾ [المتحنة: ٤].

أمر الله بالناسي إبراهيم وما هو عليه ومن معه من توحيد وسنة، في تعاملهم مع المشركين، وظاهر الآية: أَنَّ النَّاسِي بِهِمْ فِي أَصُولِ الدِّينِ كما هو ظاهر السياق، واتباع الأنبياء في الأصول ممّا لا خلاف فيه؛ وإنّما الخلاف في الشرائع، وقد تقدّم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ أَنْفُسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

* * *

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٢٩٣/٥)، و«زاد المسير» (٢٦٦/٤)، و«تفسير القرطبي» (٣٩٥/٢٠).

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ قُولُوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمُ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المتحنة: ٨ - ٩].

جعل الله الكفار على نوعين: مُحَارِبِينَ ومُسَالِمِينَ، فلم يَنْه الله عن صلة المُسَالِمِينَ والإحسان إليهم، وأن هذا لا يقتضي مخالفة أمر الله بالبراءة من المشركين، وقد ثبت في «المسند»، و«الصحاحين»؛ من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها؛ قالت: قَدِمْتُ عَلَىٰ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ) ^(١).

وهذه الآية في كل مشرك غير مُحَارِبٍ، والسلف إنما يَخْتَلِفُونَ في سبب نزولها والمقصود فيها؛ فقد صحَّ عن مجاهد؛ أن المقصودين هم الذين آمنوا بمكة ولم يُهاجروا ولم يُقاتلوا ^(٢).

وقال غيره: إنها في غير مشركي مكة ممن لم يُعاد من العرب، وهي في كل مشرك مسالم سواء.

وقال ابن عباس بنسخ هذه الآية بسورة براءة ^(٣)؛ قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١]، ﴿وَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وبالنسخ قال عكرمة والحسن وقنادة وابن زيد وغيرهم ^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٣٤٧/٦)، والبخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٧٢/٢٢).

(٣) «تفسير ابن المنذر» (٨٢٢/٢ - ٨٢٣).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٩٨/٧ - ٣٠٠) و(٥٧٣/٢٢).

وَبَيَّنَ النَّسْخُ فِي حَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ لِمَا قَوِيَ أَمْرُهُمْ وَكَمُلَ إِبْتِائُنُ مَنْ أَرَادَ الْحَقُّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَأَمَنُوا وَلَحِقُوا بِالْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ بِقِتَالِ مَنْ تَبَقَّى، وَالْحَكْمُ بَاقٍ يُعْمَلُ بِهِ لِمَنْ كَانَتْ حَالُهُ كَحَالِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ النَّصِّ الْأَوَّلِ، وَيُؤْخَذُ بِالثَّانِي النَّاسِخِ إِنْ كَانَتْ حَالُهُمْ كَحَالِ الْمُسْلِمِينَ حِينَهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابَةَ مَا زَالُوا يَعْمَلُونَ بِالْحُكْمَيْنِ جَمِيعًا لَا يَخْتَلِفُونَ فِي جَوَازِ الْبِرِّ بِالْكَافِرِ الْمُسَالِمِ وَتَأْلِيْفِهِ.

وقد ترجم البخاري في كتابه الصحيح على هذه الآية: ﴿لَا يَتَنَكَّرُ اللَّهُ﴾، وذكر فيه أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَرْسَلَ بِهَدِيَّةٍ إِلَى أَخِيهِ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ؛ كَمَا فِي الْبَخَارِيِّ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: رَأَى عُمَرُ حُلَّةً عَلَى رَجُلٍ ثُبَاعٍ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْتَغِ هَذِهِ الْحُلَّةَ تَلْبَسَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَإِذَا جَاءَكَ الْوَفْدُ، فَقَالَ: (إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ)، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا بِحُلٍّ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ مِنْهَا بِحُلَّةٍ، فَقَالَ عُمَرُ: كَيْفَ أَلْبَسَهَا وَقَدْ قُلْتَ فِيهَا مَا قُلْتَ؟ قَالَ: (إِنِّي لَمْ أَكْسُهَا لِتَلْبَسَهَا؛ تَبِيعَهَا، أَوْ تَكْسُوهَا)، فَأَرْسَلَ بِهَا عُمَرُ إِلَى أَخِي لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ^(١).

الإحسان إلى الكافر بالهدية وقبول شفاعته:

وَالْمَشْرِكُونَ فِي بَابِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَالْهَدِيَّةُ لَهُمْ، وَالنَّفَقَةُ عَلَيْهِمْ، عَلَى نَوْعَيْنِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: مُشْرِكُونَ مُحَارِبُونَ؛ فَالْأَصْلُ: عَدَمُ جَوَازِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَالْإِعْلَاطُ عَلَيْهِمْ، وَالشَّدَّةُ مَعَهُمْ، وَعَدَمُ اللَّيْنِ فِي ذَلِكَ؛ لِعُمومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهِدُوا الْكَافِرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والنحریم: ٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَجْلُوا فِيكُمْ غَلَظَةُ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وَمَنْ كَانَ مِنَ الْكُفَّارِ شَرُّهُ لَا يَنْدَفِعُ لِقُوَّتِهِ وَسُوَّتِهِ، وَعَجَزَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُ إِلَّا بِتَأْلِيفِهِ بِالْمَالِ، فَهَذَا يَجُوزُ فِي الْمُحَارِبِ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ لَا عَلَى الْأَصْلِ؛ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَزَمَ عَلَى إِعْطَاءِ غُظْفَانٍ بَعْضَ ثَمَرِ الْمَدِينَةِ كَفَايَةً لَشَرِّهَا، وَكَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ مَعَ الْمُتَنَافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ مَعَ ظُهُورِ بَعْضِهِمْ وَشَرِّهِمْ.

النوع الثاني: مُشْرِكُونَ مُسَالِمُونَ كَاهِلِ الذِّمَّةِ وَالْعَهْدِ؛ فَالْأَصْلُ جَوَازُ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ يُسْتَحَبُّ وَيُؤْجَرُ عَلَيْهِ فَاعِلُهُ إِنْ قَصَدَ خَيْرًا مِنْ تَأْلِيفِ قَلْبِهِ وَتَقْرِيْبِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يُهْدُونَ بَعْضَ الْكَافِرِينَ مِنْ جِيرَانٍ وَنَحْوِهِمْ؛ كَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَعَائِشَةُ، وَغَيْرُهُمْ.

وصحَّ عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً سَأَلَتْهَا فَأَعْطَتْهَا ^(١).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ مِنْهُمْ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا، وَكَانَ يَقْبَلُ مِنْ بَعْضِ الْمُتَنَافِقِينَ؛ كَكِسَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي لَلْعَبَّاسِ، وَمُجَازَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ؛ قَالَ: «أَهْدَى مَلِكٌ أَيْلَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ بَغْلَةً بَيْضَاءَ، وَكَسَاهُ بُرْدًا، وَكَتَبَ لَهُ بِتَحْرِيمِهِ» ^(٢)؛ يَعْنِي: بَلَدَهُمْ.

وَقَدْ أَهْدَى مَلِكٌ كِسْرَى وَأَكْنِيدِرُ دُومَةَ الْجَنْدَلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَبِلَ مِنْهُمَا.

وَأَمَّا الْإِهْدَاءُ لِلْكَافِرِينَ الْمُسَالِمِينَ وَقَبُولُ ذَلِكَ مِنْهُمْ فِي يَوْمِ عِيدِهِمُ الدَّنِيوِيِّ، فَجَائِزٌ، وَأَمَّا أَعْيَادُهُمُ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا لِغَيْرِ اللَّهِ، فَلَا يَجُوزُ قَبُولُ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ لِأَلِهَتِهِمْ مِنْ مَذْبُوحٍ وَغَيْرِهِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ قُرْبَةً فَلَا ظَهَرَ جَوَازُهُ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٣٨/٦)، وَابْنُ خَالٍ (١٠٤٩)، وَمُسْلِمٌ (٩٠٣).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ خَالٍ (١٤٨١)، وَمُسْلِمٌ (١٣٩٢).

وقد كان النبي ﷺ يُبَيِّحُ قَبُولَ شَفَاعَةِ الْكَافِرِ الْمُحَارِبِ، كما في «الصحیح»؛ أَنَّهُ قَالَ فِي أُصَارَى بَذَرٍ: (لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ) ^(١).

* * *

❏ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتُ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَمَنْ لَمْ يَلْمِزْهُنَّ مَنِّ وَءَاثُرَهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ لُجُورَهُنَّ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِنَّ الْكُفَّارَ بَعْضُهُمْ أُنْفِقُوا مَا أَنْفَقَتْمْ وَلَسْتُمُوهَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَنْصَحُكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَانَكُرْتُمُوهُنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبِلْتُمْ فَاتَّوَا الْذِّبَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ بِثَلَاثَةِ أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: ١٠-١١].

لَمَّا صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ قَرِيشًا فِي الْحُدَيْبِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ شُرُوطِ صُلْحِهِ: أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَرِيشٍ، رَدَّهَ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ ارْتَدَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ لَا يَرُدُّوهُ، اسْتَشْنَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى نَبِيِّهِ النِّسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ رَجْعُهُنَّ إِلَيْهِمْ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ أَنْ يَخْتَبِرَ النِّسَاءَ وَصِدْقَهُنَّ فِي الْهَجْرَةِ أَنَّهُنَّ لَمْ يُهَاجِرْنَ لِدُنْيَا وَطْمَعٍ، وَتَحَوَّلَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَلَا بُغْضًا لِأَزْوَاجِهِنَّ وَفِرَارًا مِنْهُمْ، فَكَانُوا يَسْتَحْلِفُونَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ.

وَجَعَلَ بَعْضُ السَّلَفِ الْآيَةَ مُخَصَّصَةً لِلْسُّنَةِ أَوْ نَاسِخَةً لَهَا.

هُوَ تَعَالَى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَمَنْ لَمْ يَلْمِزْهُنَّ مَنِّ وَءَاثُرَهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ لُجُورَهُنَّ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِنَّ الْكُفَّارَ بَعْضُهُمْ أُنْفِقُوا مَا أَنْفَقَتْمْ وَلَسْتُمُوهَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَنْصَحُكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَانَكُرْتُمُوهُنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَبِلْتُمْ فَاتَّوَا الْذِّبَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ بِثَلَاثَةِ أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الممتحنة: ١٠-١١].

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣١٣٩)؛ مِنْ حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بشركهم، وقد تقدّم الكلام على تزويج المسلمة المشركة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُوْمِتُوا﴾ [البقرة: ٢٢١].

إسلام الزوجين أو أحدهما:

إذا أسلم الزوجان جميعاً في وقت واحد، فيمضي نكاحهما السابق بلا خلاف، وإن تقدّم أحدهما الآخر، لكن كان إسلامهما في زمن العدة، فيمضي زواجهما بعقدتهما السابق بلا شهود ولا صداق عند أكثر العلماء؛ وهو قول الشافعي وأحمد والأوزاعي؛ وذلك لما روى مالك في «الموطأ»: أن زوجة صفوان بن أمية أسلمت قبل زوجها بنحو شهر، ثم أسلم زوجها، فلم يفرّق النبي ﷺ بينهما^(١).

وقد أسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام، ولم يسلم زوجها عكرمة بن أبي جهل، ثم أسلم بعد، فردّهما النبي ﷺ، ولم يذكر عقد^(٢).

ولم يكن النبي ﷺ ولا أصحابه يطلبون ممن يدخل الإسلام من الأزواج تجديد عقدهما مع إسلامهما، وإن أسلم أحدهما، وبقي الآخر مشركاً، فهما أجنبيان عن بعضهما؛ لا يحلّ استمتاع بعضهما ببعض، إلا إن أسلم الزوج وبقيت الزوجة كتابية أو نصرانية، فيبقى الزواج صحيحاً؛ لصحة زواج المسلم من الكتابية خاصة.

وقد اختلف العلماء في اشتراط العقد الجديد لعودة أحد الزوجين إلى الآخر بعد انقضاء العدة على تأخير إسلام، على أقوال عدة، أشهرها:

الأول - وهو قول أكثر الفقهاء -: أنها إن انتهت، خرجت من

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٥٤٣).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٥٤٥).

عِصْمَتِهِ، وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ عِدَّتِهَا؛ فَإِنَّ لِلْمُسْلِمَةِ مِنَ الزَّوْجِ الْكَافِرِ عِدَّةً كَعِدَّةِ الْمَطْلُوقَةِ، فَالْمَطْلُوقَةُ تَبْدَأُ عِدَّتُهَا مِنْ طَلَاقِ زَوْجِهَا، وَالزَّوْجَةُ تَبْدَأُ عِدَّتُهَا بِإِسْلَامِهَا.

الثاني: ذَهَبَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ: إِلَى أَنَّ إِسْلَامَ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ وَتَأَخُّرَ الْآخَرِ لَا يَلْزَمُ مَعَهُ عَوْدُتُهُمَا بِعَقْدٍ جَدِيدٍ مَهْمَا طَالَتِ الْمُدَّةُ، مَا لَمْ تَتَزَوَّجِ الْمَرْأَةُ بَعْدَ زَوْجِهَا ثُمَّ تُطَلَّقَ، وَقَدْ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَتُهُ زَيْنَبَ إِلَى زَوْجِهَا أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بِنِكَاحِهَا الْأَوَّلِ^(١)، وَبَيْنَ إِسْلَامِهُمَا سِتُّونَ؛ فَقَدْ تَبِعَهَا بِإِسْلَامِهِ سَنَةً ثَمَانٍ.

وَاحْتِجَّ بِهِ أَحْمَدُ؛ قِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ يُرَوَى أَنَّهُ رَدَّهَا بِنِكَاحٍ مُسْتَأْنَفٍ؟ قَالَ: لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ^(٢).

وَيَكْثُرُ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ إِسْلَامُ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ وَتَأَخُّرُ الْآخَرِ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِعَقْدٍ جَدِيدٍ.

وَأَمَّا مَا رَوَاهُ عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ مَرْفُوعًا: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ ابْنَتَهُ عَلَى أَبِي الْعَاصِ بِمَهْرٍ جَدِيدٍ وَنِكَاحٍ جَدِيدٍ)، فَقَدْ أَعْلَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٣).

وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النِّكَاحَ بَاقٍ مَا لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى مَنَرَتَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ: كَانُوا مُشْرِكِي أَهْلِ حَرْبٍ؛ يُقَاتِلُهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُ، وَمُشْرِكِي أَهْلِ عَهْدٍ؛ لَا يُقَاتِلُهُمْ وَلَا يُقَاتِلُونَهُ، وَكَانَ إِذَا هَاجَرَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، لَمْ تُحْطَبْ حَتَّى تَحْبِضَ وَتَطْهَرَ، فَإِذَا

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢١٧/١)، وَأَبُو دَاوُدَ (٢٢٤٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١١٤٣)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٠٠٩).

(٢) «الْمَغْنِي» لِابْنِ قِدَامَةَ (١٠/١٠).

(٣) «مُسْنَدُ أَحْمَدَ» (٢٠٧/٢)، وَ«سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١١٤٢)، وَ«السَّنَنِ الْكُبْرَى» لِلْبَيْهَقِيِّ (٧/١٨٨).

طَهَّرَتْ، حَلَّ لَهَا النِّكَاحُ، فَإِنْ هَاجَرَ زَوْجُهَا - يَعْنِي: أَسْلَمَ وَهَاجَرَ - قَبْلَ أَنْ تَنْكِحَ، رُدَّتْ إِلَيْهِ^(١).

وهذا قولُ عمرَ بنِ الخطَّابِ والنَّخَعِيِّ وجماعةٍ، وقد روى محمدُ بنُ سيرينَ، عن عبدِ اللهِ بنِ يزيدِ الحَظْمِيِّ: أَنَّ نَصْرَانِيًّا أَسْلَمَتْ امْرَأَتُهُ، فَخِيَرَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنْ شَاءَتْ فَارْقَتُهُ، وَإِنْ شَاءَتْ أَقَامَتْ عَلَيْهِ^(٢).

وَيَذْهَبُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِلَى أَنَّ إِسْلَامَ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ وَتَأْخُرَ الْآخَرِ يَفْسُخُ النِّكَاحَ وَلَوْ كَانَ تَأْخُرُهُ يَسِيرًا، وَهَذَا لَمْ يَقُلْ بِهِ - فِيمَا أَعْلَمُ - أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ مُتَقَدِّمِي فَقَهَاءِ الْحِجَازِ، وَهَمُ الْعَمْدَةُ فِي الْفَتْوَى فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ.

وَيَفْهَمُ بَعْضُ الْمَعَاصِرِينَ مَا يُرَوَّى فِي ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ فِي الزَّوْجَةِ الَّتِي أَسْلَمَتْ عَنْ زَوْجٍ كَافِرٍ: أَنَّ زَوْجَهَا أَمْلَكَ بِبُضْعِهَا^(٣)، وَأَنَّهُ أَحَقُّ بِهَا مَا لَمْ تَخْرُجْ مِنْ مِضْرِهَا^(٤) - وَحَمَلُوا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ يَحِلُّ لَهُ وَطُؤُهَا وَهُوَ كَافِرٌ.

وهذا غَلَطٌ وَتَحْمِيلٌ لِقَوْلِهِمَا مَا لَا يَحْتَمِلُهُ، وَلَا يَحِلُّ وَطْءُ الْمُشْرِكِ لِلْمُسْلِمَةِ، وَمَرَادُهُمَا: أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا مِنْ غَيْرِهِ إِنْ أَرَادَهَا بَعْدَ إِسْلَامِهِ، وَيَبْقَى عَلَى عَقْدِهِ الْأَوَّلِ مَا لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدَ عِدَّتَيْهَا، وَلَمْ يَكُنِ الصَّحَابَةُ يَبْحَثُونَ مَسْأَلَةَ وَطْءِ الْكَافِرِ لِمُسْلِمَةٍ، وَلَكِنْ لَمَّا بَعْدَتْ الْأَفْهَامُ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ وَرَقَّ الدِّبْنُ، حَمَلَ هَؤُلَاءِ كَثِيرًا مِنْ مُحْتِمِلَاتِ الْفَاضِلِ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَوْهَمُ مَا أَنْفَقُوا﴾؛ يَعْنِي: أَزْوَاجَهُنَّ الْمُشْرِكِينَ يُرْسِلُ

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٠٨٣) و(١٢٦٦٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٨٣٠٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٨٣٠٧) عن عليٍّ.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٠٨٤) و(١٢٦٦١) عن عليٍّ.

الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ مُهُورُهُمُ الَّتِي سَلَّمُوهَا لِأَزْوَاجِهِمْ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ
الْإِسْلَامِ فِي الْوَفَاءِ بِمَا عَلَيْهِ الصَّلَاحُ، فَلَمَّا اسْتَثْنَى اللَّهُ النِّسَاءَ مِنَ التَّسْلِيمِ
وَهُنَّ فِي شَرْوِطِهِ، لَمْ يُسَقِطْ حَقُّهُنَّ فِي الْمَالِ بِذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾، فِيهِ: جَوَازُ
نِكَاحِ الْمُهَاجِرَاتِ اللَّاتِي أَزْوَاجُهُنَّ مُشْرِكُونَ بَعْدَ إِعْطَائِهِنَّ مَهْرَهُنَّ، وَقَدْ
تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ سُورَةِ النَّسَاءِ الْكَلَامُ عَلَى الصَّدَاقِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا
النِّسَاءَ صِدْقَيْنِ فِتْنَةً﴾ [٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، فِيهِ: تَحْرِيمُ نِكَاحِ الْمُسْلِمِ
لِلْمُشْرِكَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا
الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنُ﴾ [٢٢١]، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى جِلِّ النِّكَاحِ مِنَ الْكِتَابِيَّةِ
خَاصَّةً، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَتَلَوْا مَا آتَيْتُمُ وَلَسَتَلَوْا مَا آتَيْتُمُ﴾ فِيهِ التَّمَاثُلُ؛ فَكَمَا أَنَّ
الْمُهَورَ تُدْفَعُ لِلْمُشْرِكِينَ، فَكَذَلِكَ يُدْفَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَهْرُ نِسَائِهِمْ عِنْدَ لِحَاقِهِنَّ
بِأَهْلِيهِنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ نَفْسٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَنَاتُوا
الَّذِينَ دَهَبَتْ أَزْوَاجَهُمْ يَتَلَّ مَا آتَيْتُمُ وَأَنْتُمْ وَالَّذِينَ آتَيْتُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ جَوَازُ
إِعْطَاءِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَحِقَتْ زَوْجَتُهُ بِأَهْلِهَا الْمَشْرِكِينَ مِنْ مَهْرِ أَزْوَاجِ
الْمَشْرِكِينَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ، فَبَدَلًا مِنْ إِسْأَالِ الْمَهْرِ لِلْمُشْرِكِ، يُعْطَى الْمُسْلِمُ
الَّذِي رَجَعَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ مَهْرِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعِقَابَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَعَابْتُمْ﴾؛ يَعْنِي: غَنِمْتُمْ مِنَ
الْمَشْرِكِينَ مَالًا، فَأَصْبَحْتُمْ مِنْهُمْ عَقْبَى، فَيُعْطَى الْمُسْلِمُ مَهْرَ زَوْجَتِهِ الْخَارِجَةِ

مِمَّا أَصَابُوهُ مِنْهُمْ؛ رُويَ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوفٍ وَالزُّهْرِيِّ وَجَمَاعَةٍ^(١).

* * *

❏ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَشْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الْمُنَحْنَةُ: ١٢].

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَايِعُ النِّسَاءَ كَمَا يُبَايِعُ الرِّجَالَ، وَكَانَ يُشْرِكُهُنَّ مَعَ الرِّجَالِ بِبَعْضِ أَلْفَاظِ الْبَيْعَةِ، وَكَانَ يَخْصُمُهُنَّ بِبَعْضِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهِنَّ، مَعَ اشْتِرَاكِ الْجَنَسَيْنِ فِي عَامَّةِ الْمَحْرَمَاتِ؛ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَغْلِبُ عَلَى جَنْسِ الْوُقُوعِ فِي مُحْرَمٍ وَيَضَعُفُ عِنْدَ الْآخِرِ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ أَنْ يُبَايِعَ النِّسَاءَ عَلَى عَدَمِ السَّرْقَةِ وَالزَّوْنِ، وَعَدَمِ قَتْلِ الْأَوْلَادِ مِنْ إِمْلَاقٍ أَوْ مِنْ حَيَاءٍ، وَمَنْعِهِنَّ مِنْ كُلِّ بُهْتَانٍ ظَاهِرٍ وَخَفِيِّ.

وَكَانَتْ عَادَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يُصَافِحُ مَنْ بَايَعَهُ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُصَافِحِ النِّسَاءَ، وَلَمْ يَجْعَلْ رَجُلًا يُصَافِحُهُنَّ عَنْهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ صَافِحُهُنَّ بِحَائِلٍ، وَبَعْضُهُمْ ذَكَرَ أَنَّهُ أَوْكَلَ الْمَصَافِحَةَ لِعُمَرَا، وَهَذَا مُنْكَرٌ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ، وَقَدْ كَانَ يَقُولُ ﷺ: (إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ)^(٢).

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ؛ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ

(١) «تفسير الطبري» (٢٢/٥٩١ - ٥٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦/٣٥٧)، والنسائي (٤١٨١)، وابن ماجه (٢٨٧٤).

يَقُولُ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْتَغِينَكَ﴾، إلى قوله: ﴿عَفْوٌ رَجِيمٌ﴾، فَمَنْ أَقْرَبُ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (قَدْ بَايَعْتُكَ) كَلَامًا، وَلَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: (قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ) ^(١).

وقد كان يُبَايِعُهُنَّ عَلَى الْفَضِيلَةِ وَالْحَيَاءِ، وَيَنْهَاهُنَّ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ، وَهَذَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، وَقَدْ رَوَى عَمْرُو بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ؛ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَلَا يَتَّبِعُنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ قَالَ: لَا يَخْلُو الرَّجُلُ بِامْرَأَةٍ ^(٢).

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَتَّبِعُنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ قَالَ: لَا يُحَدِّثَنَّ رَجُلًا ^(٣).



(١) أخرجه البخاري (٤٨٩١).

(٢) «تفسير الطبري» (٦٠١/٢٢).

(٣) «تفسير الطبري» (٥٩٧/٢٢).



سُورَةُ الْجُمُعَةِ

سورة الجمعة مدنيّة، ولا خلاف في ذلك^(١)، وقد بين الله فيها فضله على الناس عربهم وعجمهم ببعث نبيه، وحذر من تدليس اليهود وطريقتهم في تحريف كتبه ودينه، ثم بين شريعة صلاة الجمعة وفضلها وفضل شهودها، وبعض أحكامها.

❏ قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿[الجمعة: ٦ - ٧].

كانت اليهود تضطفي نفسها بين الناس، وترى أنها صفوة خلق الله وأجباؤه كذبا وزورا عليه؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]، وقالت اليهود والنصارى نحن أبنؤا الله وأحبؤاؤه ﴿[المائدة: ١٨].

ولما كان ولي الله وحيبؤه يتمنى لقاء محبوبه، أمرهم الله بتمنى الموت للقاء الله إن كانوا صادقين، ودعوا إلى المباهلة أن الموت على الكاذب، ولكنهم يكذبون وهم أحرص الناس على حياة، وأشدهم فرارا من الموت؛ لأنهم يعلمون جرمهم وظلمتهم وعنادهم وتكبرهم، فلن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون ما يلقون بعده؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن

(١) «تفسير القرطبي» (٢٠/٤٥١).

كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ﴿البقرة: ٩٤ - ٩٥﴾.

وقد روي عن ابن عباس؛ قال: يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا أَلْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أخذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ، ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]؛ أي: يعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنَّوه يوم قال لهم ذلك، ما بقي على الأرض يهودي إلا مات^(١).

وقد تقدّم الكلام على حكم تمنّي الموت عند قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ٩ - ١١].

أمر الله المؤمنين بالسَّعي إلى صلاة الجمعة عند سماع الأذان لها، والمراد بالأذان هنا هو الأذان الذي يكون مع دخول الإمام وقبيل خطبته.

(١) «تفسير الطبري» (٢/٢٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/٣٣١).

وقد تقدّم الكلام على الأذان وحُكْمِهِ عند قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُودِتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَتَذْكُرُوا هُزُوا وَلَعِبًا ذَلِكَ إِنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]، وتقدّم الكلام على الموضع الذي يُؤذّن فيه المؤذّن من المسجد عند قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

هوهُ تعالى، ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، فيه: إشارة إلى أنّ الجُمُعَةَ على الحواضر، لا على المسافرين؛ لأنّ الأسواق والضُرَبَ فيها لا يكونُ إلّا في القرى والمدن، لا في طرقِ الأسفار، خاصّةً في الزمنِ الغابر، فلم تكنِ المتاجرُ والأسواقُ في طرقِ المسافرين كما هي اليوم، حتى إنّ الناسَ يُسافرون أيامًا لا يتزوّدونَ لا ماءً ولا طعامًا، وكانوا في السابق يتزوّد أحدهم لو خرَجَ شَطَرَ النهار ولو بالماء.

مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ الْجُمُعَةُ:

لا يختلفُ العلماءُ على أنّ الجُمُعَةَ تجبُ على كلِّ ذَكَرٍ حُرٍّ حاضِرٍ مستطيعٍ بالغٍ في قَرْيَةٍ، ولم تُشرَعْ في السُّنَةِ إلّا على أهلِ القرى ومَنْ حولها؛ على هذا عملُ الصحابة، وقد جاء في ذلك آثارٌ وأحاديثٌ؛ منها ما يُروى: «لَا جُمُعَةُ وَلَا تَشْرِيقٌ إلّا فِي مِصْرَ»، وهذا صحيحٌ عن عليٍّ، ولكنّه لا يصحُّ مرفوعًا؛ كما رواه سعدُ بنُ عُبيدة، عن أبي عبد الرحمن؛ قال: قال عليٌّ: «لَا جُمُعَةُ، وَلَا تَشْرِيقٌ، وَلَا صَلَاةٌ فِطْرٍ وَلَا أَضْحَى، إلّا فِي مِصْرٍ جَامِعٍ، أَوْ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ».

رواه ابنُ أبي شَيْبَةَ^(١).

ومَنْ كان مقيمًا في أطرافِ المدينة، فعليه شهودُ الجُمُعَةِ؛ ما لم

(١) أخرجه ابن أبي شَيْبَةَ في «مصنّفه» (٥٠٥٩).

يَكُنْ بَعِيدًا عَنْهَا لَوْ خَرَجَ مَاشِيًا بَعْدَ سَمَاعِهِ الْأَذَانَ لَمْ يُدْرِكْهَا.

وَأَمَّا تَقْيِيدُ وَجوبِ حُضُورِ الْجُمُعَةِ لِمَنْ هُمْ فِي أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ بِخُرُوجِهِمْ إِلَى الصَّلَاةِ وَعَوْدَتِهِمْ قَبْلَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، فَلَا يَثْبُتُ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: (الْجُمُعَةُ عَلَى مَنْ آوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى أَهْلِهِ)؛ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَأَنْكَرَهُ أَحْمَدُ جَدًّا^(١)، وَرُويَ نَحْوُهُ مِنْ مُرْسَلِ أَبِي قِلَابَةَ، وَأَنْكَرَهُ حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ^(٢).

وَفِي التِّرْمِذِيِّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَ قُبَاءَ بِشُهُودِ الْجُمُعَةِ مَعَهُ^(٣)، وَلَا يَصْحَحُ؛ لِلْجَهَالَةِ فِيهِ.

وَمِنْ مُرْسَلِ الزُّهْرِيِّ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْهَدُونَ الْجُمُعَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ؛ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ^(٤)، وَمَرَّاسِيلُهُ ضَعِيفَةٌ.

وَقَدْ جَاءَتْ أَحَادِيثُ فِي تَعْيِينِ مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ وَمَنْ لَا تَجِبُ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ يَثْبُتُ، إِلَّا أَنَّ عَمَلَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَيِّنٌ فِي ذَلِكَ وَلَوْ لَمْ يَصَحَّ الْخَبَرُ، وَقَدْ سُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عَلَى مَنْ تَجِبُ الْجُمُعَةُ؟ فَلَمْ يَذْكُرْ فِي ذَلِكَ شَيْئًا^(٥)، وَعَدَمُ ذِكْرِهِ لَشَيْءٍ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْمَشْهُورَةِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُسَمَّى أَهْلَ الْوَجُوبِ عِنْدَهُ وَغَرَابِئِهَا.

حُكْمُ الْجُمُعَةِ لِلْمَسَافِرِ:

وَلَا تَجِبُ عَلَى الْمَسَافِرِ وَلَوْ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ يُصَلِّي أَهْلُهَا الْجُمُعَةَ، فَإِنْ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٥٠٢).

(٢) يَنْظُرُ: «نَهْذِيبُ الْكَمَالِ» (١٤٥/٢٨ - ١٤٦)، وَ«الْبُلْدُ الْمُنِيرُ» (٥٩٣/٤).

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٥٠١).

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٥٠٨٦).

(٥) «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٥٠٢).

صَلَّى مَعَهُمْ، صَلَّاهَا بِنِيَّةِ الظُّهْرِ وَشَهِدَ الْخُطْبَةَ وَدَعَاةَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ
صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الْجُمُعَةَ ظَهْرًا وَجَمَعَ إِلَيْهَا الْعَصْرَ بَعْرَفَةً، وَلَمْ يَكُنِ
الصَّحَابَةُ يُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَهُمْ مَسَافِرُونَ، وَلَا كَذَلِكَ فَهَاءُ التَّابِعِينَ
وخاصَّةً أَهْلَ الْحِجَازِ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ كَانَ مَسَافِرًا
فَتَرَكَ شَهَادَةَ الْجُمُعَةِ وَكَانَ فِي الْبَلَدِ؛ فَفِي «مُصَنَّفِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ»، عَنْ
أَبِي عُبَيْدٍ مَوْلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
مِنْ دَابِقٍ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَرَّ بِحَلَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ
لَأَمِيرِهَا: جَمْعٌ؛ فَإِنَّا سَفَرٌ^(١).

وَإِنْ صَلَّى الْمَسَافِرُ مَعَ الْمُقِيمِينَ الْجُمُعَةَ، وَتَوَّاهَا جُمُعَةً، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ
يَجْمَعَ إِلَيْهَا الْعَصْرَ، وَإِنْ صَلَّاهَا مَعَهُمْ، وَتَوَّاهَا ظَهْرًا، فَلَهُ جَمْعُ الْعَصْرِ إِلَيْهَا.
وَلَا يَصِحُّ نَهْيٌ عَنِ السَّفَرِ ضُحَا الْجُمُعَةِ، فَيَجُوزُ السَّفَرُ لِلْمَحْتَاجِ قَبْلَ
الْأَذَانِ؛ لِأَنَّهُ بِالْأَذَانِ يَجِبُ عَلَيْهِ السَّعْيُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَسَعْيُهُ إِلَى غَيْرِهِ
مُخَالَفٌ لِلآيَةِ: ﴿إِذَا قُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾،
وَلَا يَصِحُّ فِي النَّهْيِ عَنِ السَّفَرِ ضُحَا الْجُمُعَةِ حَدِيثٌ.
وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: (مَنْ سَافَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، دَعَتْ عَلَيْهِ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا يُصْحَبَ فِي سَفَرِهِ):

فَقَدْ أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي «الْأَفْرَادِ»، وَفِيهِ ابْنُ لَهْيَعَةَ؛ وَهُوَ مُنْكَرٌ^(٢).
وَرَوَاهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ «الرُّوَاةُ عَنْ مَالِكٍ»؛ مِنْ حَدِيثِ
أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: (مَنْ سَافَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، دَعَا عَلَيْهِ مَلَكَاهُ)^(٣).
وَفِيهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلْوَانَ: كَذَابٌ؛ قَالَه يَحْيَى وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٥١٠٥).

(٢) يَنْظُرُ: «التَّلْخِصُ الْحَيَرُ» (٦٦/٢). (٣) يَنْظُرُ: «نَيْلُ الْأَوْطَارِ» (٢٧٣/٣).

(٤) «الْجَرَحُ وَالْتِمِيلُ» لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (٦١/٣).

والثابت عن الصحابة جواز ذلك؛ فقد جاء عن عُمَرَ مِنْ وَجْهَيْنِ:
الْجُمُعَةُ لَا تَمْنَعُ مِنْ سَفَرٍ^(١).

وهو عنه صحيح.

ومثل هذا الحُكْم لا يَخْفَى عَلَى عُمَرَ؛ فَهِيَ مَسْأَلَةٌ ظَاهِرَةٌ يُبْتَلَى بِهَا
وَيَحْتَاجُ إِلَيْهَا النَّاسُ، وَمَا نَعُمُ بِهِ الْبُلُوْى لَا يَخْفَى عَلَى مِثْلِ الْخُلَفَاءِ،
فَعَمَلُهُمْ وَقَوْلُهُمْ أَصْلٌ فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ حُكْمًا، وَلَهُ أَنْزَلَ فِي إِعْلَالِ مَا
يُرَوَّى مَرْفُوعًا.

وَلَا يَصِحُّ فِي النَّهْيِ عَنِ السَّفَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَدِيثٌ؛ قَبْلَ أَذَانِ صَلَاةِ
الْجُمُعَةِ وَلَا بَعْدَ الْجُمُعَةِ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمَرَاثِلِ»، عَنِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ
يَوْمَ الْجُمُعَةِ ضَحْوَةً، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَافَرَ يَوْمَ
الْجُمُعَةِ^(٢).

وهذا الذي عليه جمهور العلماء.

الْعَدَدُ الَّذِي تَنْعَقِدُ بِهِ الْجُمُعَةُ:

وَلَا يَثْبُتُ عَدَدٌ مُحَدَّدٌ فِي أَهْلِ قَرْيَةٍ حَتَّى تَجِبَ الْجُمُعَةُ عَلَيْهِمْ؛ فَكُلُّ
جَمَاعَةٍ فِي قَرْيَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِمْ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ، وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي حَدِّ
مُلْزِمٍ لِلْجَوَابِ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ، وَقَدْ رَوَى الدَّارِقُطْنِيُّ، وَغَيْرُهُ عَنْ جَابِرٍ
مَرْفُوعًا: (مَضَتْ السَّنَةُ: أَنَّ فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ إِمَامًا، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ فَمَا لَوْقَ
ذَلِكَ جُمُعَةٌ، وَأَضْحَى، وَفَطَرًا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ)^(٣)، وَلَا يَصِحُّ، وَرَوَى

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٥٣٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥١٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٣١٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥١١٣).

(٣) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٣/٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٧/٢).

الطبراني تحديدًا بِخَمْسِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ^(١)، وَلَا يَصُحُّ، وَرَوَى ابْنُ عَدِيَّ تَحْدِيدَهَا بِثَلَاثَةٍ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ الدَّوْسِيَّةِ^(٢)، وَلَا يَصُحُّ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي السُّنَّةِ وَتَأَمَّلَ الْأَثَرَ عَنِ الْأَصْحَابِ، وَجَدَ أَنَّهُ لَا يَصُحُّ فِي تَعْيِينِ عَدَدٍ لِلْجُمُعَةِ حَدِيثٌ، وَلَمْ يَكُنِ الصَّحَابَةُ يُقْبِلُونَهَا بِهِ مَعَ الْحَاجَةِ إِلَى الْحُكْمِ وَأَهْمِيَّتِهِ لِأَهْلِ الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ؛ فَأَمْرُهُ مِمَّا تَتَعَلَّقُ بِهِ صِحَّةُ الصَّلَاةِ وَفَسَادُهَا، وَلَمَّا لَمْ يَرِدْ مِنْ وَجْهِ قَوِيٍّ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَبَيَانِهِمْ وَتَشْدِيدِهِمْ فِيهِ، دَلٌّ عَلَى نُكْرَانِ الْوَارِدِ فِيهِ مِمَّا حَمَلَهُ بَعْضُ الضَّعَفَاءِ وَالْمَتْرُوكِينَ، وَتَعَدُّدُ مَخَارِجِهَا لَا يُقَوِّيْهَا.

وَفِي الْبَابِ: مَا يُعَارِضُهَا مِنَ السُّنَّةِ الْمَرْفُوعَةِ؛ وَهُوَ حَدِيثُ جَابِرٍ فِي خُرُوجِ الصَّحَابَةِ لِلتَّجَارَةِ وَالنَّبِيِّ ﷺ يَخْطُبُ، فَبَقِيَ عِنْدَهُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٣).

وَأَمَّا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: جَمَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعُونَ، فَكُنْتُ فِي آخِرِ مَنْ أَتَاهُ، قَالَ: (إِنَّكُمْ مَنُصُورُونَ، وَمُصِيبُونَ، وَمَفْتُوحٌ لَكُمْ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، وَلْيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)^(٤).

فَلَيْسَ صَرِيحًا أَنَّ الْجَمْعَ لصلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَلَيْسَ فِيهِ اسْتِحْبَابُ الْعَدَدِ وَلَا اشْتِرَاطُهُ؛ وَإِنَّمَا إِخْبَارٌ عَنْهُ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ الْحُفَاطِ فِي سَمَاعِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنْ أَبِيهِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٧٩٥٢).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ» (٢٠٤/٢)، وَالدَّارِقُطْنِيُّ فِي «سُنَّتِهِ» (٩/٢)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (١٧٩/٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٩٣٦)، وَمُسْلِمٌ (٨٦٣).

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٣٦/١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٢٥٧).

ومثله ما رواه أبو داود وابن ماجه؛ من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، وكان قائد أبيه بعدما ذهب بصره، عن أبيه كعب بن مالك؛ أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة، ترخّم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء، ترخمت لأسعد بن زرارة؟ قال: «لأنه أول من جمع بنا في هزم النيب من حرّة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخصمات»، قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: «أربعون»^(١).

فإنما هو إخبار عن الحال، لا بيان للحكم ولا التشريع.

ومحمد بن إسحاق تفرّد به عن محمد بن أبي أمامة، وهو صدوق صرح بسماعه عند الدارقطني وغيره^(٢)، ويحيل أحمد إلى ثبوت هذا الحديث^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَذُرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لا يجوز البيع بعد أذان الجمعة وقعود الخطيب، ولا خلاف في ذلك؛ وإنما الخلاف في بطلان البيع وصحته.

وقد كان السلف يترجون من يبيع بعد أذان خطبة الجمعة، بل منهم من يعزّره، وقد ذكر سُخْنُونُ في «نوازيله» أن عمر بن عبد العزيز يأمر إذا فرغ من صلاة الجمعة من يخرج، فمن وجد لم يحضر الجمعة، ربطه بعمد المسجد^(٤).

(١) أخرجه أبو داود (١٠٦٩)، وابن ماجه (١٠٨٢).

(٢) ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (١٧٢٤)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠١٣)، و«المعجم الكبير للطبراني» (٩٠٠)، و«سنن الدارقطني» (٥/٢)، و«المستدرک» للحاكم (٢٨١/١).

(٣) ينظر: «العلل ومعرفة الرجال» لأحمد، رواية ابنه عبد الله (٥٢٠/٢)، و«مسائل الإمام أحمد»، رواية ابنه عبد الله (ص ١٢٠).

(٤) ينظر: «البيان والتحصيل» (١٥٨/١٧).

وكان مالكٌ يُخَالِفُ قولَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ بالرُّبُطِ في المسجدِ،
وإنَّما ينبغي أنْ يُؤدَّبَ على ذلك بالسَّجْنِ أو الضَّرْبِ، كما ذكره
ابنُ رشدٍ^(١).

وقد تقدَّم الكلامُ على ما جاء في البيعِ بعدَ أذانِ الصَّلواتِ الخمسِ
عندَ قولِهِ تعالى من سورةِ النورِ: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ صَفَتَهُمْ بَيْعَ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَأَقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [٣٧].

قيامُ الخطيبِ في الخطبةِ:

قوله تعالى، ﴿وَلِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾، فيه:
مشروعيَّةُ قيامِ الخطيبِ في أثناءِ خطبتهِ، وهو مشروعٌ بالاتِّفاقِ، ويُسنُّ له
الجلوسُ عندَ قيامِ المؤذِّنِ للأذانِ، والجلوسُ بينَ الخطبتينِ، ولو فصلَ
بينَ الخطبتينِ، ولكنَّه لم يَجلسْ، صحَّحَ خطبتهِ.

وقد اختلفَ العلماءُ في وجوبِ قيامِ الخطيبِ حالَ خطبتهِ، وهل
تصحُّ منه وهو جالسٌ؟ على روايتينِ عن أحمدَ، والأظهرُ: وجوبُ القيامِ
عليه إنْ كانَ مستطيعًا؛ وهو الذي عليه أكثرُ الفقهاءِ، وحُكيَ الإجماعُ؛
وفيه نظرٌ.

ويسقطُ الوجوبُ عن الخطيبِ الذي يعجزُ عن القيامِ، لِمَرَضٍ أو
رهبةٍ مِنَ الناسِ؛ لأنَّ القيامَ ركنٌ في الصَّلَاةِ ويسقطُ عندَ العجزِ، وهو
أَوْجِبُ مِنَ القيامِ في خطبةِ الجمعةِ؛ فإنْ جازَ في الصَّلَاةِ المكتوبةِ القعودُ
للعجزِ، فإنَّه في خطبةِ الجمعةِ من بابِ أولى.

ولم يخطُبِ النبي ﷺ قاعدًا ولو مرةً حتى لَمَّا كَبُرَتْ سِنُّهُ وَحَطَمَهُ
الناسُ، ومثلهُ أبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ، وقد رَوَى مسلمٌ؛ من حديثِ جابرِ بنِ

سَمَرَةً؛ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْطُبُ قَائِمًا، ثُمَّ يَجْلِسُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَخْطُبُ قَائِمًا، فَمَنْ نَبَأَكَ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ جَالِسًا، فَقَدْ كَذَبَ، فَقَدْ وَاللَّهِ صَلَّيْتُ مَعَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِي صَلَاةٍ^(١).

وقد ثبت عن كعب بن عُجْرَةَ؛ أَنَّهُ «دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَبَدَ الرَّحْمَنَ بُنْ أُمِّ الْحَكَمِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْحَبِيبِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾»^(٢)؛ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَأَمَّا مَا يُرَوَى عَنْ عَثْمَانَ مِنَ الْخُطْبَةِ جَالِسًا^(٤)، فَهُوَ كَالصَّلَاةِ جَالِسًا لِلْعَاجِزِ؛ فَقَدْ كَبِرَتْ سِنُهُ وَمَاتَ فِي عَشْرِ التَّسْعِينَ، وَكَانَ فِيهِ رِغْدَةٌ لِكِبَرِهِ، وَمِثْلُهُ مَا جَاءَ عَنْ مُعَاوِيَةَ، فَالْأَصْلُ عَدَمُ تَرْكِ الصُّبْحَانَةِ لِمِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْمُسْتَدِيمِ وَالتَّهَاقُوتِ فِيهِ، وَقَدْ رَوَى مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ؛ قَالَ: شَهِدْتُ عُثْمَانَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ قَائِمًا، وَشَهِدْتُ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ قَاعِدًا، فَقَالَ: «أَمَّا إِنِّي لَمْ أَجْهَلِ السُّنَّةَ؛ وَلَكِنِّي كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَكَثُرَتْ حَوَائِجُكُمْ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقْضِيَ بَعْضَ حَوَائِجِكُمْ وَأَنَا قَاعِدٌ، ثُمَّ أَقُومَ فَأَخْذَ نَصِييَ مِنَ السُّنَّةِ»^(٥).



(١) أخرجه مسلم (٨٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٢٥٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٤/١٩).



سُورَةُ الطَّلَاقِ

سورة الطَّلَاقِ سورة مدنيّة بلا خلاف^(١)، وقد أنزل الله فيها أحكام الطلاق والمطلقات، وبين الله ما لهنّ وما عليهنّ، وتفاصيل هذه الأحكام نزلت في المدينة، سواء في هذه السورة أو غيرها، وكان ابن مسعود يسمّيها: سورة النساء القُصْرَى^(٢).

❏ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَنِيَّهِنَّ وَأَحْضُوا أَلْمَدَّةَ وَأَنْقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَكَانَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١ فَإِذَا بَلَغَ الْأُولَىٰ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ بَقِيَ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ١ - ٢].

أحكام الطلاق جليّة، ولأنّها عظيمة الأثر خاطب الله نبيّه ﷺ بها، مع أنّ الخطاب للمؤمنين كافّة؛ فنادى الله نبيّه بهويّه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ للتعظيم، ثمّ بين عموم الحكم: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِمَدَنِيَّهِنَّ﴾.

(١) تفسير ابن عطية (٣٢٢/٥)، وازاد المسير (٢٩٥/٤)، وتفسير القرطبي (٢٦/٢١).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٤٥٣٢) و(٤٩١٠)، وتفسير الطبري (٥٥/٢٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٣٦١/١٠).

وقد جاء أن هذه الآية نزلت في تطليق النبي ﷺ لحفصة، فأمره الله بإرجاعها، فقبل له: راجعها؛ فإنها صوامة قوامة^(١).

وقد ثبت في «الصحيحين»، عن عبد الله بن عمر؛ أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ فيه رسول الله ﷺ، ثم قال: (ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها؛ فذلك العدة كما أمر الله ﷻ)^(٢).

وقد بين الله قبل ذلك في سورة البقرة عدة المطلقة الحائض عند قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [٢٢٨].

طلاق السنة وطلاق البدعة:

فوله تعالى: ﴿مُطَلِّقَتَيْنِ﴾.

للطلاق عدة وموضع ينزل فيها، وليس للزوج أن يتكلم بالطلاق بهواه وفي الوقت الذي يشاء هو؛ فقد جعل الله للطلاق موضعاً، وموضعه أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، أو يطلقها حاملاً قد اتضح حملها.

وقد قال ابن مسعود^(٣)، وابن عباس^(٤)، وابن عمر^(٥)؛ في قوله تعالى: ﴿مُطَلِّقَتَيْنِ﴾: إنه في طهر من غير جماع؛ وبه قال عطاء ومجاهد والحسن وعكرمة وميمون بن مهران^(٦).

وكل طلاق لم يوافق السنة، فهو طلاق بدعي، أما السني فتقدم، وأما الطلاق البدعي:

(١) «تفسير الطبري» (٣٠/٢٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣٣٥٩/١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٨)، ومسلم (١٤٧١).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/٢٣). (٤) «تفسير الطبري» (٢٩/٢٣).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٨/٢٣)، و«تفسير ابن كثير» (١٤٣/٨).

(٦) «تفسير الطبري» (٢٥/٢٣ - ٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (١٤٣/٨).

فهو تطليقُ الزوجةِ في خَيْضِهَا أو نِفَاسِهَا، أو في طُهرٍ قد جَامَعَهَا فيه، أو يُطَلِّقُهَا في زمنٍ عِدَّتِهَا مِنْ تَطْلِيقِ سَابِقَةٍ، أو يُطَلِّقُهَا أَكْثَرَ مِنْ طَلْقٍ مَرَّةً وَاحِدَةً.

وَأَمَّا الصَّغِيرَةُ وَالْأَيْسَةُ الَّتِي لَا تَحِيضُ، فَلَا طَلَاقَ بِدَعْيَا يَتَعَلَّقُ بِخَيْضِهَا وَنِفَاسِهَا؛ وَإِنَّمَا الْبِدْعِيُّ يَتَعَلَّقُ بِتَطْلِيلِهَا فِي زَمَنِ عِدَّتِهَا مِنْ طَلْقٍ سَابِقَةٍ، أَوْ تَطْلِيلِهَا بِأَكْثَرَ مِنْ وَاحِدَةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً.

وَمِنَ الْأَثَمَةِ كَالشَّافِعِيِّ: مَنْ لَمْ يَجْعَلْ مَجَرَّدَ الطَّلَاقِ ثَلَاثًا بِدَعَا مَا دَامَ طَلْقُهَا فِي طُهرٍ لَمْ يُجَامِعْهَا فِيهِ؛ فَاعْتَبَرَ الزَّمَانُ وَلَمْ يَعْتَبِرِ الْعِدَّةَ، وَلَكِنْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَ عَمَرَ أَنْ يُرَاجِعَهَا، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ بَعْدُ: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، وَالْأَمْرُ: الرَّجْعَةُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ طَلَاقَ الرَّجْعَةِ، وَهُوَ الْأَصْلُ، وَالثَّلَاثُ عَلَى قَوْلِهِ لَا رَجْعَةَ فِيهَا، وَقَدْ أَخَذَ بَعْمُومِ الْآيَةِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾، فَوَسَّعَ فِي عِدِّ الطَّلَاقَاتِ مَا دَامَ فِي الْعِدَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ أَوْ مَجْلِسٍ وَاحِدٍ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَطْلَقْ مَرَّتَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أَمَرَ اللَّهُ بِضَبْطِ الْعِدَّةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِهِ حَقُوقٌ وَاسْتِحْلَالُ فُرُوجٍ وَتَحْرِيمُهَا، وَمِنْ ذَلِكَ الْمِيرَاثُ؛ فَلَوْ مَاتَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ عِدَّةِ طَلَاقِ الرَّجْعَةِ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْهَا، فَإِنَّهُمَا يَتَوَارَثَانِ، وَتَعْتَدُ الزَّوْجَةُ لَوَفَاءِ زَوْجِهَا، وَيَضْبِطُ الْعِدَّةَ تُحَفِّظُ الْأَرْحَامَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهَا نُطْفَةٌ لَزَوْجٍ سَابِقٍ، فَتَزَوَّجُ غَيْرَهُ فَيَنْتَسِبُ الْوَلَدُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَكُلُّ خِطْبَةٍ لَزَوْجَةٍ فِي عِدَّةِ طَلَاقِهَا فِيهَا مُحَرَّمَةٌ؛ لِأَنَّهَا فِي عِصْمَةِ زَوْجِهَا وَاحْتِمَالِ رَجْعَتِهَا إِلَيْهِ، فَضْلًا عَنْ حُرْمَةِ وَطْءٍ غَيْرِ زَوْجِهَا لَهَا - وَلَوْ كَانَ بِعَقْدٍ - فِي أَثْنَاءِ الْعِدَّةِ.

السُّكْنَى لِلْمُطَلَّقة:

قال تعالى: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، نَسَبَ اللهُ البيوتَ إليهنَّ، فقال: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾؛ لِيُبيِّنَ حَقَّهُنَّ فيها بالسُّكْنَى في أَثْنَاءِ عِدَّتِهَا، فالمُطَلَّقةُ الرجعية لا يجوزُ لزوجها إخراجها بعدَ تطليقهِ لها حتى تَخْرُجَ مِنْ عِدَّتِهَا؛ كما أَنَّهُ لا يجوزُ لها أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾؛ لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ مُطَلَّقةً فَهِيَ فِي عِصْمَةِ زَوْجِهَا لَا تَخْرُجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَإِنْ خَرَجَتْ الْمُطَلَّقةُ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَلَا نَفَقَةَ لَهَا وَلَا سُكْنَى؛ وَهَذَا مُقْتَضَى سِيَاقِ الْآيَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفُحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ بَيْنَ اللهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِنْ أَتَتْ بِفَاحِشَةٍ بَيِّنَةٍ، وَهِيَ الزُّنَى، فَلَزَوْجِهَا إِخْرَاجُهَا مِنْ مَنْزِلِهِ؛ لِأَنَّهَا خَانَتْ أَمَانَتَهُ وَعَهْدَهُ مَعَهَا وَمِيثَاقَ اللهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهَا. وَقَدْ فَسَّرَ الْفَاحِشَةَ بِالزُّنَى جَمَاعَةٌ؛ كَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ^(١).

وَمِنَ السَّلَفِ: مَنْ حَمَلَ الْفَاحِشَةَ هُنَا عَلَى فُحْشِ اللِّسَانِ وَبَدَءَاتِهِ؛ كَأَنْ تَسْلُطَ بِالْفُحْشِ عَلَى الزَّوْجِ وَعَلَى أَهْلِهِ كَأُمِّهِ وَأَبِيهِ؛ وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٢).

وَمِنْهُمْ: مَنْ حَمَلَ الْفَاحِشَةَ عَلَى كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَرُوِيَ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا^(٣)، وَصَوَّبَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بَيَانٌ أَنَّ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ وَالسُّكْنَى أَحْكَامٌ لِلَّهِ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَنْهَا مَهْمَا بَلَغَتْ الْبَغْضَاءُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، فَأَمَرَ اللهُ وَحْدَهُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَنْ

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/٣٤).

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/١٤٣).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٣/٣٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/٣٤).

خَالَفَ تِلْكَ الْحُدُودَ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، فَظَلَمَهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَاللهُ لَمْ يَشْرَعْ
الْأَحْكَامَ إِلَّا لِمَنْفَعَتِهِ وَلَوْ جَهَلَ ذَلِكَ أَوْ غَابَتْ عَنْهُ حِكْمَتُهُ، وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾؛ يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ
يُحْدِثُ مِنْ تَغْيِيرِ الْحَالِ وَالرَّأْيِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بَعْدَ عَجَلَةِ الطَّلَاقِ مَا يَنْدُمَانِ
عَلَيْهِ، فَيَتَرَاجَعَانِ عَنْ قُرْبٍ قَبْلَ خُرُوجِ الزَّوْجَةِ مِنْ بَيْتِهَا، وَقَبْلَ انْقِضَاءِ
الْعِدَّةِ، فَجَعَلَ اللَّهُ الْعِدَّةَ أَجَلًا لِلنَّظَرِ وَمَرَاجَعَةِ النَّفْسِ، فَلَوْ تَفَرَّقَ الزَّوْجَانِ
مِنْ أَوَّلِ وَقُوعِ الطَّلَاقِ، وَخَرَجَتِ الزَّوْجَةُ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا، كَانَتْ الرُّجْعَةُ
أَشَقَّ، وَمَكَابَرَةُ النَّفُوسِ وَعِنَادُهَا أَشَدَّ، فَتُهْلِكُ الْعَجَلَةُ أَهْلَهَا، وَاللَّهُ يُرِيدُ
بِهِمْ رَفَقًا.

وقد صحَّ عن عليٍّ قوله: مَا طَلَّقَ رَجُلٌ طَلَاقَ السُّنَّةِ، فَتَدِمَ^(١).
وذلك أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَشْرَعْ ذَلِكَ وَيَضَعْ لَهُ عِدَّةً وَحَدًّا إِلَّا لِتَخْرُجَ الزَّوْجَةُ
مِنْ نَفْسِ زَوْجِهَا، وَالزَّوْجُ مِنْ نَفْسِ زَوْجَتِهِ، وَلَا يَجِدَا أَلَمًا وَحَسْرَةً عَلَى
الْفِرَاقِ، وَلَكِنْ يَنْدَمُ النَّاسُ عَلَى الطَّلَاقِ بِمَقْدَارِ مُخَالَفَتِهِمْ لِحُدُودِ اللَّهِ فِيهِ.

السُّكْنَى لِلْمُطَلَّقَةِ الْمَبْتُونَةِ:

وقد ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ
يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ الرُّجْعَةُ؛ كَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ وَعَطَاءُ
وَقَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ^(٢).

وَأَخَذَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ مِنْ لَازِمِ هَذِهِ الْآيَةِ وَدَلِيلِ خِطَابِهَا: عَدَمَ
وَجُوبِ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةِ لِلْمُطَلَّقَةِ الْمَبْتُونَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يُحْدِثَ لَهَا مَعَ
زَوْجِهَا أَمْرًا فَتَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَبِقَاؤِهَا فِي عِصْمَتِهِ قَدْ تَتَبَعُهُ مَفْسَدَةٌ أَنْ يَسْتَحِلَّ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١٧٧٣٧)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٣٢٥/٧).

(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ» (٣٨/٢٣ - ٣٩).

منها ما حَرَّمَ عليه كَنَظَرٍ ومباشَرَةٍ؛ لأنَّه أَجَنَّبِيَّ عنها؛ وبهذا القول قال أحمدُ وجماعةٌ، وقد رَوَى أَيُّوبُ، قال: سمعتُ الحسنَ وعِكرمةَ يقولانِ: المطلَّقةُ ثلاثاً، والمُتوفى عنها: لا سُكْنَى لها ولا نفقة؛ قال: فقال عِكرمةُ: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، فقال: ما يُحْدِثُ بعدَ الثلاثِ^(١).

والأئمةُ الثلاثةُ - أبو حنيفةً، ومالكٌ، والشافعيُّ - يُوجِبُونَ السُّكْنَى للمُطلَّقةِ ثلاثاً، ولكنَّهم يَخْتَلِفُونَ في النفقة؛ فأوجبها أبو حنيفةٌ لها، ولم يُوجبها مالكٌ والشافعيُّ.

والحقُّ بذلك في قولِ أحمدَ المُتوفى عنها زوجها: أنَّه لا يجبُ لها سُكْنَى؛ لانْتِفَاءِ عِلَّةِ الرَّجْعَةِ بموتِ الزوج، وهي العِلَّةُ التي أَمَرَ اللهُ بِعَدَمِ إخراجِها مِنْ بَيْتِها، ونهاها هي عن الخروجِ منه، وعَدَمُ وجوبِ السُّكْنَى لا يعني وجوبَ إخراجِها ولا استحبابَهُ، بل لها مِنْ مالِ زوجها كما لبقيةِ الوَرثةِ.

ولم يجعلِ النبيُّ ﷺ للمبتوتَةِ نفقةً ولا سُكْنَى؛ كما في حديثِ فاطمةَ بنتِ قيسِ الفَهريَّةِ، حينَ طَلَّقها أبو عمرو بنُ حفصِ آخرِ ثلاثِ تطليقاتٍ، وكان غائِباً عنها باليمنِ، فأرسلَ إليها بذلك، فأرسلَ إليها وكيلاً بشعيرٍ - نفقةً - فتسَخَّطَتْ، فقال: واللهِ ليس لك علينا نفقةٌ، فانتِ رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: (ليس لك عليه نفقةٌ ولا سُكْنَى)، وأمرها أن تَعْتَدَ في بيتِ أمِّ شريكٍ، ثم قال: (تلكِ امرأةٌ بغشاهَا أَصْحَابِي، اخْتَدَى عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَصَمَى تَضَعِينِ يَدَاكَ)^(٢).

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

وقد جاء عن عمر بن الخطاب^(١)، وابن مسعود^(٢) وابن عباس: أنه للمطلقة المبتوتة حاملاً وغير حامل السكني والنفقة.
ومن العلماء: من لم يجعل للمبتوتة سكناً ولا نفقة إلا إن كانت حاملاً؛ لأن الله خصها بالذكر فيما يأتي، وخصوصية الذكر دليل على الاستثناء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ فَأَتْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾: جعل الله نهاية العدة نهاية أجل الإمهال المتعلق بالرجعة وحق الزوجة الرجعية في النفقة والسكنى، وقد أمر الله من رغب في الرجعة أن يرجع زوجته بمعروف، وإن رغب في الفراق أن يفارقها بمعروف بلا أذية ولا سوء.

الإشهاد على إرجاع المطلقة:

وأمر الله بالإشهاد على ذلك لمعرفة انقضاء الأجل؛ حتى تتزوج المرأة زوجاً غيره إن شاءت، وإن رغب في إرجاعها في العدة، أشهد على ذلك؛ لظاهر الآية، ولا خلاف عند العلماء في مشروعية الإشهاد؛ وإنما خلافتهم في وجوبه.

واختلفوا في إيجاب القول بالرجعة، وهل تصح بالفعل وحده؛ كمن يقبل زوجته ويأشهرها يريد رجعتها بذلك، أو لا بد من القول؟
فمن قال بوجوب الإشهاد، فلازم قوله: أن الرجعة لا تصح إلا بالقول، فقد اختلفوا في وجوب الإشهاد على قولين، هما قولان في مذهب أحمد والشافعي:

قال جماعة من العلماء بالوجوب؛ وذلك لظاهر الأمر في الآية،

(١) «صحيح مسلم» (٤٦/١٤٨٠).

(٢) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» (١٣٦١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٨٦٥٤)، و«سنن الترمذي» (١١٨٠).

وَلَمَّا رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ، ثُمَّ يَفْعُ بِهَا، وَلَمْ يُشْهَدْ عَلَى طَلَاقِهَا، وَلَا عَلَى رَجْعَتِهَا؟ فَقَالَ: طَلَّقْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ، وَرَاجَعْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ، أَشْهَدْ عَلَى طَلَاقِهَا، وَعَلَى رَجْعَتِهَا، وَلَا تُعَذِّبُ^(١).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ؛ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ ذَلِكِ مَعَكُمْ﴾: لَا يَجُوزُ فِي نِكَاحٍ وَلَا طَلَاقٍ وَلَا رِجَاجٍ إِلَّا شَاهِدًا عَدْلًا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ عَدْلٍ^(٢).

وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِشْهَادِ فِي الْآيَةِ عَلَى الْإِسْتِحْبَابِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لِلْإِرْشَادِ؛ كَمَا فِي الْإِشْهَادِ فِي الْبَيْعِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ وَبِهَذَا يَقُولُ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ، وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِمَا، وَهُوَ الْأَظْهَرُ؛ فَالرَّجْعَةُ تَعَلُّقُ بِالزَّوْجِ لَا بِالزَّوْجَةِ، فَتَحْتَاجُ إِلَى قَبُولِ مَنْهَا، وَالْقَوْلُ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ، وَلَمَّا كَانَ الْبَيْعُ لَا يَجِبُ فِيهِ الْإِشْهَادُ، وَفِيهِ قَبُولٌ وَإِجَابٌ، وَجَاءَ الْأَمْرُ فِيهَا بِصِيغَةِ الْأَمْرِ هُنَا؛ فَالْإِشْهَادُ فِي الرَّجْعَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَى أَنَّهُ لِلْإِرْشَادِ وَالذَّلَالَةِ.

* * *

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِمَنْ امْتَثَلَ أَمْرَهُ فِي الطَّلَاقِ وَالرَّجْعَةِ، وَالْإِمْسَاكِ وَالتَّسْرِيعِ بِمَعْرُوفٍ، وَالْإِشْهَادِ عَلَى ذَلِكَ - أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا مِمَّا

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢١٨٦)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٠٢٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٤٥/٨).

يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ ضَيْقٍ، وَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ، اتَّسَعَتْ مَخَارِجُ فَرَجِهِ، وهذه الآيةُ
 نظيرُ قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]، ونظيرُ
 قوله: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يَمُنْ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]، فيُجازي الله
 الزوجين بحسبِ امتثالهما لأمرِ الله، وبحسبِ قصدهما.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ
 فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأَوَلَّتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ
 حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

يَبَيِّنُ اللَّهُ فِي الْآيَةِ عِدَّةَ الْمَطْلَاقِ الْبَائِسِ، وهي التي لا تَحِيضُ لِكَبَرِ
 سِنِّهَا، ومِثْلُهَا الصَّغِيرَةُ التي لا تَحِيضُ: أَنَّ عِدَّتَهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ.

وهو له تعالى: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾؛ يعني: في معرفةِ الْعِدَّةِ لَهُنَّ، فَعِدَّتُهُنَّ
 هي ما يُبَيِّنُهُ اللَّهُ لَكُمْ؛ وبهذا المعنى قال سعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ^(١)، وقال مجاهدٌ:
 إِنْ ارْتَبْتُمْ بما فِيهِنَّ مِنْ دَمٍ: هل هو حَيْضٌ أم استحاضةٌ؟^(٢)، وسعيدُ بْنُ
 جُبَيْرٍ أَفْقَهُ وَأَبْصَرُ، وَإِنْ كَانَ يَصْحُ قَوْلُ مجاهدٍ وَمَنْ وَافَقَهُ فِي حُكْمِ
 الْمُرْنَاةِ بَيْنَ دَمِ الْحَيْضِ وَالِاسْتِحَاضَةِ، إِلَّا أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ أَقْرَبُ إِلَى قَوْلِ
 سعيدٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد صَحَّ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ مِنَ الرَّبِيةِ الْمَرْأَةَ الْمُسْتَحَاضَةَ،
 والتي لا يَسْتَقِيمُ لها الْحَيْضُ؛ تَحِيضُ فِي الشَّهْرِ مِرَارًا، وَفِي الْأَشْهُرِ مَرَّةً؛
 فَعِدَّتُهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ^(٣).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/٤٩).

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/١٤٩).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/٥٢).

عِدَّةُ الْحَامِلِ مِنَ الطَّلَاقِ وَالْوَفَاةِ:

وَأَمَّا عِدَّةُ الْحَامِلِ، فَلَا تَخْلُو: إِمَّا أَنْ تَكُونَ عِدَّةُ وَفَاةٍ، أَوْ عِدَّةُ طَلَاقٍ:

أَمَّا عِدَّةُ الْحَامِلِ الَّتِي طُلِّقَتْ عِنْدَ اسْتِبَانَةِ حَمْلِهَا، فَعِدَّتُهَا أَنْ تَضَعَ وَلَدَهَا؛ وَهَذَا فِي قَوْلِ عَامَّةِ السَّلَفِ، وَحُكْمِ الْإِجْمَاعِ عَلَى ذَلِكَ؛ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١).

وَأَمَّا عِدَّةُ الْحَامِلِ مِنْ وَفَاةِ زَوْجِهَا، فَعَلَى حَالَيْنِ:

الْأَوَّلَى: حَامِلٌ بَقِيَ مِنْ وَضْعِهَا فَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرِ؛ تَخْرُجُ مِنْ عِدَّتِهَا بِوَضْعِ حَمْلِهَا بِلَا خِلَافٍ.

الثَّانِيَةُ: حَامِلٌ وَأَجَلٌ وَضَعَ حَمْلُهَا دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرِ؛ فَعَامَّةُ الْفُقَهَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: عَلَى أَنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ عِدَّةِ وَفَاتِهَا بِوَضْعِ حَمْلِهَا وَلَوْ وَضَعَتِ الْحَمْلَ بَعْدَ الْوَفَاةِ بِسَاعَةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

وَبِهَذَا قَضَى عُمَرُ وَعِثْمَانُ وَزَيْدٌ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ؛ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ جَالِسٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخِرُ الْأَجَلَيْنِ، قُلْتُ أَنَا: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَبِي - يَعْنِي: أَبَا سَلَمَةَ - فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَامَةً كُرْبًا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا، فَقَالَتْ: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَخُطِبَتْ، فَأَنكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّائِلِ فِيمَنْ خُطِبَهَا^(٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٩).

(١) تفسير الطبري (٥٤/٢٣).

وَرَوَى عُلُقَمَةُ بْنُ قَيْسٍ؛ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: مَنْ شَاءَ لَاَعْنَتُهُ، مَا نَزَلَتْ: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ إِلَّا بَعْدَ آيَةِ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، قَالَ: وَإِذَا وَضَعَتِ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، فَقَدْ حَلَّتْ؛ يُرِيدُ بِآيَةِ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] ^(١).

وقد تقدّم الكلام على هذه المسألة، وعموم عِدَّةِ الْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [٢٣٤].

❏ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِحُبِّهِمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلٍ فَلْيَبْقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْكَبْنَهُنَّ لِحُبِّهِمْ وَأَتِمُّوا إِلَهُكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَقَامَرْتُمْ فَسَرُّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

أَمَرَ اللَّهُ بِسُكْنَى الْمَطْلُوقَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِخْرَاجُهَا حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ عِدَّتِهَا، فَتُسْتَبَيِّنَ أَمْرَهَا، وَإِذَا أَمَرَ اللَّهُ بِإِسْكَانِ الْمَطْلُوقَةِ فِي عِدَّتِهَا، فَجُوبُ السُّكْنَى عَلَى الزَّوْجِ لِلزَّوْجَةِ مَطْلَقًا وَاجِبٌ مُتَعَيَّنٌ، وَهُوَ أَوَّلَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ أَسْكِنُوهُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ وَمَا تَجِدُونَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَاسْتَطَاعَةٍ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ السُّكْنَى بِحَسَبِ قُدْرَةِ الزَّوْجِ، لَا بِحَسَبِ حَاجَةِ الزَّوْجَةِ؛ حَتَّى لَا يُضَيَّرَ بِنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِحُبِّهِمْ عَلَيْهِمْ﴾: لَا تَفْعَلُوا شَيْئًا مِنَ الضَّيْقِ وَالْحَرَجِ الَّذِي يَدْفَعُهُنَّ إِلَى تَرْكِ حَقِّهِنَّ مِنَ السُّكْنَى؛ هَرْبًا مِنَ الْأَذَى؛

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٤/٢٣)، وَالتَّنَائِي فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٥٦٨٦).

فتكونوا أخرجتموهن ولو لم تنطقوا بذلك، بل هو أشد؛ فقد جمعتم سيئتين، وهما: سيئة الأذى، وسيئة الإخراج.

وهو له تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَقَّ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: ذكر الله الحامل وخصها بالذكر هنا؛ لأن أجلها قد يطول؛ فربما يستنقل بعض الأزواج سكنها ونفقتها تسعة أو ثمانية أشهر إن كان طلاقها بداية حملها، فأمر الله بالإنفاق عليها وإسكانها حتى تضع حملها.

وهو له تعالى: ﴿إِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ يدل هذا على أن المرأة إن كانت في عظمة زوجها لا تستحق أجر الرضاع؛ وإنما لها النفقة الكافية، ولكن إن كانت مطلقة، فيجب على الزوج إعطاؤها نفقة الرضاع؛ لانقطاع نفقتها الخاصة بها، والولد شرك بين أبويه؛ فكما تستحق زيادة النفقة لأجله وهي في عظمته، فإنها تستحق ذلك القدر بعد طلاقها منه وخروجها من العدة.

وقد حمل بعض السلف وجماعة من العلماء هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَتْ حَمْلٍ﴾ على الحامل المطلقة البائن؛ وذلك لأن الرجعية زوجة، فالنفقة عليها كسائر النفقة على الرجعيات سواء كانت حاملاً أو غير حامل؛ وبهذا قال ابن عباس^(١).

وهو له تعالى: ﴿وَأَنْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾، فيه: وجوب التناصح بين الزوجين حتى بعد الطلاق، وأن يكون بينهما العدل لا الشح والأثرة والطمع، وفي هذا تطهير لقلوب الزوجين من الانتصار للنفس والانتقام من الآخر لما سلف من سوء عشرة.

وهو له تعالى: ﴿وَإِنْ تَقَارَرْتُمْ فَتَرْضَخْ لَهُ أُخْرَى﴾؛ يعني: لم تنوفاقوا على أمر الرضاع أو أجرته، فيجب كفايته بمرضعة أخرى، وهذه الآية في

إِرْضَاعِ الْأُمِّ الْمَطْلُوقَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْبَقَرَةِ آيَةُ الرِّضَاعِ عَامَّةً، وَقَدْ تَقَدَّمَ
الْكَلَامُ عَلَى الرِّضَاعِ وَأَحْكَامِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ
فَلْيُفِيقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ
يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

أَمَرَ اللَّهُ الْوَالِدَ أَنْ يُنْفِقَ عَلَى وَلَدِهِ مِنْ زَوْجَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ، وَذَلِكَ مَا
يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ؛ لِاتِّصَالِهِ بِمَا سَبَقَ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْعُسْرِ، بَلْ
بِالْيُسْرِ وَبِحَسَبِ الطَّاقَةِ.

* * *



سُورَةُ التَّحْرِيمِ

سورة التحريم سورة مدنية بلا خلاف^(١)، ذكر الله فيها حُكْمَ تحريم الحلال على النفس وما وقع من النبي ﷺ في ذلك، وحُكْمَ ذلك وكفارته، وبيان بعض حال النبي مع أزواجه، وذكر الله المنافقين والكافرين وأمر بجهادهم والشدة عليهم.

❏ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغْ مَرَضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ①﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿التَّحْرِيمُ: ١-٢﴾.

قد حرّم النبي ﷺ شيئاً، وقد اختلف في عين ما حرّمه على نفسه، وقد ورد في نزول سورة التحريم أسباب متعددة، ولكنّ أصحّ ما جاء في نزولها ما ثبت في «الصحيحين»، عن عائشة؛ قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا، فَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلَى: أَيُّنَا دَخَلَ عَلَيْهَا، فَلْتَقُلْ لَهُ: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرٍ! قَالَ: (لَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، لَكِنَّ أَهْوَدَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ، لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا)^(٢).

وإنما قلن ذلك لتفسير النبي ﷺ من الإكثار من الدخول على بعض

(١) «تفسير القرطبي» (٦٧/٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٢)، ومسلم (١٤٧٤).

أزواجه واختصاصها له بطعام دونهن، وقد جاء في «الصحيحين»؛ أن رسول الله ﷺ كان يشتد عليه أن يوجد منه ريح؛ ولهذا قلن له: أكلت مغافير؛ لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: (بل شربت عسلاً)، قلن: جرسن نخله العرظ^(١).

ومرادهما بذلك: رعت نخله شجر العرظ الذي صنعه المغافير؛ فكان له رائحة على شاربها.

وفي مسلم؛ من وجه؛ أن عائشة وسودة تواطأتا، وأن من سقته العسل حفصة^(٢).

والأول أرجح، وصح عن عمر؛ أنهما عائشة وحفصة؛ كما في «الصحيحين»^(٣).

وقد صح أن النبي ﷺ حرم أم إبراهيم عليه؛ كما روى الهيثم بن كليب في «مسنده»، عن عمر؛ قال: قال النبي ﷺ لحفصة: (لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام)، فقالت: أتحرّم ما أحل الله لك؟ قال: (فوالله لا أقربها)، قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله: ﴿قَدْ رَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(٤).

وروى ثابت، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ كانت له أمة بطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها على نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، إلى آخر الآية^(٥).

وقد صح عن جماعة من السلف: أن الذي حرّمه النبي ﷺ على نفسه هو وطء جاريته؛ منهم مسروق^(٦) وقتادة^(٧).

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢١/١٤٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

(٤) ينظر: «المختارة» للضياء المقدسي (١٨٩)، و«تفسير ابن كثير» (١٥٩/٨).

(٥) أخرجه النسائي (٣٩٥٩).

(٦) «تفسير الطبري» (٨٤/٢٣).

(٧) «تفسير الطبري» (٨٨/٢٣).

وأقوى ما جاء فيما حرّمه النبي ﷺ على نفسه: العسل والجارية، وكل ذلك صحيح، وصحة الانثيين ليس اضطراباً؛ وإنما وقعا جميعاً، ومثل بيت النبوة مع كثرة أزواجه، وتنافسهنّ عليه، وغيرهنّ بعضهنّ من بعض: يحتمل تكرّر مثل هذا، والقرآن قد ينزل على واحدة منهما، أو ينزل عليهما جميعاً.

تحريم الحلال لا يجعله حراماً:

وإذا حرّم الإنسان حلالاً على نفسه، لا يكون ما حرّمه محرّماً في نفسه؛ وإنما الحرام والحلال من مصطلحات الشريعة واختصاص المشرع؛ وذلك أن الله جعل تحريم الحرام أمراً لا يمكن تحقيقه؛ فقد سمّاه زوراً؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا مَنكُرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]، والزور لا يتحقّق، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَمَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استفهام إنكار، ويتضمّن إنكاراً؛ لأنّ مضمونه إنشاء.

وتحريم الحلال لا أثر له على العين المحرّمة في ذاتها، ولا تحرّم به مطلقاً باتفاق الأئمة الأربعة، خلافاً لقول ينسب إلى أبي حنيفة وميل لأبي الخطاب من الحنابلة.

وقد ذمّ الله تحريم الحلال وتحليل الحرام وجعلهما في الأمر سواء في مقام المخالفة لتشريعهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا إِنَّمَا تَصِفُ آلَسُنُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمُوهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آتَاكُم مِّنْهُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]؛ فلو كان تحريم الحلال مؤثراً على العين لمجرّد تحريم الإنسان على نفسه، لجاز أن يكون ذلك في تحليل الحرام، فالتغيّر الذي يلحق العين تشريع، وليس مجرد إلزام بامتناع النفس عنها.

وَأَمَّا مَنْ يَجْعَلُ الْعَيْنَ تَحْرِمًا بِذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ بعدما ذَكَرَ اللَّهُ تَحْرِيمَ نَبِيِّهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ التَّحْلِيلَ بَعْدَ تَحْرِيمٍ؛ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْحِلُّ بَعْدَ عَقْدٍ؛ فَالْيَمِينُ تُعَقَّدُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فَالْكَفَارَةُ تُحِلُّ مَا انْعَقَدَ عَلَيْهِ الْقَلْبُ، وَلَيْسَ الْحُكْمُ الَّذِي انْعَقَدَ عَلَى الْعَيْنِ.

تَحْرِيمُ الْحَلَالِ يَمِينٌ وَكُفَّارَةٌ:

وَمَنْ قَصَدَ بِتَحْرِيمِهِ حَلَالَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ تَكُونَ يَمِينًا تَمْنَعُهُ عَنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي جَعْلِ تَحْرِيمِ الْحَلَالِ يَمِينًا، وَفِي الْمَحْلُوفِ بِهِ فِيهَا:

فَمِنْ الْعُلَمَاءِ: مَنْ كَرِهَهَا؛ كَأَحْمَدَ وَجَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ؛ حَيْثُ حُمِلَتْ عَلَى مِثَابَةِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ.

وَجَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: عَلَى جَوَازِهَا؛ لِأَنَّ الْحَالِفَ لَمْ يَحْلِفْ بِمَخْلُوقٍ؛ وَإِنَّمَا هُوَ إلِزامٌ لِلنَّفْسِ بِشَيْءٍ أَمَامَ اللَّهِ، وَحَالُهُ كَحَالِ النَّذْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى تَحْرِيمَ الْحَلَالِ، ذَكَرَ أَنَّهُ يَنْعَقِدُ عَلَى إلِزامِ كَالْيَمِينِ الصَّرِيحَةِ، فَجَعَلَ لَهُ حَلًّا فِي قَوْلِهِ: ﴿تَحِلَّةَ﴾، ثُمَّ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَمِينًا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَيْمَانِكُمْ﴾.

وَلَكِنَّ السَّلَفَ مُخْتَلِفُونَ فِي تَحْرِيمِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ: هَلْ كَانَ تَحْرِيمًا مَجْرَدًا فَتَكُونُ التَّحِلَّةُ مُتَعَلِّقَةً بِالتَّحْرِيمِ الْمَجْرَدِ، أَوْ اقْتَرَنَ بِيَمِينٍ فَتَكُونُ التَّحِلَّةُ فِي الْآيَةِ عَلَى الْيَمِينِ لَا عَلَى التَّحْرِيمِ:

فَمِنْ السَّلَفِ: مَنْ قَالَ: إِنَّهُ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ فَجَعَلَهَا اللَّهُ يَمِينًا وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا يَمِينٌ؛ وَهَذَا ظَاهِرُ قَوْلِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ^(١).

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/٨٨).

ومنهم مَنْ قال: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَلَفَ يَمِينًا مع تحريمِهِ؛ وهذا قولُ الشَّعْبِيِّ ومسروقٍ وابنِ زيدٍ^(١).

وقد اختلفَ العلماءُ في كفارةِ تحريمِ الحلالِ المجرَّدِ عن لفظِ اليمينِ: هل يَلَزَمُ عليه كفارةٌ أو لا؟

ذهبَ الحنفيَّةُ والحنابلةُ: إلى لزومِ الكفارةِ فيه؛ لِمَا تقدَّم حيثُ جعلَ اللهُ تحريمَ الحلالِ يَمِينًا، ثُمَّ جعلَ له تَحِلَّةً، وبه قالَ عمرُ؛ رواه عنه عِكْرِمَةُ^(٢)، وقد صحَّ عن ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قالَ: «إِذَا حَرَّمَ الرَّجُلُ عَلَيَّهِ امْرَأَتَهُ، فَهِيَ يَمِينٌ يُكْفَرُهَا، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ رواه مسلمٌ^(٣).

وجاء عن ابنِ مسعودٍ^(٤)، وعائشة^(٥): أَنَّ فيه كفارةَ يمينٍ، وقد صحَّ هذا عن جماعةٍ مِنَ التابعينَ، منهم مسروقٌ والحسنُ وقتادة^(٦).

ويُذَكَّرُ على ذلك: أَنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَرَ تحريمَ الحلالِ، لم يَرْتَبْ عليه حُكْمًا؛ وإِنَّمَا نَهَى عنه، ورَتَّبَ الحُكْمَ على اليمينِ؛ سواءً كانت بلفظِ اليمينِ أو لفظِ الحرامِ؛ فَإِنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِئَتِ مَا أَعْلَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٨٧]، ولم يَذْكُرْ حُكْمًا غيرَ النهيِ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اليمينَ بعدها، رَتَّبَ عليها حُكْمَ الكفارةِ؛ فقال

(١) «تفسير الطبري» (٨٤/٢٣).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (١٧٠١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٨١٨٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٥/١)، والدارقطني في «سننه» (٤٠/٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٥٠/٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٧٣).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (١٦٩٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٨٢٠٠)، وابن المنذر في «الأوسط» (١٩٠/٩) والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٦٣٢).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٨١٩١)، والدارقطني في «سننه» (٦٦/٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٥١/٧).

(٦) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٩/٨).

نعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٨٩]، وجعل كل يمين لفظاً وما قصده به اليمين معنى، أخذ حكمها في الكفارة، والصحابة لم يجعلوها في الحرام سوى الكفارة.

وذهب المالكية والشافعية: إلى أن تحريم الحلال ليس فيه كفارة حتى يكون بلفظ الحلف بالله الصريح، واستدل لذلك بما تقدم من أن الله نهى عن تحريم الحلال، ولم يوجب عليه كفارة، ولما ذكر اليمين أوجب فيها كفارة، وأن النبي ﷺ حلف مع تحريمه ولم يكن تحريماً مجرداً؛ كما جاء في قول الشعبي وقتادة - في رواية - وزيد بن أسلم^(١)، والتجلة في آية التحريم على يمينه، لا على تحريمه.

والأظهر: وجوب الكفارة في التحريم؛ وذلك أن المنع من الفعل بالتحريم كالمنع منه باليمين، وهو قول الصحابة، وليس بينهم اختلاف، وأما ما جاء عن بعض السلف: أن النبي ﷺ حلف مع تحريمه، فلا يلزم القول بأنه حلف أن التحريم لا يكون يميناً وخذة عندهم، ولكن اليمين تصريح وتأكيد، وقد كان قتادة يزوي أن النبي ﷺ حلف مع تحريمه، ومع ذلك يوجب الكفارة في التحريم، ومن الرواة من ينقل الحلف ويجعله هو معنى التحريم ومقتضاه، ولا يريد أن النبي ﷺ حلف بنفسه بلفظ مستقل عن التحريم، وقد روي عن ابن عباس قوله: فَصَيَّرَ الْحَرَامَ يَمِينًا^(٢).

* * *

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/٨٤).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/٨٧).

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْأَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتَاكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾﴾ [التحریم: ١٣].

لَمَّا أَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ عَلَى مَا تَظَاهَرَتْ بِهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ، عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ حَفْصَةَ بَعْضَ ذَلِكَ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضِهِ الْآخَرِ؛ أَيِ: أَخْبَرَهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهَا، وَلَمْ يُخْبِرْهَا بِشَيْءٍ آخَرَ.

وَفِي هَذَا: أَنَّ السُّنَّةَ التَّغَاوُلُ عَمَّا لَا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ، أَوْ مَا كَانَ ذِكْرُهُ يُخَيِّمُهُ وَيُعْظِمُ شَأْنَ الْمَذْكُورِ وَهُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَيُكَتْفَى بِذِكْرِ بَعْضِهِ؛ لِيَسْرِيَ الْعِلَاجُ عَلَى بَاقِيهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، فِيهِ: أَنَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ بَعْضَ الْأُمُورِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا التَّغَاوُلُ النَّامُ الْمُشْعِرُ بِالْغَفْلَةِ وَالْبَلَادَةِ، بَلْ يُبَيِّنُ طَرَفَهَا الْمُشْعِرُ بِالْعِلْمِ، وَيُكَتَّمُ الْقَدْرُ الَّذِي لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، أَوْ كَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ ضَعِيفَةً، أَوْ يَكُونُ ضَرَرُ إِخْرَاجِهِ أَشَدَّ مِنْ ضَرَرِ كَتْمِهِ.

وَالْتَّغَاوُلُ لَيْسَ عَلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ هُوَ عَلَى مَرَاتِبَ بِحَسَبِ الْأَمْرِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ:

فَمِنْ الْأُمُورِ:

مَا يُسْتَحَبُّ التَّغَاوُلُ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَمِنْهَا: مَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يُبْدِيَ بَعْضًا وَيَكْتُمَ الْآخَرَ، وَيَخْتَلِفُ قَدْرُ مَا يُبْدِيهِ وَمَا يُخْفِيهِ؛ كُلُّ حَالَةٍ بِحَسَبِهَا، وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى حِكْمَةِ الْإِنْسَانِ وَعِلْمِهِ، وَمِنْ النَّاسِ: مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ذَا حَقٍّ، فَلَهُ أَنْ يُبْدِيَ مِنْ حَقِّهِ مَا يَشَاءُ؛ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مَا يَصْلُحُ الْأَمْرَ وَلَا مَا يُفْسِدُهُ.

وَيُعْرِفُ الْعَاقِلُ بِمِقْدَارِ عَقْلِهِ وَمَوَاضِعِهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الشُّرُورِ
عَلَّاجُهَا بِالتَّغَاوُلِ، وَذَكَرُهَا يُخَيِّبُهَا وَيُذَكِّبُهَا حَتَّى تَعْظُمَ وَنَسْتَطِيرَ.
وَلِلتَّغَاوُلِ أَلَمٌ عَاجِلٌ، وَلَذَّةٌ أَجَلَةٌ؛ قَالَ الْأَعْمَشُ: «السَّكُوتُ جَوَابٌ،
وَالتَّغَاوُلُ يُطْفِئُ شَرًّا كَثِيرًا»^(١).

وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحُرَّاعِيُّ: «سَمِعْتُ عِثْمَانَ بْنَ زَائِدَةَ
يَقُولُ: الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ، تَسَعَةٌ مِنْهَا فِي التَّغَاوُلِ، ثُمَّ قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ
أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فَقَالَ: الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ، كُلُّهَا فِي التَّغَاوُلِ»^(٢).
وَيَقُولُ الشَّافِعِيُّ: «الْكَيْسُ الْعَاقِلُ، هُوَ الْقَطْنُ الْمُتَغَاوِلُ»^(٣).

وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ إِلَى التَّغَاوُلِ مَعَ مَنْ يُكْثِرُ خِلَاطَهُ؛ كَالزَّوْجَةِ
وَالْوَلَدِ وَالْخَادِمِ وَذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْأَصْحَابِ وَالْجِيرَانِ، فَلَوْ تَتَبَعَ الْإِنْسَانُ
كُلَّ مَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْهُ، لَمَّا بَقِيَ لَهُ عَمْرٌ، وَلَمْ تَصْلُحْ لَهُ حَالٌ، وَيَتَحَوَّلَ
مِنْ فِتْنَةٍ إِلَى أُخْرَى.

* * *

❏ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّفْسُ الْكَافِرَةُ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَفَ عَلَيْهِمْ
وَمَا وَهَنَتْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمُصِيرُ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٩].

أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ بِجِهَادِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَشَدُّ أَعْدَاءِ
الْأُمَّةِ؛ فَالْكَافَرُ مِنْ خَارِجِهَا، وَالْمُنَافِقُونَ مِنْ دَاخِلِهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ
عَلَى جِهَادِ الْكَافِرِ فِي مَوَاضِعَ، خَاصَّةً سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَأَمَّا جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ،
فَقَدْ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِحُرُوفِهَا فِي مَوْضِعَيْنِ: الْأَوَّلُ فِي التَّوْبَةِ، الْآيَةُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٨١٠١).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٨٠٢٨).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٨٠٣٠).

الثالثة والسبعين، والثاني هنا، وقد تقدّم الكلام على جهادِ المُنافقينِ
وَصُوْرِهِ في الموضعِ الأوّلِ في سورةِ التوبة؛ فليُنظَر.





سُورَةُ الْقَلَمِ

سورة القلم مكيّة، وقد حُكي الإجماعُ على ذلك، وإنّما اختلفَ في بعض آياتها^(١)، وفي هذه السّورة: بيانُ حُجّةِ الله على المشركين بآياته وكراماته، وردُّ بُهتانهم بأنّهم نبيّه وكتابه، وكيدهم ومكرهم عليه وحُججهم الباطلة، وذكُر ما ينتظرهم يومَ القيامة من عذابِ اليم.

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾﴾ [القلم: ١٠].

ذَكَرَ اللهُ صِفَةً بَعْضِ خُصُومِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، وَهُوَ كَثْرَةُ الْحَلِفِ لِإثْبَاتِ بَاطِلِهِمْ وَسْتِرِ حُجَّتِهِم الضَّعِيفَةَ، وَكَلَّمَا كَانَتِ الْحُجَّةُ قَوِيَّةً، كَانَتْ نَاطِقَةً بِإثْبَاتِ نَفْسِهَا، لَا تَحْتَاجُ إِلَى أَيْمَانٍ مَغْلَظَةٍ.

وَكَانَ فِي الْعَرَبِ تَعْظِيمُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِ، وَكَانُوا يَمْدَحُونَ قَلِيلَ الْحَلِفِ بِهِ، الَّذِي لَا يَجْعَلُهُ عُرْضَةً لِكُلِّ قَوْلٍ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قَلِيلُ الْأَلَايَا حَافِظٌ لِبِمِينِهِ وَإِنْ صَدَرَتْ مِنْهُ الْأَلِيَّةُ بَرَّتْ^(٢)
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَهِينٍ﴾؛ يَعْنِي: ضَعِيفَ الْحُجَّةِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: كِرَاهَةُ وَذَمُّ اتِّخَاذِ اللَّهِ عُرْضَةً عِنْدَ كُلِّ قَوْلٍ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، بِالْحَلِفِ وَالْأَيْمَانِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣٤٥/٥)، و«زاد المسير» (٣١٨/٤)، و«تفسير القرطبي» (١٣٥/٢١).

(٢) البيت لكثير عزة في «ديوانه» (ص ٣٢٥).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيتَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾
[البقرة: ٢٢٤].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿هَازِ مَشْلَمَ نَبِيمٍ﴾ [الظم: ١١].

ذكر الله الهَمَّاز، وهو كثير الوقوع بأعراض الناس نصريحا وتلميحا، دُما وقدحًا، وفي هذه الآية تقيح لوصفين: الأول: الغيبة؛ وهي في قوله تعالى: ﴿هَازِ﴾، وقد فسرها بالغيبة جماعة من السلف؛ كابن عباس وقتادة^(١)، وقد تقدّم الكلام على الغيبة وذمها، وعظيم أثرها، والأحوال الضيقة التي تجوز فيها، عند قوله تعالى في سورة الحُجرات: ﴿وَلَا يَتَّبِعْكُمْ بَعْضُكُمْ بِعَصَا﴾ [١٢]، وقوله فيها: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [١١].

الثاني: النَمِيمة؛ وهي كبيرة من كبائر الذنوب، والنميمة أعظم من الغيبة؛ لأن الغيبة وقوع في العِرض في غيبة المتكلم عنه عند من يعرفه ومن لا يعرفه، ولا يُلزَم قصد التفريق، وأمّا النَمِيمة، فهي الوقعة في عِرض أحد عند من يعرفه بقصد التفريق بينهما؛ فآثر النَمِيمة في إفساد الناس فيما بينهم أشد وأعظم من الغيبة، والغيبة قد تقع من فلتات بعض الصالحين وزلّاتهم؛ ولكن النَمِيمة لا تقع من صالح ولو من فلتات لسانه؛ لأن النَمِيمة يسبقها قصد خبيث متاصل في النفس، وهو قصد التفريق، وهذا القصد وحده لا يوجد في نفس صالح، وآثر النَمِيمة على الإيمان شديد؛ ولهذا جاء في الوعيد في التَّام ما لم يأت في المُغتاب، بل جاء في التَّام ما لم يأت في الكذاب.

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/١٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/١٩١).

وقد جاء في «الصحيحين»، عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ)^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: (أَمَّا إِنَّهُمَا لَيَعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّيْمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ، فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ)^(٢).

وقال ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟)، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: (فَشِرَارُكُمْ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ، الْمَشَاوُونَ بِالنَّيْمَةِ، الْبَاغُونَ الْبُرَاءَ الْعَنَتِ)^(٣).

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَقْبَمُوا لَيعْرِضُهَا مُتَبِعِينَ ۖ وَلَا يَسْتَنُونَ﴾

[القلم: ١٧ - ١٨].

ذَكَرَ اللَّهُ حَالَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ بَخِلُوا بِثَمَرِهِمْ عَنِ الْفُقَرَاءِ، فَقَصَدُوا جَنَّتَهُمْ لِيَحْضُدُوا حَبَّهُمْ وَيَصْرِمُوا ثَمَرَهُمْ قَبْلَ قُدُومِ الْفُقَرَاءِ إِلَيْهِمْ، وَحَمَلَهُمْ شِدَّةَ شُحِّهِمْ وَطَمَعِهِمْ عَلَى الْحَلْفِ عَلَى ذَلِكَ، وَنَسُوا أَنْ يَسْتَنُوا وَيَقُولُوا: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ)؛ اعْتِمَادًا عَلَى الْأَسْبَابِ، وَغَابَ عَنْ نَفْسِهِمْ مَسِيئَتُهَا، وَهُوَ اللَّهُ، فَحَتَّتَهُمُ اللَّهُ فَأَهْلَكَ جَنَّتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَطَافٌ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ۚ فَلَمَّا كَانَتْ كَالْعَرِيَمِ﴾ [القلم: ١٩ - ٢٠].

وقد قيل: إِنَّ الاستثناءَ عندهم كان تسبيحًا؛ ولذا قال عن أَوْسَطِهِمْ: إِنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ أَهْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ جُرَيْجٍ^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٩/٦)؛ من حديث أسماء بنت يزيد.

(٤) تفسير ابن كثير (١٩٦/٨).

وقد فسر قوله في هذه الآية: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ﴾ بقول: «إن شاء الله» غير واحد من السلف؛ كمجاهد وابن جريج^(١)، وقال عكرمة: لا يستثنون حق المساكين^(٢).

وقد أخذ محمد بن الحسن من هذه الآية أن القسم يمين؛ لأن الاستثناء لا يكون إلا في اليمين^(٣)، ولكن الاستثناء يكون مشروعا في اليمين وفي غيرها مما يعزم الرجل على فعله فيعبد أو يخبر به، إلا أن الاستثناء يبطل اللازم على القسم كما يبطل اللازم على اليمين.



(١) «زاد المسير» (٣٢٣/٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦٣/٢١)، و«تفسير ابن كثير» (١٩٧/٨).

(٢) «زاد المسير» (٣٢٣/٤)، و«تفسير القرطبي» (١٦٣/٢١).

(٣) «بدائع الصنائع» للكاساني (٧/٣).



سُورَةُ الْمَعَارِجِ

سورة المعارج سورة مكّية، وحكى الاتفاق على ذلك جماعة^(١)، وخاطب الله فيها المعاندين والمستكبرين من كفار قريش وغيرهم، وذكر يوم القيامة وما يسبقه وما فيه وما بعده من أهوال وعظائم، وذكر الله صفات المعاندين وصفات المؤمنين المصلّين.

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ﴾ ٧﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾

[المعارج: ٢٢-٢٣].

ذكر الله صفات المؤمنين، وأعظمها الصلاة الدائمة، ولم يقدم الله على هذه الصفة شيئاً؛ لأنها أظهر العلامات عليهم، وأدّلها على إيمانهم برّبهم، وقد فرّق الله بين المصلّين وبين الذين هم على صلاتهم دائمون؛ فليس كلُّ مصلٍّ يحفظ صلاته؛ فمنهم من يؤدّيها ولا يكون له إلا رفع الإثم وإسقاط الواجب، وقد تقدّم الكلام على المحافظة على الصلاة عند قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وتقدّم الكلام على الخشوع في الصلاة عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

* * *

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/٣٦٤)، و«زاد المسير» (٤/٢٣٥)، و«تفسير القرطبي» (٢١٨/٢١).

❏ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۖ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

[المعارج: ٢٤ - ٢٥].

ذكر الله النفقة، وأنها أخص صفات المؤمنين المصلين، فذكر الزكاة بعد الصلاة، وأكثر أركان الإسلام - بعد الشهادتين - تلازمًا في الكتاب والسنة: الصلاة والزكاة.

ولم يُطلق الله فضل الصدقة هنا؛ وإنما خص الله الذين يُنفقون للسائل والمحروم، وفيه شدة التحري على من يُنفق عليه، وتفاوت مواضع الصدقة، فالصدقات تتفاضل من جهات متعددة؛ منها من جهة صاحبها؛ فأعظمها أنفُسها عنده، ومن جهة الفقير ونفعه بها وأثرها على الناس في زمن الشدة والفقر والفاقة.

والسائل: مَنْ طَلَبَ إِلَى النَّاسِ سَدَّ حَاجَتِهِ، وَقَدْ نَصَّ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَلَى أَنَّ السَّائِلَ لَوْ كَانَ صَادِقًا لَمْ يُفْلَحْ مِنْ رَدِّهِ.

والمحروم: هو المُحَارَفُ الَّذِي فِيهِ قُوَّةٌ وَلَكِنَّهُ لَا يَجِدُ عَمَلًا يَتَكَسَّبُ مِنْهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاهِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَى أَرْوَاهِهِمْ أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمِنْ أَتَىٰ وَلَهُ ذَٰلِكَ فَلَوْلِيكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

[المعارج: ٢٩ - ٣١].

مَدَحَ اللَّهُ الْمَصْلِينَ وَالْمَنْفِقِينَ وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَحْفَظُونَ

فُرُوجِهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ حُكْمٍ حَفِظَ
الْفَرْجَ مِنْ جَمِيعِ مَا بَحَرَّمُ عَلَيْهِ، عِنْدَ نَظِيرَتِهَا فِي صَدْرِ سُورَةِ
الْمُؤْمِنُونَ.





سُورَةُ الْمَزْمَلِ

سورة المزمّل سورة مكيّة، ولم يُختلف في ذلك^(١)، وكانت خطاباً للنبي ﷺ في مكة في بداية نزول الوحي عليه، إلّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ [المزمّل: ٢٠]، فقد تأخّر نزوله عن أول السورة على خلاف في موضعه؛ ف قيل: بمكة، وقيل: بالمدينة؛ كما قاله ابن عباس^(٢) وعطاء، وفي هذه السورة توجيه النبي ﷺ إلى العبادة، وصِفَةُ التعامل مع الوحي المنزل عليه.

❏ قال الله تعالى: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ يَضَعُ أَوْ أَقْصَىٰ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ﴾ [المزمّل: ٢-٤].

أمر الله نبيه بقيام الليل وهو ما زال بمكة وفي أول نزول الوحي؛ وهذا يدلُّ على فضل صلاة الليل وعبادة الخلوات؛ فهي من أعظم المثبتات للعبد، وما من نبي من الأنبياء إلّا أمره الله بالعبادة قبل الرسالة؛ لأن الإصلاح يتبعه شدة، والشدة تحتاج إلى ثبات، ولا يُثبت المصلح شيءٌ كتقوية صلّته بالله بالعبادة؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ثم بيّن سبب ذلك: ﴿إِنَّا سَتَلِفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَلِيلًا﴾ [المزمّل: ٥].

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٣٨٦/٥)، و«زاد المسير» (٣٥٢/٤)، و«تفسير القرطبي» (٣١٣/٢١).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (١٢٤/٦)، و«زاد المسير» (٣٥٢/٤)، و«تفسير القرطبي» (٣١٣/٢١)، و«الدر المنثور» (٣٥/١٥).

وصلاة الليل أفضل النوافل؛ كما قال ﷺ: (أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ: الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ)^(١)، وإنما فضل الله نافلة الليل على بقية النوافل لأمرٍ؛ أعظمها:

الأول: أن الليل هو وقت نزول الخالق سبحانه إلى السماء الدنيا، ويبسط يده ويستجيب لمن دعاه أسرع وأعظم من بقية الأوقات؛ كما في الصحيح، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ؛ قال: (يُنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ)^(٢).

الثاني: أن الليل محل غفلة الناس وغفوتهم، والعبادة فيه يخلو بها العبد بربه؛ وهذا أعظم في خلو القلب وتجريده وصدي لجوئه إلى ربه، وعبادة الخفاء أعظم من عبادة العلانية، ولا يكاد يشوب عبادة قيام الليل رياءً وسُمعةً كما يشوب عبادة العلانية في النهار.

الثالث: أن في قيام الليل تثبيتاً للعبد وعوناً له من ربه أشد من غيره من العبادات؛ ولهذا جعله الله لنبيه أول أمر في تعبده لربه من أركان أعماله.

وهو له تعالى، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، فيه: أنه لا يُشْرَعُ قيام الليل كاملاً، فلم يشرعه الله لنبيه ﷺ ولا لغيره؛ حيث إن الله جعل الليل سُبَاتًا وَمَنَامًا وَسَكَنًا، وفطر البشر على ذلك، ويُسْتَنَى من ذلك ما كان اعتراضاً كالأزمة الفاضلة؛ كالعشر الآخر من رمضان.

وفي «الصحيحين» قصة النفر الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، وأنهم تقالوها حتى إن أحدهم قال: أنا أقوم ولا أنام، فقال

النبي ﷺ: (لَكِنِّي أَصْلِي وَأَنَامُ... فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي) ^(١).

قوله تعالى: ﴿نِصْفَهُ أَوْ اقْصُ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ^(٢) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ: السُّنَّةُ في قيام الليل: عَدَمُ قِيَامِهِ كُلِّهِ؛ وَإِنَّمَا يَقُومُ بَعْضَهُ، وَأَفْضَلُهُ آخِرُهُ، وَالسُّنَّةُ: أَنْ يَنَامَ أَوَّلَهُ وَيَقُومَ فِي نِصْفِهِ الْآخِرِ قَدَرِ الثُّلُثِ مِنْهُ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيَقْطِرُ يَوْمًا) ^(٣).

وقد كان النبي ﷺ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ حَتَّى يَنْتَصِفَ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَبِيتِهِ عِنْدَ خَالَتِهِ مَيْمُونَةَ، وَفِيهِ قَالَ: «نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ - أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ - ثُمَّ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ، فَمَسَحَ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ آيَاتِ خَوَاتِيمِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنْ مُعَلَّقَةٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وُضُوئَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي» ^(٤).

وفيهما: أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ، كَمَا رَوَى مُسْرُوقٌ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَيُّ الْعَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَتْ: الدَّائِمُ، قَالَ: قُلْتُ: فَأَيُّ حَبِينٍ كَانَ يَقُومُ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ» ^(٥)، وَالْمَرَادُ بِذَلِكَ هُوَ صِيَاحُ الدِّيَكِ.

وَأَوَّلُ مَا يَصْرُخُ الدِّيَكُ نِصْفَ اللَّيْلِ غَالِبًا، وَرَبَّمَا قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدِ الْجُهَنِيِّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٦٣)، وَمُسْلِمٌ (١٤٠١)؛ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١٣١)، وَمُسْلِمٌ (١١٥٩/١٨٩).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١٩٨)، وَمُسْلِمٌ (٧٦٣).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١٣٢)، وَمُسْلِمٌ (٧٤١).

(لَا تَسُبُّوا الدِّبَّكَ؛ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ) ^(١).

وُستحب أن يكون الوتر آخر الليل، وإن أوتر أي وقت منه، فلا حرج؛ كما روى مسروق؛ قال: قلت لعائشة: متى كان يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: «كُلُّ ذَلِكَ قَدْ فَعَلَ؛ أوتر أول الليل، ووسطه، وآخره، ولكن انتهى وتره حين مات إلى السحر» ^(٢).

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

أمر الله نبيه بقيام الليل في صَبرِ السورة؛ تثبيتاً له عند الشدائد وما يلقاه من قومه من شدة؛ فإن أعظم الحبال مع الخالق ينسجها العبد بالعبودية لله تُثبتهُ وتقويه وتنجيه ويكفيه بها الله، ثم أمر الله نبيه بالصبر على ما يراه ويسمعه ويجده منهم من الأذى.

وهو له: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾: أمر الله نبيه بمفارقة المشركين، والبُعد عنهم، وعدم مقابلة أذاهم بمثله، وقد قال بعض السلف كفتادة: «إن هذه الآية منسوخة بسورة براءة؛ حيث أمر الله بقتالهم» ^(٣)، ومن كانت حاله كحال النبي ﷺ حال نزولها، فعُكِّمَ كُحْكِمَ، وإنما قال كفتادة بالنسخ؛ لأن حال النبي ﷺ تغير، فتغير الحكم تبعاً لذلك، ولم يرفع الله الحكم الهجر الجميل بذاته عند الحاجة إليه، وقد تقدّم الكلام

(١) أخرجه أحمد (١٩٢/٥)، وأبو داود (٥١٠١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٦)، ومسلم (٧٤٥)، وأبو داود (١٤٣٥)؛ واللفظ له.

(٣) «تفسير الطبري» (٣٨٠/٢٣).

على مسألة الهجر وأحواله عند قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَلَقَوْهُمْ مَا بُشِّرَ مِنْ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَمَأْخُودٌ يَضِرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَفُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا خُفِيَ عَنْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَقَوْهُ مَا بُشِّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

كان النبي ﷺ ومن معه من أصحابه يقومون تارة ثُلثي الليل، وتارة نصفه، وتارة ثُلثه؛ وذلك لما أمر الله به ابتداءً، وقد لقي الصحابة من ذلك شدة ومشقة، فخفف الله عنهم في ذلك، وجعل قدر ما يقومونه بحسب ما تيسر لهم من غير أمر، وقد روى سعد بن هشام؛ قال: انطلقنا إلى عائشة، فاستأذنا عليها، فدخلنا، قلْتُ: أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: «أَلَسْتُ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ﴾ [المزمل: ١-٢]»، قلْتُ: بلى، قالت: «فَإِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ الْقِيَامَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتَمَتَهَا اثْنِي عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ ﷻ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ قِرْطُصَةٍ»^(١).

والتخفيف ظاهر في الآية في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٦٣)؛ واللفظ له.

عَلَيْكُمْ فَأَقْرَأُوا مَا يَنْتَزِعُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿١﴾، فذكر القرآن؛ لأنه هو أطول ما بصلاة الليل، وتسمى الصلاة قرآناً؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وتسمى القرآن صلاة كذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ يعني: قراءتك.

وذلك على وجوب قيام الليل أول الأمر قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، والمراد بالإحصاء: الطاقة، ثم رفع الحرج بالتوبة على التارك.

وقد بين الله سبب عذره لعباده بذلك في قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْهُونًا وَمَا خُوفُكُمْ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَالْآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ وذلك لأن من الناس من يكون مريضاً أو يحتاج إلى نشاط في نهاره لينكسب ويطلب الرزق، وطول قيامه الليل يراجم نشاطه في النهار. وإسقاط الله لناقلة الليل لا يسقط فريضة الصلاة، وحتى لا يُظَنَّ ذلك قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ يعني: الفريضة.

ثم رغب الله في تقديم العمل الصالح وعدم التكاثر عنه، فهو فرض يكون وفاؤه يوم القيامة بعظيم الأجر والثواب؛ كما قال: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ يَنْ خَيْرٍ يَجْذُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَفِرُّوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.





سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

سورة المُدَّثِّرِ سورة مكيةٌ باتِّفَاقِهِمْ^(١)، وقد نزلت بعد سورة «اقرأ»، وفي البخاري ومسلم؛ أَنَّ جَابِرًا عَدَّهَا أَوَّلَ شَيْءٍ نَزَلَ^(٢)، والأكثرُ على أَنَّهَا نَزَلَتْ بعدَ «اقرأ»، وقد روى جابرٌ رضي الله عنه؛ قال: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِجَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ رُغْبًا، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ نَعَالِي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾)^(٣).

وفي السورة: بدايةُ البعثِ وإرسالِ النبي ﷺ إلى قومه، وفيها وصايا من الله له قبل رسالته ومعها ممَّا يُعِينُهُ على مَرْضَاةِ اللَّهِ وَيُثَبِّتُهُ على أمرِهِ ونهْيِهِ، وفيها تذكيرٌ بِالْآخِرَةِ وتزهيدٌ في المَكْذُوبِينَ لها وتحفيزٌ لِحُجْجِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وفي هذا تَنْبِيْهُ لِلدَّاعِي على دَعْوَتِهِ؛ أَنْ يَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ يُقَابِلُهُ، وَعِظَمَ عَاقِبَةِ النَّبِيِّ وَسُوءَ عَاقِبَةِ عَدُوِّهِ.

* * *

(١) «تفسير ابن عطية» (٣٩٢/٥)، و«زاد المسير» (٣٥٨/٤)، و«تفسير القرطبي» (٣٥٤/٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (٢٥٧/١٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٥).

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَبَلَّغْكَ طَهْرًا﴾ [المائدة: ٤].

أمر الله نبيه بالندارة بقوله: ﴿فَلْيَذَرِ﴾ [المائدة: ٢]، ثم أمره بتطهير ثيابه، وحمل عامة المفسرين من السلف تطهير الثياب على التطهير المعنوي، فيجب تطهير الثياب من الإثم والحرام، والجوارح من أعمال السوء، وقد كانت العرب تسمي الغادر ذنس الثياب؛ يقول غيلان بن سلمة:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَيْسَتْ وَلَا مِنْ عَذْرَةٍ أَتَقَنَّ^(١)

وقلة من السلف كابن سيرين^(٢) حملوه على تطهير الثياب بالماء من الأنجاس والأقذار؛ وبهذا القول قال الشافعي، ولفظ التطهير يحتمله هنا من جهة اللغة، لا من جهة الوضع.

وقد استدلل بعض الفقهاء كالشافعي بهذه الآية على وجوب تطهير الثياب من النجاسات، وقد اختلف العلماء في وجوب تطهير الثوب من النجس للصلاة على قولين، وهما قولان في مذهب مالك:

قيل: إن التطهير سنة للصلاة ليس بواجب لها؛ وإنما هو من تمامها وكمالها، ومن صلى بلباس غير طاهر، فصلاته صحيحة؛ وذلك أن من صلى بالاستجمار من غير غسل للمحل، فإن صلاته صحيحة، مع القطع بوجود شيء من النجس الذي يمكن إزالته بالاستنجاء بالماء.

وقال جماعة من الفقهاء - وهو قول الشافعي وأحمد -: إنه يجب تطهيرها؛ لفعل النبي ﷺ حينما خلع نعليه وهو في الصلاة لما أنبأه جبريل أن بهما قذراً؛ كما روى أبو داود؛ من حديث أبي سعيد

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/٤٠٩).

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/٤٠٥).

الْخُذِرِيُّ عليه السلام؛ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ، إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ، أَلْقَوْا نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاتَهُ، قَالَ: (مَا حَمَلَكُمْ عَلَى إلقاءِ نِعَالِكُمْ؟)، قَالُوا: رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَكَ، فَأَلْقَيْنَا نِعَالَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَلْبًا - أَوْ قَالَ: أَدَى -)، وَقَالَ: (إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَلْبًا أَوْ أَدَى، فَلْيَمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا)^(١).

وَأَمَّا الاستجمارُ، فهذا تخفيفٌ مِنَ الشَّارِعِ فِي شَيْءٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْقَضَ بِهِ الْأَصْلُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ التَّخْفِيفَ فِيهِ كِتْخَافُ الشَّارِعِ فِي بُولِ الْغَلَامِ، وَتَخْفِيفُهُ لَا يَعْنِي حَمْلَ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، وَلَا أَنَّهُ فِي ذَاتِهِ طَاهِرٌ.

والتخفيفُ فِي الاستجمارِ أَظْهَرَ فِي الْحَاجَةِ مِنَ التَّخْفِيفِ فِي بُولِ الْغَلَامِ؛ لِعُمُومِ الْبَلَوَى بِهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَالتَّيْسِيرُ فِيهِ رَحْمَةٌ وَيُسْرٌ دَفْعًا لِلْحَرَجِ وَالْمَشَقَّةِ، وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْعَرَايَا فِي الْبُيُوعِ، وَإِبَاحَتُهَا لَا يَعْنِي نَقْضَ الْأَصْلِ بِهَا؛ وَلَكِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى التَّيْسِيرِ وَالتَّخْفِيفِ.

* * *

❏ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاصِّجِرْ﴾ [المذثر: ٥].

بَعْدَمَا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ بِتَطْهِيرِ ظَاهِرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، أَمَرَهُ بِمُفَارَقَةِ بَقَاعِهَا، وَهِيَ الْأَصْنَامُ وَأَمَاكُنُهَا، وَالْمَرَادُ بِالرُّجْزِ هِيَ أَصْنَامُهُمْ وَأَوْتَانُهُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مُفَارَقَةَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمُفَارَقَةِ أَمَاكِنِهِ الَّتِي يُقَامُ فِيهَا؛ فَإِنَّ إِنْكَارَ الْمُتَكَبِّرِ لَا يَكُونُ مَعَ مُخَالَطَتِهِ بِلا حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٩٢/٣)، وَأَبُو دَاوُدَ (٦٥٠).

وقد تقدّم الكلام على الهجر وأحواله عند قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّكَ
أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ فَلَنَنَ أَتَايَ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وفي العقيدة
«الخراسانية» كلام حول ذلك.





سُورَةُ الْقِيَامَةِ

سورة القيامة سورة مكية بإجماع السلف^(١)، وقد نصَّ على مكِّيَّتها ابنُ عَبَّاسٍ وابنُ الزُّبَيْرِ وغيرُهما^(٢)، وفيها تذكيرٌ بالقيامة والصوارفِ عنها، والتذكيرُ بعظمةِ الله وخلقِهِ وتدبيرِهِ وإبداعِ صنْعِهِ للإنسانِ وجميعِ المخلوقاتِ، وفيها وصاياٌ لنبيِّهِ في التعاملِ مع الوحيِ في نفسه وبلاغِهِ لغيرِهِ، وتذكيرٌ بالموتِ والاحتضارِ وما بعده؛ فَمَنْ عَرَفَ الْعَاقِبَةَ، لَمْ يَحْمِلْ هَمَّ السَّبِيلِ.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾﴾ [القيامة: ٢٧].

ذَكَرَ اللَّهُ احْتِضَارَ الْمَيِّتِ وَدُنُوَ أَجَلِهِ وَحُضُورَ الْمَلَائِكَةِ لِقَبْضِهِ.
وَمِنَ السَّلَفِ: مَنْ حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿رَاقٍ﴾ عَلَى أَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْ كَلَامِ الْمَلَكِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَمَرَادُهُم الَّذِي يَرْقَى بَرُوجِهِ مِنْهُمْ؛ وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣).
وَرُويَ أَنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ الرَّاقِي الَّذِي يَرْقِيهِ وَيُدَاوِيهِ؛ وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَعِكْرَمَةَ^(٤).

(١) تفسير ابن عطية (٤٠١/٥)، وفزاد المسير (٣٦٨/٤).

(٢) الدر المنثور (٩٥/١٥).

(٣) تفسير الطبري (٥١٤/٢٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٣٨٨/١٠).

(٤) تفسير الطبري (٥١٣/٢٣)، وتفسير ابن كثير (٢٨٢/٨).

وقيل: المرادُ به الطبيب؛ كما قاله ابنُ عباسٍ وأبو قلابَةَ والضَّحَّاكُ وقتادة^(١).

ومنهم: مَنْ حمَلَهُ على الرَّاقِي والطبيبِ، والعربُ تُسمِّي الطبيبَ راقياً، والراقي بالذَّكْرِ طيباً.

وذكرُ الرَّاقِي والطبيبِ المعالجِ عندَ الاحتضارِ من بابِ اليأسِ وأنه لا يَنْفَعُ؛ ومن ذلك قولُ الشاعرِ:

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِي أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِي^(٢)

حُكْمُ الرُّقِيَةِ:

والآيةُ تَحْتَمِلُ المعنيين جميعاً، وفيها على المعنى الثاني دليلٌ على جوازِ التَّطَبُّبِ ومشروعِيَةِ الرُّقِيَةِ عندَ المرضِ، وقد رَقَى النبي ﷺ ورُقِيَ، ولم يَسْتَرْقِ لنفسِهِ، وقد سَمَّى النبي ﷺ الرُّقِيَةَ نَفْعاً، وَحَثَّ على بذْلِهَا لِمَنْ كَانَ عَارِفاً بِهَا وَوَجَدَ أثراً على غيره منه، وقد رَوَى مسلمٌ؛ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ؛ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرُّقَى، فَجَاءَ آلُ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَتْ عِنْدَنَا رُقِيَةٌ نَرْقِي بِهَا مِنَ الْعُقَرِ، وَإِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى، قَالَ: فَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: (مَا أَرَى بَأْساً، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ، فَلْيَنْفَعْهُ)^(٣).

ولا تجوزُ الرُّقِيَةُ بِالشَّرْكِ وما لا يُعَرَفُ لفظُهُ ولا معناه، وقد رَوَى عوفُ بْنُ مَالِكٍ مرفوعاً: (اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ)^(٤).

(١) «تفسير الطبري» (٥١٣/٢٣ - ٥١٤)، و«تفسير القرطبي» (٤٣٤/٢١).

(٢) البيت ليزيد بن خلدق في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (ص ٣٨٦)، و«جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (٣٥٩/٢)، ونسب خطأ في «المفضليات» (ص ٣٠٠) للممق العبدى؛ كما أشار إلى ذلك العلامة أحمد شاكر.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٩٩). (٤) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

ولا يُشْرَعُ أَنْ يُنْصَبَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مَتَفَرِّغًا لِلرُّقِيَةِ كَمَا يَتَفَرَّغُ الْمُؤَدُّنُ لِلْأَذَانِ، وَالْإِمَامُ لِلْإِمَامَةِ، وَلَمْ يَكُنِ السَّلَفُ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، بَلْ وَلَا يَسْتَحِبُّونَهُ، وَهَذَا يُورِثُ تَعَلُّقًا بِالرَّاقِي، وَضَعْفًا فِي التَّعَلُّقِ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَقَدْ طَلَبَ رَجُلٌ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنْ يَرْقِيَهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: أَجَعَلْتَنِي نَبِيًّا؟ أَرِيقُ نَفْسَكَ.

وَلَمْ يَكُنِ السَّلَفُ يَضْرِبُونَ لِمَنْ يَأْتِيهِمْ مِنَ الْمَرْضَى آجَالًا يَتَعَاهَدُونَهُمْ بِالزِّيَارَةِ لِرُقِيَّتِهِمْ، وَإِنْ قَبِلُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِرَاضِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِصَابِ لَذَلِكَ.

وَلَمْ يَسْتَرْقِ النَّبِيُّ ﷺ لِنَفْسِهِ، وَقَدْ أَذِنَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَسْتَرْقِيَ لِغَيْرِهِ، وَحَثَّ الْمَحْتَاجَ عَلَى ذَلِكَ؛ كَمَا فِي الْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ؛ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: (اسْتَرْقُوا لَهَا؛ فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ)^(١).

وَفَرَّقَ بَيْنَ طَلَبِ الْإِنْسَانِ الرُّقِيَةَ لِنَفْسِهِ وَبَيْنَ طَلَبِهِ لِغَيْرِهِ مِنْ وَلَدٍ وَزَوْجَةٍ، وَإِنَّمَا فَضَّلَ النَّبِيُّ ﷺ عَدَمَ طَلَبِ الرُّقِيَةِ؛ لِأَنَّ اعْتِيَادَ ذَلِكَ يَنَافِي التَّوَكُّلَ.

وَيُشْرَعُ مَعَ الرُّقِيَةِ النَّفْثُ عَلَى الْمَرِيضِ؛ لِمَا رُوِيَ عَائِشَةُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْفُثُ فِي رُقِيَّتِهِ، وَأَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٢)؛ وَعِنْدَهُمَا أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ.

وَقَدْ ثَبَتَ التَّنْفُّلُ فِي السُّنَّةِ؛ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»؛ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَفِيهِ قَالَ: فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأَمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُرَاقَهُ وَيَتَفَلَّ، فَبَرَأَ، فَأَتَوْا بِالنِّسَاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُكَ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢).

فَضَحِكَ وَقَالَ: (وَمَا أَتَرَكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟ اخْلُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ)^(١).
وجاء الثَّقَلُ مع القراءة في أحاديث، وجاء الثقل بدون القراءة،
وجاءت القراءة بدون ثقل ولا نَفَثٍ ولا نَفْخٍ، ولكن لا يُتَبَرَّكُ بِرِيْقٍ أَحَدٍ
وحده بلا قراءة إلا النبي ﷺ.

وئمة فرق بين الثَقَثِ والثَّقَلِ والنَّفْخِ؛ فالثَقَثُ: ما كان الأصل فيه
الهواء، والريُّقُ فيه تَبَعٌ، وأما الثَّقَلُ: فما كان فيه إخراجُ الرِّيْقِ، والهواءُ
فيه تَبَعٌ، وأما النَّفْخُ: فهو إخراجُ الهواءِ بلا رِيْقٍ.

وقد كَرِهَ بعضُ السلفِ النَّفْثَ والثقلَ في الرُقِيَّةِ؛ كعِكْرِمَةَ وجماعةٍ
من العرافيين، وبعضهم يَكْرَهُ النَّفْثَ، وَيُجِيزُ النَّفْخَ؛ كالأَسْوَدِ؛ ولكنَّ
السُّنَّةَ صريحةٌ في مشروعيتها ذلك.

حُكْمُ التَّدَاوِي مِنَ الْمَرَضِ:

والآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى جَوَازِ التَّدَاوِي بِالْمُبَاحِ مِنَ الْمَرَضِ بِلا خِلَافٍ؛
وإنَّما الْخِلَافُ عِنْدَهُمْ فِي التَّفَاضُلِ بَيْنَ تَرْكِهِ وَفِعْلِهِ:
وجمهورُ العلماءِ: عَلَى أَنَّ التَّدَاوِي مَبَاحٌ.

وذهبَ الشَّافِعِيُّ - وهو قولُ جماعةٍ من أصحابنا أصحابِ أحمدَ؛
كابنِ عَقِيلٍ وأبي الفَرَجِ -: أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ، وقد سألَ الصَّحَابَةُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ
التَّدَاوِي؟ فَقَالَ: (تَدَاوُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً،
غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ؛ الْهَرَمُ)^(٢).

وجمهورُ الأصحابِ: عَلَى أَنَّ تَرْكَ التَّدَاوِي أَفْضَلُ؛ وذلكَ لِأَنَّهُ
أَحْفَظُ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٦)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٨/٤)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والنسائي في

«السنن الكبرى» (٧٥١١)، وابن ماجه (٣٤٣٦).

وتفاضلُ التداوي يُعرَفُ بالنظرِ إلى جهاتٍ متعدِّدةٍ؛ منها: النظرُ إلى المريضِ وطُولِهِ وقَصْرِهِ، وإمكانِ الشِّفَاءِ أو اليأسِ منه.

ومنها: النظرُ إلى أثرِهِ على دينِ العبدِ؛ وذلك أنَّ التداويَ له أثرٌ على توَكُّلِ العبدِ وتعلُّقه بالله.

ومنها: النظرُ إلى الأثرِ المتعدِّي على غيره كالنَّاسِ وأهلِهِ.

أما مِن جهةِ النظرِ إلى عَيْنِ المريضِ: فَمِنَ الأمراضِ ما يرتفعُ بلا دواءٍ وإنَّ طال وقتهُ، فهذا الصبرُ عليه أَفْضَلُ، ومِثْلُهُ إنَّ كانَ المريضُ غالباً أَنَّهُ لا يُشْفَى منه؛ فتركُ التداوي أَفْضَلُ مِن طلبِهِ، ما لم يَفُوتْ تركُ التداوي مصلحةً في دينِ العبدِ أو دُنْيَاهُ راجحةً على قعودِهِ.

وأما مِن جهةِ النظرِ إلى أثرِهِ على العبدِ: فذلك أَنَّهُ كُلَّمَا كانَ أثرُ تداويه على دينِهِ ودينِ النَّاسِ أَفْضَلَ، كانَ التداوي في حَقِّهِ أَفْضَلَ، وذلك كحالِ الرجلِ في الغزوِ الَّذي يَمْرُضُ ولو تركَ التداوي، لِلْحَقِّ الْمُسْلِمِينَ بتركِهِ ضَرْماً، فتداويه أَوْلَى وَآكُذُّ، ومِثْلُهُ في العِلْمِ والإصلاحِ وحاجةِ الأهلِ والولَدِ وتفردِ المريضِ بقضائِها.

وَمَنْ إذا تركَ التداويَ، تأثَّرَ في دينِهِ وضعُفَ؛ كأنَّ يطولَ قعودُهُ عن النوافلِ وقيامِ اللَّيْلِ وَالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ يَسْتَوْحِشُ مِن قِلَّةِ الطَّاعَاتِ إِنْ طال وقتُ تركِ العبدِ لها ولو كانَ معذوراً؛ فهذا التداوي له أَفْضَلُ.

وذهَبَ بعضُ الحنابلةِ: إلى وجوبِ التداوي إن أمكَّنَ الشِّفَاءُ.

وإيجابُ التداوي ليس مِن قولِ السلفِ؛ وإنَّما هو لبعضِ الفقهاءِ المتأخِّرينَ.

قال الله تعالى: ﴿وَالْفَتَى السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩].

ذكر الله حال الاحتضار والإشراف على مغادرة الدنيا، والإقبال على الآخرة، وقال ابن عباس: «إن معنى ﴿وَالْفَتَى السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾: آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة؛ فتلتقي السُّدَّة بالسُّدَّة إلا من رحم الله»^(١)؛ وينحوه قال مجاهد وقتادة^(٢).

وقد قال الضحاك: «أهل الدنيا يُجهَّزون الجسد، وأهل الآخرة يُجهَّزون الروح»^(٣).

وبهذا قال أكثر السلف، وقد قال ابن زيد: «لا نشك أنها ساق الآخرة، وقرأ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]؛ قال: لما التفت الآخرة بالدنيا، كان المساق إلى الله»^(٤).

وحمله ابن المسيب والشَّعْبِيُّ والحسن والسُّدِّيُّ: على التفاف الساقين على الحقيقة؛ وهذا قول لقتادة^(٥).

وكلا المعنيين تحتمله بلاغة القرآن، وفيها على المعنى الثاني مشروعية تكفين الميت وتجهيزه، وذلك مشروع بلا خلاف، وهو من فروض الكفاية.



(١) «تفسير الطبري» (٢٣/٥١٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٣٨٨).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/٥١٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/٥١٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٣/٥١٨).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٣/٥١٩ - ٥٢١)، و«تفسير القرطبي» (٢١/٤٣٥).



سُورَةُ الْإِنْسَانِ

قد اختلف في نزول سورة الإنسان؛ فمن السلف: من قال بمكيّتها، ومنهم: من قال بمدنيّتها، ومنهم: من جعل منها المكيّ ومنها المدني^(١)، وقد بين الله فيها خلق الإنسان ونشأته وضعف خلقه، وحاله في الدنيا، وعاقبته في الآخرة بين السعادة والشقاوة، وبين الجنة والنار.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَعَامَ عَلَى حَيْدٍ مَتَكِينًا نَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

[الإنسان: ٨].

ذكر الله من صفات أهل الجنة إطعام الطعام وهم يُحبّونه، فينفقون من نفيس مالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وبعض السلف جعل الآية فيمن يُتألف من الكفار. وفي هذه الآية: فضل إطعام الأسير والإحسان إليه والرفق به، وقد تقدّم الكلام على التعامل مع الأسير وأحكامه عند قوله تعالى: ﴿فَتَلَوَّهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَى بَنَانِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

* * *

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٤٠٨/٥)، و«زاد المسير» (٣٧٤/٤)، و«تفسير القرطبي» (٤٤٣/٢١)، و«الدر المنثور» (١٤٢/١٥).



سُورَةُ عَبَسَ

سورة عَبَسَ سورة مكية؛ قاله ابنُ عباسٍ^(١)، وقد حُكيَ الإجماعُ على ذلك^(٢)، وتتضمنُ توجيةَ النبي ﷺ في دَعْوَتِهِ وتعاملِهِ مع أهلِ الأُتباعِ وأهلِ العنادِ، وفيها تذكيرٌ بنعمةِ الله على عباده وقدرته عليهم، وتذكيرٌ بالآخِرَةِ والبعثِ والنُّشورِ وحالِ الناسِ فيها.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُ فَأَقْرُبُ﴾ [عبس: ٢١].

قد تقدَّم الكلامُ على دَفَنِ المَوْتَى عندَ قولِهِ تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتَلَقَّ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

* * *

(١) «الدر المنثور» (٢٣٩/١٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٤٣٦/٥)، و«زاد المسير» (٣٩٩/٤)، و«تفسير القرطبي» (٣٦/٢٢).



سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

سورة الانفطار سورة مكّبة، وقد حُكي الاتفاق على ذلك^(١)،
ونُصِّمَتِ التذكير بالآخرة وأهوالها، وعاقبة الفريقين: أصحاب النعيم،
وأصحاب الجحيم.

* * *

❏ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا الْقُبُورَ بَعَثَتُ﴾ [الانفطار: ٤].

في هذا: أَنَّ دَفَنَ الْمَوْتَى سُنَّةٌ فِطْرِيَّةٌ تَجْرِي عَلَيْهَا الْأُمَمُ، فالأُضْلُ
في الموتى: الدَّفْنُ واتَّخَاذُ الْقُبُورِ لَهُمْ فِي كُلِّ الْأُمَمِ وَالشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ،
وقد تقدّم في سورة المائدة الكلام على دَفْنِ الْمَيِّتِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [٣١].

* * *

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٤٤٦/٥)، و«زاد المسير» (٤١٠/٤)، و«تفسير القرطبي»
(١٢٠/٢٢).



سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

سورة الْمُطَفِّفِينَ، قيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ بِمَكَّةَ؛ وَرُويَ هَذَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَقِيلَ: بِالْمَدِينَةِ؛ وَرُويَ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقِيلَ: إِنَّ جُزْءًا مِنْهَا بِمَكَّةَ وَالْآخَرَ بِالْمَدِينَةِ، عَلَى خِلَافٍ عَنْهُمْ فِي حَدِّ الْمَدَنِيِّ مِنَ الْمَكِّيِّ مِنْهَا، وَقَدْ عَدَّ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ مِنْهَا ثَمَانِ آيَاتٍ بِمَكَّةَ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ^(١).

وَفِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ: تَذْكِيرٌ بِالحِسَابِ وَدِقَّةٍ عَلَى الْعِبَادِ، وَذَكَرَ اللَّهُ أَحْوَالَ الْمُعَانِدِينَ لِلْحَقِّ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَاقِبَةُ الْمُتَمِّينِ.

* * *

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَيِّنْ لِلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ②﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ عِنْدَ الْبَيْعِ بِالْوِزْنِ وَالْكَيْلِ، وَعَدِمِ الظُّلْمَ فِي الْأَمْوَالِ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ؛ فَقَدْ كَانُوا أَهْلَ تِجَارَةٍ، وَيَقَعُ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْغِشُّ؛ فَهُوَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ رَوَى عِكْرِمَةُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، كَانُوا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ كَيْلًا؛ هَانَزَلَ اللَّهُ، ﴿وَبَيِّنْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ»^(٢).

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٤/٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٢٨/٢٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٢٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٩٠).

وقد ذكر الله أولئك بالبعث والنشور، وما فيه من دقيق الحساب على الظالمين ولو كان شيئاً يسيراً؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَنَبَّأُ أَولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

وقد تقدّم معنا مراراً الكلام على حُرْمَةِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، في مواضع؛ منها عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْمُضْطَّاعِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٨٨]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وتقدّم الكلام على العُشُورِ والضرائب عند قوله تعالى: ﴿فَاَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].





سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

سورة الانشقاق سورة مكية^(١)، وفيها تذكير بالآخرة وعلاماتها، وأحوال الناس يوم الحساب.

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: ٧].

ذَكَرَ اللَّهُ عِلَامَةً تَكْرِيمٍ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ أُعْطُوا كِتَابَهُمْ بِيَمِينِهِمْ، وَفِي هَذَا عِلَامَةً عَلَى شَرَفِ الْيَمِينِ، وَاسْتِحْبَابِ اسْتِعْمَالِهَا عِنْدَ مَا يَكْرُمُ وَيَشْرَفُ، وَفِي نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى﴾ [طه: ١٧]؛ فَقَدْ كَانَ يُمَسِّكُ عَصًا بِيَمِينِهِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا تَذَابَ الْمُبْتَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فَجَعَلَ الْخَطَّ وَالْكِتَابَةَ بِالْيَمِينِ؛ وَهَذَا هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ، وَهُوَ السُّنَّةُ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ شَرِيفَةٌ.

وَأَمَّا النِّجَاسَاتُ وَالْقَذَارَةُ وَالْأَذَى، فَتُسْتَعْمَلُ فِيهَا الشُّمَالُ، وَيُكْرَهُ اسْتِعْمَالُ الْيَمِينِ فِيهَا؛ لِقَوْلِ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (وَكَانَتْ الْبُسْرَى

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/٤٥٦)، و«زاد المسير» (٤/٤١٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٢/١٥٧).

لِخَلَائِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ أَذَى^(١)، وفي لفظ عن حفصة؛ قالت: «كَانَ يَجْعَلُ يَمِينَهُ لِأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ، وَوُضُوئِهِ وَنِيَابِهِ، وَأَخَذِهِ وَعَطَائِهِ، وَكَانَ يَجْعَلُ شِمَالَهُ لِمَا سِوَى ذَلِكَ»^(٢).



(١) أخرجه أحمد (٢٦٥/٦)، وأبو داود (٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٧/٦)، وأبو داود (٣٢).



سُورَةُ الْمَاعُونِ

سورة الماعون سورة مكبة، ومن العلماء من حكى اتفاقهم على ذلك، ولكن ثمة قول لبعض المفسرين: بأنها مدنية، ونسب إلى ابن عباس وقتادة وغيرهما، ولابن عباس قول آخر بمكيته^(١).

وفيها: أمر بالبذل وتطهير النفس من الشح، وأمر بالعبادة، وتحذير من النفاق وشعبه ومراءاة الناس، وتلازم الرياء والشح ظاهر؛ فكلاهما من علامات النفاق.

❏ قال الله تعالى: ﴿قَبِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ❶ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿الماعون: ٤-٥﴾.

توعد الله الغافلين عن الصلاة المتكاسلين عنها بالوعيد الشديد، وهذه الآية فيمن يصلي؛ لأن الله قال: ﴿قَبِيلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾؛ يعني: أنهم يصلون لكنهم يتكاسلون ويغفلون عنها حتى يؤخروها عن وقتها؛ وهذا ظاهر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ فيبين أنهم ساهون عنها، وليسوا تاركين لها، ولا أنهم ساهون فيها فقط؛ لأن السهو عنها هو غفلة عن أصل الصلاة، والسهو فيها هو عدم الخشوع فيها؛ ولهذا قال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولم

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٢/

يُقْل: فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ^(١).

لأنَّ ذَهَابَ بَعْضِ الْخُشُوعِ لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَقَدْ سَأَلَ مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ سَعْدًا، فَقَالَ: «هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ»: أَمَّا مَا يَحْدُثُ بِهِ أَحَدُنَا نَفْسُهُ فِي صَلَاتِهِ؟ قَالَ: لَا؛ وَلَكِنَّ السَّهْوَ أَنْ يُؤَخَّرَهَا عَنْ وَقْتِهَا^(٢).

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْخُشُوعِ وَحُكْمِهِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ. وَحَمَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا، لَا تَرْكِهَا بِالْكُلِّيَّةِ: جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ؛ كَسَعْدِ بْنِ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيِّ، وَمَسْرُوقٍ^(٣).

وَمِنَ السَّلَفِ: مَنْ حَمَلَهَا عَلَى التَّرْكِ؛ وَهَذَا قَوْلُ لَابِنِ عَبَّاسٍ رَوَاهُ عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَلَكِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَيَّدَ التَّرْكَ بِتَرْكِ الْمُنَافِقِ سِرًّا وَيَفْعَلُهَا عَلَانِيَةً، فَقَالَ: «فَهُمُ الْمُنَافِقُونَ»؛ كَانُوا يُرَآؤُونَ النَّاسَ بِصَلَاتِهِمْ إِذَا حَضَرُوا، وَيَتْرَكُونَهَا إِذَا غَابُوا، وَيَمْنَعُونَهُمُ الْعَارِيَّةَ بُغْضًا لَهُمْ، وَهُوَ الْمَاعُونُ^(٤).

وَبِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ جَمَاعَةٌ؛ كَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمَا^(٥).

وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ، وَلَا يَخْرُجُ عَنِ الْقَوْلِ السَّابِقِ لَهُ؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا كَانَ يَكُونُ نَفَاقُهُ أَكْبَرَ؛ فَيَتْرَكَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ فِي السِّرِّ بِالْكُلِّيَّةِ، وَيُنْشِئُهَا رِيَاءً وَعَلَانِيَةً لِلنَّاسِ، وَإِذَا كَانَ يَكُونُ نَفَاقُهُ لَيْسَ بِأَكْبَرَ؛ فَيَجْذِبُهُ الْإِيمَانُ عَنِ التَّرْكِ، وَيَجْعَلُهُ نَفَاقُهُ يَتَرَاخَى عَنْ وَقْتِهَا، وَهُوَ بَيْنَ مَدِّ النِّفَاقِ وَجَزْرِ الْإِيمَانِ لِلْوَقْتِ؛ وَمِنْ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٦٤).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٦٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٦٠).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٦١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٤٦٨).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٦٢ و٦٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٢/٥١١).

قال: (تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ؛ يَجْلِسُ بَرَقُبُ الشَّمْسِ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَتَنَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)^(١)، وهذا النِّفَاقُ الْأَصْغَرُ الَّذِي لَمْ يُخْرِجْهُ مِنَ الْمِلَّةِ، وَلَوْ كَانَ أَكْبَرَ، لَمْ يَقُمْ لِأَدَائِهَا.

التَّلَازُّمُ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَتَأْخِيرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ:

وَتَمَّةٌ تَلَازُّمٌ بَيْنَ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا وَبَيْنَ الرِّيَاءِ، وَكُلُّمَا كَانَ الرِّيَاءُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ عَظِيمًا، كَانَ تَرَخِيهِ عَنِ الصَّلَاةِ شَدِيدًا، فَإِنْ اكْتَمَلَ الرِّيَاءُ، اكْتَمَلَ التَّرُكُ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الرِّيَاءَ مُلَازِمًا لِلتَّسَاهُلِ فِي الصَّلَاةِ فِي كِتَابِهِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ هُنَا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ [الَّذِينَ هُمْ يَرُكَّوْنَ] ﴿الْمَاعُون: ٤-٦﴾؛ فَبِمَقْدَارِ الرِّيَاءِ يَكُونُ السَّهْوُ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ قَرَنَ اللَّهُ الرِّيَاءَ بِالتَّكَاسُلِ عَنِ الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِنَّا لَآتُونَكَ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ فِيمَنْ اعْتَادَ تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ إِلَى قُبُلِ الْمَغْرِبِ، قَالَ ﷺ: (تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ).

تَارِكُ الصَّلَاةِ وَحُكْمُهَا:

وَالصَّلَاةُ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَوَّلُ الْوَاجِبَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، وَشَرِيعَةٌ فِي كُلِّ الرُّسُلَاتِ، وَفَرَضَ اللَّهُ خَمْسَهَا فِي السَّمَاءِ بِلا واسطة؛ بِخِلَافِ بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ الْمَفْرُوضَةِ وَالْمَسْنُونَةِ.

وَأَمَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ، فَقَدْ اسْتَفَاضَتْ النُّصُوصُ عَلَى كُفْرِ فَاعِلِهِ مَرْفُوعَةً وَمَوْقُوفَةً، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ؛ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ؛ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ)^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٦٢٢).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٨٢).

فَجَعَلَ الصَّلَاةَ حَائِلًا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ، وَإِنْ تَرَكَهَا بِالْكَلِيَّةِ، فَقَدْ زَالَ الْحَائِلُ بَيْنَهُمَا، وَدَخَلَ الرَّجُلُ إِلَى الْكُفْرِ.

وَقَدْ جَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ قَبْضًا بَيْنَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَبَيْنَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لغيرِهِ مِمَّنْ نَطَقَ الشَّهَادَتَيْنِ، فَقَالَ كَمَا فِي السُّنَنِ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا، فَقَدْ كَفَرَ»^(١)، وَبِهَذَا كَانَ يَقُولُ الصَّحَابَةُ وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَارِ؛ كَمَا قَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ لَجَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا كَانَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ»^(٢).

وَيَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيُّ: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكَهُ كُفْرًا غَيْرَ الصَّلَاةِ»^(٣).

وَعَلَى هَذَا كَانَ التَّابِعُونَ، وَكَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَى التَّارِكِ الْكُفْرَ، كَمَا قَالَ أَيُّوبُ: تَرَكَ الصَّلَاةَ كُفْرًا لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ^(٤).

وَلَا يُوجَدُ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ مَا يُخْرِجُ هَذَا الْعُمُومَ أَوْ يُقَيِّدُهُ وَيُخَصِّصُهُ، إِلَّا حَمَلُ ذَلِكَ عَلَى التَّرْكِ بِالْكَلِيَّةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ يُؤَدِّي بَعْضَ الصَّلَوَاتِ وَيَتْرُكُ بَعْضًا، فَهَذَا لَيْسَ تَارِكًا لَهَا بِالْكَلِيَّةِ؛ وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي الْوَعِيدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ»، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَبْلَ إِسْلَامِ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ الصَّلَاةَ كُلَّهَا، كَمَا صَحَّ عَنْ نَضْرِ بْنِ عَاصِمٍ اللَّيْثِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ: «أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَى أَنْ يُصَلِّيَ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٤٦/٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٢١)، وَالنَّسَائِيُّ (٤٦٣)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٠٧٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْمُرُوزِيُّ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ» (٨٩٣).

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٢٢).

(٤) أَخْرَجَهُ الْمُرُوزِيُّ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ» (٩٧٨).

صَلَاتَيْنِ، فَقَبِلَ مِنْهُ؛ رَوَاهُ أَحْمَدُ^(١).

ولم يكن النبي ﷺ لِيُفَرِّدَ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا قَبِلَ مِنْهُ الْإِسْلَامَ وَلَوْ كَانَ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ أَهْوَنَ مِنْ بَقَائِهِ عَلَى الْكُفْرِ.

وإِنَّمَا اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَفْسِيرِ مَا أُطْلِقَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمُرَادِهِمْ فِي كُفْرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْكُفْرِ الْأَكْبَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْأَصْغَرِ.

والمعروفُ عن أحمدَ والمشهورُ عندَ الأصحابِ: كُفْرُ تَارِكِ الصَّلَاةِ، وليس في كلامِ أحمدَ ما يُخَالِفُ ذَلِكَ، وَعَامَّةُ الرُّوَاةِ عَنْهُ يَنْقُلُونَ كُفْرَ تَارِكِ الصَّلَاةِ، وَأَمَّا مَا نَقَلَهُ عَنْهُ صَالِحٌ فِي «الْمَسَائِلِ» أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؟ قَالَ: زِيَادَتُهُ بِالْعَمَلِ، وَنُقْصَانُهُ بِتَرْكِ الْعَمَلِ؛ مِثْلُ تَرْكِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ^(٢).

فهذا لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَحْمَدَ أَخْرَجَ حَدِيثَ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَظَاهَرُهُ: أَنَّهُ لَا يُخَالِفُهُ، فَالْنُقْصَانُ يَكُونُ بِتَرْكِ صَلَوَاتٍ، لَا تَرْكِ الصَّلَاةِ كُلِّهَا.

وقد اِخْتَلَفَ الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ عَنْ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ؛ فَتَقِلَّ عَنْهُمْ الْكُفْرُ وَعَدَمُهُ، وَإِنْ لَمْ يَأْتِ عَنْهُمَا نَصْرٌ فِي التَّصْرِيحِ؛ وَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَاتٌ مِنَ الْأَثَمَةِ عَنْهُمْ، وَالْمَشْهُورُ فِي الْمَحْكِيِّ عَنْهُمَا فِي تَارِكِ الصَّلَاةِ: أَنَّ كُفْرَهُ لَيْسَ بِأَكْبَرَ.

وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ، فَجَمَاهِيرُ أَصْحَابِهِ يَنْقُلُونَ عَنْهُ عَدَمَ الْكُفْرِ.

وَفِي كِتَابِ «صِفَةِ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ» مَزِيدٌ كَلَامٍ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

(١) أخرجه أحمد (٣٦٣/٥).

(٢) «مسائل الإمام أحمد»، رواية ابنه صالح (١١٩/٢).

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ﴾ [الماعون: ٧].

ذَكَرَ اللَّهُ حَبْسَ النِّفْقَةِ عَنْ أَهْلِهَا بَعْدَ مَا ذَكَرَ الْعَقْلَةَ عَنِ الصَّلَاةِ، فَجَعَلَ حَبْسَ النِّفْقَةِ صِفَةً لِلْعَافِلِينَ عَنْ صَلَاتِهِمُ السَّاهِينَ عَنْهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ كِمَالَ الصَّلَاةِ عَلَامَةٌ عَلَى قُوَّةِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ بِالْآخِرَةِ، انْبَسَطَتْ يَدُهُ بِالصَّدَقَةِ، لِعِمَارَةِ آخِرَتِهِ، وَقَدَّمَ لَهَا مَا يَنْتَظَرُهُ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ، وَمَنْ ضَعُفَتْ صَلَاتُهُ، ضَعُفَ إِيمَانُهُ، وَانْقَبَضَتْ يَدُهُ عَنِ الصَّدَقَةِ بِمَقْدَارِ ضَعْفِ إِيمَانِهِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي الدُّنْيَا يَعْمُرُ بِيُوتَهَا بِمَقْدَارِ أَمَلِهِ بِالْبَقَاءِ فِيهَا، فَتَجِدُهُ لَا يَعْمُرُ بَيْتًا فِي بَلَدٍ يَعْبُرُهَا مَسَافِرًا، وَكُلَّمَا كَانَ يَقِينُهُ بِالْبَقَاءِ فِيهَا أَطْوَلَ، كَانَتْ عِمَارَتُهُ لَهَا أَشَدَّ.

وَهَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْمَاعُونَ ﴾ عَلَى وَزْنِ (فَاعُول)؛ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَعْنِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْقَلِيلُ الْيَسِيرُ؛ فَكُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ وَيُعِينُهُمْ فِي اسْتِمَاعِهِمْ يُسَمَّى مَاعُونًا، ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْآيَةِ؛ لِأَنَّهَا أَغْلَبَ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ^(١). وَمِنَ السَّلَفِ: مَنْ حَمَلَ هَوْلَهُ: ﴿ الْمَاعُونَ ﴾ فِي الْآيَةِ عَلَى مَنَعِ كُلِّ خَيْرٍ وَلَوْ كَانَ نَفَقَةً يَرْزَهُمْ وَدِينَارٍ. بَلْ مِنَ السَّلَفِ: مَنْ حَمَلَهُ عَلَى إِعَانَةِ النَّاسِ بِمَهْنَتِهِمْ إِنْ طَلَبُوا عَوْنًا.

وَمِنْ هُنَا تَنَوَّعَ كَلَامُ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ الْمَاعُونِ فِي الْآيَةِ:
فَمِنْهُمْ: مَنْ قَالَ: هِيَ الزَّكَاةُ؛ كَعَلِيِّ وَابْنِ عَمْرٍ وَمَجَاهِدٍ وَابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ^(٢).
وَمِنْهُمْ: مَنْ قَالَ: هُوَ الْقِنْدَرُ وَالْدَّلُّو وَالْفَاسُ وَمَا فِي حُكْمِهِ مِنْ

(١) انظر: «الصحاح» للجوهري، و«لسان العرب»، و«تاج العروس»، مادة (م ع ن).

(٢) «تفسير الطبري» (٦٦٦/٢٤ - ٦٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٤٩٥/٨).

متاع؛ كابن مسعود ونسبته إلى أصحاب النبي ﷺ^(١)؛ وبه قال عليّ وابن عباس وعكرمة والنخعي^(٢).

ومنهم: مَنْ جعله منع كلِّ حقٍّ ومالٍ يُسأل الإنسانُ إِيَّاهُ ولا يُعطيه؛ كابن عمر^(٣).

ومنهم: مَنْ حمَلَهُ على العارية؛ كما قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير^(٤).

ومنهم: مَنْ حمَلَهُ على النقدَيْنِ الذهبِ والفضة؛ كما قاله ابن المسيب^(٥).

ومنهم: مَنْ حمَلَهُ على المهنة وإعانة المحتاجِ بها عندَ طلبِها؛ فيُعانٍ بجُهدِ البدنِ؛ كما قالت أم عطية^(٦).

وهذا كُلُّهُ مِنَ السلفِ تنوُّعٌ لا تضادٌّ، ومنعُ كلِّ ما ذكروه هو ممَّا يدخلُ في قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

حُكْمُ الْعَارِيَّةِ وَجَبَسِ مَا يُعِينُ الْمَحْتَاجَ:

ونَضَمْنَتِ الْآيَةُ مَنْحَ الْعَارِيَّةِ وَبَذَلُ مَا يُعِينُ النَّاسَ فِي حَاجَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وَجوبِ إعطاءِ الْعَارِيَّةِ وَمَنْحِهَا، عَلَى قَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ، وَقَدْ نَصَّ عَلَى الْوَجوبِ جَمَاعَةٌ؛ كَابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَغَيْرِهِ، وَالْأَظْهَرُ الْوَجوبُ؛ لَكِنْ بِشُرُوطٍ:

(١) «سنن أبي داود» (١٦٥٧)، و«السنن الكبرى للنسائي» (١١٦٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/٦٧٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٤٦٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/٤٩٦).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٦٨). (٤) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٧٥).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٧٨).

(٦) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٠٦٢٤)، و«شرح مشكل الآثار» (٩٣/١٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٥/٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/٦٩٠).

الأول: أن يكون طالبُ العاريَّة محتاجًا لها؛ لا يستعيرُها ترفًا وتكثُّرًا.

الثاني: أن يكون المتاعُ المُستعارُ لا يحتاجُ إليه صاحبه بمثلٍ أو أشدَّ من حاجةِ طالبه، فإن كان محتاجًا له، فله منعه لنفسه ولعِياله، ويكونُ بذلُّه من باب الإيثارِ على النَّفسِ، وهذه مرتبةُ أهلِ الفضلِ بالبذلِّ: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

الثالث: أن يكون المستعيرُ مؤتمنًا على حفظِ المتاع لا يُفسدُه، ومن عُرِفَ بأخذِ العاريَّة وجحدِها أو إتلافِها وإضاعَتِها وإفسادِها، فلا يجبُ على صاحبها بذلُّها ولو كان المستعيرُ محتاجًا لها، ويكونُ بذلُّ العاريَّة في حقِّه فضلًا وحَسَنَةً بمقدارِ حاجةِ طالبها.





سُورَةُ الْكَوْثَرِ

اختلف العلماء في موضع نزول سورة الكوثر، والأكثر على مكّيتها، وهو مروي عن ابن عباس، وروى عن عكرمة والحسن: أنها مدنية^(١)، وفي مسلم من حديث أنس ما يدل على أنها نزلت بالمدينة^(٢)، واستدل بعضهم لمكّيتها بأن الأبتَر هو العاص بن وائل، وقيل: هو أبو جهل، وقيل: عقبة بن أبي معيط، وقيل غيرهم من كفار قريش^(٣).

قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

أمر الله بتوحيده ويذل العباد له أداء للصلاة أو تحراً للنفس، والآية عامّة في كل صلاة وفي كل منحور، وهي نظير قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك لله وبذلك أقرت وأنا أول المسلمين^(٤) [١٦٢ - ١٦٣].

ومن السلف: من خصّص النزول بصلاة العبد ونحر الهدي والأضحية كمجاهد وعطاء وعكرمة^(٤)، وهو ظاهر؛ للتلازم بين الصلاة

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/٥٢٩)، و«زاد المسير» (٤/٤٩٧)، و«تفسير الفرطبي» (٥١٩/٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٤٠٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/٦٩٧ - ٧٠٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٤٧١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/٥٠٤).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٤/٦٩٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/٣٤٧٠).

والنحر؛ لأنهما يكونان مشروعين في يوم النحر، وهو عبد الأضحية؛ ولهذا قال ﷺ: (مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسَكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسَكَ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَلَا نُسَكَ لَهُ) ^(١).

ويروى عن علي بن أبي طالب: أن المراد بالنحر رفع اليدين في الصلاة؛ وهو منكّر؛ يرويه مقاتل بن حيان، عن الأصبغ بن نباتة، عنه؛ أخرجه ابن أبي حاتم ^(٢).

ويروى عنه: أنه قبض اليمين على الشمال في الصلاة ^(٣)، ولا يصح.

حُكْمُ الْأَضْحِيَّةِ وَوَقْتُهَا:

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾، يتضمن أحكاماً في النحر؛ منها: ذكر الله والتسمية عند ذبح بهيمة الأنعام، ومنها: مسألة وجوب الأضحية، ومنها: تقديم صلاة العيد على ذبح الأضحية:

فأما التسمية عند الذبح والنحر: فهذا قد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وتقدّم الكلام على التسمية عند إرسال الصيد عند قوله: ﴿وَاذْكُرُوا أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

وأما حُكْمُ الْأَضْحِيَّةِ: فهو مختلف فيه عند الأئمة، والأرجح عدم الوجوب؛ وهو قول جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة والأوزاعي وقول لمالك بوجوبها، ولم يكن الخلفاء الراشدون يوجبونها كأبي بكر وعمر،

(١) أخرجه البخاري (٩٥٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٧٠/١٠).

(٣) تفسير الطبري (٦٩٠/٢٤).

وقول جماعة من الصحابة؛ كابن عمر وبلال وأبي مسعود البذري، وأئمة التابعين؛ كابن المسيب وعلقمة.

ولا يثبت عن النبي ﷺ نص صريح على وجوب الأضحية، ولا نهى صريح مؤكّد عن تركها، وأمثلة ما يحتج به من يقول بوجوبها: ما رواه ابن ماجه؛ من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (مَنْ كَانَ لَهُ سَعَةٌ وَلَمْ يُضَحِّ، فَلَا يَفْرَبَنَّ مُصَلَّائَنَا)^(١)، وهو حديث يرويه عبد الله بن عباس القُتَيْبَانِي، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً، وابن عباس مختلف فيه، وهو ضعيف الحديث؛ قاله أبو داود والنسائي وغيرهما^(٢)، وفي الحديث اختلاف في الرفع والوقف، وقد أنكر أحمد رفعه، وقال: «هذا حديث منكّر»^(٣).

وقد كان أبو بكر وعمر يتركان الأضحية؛ خشية المشقة على الناس فيظنونها سنة؛ كما قال أبو سريحة خديجة بن أسيد: «رأيت أبا بكر وعمر وما يضحيان»؛ رواه عبد الرزاق^(٤).

وروى عبد الله بن أحمد في «عِلَّله»^(٥)، عن خديجة بن أسيد؛ قال: لقد رأيت أبا بكر وعمر وما يضحيان عن أهلهما؛ خشية أن يُسْتَنَّ بهما.

وروى الخطيب في «المُتَّقِ»، عن العلاء بن هلال؛ أن رجلاً سأل

(١) أخرجه أحمد (٣٢١/٢)، وابن ماجه (٣١٢٣).

(٢) «تهذيب الكمال» (٤١١/١٥).

(٣) ينظر: «تنقيح التحقيق»؛ للنعمي (٦٢/٢)، و«الفروسي» لابن القيم (ص ٢٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٤٣٢/٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٨١٣٩).

(٥) «العلل ومعرفة الرجال» لأحمد، رواية ابنه عبد الله (٣٣٧/٣).

ابن عمر عن الأضحية؟ فقال ابن عمر: أيحسبها حتما؟ لا، ولكنها حسنة^(١).

وأما ما رواه الشيخان؛ من حديث جندب بن سفيان البجلي؛ قال: ضَحِينَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَضْحِيَّةَ ذَاتِ يَوْمٍ، فَإِذَا أَنَاسُ قَدْ ذَبَحُوا ضَحَايَاهُمْ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، رَأَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ ذَبَحُوا قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: (مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَذْبَحْ حَتَّى صَلَّيْنَا، فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ)^(٢).

فهذا تشريع توقيتي، والمواقيت تكون في السنن، كما تكون في الواجبات، وما جاء توقيته، فليس لأحد تقديمه ولا تأخيرهُ عما وُقِّت فيه؛ كتشريع الوترِ آخرَ صلاةِ الليلِ في قوله ﷺ: (اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَتَرًا)^(٣)؛ وذلك أنَّ التوقيت للعبادة حُكْمٌ غيرُ حُكْمِ العبادة في نفسها.

وأما وقتُ الأضحية: فلا يختلف العلماء في أنَّ الأضحية تُسرَّعُ بعدَ صلاةِ العيد، وأنَّ ذَبْحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ ليس وقتاً لها؛ كما جاء عن البراء؛ أنَّه قال: خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرُ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ عَجَلَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ السُّنَنِ فِي شَيْءٍ)، فَقَامَ خَالِي أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَصَلِّيَ وَعِنْدِي جَذَعَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُسِنَّةٍ؟ قَالَ: (اجْعَلْهَا مَكَانَهَا - أَوْ قَالَ:

(١) «المتفق والمفترق» للخطيب البغدادي (١٧٣٧/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٠٠)، ومسلم (١٩٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٩٩٨)، ومسلم (٧٥١).

أَذْبَحَهَا - وَلَنْ تَجْزِيَ جَذْعَةً عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ؛ رواه الشيخان^(١)، وكذلك قوله ﷺ في حديث جُنْدُبِ السَّابِقِ: (مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى)^(٢).

ومثله عندهما من حديث أنس^(٣).



(١) أخرجه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (١٩٦١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٩٥٤)، ومسلم (١٠/١٩٦٢).



سُورَةُ النَّصْرِ

سورة النصر سورة مدنيةٌ باتِّفاقهم، وقد حَكَّى الإجماع على ذلك خَلْقُ مِنَ الْأُئِمَّةِ^(١)، وهي في بيانِ البُشْرَى بالفتحِ على نبيِّه وتمكينه وعلو شأنه وأمره، ونَعْيِ نفسه له بعدَ التمكينِ له، فأشعره اللهُ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ وقُرْبِهِ مِنْ فِتْرَةِ تَمَكِينِهِ ونصره.

❏ قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

[النصر: ٣].

لَمَّا مَكَّنَ اللهُ لِنَبِيِّهِ وَأَعْلَمَهُ بِقُرْبِ نَصْرِهِ وفتحِه، نَعَى إِلَيْهِ قُرْبَ أَجَلِهِ؛ حَيْثُ أَمَرَهُ بِالْإِكْتِسَارِ مِنَ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَفِي هَذَا: أَنَّهُ يُشْرَعُ الْإِكْتِسَارُ مِنَ التَّعَبُّدِ فِي كُلِّ حِينٍ وَخَاصَّةً عِنْدَ دُنُوِّ الْأَجَلِ وَالشُّعُورِ بِهِ؛ لِيُخْتَمَ لِلْعَبْدِ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ؛ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ؛ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)؟ فَقَالَ: (خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أَمْنِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا، أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ:

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/٥٣٢)، و«زاد المسير» (٤/٥٠١)، و«تفسير القرطبي»

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]؛ فَتُحْ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(١).

وقد كان جماعة من الصحابة يُفسرونها بظاهرها، وكان عمرُ وابْنُ عَبَّاسٍ وغيرُهما يَعْلَمُونَ منها نَعْيَ النَّبِيِّ ﷺ والشعورَ بِقُرْبِ أَجَلِهِ، وفي ذلك يقول ابنُ عَبَّاسٍ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُبَيْتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا...» [النصر: ١، ٢] حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَذَرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا بَنَ عَبَّاسٍ، أَكْذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَغْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؛ فَتُحْ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، قَالَ عُمَرُ: مَا أَغْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ^(٢).

والمرادُ بذلك: الإكثارُ من العبادةِ عموماً عندَ كمالِ النُّعْمَةِ وتَمَامِهَا، وعندَ الكِبَرِ والشعورِ بِدُنُوِّ الْأَجَلِ ولو مِن مَرَضٍ عاجِلٍ

(١). أخرجه مسلم (٤٨٤).

(٢). أخرجه البخاري (٤٢٩٤).

ونحوه، وقد ذهب بعض العلماء إلى مشروعية الإكثار من الاستغفار في خواتيم كل شيء، وخاصة خواتيم الأعمال؛ وذلك لظاهر سورة النصر، ولقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠].





سورتا المعوذتَيْن

اخْتَلِفَ فِيهِمَا؛ فَقِيلَ: نَزَلَتَا بِالْمَدِينَةِ، وَقِيلَ: نَزَلَتَا بِمَكَّةَ، وَالْأَكْثَرُ عَلَى مَدَنِيَّتِهِمَا، وَلَابَنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ قَوْلَانِ فِي ذَلِكَ^(١)، وَهِيَ فِي تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمَّتِيهِ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّعَوُّذُ بِهِ وَحْدَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَشَرٍّ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، خَفِيِّ أَوْ عَلَنِيٍّ.

❏ قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ بِالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَذَلِكَ يُشْرَعُ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ؛ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، فَهَذَا عَامٌّ، وَيُشْرَعُ عِنْدَ الشُّعُورِ بِأَسْبَابٍ يَحْتَاجُ مَعَهَا الْعَبْدُ إِلَى اللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ؛ وَذَلِكَ عِنْدَ مَوَارِدِ الشَّيْطَانِ عَلَى النَّفْسِ بِالْخَطَرَاتِ، وَعِنْدَ الْقُرْبِ مِنْ أَمَاكِنِ شَيَاطِينِ الْجَنِّ؛ كَالْحُشُوشِ وَالنَّجَاسَاتِ وَالْخَلَوَاتِ وَبَعْضِ الْفَلَوَاتِ الْمُوَحِّشَةِ، وَأَمَاكِنِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ كَمَجَالِسِ الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ وَمَوَارِدِ الشُّبُهَاتِ فِيهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الشُّبُهَاتِ تَرُدُّ عَلَى الْأَسْمَاعِ وَتَرْفُضُهَا الْعُقُولُ، وَتُدْخِلُهَا الشَّيَاطِينُ إِلَى النَّفُوسِ وَتُسَوِّلُ لَهَا حَتَّى تَسْتَسِيغَهَا بَعْدَ تَكْرَانِهَا، وَكَمْ مِمَّنْ يَسْمَعُ بَاطِلًا يُنْكِرُهُ ثُمَّ يُعِيدُهُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ مِرَارًا حَتَّى

(١) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٣٨ و ٥٤٠)، و«إزاد المسير» (٤/ ٥٠٧ و ٥١٠)، و«التفسير القرطبي» (٢٢/ ٥٦٧).

تَنْشُرِيهِ نَفْسُهُ؛ وَلِهَذَا تُشْرَعُ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ أَدَى الْخَلْقِ وَشُرُورِهِمْ جِنًّا
وإنْسًا .

وقد تقدّم الكلام على أحكام الاستعاذة عند قوله تعالى في سورة
الأعراف: ﴿وَمَا يَزْعِفَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
[٢٠٠] .

وتقدّم الكلام على صيغها عند قوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] .

وهذا ختام ما تيسر من الكلام على أحكام القرآن، وكان مُبتدأه في
الرابع من شهر ربيع الأول من عام ألف وأربع مئة وثلاثة وثلاثين
للهجرة، ونحمد الله على عونه وتسديده، ونسأله الثبات على الحق إلى
يوم اللقاء، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



فهرست اسامی و الفاظ و آیات و احادیث

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الحجرات		
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ...﴾	[٩٧ - ٩٨]	١٦٥٩
سورة النحل		
﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾	[٥]	١٦٦٣
﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تُنْزَعُونَ﴾	[٦]	١٦٦٥
﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسُكُمُ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِتِلْكَ الْأَمْثِلِينَ...﴾	[٧ - ٨]	١٦٦٧
﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْيَمْرَ لَكُمْ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا...﴾	[١٤]	١٦٧٣
﴿وَلَوْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لَتَعْلَمُوا أَنَّمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَدِخْرٍ لَكُمْ﴾	[٦٦]	١٦٧٤
﴿خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ﴾		
﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾	[٧٥]	١٦٧٥
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا...﴾	[٨٠]	١٦٧٦
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى...﴾	[٩٠]	١٦٧٦
﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ...﴾	[٩١]	١٦٧٧
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ...﴾	[٩٢]	١٦٧٧
﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾	[٩٨]	١٦٧٨
﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ...﴾	[١٠٦]	١٦٨١
﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْهِكُمْ الْبَيْتَةَ وَاللَّهُمَّ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ...﴾	[١١٥]	١٦٨٣
﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبَتُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	[١٢٦]	١٦٨٣
سورة الإسراء		
﴿وَلَتَعْلَمُوا أَنَّ الْبَيْنَ وَالْجَنَابَ﴾	[١٢]	١٦٨٥
﴿وَقَضَى رَبِّيكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾	[٢٣ - ٢٦]	١٦٨٦

الصفحة	رقم الآية	طرف الآية
١٦٨٨	[٣١]	﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ مَنَ رَزَقْنَهُمْ وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ...﴾
١٦٨٩	[٣٣-٣٥]	﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾
١٦٩٠	[٧١]	﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ...﴾
١٦٩٠	[٧٨]	﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُولِكَ النَّسِيسِ إِلَى حَسْبِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ...﴾
		﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾
١٦٩١	[٧٩]	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾
١٦٩١	[٨٥]	﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا...﴾
١٦٩٢	[١٠٧-١٠٨]	﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَوْتِكَ وَلَا يَخَافُكَ إِذَا تُبْعَثُ بَيْنَ ذَلِكَ سِيلًا﴾
١٦٩٣	[١١٠]	
		سُورَةُ النُّحُوتِ
١٦٩٥	[١٢]	﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبِّئَهُ أَتَى لِلرِّبِّينِ لَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَلًا﴾
١٦٩٦	[١٨]	﴿وَنَحْسَبُهُمْ أُنْثَىٰ فَطَغَوْا فِيهِمْ فَمُتُوا...﴾
		﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾
١٧٠٢	[١٩]	﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْكُمْ أَمْثَلٌ عَلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ...﴾
١٧٠٥	[٢١]	﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا...﴾
١٧١٠	[٢٣-٢٤]	﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾
١٧١٤	[٣٩]	﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾
١٧١٧	[٦٤]	﴿وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَكَانَ لِلسَّكِينِ بِمَثَلُونٍ فِي الْبَحْرِ...﴾
١٧١٨	[٧٩]	﴿وَأَمَّا الْفُلُّ لَكَانَ أَبُوهُ تُومَيْنٍ فَأَخْبَرَهَا أَنَّ يُرَوِّقُهَا طِفْلًا وَكَفَرًا...﴾
١٧١٩	[٨٠-٨١]	
١٧٢١	[٨٢]	﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ...﴾
١٧٢٢	[٩٤]	﴿قَالُوا يَا أَرْثُومَ الْفَرَسَيْنِ إِنَّا بِالْجَوِّ وَالْأَرْضِ مُتَمِلِّدُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾
		سُورَةُ الرَّحْمَنِ
١٧٢٣	[٧]	﴿يُنَزِّلُ الْغَمَامَ إِنَّا نُنَزِّلُهُ بِطَلَمٍ لَّعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ...﴾
١٧٢٦	[٢٣]	﴿قَالَتْ يَا أَبَتِي إِنَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًّا﴾
١٧٢٦	[٢٨]	﴿يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوهُ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِغِيًّا﴾

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾	[٣١]	١٧٢٧
﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ مَا سَمِعْتُ بِكَ رِيًّا إِنَّهُ كَانَتْ فِي حَوْنِي﴾	[٤٧]	١٧٢٧
﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾	[٥٥]	١٧٢٨
﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ...﴾	[٥٩]	١٧٣٠
سُورَةُ طه		
﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا أَهْلَى عَلَيْكُمْ فَنَزَلْنَا		
بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَلٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾	[١٠]	١٧٣٣
﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاتْلَعْ نَعْمَتَكَ إِنَّكَ بِالْوَادِعِ الْمُقَدَّسِ حُلًى﴾	[١٢]	١٧٣٤
﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاصْبِرْ إِنَّهُ وَاعِدُ الْوَصِيَّةِ الْكُبْرَى﴾	[١٤]	١٧٣٨
﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَتُومَى...﴾	[١٧-١٨]	١٧٤٤
﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي...﴾	[٢٩-٣٢]	١٧٤٥
﴿كَلِمَاتٍ سَمِعَكَ كَثِيرًا﴾	[٣٣]	١٧٤٦
﴿إِذْ تَتَذَكَّرُ أَنتَ فَقَوْلْ هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ مِنَ يَكْفُلُهُ...﴾	[٤٠]	١٧٤٧
﴿وَأَنْظُرْ إِلَيَّ إِلَهُكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا...﴾	[٩٧]	١٧٤٧
﴿فَقُلْنَا يَنَادُهُمُ إِنَّ هَذَا صَدُوكَ وَلَوْ جِئْتَ بِخَبَرٍ مِّنَ الْجَنَّةِ		
فَنُشْفِقُ﴾	[١١٧]	١٧٤٨
﴿فَأَكْلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَٰمًا سَوَاءُ نُفُسُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن		
وَرَقٍ لَّجْنَةٍ...﴾	[١٢١]	١٧٤٩
﴿فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ		
غُرُوبِهَا...﴾	[١٣٠]	١٧٤٩
﴿وَأَمْرَ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّطِيحِ حَلِيًّا﴾	[١٣٢]	١٧٥٠

سُورَةُ الزُّمَرِ

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾	[٢٠]	١٧٥١
﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَرُّهُمْ إِنَّ كَاثِرًا بِطُلُوعِ	[٦٣]	١٧٥٢
رُودَادُودٍ وَسُلَيمَنَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغَرِيِّ...﴾	[٧٨]	١٧٥٧
﴿فَفَقَّهَسْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكَأَلَا مَا بَيْنَنَا حُكْمًا وَحِلْمًا﴾	[٧٩]	١٧٥٨
﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخَوِّضَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ...﴾	[٨٠]	١٧٦٠

طرف الآية رقم الآية الصفحة

سُورَةُ الْحَجِّ

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ [٢٥] ١٧٦٣
- ﴿وَلَوْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا...﴾ [٢٦] ١٧٦٧
- ﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾ [٢٧] ١٧٦٧
- ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَاجِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَمْلُوءَةٍ...﴾ [٢٨] ١٧٦٩
- ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُتُوفُوا نُذُرَهُمْ وَلِيَبَاطِئُوا بِالْأَيْتِ الْعَرَبِيَّةِ﴾ [٢٩] ١٧٧٥
- ﴿وَالَّذِمْ وَمَنْ يُعْطِمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾ [٣٠-٣٣] ١٧٧٦
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ...﴾ [٣٤] ١٧٧٩
- ﴿وَالْبَيْتَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ مَّعْبُودَاتِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ...﴾ [٣٦] ١٧٨٠
- ﴿وَلَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا بِعَظْمِهَا وَلَكِنْ يَبَالُ النَّفْسَ مِنْكُمْ...﴾ [٣٧] ١٧٨٣
- ﴿أُذِّنْ لِلَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ بِآثَمِهِمْ طَعَامًا وَلَنْ اللَّهُ عَلَى نَهْجِهِ لَغَيْرٌ...﴾ [٣٩-٤٠] ١٧٨٣
- ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ [٤١] ١٧٨٦
- ﴿وَلَاكُ وَمَنْ حَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرِفَ...﴾ [٦٠] ١٧٩٣
- ﴿وَجَعَلْنَاهُ فِي اللَّهِ حَقَّ حِمْلٍ...﴾ [٧٨] ١٧٩٤

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [١-٢] ١٧٩٥
- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُقْرَأُونَ عَلَيْهِمْ حَافِظُونَ...﴾ [٥-٧] ١٨٠٠
- ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فِي بَطْلَانٍ...﴾ [٢١-٢٢] ١٨٠١
- ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [٢٧] ١٨٠٢
- ﴿فَلَمَّا أَتَتْكَ آتَتْ وَمِنْ مَعَكَ عَلَى الْآلِ قُلُ لَتَأْخُذَ اللَّهُ الْبَاطِلَ...﴾ [٢٨-٢٩] ١٨٠٢

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدًا...﴾ [٢] ١٨٠٥
- ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ [٣] ١٨١٢
- ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْفَحْشَاءَ ثُمَّ لَا يَفْعَلُونَهَا فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدًا...﴾ [٤-٥] ١٨١٥

الصفحة	رقم الآية	طرف الآية
١٨١٩	[٦ - ١٠]	﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ...﴾
١٨٣٠	[١٩]	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا...﴾
١٨٣٢	[٢٧ - ٢٨]	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ...﴾
١٨٣٦	[٢٩]	﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ...﴾
١٨٣٧	[٣٠]	﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاحَهُمْ...﴾
١٨٤١	[٣١]	﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾
١٨٥٩	[٣٢]	﴿وَأَلْبِسُوا الثَّيَابَ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُنْفِكُوا...﴾
١٨٦٢	[٣٣]	﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُفْهِمَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾
١٨٦٣	[٣٦]	﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنَا فِيهِمْ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ...﴾
		﴿رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهِمْ عِزَّةٌ وَلَا يُعْجَبُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾
١٨٦٤	[٣٧]	﴿الرَّكَوَّةُ...﴾
١٨٧٢	[٥٨]	﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعِذَّكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾
		﴿وَلَا يَأْكُلُ الْفُلُ مِنْكُمْ حَتَّى يَكُونَ الْفُلُ كَمَا اسْتَدْنَتِ الَّذِينَ
١٨٧٤	[٥٩]	﴿مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾
		﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
١٨٧٦	[٦٠]	﴿أَن يَضَعْنَ عِزَّاهُنَّ عَلَى مَنَاحِيكِكُمْ يُرْتَبِئْنَ...﴾
١٨٧٨	[٦١]	﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾
١٨٨٢	[٦٢]	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾
١٨٨٣	[٦٣]	﴿لَا يَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا...﴾
		سُورَةُ الْفُرْقَانِ
١٨٨٦	[٧]	﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْتَشِي فِي الْأَمْوَالِ...﴾
١٨٨٨	[٣٠]	﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾
١٨٩٦	[٥٢]	﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَتَعْبُدْهُمْ بِدِينِهِمْ...﴾
		﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَهًا
١٨٩٦	[٥٧]	﴿سِوَايَ﴾
١٨٩٧	[٦٤]	﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾
		﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
١٨٩٨	[٦٧]	﴿قَوَامًا﴾

الصفحة	رقم الآية	طرف الآية
١٨٩٨	[٧٢]	﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّوْرَ وَإِذَا سُئِلُوا بِالْقُرْآنِ كَرِهُوا﴾
		سُورَةُ الشُّعَرَاءِ
١٩٠١	[١٨١ - ١٨٣]	﴿أَرْوُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ...﴾
١٩٠٢	[٢١٨ - ٢٢٠]	﴿الَّذِي يَرْبُّكَ جَبْنَ نَقُومُ...﴾
١٩٠٣	[٢٢٧]	﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكَ...﴾
		سُورَةُ النَّبَأِ
١٩٠٥	[١٩]	﴿فَنَبِّئْهُمْ ضَاجِعًا مِنْ قَوْلِهَا﴾
١٩٠٨	[٢١]	﴿لَا عِلَّيْسَهُ عَلَاقًا شَكِيًّا أَوْ لَا أُنَبِّئُكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ شَيْنٍ﴾
		﴿إِلَى وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكُهُمْ وَأَوَيْتَ مِنْ كُلِّ مَوْتٍ وَمَا عَرِشٌ عَظِيمٌ﴾
١٩١١	[٢٣]	﴿أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَكَذَا فَالِقَهُ لَيْلِي ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾
١٩١٥	[٢٨]	﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾
١٩١٧	[٣٠ - ٣١]	﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ...﴾
١٩١٩	[٣٥ - ٣٧]	سُورَةُ الْعَصْرِ
١٩٢١	[٧]	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَكَ أَنْ أَرْسِلِيهِ﴾
١٩٢١	[٢٠]	﴿وَسَاءَ رِجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمَدِينَةِ يَدْعُو...﴾
١٩٢٣	[٢٣]	﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾
١٩٢٥	[٢٦]	﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَّ اسْتِجَارَةٌ...﴾
		﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْكُمُكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَّ أَنْ تَكْجُرِي﴾
١٩٢٦	[٢٧]	﴿فَمَنْ يَصْحَبُ...﴾
١٩٢٨	[٢٩]	﴿فَلَمَّا فَصَلَ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا...﴾
		سُورَةُ الْحَجِّ
١٩٢٩	[٨]	﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾
١٩٣٠	[٢٩]	﴿أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَاتُورُ الرِّجَالِ وَتَقَطُّعُونَ الشَّجَرِ...﴾
١٩٣٠	[٤٥]	﴿أَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرِ الْقَوْلَ...﴾
١٩٣١	[٤٨]	﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَقْطَعُ بِمِثْلِكَ...﴾

سورة الزمر

﴿الذَّٰرِئَاتِ ١﴾ قُلِيبَ الرُّؤْمِ ٢ قِ لَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ

سَيِّئَاتُكُمْ...﴾

١٩٣٣ [٥-١]

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ...﴾

١٩٤٤ [١٨-١٧]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...﴾

١٩٤٥ [٢١]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُ بِالْبَلِّ وَالْخَارِ وَأَيْضًا لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ...﴾

١٩٤٦ [٢٣]

﴿فَأَمَّا رَحْمَتُكَ لِلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْيُنُهُمْ فَطَرْتَ اللَّهُ أَلْفَى فَطَرْتَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾

١٩٤٨ [٣٢-٣٠]

﴿فَقَاتِلْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَسِيرِينَ وَالنَّاسِيبَ...﴾

١٩٥٠ [٣٩-٣٨]

سورة لقمان

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّبِعُ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾

١٩٥٣ [٦]

﴿يَتَّبِعُ أَفْهَ الضَّلَالَةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾

١٩٥٦ [١٧]

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ...﴾

١٩٥٧ [١٩]

سورة النجم

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

١٩٦١ [١٥]

سورة الأخر

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...﴾

١٩٦٥ [٥-٤]

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ...﴾

١٩٦٧ [٦]

﴿وَلَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾

١٩٧٠ [٢١]

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ...﴾

١٩٧٣ [٢٦]

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ هَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾

١٩٧٤ [٢٩-٢٨]

﴿يَلْبَسَ الَّذِينَ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ الْإِسْلَامِ...﴾

١٩٧٥ [٣٣-٣٢]

﴿فَلَمَّا فَصَىٰ زَيْدٌ بِهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَرْوَاحِهِمْ﴾

١٩٨٣ [٣٧]

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ

أَنْ تَمْسُوهُنَّ...﴾

١٩٨٤ [٤٩]

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَمْنَا لَكَ أَنْزَلَكَ اللَّهُ بِأَمْرٍ أَجْرُهُمْ...﴾

١٩٨٦ [٥٠]

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ثَوْبِي مَن قَسَمَ مِثْنَهُ وَقَوَّيْ إِلَيْكَ مَن قَسَمَهُ...﴾	[٥١]	١٩٨٨
﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بَيْنَ مَنْ أَزَوَّجَ...﴾	[٥٢]	١٩٩٠
﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ...﴾	[٥٣]	١٩٩٢
﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِي ءَمَانَةٍ وَلَا تَتْلُوهُنَّ...﴾	[٥٥]	١٩٩٥
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾	[٥٦]	١٩٩٥
﴿يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلْ لِأَرْحَمِكْ وَمَنْ أَرْحَمُكَ مِنَ اللَّهِ...﴾	[٥٩]	١٩٩٧
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ...﴾	[٧٢]	٢٠٠١
سُورَةُ الشُّعَرَاءِ		
﴿وَلِسْلَيْتُمَنِ الرِّيحَ فُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّحُْهَا شَهْرٌ...﴾	[١٢]	٢٠٠٣
﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ يُحْفَلُونَ...﴾	[١٣]	٢٠٠٧
سُورَةُ طه		
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَالِحٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ لِبَاحٍ...﴾	[١٢]	٢٠١١
سُورَةُ الْاَنْعَامِ		
﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾	[٤٨ - ٥٠]	٢٠١٣
﴿اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ وَمَا عَمِلَتْ اَيْدِيْنَا اَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ...﴾	[٧١ - ٧٣]	٢٠١٤
سُورَةُ الصَّافَاتِ		
﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾	[١٤١]	٢٠١٥
سُورَةُ الْاَنْعَامِ		
﴿اِنَّ هَذَا اَرْسَى لَهُ نَسْعٌ وَنَسْعُونَ نَجْعًا وَلِي نَجْعَةٍ وَجِدَةٍ...﴾	[٢٣ - ٢٤]	٢٠١٨
﴿وَتَحْذَرُ اَيْدِيْهِ ضَرْمًا فَاُضْرِبُ بِهٖ وَلَا تَحْنُثُ...﴾	[٤٤]	٢٠٢٠
سُورَةُ الْاَنْعَامِ		
﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِتَرْكَبُوا بِهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ...﴾	[٧٩ - ٨٠]	٢٠٢١

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
سُورَةُ فَصْلَاتٍ		
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ...﴾	[٦- ٧]	٢٠٢٣
﴿وَلَمَّا بَرَئْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَزَعَّ فَاسْتَوَىٰ يَالْقُو...﴾	[٣٦]	٢٠٢٥
سُورَةُ الشُّورَىٰ		
﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَوِمْ ۖ كَمَا أَمَرْتُ ۖ وَلَا تَلْبِسْ آمَوَاتٍ...﴾	[١٥]	٢٠٢٧
﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	[٢٣]	٢٠٢٨
﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾	[٣٨]	٢٠٢٩
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَكْتُمُونَ...﴾	[٣٩- ٤١]	٢٠٣٢
سُورَةُ الْأَنْعَامِ		
﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾	[١٢]	٢٠٣٣
﴿لَتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ...﴾	[١٣- ١٤]	٢٠٣٤
﴿أَوْ مَن يُنَشِّئُوا فِي الْحَبْلِ وَهُوَ فِي الْفَصْلِ عِندَ مُبِينٍ﴾	[١٨]	٢٠٣٥
سُورَةُ الْأَحْزَابِ		
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا...﴾	[١٥]	٢٠٣٧
سُورَةُ مُحَمَّدٍ		
﴿إِذَا لَيْسَ إِلَيْنَ كُفْرًا فَصَرَبَ الرَّكْبُ...﴾	[٤]	٢٠٤٣
﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾	[٢٢]	٢٠٤٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾	[٣٣]	٢٠٤٨
﴿فَلَا تَهْشَوْا وَلَكُمْ إِلَى اللَّهِ الْمَلَأْتُونَ...﴾	[٣٥]	٢٠٤٩
﴿مَتَّعْنَاهُ مَوْلَاةً ذَخَّرْتَ لِنَفْسِكَ لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	[٣٨]	٢٠٥٠
سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ		
﴿قُلْ لِلْمُشْكِكِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أَولَىٰ مِنِّي شَيْبًا﴾	[١٦]	٢٠٥٢
﴿يَقْتُلُوهُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُم مِّنْ دُونِهِمْ...﴾	[١٧]	٢٠٥٣
﴿يَأْتِينَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾		

الصفحة	رقم الآية	طرف الآية
٢٠٥٣	[١٩ - ٢٠]	﴿وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ بِأُخْذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا...﴾
٢٠٥٤	[٢٥]	﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾
٢٠٥٥	[٢٥]	﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَفَسَّةٌ مُمْسَكَتٌ...﴾
٢٠٦٠	[٢٧]	﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْزُّبَيْرَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...﴾
سُورَةُ الْحَجَرَاتِ		
٢٠٦١	[١ - ٢]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا فِي يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾
٢٠٦٤	[٦]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾
٢٠٦٦	[٩ - ١٠]	﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا...﴾
٢٠٦٩	[١١]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَمَّا أَنْ يَكُونُوا حُرًّا...﴾
٢٠٧٥	[١٢]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَتَبَيَّنُوا لَكُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ أَكْثَرٌ...﴾
٢٠٨٠	[١٣]	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾
سُورَةُ الزُّمَرِ		
٢٠٨٣	[٣٩]	﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ...﴾
٢٠٨٤	[٤٠]	﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾
سُورَةُ الدَّهْرِ		
٢٠٨٧	[١٩]	﴿وَلَنْ أَمُورُهُمْ حَتَّى لِيَسْأَلُوا وَاللَّعْوِينَ﴾
٢٠٨٨	[٢٥]	﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾
٢٠٨٨	[٢٦ - ٢٧]	﴿فَرَأَى إِلَهُكَ أَفْلَهِمْ فَجَاءَهُ بِعَجَلٍ سَعِينٌ...﴾
سُورَةُ الظُّلُمِ		
٢٠٨٩	[٤٨ - ٤٩]	﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ...﴾
سُورَةُ التَّجْوِيدِ		
٢٠٩٣	[٣٢]	﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كِتَابَ الْإِنشِيرَ وَالْفَوْحِصَ إِلَّا الْقَلِيلُ...﴾
٢٠٩٤	[٣٩]	﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾
٢٠٩٤	[٦١]	﴿وَأَنْتُمْ سَوْدُونَ﴾

الصفحة	رقم الآية	طرف الآية
		سُورَةُ التَّحْوِيَّتِ
٢٠٩٧	[٢٨]	﴿وَلِيَقْتَنِبْهُمْ أَنْ الْمَاءَ فَسَمَاءٌ يَنْتَبِهُ كُلُّ شَيْءٍ مَخْفُوفٍ﴾
		سُورَةُ التَّحْوِيَّتِ
٢٠٩٩	[٩-٧]	﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ...﴾
٢١٠٠	[٥٦]	﴿وَنُفِثَ فَنُفِثَتْ أَلْفُوفٌ لَمْ يُطْلِقْتُمْ إِسْمَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾
		سُورَةُ الْوَاقِعَةِ
٢١٠٣	[٧٩]	﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾
		سُورَةُ الْمُنَافِقَةِ
٢١١١	[٧]	﴿مَأْمُونًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقَضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ...﴾
٢١١٢	[٢٥]	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ...﴾
		سُورَةُ الْحَجَّاتِ
٢١١٣	[٤-٢]	﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ أَنْسَابِهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ...﴾
٢١١٨	[٨-١٠]	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَهْدُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ...﴾
٢١٢١	[١١]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَقَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْقَرَضُوا...﴾
٢١٢٣	[١٢-١٣]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَمَّعَ الرُّسُولُ فَاقْبَلُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ نَفْسًا مَدَّةً...﴾
		سُورَةُ الْمُنَافِقَةِ
٢١٢٥	[٥]	﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْهَا فَأَجْبَئْهُ عَلَى أُسُولِهَا...﴾
٢١٢٧	[٦-٧]	﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ...﴾
		سُورَةُ الْمُتَفَعِّلِينَ
٢١٣١	[٤]	﴿فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْأَمْرِ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾
٢١٣٢	[٨-٩]	﴿لَا يَتَّبِعْكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُتْلَوْكُمْ فِي الَّذِينَ...﴾
٢١٣٥	[١٠-١١]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾
٢١٤٠	[١٢]	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ بِبَيْعَتِكُمْ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا...﴾

طرف الآية رقم الآية الصفحة

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادَوْا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ...﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُودِتِ الصَّلَاةُ مِن بَيْنِ الْجُمُعَةِ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ ذِكْرًا مَّا دُورُوا السَّبْعَ...﴾

سُورَةُ الْفَلَاحِ

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ بِمَدِينَةٍ وَأَحْضُوا إِلَيْهَا...﴾
 ﴿وَمَن يَتَّبِعِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْسِبُ﴾
 ﴿وَالَّذِي يَتَّبِعِ مِن الْغَيْبِ مِن نَّسَائِكُمْ...﴾
 ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِن حَيْثُ سَكَنَ مِن مَّحِلِّكُمْ وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ...﴾
 ﴿لِيُخَفِّقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ...﴾

سُورَةُ النَّحْلِ

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ يَتَّبِعِي مَرَاحَ أَرْوَاحِكُمْ...﴾
 ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حِينًا فَلَمَّا نَبَاتَ بِهِ...﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

- ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّيْنِ﴾
 ﴿وَمَنَّا مَقْتَلَمُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾
 ﴿إِذَا أَقَامُوا لِعَصْرَتِهَا مُصِيبِينَ ۖ وَلَا يَسْتَفُتُونَ﴾

سُورَةُ الْمَعَارِفِ

- ﴿إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ۚ الَّذِينَ هُم عَلَى صَلَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾
 ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَمُومُونَ ۚ لِّسَائِلِ وَالْمَعْرُوفِ﴾
 ﴿وَالَّذِينَ هُم لِأَرْوَاحِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِلَّا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾
 ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْكِي ۚ فَنِ ابْنِ رَبِّكَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

سُورَةُ الْزُّمَرِ

- ﴿قُلْ أَيْدِي إِلَّا قَلِيلًا ۚ يَقْضِيَهُ أَوْ أَقْضَىٰ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ أَوْ رِذَّةٌ عَلَيْهِ﴾

طرف الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاجْهَرْهُمْ فَجَارًا حَيْلًا﴾	[١٠]	٢١٨٨
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن كُلِّ لَيْلٍ وَتَغْفُلُ وَتَلْمِزُ...﴾	[٢٠]	٢١٨٩
سُورَةُ الْمَدَنِيِّينَ		
﴿وَبِأَنكَ تَكْفُرُ﴾	[٤]	٢١٩٢
﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾	[٥]	٢١٩٣
سُورَةُ الْفَاتِحَةِ		
﴿وَقِيلَ مَنْ لَّكُ﴾	[٢٧]	٢١٩٥
﴿وَاللَّهَ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾	[٢٩]	٢٢٠٠
سُورَةُ الْاِنشَاءِ		
﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حِدِّهِمْ مِّسْكًا وَنَيْمًا وَاسِيرًا﴾	[٨]	٢٢٠١
سُورَةُ عَلِيٍّ		
﴿ثُمَّ آمَنَّا فَأَقْبَرُ﴾	[٢١]	٢٢٠٣
سُورَةُ الْاَنْفَالِ		
﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾	[٤]	٢٢٠٥
سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ		
﴿وَبَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ...﴾	[٣ - ١]	٢٢٠٧
سُورَةُ الْاَنْشَاءِ		
﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كَيْفُهُ بِمِيزَانٍ﴾	[٧]	٢٢٠٩
سُورَةُ الْمَاعُونِ		
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	[٥ - ٤]	٢٢١١
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَ الْمَاعُونَ﴾	[٧]	٢٢١٦
سُورَةُ الْبَكْرَةِ		
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَعِزَّ﴾	[٢]	٢٢١٩

الصفحة	رقم الآية	طرف الآية
		سُورَةُ النِّصْرِ
٢٢٢٥	[٣]	﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾
		سُورَةُ الْفَلَقِ
٢٢٢٩	[١]	﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾
		سُورَةُ النَّاسِ
٢٢٢٩	[١]	﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾



